ترجمة : طلعت الشايب

بول جونسون

المثقفون

دراسات ثقافية أجنبية





المثقفون

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

INTELLECTUALS

PAUL JOHNSON

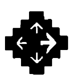
George Weidenfeld & Nicolson Lid.LONDON - 1989

المثقفون

تأليف : پول چونسون

ترجمة : طلعت الشايب

الطبعة الأولى ١٩٩٨



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقى ، هدى شعراوى

الرقم البريدى ١١١١١

باب اللوق ، القاهرة

ت ٣٩٠٢٩١٣ س.ت ٢٦٩١٩٨

غلاف وإخراج : ذات حسين

رقم الإيداع ٩٧/٨٨٤١

الترقيم الدولي ISBN 977-283-058-2

المثقفون

پول چونسون

ترجمة : طلعت الشايب



دار شرقيات للنشر والتوزيع

الفصل الأول

«چان چاك روسو» : ذلك المجنون الممتع !

شهدت المائة عام الأخيرة نموا متزايدا لأثر الدور الذي يقوم به المثقفون، وفي الحقيقة فإن صعود المثقف العلماني كان عاملا أساسيا في صياغة العالم الحديث. وهو أمر إذا نظرنا إليه من المنظور الطويل للتاريخ لوجدنا أنه يعتبر ظاهرة جديدة. صحيح أن المثقفين في صورتهم الباكرة، كرجال دين وكُتّاب ووعاظ، كانوا قد رسخوا الزعم بأنهم يرشدون المجتمع ويهدونه منذ البداية ولكنهم كحراس للثقافات الكهنوتية ـ سواء كانت بدائية أو متقدمة ـ كانت اجتهاداتهم الأخلاقية والأيديولوجية تتم في إطار التقاليد الموروثة وفي حدود السلطة الخارجية، أي أنهم لم يكونوا أرواحا حرة ولا عقولا مغامرة وما كان بإمكانهم أن يكونوا كذلك ، وبانهيار السلطة الكهنوتية في القرن الثامن عشر، ظهر نوع جديد من المعلمين الأوصياء ليملأ ذلك الفراغ ويسيطر على أذن المجتمع.

والمثقف العلماني قد يكون ربوبيا أو شكوكيا أو ملحدا، ولكنه مثل أى حبر أو كاهن كان على استعداد لأن يقول للبشرية كيف تدبر أمورها، وقد أظهر من البداية حرصا على صالح البشرية، وواجبا تبشيريا لكي يعمل على تقدمها بتعاليمه، وقد استخدم لهذا الواجب الذي عينه لنفسه، أسلوبا أكثر راديكالية عن أسلوب السلف الكهنوتي، وأصبح يشعر بأنه غير مقيد بأي قوانين لأي دين أو وحي.

جماع كلمة الماضي، التراث، التقاليد، توجيهات السلف وتجاربه كل ذلك كان أمامه ليختار منه أو ليرفضه برمته، وكما يقرر له إدراكه.

ولأول مرة في التاريخ الإنساني، وبثقة كبيرة وجراءة متزايدة، نهض أناس ليؤكدوا أنهم قادرون على تشخيص الأسقام بالعقل فقط، بل والأكثر من ذلك أنهم يستطيعون استنباط صيغ تمكنهم من تعديل عادات البشر الأساسية إلى الأفضل ... وليس بناء المجتمع فقط.

وعلى عكس أسلافهم الكهنوتيين لم يكونوا خداما أو مفسرين للآلهة وإنما بدلاء لهم، بطلهم كان «بروميثيوس» الذي سرق النار المقدسة ونزل بها إلى الأرض.

ومن أبرز السمات المميزة للمثقفين العلمانيين الجدد ميلهم لإخضاع الدين وأبطاله للتفحص النقدي.

إلى أي مدى أفادت تلك الأنظمة الإيمانية الإنسان أو أضرت به؟ إلى أي مدى كان أولئك القساوسة والباباوات متطابقين مع تعاليمهم الأخلاقية عن الطهارة والصدق والإحسان وحب الخير ؟

إن الأحكام التي صدرت بحق الكنائس والإكليروس كانت قاسية. والآن، بعد قرنين من الزمان تزايد فيهما تقلص أو انهيار أثر الدين، ولعب فيهما المثقفون العلمانيون دورا متناميا في تشكيل توجهاتنا وأنماط سلوكنا، فإن الوقت قد حان لفحص سجلاتهم العامة والخاصة، وأريد على نحو خاص أن أركز على أوراق الاعتماد الأخلاقية والفكرية لأولئك المثقفين الذين كانوا يرشدون البشرية لكي تدبر أمورها. كيف كانوا هم شخصيا يديرون حيواتهم الخاصة ؟ وبأي درجة من الاستقامة كانوا يسلكون ويتعاملون مع الأسرة والأصدقاء والمعارف ؟

هل كانوا أمناء في علاقاتهم الجنسية وتعاملاتهم المالية ؟

هل كانوا يقولون الحقيقة ويكتبون الصدق ؟

ثم، كيف صمدت منظوماتهم الفكرية الخاصة أمام اختبارات الزمن وفي التطبيق العملي ؟

تبدأ التساؤلات بـ «چان چاك روسو» ـ ١٧١٢ : ١٧٧٨ ـ الذي كان أول المثقفين المحدثين، والنموذج البدئي وأكثرهم تأثيرا على أكثر من نحو. وكان رجال أكبر منه سنا مثل «ڤولتير» قد بدأوا عملية هدم الهيكل وإعلاء شأن العقل، ولكن «روسو» كان أول من جمع كل المواصفات البارزة لـ «بروميثيوس» جديد : تأكيد حقه في رفض النظام القائم برمته، ثقة في قدرته على إعادة صياغته من الأساس وفق مبادىء من اختراعه، إعتقاد بأن ذلك يمكن أن يتم من خلال العملية السياسية، ثم أخيرا وليس بآخر : اعتراف بالدور الكبير الذي تلعبه الغريزة والحدس والدوافع في السلوك الإنساني.

كان «روسو» يعتقد أنه يكن للإنسانية حبا لا مثيل له، وأن مواهبه غير المسبوقة ونفاذ بصيرته تزيد من قدرته على التعبير عن ذلك الحب، وعدد مذهل من الناس في عصره ـ ومنذ ذلك الحين ـ اعتبروه كذلك بالفعل مثلما كان يعتبر نفسه.

كان تأثيره هائلا على المدى القصير وعلى المدى الطويل، وعند الجيل الذي تلا موته كان قد وصل إلى مكانة الأسطورة. مات «روسو» قبل الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) بعقد من الزمان، ولكن كثيرا من المعاصرين اعتبروه مسؤولا عنها، وأيضا عن تدمير النظام القديم في أوروبا .. ويشترك في هذا الرأي كل من «لويس السادس عشر» و«نابوليون».

قال «إدموند بيرك» عن النخبة الثورية « هناك خلاف كبير بين قادتهم، وأيهم الأكثر شبها بـ «روسو» .. إنه النموذج المثالي للكمال بالنسبة لهم». وكما قال «روبسبير» نفسه «روسو هو الرجل الوحيد الذي جعل نفسه جديرا بدور معلم البشرية من خلال نبل روحه وعظمة شخصيته»، وخلال الثورة، صوتت

الجمعية الوطنية لصالح نقل رفاته إلى «البانثيون»، وفي الاحتفال أعلن رئيسها : «نحن مدينون لـ «روسو» بالتحسن الذي غير من أخلاقنا وعاداتنا وقوانيننا وتقاليدنا ومشاعرنا»(١). وعلى مستوى أعمق وعلى مدى أطول، فإن «روسو» قد غير بعض الافتراضات الأساسية للإنسان المتحضر، كما غير من ترتيب أثاث العقل البشري، وحجم تأثيره كبير، وإن كان من الممكن تلخيصه تحت خمسة عناوين رئيسية :

أولاً : كل أفكارنا الجديدة عن التربية متأثرة على نحو ما بتعاليم «روسو»، خاصة رسالته «إميل» ـ ١٧٦٢ ـ، لقد اخترع وأشاع الاستمتاع بالطبيعة والإعجاب بها (إعجاب يقارب العبادة) وحب الهواء الطلق والبحث عن الطزاجة والانتعاش والعفوية، وانتقد تعقيدات المدينة واكتشف زيفها وتكلفها.

«روسو» هو أب الحمّام البارد المنعش والتمرين الرياضي المنظم والرياضة وسيلة الشخصية وكوخ الاستجمام في عطلة نهاية الأسبوع(٢).

ثانياً : وعلى صلة بإعادة تقييمه للطبيعة، فقد علّم «روسو» الناس عدم الثقة بالتحسن المضطرد والتدريجي الذي تحدثه المسيرة البطيئة للثقافة المادية، وبهذا المعنى رفض التنوير الذي كان جزءا منه، وراح يبحث عن حل أكثر راديكالية(٣)، كما أصر على أن العقل نفسه كوسيلة لعلاج المجتمع كان ينطوي على أوجه قصور شديدة، على أن ذلك لا يعني أن العقل البشري كان غير كاف لإحداث التغيرات الضرورية، لأنه يخفي مصادر لا يتوقف تدفقها من التبصر الشعري والحدس، والتي يجب أن تستخدم للسيطرة على أمالي العقل المجدبة(٤).

ومواصلة لهذا الخط الفكري كتب «روسو» : «الاعترافات» التي انتهى منها في سنة ١٧٧٠ وأن كانت لم تنشر إلا بعد وفاته.

هذه العملية الثالثة كانت بداية لكل من الحركة الرومانسية والأدب الاستبطاني الحديث، لأنه نقل اكتشاف الفرد الذي هو الإنجاز الأساسي لعصر النهضة خطوة هائلة إلى الأمام، بالتنقيب في الذات الداخلية والخروج بها إلى الفحص العلني.

ولأول مرة رأى القراء القلب من الداخل، ورغم (وكان ذلك أيضا من سمات الأدب الحديث) أن الرؤية كانت خادعة، فإن القلب الذي صور على هذا النحو كان مضللا ، كان صريحا من الخارج ومليئا بالنفاق في داخله.

المفهوم الرابع الذي أشاعه «روسو» كان من بعض جوانبه هو الأكثر انتشارا، فالمجتمع عندما يتطور من حالته الطبيعية البدائية إلى التعقد المديني يفسد الإنسان. وتتحول أنانيته الطبيعية التي يسميها «حب النفس» إلى غريزة أكثر أذى يسميها «الحب الخاص»، والتي تضم الغرور واحترام الذات، ويبدأ كل إنسان في تقييم نفسه بما يعتقده الآخرون عنه، وهكذا يحاول أن يؤثر عليهم بماله ونفوذه وعقله وتفوقه الأخلاقي، وتصبح أنانيته الطبيعية تنافسية مولعة بالكسب، وهكذا يصبح مستلبا نافرا، لا من الآخرين فقط،

الذين يراهم منافسين لا إخوة، بل مستلبا نافرا من نفسه كذلك[٥]. هذه الحالة تسبب مرضا نفسيا للإنسان، يتمثل في الاختلاف الكبير بين المظهر والمخبر.

إن شرور المنافسة كما رآها، والتي تدمر في الإنسان شعوره الطبيعي الذي ولد به، بالمشاركة ، وتشجع كل سماته الشريرة، بما في ذلك الرغبة في استغلال الآخرين، كل ذلك جعله لا يثق في الملكية الخاصة ... مصدر الجريمة الاجتماعية.

ابتكاره الخامس : وكان ذلك على عتبات الثورة الصناعية ، هو تطويره لعناصر نقد الرأسمالية، سواء كان ذلك في مقدمة مسرحيته «نرجس» أو في مقاله عن أصل التفاوت بين الناس، عندما أشار إلى أن الملكية والمنافسة من أجلها، هي السبب الرئيسي للاستلاب[٦]. وكانت تلك من المكونات الفكرية التي كان على «ماركس» وآخرين أن ينقبوا فيها بلا هوادة، إلى جانب فكرة «روسو» عن التطور الثقافي.

«الطبيعي» بالنسبة له يعني «الأصيل»، أي ما قبل الثقافي . كل الثقافة تجلب المشكلات طالما أن ارتباط الإنسان بالآخرين هو الذي يطلق العنان لنزعاته الشريرة : وكما يقول في «إميل» « نَفَسُ الإنسان قاتل لرفاقه الآخرين». وهكذا فإن الثقافة التي يعيش فيها الإنسان، وهي نفسها متغيرة وبنية صناعية، هي التي تملي عليه سلوكه، ويمكنك أن تحسن، أو بالأحرى تغير من سلوك الإنسان تماما بتغيير الثقافة والقوى التنافسية التي انتجتها ـ أي عن طريق الهندسة الإجتماعية. .

هذه الأفكار تغطي مساحة واسعة ويمكن في حد ذاتها أن تكون موسوعة أو دائرة معارف للفكر الحديث. صحيح أنها لم تكن كلها جديدة أو يمكن نسبتها إليه في أصولها، حيث كانت قراءاته واسعة : ديكارت، رابليه، پاسكال، ليبنتز، بايلي، فونتينيل، كورني، پترارك، تاسو، وعلى نحو خاص كان يعتمد على «لوك» و«مونتاني».

«جيرمين دي ستايل» التي كانت تعتقد أنه يمتلك «أسمى ما يمكن أن يمتلكه إنسان من ملكات عقلية» قالت : إنه «لم يخترع شيئا»، وإن كانت قد أضافت : «ولكنه نفخ فيها جميعا تلك النار التي تستخرج خواصها المفيدة».

إن الأسلوب القوي والسهل والطريقة المباشرة والعاطفية التى كتب بها «روسو» هى التى جعلت أفكاره تبدو مليئة بالحيوية والطزاجة، وهكذا وصلت إلى الرجال والنساء مع صدمة الدهشة.

من إذن كان ذلك الكيميائي الذي صنع تلك التركيبة المدهشة من الطاقة الفكرية والأخلاقية؟ كيف استطاع أصلا أن يكتسبها ؟

كان «روسو» سويسريا، ولد سنة ١٧١٢ ، ونشأ كالڤينيا★ والده «اسحق» كان يعمل في صناعة

★ الكالڤينية مذهب كالڤن اللاهوتى الفرنسى البروتستانتى القائل بأن قدر الإنسان مرسوم قبل ولادته .

وإصلاح الساعات ولم يكن ناجحا في مهنته لتورطه في كثير من أعمال الشغب والعنف. أما أمه «سوزان برنارد» فكانت تنحدر من أسرة غنية، ولكنها ماتت بحمى النفاس بعد ولادته بوقت قصير، لم يكن أي من الوالدين ينتمي لتلك الأسر الحاكمة في «جنيف» أو تتكون منها المجالس المحلية، ولكن كان لهما حق التصويت وكافة المزايا القانونية، وكان «روسو» يشعر بوضعه الاجتماعي المتميز، الأمر الذي جعله محافظا بالمصلحة (رغم عدم اقتناعه بذلك فكريا)، كما جعله طوال حياته يحتقر الدهماء الذين لا يملكون حق التصويت، كانت الأسرة ميسورة، لم يكن له أخوات، بل أخ واحد فقط وكان يكبره بسبع سنوات.

كان «روسو» يشبه أمه إلى حد كبير، ولذلك أصبح «دلوعة» والده الأرمل. كانت معاملة «اسحق» له تتأرجح بين الحب الحزين والعنف المخيف. وكان «چان چاك» يدين أسلوب والده في تربيته له، عندما شكا فيما بعد في «إميل» : «إن طموح وجشع وظلم وحكمة الآباء المضللة، وإهمالهم وعدم حساسيتهم، لأكثر ضررا بالأطفال مائة مرة، عن الرقة الغافلة للأمهات».

على أية حال فإن الابن البكر أصبح الضحية الرئيسية لقسوة الأب، وفي عام ١٧١٨ أرسل إلى إصلاحية للأحداث بطلب من الأب على اعتبار أنه كان شريرا لم يجد معه العقاب، وفي سنة ١٧٢٣ هرب ولم يره أحد بعد ذلك . وهكذا فقد كان «روسو» ـ من الناحية الواقعية ـ طفلا وحيدا، وهي حالة يشترك فيها مع كثيرين غيره من قادة الفكر الحديث. ولكن رغم أنه كان مدللا إلى حد ما، إلا أنه خرج من طفولته بإحساس قوي بالحرمان ورثاء للذات «وربما كانت تلك أهم سماته الشخصية»(٧). وقد حرمه الموت بسرعة من كل من والده وزوجة أبيه، كما كره مهنة الحفر التي أرسلوه لكي يتعلمها، وهكذا هرب في سنة ١٧٢٨ ـ أي في الخامسة عشرة ـ وتحول إلى الكاثوليكية لكي يحظى برعاية سيدة تدعى «مدام فرانسواز لويز ـ دي وارينز» كانت تعيش في «آينسي». أما تفاصيل عمل «روسو» في مراحله الباكرة كما وردت في «الاعترافات» فلا يمكن الوثوق بها، ولكن رسائله الخاصة والمصادر الواسعة التي تناولته فقد تم استخدامها للحصول على الحقائق البارزة في حياته(٨).

كانت «مدام دي وارينز» تعتمد في حياتها على معاش ملكي فرنسي ويبدو أنها كانت تعمل لدى كل من الحكومة الفرنسية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية. عاش «روسو» معتمدا على إنفاقها عليه حوالي أربعة عشر عاما (ما بين ١٧٢٨ ـ ١٧٤٢) وكان عشيقها في فترات مختلفة أثناء تلك المدة، عاش حياة فاشلة حتى الثلاثين من عمره وكان عالة على بعض النسوة، جرب حظه في ثلاث عشرة حرفة : حفار، خادم، طالب لاهوت، موسيقي، موظف، مدرس، مزارع، صراف، كاتب نوتةموسيقية، سكرتير خاص، كاتب ... وفي عام ١٧٤٣ حصل على وظيفة جيدة ليعمل سكرتيرا للسفير الفرنسي في ڤينيسيا «الكونت دي مونتايجو». شغل الوظيفة أحد عشر شهرا وانتهى الأمر بطرده وهروبه ليتجنب القبض عليه من قبل السلطات في ڤينيسيا.

يقول «مونتايجو» (وهو ما نفضله على ما يقوله «روسو») : إن سكرتيره كان محكوما عليه بالفقر

بسبب «ميوله الكريهة» و«وقاحته التي لا توصف» والناجمة عن «حماقاته وغروره»(٩).

ولعدة سنوات كان «روسو» يعتقد أنه ولد كاتبا، كان ماهرا في استخدام الكلمات وفي تحويل الحالة إلى حروف دون اعتبار كبير للحقائق. وكان يمكن أن يكون محاميا بارعا.

(أحد الأسباب التي جعلت «مونتايجو» ـ وهو رجل عسكري ـ يكرهه، عادته وهو يكتب ما يمليه عليه. كان «روسو» يتثاءب متباهيا، أو يسير نحو النافذة والسفير يبحث عن الكلمة المناسبة)، وفي سنة ١٧٤٥ التقي «روسو» غسالة ملابس شابة اسمها «تيريزا لافاسير» كانت تصغره بعشر سنوات، قبلت المرأة أن تكون عشيقته بشكل دائم، الأمر الذي منحه بعض الاستقرار في حياته. وفي نفس الوقت كان قد التقي «دينس ديدور» ونمت بينهما صداقة. كان «ديدرو» أبرز شخصيات عصر التنوير، وأصبح فيما بعد رئيسا لتحرير دائرة المعارف. كان مثل «روسو» ابنا لأحد الحرفيين ثم أصبح النموذج الحقيقي للكاتب العصامي الذي صنع نفسه بنفسه. كان رجلا طيبا، وراعيا مخلصا للمواهب، و«روسو» مدين له بالكثير. وعن طريقه التقى بالناقد الأدبي الألماني والدبلوماسي «فردريك ميلكوار جريم»، الذي كان ذا مكانة اجتماعية بارزة، وأخذه «جريم» إلى الصالون الراديكالي الشهير للبارون «دو هو لباخ» الذي كان يعرف بـ «ميتر دوتيل الفلسفة» . كان نفوذ المثقفين الفرنسيين في بدايته وكان يتنامى في النصف الثاني من القرن، ولكن في أربعينيات وخمسينيات القرن الثامن عشر كان وضعهم كنقاد للمجتمع مايزال ضعيفا . كانت الدولة عندما تشعر بالتهديد يمكن أن تستدير إليهم فجأة، وقد جأر «روسو» فيما بعد بالشكوى من الاضطهاد الذي كان يعانيه، والحقيقة أنه كان يتحمل أقل مما كان يتحمل معظم معاصريه، «فولتير» مثلا، ضرب بالعصا علنا بواسطة خدم أحد الارستقراطيين الذين ضايقهم، وقضى قرابة السنة في «الباستيل». والذين كانوا يبيعون الكتب الممنوعة آنذاك، كان يمكن أن يقضوا عشر سنوات في التجديف على السفن الشراعية كنوع من العقاب، وفي يوليو ١٧٤٩ ألقي القبض على «ديدرو» ووضع في الحبس الانفرادي في قلعة «ڤانسان» لأنه نشر كتابا يدافع عن الإلحاد ... وقضى في الحبس ثلاثة شهور. زاره «روسو» في سجنه، وفي طريقه إلى «ڤانسان» قرأ إعلانا في الجريدة، نشرته أكاديمية «ديجون» للآداب عن مسابقة لكتابة مقال عما إذا كانت نهضة العلوم والفنون قد ساهمت في تحسين الأخلاق. هذا الحدث الذي وقع في سنة ١٧٥٠ كان نقطة تحول في حياة «روسو»، ففي ومضة إلهام رأى ما ينبغي عليه أن يفعله.

من الطبيعي أن غيره ممن سيتقدمون للمسابقة، سوف يدافعون عن العلوم والفنون، أما هو فسوف يناقش مسألة تفوق الطبيعة وأولويتها. وفجأة ـ كما يقول في اعترافاته ـ تصور حماسا طاغيا للحق والحرية والفضيلة. يقول : إنه أعلن لنفسه : «الفضيلة ... الحق ... سوف أهتف دائما : الفضيلة .. الحق ...» ويضيف أن صديريته قد «غرقت بالدموع التي كنت أذرفها دون أن أدري».

هذه الدموع التي انثالت من عينيه قد تكون حقيقية، لأن دموعه كانت دائما تحت الطلب ! والمؤكد

أن «روسو» قد قرر هناك وآنذاك أن يكتب المقال على خطوط، أصبحت جوهر عقيدته. وحصل على الجائزة بذلك الأسلوب الظاهري التناقض وأصبح شهيرا بين عشية وضحاها.

وهنا نحن أمام حالة رجل في التاسعة والثلاثين من العمر، فاشل حتى الآن ويشعر بالأسى، يتوق إلى الانتشار، يسعى إلى الاهتمام به وأخيرا يجد النغمة الصحيحة.

المقالة التي كتبها ضعيفة ولا تصلح للقراءة اليوم . وكما هي العادة دائما عندما ينظر المرء إلى حدث أدبي كهذا، يبدو من الصعب أن نفسر كيف أن عملا رديئا على هذا النحو استطاع أن يحدث ذلك الانفجار من الشهرة، وقد كتب الناقد الشهير «جوليوس لوميتر» يصف ذلك التأليه الفوري لـ «روسو» بأنه : «أحد الأدلة القوية على الغباء الإنساني»[١٠].

إن نشر «مقال في العلوم والفنون» لم يجعل «روسو» غنيا، فرغم أنه وزع على نطاق واسع، واستثار ما يقرب من ثلاثمائة رد مكتوب إلا أن عدد النسخ المباعة كان محدودا. والذي أثري من وراء ذلك هو باعة الكتب[١١]. من جانب آخر أعطاه ذلك فرصة لدخول عدد من بيوت الأرستقراطية التي كانت تفتح أبوابها للمثقفين الجدد. كان «روسو» بإمكانه ـ وكان يفعل ذلك أحيانا ـ أن يعيش على نسخ النوت الموسيقية (كان خطه جميلا)، ولكنه بعد عام ١٧٥٠ كان في وضع يسمح له بالعيش دون اعتماد على كرم الأرستقراطية، باستثناء (وقد حدث ذلك كثيرا) عندما كان يختار أن يفتعل شجارا عنيفا مع بعضهم، أما بالنسبة للمهنة، فكان قد أصبح كاتبا محترفا. كانت أفكاره خصبة، وعندما يجلس لكتابتها كانت تخرج سهلة وبطريقة جيدة.

ولكن تأثير كتبه كان مختلفا على نحو بيّن، سواء في حياته أو على مدى فترة طويلة بعد وفاته[١٢]. كتاب «العقد الاجتماعي» الذي يُعتقد دائما أنه يحتوي على فلسفته السياسية الناضجة، والذي بدأ كتابته في سنة ١٧٥٢ ونشر بعد ذلك بعشر سنوات، نادرا ما كان يقرأ في حياته. وقد أعيدت طباعته مرة واحدة في سنة ١٧٩١ ، وبمراجعة خمسمائة مكتبة معاصرة، اتضح أن واحدة منها فقط هي التي تحتفظ بنسخة واحدة منه.

الباحثة «جوان ماكدونالد» التي نظرت في «١١١٤» كتابا سياسيا نشرت بين عامي ١٧٨٩ و١٧٩١ وجدت بها اثنتي عشرة إشارة إليه فيها جميعا[١٣]، وكما علقت قائلة : «من الضروري أن نفرق بين تقديس «روسو» وأثر فكره السياسي»، ذلك التقديس الذي بدأ بمقالة الجائزة، ثم تنامى بقوة، كان يتمركز حول كتابين. الكتاب الأول هو رواية «هلويز الجديدة» وعنوان فرعي «رسائل عاشقين» وهي على نسق رواية «ريتشارد سن» : «كلاريسا»، رواية مطاردة وإغواء وندم وعقاب امرأة شابة، كتبت بمهارة غير عادية لترضي الميول الشهوانية للقراء خاصة النساء، وعلى نحو أخص السوق المزدهرة لنساء الطبقة المتوسطة ومفاهيمهن للأخلاق، مادة الرواية صريحة بمقاييس ذلك الوقت ولكن الرسالة النهائية صحيحة. وقد اتهمها رئيس أساقفة باريس بأنها «تنفث سم الرغبة في الوقت الذي تبدو فيه وكأنها تحرمه»، ولكن ذلك

ساعد على زيادة توزيعها، كما ساعد على ذلك أيضا المقدمة التي كتبها لها «روسو» بكل دهاء والتي يؤكد فيها على أن أي فتاة تقرأ منها صفحة واحدة هي روح ضالة، مضيفا أن «البنات العفيفات لا يقرأن قصص الحب»، والواقع أن كل العفيفات والفضليات والمحترمات قرأنها، وكن يدافعن عن أنفسهن بالاستشهاد بتعقيباتها الأخلاقية.

وباختصار فإنها كانت من أكثر الكتب مبيعا، رغم أن معظم النسخ المشتراة كانت مزورة.

الإعجاب بـ «روسو» الذي وصل إلى درجة العبادة تزايد في سنة ١٧٦٢ مع نشر «إميل» التي أطلق فيها عددا كبيرا من الأفكار عن الطبيعة واستجابة الإنسان لها، والتي كان من المقدر لها أن تكون عربة الطعام للعصر الرومانسي كله لولا أنها كانت جديدة وبدائية آنذاك، والكتاب مكتوب بذكاء بالغ الهندسة لكي يجذب أكبر عدد من القراء، ولكن من جانب ما، كان «روسو» ماهرا أكثر من اللازم بالنسبة لصالحه. كان جزءا من توقه المتزايد لكي يكون نبيا للحق والفضيلة، أن يرسم حدود العقل ويمهد لمكان الدين في قلوب الناس، ولذلك ضمَّنَ «إميل» فصلا بعنوان «مهنة الإيمان»، يتهم فيه رفاقه من مثقفي التنوير، خاصة الملحدين أو حتى المؤمنين بالربوبية، بالغطرسة والجمود « يعلنون حتى من خلال ما يدعونه بالشك أنهم يعرفون كل شيء» غير مدركين للضرر الذي يسببونه للرجال وللسيدات المحتشمات بتقليلهم من شأن الإيمان، «إنهم يحطمون ويسحقون تحت أقدامهم كل ما يوقره الناس، ويسرقون من الذين يعانون السلوى التي يستمدونها من الدين، كما يأخذون القوة الوحيدة التي تكبح أهواء الأقوياء والأغنياء».

كانت مادة على درجة عالية من التأثير، ولكي يجعلها متوازنة، شعر «روسو» بضرورة توجيه النقد للكنيسة القائمة كذلك، خاصة تقديسها للمعجزات وتشجيعها للخرافة. ولكي يحبط مزوري الكتب، كان يقوم بتوزيع نسخ الكتاب بنفسه. كان قد أصبح بالفعل مشبوها في نظر الإكليروس الفرنسي كمرتد مزدوج : لأنه كان قد تحول إلى الكاثوليكية ثم إلى الكالڤينية لكي يستعيد حق المواطنة في «جنيف»، ولذلك فإن مجلس النواب الفرنسي الذي كان يسيطر عليه الچانسينست* قد اعترض بشدة على العواطف والأفكار المضادة للكاثوليكية التي جاءت في «إميل»، وقام بإحراق الكتاب أمام قصر العدل وأصدر أمرا بالقبض على «روسو»، لم ينقذه منه إلا تدخل بعض أصدقاء له ممن يشغلون مناصب عليا في الوقت المناسب، ولذلك ظل هاربا لعدة سنوات.

الكالڤينيون أيضا اعترضوا على «إميل»، وحتى خارج المساحة الكاثوليكية كان مضطرا للانتقال من مدينة إلى أخرى، ولكنه كان لا يعدم حماة أقوياء يقفون إلى جواره في بريطانيا (حيث قضي خمسة عشر شهرا في ١٧٦٦ ـ ٦٧) وفي فرنسا عندما عاش هناك ابتداء من ١٧٦٧.

وأثناء العقد الأخير من حياته فقدت الدولة الاهتمام به، وأصبح أعداؤه الرئيسيون من بين زملائه

★ أعضاء مذهب لاهوتي يقول بفقدان حرية الإرادة وبأن الخلاص من طريق موت المسيح مقصور على فئة قليلة.

المثقفين، خاصة «ڤولتير». ولكي يرد عليهم كتب «روسو» «الاعترافات» التي أكملها في باريس حيث استقر في ١٧٧٠. إنه لم يجرؤ على نشرها ، ولكنها عرفت عن طريق البيوت الراقية التي كانت تقرأ فيها. وعندما مات في سنة ١٧٧٨ كانت سمعته على حافة ازدهار جديد اكتمل باستيلاء الثوار على السلطة. استمتع «روسو» بنجاحات كثيرة حتى في حياته. وبعين منصفة لايبدو أنه كان لديه الكثير الذي يستحق أن يتذمر منه، إلا أنه كان أحد كبار المتذمرين دائمي الشكوى في تاريخ الأدب، فهو يصر على أن حياته كانت حافلة بالاضطهاد والبؤس، ويكرر شكاواه بأساليب شتي، حتى يضطر المرء في النهاية لتصديقها، ومن ناحية أخري كان شديد العناد : كان يعاني من اعتلال الصحة «بائس، تعس، هده المرض، ..... أعاني وأكافح كل يوم في حياتي وأنا بين الألم والموت»، «لم أنم منذ ثلاثين عاما» ويضيف ... «إن الطبيعة التي شكلتني من أجل المعاناة أعطتني وقاية ضد الألم لكي تكون محسوسة بنفس الدرجة التي لا تستطيع بها أن تنهك قواي»(١٤)، وصحيح أنه كان يعاني من متاعب في عضوه. في رسالة إلى صديقه الدكتور «ترونكين» كتبها في سنة ١٧٥٥ يشير إلى «تشوه خلقي في العضو ولدت به». وبعد تشخيص جيد كتب «ليستر كروكر» كاتب سيرته يقول :

«أنا واثق من أن «چان چاك» ولد ضحية للهيبوسبادياس وهو تشوه في القضيب يكون فيه مجرى البول مفتوحا في مكان ما أعلى السطح اللحمي»(١٥).

وعند البلوغ كان ذلك عاهة تستدعي إجراء عملية قسطرة مؤلمة، الأمر الذي عمق المشكلة نفسيا وجسديا.

كان يشعر دائما بالرغبة في التبول، وكان ذلك يسبب له مشاكل عندما كان يعيش في المجتمع الراقي. كتب يقول : «مازلت أرتعد عندما أتذكر نفسي وسط جمع من النساء مضطرا للانتظار حتى الانتهاء من حديث جميل ... عندما أجد في النهاية سلما مضاء، يكون هناك أيضا نساء أخريات يؤخرنني .. ثم فناء مملوء بعربات لا تكف عن الحركة يمكن أن تدهسني ... سيدات ينظرن إليّ ... خدم يصطفون أمام الجدران ويضحكون عليّ، لا أستطيع أن أجد حائطا واحدا أو ركنا معزولا يفي بالغرض، باختصار يمكنني فقط أن أبول على مرأى من الجميع، وربما على ساق نبيلة في جورب أبيض»(١٦)، وهذه العبارة فيها رثاء للذات ، كما توحي مع دلائل أخرى أن صحته لم تكن بذلك السوء الذي كان يريد أن يصوره. حيث يشير في أحيان أخرى ـ وعندما يكون ذلك مناسبا لأفكاره ـ إلى صحته الجيدة. فالأرق الذي يتحدث عنه محض خيال، حيث يشهد كثيرون بأن صوت شخيره كان يسمع وهو نائم ملء جفونه. كتب «ديڤيد هيوم» الذي رافقه في رحلة إلى انجلترا يقول عنه :

«إنه من أقوى الرجال الذين عرفتهم في حياتي، لقد قضى عشر ساعات من الليل على ظهر السفينة في ظروف جوية بالغة القسوة، وبينما كان البحارة جميعا يتجمدون تقريبا من شدة البرد، لم يحدث له أي شيء»(١٧) وسواء كان قلقه المستمر على صحته له ما يبرره أم لا ، فإنه كان المحرك الرئيسي لرثاء الذات

الذي كان يتملكه ويرفد جميع مراحل حياته.

وفي عمر باكر نسبيا، كان من عادته أن يروي ما كان يطلق عليه «حكايته» بغرض استدرار عطف النسوة من ذوات الأصول الراقية، كان يسمي نفسه « أكثر الأحياء تعاسة» ويتحدث عن «القدر الحزين الذي يلازم خطواتي ملازمة الكلب لصاحبه»، ويزعم أن «قلة من البشر هم الذين سفحوا ذلك القدر من الدموع»، ويصر على أن «قدري لا يمكن أن يصفه أحد، ولن يصدقه أحد» ... والواقع أنه وصفه كثيرا، وصدقه كثيرون حتى عرفوا الكثير عن شخصيته. ورغم ذلك كله كان يحظى بالتعاطف. «مدام دي ايبناي» راعيته التي كان يعاملها بازدراء كانت تقول عنه حتى بعد أن عرفته على حقيقته: «مازلت أتأثر بشدة بالأسلوب البسيط المعبر الذي يحكي به عن سوء حظه والكوارث التي تحل به». كان بلغة الجيوش مثل المحارب القديم، المحتال، المتمرس، الذي يسلب الآخرين بعد أن يكسب ثقتهم، ولذلك لا يندهش المرء عندما يعرف أنه كان في شبابه يكتب خطابات الاستجداء وقد بقي أحد تلك الخطابات. كان قد كتبه إلى حاكم «ساڤوي» يطلب منحه معاشا على أساس أنه يعاني من مرض خطير مُشوِّه وأنه سوف يموت قريبا(١٨).

وراء رثاء الذات كانت هناك أنانية مفرطة وإحساس بأنه ليس كالآخرين، سواء في صفاته أو في درجة معاناته. كتب يقول: «كيف يمكن أن يكون بؤسي وبؤسك سواء بسواء. إن بؤسي لا مثيل له، لم يسمع بمثله أحد منذ بدء الخليقة» «على نفس الدرجة فإن الإنسان الذي يمكن أن يحبني كما أحب لم يولد بعد»، «إن موهبة الحب التي لدي لم تتوفر لأحد قبلي»، «ولدت لأكون أفضل صديق في الوجود»، «سوف أترك هذه الحياة لو علمت أن هناك من هو أفضل مني»، «أرني إنسانا أفضل مني، قلبا أكثر حبا، أكثر رقة، أكثر إحساسا»، «سوف تكرمني الأجيال القادمة لأنني جدير بذلك»، «أنا مبتهج بنفسي .. وعزائي في احترامي لذاتي»، «لو أن هناك حكومة واحدة مستنيرة في أوروبا لأقامت لي التماثيل»(١٩). ولا عجب إذن أن يقول عنه «بيرك»: «كانت خطيئته الغرور القريب من الجنون» كان جزءا من غرور «روسو» أن يعتقد أنه ليس مؤهلا للعواطف الخسيسة. «أنا أكبر من أن أكره» ... «أحب نفسي لدرجة أنني لا أكره أحدا». «لم أعرف في حياتي عاطفة الكراهية ولم تعرف الغيرة أو الشر أو الدناءة طريقها إلى قلبي، وإن كنت أغضب أحيانا إلا إنني لست مخادعا ولم أحمل ضغينة في حياتي».

والحقيقة أنه حمل ضغائن كثيرة وكان مخادعا باستمراره في حملها، وقد لاحظ ذلك كثيرون.

كان «روسو» أول مثقف يعلن عن نفسه مرارا وتكرارا أنه صديق للبشر جميعا، ولكن مع هذا الحب العام للبشرية كان لديه ميل شديد للخصام والشجار مع الأفراد من البشر. كتب صديقه السابق في «جنيف» دكتور ترونكين ـ أحد ضحاياه ـ يقول:

«كيف نصدق أن صديق البشرية لم يعد صديقا لأحد، أو أنه نادرا ما يكون كذلك؟»، ورد «روسو» مدافعا عن حقه في توبيخ من يستحقون ذلك بقوله: «أنا صديق البشرية، والناس موجودون في كل

مكان. وصديق الحقيقة يصادف بشرا حاقدين أيضا في كل مكان، وأنا لست في حاجة لأن أذهب بعيدا»[٢٠]. وطالما أن «روسو» كان أنانيا ومغرورا وميالا للخصام .. فلماذا كان حرص عدد كبير من الناس على مصادقته ؟ تأخذنا الإجابة عن هذا السؤال إلى صميم شخصيته وإلى المغزى التاريخي. بالمصادفة أحيانا، وبالغريزة أحيانا، وبالحيلة المدروسة أحيانا أخرى، كان «روسو» أول مثقف يستغل آثام الأثرياء والموسرين على نحو منتظم.

وقد فعل ذلك أيضا بطريقة جديدة وبوقاحة منظمة. كان نموذجا لشخصية العصر الجديد .. الشاب الغاضب، ولم يكن بطبيعته ضد النزعة الاجتماعية، ومنذ عمر باكر كان يريد أن يلمع في المجتمع ... وعلى نحو خاص كان يبحث عن ابتسامات النساء .. كتب يقول : «عاملات الخياطة والبائعات والخادمات لسن مرادي .. بغيتي صغيرات السن» ، ولكنه كان شخصا تعوزه الكياسة والدماثة وكان في جوانب كثيرة من شخصيته جلفا سيء التربية. محاولاته الأولى للدخول إلى المجتمع في أربعينيات القرن الثامن عشر عن طريق ممارسة لعبة المجتمع نفسه كانت فاشلة تماما، ألاعيبه الأولى لكسب ود سيدة مجتمع متزوجة كانت كارثة مهينة[٢٢]. إلا أنه بعد أن كشف له نجاح مقالته عن العائد الجيد من جراء اللعب بورقة الطبيعة لجأ إلى تغيير أسلوبه ، وبدلا من محاولة إخفاء جلافته أصبح يؤكدها ويجعل منها فضيلة وقد نجحت هذه الاستراتيجية. كان من المعتاد بين المثقفين في طبقة النبلاء الفرنسيين، والذين كانوا قد بدءوا يستشعرون القلق من النظام القديم بسبب الفوارق الطبقية أن يزرعوا بينهم كتابا مثل التعويذة لدفع الشر. كتب الناقد «س.ب.دوكلوز» يقول : بين النبلاء، حتى أولئك الذين لا يحبون المثقفين، من يتظاهر بفعل ذلك ... كان ذلك هو السائد»[٢٣] ، وعليه، فإن معظم الكتاب الذين حظوا بالرعاية كانوا يحاولون محاكاة الأفضل منهم. ولكنه بفعل العكس، أصبح «روسو» أكثر إمتاعا وتسلية وأصبح مطلوبا أكثر من غيره ليغشى الصالونات الراقية ... «وحش من وحوش الطبيعة» أو «دب ذكي» ، كما كان يحلو لهم أن يسمونه، وبوضوح شديد كان يؤكد العاطفة في مواجهة العرف ونبض القلب في معارضة العادات. يقول : «عواطفي يجب ألا تختفي، هي التي تعفيني من أن أكون مهذبا» ويعترف بأنه «فظ وبغيض ووقح من حيث المبدأ، ولا أكترث قيد أنملة بحاشيتكم فأنا شخص همجي» أو «بداخلي أشياء تمنعني من أن أكون حسن الخلق» ، هذا التوجه كان يتلاءم تماما مع أسلوبه الذي كان أكثر بساطة من أسلوب معظم الكتاب المعاصرين. كانت مباشرته تناسب تناوله الصريح لموضوع الجنس، وروايته «هلويز الجديدة» كانت من أولى الروايات التي تتحدث عن أشياء مثل «كورسيه» السيدات . وقد أبرز «روسو» رفضه التفاخري لقواعد السلوك الاجتماعي ببساطة محسوبة وملابس فضفاضة أصبحت فيما بعد من السمات المميزة لكل الشباب الرومانسي. وكتب فيما بعد «بدأت الإصلاح بملابسي، تخليت عن اللاسة الذهبية والجوارب البيضاء، ووضعت على رأسي باروكة مستديرة. تركت سيفي وبعت ساعتي» بعد ذلك كان الشعر الطويل وما كان يسميه بـ «اللحية الشعثاء المهملة».

كان أول المثقفين ذوي الشعر المنكوش. وعلى مدى السنوات استطاع أن يلفت الاهتمام العام إلى ما

يرتديه من ثياب، رسمه «آلان رامسي» في «نيف شاتيل» وهو يرتدي روبا أرمينيا أشبه بالقفطان. كان يلبسه حتى وهو ذاهب إلى الكنيسة، احتج عليه ناس المدينة في البداية ولكنهم سرعان ما اعتادوا عليه ليصبح علامة من علاماته المميزة، وقد لبسه فعلا في مسرح «دروري لين» أثناء زيارته الشهيرة لانجلترا، وكان حريصا على رد تحية الجماهير لدرجة أن السيدة «چارك» اضطرت للتعلق بالروب لكي تمنع سقوط «روسو من المقصورة»(٢٤).

كان خبيرا ممتازا في الدعاية لنفسه سواء بوعي أو بدون وعي : أطواره الغريبة، فظاظته الاجتماعية، تطرفه الشخصي، حتى شجاراته ... كل ذلك كان يجذب نحوه قدرا كبيرا من الاهتمام، وكان دون شك جزءا من سبب إعجاب الأرستقراطيين الذين كانوا يرعونه والقراء الذين كانوا مفتونين به. وسوف نرى ـ كحقيقة مؤكدة ـ أن العلاقات العامة والشخصية حتى عن طريق غرابة الملبس والمظهر كانت من أهم عوامل نجاح كثير من المثقفين الكبار. «روسو» هو الذي قاد المسيرة في هذا الاتجاه مثل اتجاهات أخرى كثيرة.

ومن ذا الذي يستطيع القول : إنه كان مخطئا ؟ إن معظم الناس يقاومون الأفكار، خاصة الجديد منها ولكن الشخصية تخلب ألبابهم ... تبهرهم. والإسراف والمبالغة في الشخصية هو أحد وسائل تغليف قرص الدواء بالسكر ليحسن ابتلاعه، وليتم إغراء العامة للنظر إلى الأعمال المتعلقة بالأفكار. وكجزء من أسلوبه للحصول على الشهرة والاهتمام به والعرفان له، فإن «روسو» الذي كان خبيرا أيضا بعلم النفس، جعل من الجحود الذي هو أبغض الخطايا فضيلة اجتماعية. لم يكن الجحود في نظره خطيئة. وبينما كان يتظاهر بالعفوية إلا أنه كان حذرا وماكرا، وحيث أنه كان قد أقنع نفسه بأنه كان ـ وبمعنى الكلمة ـ أفضل البشر أخلاقا، فمن المنطقي أن يكون الآخرون أكثر منه حذرا ومكرا منطلقين من دوافع أسوأ مما كان لديه، ومن هنا فإنهم في تعاملاتهم معه يحاولون أن يخدعوه، ولكنه لابد أن يفوقهم حيلة ودهاء. والأساس الذي كان يعتمد عليه في تعامله مع الآخرين بسيط جدا : هم يعطون وهو يأخذ !

وكان يدعم ذلك بحجة وقحة : بسبب تفرده، فإن أي شخص ساعده إنما يجامل نفسه ! وقد أرسى هذا الأسلوب في رده على رسالة أكاديمية «ديجون» التي منحته جائزتها. كتب يقول إن مقاله قد أخذ الخط غير المألوف للصدق «وبكرمكم في تكريم شجاعتي، إنما تكرمون أنفسكم أكثر. نعم أيها السادة إن مافعلتموه من أجل تشريفي لهو تاج من الغار يضاف إلى رصيدكم»، وقد استخدم نفس الأسلوب عندما جلبت له شهرته مواقف تكريم مشابهة، وأصبح ذلك بمثابة طبيعة ثانية فيه. في البداية كان يصر على أن ذلك كله لم يكن أكثر مما يستحق. «كإنسان مريض فإن لي الحق في هذا التدليل الذي تقدمه البشرية لمن يتألمون»، أو «أنا مسكين وفي حاجة إلى معروف خاص». ويستمر في قبول المساعدات والمنح والهبات تحت ضغط يقول إنه يجعله حزينا «عندما أستسلم للتوسل المستمر لقبول هبة أو عطية فإنما أفعل ذلك من أجل السلام والهدوء أكثر منه من أجل مصلحتي، ومهما كلف ذلك مانحها ـ وهو مدين لي بالفعل ـ فإنه

يكلفني أكثر منه». لم يلتزم بواجب اجتماعي من أي نوع. «فكرتي عن السعادة هي ألا يكون عليّ أن أفعل شيئا بالمرة لا أريد أن أفعله». وضع شروطا لقبول منزل ريفي أهدي إليه. كتب إلى أحد مضيفيه : «أنا مصر على أن تتركني على حريتي تماما»، «لو سببت لي أي إزعاج فلن تراني بعد اليوم». خطابات الشكر ـ إن جاز لنا أن نسميها كذلك ـ كانت وثائق بعيدة كل البعد عن اللياقة. يقول في واحد منها :

«شكرا على الزيارة التي طاردتني لكي أقوم بها، وكان من الممكن أن يكون شكري لك أكثر حرارة لو أنك لم تجعلني أتحمل الكثير في سبيلها»(٢٥).

وكما أشار أحد كتاب سيرته، فإن «روسو» كان كثيرا ما ينصب الفخاخ للناس، كان يؤكد على فقره وصعوبة حياته، وعندما يعرضون عليه المساعدة يجعلهم يشعرون بالأذى وربما بالنقمة. مثلا : «اقتراحك أصاب قلبي بالتجمد، إنك تسيء فهم مصلحتك عندما تحاول أن تجعل صديقك خادما لك»، ويضيف «أنا على استعداد لأن أستمع إلى ما تعرضه عليّ بشرط أن تعرف أنني لست للبيع»، وهكذا يحار صاحب الدعوة، ويكون عليه أن يقدمها بشروط «روسو»(٢٦).

ومن مهاراته السيكولوجية أن يقنع الناس، حتى من هم أرقى منه اجتماعيا، أن كلمات الشكر العادية ليست في قاموسه، ولذلك نجده يكتب إلى «دوقة مونتمورنسي ـ لكسمبورج» التي منحته قصرا ريفيا للإقامة فيه : «أنا لا أمدحك ولا أشكرك، ولكني أعيش في منزلك، ولكل إنسان لغته الخاصة، وقد قلت كل شيء بلغتي»، وقد انطلت الحيلة جيدا حيث ردت «الدوقة» معتذرة : «ليس عليك أن تشكرنا، أنا والمارشال مدينان لك»(٢٧).

كان «روسو» مهيئا ليعيش هكذا ... وكان يحرص على ذلك. وإضافة إلى حرصه الشديد، وحساب كل شيء، كانت هناك درجة من جنون العظمة لم تسمح له أن يرضى بحياة كلها دعة وتطفل. كان كثير الشجار ـ وبعنف شديد ـ مع كل الذين تعاملوا معه تقريبا، خاصة الأصدقاء منهم. ومن المستحيل أن ندرس كل تلك الخصومات المتكررة والمؤلمة دون أن نخرج منها بنتيجة مؤداها أنه كان مريضا عقليا.

وقد تعايش مرضه مع عبقرية أصيلة وعظيمة، ولكنه كان تعايشا خطرا عليه وعلى الآخرين، والاقتناع بهذا الرأي كان تعاطفا أوليا مع مرضه، ولولا موهبته لكان قد تحول إلى مأساة شخصية. إن موهبته ككاتب هي التي حققت له القبول والشهرة والانتشار، وكان ذلك دليلا على أن اقتناعه بأنه دائما على صواب لم يكن حكما ذاتيا، وإنما هو اعتراف واقتناع من كل العالم باستثناء أعدائه بالطبع، وأولئك الأعداء ـ في كل الأحوال ـ كانوا من بين أصدقائه السابقين أو المحسنين إليه ، الذين حاولوا أن يستغلوه أو يدمروه تحت ستار الصداقة (هكذا أدرك بعد أن انفصل عنهم). لم يكن يعرف شيئا اسمه الصداقة المنزهة عن الغرض، وحيث إنه كان أفضل من الآخرين وحيث إنه لم يكن يحس بذلك فلم يحس بها الآخرون. من هنا كان يحلل كل تصرفات أصدقائه معه جيدا من البداية، وبمجرد أن يشعر بخطوة لا تعجبه كان ينقلب عليهم. تشاجر مع «ديدرو» الذي كان مدينا له بالكثير، تشاجر مع «جريم». حدثت

بينه وبين «مدام ديبناي» قطيعة قاسية وفاجعة رغم أنها أكبر وأكثر من أحسنوا إليه وعطفوا عليه. تشاجر مع «ڤولتير» ولكنه لم يكن شجارا حادا، تشاجر مع «ديڤيد هيوم» الذي كان يعتبره شهيدا أدبيا وأحضره إلى انجلترا حيث استقبل استقبال الأبطال وبذل قصارى جهده لكي يجعل زيارته ناجحة. وكانت هناك مشاجرات مع آخرين مثل صديقه دكتور «ترونكين» في «چنيف» وإن كانت أقل وطأة. وقد دون «روسو» معظم تلك الشجارات والمعارك الكبيرة في خطابات احتجاج طويلة، وهي وثائق من أهم أعماله النابهة ومعجزات بلاغية مبهرة يفبرك فيها الأدلة بمهارة وذكاء ويزيف فيها التاريخ ويكتبه بطريقة مربكة من الناحية الزمنية لكي يثبت لمتلقي الخطاب أنه وحش أو وغد. الخطاب الذي كتبه إلى «هيوم» (١٠ يوليو ١٧٦٦) مكون من ١٨ صفحة ويصفه كاتب سيرة «هيوم» بأنه «متسق تماما مع العتة الذهني، كما يظل واحدا من أذكي وأبرع الوثائق التي أبدعها عقل مشوش»(٢٨).

وبالتدريج، أصبح «روسو» مقتنعا بأن تلك الأعمال الفردية العدائية ضده من قبل أفراد كانوا يدَّعون حبه، كانت كلها ضمن مخطط عام يستهدفه. كانوا كلهم شركاء في خطة متشعبة طويلة المدى لإحباطه وإزعاجه، وربما لتدمير كل أعماله. وعندما نظر في حياته الماضية اكتشف أن المؤامرة كانت تعود إلى أيام أن كان في السادسة عشرة، عندما كان يعمل خادما لدى «الكونتيسة دي فيرسي». «أعتقد أنني منذ ذلك الحين بدأت أعاني من الألاعيب الخبيثة ذات الدوافع السرية والتي أحبطتني منذ ذاك، وجعلتني أكره النظام المسئول عنها كراهية مفهومة».

والحقيقة أن «روسو» كان يعامل معاملة طيبة من قبل السلطات الفرنسية مقارنة بالكتاب والمؤلفين الآخرين، حيث لم تجر إلا محاولة واحدة للقبض عليه، كما كان الرقيب العام «مالشيربز» يبذل جهده دائما لنشر أعماله، ورغم ذلك كان إحساس «روسو» بأنه ضحية شبكة دولية يتزايد خاصة خلال زيارته لانجلترا، وأصبح مقتنعا أن «هيوم» هو الذي كان يدير المؤامرة بمساعدة عشرات آخرين، وذات مرة كتب إلى «اللورد كامدن» ـ قاضي القضاة ـ يشرح له أن حياته في خطر ويطلب حراسة مسلحة لكي يخرج من البلاد.

كان القضاة معتادين على تلقي مثل تلك الخطابات من مجانين كثيرين، فلم يتخذ «اللورد كامدن» أي إجراء.

كانت تصرفات «روسو» في «دوڤر» قبل رحيله النهائي من انجلترا هيستيرية عندما جرى فوق سطح السفينة وأغلق على نفسه إحدى الكبائن، وعندما قفز فوق أحد الصواري ليخطب في الجميع، مدعيا أن «تيريزا» كانت الآن طرفا في المؤامرة وتحاول أن تبقيه في انجلترا بالقوة(٢٩).

وبعد أن عاد إلى أوروبا كان يعلق الملصقات على الباب الخارجي لمسكنه، يشكو فيها من فئات مختلفة في المجتمع يعتقد أنها كانت منظمة ضده : قساوسة، مثقفون، أشخاص عاديون، نساء، السويسريون ... إلخ، وبات مقتنعا بأن وزير خارجية فرنسا «الدوق دو شوازيل» كان هو الذي يرعى تلك

المؤامرة الدولية شخصيا، ويقضي معظم الوقت في تنظيم شبكة من الأفراد كل مهمتها هي تحويل حياة «روسو» إلى جحيم. وأدخل في هذه القصة ـ وبذكاء شديد ـ بعض الأحداث العامة مثل استيلاء الفرنسيين على «كورسيكا» التي كان قد كتب لها دستورها. الغريب أن «روسو» كان قد كتب للوطنيين البولنديين دستورا مشابها من أجل «بولندا» مستقلة، برجاء من «شوازيل» نفسه. وعندما ترك السلطة في ١٧٧٠ انزعج «روسو» : وهي خطوة أخرى شريرة ! كان «روسو» يعلن أنه لا يعرف سببا لمحاولاتهم الدائبة لإلحاق الأذى به سوى «ارتباطه الوثيق بالحق والعدل»، ولكنه لم يشك مطلقا في تفاصيل المؤامرة .... «كانت واسعة» و«لا يمكن تصورها»، «إنهم يبنون حولي صرحا من الظلام لا يمكن اختراقه»، «سوف يدفنوني حيا ... وإذا سافرت فسوف يرتبون كل شيء لمراقبتي أينما أذهب .. سوف يعطون كلمة السر للمسافرين وسائقي العربات وأصحاب الفنادق وسوف ينشرون الخوف مني في كل طريق لكي يتمزق قلبي في كل خطوة أخطوها وعند رؤية أي شيء».

آخر عملين له «حوار مع نفسي ـ بدأه في ١٧٧٢ ـ و«أحلام نزهة منفردة ـ ١٧٧٦ ـ يعكسان شعوره المجنون بالاضطهاد.

عندما انتهى من كتابه الحوارات كان مقتنعا بأنهم ينوون تدميرها، وفي ٢٤ فبراير ١٧٧٦ ذهب إلى «كاتدرائية نوتردام» بنية طلب الملاذ والحماية لمخطوطته ووضعها على المذبح ولكنه وجد البوابة المؤدية إلى مكان الكهنة مغلقة، أي نحس ! ولذلك صنع منها ست نسخ وأودعها بطريقة خرافية في أيد مختلفة : واحدة منها ذهبت إلى السيدة «بروك بوثبي» في «ليكفيلد» ـ مثقفة صديقة لدكتور جونسون ـ وكانت أول من نشرها عام ١٧٨٠، في ذلك الوقت كان «روسو» يرقد في قبره ... على نفس يقينه بأنه مطارد من ألوف العملاء[٣٠].

إن الآلام العقلية التي يسببها هذا النوع من العتة آلام حقيقية بالنسبة للذين يعانون منها، ومن المستحيل ألا نشعر بالرثاء لـ «روسو» أحيانا. لقد كان واحدا من أكبر الكتاب تأثيرا على وجه الأرض، طرح نفسه صديقا للإنسانية ـ وعلى نحو خاص ـ بطلا من أبطال الحق والفضيلة، ومايزال ـ فعلا ـ معروفا ومقبولا بهذه الصفة.

ومن الضروري إذن أن ننظر عن كثب في سلوكه الشخصي كمعبر عن الحق وممثل للفضيلة، فماذا نجد ؟ مسألة الحق، على نحو خاص، مسألة مهمة، لأن «روسو» بعد موته أصبح يعرف من خلال «الاعترافات» التي كانت بيانا ذاتيا معلنا لرواية الحقيقة الداخلية لحياة إنسان، وبطريقة لم يحاولها أحد من قبل.

وجاء الكتاب ليكون نوعا جديدا من السيرة الذاتية بالغة الصدق مثل سيرة «دكتور جونسون» التي كتبها «جيمس بوزويل» ونشرت بعد ذلك بعشر سنوات (١٧٩١)، وكانت أيضا نوعا جديدا من السيرة المسرفة في الدقة.

ردد «روسو» ادعاءات كثيرة عن دقة وصدقية ذلك الكتاب. في شتاء ١٧٧٠ ـ ١٧٧١ عقد جلسات قراءة له في صالونات تمتلىء بالناس وتدوم لساعات طويلة، تتخللها فترات لتناول الطعام. كانت هجماته على خصومه فوق الاحتمال، لدرجة أن واحدة منهم وهي «مدام ديناي» طلبت من السلطات أن توقف تلك الجلسات، ووافق «روسو» على أن يكف عن ذلك ولكنه قال في آخر جلسة قراءة: «لقد قلت الحقيقة، وإذا كان لدى أي شخص وقائع عكس ما قلت، حتى ولو كانت قد ثبتت ألف مرة فلن تكون سوى كذب ودجل. ومن (يستطيع أن) يتأمل بعينيه طبيعتي، شخصيتي، أخلاقي، ميولي، متعي، عاداتي، ويعتقد أنني لست بالشخص الأمين، فهو الذي يستحق الشنق» ... بعد ذلك أطبق الصمت الرهيب.

كان «روسو» يدعم سمعته كناقل للحقيقة بادعاء ذاكرة غير عادية. والأهم من ذلك أنه استطاع أن يقنع القراء بأنه كان صادقا لكونه أول إنسان يكشف عن تفاصيل حياته الجنسية وليس بأسلوب التباهي والتفاخر، بل ـ على العكس ـ كان يفعل ذلك بكل خجل وتردد. وكما يقول بحق، مشيرا إلى «تلك المتاهة القذرة المظلمة» لتجاربه الجنسية، «إن ما يصعب الإفصاح عنه ليس هو الجانب الإجرامي، وإنما ذلك الذي يشعرنا بالخجل والعار»، ولكن إلى أي مدى كان تردده حقيقيا؟

في «تورين» وعندما كان شابا، كان يتسكع في الشوارع الخلفية ويكشف عن نصفه الأسفل الخلفي للنساء: «لا أستطيع أن أصف تلك المتعة الحمقاء التي كنت أجدها في كشف ذلك أمامهن».

كان «روسو» بطبيعته شديد الميل للاستعراض سواء في الأمور الجنسية أو غيرها، ونستشف متعة خاصة لديه في روايته للجوانب الجنسية في حياته.

إنه يصف مازوكيته وكيف كان يستمتع بصفعه على كفله من شقيقة راعي الأبرشية المتزمت «مدموازيل لامبرسير»، والتي كان يستثيرها لكي تعاقبه، وكيف شجع فتاة أخرى تكبرها، هي «مدموازيل جروتون» لكي تصفعه هي الأخرى ... «أن تنام عند قدمي سيدة مهيبة، أن تطيع أوامرها، أن تطلب منها العفو ... كل ذلك كان متعة فائقة بالنسبة لي»(٣١).

ويحكي كيف كان يمارس العادة السرية وهو صبي، كما يدافع عنها لأنها تحمي الشباب من الأمراض الجنسية «هذه الخطيئة التي تستحق الخجل فيها أكثر من ميزة وجاذبية للخيال: إنها تمكن الخيال من إخضاع كل النساء له، وتجعل الجمال في خدمة المتعة دون إذن منه»(٣٢)، وكتب عن محاولة أحد الشواذ جنسيا إغواءه بنزل في «تورين»(٣٣)، ووصف كيف فشل في ممارسة الجنس مع فتاة اكتشف أن ليس لها حلمة في أحد ثدييها، كما وصف كيف طردته وهي غاضبة «مالك وللنساء أيها الجاهل ... إذهب لدراسة الرياضيات»، واعترف أنه عاد لممارسة العادة السرية في عمر متقدمة وبأنها كانت وسيلة أكثر ملاءمة من ممارسة الحياة الجنسية العادية. كما يعطي الانطباع أحيانا دون وعي، وأحيانا بلا قصد بأن توجهه الجنسي ظل طفوليا: كانت عشيقته «مدام دي وارنز» هي دائما «ماما» بالنسبة له.

كل تلك الاعترافات المدمرة كانت تبني الثقة ـ بالتدريج ـ في احترام «روسو» للحقيقة وللصدق، ويعزز ذلك برواية أحداث أخرى مخجلة عن أمور بعيدة عن الجنس مثل السرقة والكذب والجبن والتخلي عن الآخرين ... ولكن كل ذلك كان لا يخلو من مكر بارع، حيث إن اتهاماته لنفسه سوف تجعل اتهاماته اللاحقة لخصومه تبدو أكثر إقناعا، وكما قال «ديدرو» : «إنه يصف نفسه بأوصاف قبيحة ليعطي اتهاماته الظالمة والقاسية للآخرين شكل الحقيقة»، كما أن اتهام الذات عملية مضللة، حيث كان يتبع كل ملاحظة نقدية بشهادة براءة تنتهي بالقارىء إلى التعاطف معه والثناء على أمانته وصراحته (٣٤)، ثم إن الحقائق التي يقدمها «روسو» يتضح أنها أنصاف حقائق : وأمانته الانتقائية في جزء منها، هي أقل الجوانب أمانة سواء في «الاعترافات» أو في رسائله. وما اعترف به من «حقائق» يبدو مشوها ويفتقر إلى الدقة، أو مختلف تمام الاختلاف، ويتضح ذلك أحيانا من أدلة داخل حكاياته. لقد أعطى شهادتين مختلفتين تماما عن عرض الشذوذ الجنسي في كل من «إميل» و«الاعترافات».

كل ما يذكره عن الماضي خرافة. التاريخ الذي قال أن والده قد توفي فيه لم يكن صحيحا، وصفه بأنه كان «في الستين تقريبا»، بينما الرجل مات في الخامسة والسبعين. يكذب تقريبا في كل التفاصيل التي أعطاها عن إقامته بالنزل في «تورين»، وهي إحدى المراحل الحرجة في حياته الباكرة. وهكذا يتضح أننا لا يمكن أن نثق بأي إفادة في «الاعترافات» إن لم يكن هناك ما يدعمها من أدلة خارجية. وفي الحقيقة من الصعب ألا نتفق مع واحد من أبرز نقاد «روسو» وهو «ج.هـ هويزنجا» عندما يقول إن إصرار «الاعترافات» على ادعاء الصدق والأمانة، يجعل ما جاء فيها من زيف وتشوهات أمرا مخجلا : «كلما قرأ المرء بعناية وأعاد القراءة، كلما تعمق في العمل .. تظهر له طبقات جديدة من الخزي والعار»(٣٥).

ولكن الذي يجعل من عدم أمانة «روسو» أمرا خطيرا، ويجعل من اختراعاته أمرا رهيبا بالنسبة لأصدقائه السابقين، هى البراعة الفائقة والقدرة الشيطانية التي كان يكتب بها كل ذلك.

ثم ماذا عن الفضيلة ؟ قليل منا يعيشون حياة تتحمل إمعان النظر فيها وتصمد للفحص ... وربما يكون هناك شيء من النذالة في إخضاع حياة «روسو» لذلك الحكم الأخلاقي بعد أن عرّاها كثير من الباحثين والدارسين، ولكن بسبب ادعاءاته وبسبب تأثيره على القيم والسلوك فلا مناص من ذلك. كان يقول : إنه ولد لكي يحب، وأنه كان يعلم الناس مبدأ الحب، وبمثابرة أكبر من مثابرة معظم الكهنة.

كيف كان يعبر إذن عن حبه بالنسبة لمن وضعتهم الطبيعة بالقرب منه ؟ إن موت أمه قد حرمه منذ ولادته من حياة أسرية عادية. ليس لديه أي مشاعر نحو أمه ـ على أي شكل ـ لأنه لم يعرفها، ولكنه بالمثل لم يبد أي عاطفة أو اهتمام نحو أي فرد من أفراد الأسرة الآخرين. والده لم يكن يعني شيئا بالنسبة له، وموته كان مجرد فرصة ليرثه ، وعند هذه النقطة استيقظ اهتمام «روسو» بشقيقه المفقود فجأة لدرجة الشهادة على أنه قد مات لتؤول إليه كل ثروة الأسرة. كان ينظر إلى أسرته بعين المال. يقول في «الاعترافات» : «أحد تناقضاتي الواضحة هي الجمع بين الجشع الشديد والاحتقار الشديد للثروة»(٣٧).

ولكن حياته كلها لا يوجد فيها دليل واحد على أنه كان يحتقر الثروة. وعندما آل إليه ميراث الأسرة وصف تلقيه للإخطار بذلك، وبجهد جهيد أجَّلَ فتح الخطاب إلى اليوم التالي، ثم «فتحته ببطء متعمد ووجدت إذن الدفع بداخله، وشعرت بسعادة فورية بالغة ولكن أقسم أن السعادة الكبرى كانت في انتصاري على نفسي»(٣٨).

وإذا كان ذلك هو موقفه نحو أسرته الطبيعية، فكيف كان يعامل المرأة التي أصبحت بالفعل زوجة أبيه ... «مدام دي وارنز» ؟. الإجابة : بكل خسة ! كانت هي التي أنقذته من الفقر والعوز ووقفت إلى جواره أكثر من مرة، ولكن عندما تحسنت أحواله الاقتصادية فيما بعد وكانت هي قد أصبحت معوزة، لم يفعل من أجلها شيئا يذكر. وباعترافه هو كما كتب : أرسل إليها بعض النقود عندما ورث ثروة الأسرة في أربعينيات القرن الثامن عشر. ولكنه رفض أن يرسل إليها شيئا آخر، لأنه ببساطة ـ كان يخشى أن يستولى عليه الأوغاد الذين كانوا يحيطون بها(٣٩). كان ذلك هو عذره ! توسلاتها إليه لكي يساعدها ذهبت أدراج الرياح، وقضت العامين الأخرين من حياتها طريحة الفراش، وربما يكون موتها في سنة ١٧٦١ بسبب سوء التغذية.

«الكونت دي شارميت» الذي كان يعرف كليهما انتقد بشدة سلوك «روسو» وعدم وفائه بجزء من دينه لتلك المحسنة الكبيرة. بعد ذلك واصل «روسو» تناولها في «الاعترافات» بما اشتهر به من دجل وبأنها كانت «خير النساء وأفضل الأمهات»، وادعي أنه لم يكتب إليها لأنه لم يكن يريد أن يحزنها بهمومه، وينهي كلامه عنها بقوله : «اذهبي لتنالي جزاء إحسانك، وهيئي لتلميذك المكان الذي يتمنى أن يتخذه إلى جوارك ذات يوم، ولتسعدي في رزاياك لأن السماء عندما تضع نهاية لها فإنها ترحمك من منظره المؤلم».

كان من الطبيعي والمتسق مع «روسو» تماما، أن يتعامل مع موتها في إطار أناني تماما.

هل كان «روسو» قادرا على حب أي امرأة دون أي تحفظات أنانية ؟

طبقا لروايته : «الحب الأول والوحيد في حياتي (كانت صوفي) قريبة عشيقته (مدام ديناي). قد يكون أحبها بالفعل، ولكنه يقول إنه «كان قد أخذ احتياطه» ألا يكتب إليها خطابات حب بطريقة تدمرها لو أنها نشرت. أما بالنسبة لـ «تيريزا لوفاسير» غسالة الملابس (٢٣ سنة) والتي اتخذها عشيقة في سنة ١٧٤٥ وظلت معه ٣٣ سنة حتى وفاته، فيقول إنه لم يشعر أبدا بأي ومضة حب نحوها...

«الاحتياجات الحسية التي كنت أشبعها معها كانت جنسية تماما ولم يكن لها علاقة بها ككيان خاص»، كما كتب : «قلت لها إنني لن أتركها ولن أتزوجها»، بعد ربع قرن من ذلك، نظم حفل زفاف غير حقيقي لهما أمام قلة من الأصدقاء، ولكنه استغل المناسبة لإلقاء خطبة مفعمة بالغرور، معلنا أن الأجيال القادمة سوف تقيم له التماثيل و«سوف يكون من الشرف لأي شخص أن يقول إنه كان صديقا

لـ«چان چاك روسو».

من ناحية أخرى كان يحتقر «تيريزا» كفتاة جاهلة وخادمة خشنة، كما كان يحتقر نفسه أحيانا لمعاشرتها، وكان يتهم أمها بالجشع كما اتهم شقيقها بأنه سرق قمصانه الإثنين والأربعين .. الفاخرة. (لا يوجد أي دليل على أن أسرة تلك الإنسانة كانت على هذه الدرجة من السوء التي يصورهم عليها). ويقول أنها لا تستطيع القراءة والكتابة، ولا تعرف قراءة الساعة ولا تعرف أيام الأسبوع أو شهور السنة.

لم يخرج معها مطلقا إلى مكان عام، وعندما كان يدعو أحدا للعشاء لم يكن مسموحا لها بالجلوس معهم. انقسم معاصروه بشأنها : البعض كان يعتبرها ثرثارة، وكُتّاب سيرته من الذين يجلونه صوروها على أبشع وجه لكي يبرروا سلوكه الشائن معها، وهناك أيضا من كان يدافع عنها بشدة (٤٠). ولكي نكون منصفين مع «روسو» فلابد أن نذكر أنه كان يمدحها أحيانا : «قلب ملاك»، «رقيقة وفاضلة»، «مستشارة ممتازة»، «فتاة بسيطة غير عابثة»، وكان يراها «هيابة، ومن السهل السيطرة عليها». وفي الحقيقة ليس من الواضح أن يكون «روسو» قد فهم شخصيتها، ربما لم يدرسها لأن اهتمامه كله كان بنفسه. أما الصورة التي يمكن التعويل عليها، فتلك التي رسمها لها «بوزويل»، الذي زار «روسو» خمس مرات في سنة ١٧٦٤ ثم رافقها بعد ذلك إلى انجلتر ووجد أنها «فتاة فرنسية شابة، كلها حيوية ونشاط»، قدم لها «بوزويل» رشوة لكي يتقرب من «روسو» ونجح في أن يحصل منها على خطابين من خطابات «روسو» إليها (أحدهما موجود)(٤٢)، يكشفان عن أنه كان عاشقا رقيقا وأن العلاقة بينهما كانت حميمة. قالت لـ«بوزويل» : «لي ٢٢ سنة مع «مسيو روسو» ولن أتخلى عن مكاني حتي لأكون ملكة على فرنسا». ومرة أخرى عندما كان يرافقها في السفر استطاع «بوزويل» أن يغويها بسهولة. ولكن جلادي الأدب حذفوا من مخطوطة مذكراته وصفه التفصيلي لما فعله معها، ووضعوا مكان الجزء المحذوف «جزء يستحق الشجب» ولكنهم تركوا جملة كان قد سجلها في «دوفر» وهي : «ذهبت إليها في الفراش صباح الأمس، وفعلتها مرة أخرى : عدد المرات ١٣» ويظل في كتابته الكثير مما يوحي بأنها كانت امرأة دنيوية أكثر مما كان يظن كثيرون. وتبدو الحقيقة أنها كانت مخلصة لـ «روسو» في كثير من الأمور، وإن كانت قد أدركت من سلوكه الشخصي كيف تستخدمه كما كان يستخدمها. شعور «روسو» الأكثر دفئا كان نحو الحيوانات، وقد سجل «بوزويل» له مشهدا جميلا وهو يلعب مع قطته وكلبه «سلطان»، كان يمنح سلطان (والكلب الذي كان قبله واسمه ترك) حبا لم يمنحه لبشر. ونباح كلبه الذي أخذه معه إلى «لندن» منعه من حضور العرض الخاص الذي أقامه له «جاديك» في «درروري لين»(٤٣).

كان «روسو» يحتفظ بـ«تيريزا» وربما متعلقا بها لأنها تؤدي أشياء لا تستطيع أن تقوم بها الحيوانات مثل تشغيل القسطرة لتخفف عنه ذلك العبء المؤلم، ولم يكن يسمح بتدخل طرف ثالث في علاقته بها : لقد ثار مثلا عندما أرسل إليها أحد الناشرين فستانا، كما هرع لإحباط محاولة لمنحها «معاش» خشية أن يجعلها ذلك في غير حاجة إليه. الأكثر من ذلك أنه لن يسمح حتى للأطفال أن يشاركوه فيها، الأمر

الذي أدي إلى أبشع جرائمه.

ورغم أن جزءا كبيرا من شهرة «روسو» مرده إلى نظرياته في تربية الأطفال وكذلك في «إميل» و«العقد الاجتماعي» ومقالاته وحتي في روايته «هيلواز الجديدة»، إلا أننا لا نجد للاهتمام بالأطفال أثرا في الحياة الحقيقية، ولا يوجد أدنى دليل على أنه درسهم حتي يتأكد من صحة نظرياته. كان يدعي أن أحدا لا يمكنه أن يستمتع باللعب معهم مثله، ولكن النادرة الوحيدة في هذا المجال لا تؤكد شيئا من ذلك. يروي الرسام «ديلاكروا» في يومياته (٣١ مايو ١٩٢٤) أن شخصا ما أخبره بأنه شاهد «روسو» في حدائق «توليير» : وعندما ارتطمت كرة طفل برجل الفيلسوف استشاط غضبا وجرى وراء الطفل بعصاه[٤٤] . ومما نعرفه عن شخصيته يتضح أنه ما كان يمكن أن يكون أبا جيدا، ويصدمنا اكتشاف ما فعله بالنسبة لأطفاله.

الأول أنجبته «تيريزا» في شتاء ١٧٤٦ ـ ١٧٤٧، ولا نعرف إن كان ذكرا أم أنثى حيث لم يعط إسما، وكما يقول إنه استطاع «بصعوبة بالغة» أن يقنع «تيريزا» بالتخلي عنه «لإنقاذ سمعتها وشرفها»، و«أطاعت وهي تتنهد» فقام بوضع بطاقة عليها أحرف في ملابس الطفل وطلب من القابلة أن ترمي «الصرة» في مستشفى للأطفال اللقطاء، كما لقى نفس المصير أربعة آخرون أنجبتهم «تيريزا»، ولكنه لم يحاول أن يضع أي بطاقات مع أي منهم كما فعل مع الأول. لم يسم أحدا، ويبدو أنهم قد ماتوا جميعا في أعمار باكرة.

ويوضح سجل تلك المؤسسة الذي ظهر في عام ١٧٤٦ في «ميركوري دي فرانس» أنها كانت مملوءة باللقطاء حيث كانت تستقبل أكثر من ثلاثة آلاف في العام الواحد. وفي عام ١٧٥٨ لاحظ «روسو» نفسه أن العدد كان قد ارتفع إلى ٥٠٨٢ ووصل إلى ثمانية آلاف تقريبا في سنة ١٧٧٢، لم يدون «روسو» حتي تواريخ ميلاد أطفاله ولم يهتم بما حدث لهم بعد ذلك باستثناء مرة واحدة في سنة ١٧٦١ عندما مرضت «تيريزا» وظن أنها كانت تحتضر فقام بمحاولة روتينية ـ توقفت بسرعة ـ لاستخدام الحروف المختصرة لمعرفة مصير الطفل الأول.

لم يستطع «روسو» أن يحتفظ بسرية سلوكه، ففي عامى ١٧٥١، ١٧٦١ مثلا اضطر للدفاع عن نفسه في رسائل خاصة، وعندما غضب «ڤولتير» بسبب هجومه عليه لإلحاده قام الأخير بنشر كراسة مجهولة موقعة باسم «راعي أبرشية من چنيف» تتهمه صراحة بأنه تخلى عن أطفاله الخمسة، وتضيف أنه كان مصابا بالزهري وقاتلا، ولكن نكران «روسو» لكل تلك الاتهامات كان مقبولا. لقد أطال التفكير في ذلك كله وكان أحد أسباب كتابته للاعترافات هو دحض ما نشر عنه، أو التقليل من شأنه. في هذا العمل دافع عن نفسه مرتين بشأن الأطفال، ثم عاد إلى نفس الموضوع في «الأحلام»، وكذلك في رسائل مختلفة، وقد توزعت جهوده لتبرير نفسه على الملأ وعلى انفراد على خمس وعشرين سنة وتنوعت إلى درجة كبيرة. تلك الجهود جعلت الأمر أكثر سوءا حيث كانت دفوعه تجمع بين القسوة والأنانية

والرياء[٤٦]. ففي البداية وجه اللوم إلى الدائرة الشريرة للمثقفين الملحدين التي كان يتحرك وسطها لأنها هي التي وضعت في رأسه البريء فكرة دار الأيتام أو اللقطاء. كما أنه لم يكن أمرا ملائما «أن يكون له أطفال» «كيف أوفر هدوء البال الضروري لعملي وغرفتي مليئة بالهموم العائلية وصخب الأطفال؟».

كان ذلك سيضطره للجوء إلى أعمال مشينة «إلى كافة التصرفات السيئة التي تملؤني بالرعب الذي له ما يبرره»، «أعرف تماما أن لا أحد كان يمكن أن يكون لأطفاله أي صلة بأم «تيريزا» : «كنت أرتعد لمجرد فكرة أن أعهد بأطفالي إلى تلك الأسرة سيئة التربية».

أما بخصوص القسوة، فكيف يمكن أن يتهم بها شخص مثله ؟ «.... حبي لكل ما هو عظيم وصادق وجميل وعادل، رعبي من ما هو شرير، عدم قدرتي على الكراهية أو الإضرار بأحد أو حتى مجرد التفكير في ذلك، العاطفة الحلوة، والحيوية التي أشعر بها لرؤية كل ما هو طاهر وكريم ومحب، وإني لأتساءل : هل يمكن أن يجتمع ذلك في قلب واحد مع الفسق الذي يسحق أجمل الالتزامات دون أدنى شك ؟ لا أشعر وأجزم بأعلى صوتي .. مستحيل .. أبدا ... ولا للحظة واحدة في حياته كان «جان جاك روسو» امرءا بلا إحساس أو عاطفة أو أبا غير طبيعي».

كان «روسو» مضطرا إلى الدفاع عن أفعاله على أساس فهمه الخاص للفضيلة، وعند هذه النقطة، وبالمصادفة أيضا، يأخذنا مباشرة إلى قلب مشكلته الشخصية وفلسفته السياسية.

من الصواب أن نمعن النظر في تخليه عن أطفاله، لا كمثال على عدم إنسانيته، وإنما على أن ذلك جزء لا يتجزأ من العملية التي أفرزت نظريته السياسية ودور الدولة. كان «روسو» يعتبر نفسه طفلا تم التخلي عنه، وإلى حد كبير فإنه لم يلجأ إلى «مدام دي وارينز» كأم، ويتوجه نحو «تيريزا» كـ «ماما»، أجزاء كثيرة من «الاعترافات» ومن الرسائل تؤكد عنصر الطفل فيه.

وكثير من الذين تعاملوا معه ـ «هيوم» مثلا ـ كانوا يعتبرونه طفلا والتعامل معه غير ضار، ثم اكتشفوا بعد ذلك ـ وبعد أن كلفهم ذلك كثيرا ـ أنهم كانوا يتعاملون مع جانح متوحش متقد الذكاء. وحيث أن «روسو» كان على نحو ما يشعر أنه طفل، كانت النتيجة أنه لا يمكن أن يربي أطفالا لنفسه. كان لابد أن يحل محل ذلك شيء آخر، هذا الشيء الآخر هو الدولة .... في صورة ملجأ الأيتام أو اللقطاء .... من هنا كان قوله أن ما يفعله كان نظاما جيدا .... ومعقولا. كان بالضبط نفس ما دافع عنه «أفلاطون».

تنشئة الأطفال يجب ألا تكون برقة حيث سيجعلهم ذلك غير أقوياء، «سوف يصبحون أكثر سعادة من آبائهم» كتب يقول : «لقد تمنيت ومازلت أتمنى لو أنني نشأت وربيت مثلهم»، «ليت لي مثل ذلك الحظ السعيد»، وبتحويل مسئولياته إلى الدولة فإنه باختصار «أعتقد أنني أقوم بدور المواطن والأب وأرى نفسي عضوا في جمهورية «أفلاطون». ويؤكد «روسو» أن التفكير في سلوكه بالنسبة لأطفاله قد أدى به في النهاية إلى صياغة نظرية التربية التي قدمها في «إميل»، كما ساعده أيضا في كتابة «العقد

الاجتماعي» الذي نشر في نفس العام.

إن ما بدأ كعملية تبرير للذات في حالة خاصة، وكسلسلة من الأعذار المتسرعة عن سلوك كان غير طبيعي في البداية، قد تطور بالتدريج من خلال التكرار لأن يصبح قناعات حقيقية أن التربية هي مفتاح الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي، ولما كان الأمر هكذا، فإنها تصبح مسئولية الدولة.

الدولة هي التي يجب أن تشكل عقول الجميع، وليس الأطفال فقط. (كما فعلت في ملجأ اللقطاء في حالة «روسو») وإنما كمواطنين راشدين أيضا. ومن خلال تسلسل منطقي غريب ولا أخلاقي فإن خطيئة «روسو» وفشله كأب أصبحت متصلة بنتاجه الفكري : الدولة الشمولية القادمة.

الارتباك دائما يحيط بأفكار «روسو» السياسية لأنها متناقضة وغير مترابطة في جوانب كثيرة منها، وربما كان ذلك أحد أسباب ضخامة الاهتمام به والكتابة عنه، فالأكاديميون ينتعشون ويتنامى عددهم كلما كانت هناك «مشكلات». في بعض أجزاء من أعماله يبدو «روسو» محافظا في أفكاره، شديد المعارضة للثورة: «فكِّر في خطورة تحريك الجماهير»، « إن الذين يقومون بالثورات ينتهون في العادة بتسليم أنفسهم للشياطين تقريبا، والذين يجعلون قيودهم أثقل مما كانت»، «لن تكون لي علاقة بالمؤامرات الثورية التي تعود دائما إلى الفوضى والعنف وسفك الدماء»، «حرية كل الجنس البشري لا تساوي حياة كائن حي واحد»، ولكن كتاباته أيضا تمتلىء بالمرارة المتطرفة. «أكره العظماء، أكره مراكزهم، فظاظتهم، ظلمهم، تفاهتهم .. كل رذائلهم».

كتب مرة إلى سيدة رفيعة المستوى : «إنها تلك الطبقة الغنية ـ طبقتك ـ التي تسرق خبز أطفالي مني»، وكان يعترف «بامتعاضٍ ما من الأغنياء والناجحين كما لو كانت ثرواتهم وسعادتهم قد تحققت على حسابي»، أما الأغنياء فكانوا «ذئاب جائعة بمجرد أن ذاقت طعم اللحم البشري أصبحت تعاف أي طعام آخر»، وجميع عباراته القوية القاطعة، وأقواله المأثورة التي تجعل كتبه على تلك الدرجة من الجاذبية بالنسبة للشباب، كلها ذات طابع راديكالي : «ثمار الأرض لنا جميعا، أما الأرض نفسها فليست لأحد»، «ولد الإنسان حرا، ولكنه مقيد في كل مكان».

أما المادة المدونة عنه في دائرة المعارف عن الاقتصاد السياسي فتلخص اتجاه الطبقة الحاكمة : «أنت في حاجة إليّ لأنني غني وأنت فقير، دعنا نعقد اتفاقا : أمنحك شرف خدمتي، شريطة أن تعطيني كل ما تركته في مقابل العبء الذي سوف أتحمله لكي أحكمك». إلا إننا بمجرد أن نفهم طبيعة الدولة التي كان «روسو» يريد أن يقيمها فإن آراءه تبدأ في الاتساق، كان لابد أن يحل شيء مختلف محل المجتمع القائم، ولابد أن يكون متسما بالمساواة، ولكن ذلك إذا حدث فلن يكون مسموحا بالفوضى المتطرفة. في مكان الأغنياء والمنعمين سوف تحل الدولة التي تجسد الإرادة العامة والتي تعاقد الكل على طاعتها، هذه الطاعة ستصبح غريزية، طوعية، لأن الدولة سوف تغرس الفضيلة في نفوس الجميع من خلال عملية

هندسة ثقافية منظمة. الدولة كانت هي الأب (البطريرك) وكل المواطنين أطفال دار الأيتام الأبوية، ومن الصحيح أن كل المواطنين ـ الأطفال على خلاف أطفال «روسو» نفسه، يوافقون بداية على الخضوع لدار أيتام الدولة بالتعاقد الحر، وهكذا فإنهم من خلال إراداتهم الجمعية وشرعيتها يمثلونها، وبعد ذلك ليس من حقهم أن يشعروا بالقسر، فطالما أنهم كانوا يريدون القوانين، فلابد أن يحبوا القيود التي تفرضها عليهم (٤٧)

ورغم أن «روسو» يكتب عن الإرادة العامة بلغة الحرية، إلا أنها في الأساس أداة سلطوية وإرهاص مبكر بالمركزية الديمقراطية عند «لينين»، فالقوانين التي تصدر في ظل الإرادة العامة لابد لها من سلطة أخلاقية، «الناس الذين يصنعون القوانين لذاتها لا يمكن أن يكونوا غير منصفين»، «الإرادة العامة دائما على صواب من الناحية الأخلاقية»، علاوة على ذلك، وعلى اعتبار أن الدولة حسنة القصد (بمعني أن أهدافها بعيدة المدي مرغوب فيها) فإن تفسير معني الإرادة العامة يمكن أن يتْرك ـ بأمان ـ للقادة أنفسهم حيث أنهم «يعرفون أن الإرادة العامة تفضل دائما القرار المؤدي إلى الصالح العام»، ومن هنا فإن أي فرد يجد نفسه معارضا للإرادة العامة لابد أن يكون على خطأ: «عندما يسود الرأي المعارض لرأيي فإن ذلك يثبت ببساطة أنني كنت مخطئا، وأن ما أظنه الإرادة العامة لم يكن كذلك».

دولة «روسو» ليست سلطوية فقط بل شمولية كذلك، حيث إنها تحكم كافة جوانب النشاط الإنساني بما في ذلك التفكير. في ظل العقد الاجتماعي يكون الفرد مضطرا إلى نقل نفسه بكل حقوقه إلى المجتمع بكامله (أي الدولة). كان «روسو» يعتقد بوجود صراع متعذر استئصاله، بين أنانية الإنسان الطبيعية وواجباته الاجتماعية، بين الإنسان والمواطن، وذلك سبب بؤسه. ووظيفة العقد الاجتماعي والدولة التي جاء بها إلى حيز الوجود كانت تجعل الإنسان كاملا مرة أخرى، «اجعل الإنسان واحدا وسوف تحقق له السعادة، اعطه كله للدولة أو دعه بكامله لنفسه. ولكنك إذا قسمت قلبه فإنك تشطره نصفين»، وعليه يجب أن تعامل المواطنين كأطفال وتسيطر على تنشئتهم وأفكارهم، وتزرع «القانون الأخلاقي في أعماق قلوبهم»، حينئذ سيصبحون «بشرا اجتماعيين بطبيعتهم ومواطنين برغبتهم، يصبحون كيانا واحدا، طيبين، سعداء، وستكون سعادتهم هي سعادة الجمهورية».

هذا النهج كان يتطلب خضوعا تاما. القسم الرئيسي للعقد الاجتماعي في مشروع دستوره لكورسيكا يقول: «أنا أضم نفسي جسدا ومصالح وإرادة وكل قواي إلى الأمة الكورسيكية، أجعل نفسي ملكا لها أنا وجميع من أعول»(٤٨)، وهكذا فإن الدولة سوف «تمتلك الناس وقواهم» وتسيطر على كافة جوانب حياتهم الاقتصادية والاجتماعية التي ستكون متسمة بالبساطة، ضد الترف، وضد المدنية، ولن يكون في مقدور الناس دخول المدن إلا بتصريح خاص.

ومن جوانب كثيرة فإن الدولة التي كان «روسو» يخطط لها من أجل كورسيكا، كأنها كانت إرهاصا بتلك الدولة التي حاول فعلا نظام «پول پوت» إقامتها في «كمبوديا»، وليس في هذا الأمر أى غرابة حيث

إن قادة النظام الذين تعلموا في «باريس» كانوا جميعا قد استوعبوا أفكار «روسو»، وكان «روسو» يعتقد بالطبع أن دولة كتلك سوف تكون راضية مرضية طالما أن الناس قد تدربوا على أن يحبوها . لم يستخدم اصطلاح «غسيل المخ» ولكنه كتب :

«إن من يسيطر على آراء الناس يسيطر على أفعالهم»، وتتم هذه السيطرة من خلال معاملة الناس منذ الطفولة كأطفال للدولة، وتدريبهم على أن «ينظروا إلى أنفسهم فقط في علاقتهم بالدولة التي هي الكيان الكلي ..» ولأنهم لا شيء بدونها، فإنهم لن يكونوا شيئا إلا من أجلها، سيكون لها كل ما لهم وستكون هي هم جميعا» وكأن هذا أيضا إرهاص بسياسة «موسوليني» الفاشية المركزية : «كل شيء في إطار الدولة، لا شيء خارج الدولة، لا شيء ضد الدولة».

وهكذا كانت العملية التربوية هي مفتاح النجاح للهندسة الاجتماعية المطلوبة لكي تجعل الدولة مقبولة وناجحة.

كان محور أفكار «روسو» هو المواطن طفلا والدولة أبا، وهو مصر على أن تكون الحكومة مسئولة تماما عن تربية وتنشئة جميع الأطفال.

من هنا ــ وهذه هي الثورة الحقيقية التي أحدثتها أفكار «روسو» ــ حرك العملية السياسية إلى مركز الوجود الإنساني بأن جعل المشرع، وهو أيضا مربي، مسيحا جديدا بإمكانه حل جميع المشكلات الإنسانية بصنع بشر جديد.

يقول : «كل شيء يعتمد على السياسة أساسا، الفضيلة نتاج حكومة جيدة، «في ظل حكومة رديئة يكون الإنسان أكثر عرضة للوقوع في الخطأ»، العملية السياسية والدولة الجديدة التي تأتي بها هما العلاج الشامل لكل أسقام البشرية[٤٩] . السياسة سوف تصنع كل شيء، وهكذا أعد «روسو» مسودة الأضاليل والحماقات الأساسية للقرن العشرين!

ومكانة «روسو» في حياته وتأثيره بعد موته تثير أسئلة كثيرة معلقة، عن السذاجة الإنسانية ورفض الإنسان لأي دليل على شيء لا يريد أن يعترف به. ومقبولية ما كتبه «روسو» كانت تعتمد إلى حد بعيد على ادعائه ــ بعلو صوته ــ بأنه لم يكن فاضلا فقط بل وأكثر البشر فضيلة في عصره.

ولكن لماذا لم يسقط هذا الادعاء وينهار الزعم عندما أصبحت خطاياه ونقاط ضَعْفه معروفة للكافة ومعروضة للجدل ؟ الذين هاجموه لم يكونوا غرباء أو خصوما سياسيين، إنهم أصدقاء سابقون ورفاق مسيرة تخلوْا عن مساعدتهم له. الاتهامات التي وجهوها إليه خطيرة، وإدانتهم الجماعية له مدمرة.

«هيوم» الذي كان يعتبره ذات يوم «لطيفا، متواضعا، رقيقا، نزيها، وحساسا لدرجة كبيرة» اكتشف بعد تجربة أطول أنه كان «وحشا يرى نفسه أهم كائن في الوجود».

«ديدرو» بعد معرفة طويلة به لخصه بقوله : «مخادع، شيطان مغرور، عديم الوفاء، غليظ القلب، منافق، كله حقد»، وهو في رأي «جريم»، «بغيض وجشع»، وعند «ڤولتير» : «وحش يجسد الحقارة والغرور».

أما الأكثر أسفا، فتلك الأحكام الصادرة عن النساء الطيبات اللائي قدمن له كل مساعدة مثل «مدام ديبناى»، وشهادة زوجها المسكين الذي كانت آخر كلماته لـ «روسو» : «لم يعد لدي لك سوى الرثاء».

كل تلك الأحكام كانت على أفعاله وتصرفاته، وليس على كتاباته أو كلماته. ومنذ ذلك الحين وعلى مدى قرنين من الزمان، فإن المادة التي كشف عنها الباحثون والدارسون كلها تؤكد تلك الأقوال عنه.

سجل أحد الأكاديميين قائمة بعيوب «روسو» جاءت على النحو التالي :

«مازوكي، محب للمظاهر، نوراستيني (مرض عصبي) مصاب بوسواس مرضي، ممارس للعادة السرية، شاذ جنسيا (شذوذ كامن)، لحوح، عاجز عن الحب الأبوي، شديد الارتياب في الآخرين، نرجسي، شديد الانطواء، يملؤه الشعور بالذنب، جبان لدرجة مرضية، مريض بالسرقة، صبياني السلوك، سريع الاستثارة، بخيل»(٥٠).

هذه الاتهامات وكشف الأدلة عليها ، لم تؤثر كثيرا على الاعتبار الذي يكنه عدد كبير لـ «روسو» ولأعماله خاصة لمن يشكل جاذبية فكرية وعاطفية بالنسبة لهم. في حياته، ورغم الصداقات الكثيرة التي دمرها، لم يكن ليجد أية صعوبة في تكوين صداقات جديدة وتجنيد حواريين ومعجبين جدد وأفراد من علية القوم يزودونه بالمنازل وحفلات العشاء وكافة صور التملق الذي كان يتوق إليه، وعندما توفي ودفن في جزيرة الحوْر على البحيرة في «ارمونونفيل» سرعان ما أصبح المكان كعبة لحجاج العلمانية من كل أنحاء أوروبا وكأنه ضريح أحد القديسين في العصور الوسطي. هنا وصف لسلوك بعض أولئك المفتونين به حيا وميتا : «ركعت على ركبتي ..... قبلت حجر النصب التذكاري البارد وضغطت عليه بشفتي ...... قبلته مرارا وتكرارا»(٥١).

وفي الضريح احتفظوا بأشياء تذكارية مثل كيس التبغ الخاص به ... ويذكرنا ذلك بـ «أراسموس» و«چون كوليت» وهما يزوران ضريح القديس «توماس آبيكيت» في «كانتربري» في ١٥١٢ ويسخران من تجاوزات الحجيج.

ولكن ماذا يمكن أن يقولا عن «القديس روسو» (كما كانت تطلق عليه «جورج صاند») .. بعد ثلاثمائة عام من المفترض أن يكون الإصلاح قد وضع فيها نهاية لمثل تلك الأمور؟

لقد استمرت طويلا صيحات الإعجاب به، بعد نقل رفاته إلى «البانثيون».

بالنسبة لـ «كانت» : كان «لديه حساسية روح كمالها لا يضارع»، بالنسبة لـ «شلي» : «كان عبقرية رفيعة»، وهو عند «شيللر» : «روح أشبه بالمسيح لا يليق بصحبتها إلا ملائكة السماء». «جون ستيوارت مل» و«جورج إليوت» و«هوجو» و«فلوبير» يحملون له كل إعجاب وتقدير.

«تولستوي» يقول : «روسو» والإنجيل «لهما أكبر أثر في حياتي»، «كلود ليڤي شتراوس» أحد كبار المثقفين في زماننا يحييه في كتابه العمدة «أحزان استوائية» قائلا : «سيدنا وأخونا ... كل صفحة من صفحات هذا الكتاب كان من الممكن أن تهدي إليه لولا أنها جميعا لا تليق بذكراه العظيمة»(٥٢).

الأمر محير، ويوحي بأن المثقفين، مثلهم مثل أي شخص آخر، لا عقلانيين وغير منطقيين ويؤمنون بالخرافات. ويبدو أن الحقيقة هي أن «روسو» كان كاتبا عبقريا ولكنه غير متوازن في حياته وآرائه، مشوش العقل، ...... إن أفضل من يلخصه هو تلك المرأة التي قال عنها أنها كانت حبه الوحيد، «صوفي د. هوديتوت»، التي عاشت حتى عام ١٨١٣ وأدلت بهذه الشهادة في خريف العمر :

«كان قبيحا بما فيه الكفاية لكي يخيفني، ولم يجعله الحب أكثر جاذبية، إلا أنه كان شخصا مثيرا للرثاء، وكنت أعامله بعطف وحنان .... كان مجنونا ممتعا»(٥٣).



الفصل الثاني

«شلي» : قسوة الأفكار !

في الخامس والعشرين من يونيو عام ١٨١١م، كتب وريث إحدى الأسر البارونية وكان في التاسعة عشرة من عمره، إلى معلمة شابة في «سسكس» : أنا لا أنتمي إلى الأرستقراط أو إلى أي «قراط» بالمرة، ولكني أتوق بشدة إلى زمن يستطيع الإنسان أن يجرؤ فيه على أن يعيش في وفاق مع الطبيعة والعقل، وبالتالي مع الفضيلة(١).

كان ذلك المبدأ بالضبط هو مبدأ «روسو»، ولكن الكاتب الذي لم يكن سوى الشاعر «بيرسي بوشي شلي» كان قد سار قدما أبعد من «روسو» في الرهان على مزاعم الكتاب والمثقفين لهداية الإنسانية.

كان «شلي» مثل «روسو» يعتقد أن المجتمع بكامله عفن وينبغي تغييره، وأن الإنسان المستنير، من خلال عقله الذي لا يملك غيره، لديه الحق والواجب الأخلاقيين لإعادة بنائه من الأساس، ولكنه كان يعتقد أيضا أن المثقفين، والشعراء بخاصة ـ الذين كان يراهم قادة المجتمع الثقافي ـ في موقع الصدارة للقيام بتلك العملية، الشعراء في الواقع «هم مشرعو العالم غير المعترف بهم».

أطلق «شلي» هذا التحدي نيابة عن رفاقه المثقفين في عام ١٨١٢ في مقاله الذي يبلغ عشرة آلاف كلمة «دفاع عن الشعر»، والذي أصبح أكثر البيانات المعبرة عن الهدف الاجتماعي للأدب تأثيرا منذ القدم(٢).

والشعر، كما حاول «شلي» أن يثبت، هو أكثر من مجرد إظهار البراعة اللفظية أو التسلية، بل هو صاحب أكبر الأهداف خطرا بين أي كتابة، الشعر نبوءة وقانون ومعرفة، ولا يمكن أن يتحقق التقدم الاجتماعي إلا إذا كان مسترشدا بوعي أخلاقي، وكان يجب أن تقوم الكنائس بذلك ولكن ثبت فشلها، كما أن العلم عاجز عن الاضطلاع بذلك الدور أيضا، ولا العقلانية تستطيع أن تقوم به منفردة، وعندما يتنكر العلم والعقل تحت أقنعة أخلاقية تكون النتيجة كارثة مثل الرعب الثوري الفرنسي والدكتاتورية النابوليونية.

الشعر وحده هو القادر على ملء الفراغ الأخلاقي وإعطاء دفعة خلاقة للتقدم، «الشعر يوقظ العقل ذاته ويثريه ويجعله مستقبلا لآلاف الأفكار التي ما كان من الممكن أن يدركها، الشعر يكشف النقاب عن

الجمال المستور في العالم»، وسر الأخلاق العظيم هو الحب، أو الخروج من طبيعتنا وتوحد ذواتنا مع الجمال الكامن في الفكر أو العمل أو الآخر، «ولكي يكون الإنسان خيرا عليه أن يتخيل بقوة وشمول، ولابد أن يضع نفسه مكان الآخر أو الآخرين. إن آلام وأفراح بني جنسه يجب أن تصبح هي آلامه وأفراحه»، والخيال هو الأداة العظمى في كل الفضائل، كما أن الشعر يؤدي إلى ذلك بمحاولة تحقيقه للهدف، وإنجاز الشعر هو أن يدفع التقدم الأخلاقي للحضارة : وفي الواقع فإن الشعر وخياله الذي تحت تصرفه، وحريته الموجودة في بيئة طبيعية، يشكل القوائم الثلاث التي تعتمد عليها جميع الحضارات وكافة القيم، كما أن الشعر المفعم بالخيال مطلوب من أجل إعادة بناء المجتمع بكامله». نريد المقدرة الخلاقة على تخيل ما نعرف، ونريد النبض القوي لتنفيذ ما نتخيل، نريد شعر الحياة».

إن «شلي» لم يكن فقط يقدم لنا دعاوى الشاعر لكي يحكم : بل إنه ولأول مرة كان يقدم نقدا أساسيا لمجتمع القرن الثامن عشر، «الشعر ومبدأ الذات الذي يجسده هما الإله والشيطان في هذا العالم»(٣)، وكان «شلي» يقدم في شعره فعلا ما يبشر به، فقد كان شاعرا عظيما يمكن أن نفهم أعماله ونستمتع بها على عدة مستويات، ولكن على المستوى الأعمق، المستوى الذي كان «شلي» يقصده فعلا، فإن شعره أخلاقي وسياسي. هو أكثر الشعراء الإنجليز تسيسا، وجميع قصائده الرئيسية وكثير من قصائده القصيرة بها دعوة للعمل الاجتماعي على نحو ما، وتحمل رسالة عامة. قصيدته الأطول «ثورة الإسلام» ـ حوالي ٥٠٠٠ سطرا ـ تتناول الظلم والثورة والحرية. «ترنيمة للجمال الذهني» التي يقصد بها روح الخير تجسد الحرية والمساواة بين البشر وتحتفي بانتصارها على الشر المسيطر.

«بروميثيوس طليقا» تحكي عن ثورة أخرى ناجحة وعن انتصار للشخص الأسطوري، الذي يرمز عنده (كما عند «ماركس» وآخرين) إلى المثقف الذي يقود الإنسانية لإقامة المدينة الفاضلة على الأرض. قصيدته «تشينسي» تكرر موضوعة التمرد على الظلم، و«الطاغية متورم القدمين» هجوم على «جورج السادس»، وقناع الفوضى» هجوم على وزرائه، ورغم أن «أورماندياس» مجرد سونيتة قصيرة إلا أنها تحتفي بخصوم الأوتوقراطية. وفي غنائيته «أبيات كتبت بين التلال الإيوجانية» يشير إلى دورات الاستبداد التي تحتوي العالم ويدعو الفقراء للانضمام إليه في مدينته الفاضلة(٤).

«أغنية للريح الغربية» دعوة أخرى للقراء لنشر رسالته السياسية، ومن أجل «دفع أفكاري الميتة على الكون»، وهكذا «تسرع بميلاد جديد» ... «انشر كلماتي بين البشر » كما تسير قصيدته «إلى قبّرة» على نفس الخط، وتتناول الصعوبة التي يواجهها الشاعر لكي يجعل صوته مسموعا ورسالته واصلة.

كان «شلي» في حياته مصابا بخيبة الأمل بسبب عدم انتشار أعماله على نطاق واسع ويائسا من امكانية مرور أفكاره السياسية والأخلاقية في المجتمع، وليس صدفة أن قصيدتين من قصائده الأكثر عاطفة دعوة لنشر أشعاره والانتباه إليها. وباختصار فإن «شلي» كفنان لم يكن أنويا (متمركزا حول نفسه) وهو من أقل الذين كتبوا من أجل رضائهم الشخصي. ولكن .. ماذا عن «شلي» الإنسان ؟

كانت الفكرة الشائعة عنه حتى وقت قريب، هي تلك التي روجتها زوجته الثانية وأرملته «ماري شلي»: ان الشاعر كان نقيا وبريئا، كان روحا سماوية لا تشوبها رذيلة أو رياء، كان مخلصا لفنه ولرفاقه رغم أنه لم يكن سياسيا بأي درجة، طفلا شديد الذكاء والحساسية . هذه النظرة كان يزكيها مظهره الجسماني : نحيل، ضعيف، رقيق، محتفظ بريعان المراهقة حتى وهو في العشرينيات. كان الافتتان بالملابس البوهيمية التي دشنها «روسو» قد تواصل في الجيلين الثاني والثالث من المثقفين الرومانسيين. كان «بيرون» يرتدي الموديلات الشرقية، وحتى في الملابس الغربية كان مولعا بالملابس الفضفاضة ويستغني عن ربطة العنق، كما كان يرتدي أحيانا القمصان ذات الأكمام القصيرة، هذا الترفع الأرستقراطي عن التقاليد غير المريحة احتذاه آخرون من شعراء العامة مثل «كيتس».

كان «شلي» هو الآخر يتبع الموضة ولكنه كان يضيف إليها لمساته الخاصة : كان مغرما بسترات تلاميذ المدارس والكاب الذي كان أحيانا صغيرا عليه ولكنه يناسب غرضه، نشاط وحيوية المراهق، الشخص الأخرق قليلا ولكنه فاتن بالنسبة للنساء على نحو خاص. وقد ساعد كل ذلك على تكوين صورة قوية وباقية وربما أسطورية عن «شلي»، كما ظهرت في الوصف الاحتفالي الذي وصفه به «ماثيو آرنولد» : «ملاك جميل ولكنه يخفق عبثا بجناحين في الفضاء»، جاء ذلك في مقال «آرنولد» عن «بيرون» الذي يرى أن شعره أكثر قيمة وجدية من شعر «شلي»، الذي يعاني من «عيب لا علاج له» .. وهو «فقره».

ومن ناحية أخرى فإن «شلي» كشاعر كان «روحا جميلة وفاتنة» وأفضل من «بيرون» بكثير(٥).

ونحن من الصعب أن نتخيل حكما أكثر فسادا وخاطئا من جميع الأوجه، فمعرفة «آرنولد» بكل من الشاعرين كانت قليلة ولا يمكن أن يكون قد قرأ شعر «شلي» باهتمام، والغريب كذلك حكمه على شخصية «شلي» الذي لم يكن يختلف عن حكم «بيرون».

فقد كتب «بيرون» أن «شلي» «كان وبلا استثناء أفضل من عرفت من الناس وأقلهم أنانية، وبالمقارنة به كان كل الناس وحوش» أو «على قدر ما أعرف فهو الأقل أنانية والأكثر اعتدالا بين الناس، رجل قدم من ثروته ومن مشاعره الكثير للآخرين، وأكثر مما قدم أي إنسان آخر سمعت به»(٦). وقد جاءت هذه التعليقات عندما كانت نهاية «شلي» المأسوية ماتزال ماثلة في عقل «بيرون» ، وهي كلام يعوزه الصدق ولا يخلو من مجاملة بسبب المناسبة.

معظم معرفة «بيرون» بـ «شلي» كانت تعتمد على ما قاله الأخير عن نفسه، ومع ذلك كان «بيرون» واسع الخبرة بالحياة وحكما داهية وناقدا قاسيا للرجل، كما أن شهادته على الانطباع الذي تركه «شلي» على معاصريه البوهيميين الأكثر تحررا لها قوة على الإقناع.

إلا أن الحقيقة مختلفة تماما ومزعجة جدا لكل من يحترم «شلي» ـ مثلي ـ كشاعر، وهي نابعة من مصادر متنوعة، وأحد أهم تلك المصادر رسائل «شلي» الخاصة(٧) .

حيث تظهره بمظهر الإنسان شديد الدأب في متابعة أهدافه ، وقاس، وربما لدرجة الوحشية، في لتخلص من أي شخص قد يقف في طريقه لذلك. كان مثل «روسو» يحب الإنسانية بشكل عام ولكنه كان شديد القسوة مع الأفراد.

كان يحترق بحب عنيف ولكنه كان لهبا نظريا غالبا ما كان يلسع كل من يقترب منه، كان يعطي الأفكار أولوية على البشر، وحياته هي أكبر دليل على كيفية إمكان أن تكون الأفكار قاسية عديمة الرحمة.

ولد «شلي» في الرابع من أغسطس عام ١٧٩٢ في «فيلدبليس»، في منزل كبير من الطراز الجيورجي بالقرب من «هورشام» في «سسكس»، وعلى خلاف عدد كبير من المثقفين الكبار لم يكن طفلا وحيدا، ولكنه كان يشغل موقعا أكثر فسادا من جوانب كثيرة : الإبن الوحيد والوريث الوحيد لثروة كبيرة، والأخ الأكبر لأربع شقيقات كلهن أصغر منه ــ الكبرى بعامين، والصغرى بتسعة أعوام ــ ومن الصعب أن نقول الآن ماذا كان يعني بالنسبة لوالديه، وبدرجة أكبر بالنسبة لأخواته : سيد البشر !

كانت عائلة «شلي» الفرع الأصغر لأسرة عريقة ذات صلة قرابة بدوق «نورفولك» الإقطاعي الكبير، كانت ثروتهم الكبيرة حديثة العهد، جمعها «سير بيشي» جد «شلي» ــ أول بارون ــ والمولود في «نيوآرك ــ نيوجرسي»، مغامر من مغامري العالم الجديد وكان نشطا وقاسيا وخشن الطباع، وواضح أن «شلي» قد ورث عنه اندفاعه وقسوته. أما والده «سير تيموثي» الذي وصل إليه اللقب عن طريقه في عام ١٨١٥ فكان ــ مقارنة بجده ــ رجلا معتدلا، لا ضرر منه، عاش حياة طويلة بريئة، يؤدي واجبه كعضو في برلمان «شوريهام»(٨) . وقد عاش «شلي» طفولة هادئة مستقرة في الضيعة، محاطا بشغف والديه وفتنة شقيقاته به. وقد أظهر في مرحلة باكرة حبا للعلم الطبيعي وللطبيعة والتجريب بالمواد الكيماوية والمنطاد، حيث ظل يميل إليها طوال حياته.

وفي عام ١٨٠٤ ــ وكان في الثانية عشرة ــ أرسل إلى مدرسة «إيتون» التي قضى بها ست سنوات، ولابد أنه كان مجتهدا لأنه حقق طلاقة في اللاتينية واليونانية ومعرفة واسعة بالأدب القديم ظل محتفظا بها طوال حياته.

كان قارئا نهما للأعمال الجادة وللروايات ولم يتفوق عليه من شعراء زمنه في سعة الاطلاع سوى «كوليردج» كما كان طالبا معجزة في المدرسة. في عام ١٨٠٩ ــ وكان في السادسة عشرة عرّفه أستاذه «دكتور جيمس لند» ــ طبيب ملكي سابق وأستاذ مشارك في «إيتون» ومحب للعلوم وراديكالي ــ على كتاب «العدل السياسي» من تأليف «وليم جودوين»، والذي كان النص الأساسي للجناح اليساري في تلك الأيام(٩) .

كان «لند» مهتما أيضا بدراسة المعتقدات المتعلقة بالعفاريت والشياطين، وأيقظ ذلك في «شلي» هواية عالم السحر والغموض : وليس فقط القصص القوطي الذين كان حديثا حينذاك ومستهجنا بشدة في رواية

«چين أوستن» : «نورثانجر آبي» ، وإنما أيضا في النشاطات الحياتية الحقيقية للطبقة المستنيرة والمجتمعات الثورية السرية الأخرى. وكانت الطبقة المستنيرة قد تأسست في عام ١٧٧٦ على يد «آدم ويشوبت» في الجامعة الألمانية في «انجولد شتات» كأوصياء على التنوير العقلاني. وكان هدفهم تنوير العالم ـ كما يزعم ـ «إلى أن تختفي الدول والأمراء دون عنف من على وجه الأرض ، ويصبح الجنس البشري أسرة واحدة والعالم مقاما للبشر العقلاء»(١٠) ، وأصبح ذلك هدف «شلي» المقيم على نحو ما ولكنه استغرق في مادة التنوير في اقترانها بالدعاية العدوانية التي قام بها أعداؤهم، وعلى الأخص كراسة الدعاية المغالية في الحسية للراهب «باريل» : «مذكرات تصور تاريخ اليعقوبية» (لندن ـ ١٧٩٧ ـ ١٧٩٨) التي هاجمت الماسون. والروزيكروشيين★ واليهود. وظل «شلي» لعدة سنوات مفتونا بذلك الكتاب البغيض وكان كثيرا ما يوصي به أصدقاءه (كما استخدمته زوجته الثانية «ماري» عندما كانت تكتب «فرانكشتاين» في سنة ١٨١٨) ، وقد اختلط في ذهن «شلي» مع كثير من الروايات القوطية التي كان يقرؤها آنذاك وبعد ذلك.

وهكذا كان يلون اقتراب «شلي» من السياسة ميل للتجمعات السرية ونظرية المؤامرة في التاريخ التي كان يقول بها الراهب وأضرابه ولم يستطع أبدا أن يتخلص منها، وقد منعته بالفعل من فهم السياسة البريطانية أو السياسات ودوافع رجال مثل «ليفربول» و«كاستليريغ» اللذين كان يعتبرهما تجسيدا للشر(١١) ، وكان أول عمل سياسي له تقريبا هو أن يقترح على الكاتب السياسي «لي هنت» تكوين مجتمع سري من «الأعضاء المستنيرين المنزهين عن الغرض» لمقاومة «تحالف أعداء الحرية»(١٢) ، وفي الواقع فإن بعضا من معارف «شلي» لم يروا في اهتماماته السياسية أكثر من نكتة أدبية، أو مجرد تصور للرومانسية القوطية في الحياة العملية. وفي روايته «دير الكابوس» (١٨١٨) يسخر «توماس لاف پيكوك» من هوس المجتمع السري، ويصور «شلي» على أنه «أصبح مشغولا بالرغبة في إصلاح العالم» ، كان يبني قلاعا كثيرة في الهواء ويسكنها بمحاكم سرية وعصابات من المستنيرين، وكانت تلك دائما هي المكونات الخيالية لما كان يتصوره تجديدا للجنس البشري» . و«شلي» مسئول إلى حد ما عن تلك النظرة اليوتوبية الطائشة. وكما يقول صديقه «توماس چيفرسون هوج» إنه لم يصر فقط على قراءة كتاب اسمه «أسرار رهيبة» بصوت عال و«حماس جذل» لأي شخص كان يمكن أن يستمع إليه، وإنما كتب أيضا روايتين قوطيتين، الأولى «زاستروتزي» التي نشرت في آخر فصل دراسي له في «إيتون» ، والثانية «سان إيرڤاين»أو الروزيكروشيان» في فصله الأول في «أكسفورد» ،والتي رفضتها «إليزابيث باريت براوننج» واعتبرتها حماقة «من حماقات المدارس الداخلية»(١٣)

وهكذا كان «شلي» مشهورا شهرة جيدة أو شهرة سيئة وهو ما يزال طالبا في المدرسة، وكان يعرف باسم «ملحد ايتون» ،ومن المهم أن نشير إلى ذلك في ضوء الاتهامات التي وجهت إليه فيما بعد بأنه كان متعصبا ضد أسرته ولم يكن متسامحا.إن جده ووالده وبصرف النظر عن محاولاتهم كبح كتاباته الباكرة

★ أعضاء جمعية سرية اشتهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر وزعمت أنها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين .

بما فيها الشعر ،شجعاه على تلك الأفكار ومولا عملية نشرها. وكما تقول «هيلين» شقيقته فإن جده السير «بيشي» هو الذي تحمل نفقات نشر قصائده المدرسية، وفي سنة ١٨١٠ وقبل ذهابه إلى «إكسفورد» مباشرة تحمل السير «بيشي» نفقات طباعة ١٥٠٠ نسخة من كتاب له بعنوان «شعر أصيل بقلم فيكتور وكازاير»(١٤) ، وعندما ذهب «شلي» إلى «أكسفورد» في الخريف أخذه والده إلى «سلاتر» أشهر ناشر كتب وقال : «ابني هذا له توجه أدبي، وهو مؤلف بالفعل، أرجو أن تطلق العنان لرغبته في الكتابة». وشجعه «تيموثي» حقيقة لكتابة قصيدة عن «البارثينون» في مسابقة وأرسل إليه المادة (١٥) ،كان من الواضح أنه يريد أن يوجه «شلي» بعيدا عما كان يراه أعمال مراهقة ويدفعه نحو الأدب الجاد. وتمويله لكتابات ابنه كان تحت فهم أنه لابد أن يعبر عن آرائه المعارضة للدين بين أصدقائه، ولكن لا يجب نشرها حتي لا يقضي على مستقبله الجامعي. ولا شك أن «شلي» قد وافق على ذلك كما يتضح من أحد الخطابات التي بقيت بعد رحيله(١٦)، ثم بدأ في إعلان كلمته بوضوح وشمولية، ففي شهر مارس ١٨١١ وهو مايزال في السنة الأولى في «أكسفورد» كتب كراسة عدوانية عن آرائه الدينية، ولم تكن حججه جديدة ولا عنيفة على نحو خاص، بل كانت مستمدة من الحواس، و«الله» لا يمكن أن يستمد من الانطباعات الحسية، فإن الإيمان ليس عملا طوعيا وبالتالي فإن عدم الإيمان لا يمكن أن يجرم، ووضع لهذه القطعة من السفسطة عنوانا لاهبا هو «ضرورة الإلحاد»، وطبعها ووزعها على محال بيع الكتب في «أكسفورد» وأرسل نسخا لجميع القساوسة ورؤساء الكليات.

وباختصار .. كان سلوكه مستفزا وحقق رد الفعل المتوقع من قبل السلطات الجامعية، فقد طردوه مها.

غضب «تيموثي شلي»، وعلى نحو خاص عندما تلقى رسالة من ابنه ينكر فيها أنه يمكن أن يقوم بعمل من هذا النوع، وحدث بينهما لقاء مؤلم في أحد فنادق «لندن» :

الأب يرجو الابن أن يتخلى عن أفكاره على الأقل إلى أن يكبر، والابن يقول إنها كانت أعز لديه من راحة بال الأسرة. الأب «يوبّخ ويصرخ ويهدد ثم يبكي مرة أخرى» وشلي يطلق ضحكاته الشيطانية عاليا ثم «انزلق من مقعده وتمدد على الأرض على ظهره وهو يقهقه»(١٧)، وأسفر التفاوض بينهما عن أن يتقاضى الابن سنويا من والده مبلغ مائتي جنيه ولكن تبع ذلك (أغسطس ١٨١١) مفاجأة جاءت كالقنبلة وهي أن الابن تزوج من «هاريت وستبروك» زميلة شقيقته «اليزابيث» وكانت تبلغ من العمر ١٦ سنة ، بعد ذلك انهارت علاقته بعائلته وحاول «شلي» في البداية أن يستميل أمه إلى صفه، ثم شقيقاته ولكن محاولاته باءت بالفشل. وفي رسالة لأحد أصدقائه راح يشجب كل أفراد عائلته : «زمرة من الحيوانات الباردة والأنانية الماكرة، ولاهم لهم على الأرض سوى الأكل والشرب والنوم»(١٨) . كما تقدم لنا رسائله إلى عدد كبير من أفراد أسرته أشياء غير عادية : أحيانا تجده خبيثا ومخادعا في محاولاته لانتزاع النقود منهم، وأحيانا قاسيا وعنيفا ومتوعدا . رسائله إلى والده تتصاعد من الاستجداء الكاذب إلى الإساءة البالغة الممزوجة بالاستعلاء غير المحتمل، وهكذا نجده في ٣٠ أغسطس ١٨١١ يتوسل : «لا أعرف أحدا

سواك أستطيع أن ألجأ إليه في المحنة ... إنك عطوف تغفر أخطاء الصغار» ، وفي ١٢ اكتوبر يكتب بكل ازدراء : «إن مؤسسات المجتمع قد صنعت منك رأسا للعائلة وجعلتك عرضة للتضليل وسوء الظن مثل الآخرين، وإني لأعترف أن من الطبيعي بالنسبة للعقول التي ليست على مستوى واحد أن تحسن تقييم الأخطاء» ، وبعد ذلك بثلاثة أيام يتهم «تيموثي» بفعل جبان نفعي حقير ... لقد عاملتني معاملة سيئة وضيعة. عندما فصلوني من الجامعة لإلحادي، كنت تتمنى قتلي في اسبانيا، إن الرغبة في استكمال التحقيق مثل الجريمة تماما، ربما كان من الجيد بالنسبة لي أن القوانين في انجلترا لا تعاقب على جريمة القتل ولكن الجبن يتوارى، سوف انتهز أقرب فرصة لأراك وسوف أنطق باسمي إن لم تسمعه، ولا تظن أنني حشرة يمكن أن يدمرها الضرر، ولو أن معي نقودا تكفي لالتقيتك في «لندن» وطننت في أذنك «بيشي ... بيشي ... بيشي ..... » حتى يصيبك الصمم» . جاء ذلك في خطاب لم يوقع (١٩) .

وبالنسبة لأمه كان مايزال شديد القسوة، كانت أخته «اليزابيث» مخطوبة لصديقه «إدوارد فيرجس جراهام» ، ووافقت أمه على الخطوبة ولكنه اعترض عليها، وفي ٢٢ اكتوبر كتب لأمه يتهمها بأنها على علاقة بـ «جراهام» وبأنها كانت ترتب عملية الزواج لإخفاء تلك العلاقة(٢٠) ويبدو أنه لم تكن هناك أي حقائق يستند إليها تجعله يكتب ذلك الخطاب، ولكنه كتب إلى شقيقته في نفس اليوم وأخبرها به، وطلب منها أن تريه لوالده. وفي مراسلات أخرى كان دائما يشير إلى «وضاعة» أمه و«فسادها»(٢١) .

ونتيجة لذلك استدعوا محامي الأسرة «وليم ويتون» وطلبوا منه أن يفتح كل الخطابات التي أرسلها «شلي» إلى عائلته ويتصرف بشأنها، كان «ويتون» رجلا طيبا ويريد أن يعم السلام بين الأب وابنه، ولكن الأمر انتهي باستبعاده نتيجة غطرسة «شلي» . عندما قال المحامي إن خطاب «شلي» لأمه «لم يكن لائقا» ــ وهو وصف مهذب ــ أعيد إليه خطابه وعليه تعليق كتب بعجلة: «خطاب السيد «ويتون» مكتوب بغرض أن يعيد «شلي» النظر في خطابه لأمه، وعليه فإن «شلي» ينصح السيد «ويتون» بأنه عندما يتعامل مع السادة ــ الأمر الذي قد لا تجود به الظروف مرة أخرى ــ أن يكف عن فتح الخطابات الخاصة، وإلا فإن الوقاحة قد تستدعي العقاب عليها»(٢٢) .

ويبدو أن العائلة كانت تخشى عنف «شلي» فكتب «تيموثي» إلى «ويتون» : «إنه لو استقر في «سسكس» لكان عليّ أستدعاء قوة من الشرطة لحمايتي، إنه يفزع أمه وأخواته لدرجة كبيرة، وعندما يسمعون نباح كلب يجرون على السلم، ولا نسمع منه شيئا سوى مطالبته بالمائتي جنيه كل سنة» .

وكان هناك خوف أكبر من أن «شلي» الذي كان يعيش الآن حياة ضياع بوهيمية قد يغري واحدة من شقيقاته بالانضمام إليه، وفي رسالة بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٨١١ حاول أن يغري صيادا بتهريب خطاب إلى «هيلين» ــ كانت في الثانية عشرة ــ وما فيه فاسد وكفيل بأن يوقف قلب الأم والأب. (٢٣) كما كان شغوفا بأن يوقع بشقيقته الصغرى «ماري» .

كان «شلي» قد أصبح بسرعة عضوا في دائرة «جودوين» ، وأصبح على صلة وارتباط بابنته

المتحررة «ماري» ـ ابنة زعيمة الحركة النسوية «ماري وولستنكرافت» ـ وأختها غير الشقيقة «كلير مونت». خلال حياته الراشدة كان «شلي» يحرص على إحاطة نفسه بنساء صغيرات السن، يعشن حياة مشاع مع أي رجال ينتمون إلى تلك الدائرة، وبالنسبة له كانت شقيقاته مرشحات طبيعيات لمثل ذلك «البيت»، خاصة أنه كان يتصور أن من واجبه الأخلاقي مساعدتهن على الهروب من المادية القبيحة في البيت الأبوي. كانت لديه خطة لاختطاف «اليزابيث» و«هيلين» من مدرستهما الداخلية في «هاكني» : وكان قد أرسل «ماري» و«كلير» للتغطية على الخطة(٢٤)، ولكنها فشلت لحسن الحظ، إلا أن «شلي» لم يكن يرسم مخططا ليصل إلى سفاح القربى، صحيح أن الموضوع كان يستهويه مثل «بيرون» ولكنه لم يتمادي فيه مثله.

كان «بيرون» على علاقة بـ «أوجستالي» أخته غير الشقيقة. ولكن «لاون» و«سيثنا» بطلا قصيدة «شلي» الطويلة «ثورة الإسلام» كانا «أخ وأخت» إلى أن اعترض الناشرون وأجبروا «شلي» على إجراء تعديلات، كما كان «سليم» و«زليخا» في «عروس أبيدوس» عند «بيرون». (٢٥) وكان «شلي» مثل «بيرون» يعتبر دائما أن لديه تحللا من قواعد السلوك الجنسي العادية.

وقد جعل ذلك الحياة صعبة بالنسبة للنساء اللائي كن على صلة به، ولا يوجد أي دليل على أن أيا منهن ـ مع احتمال استثناء «كلير كليرمونت» ـ كانت تحب فكرة المشاركة، أو كان لديها أي درجة من الميل نحو الاتصال الجنسي غير الشرعي.

وعلى غير هواه فقد كن جميعا (مثل أفراد عائلته) يردن حياة عادية، ولكن الشاعر لم يكن يستطيع أن يعيش حياة عادية. كان ينتعش بالتغيير، بالتنويع، وبالخطر والإثارة، ويبدو أن القلق وعدم الاستقرار كانا من ضرورات عمله، كان يمكن أن يجلس مع أي كتاب أو قطعة من الورق في أي مكان فتتدفق أشعاره. قضى حياته في غرف أو مساكن مفروشة وكان يتنقل بينها متبوعا مطاردا من الدائنين، ولكنه واصل العمل والإنتاج. كانت قراءاته واسعة ولكن وجوده المتحرك الذي كان يراه مثيرا كان بمثابة الكارثة بالنسبة لغيره خاصة زوجته الشابة «هاريت». كانت فتاة جميلة تنتمي لأسرة من الطبقة المتوسطة التقليدية، وابنة تاجر ناجح، هامت بالشاعر شبيه الإله فخلب لبها ... فهربت معه ! بعد ذلك اندفعت حياتها نحو الكارثة ...(٢٦)

ولمدة أربع سنوات شاركت «شلي» حياته التي لا تعرف الاستقرار ، متنقلا بين «لندن» و«أدنبره» و«يورك» و«كيسوك» و«نورث ويلز» و«لينموث» ثم «ويلز» ثانية و«لندن» و«دبلن» ووادي «التيمز».

وفي بعض تلك الأماكن شارك «شلي» في بعض الأنشطة السياسية غير القانونية فلفت أنظار رجال القانون والشرطة وربما الحكومة المركزية، وبوجه عام كان قد وقع في مشاكل مع التجار الذين كانوا ينتظرون تسديد فواتيرهم. كما عادي جيرانه الذين كانت تزعجهم تجاربه الكيماوية وكانوا يشعرون بالإهانة بسبب سلوكه البعيد عن الاحتشام في حياته العائلية، حيث كان هناك دائما امرأتان أو أكثر !

وفي مناسبتين هاجم أهالي المنطقة منزله في منطقة البحيرات ، وفي «ويلز» ، وأجبروه على ترك المكان، كما فر كثيرا أمام مطالبات دائنيه وأمام الشرطة.

حاولت «هاريت» قدر استطاعتها أن تشاركه نشاطه، ساعدت في توزيع منشوراته السرية، كانت سعيدة عندما أهدي إليها أولي قصائده الطويلة، «الملكة ماب» ، ولدت له بنتا «إليزا ايانثي» وحملت بطفل آخر، ابنه «تشارلز» ، ولكنها لم تكن قادرة على الاحتفاظ بإعجابه إلى الأبد .. شأن كل امرأة أخرى في حياته.

كان حب «شلي» عميقا ومخلصا ومتقدا ومستمرا في الواقع، ولكنه كثيرا ما كان يغير موضوعه! في ١٤ يوليو ١٨١٤ أخبر «هاريت» أنه وقع في غرام «ماري» ابنة «جوذوين» وأنه تسكع معها في أوروبا (مع كلير كلير مونت) . نزلت الأخبار على «هاريت» كالصاعقة، وهو رد فعل فاجأ «شلي» وأزعجه جدا، كان أحد المفرطين في الأنانية مع نزعة إلى افتراض أن على الآخرين أن يكونوا مناسبين وأن يستحسنوا قراراته، وعندما لا يفعلون ذلك ينتابه الغضب، ورسائله إلى «هاريت» بعد أن تركها على نفس نمط رسائله إلى والده. كياسة ولطف في البداية ثم يتحول إلى غضب يتمسح بالأخلاق، وعندما لا ترى الأشياء كما يحب. كتب إليها في ١٤ يوليو ١٨١٤ يقول : «لا يعيبني أنك لم تملئي قلبي أبدا بالعاطفة الكافية» ، كان يتصرف معها دائما بأسلوب كريم، وظل أفضل أصدقائها، وفي الشهر التالي دعاها إلى «ترويز» هي و «ماري كلير» .... «حيث ستجدين على الأقل صديقا دائما وثابتا، عزيزة عليه اهتماماتك، ولن يتعمد أبدا أن يجرح مشاعرك، ولن تتوقعي ذلك أبدا من أحد سواي. الآخرون جميعا إما قساة القلوب أو أنانيون» .

بعد شهر من ذلك، وعندما اكتشف أن ذلك الأسلوب لم يفلح أصبح أكثر عدوانية : «اعتبر نفسي أفضل وأكثر جدارة من أي أصدقائك الذين يعدون أصدقاء بالاسم فقط، إن هدفي الرئيسي هو أن أغمرك بالمنافع، وإلى الآن عندما تقودني عاطفتي نحو واحدة أخرى لكي أفضل صحبتها على صحبتك، فإنني أكون مشغولا دائما بالتفكير في كيفية أن أكون باستمرار مفيدا لك. وفي مقابل ذلك ليس من الصواب أن أجرح باللوم والتوبيخ، هذه المودة الفريدة وغير المسبوقة تتطلب مقابلا جد مختلف» . وفي اليوم التالي يعود إلى نفس الموضوع .... «فكري إلى أي مدى تودين كيف يجب أن تكون حياتك المستقبلية تحت تأثير عقلي المدبر، وإذا ما كنت مازلت تثقين بما فيه الكفاية في نزاهتي الثابتة لكي تخضعي للقوانين التي قد تخلقها أي صداقة بيننا» . (٢٧)

هذه الرسائل كانت تكتب أحيانا لابتزاز النقود من «هاريت» (في تلك المرحلة كان مازال لديها نقود) وأحيانا للضغط عليها لتخفي مكان تواجده أو تحركاته عن أعين الدائنين والأعداء، وأحيانا لكي تتوقف عن استشارة المحامين.

ورسائله مليئة بالإشارات إلى «سلامتي الشخصية» ، «أمني وراحتي» . كان «شلي» إنسانا رقيق الإحساس إلى حد كبير، ولكنه يبدو عديم الإحساس بالنسبة لمشاعر الآخرين (وهي خلطة ليست غريبة) ،

عندما اكتشف أن «هاريت» لجأت إلى استشارة قانونية بشأن حقوقها انفجر غضبه، «في هذه الدعوى القضائية وإن كان صحيحا أن حماقاتك قد وصلت إلى هذا الحد. فإنك تحطمين أهدافك، إن ذكرى عطفنا السابق، والأمل في أنك لن تفقدي الفضيلة والكرم ربما هو الذي يؤثر عليّ حتى الآن لكي أتنازل بأكثر مما يسمح به القانون. وإن كنت مصرة بعد استلام هذه الرسالة على اللجوء إلى القضاء، فمن الواضح أنني لن أعتبرك سوى عدو .. عدو يمارس أوضع الخيانات وأكثرها سوادا»، ويضيف : «كنت شخصا أحمق عندما توقعت منك أي نبل أو كرم»، ويتهمها بـ «الأنانية الحقيرة الخسيسة»، وبأنها تحاول أن «تلحق الأذى بإنسان واقع في محنة». (٢٨)

كان خداعه لنفسه قد اكتمل في ذلك الوقت، وكان قد أقنع نفسه بأنه ـ من البداية للنهاية ـ كان يتصرف دون خطأ، وأن «هاريت» تتصرف دون صفح أو غفران.

كتب إلى صديقه «هوج» يقول : «أنا مقتنع تماما بأنني من الممكن أن أظل صديقا مخلصا ومحبا صالحا للبشرية ونصيرا قويا للحق والفضيلة». (٢٩)

كان من سمات «شلي» الطفولية العديدة قدرته على المزج بين الإساءة الشديدة وطلب الجميل، وهكذا فإنه بعد الخطاب الذي أرسله إلى أمه يتهمها فيه بالزنا، يتبعه بخطاب آخر يطلب فيه منها أن ترسل إليه «الجهاز الكهربائي الخاص بالتجارب الكيماوية والميكروسكوب»، كما أن إساءاته إلى «هاريت» كانت كذلك مليئة بطلب النقود ... بل والملابس. «أنا في حاجة إلى جوارب وحلقات لشراع المركب وأعمال «ووستنكرافت» التي صدرت بعد موتها ... أرسلي لي المؤونة على وجه السرعة ياعزيزتي «هاريت»»(٣٠) ، لم يسألها عن أحوالها رغم أنه كان يعرف أنها حامل منه .... ثم فجأة توقفت الرسائل.

كتبت «هاريت» إلى أحد الأصدقاء : «أصبح السيد «شلي» شخصا خليعا وداعرا وذلك بفضل كتاب «جودوين» : «العدل السياسي» ... الشهر القادم سأكون في حالة وضع ولن يكون بجانبي، إنه لا يهتم بي الآن ، لا يسأل عني ولا يرسل أي أخبار عنه، وباختصار فإن الرجل الذي كنت أحبه ذات يوم قد مات. إنه مبتز ... مصاص دماء»(٣١).

ابن «شلي»، الذي أسمته «هاريت» : «تشارلز بيشي» ولد في ٣٠ نوفمبر عام ١٨١٤، وليس من المعروف أن كان والده قد رآه. «اليزابيث» شقيقة «هاريت» الكبرى والتي ظلت وفية لها ـ وبالتالي كان «شلي» يعتبرها عدوة له ـ كانت مصرة على عدم ترك الأطفال لتربية نساء «شلي» البوهيميات، أما هو، فعلى العكس من «روسو»، لم يكن يعتبر أطفاله مزعجين أو مصدر قلق. كان يحارب من أجل أن يظلوا معه، ولكن كان من الحتمي أن تسير المعركة القانونية في غير صالحه لكي يصبح الأطفال تحت وصاية المحكمة ... وبعد ذلك فقد الاهتمام بهم.

أصاب الدمار حياة «هاريت»، وفي سبتمبر ١٨١٦ تركت الأطفال مع والديها وعاشت في «شيلسي»،

وفي آخر خطاب لها كتبته إلى شقيقتها : «إن تذكري لكل عطفك الذي لم استطع أن أرده لك يجعل قلبي يشعر بغصة. أعرف أنك سوف تسامحيني لأنه ليس من طبعك أن تكوني قاسية أو عنيفة مع أحد» (٣٢) ، واختفت في التاسع من نوفمبر. وفي ١٠ ديسمبر وجدوا جثتها في «سيربنتاين ـ هايدپارك» ، كانت الجثة متورمة ويقال أنها كانت حامل، وإن كان لا يوجد دليل على ذلك، أما «شلي» الذي كان قد روج كذبا أنهما كانا منفصلين باتفاق بينهما، فكان رد فعله هو ازدراء عائلة «هاريت» .

ونشر سلسلة من الأكاذيب : كتب إلى «ماري» يقول : «يبدو أن تلك المرأة المسكينة، والتي هي الأكثر براءة في عائلتها البغيضة وغير الطبيعية، كانت قد طردت من منزل الأسرة وسلكت طريق الدعارة إلى أن عاشت مع قواد يدعي «سميث» ، وانتحرت بعد أن تخلى عنها، ولا شك في أن اختها المتوحشة مصاصة الدماء بعد أن فشلت في تحقيق أي منفعة من وراء علاقتها بي، قد ضمنت لنفسها ثروة الرجل العجوز ـ الذي يحتضر الآن ـ بمقتل تلك الإنسانة ... إن الجميع يكافئني وتلك شهادة على ليبرالية وسلامة سلوكي إزاءها»(٣٤) ، بعد يومين كتب رسالة لأختها مجردة من أي إحساس بالتعاطف. (٣٥)

وربما كان من الممكن تفسير كذبه الهيستيري إلى حد ما، بأنه كان لايزال متوتر الأعصاب بسبب عملية انتحار أخرى كان مسئولا عنها. كانت «فاني ايملاى» ابنة زوجة «جودوين» من رجل آخر قبله، وكانت تكبر «ماري» بأربع سنوات وكانت «هاري» تصفها بأنها «إنسانة بسيطة جدا ومعقولة جدا» ، وكان «شلي» قد مارس مناوراته من حولها منذ ديسمبر ١٨١٢ عندما كتب إليها : «أنا أحد تلك الحيوانات المرعبة طويلة المخالب التي تسمى بالإنسان، ومنذ أن أكدت لك بأنني واحد من أقلهم ضررا وأعيش على الغذاء النباتي ولم أعض منذ ولدت، لذلك أغامر بأن أفرض نفسي على اهتماماتك»(٣٦) .

كان «شلي» قد جذبها وكان «جودوين» وزوجته يعتقدان أنها قد وقعت في غرامه بعنف، وبين ١٠ ، ١٤ سبتمبر ١٨١٤ كان «شلي» بمفرده في «لندن» وقامت «فاني» بزيارته في مسكنه ليلا، والاحتمال الأكبر أنه استطاع أن يغويها، بعد ذلك ذهب إلى «باث» ، وفي ٩ اكتوبر تلقي ثلاثتهم خطابا من «فاني» شديد الاكتئاب عليه خاتم بريد «بريستول» ، شرع «شلي» من فوره في البحث عنها دون جدوى، حيث كانت قد غادرت إلى «سوانسي» ، وفي اليوم التالي تناولت جرعة زائدة من الأفيون في غرفتها في «ماركوت آدمز» ، ولم يشر «شلي» إليها في رسائله بالمرة. ولكن في سنة ١٨١٥ تجيء إشارة قصيرة إليها في قصيدة : «كان صوتها يرتعش ونحن نفترق» ، يصور نفسه فيها «شابا أشيب الشعر مرهق العين» ، جالسا بجوار قبرها. ولكن تلك كانت مجرد فكرة حيث لم يزر قبرها مطلقا .... ذلك القبر الذي بقي مجهولا(٣٧) .

كما كانت هناك أضحيات أخرى كثيرة على مذبح أفكار «شلي» ، واحدة منها كانت «اليزابيث هيتشينر» ، شابة من الطبقة العاملة في «سسكس» ، ابنة أحد المهربين تحول إلى صاحب فندق، ومن خلال تضحيات وجهود استثنائية عملت مدرسة في «هيرست باير بوينت» . كانت معروفة بأفكارها الثورية وكان

«شلي» يراسلها. وفي سنة ١٨١٢ كان في «دبلن» يتحدث إلى الأيرلنديين عن الحرية دون أن يستجيبوا له، وعندما تركوه بمادته التحريضية بين يديه واتته فكرة إرسالها إلى «هيتشينر» لتوزعها في «سسكس»، وحدث أن فتحت السلطات الصندوق الخشبي، الذي أرسلها فيه، في أحد الموانى، فوضعت المدرسة تحت المراقبة، وكانت النتيجة أنها فقدت وظيفتها، ولكن كان لايزال لديها شرفها ..فدعاها «شلي» إلى مجتمعه الصغير ووافقت على غير رغبة والدها وأصدقائها، كما أقنعها بأن تقرضه ٢٠٠ جنيها، وربما كان ذلك المبلغ كل مدخرات عمرها.

في هذه المرحلة كان كثير الثناء عليها «رغم انتمائها بالميلاد إلى وسط متواضع، إلا أنها استطاعت في شبابها أن تصبح صاحبة فكر رافد، وعقلها خلاق بطبيعته وقد تخلصت من كل قيود الغرض»(٣٨).

كما كان يصفها في خطاباته بـ «صخرتي في هذه العاصفة» و«العبقرية الأسمى لدي» و«الفيصل في تفكيري ... دليل عملي ... تلك التي جعلت لي قيمة تذكر»، وأنها كانت «واحدة من الذين يحملون معهم السعادة والإصلاح والحرية أينما حلوا»(٣٩).

لحقت بـ «آل شلي» في «لينموث» ووصفوها بأنها كانت «تضحك وتكتب وتتحدث طوال اليوم»، وكانت تقوم بتوزيع منشورات «شلي»، ولكن سرعان ما كرهتها «هاريت» وأختها ولم يكن «شلي» نفسه ضد حدوث توتر ومنافسة بين نسائه، ولكنه في هذه الحالة شاركهما رفضها، ويبدو أنه كان قد أغوى «هيتشنر» أثناء تجوالهما الطويل على الشاطيء وشعر فيما بعد بالاشمئزاز. وعندما انقلبت عليها «هاريت» و«إليزا» قرر أنها لابد أن ترحل، وكان في ذلك الوقت قد عقد صلة بآل بيت «جودوين» حيث وجد فتياتهم أكثر إثارة. وهكذا أرسلت إلى «سسكس» لتواصل القضية هناك على وعد براتب جنيهين في الأسبوع .. ولكنها كانت موضع سخرية هناك ... العشيقة المهملة لأحد الرجال !كتب «شلي» إلى «هوج» يقول في استهزاء : «الشيطان البني، كما أسمي معذبتنا ومدرستنا السابقة، يجب أن تتلقى المعاش، أنا أدفعه على مضض ولكني مضطر، لقد حرمها تسرعنا غير المنصف من وضع كانت تمضي فيه بهدوء، والآن تقول أن سمعتها قد ضاعت وصحتها دمرت وسلامها العقلي قد انتهى بسبب قسوتي ووحشيتي، وأنها ضحية كاملة لكل المتاعب النفسية والجسدية التي يمكن أن تتحملها بطلة»، ثم لا يملك إلا أن يضيف : «إنها خنثي متوحشة، ماكرة، سطحية، قبيحة». وفي الحقيقة فإنها لم تتلق إلا القسط الأول من أجرها ولم يسدد لها المائة جنية التي كان قد اقترضها منها .. وهكذا انسحبت إلى عالم النسيان الذي كان «شلي» قد جذبها منه .. ضحية احترقت بلهيبه !

حالة أخرى مشابهة وإن تكن أقل أهمية هي حالة «دان هيلي» وهو شاب عمره ١٥ سنة كان «شلي» قد عاد به من إيرلنده ليعمل خادما لديه، ونحن قليلا ما نسمع عن خدم آل «شلي» رغم وجود ثلاثة أو أربعة منهم دائما. وفي رسالة إلى «جودوين» راح «شلي» يدافع عن حياته المرفهة على أساس «لو أنني كنت أعمل على النول أو المحراث وزوجتي في المطبخ أو الخدمة المنزلية لكنا قد أصبحنا الآن كائنات

أخرى في المجتمع ـ وربما أضيف ـ وأقل نفعا لجنسنا»(٤٠).

ولذلك كان لابد أن يكون هناك من يخدمه سواء كان «شلي» قادرا على ذلك من الناحية الاقتصادية أم لا ، فكان يستأجر أناسا من المواطنين المحليين لقاء أجور متدنية، ولكن «دان» الايرلندي كان مختلفا، حيث وجد له «شلي» فائدة في «دبلن» ليعلق بياناته غير القانونية، وفي صيف ١٨١٢ استخدمه لتعليق نشراته على الجدران والمحلات، وكان قد نبه عليه إنه في حال استجوابه من قبل السلطات عليه أن يحكي قصة عن «لقائه برجلين في الشارع»، وفي أغسطس ألقي القبض عليه في «بارنستابل» وحكى قصته .. ولكن ذلك لم يكن في صالحه على الإطلاق حيث وقع تحت طائلة القانون «٣٩ ـ جورج الثالث»، وحكم عليه بغرامة تصل إلى مائتي جنيها أو السجن ٦ سنوات .. ودخل السجن.

وبعد الإفراج عنه عاد لخدمة «شلي» الذي فصله بعد ٦ شهور، وكان السبب المعلن لذلك أن سلوكه لم يكن أخلاقيا ـ أما السبب الحقيقي فهو أن آل «شلي» كانوا قد قرروا الاقتصاد في الإنفاق، ولم يدفعوا له عشرة جنيهات كانت قد بقيت له عندهم(٤١)، وهكذا دخلت ضحية جديدة من ضحاياه إلى ظلام النسيان.

وقد يقول قائل ـ دفاعا عن «شلي» ـ إن تلك الأمور حدثت وهو صغير السن حيث كان في العشرين في عام ١٨١٢ كما كان في الثانية والعشرين عندما هجر «هاريت» وهرب مع «ماري»، ونحن ننسى دائما كيف كان أبناء ذلك الجيل من الشعراء الإنجليز عندما ماتوا ... كان «كيتس» في الخامسة والعشرين، و«شلي» في التاسعة والعشرين و«بيرون» في السادسة والثلاثين. عندما غادر «بيرون» انجلترا إلى الأبد والتقى «شلي» لأول مرة على شاطيء البحيرة في جنيف في ١٠ مايو ١٨١٦ كان مايزال في الثامنة والعشرين، بينما كان «شلي» في الرابعة والعشرين، أما «ماري» و«كلير» فقد كانتا في الثامنة عشرة تقريبا، ويمكن أن نقول إن رواية «فرانكشتاين» التي كتبتها «ماري» على البحيرة أثناء ليالي الصيف كانت عملا من أعمال طلبة المدارس، ورغم ذلك ورغم اعتبارهم أطفالا على نحو ما، إلا أنهم كانوا كبارا رافضين لقيم العالم، يقدمون نظاما بديلا خاصا بهم مثل طلبة الستينيات.

لم يروا أنفسهم صغارا على المسئولية، ولم ينغمسوا في ذلك في فورة من فورات حماس الشباب .. بالعكس تماما، كان «شلي» على نحو خاص مصرا على جدية رسالته بالنسبة للعالم. ومن الناحية العقلية كان نضجه سريعا، وقصيدته القوية «الملكة ماب» رغم أنها ماتزال شابة في بعض جوانبها، كتبها وهو في العشرين ونشرها في العام التالي، واعتبارا من ١٨١٥ ـ ١٨١٦ وما بعدهما وهو يتقدم نحو منتصف العشرينيات من العمر كانت أعماله تقترب من أوجها، وكانت في تلك المرحلة تعكس قراءة متميزة وعمقا شديدا في التفكير، ولا شك في أن «شلي» كان يملك عقلا جبارا شديد الحساسية. ورغم صغر سنه إلا أنه قبل أن يتحمل واجبات الأبوة.

ودعنا ننظر الآن إلى أطفاله.

كان لديه سبعة أطفال من ست أمهات. الأولان : «إيانثي» و«تشارلز» من «هاريت» وقد تركهما لحضانة المحكمة. عارض «شلي» ذلك بقوة في البداية ولكنه خسر القضية لأن المحكمة فزعت لبعض الأفكار التي تضمنتها قصيدته «الملكة ماب»، وكان يعتبر ذلك محاولة أيديولوجية ضده لكي يتخلى عن أفكاره الثورية(٤٢) ، وعندما صدر الحكم ضده واصل التفكير في الظلم الذي حل به وكره المستشار «لورد إلدون» ولكنه لم يبد أي اهتمام بالطفلين بعد ذلك. وقد أجبره حكم المحكمة على دفع ثلاثين جنيها كل ثلاثة شهور لهما بعد وضعهما مع أسر بديلة، وكان المبلغ يخصم من دخله من المنبع ، كما لم يستخدم حقه الذي منحته له المحكمة في زيارتهما. لم يكتب لهما أبدا رغم أن «ايانثي» الكبرى كانت في التاسعة عندما مات، لم يسأل عن أحوالهما إلا بالطريق الرسمي والخطاب الوحيد الذي أرسله إلى والدهما بالتبني «توماس هيوم» بتاريخ ١٧ فبراير ١٨٢٠ هو في الأساس عن أخطائه، ويعتبر وثيقة خالية من أي عطف أو إحساس(٤٣) ، ولا يوجد أي ذكر بعد ذلك للطفلين في أي رسائل أو مذكرات، ويبدو أنه كان قد نفاهما تماما من عقله رغم ظهورهما ظهورا شبحيا في قصيدته «ابيبسي شديون» الأشبه بالسيرة الذاتية.

كما كان له أربعة أطفال من «ماري»، مات منهم ثلاثة وبقي منهم ابنه «پيرسي فلو رانس» المولود في ١٨١٩ كان الأول طفلة ماتت في مرحلة الرضاعة، الثاني «وليم» أصيب بالتهاب في الأمعاء في «روما» وهو في الرابعة، سهر «شلي» إلى جواره ثلاث ليال متوالية ولكنه مات. وربما كان موت ابنته «كلارا» الرضيعة في العام السابق وشعوره بالذنب هو الذى جعله يبذل ذلك الجهد ويسهر جوار ابنه، في أغسطس كانت «ماري» والطفلة في منتجع «بانجي دي لوكا» وكان «شلي» في «استي» على التلال القريبة من «ڤينيسيا» ، وأصر على أن تلحق به الأم والطفل في الحال وهي رحلة مجهدة تستمر خمسة أيام في أشد فصول العام حرارة. لم يكن «شلي» يعرف أن الطفلة «كلارا» كانت في صحة سيئة قبل بدء الرحلة، وعندما وصلت كان مرضها واضحا ولم تتحسن حالتها.

ورغم ذلك، وبعد ثلاثة أسابيع ولراحته هو فقط، وكان قد أسكره تبادله للأفكار الثورية مع «بيرون» ، طلب من «ماري» أن تلحق به هي والطفلة في «ڤينيسيا»، كانت «كلارا» المسكينة، كما تقول أمها، في حالة شديدة من الضعف والحمي.

واستمرت الرحلة من الثالثة والنصف صباحا إلى الخامسة بعد الظهر في صيف قائظ، وصلت الطفلة إلى «بادوا» في حالة بالغة السوء وأصر «شلي» على أن يواصلا الرحلة إلى «ڤينيسيا»، وفي الطريق «انتابت الطفلة نوبات تشنج في الفم والعينين» وماتت بعد وصولهما بساعة(٤٤).

وقد اعترف «شلي» بأن «تلك الصدمة غير المتوقعة» ـ والحقيقة أنها كانت متوقعة ـ جعلت «ماري» في «حالة يأس»، وكانت تلك مرحلة مهمة من مراحل تدهور العلاقة بينهما.

وفي شتاء نفس العام ازدادت الأمور سوءا عندما سجل طفلة غير شرعية له في نابلس ـ عمدت باسم

إيلينا ـ وقال إن اسم أمها هو «ماري جودوين شلي»، والمؤكد أن زوجته لم تكن هي أم الطفلة : وبعد ذلك بوقت قصير بدأ أحد خدمه السابقين واسمه «پاولو فوچي» في ابتزازه. كان قد تزوج «إليزا» مربية أطفالهما، أما سبب تهديده له فكان على أساس أن «شلي» كان قد أعطي بيانات كاذبة عندما قال إن «ماري» هي أم الطفلة. وهناك احتمال أن تكون الأم هي «إليزا» وإن كان هناك ما يدحض ذلك، حيث ان «إليزا» نفسها كان لديها رواية مختلفة عن الموضوع ، في سنة ١٨٢٠ أخبرت «ريتشارد هوبنر» ، القنصل البريطاني في «ڤينيسيا» والذي كان يحترم «شلي» رغم سمعته، أن الشاعر أودع طفلة صغيرة مستشفي اللقطاء في «نابلس» كان قد أنجبها من «كلير كلير مونت».

وقد استاء «هوبنر» كثيرا من سلوك «شلي»، وعندما أسر بذلك إلى «بيرون» كان رد الأخير : «الحقائق لا تقبل الكثير من الشك : إنها تشبههم»(٤٥).

كان «بيرون» يعرف كل شيء عن «شلي» و«كلير كلير مونت»، كانت أم ابنته غير الشرعية «ألليجرا» كذلك، وكانت قد حاولت إغواءه قبل أن يغادر انجلترا في ربيع ١٨١٦ ، أما «بيرون» الذي كان لديه بعض الوساوس عن إغواء عذراء، فكان قد نام معها فقط بعد أن أخبرته بأنها كانت قد نامت مع «شلي» بالفعل(٤٦). كان ذلك أحد أسباب رفضه لأن يتركها تربي «الليجرا» رغم أن فصل البنت عن أمها كان قاتلا بالنسبة لها. كان «بيرون» مقتنعا بأن «الليجرا» هي ابنته وليست ابنة «شلي»، «لأنه كان واثقا من أنها لم تكن تمارس الجنس مع «شلي» في تلك الأيام ويبدو أنه كان يعتقد أنهما كانا قد استأنفا ذلك في غياب «ماري»، وكانت «الينا» هي ثمرة تلك العلاقة. وقد حاول كثير من المدافعين عن «شلي» إعطاء تفسيرات مختلفة للمسألة ولكن الاحتمال الأكبر هو أن الطفلة هي ابنة «كلير» و«شلي»(٤٨).

وقد حطم هذا الحدث «ماري» التي لم تحب «كلير» أبدا وكانت تكره حضورها المستمر إلى منزلهم، ولو أن الطفلة كانت قد ظلت معهم لأصبحت «كلير» عضوا دائما في البيت، ولربما كانت استأنفت علاقتها بـ «شلي». وامتثالا لحزن «ماري» قرر «شلي» أن يتخلى عن الطفلة ليحذو حذو رفيقه «روسو» ويستفيد من ملجأ اللقطاء هناك . ماتت الطفلة في شهرها الثامن عشر، ولم يكن ذلك مفاجأة (١٨٢٠)، وفي العام التالي ودون أدنى مبالاة بنقد «هوبنر» وغيره له، لخص «شلي» المسألة برمتها في خطاب إلى «ماري» حيث يقول في جملة واحدة قاسية ودالة : «لقد استعدت على وجه السرعة تلك اللامبالاة الجديرة بأي شيء أو أي شخص سوى وعينا»(٤٩).

هل كانت علاقة «شلي» بالنساء مقتصرة على امرأة واحدة؟ بالتأكيد لا. ولكن ليس بنفس المعنى الذي كان عليه «بيرون» والذي زعم في سبتمبر ١٨١٨ أنه كان قد أنفق في خلال عامين ونصف العام أكثر من ٢٥٠٠ جنيها على نساء من «ڤينيسيا» ونام على الأقل مع «مائتي وربما أكثر»، وفيما بعد كان يذكر ٢٤ منهن بالإسم(٥٠).

من ناحية أخرى كان إحساس «بيرون» بالشرف أكبر من إحساس «شلي» به، لم يكن خبيثا ولا محتالا. كتب «شلي» إلى المصلح الجنسي والداعية النسائي «ج.هـ. لورانس» يقول: «لو أن هناك جريمة كبري أو مدمرة أخشى أن أتهم بها لكانت إغواء النساء»(٥١)، كانت تلك نظريته ولكنها لم تكن ممارسته، وبالإضافة إلى الحالات التي ذكرناها كانت هناك علاقة عاطفية أخرى مع امرأة إيطالية من أصل طيب اسمها «اميليا فيفياني»، التي أخبر «بيرون» بكل شيء عنها ثم أضاف: «أرجو ألا تذكر أي شيء مما قلته لك لأن المسألة ليست معروفة بكاملها وربما تغضب «ماري» لذلك»(٥٢).

ويبدو أن ما كان يرغب فيه.«شلي» هو امرأة توفر لحياته الراحة والاستقرار وتسمح له بعلاقات جانبية وفي مقابل ذلك (من ناحية المبدأ على الأقل) قد يسمح لزوجته بنفس الحرية. إن ترتيبا كهذا كما سوف نري سيصبح هدفا متواترا لدى كبار المثقفين من الرجال ولكنه لم يفلح في حالة «شلي» تحديدا.

فالحرية التي منحها لنفسه سببت آلاما نفسية مبرحة لـ «هاريت» أولا، ثم لـ «ماري» من بعدها. وببساطة فإنهما لم يريدا تلك الحرية المتبادلة. ويبدو أن «شلي» كان كثيرا ما يناقش الأفكار مع صديقه الثوري «لي هنت»، ويسجل الرسام وكاتب اليوميات «بنيامين روبرت» أنه كان قد سمع «شلي» «يبدي آراءه للسيدة «هنت» وغيرها من الحاضرات ... عن سخف وعبث العفة» وأثناء المناقشة كانت صدمة «هايدن» قوية عندما قال «هنت» «إنه لن يمانع أن ينام أي شاب يراه مناسبا لذلك مع زوجته»، ويضيف «هايدن»: «كان «شلي» يتبنى تلك المبادىء ويتبعها بشجاعة ـ أما «هنت» فكان يدافع عنها دون أن يجرؤ على ممارستها وكان قانعا بذلك»(٥٣).

أما رأي النساء فلم يسجل، وعندما أخبر «شلي» «هاريت» بأنها سوف تنام مع صديقه «هوج» رفضت صراحة. وعندما سمح بنفس الشيء لـ «ماري» تظاهرت بالموافقة ولكنها قالت أخيرا إن الرجل لا يعجبها(٥٤).

والأدلة التي بقيت توضح لنا أن تجارب «شلي» الخاصة في ممارسة الحب الحر (العيش عيش الأزواج دون عقد شرعي) كانت مختلسة وغير شرعية مثل تجارب الزناة، وقد ورطته في مواقف معقدة كثيرة وفي سلسلة طويلة من الأكاذيب التي لا نهاية لها.

نفس الشيء بالنسبة لتعاملاته المالية. كانت معقدة ومزعجة وسوف أقدم أقصر تلخيص لها هنا.

من الناحية النظرية لم يكن «شلي» يؤمن بالملكية الخاصة بالمرة، ناهيك عن الميراث والحقوق التي آلت إليه لأنه كان الإبن الأكبر. لقد وضع مبادئه الاشتراكية في «نظرة فلسفية للإصلاح»: «إن المساواة في الملكية لابد أن تكون النتيجة النهائية لرفاهية الحضارة، إنها أحد شروط ذلك النظام الاجتماعي الذي يجب علينا أن نتجه نحوه مهما كان أملنا في النجاح»(٥٥)، ولكن في نفس الوقت كان من الضروري أن يحافظ الأثرياء المستنيرون مثله على ثرواتهم الموروثة لكي يتابعوا القضية. وقد كان ذلك فيما بعد تبريرا ذاتيا

مألوفا وشائعا في الواقع بين المثقفين الثوريين الأغنياء، وقد استخدمه «شلي» بقوة وبكل ما يستطيع لكي يسحب المزيد من المال من أسرته. ولسوء حظه، هاهو يقول متفاخرا في أول رسالة له إلى معلمه «جودوين» وهو يقدم نفسه إليه : «أنا ابن رجل ثري من «سسكس» .. وريث ضيعة تدر دخلا ستة آلاف جنيه في العام»(٥٦)، ولابد أن يكون ذلك قد جعل «جودوين» يصيخ السمع جيدا. لم يكن مجرد فيلسوف راديكالي وإنما كان عبقرية مالية مشوشة وأحد كبار المختلسين في التاريخ. ولأنه كان متمرسا، فقد اختفت مبالغ كبيرة من أموال كثير من أصدقائه حسني النية في متاهات ديونه ولم يظهر منها شيء.

ولذلك وضع يده على «شلي» الذي كان صغيرا بريئا آنذاك ولم يتركه يفلت منه، لم يستول على أموال عائلة «شلي» فقط، وإنما أفسده بكل وسائل الديون التي كانت معروفة في أوائل القرن التاسع عشر، وهكذا فإن نسبة كبيرة مما كان يكسبه ضاعت في غيابة الجب الأسود لـ «جودوين»(٥٧)، ولم تكن الخسارة المالية هي الضرر الوحيد الذي لحق بـ «شلي» من جراء علاقته به، فقد كانت «هاريت» على حق عندما اعتقدت أن الفيلسوف الكبير كان قد جعل زوجها إنسانا فظا وقاسيا في نواح كثيرة، وعلى نحو خاص فيما يتعلق بنظرته للمال. روت أن «شلي» الذي كان قد تركها من أجل «ماري» جاء لزيارتها بعد أن وضعت ابنها «وليم» : «قال إنه كان سعيدا لأنها ولدت طفلا ذكرا، لأن ذلك يجعل الماضي أرخص»(٥٨).

... يقصد أنه كان بإمكانه أن يحصل على قرض نافذ المفعول بعد الوفاة بمعدل فائدة منخفض، ولم تكن تلك أفكار شاعر مثالي عمره ٢٢ سنة، وإنما أفكار مدين محترف وداهية ! ولم يكن «جودوين» مصاص الدماء الوحيد في حياة «شلي»، كان هناك «لي هنت» المثقف المتطفل أبدا، بعد ذلك بربع قرن لخص «توماس بابنجتون ماكولي» شخصية «هنت» عندما كتب إلى «نابير» محرر مجلة «أدنبره ريفيو» يقول أنه رد على رسالة لـ «هنت» وهو خائف بأن يصبح واحدا من الأشخاص الذين يبتزهم بطلب مبلغ ٢٠ جنيها كلما أراد»(٥٩).

كان «هنت» قد بدأ نشاطه الطويل في الاقتراض في زمن «شلي»، مستخدما أسلوب «روسو» المجرب في إقناع ضحاياه بأنه كان يسدي إليهم معروفا بالاقتراض منهم، وعندما مات «شلي» اتجه «هنت» إلى «بيرون» الذي كان يعتقد أنه كان قد نهب «شلي»، ولكنه للأسف كان قد صنع ما هو أسوأ من ذلك بإقناع «شلي» بأ تسديد الديون بالنسبة للمفكرين الثوريين مثلهما لم يكن ضرورة أخلاقية، فالعمل من أجل الإنسانية في حد ذاته كان كافيا.

وهكذا أصبح «شلي» رجل الحقيقة غشاشا ومحتالا مدي الحياة . كان يقترض من كل مكان ومن كل أنواع البشر ولم يسدد معظم تلك المبالغ، ولم يكن الشاب «دان هيلي» هو الأيرلندي الوحيد الذي احتال عليه «شلي»، حيث اقترض مبلغا كبيرا من «جون لويس» المحرر الجمهوري الذي كان صديقا له في «دبلن»، ولم يتحمل الرجل ضياع أمواله، وبعد رحيل «شلي» كتب إلى «هوج» يسأل عنه وكيف

يجده ؟ وبعد ذلك بوقت قصير قبض عليه بسبب الديون.

لم يحاول «شلي» أن ينقذه بتسديد دينه له، بل كان يحتقره بسبب شكواه، فكتب إلى صديقة مشتركة في «دبلن» اسمها «كاترين ناچينت» : «أخشى أن يكون قد لعب عليك كما لعب علينا»(٦١)، والأسوأ من ذلك أن «شلي» وقّع كمبيالات في «لينموث» مستخدما اسمه الأمر الذي كان يعتبر تزويرا وجريمة كبرى(٦٢).

احتال «شلي» أيضا على مجموعة كبيرة من أهالي «ويلز» عندما كان هناك. كان قد وصل في عام ١٨١٢ واستأجر مزرعة وبعض الخدم ولكن سرعان ما ألقي القبض عليه بسبب تراكم الديون وخرج بكفالة «چون وليمز» وكيل أعماله ومغامراته والطبيب «وليم روبرتس»، أما الدين والمصاريف فقد تحملها محامي من لندن اسمه «چون بدويل»، وقد ندم الثلاثة فيما بعد على كرمهم، وفي سنة ١٨٤٤ أي بعد أكثر من ثلاثين سنة كان دكتور «روبرتس» مازال يحاول استرداد دينه لدى «شلي»، ولكن لا هو ولا شقيقه «أوين» استطاعا الحصول على أي شيء ، كما كان عنيفا ومتزمتا مع أي شخص يقترض منه (باستثناء «جودوين» و«هنت») . فقد تلقى رجل أيرلندي آخر اسمه «چون ايڤانز» مطالبتين بديون، يذكره فيهما «شلي» بأن دينه كان نقدا، ومعني ذلك أنه كان «دين أمانة وواجب السداد فورا»(٦٣) . كان «شلي» مدينا لتجار وباعة من كل صنف ، في ابريل ١٨١٧ اتفق هو و«هنت» على أن يدفعا ثمن بيانو لشخص اسمه «چوزيف كيركمان» الذي سلمهم البيانو في موعده ولكنه لم يحصل على ثمنه قبل أربع سنوات. واتفق «شلي» مع «شارتر» صانع العربات الشهير في «بوند ستريت» أن يصنع له مركبة تكلفت ٥٣٢ جنيها، كان يستخدمها حتى آخر يوم في حياته لم يدفع ثمنها، وأخذه الصانع إلى المحكمة وحتى سنة ١٨٤٠ كان يحاول أن يسترد حقه. كما استغل صانعي وباعة الكتب الذين كانوا ينشرون له بالدين.

بدأ باقتراض مبلغ ٢٠ جنيها من «سلاتر» بائع الكتب في «أكسفورد» عندما كان مطرودا من الجامعة. كان «سلاتر» معجبا به ويريد أن يحميه من جشع المقرضين الآخرين، ولكن الذي حدث أن «شلي» أوقعه في ورطة. في سنة ١٨٣١ كتب شقيق «سلاتر» إلى السير «تيموثي» يقول : «لقد عانيت كثيرا نتيجة تطوع مخلص لإنقاذ ابنك من براثن اليهود لكي يحصل منهم على نقود بمعدل فائدة عال، وضاع علينا مبلغ ١٣٠٠ جنيها»، وفي النهاية تم القبض على «سلاتر» وشقيقه بسبب الدين الذي يبدو أن «شلي» لم يسدده.

صاحب مطبعة «واي بردج» الذي نشر له كتابه «ألاستور» ظل يطالب «شلي» بحقوقه لمدة أربع سنوات ونصف السنة دون جدوى، ولا يوجد دليل على أنه حصل على شيء. وفي ديسمبر ١٨١٤ كتب «شلي» إلى ناشر ثالث يقول : «إن استطعت أن تطبع الكتب سوف أعطيك سندا نافذ المفعول بعد الوفاة بقيمة ٢٥٠ جنيها عن كل كتاب قيمته ١٠٠ جنيها»، وقال له إن عمر والده ٦٣ سنة وجده ٨٥ سنة بينما كانا في الحقيقة ٦١ ، ٨٣ وناشر آخر اسمه «توماس هوكهام» طبع له «الملكة ماب» بالدين وأقرضه

مبلغا ولم يسترد شيئا ولأنه كان متعاطفا مع «هاريت» كان «شلي» يكرهه ويحقد عليه، كتب إلى «ماري» في ٢٥ اكتوبر ١٨١٤ يقول : «إذا التقيت «هوكهام» لا تهينيه علنا، مايزال عندي أمل ... سوف أجعل ذلك الشرير المتوحش يشمئز من لحمه ...... في الوقت المناسب، سوف أمزقه في حينه وأسحق كرامته وأدمر روحه الأنانية على مراحل»(٦٤).

ما هو القاسم المشترك في ذلك كله ... تصرفاته الجنسية والمالية الشريرة، علاقته بوالده وأمه وزوجاته وأطفاله وأصدقائه ومعارفه ؟

من المؤكد أن العامل المشترك هو عدم القدرة على رؤية وجهة نظر أخرى ، أو باختصار الافتقار إلى الخيال ! ولكن ذلك يبدو غريبا، فالخيال يوجد في صميم نظريته عن التجديد السياسي، والخيال عنده مطلب من أجل إعادة صياغة العالم، وحيث إن الشعراء هم الذين يملكون تلك الخاصية في أعلى درجاتها، ولأن الخيال الشعري هو الإنجاز الأكثر قيمة والأعمق إبداعا في كل الانجازات البشرية فإنه يلقبهم بـ «مشرعي العالم الطبيعيين غير المعترف بهم» ، وهنا يصبح هو شاعرا ـ وواحدا من الشعراء العظام ـ وقادرا ربما على التعاطف الخيالي مع طبقات بكاملها، العمال الزراعيين المسحوقين، العمال الصناعيين الذين حطموا الآلات لاعتقادهم أنها سوف تؤدي إلى تناقص الطلب على الأيدي العاملة، المتمردين في المصانع، ومع أناس لم يرهم في حياته. هنا يصبح قادرا ـ في المطلق والمجرد ـ على الإحساس بكل معاناة الإنسانية، ومع ذلك يجد من المستحيل، مرة ومرات ومئات المرات أن يخترق بخيال عقول وقلوب من كان له بهم علاقة يومية ! من باعة الكتب إلى البارونيت (حاملو الرتب الشرفية أو الألقاب الموروثة)، من الخادمات إلى السيدات ... ببساطة، لم يستطع أن يرى أن من حقهم أن يكون لهم وجهة نظر مختلفة ، وعندما كان يواجه بعنادهم وتصلبهم كان يلجأ إلى البذاءة والسباب، وهناك خطاب بتاريخ ٢١ مارس ١٨١٣ كان قد أرسله إلى «جون وليمز» يصور بكل دقة محدودية خياله.

يبدأ خطابه بهجوم لفظي على «بدويل» سيء الحظ، ويواصل هجومه العنيف على التعيسة «مس هيتشنر» :

«امرأة ذات أفكار يائسة وعواطف مرعبة وميل إلى الثأر ... لقد ضحكت ملء شدقي يوم محنتها» ، وينهي خطابه بنداء إلى الإنسانية : «أنا على استعداد لأن أفعل أي شيء من أجل وطني ومن أجل أصدقائي لخدمتهم» ، كان ذلك هو «وليمز» أثناء عملية خداعه والذي سوف يتحول قريبا إلى دائن آخر .. مسكين(٦٥).

لقد كرس «شلي» حياته للتقدم السياسي، مستخدما موهبته الشعرية الكبيرة دون أن يعي افتقاره لعنصر الخيال، ولم يحاول أن يحسن ذلك باكتشاف حقائق عن فئات البشر الذين كان يريد أن يساعدهم. وقد كتب «خطاب إلى الشعب الأيرلندي» حتى قبل أن تطأ قدمه أرض البلاد، وعندما وصل إلى هناك لم يبذل أي جهد منظم لبحث الظروف أو لمعرفة ماذا كان الأيرلنديون يريدون بالفعل(٦٦). كان يخطط سرا

لتدمير العقيدة التي يريدونها. كذلك فإن «شلي» ظل جاهلا بالسياسة الانجليزية وبالرأي العام وبالطبيعة اليائسة للمشكلات التي كانت تواجه الحكومة في مرحلة ما بعد «ووترلو» وبجدية الجهود المبذولة لحلها، لم يحاول أبدا أن يحيط نفسه علما أو أن ينصف رجالا حسني القصد مثل «كاستلريغ» و«السير روبرت بيل»، وتحديدا عن طريق ذلك الخيال الذي كان يقول بضرورته. كان بدلا من ذلك يحتقرهم في «قناع الفوضي»، بالضبط كما كان يحتقر دائنيه ويهين نساءه في خطاباته.

كان «شلي» بوضوح يريد تحولا سياسيا كاملا في المجتمع، بما في ذلك تدمير الدين ولكنه كان لا يعرف السبيل إلى ذلك. كان ينادي في وقت ما باللاعنف. وهناك من يرى أنه كان أول إيڤانچلست (مبشر بروتستانتي) حقيقي للمقاومة السلمية، أول سلف لـ «غاندي»(٦٧). كتب في الخطاب الأيرلندي: «ليس هناك ضرورة للقوة أو العنف. الجمعيات التي تشجع على ذلك معرضة لأقوى رفض من قبل أي مصلح حقيقي .. وجميع الجمعيات السرية رديئة».

ولكن «شلي» كان يفكر أحيانا في تنظيم كيانات سرية، وبعض شعره يعني أو يدل على تحريض من أجل العمل المباشر. و«قناع الفوضي» نفسه متناقض، مقطوعة منه (السطور من ٣٤٠ ـ ٣٤٤) تؤيد اللا عنف. ولكن أهم وأشهر مقطوعة، التي تنتهي بـ «أنتم كثرة وهم قلة» والتي تتكرر أكثر من مرة، هي دعوة للعصيان المسلح(٦٨).

«بيرون» الذي كان ثوريا مثل «شلي»، ورجل أفعال أكثر منه مثقفا، لم يكن يؤمن بتحويل المجتمع بالمرة، وإنما بتقرير المصير فقط، ولذلك كان متشككا في يوتوبيا «شلي». وفي قصيدة «شلي» الجميلة «چوليان ومادالو» والتي تسجل أحاديثهما الطويلة في ڤينيسيا، يقول «بيرون» على لسان «مادالو» عن البرنامج السياسي لـ «شلي»: «أعتقد أنك لابد أن تجعل نظاما كهذا عصيا على الدحض، وعلى قدر ما تقول الكلمات» ولكن من الناحية العملية «فإن تلك النظريات المتمناة كانت «عبث»، وهذه القصيدة التي تعود إلى سنة ١٨١٨ ـ ١٨١٩، والتي يعترف فيها «شلي» بنقد «بيرون» تعتبر وقفة في أصوليته السياسية المتهورة.

كان «شلي» يقترب من «بيرون» بتواضع شديد ... «لا يمكن أن أكون ندا للورد «بيرون» مهما حاولت، ولا يوجد أحد سواه يستحق أن يكون كذلك .. إن كل كلمة من كلماته متسمة بالخلود». وفي مرحلة ما كانت قوة «بيرون» تكاد تصيبه بالشلل. «لقد أطفأت الشمس سراج الليل» كما قال.

ومن المؤكد أن معرفة «بيرون» كان لها تأثير نضج على «شلي»، ولكن على العكس من «بيرون» الذي بدأ يرى دوره كمنظم للشعوب المظلومة (الايطاليون ثم اليونانيون) فإن «شلي» بدأ يتجه ضد العمل المباشر مهما كان نوعه. وواضح أنه في نهاية حياته أصبح ينتقد «روسو» الذي كان يربط بينه وبين التجاوزات الرهيبة للثورة الفرنسية. وفي قصيدته غير المكتملة «انتصار الحياة» يقدم لنا «روسو» كشخصية روائية من شخصيات «ڤرچيل»، يقدمه سجينا في المطهر لأنه ارتكب خطأ الاعتقاد بأن المثل الأعلى يمكن

أن يتحقق في الحياة وبذلك فسد. إلا أنه ليس من الواضح بالمرة أن «شلي» كان ينكر السياسة العملية لكي يركز على المثالية البحتة للخيال(٦٩).

والثابت أنه في نهاية حياته، في الشهور الأخيرة قبل موته لم يكن هناك أي تغير رئيسي في شخصيته.

«كلير كلير مونت» التي عمّرت إلى ما بعد الثمانين، كتبت بعد ستين عاما من تلك الأحداث تقول : «إن انتحار «هاريت» كان ذا أثر مفيد على «شلي»، فقد أصبح أقل ثقة في نفسه وأقل وحشية عن ذي قبل»(٧٠)، وربما كان ذلك صحيحا رغم أن «كلير» كانت ترصد الأحداث بعد تلك المسافة الزمنية الطويلة، فعلا أصبح «شلي» أقل تمركزا حول ذاته بعنف، ولكن التغيير كان تدريجيا واكتمل عند موته. وفي ١٨٢٢ بني هو و«بيرون» لنفسيهما قاربين «دون چوان» و«بوليڤار»، وكانت فكرة الإبحار مستحوذة على «شلي» على نحو خاص، ولذلك صمم على استئجار منزل في الصيف في «ليريسي» على خليج «سبيزيا». «ماري» التي كانت حاملا مرة أخرى كانت تكره المنزل لأنه لم يكن دافئا، كان الإثنان قد بدآ في التباعد وكانت هي قد بدأت تتحرر من الوهم، كما سئمت حياتهما غير الطبيعية في المنفى. هذا إلى جانب تهديد جديد. كان «شلي» يبدي اهتماما شديدا بزوجة «ادوارد وليمز» رفيقه في الإبحار والذي كان يعمل في شركة الهند الشرقية وكان متزوجا من «چين» بعقد عرفي. كانت «چين» عازفة جيتار وتغني بصوت جميل (مثل كلير)، الأمر الذي كان يفتن «شلي» لدرجة كبيرة. وكانت هناك حفلات سمر موسيقية كثيرة في ضوء القمر ... وكتب «شلي» قصائد كثيرة أيضا لها وفيها .....!

هل كانت «ماري» تشعر بأن هناك محاولة لإحلال أخري محلها كما فعلت هي مع «هاريت» قبل ذلك ؟

قي ١٦ يونيو وكما كانت «ماري» تخشى، أجهضت. ومرة أخرى أصابها اليأس. وبعد يومين كتب «شلي» رسالة يوضح فيها أن زواجهما كان قد اقترب من نهايته فعلا : «أشعر فقط بالحاجة إلى أولئك الذين يشعرون بي ويفهمونني .. و«ماري» ليست كذلك.

وربما كان ذلك ضروريا لكي أزيح عنها ما يؤلمها من أفكار، إنها لعنة «تانتالوس» أن يكون شخصا بمثل تلك الطاقات الممتازة والعقل الذكي ولا يثير الشفقة الضرورية للحياة الأسرية»، ويضيف : «أحب «چين» أكثر وأكثر، لديها ذوق موسيقي ولها شكل جميل يعوضان إلى حد ما رهافتها الأدبية»(٧١).

وبنهاية الشهر كان قد تأكد لها أنها لا يمكن أن تتحمل مرارة المنزل ولا وضعها أكثر من ذلك. كتبت تقول : «أتمنى أن أحطم قيودي وأغادر هذه الزنزانة»(٧٢).

..... وحصلت على حريتها بطريقة مأسوية غير متوقعة، كان «شلي» مفتونا بالسرعة، ولو أنه عاش في القرن العشرين فلربما كان قد أصبح مجنونا بالسيارات السريعة والطائرات، إحدى قصائده «ساحرة الأطلسي» ترنيمة لمتعة السفر في الفضاء. كما أن قاربه «دون چوان» صمم لكي يتحرك بسرعة وطلب

تعديله لزيادة سرعته. كان طوله ٢٤ قدما وله شراعان رئيسيان. وقد أضاف هو و«وليمز» تعديلات على الشراع لزيادة السرعة، فأصبح يبحر «مثل الساحرة»(٧٣).

كان «شلي» و«وليمز» عائدين من «ليڤورنو» بالقارب بعد أن تم تعديله في «ليريسي»، انطلقا في البحر بعد ظهر يوم ٨ يوليو ١٨٢٢ وكان الطقس غاية في السوء. وعندما هبت عاصفة عاتية في السادسة والنصف كانت كل السفن والقوارب الإيطالية المحلية قد عادت إلى الميناء، قال قائد إحداها إنه شاهد قارب «شلي» وسط الأمواج بكامل أشرعته ودعاهما للانتقال إلى قاربه لتقصير المسافة «وإلا فسيكون مصيركما الهلاك»، ولكن أحد الرجلين - ربما شلي - قال «لا» ورآه وهو يمسك رفيقه من ذراعه لكي يمنعه من خفض الشراع. وابتعد «دون چوان» قرابة عشرة أميال من الشاطيء ... وغرق الاثنان»(٧٤).

كان «كيتس» قد مات في العام السابق في «روما» بالسل، و«بيرون» أدماه أطباؤه حتى الموت بعد عامين في اليونان. وهكذا انتهت مرحلة ساطعة في تاريخ الأدب الانجليزي. و«ماري» أخذت «پيرسي» الصغير - بارونيت المستقبل - (كان تشارلز قد مات) إلى انجلترا .... وبدأت بصبر في إقامة نصب تذكاري لذكري «شلي» ..... ولكن الندوب بقيت.

لقد رأت الجانب غير المستحب من الحياة الذهنية وشعرت بقوة الأفكار عندما تجرح ...

عندما رأى أحد الأصدقاء الطفل «پيرسي» وهو يتعلم القراءة قال : «أنا متأكد أنه سيكون إنسانا غير عادي» ولكن «ماري شلي» ردت منزعجة ... «أدعو الله أن يكون عاديا».



الفصل الثالث

«ماركس» : نباح اللعنات الكبرى !

تأثير «ماركس» على الأحداث وعلى عقول الرجال والنساء في العصر الحديث أكبر من تأثير أي مثقف آخر، وليس سبب ذلك في الأساس هو جاذبية مفاهيمه ومنهجه، رغم ما فيهما من جاذبية بالنسبة لأصحاب العقول المفتوحة ، وإنما لأن فلسفته قد تمأسست في اثنتين من أكبر دول العالم : روسيا والصين وتوابعهما. وبهذا المعنى فإن «ماركس» يشبه القديس «أوغسطين» الذي كانت كتاباته منتشرة بين زعماء الكنيسة من القرن الخامس إلى القرن الثالث عشر، ومن ثم لعبت دورا مسيطرا في تشكيل مسيحية القرون الوسطي. بيد أن تأثير «ماركس» كان أكثر مباشرة، حيث أن نمط الدكتاتورية الشخصية التي تصورها لنفسه ـ كما سنرى ـ قد تم تحقيقه بالفعل مع نتائج لا حصر لها بالنسبة للبشرية ، وذلك عن طريق أهم ثلاثة من أتباعه : «لينين» و«ستالين» و«ماوتسي تونج»، وكل منهم ـ بهذا الاعتبار ـ كان ماركسيا مخلصا.

كان «ماركس» إبن زمنه، منتصف القرن التاسع عشر، وكانت الماركسية نموذجا لفلسفات القرن التاسع عشر في زعمها أنها «علمية»، والعلمية كانت تعبير «ماركس» المفضل والذي كان يستخدمه لتمييز نفسه عن أعدائه الكثيرين .. هو علمي أما هم فلا. كان يشعر أنه قد وجد تفسيرا علميا للسلوك الإنساني في التاريخ يشبه نظرية التطور عند «دارون». وفكرة أن الماركسية علم لم ولن تستطيع أي فلسفة أخري أن تكون مثله متغلغلة في المباديء العامة للدول التي أنشأها أتباعه، لدرجة أنها تلون جميع موضوعات الدراسة في المعاهد والجامعات. وقد تفشى ذلك حتى في العالم غير الماركسي، حيث المثقفون والأكاديميون منهم على نحو خاص تستهويهم السلطة، كما أن التوحيد بين الماركسية والسلطة الجماهيرية قد أغري كثيرا من المعلمين أن يسمحوا بدخول «علم الماركسية» إلى مجالات تخصصهم، خاصة تلك الموضوعات غير الدقيقة أو شبه الدقيقة مثل الاقتصاد وعلم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا.

ومما لا شك فيه لو أن «هتلر» وليس «ستالين» كان هو الذي قد كسب الصراع على أوروبا الوسطى والشرقية في ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ وفرض إرادته على جزء كبير من العالم، فإن الأفكار النازية التي كانت تدعي العلمية أيضا مثل نظريتها العرقية، كانت ستأخذ البريق الأكاديمي وتخترق أسوار الجامعات في جميع أنحاء العالم، ولكن النصر العسكري أكد أن العلم الماركسي وليس النازي، هو الذي سوف يسود.

أول شيء يجب أن نسأل عنه إذن هو : بأي معنى ـ إن كان هناك ـ كان «ماركس» علميا ؟ أو بعبارة أخرى : إلى أي مدى كان معنيا بالوصول إلى المعرفة الموضوعية من خلال بحث وتقييم الدليل ؟ من الناحية الظاهرية تكشف لنا سيرة حياة «ماركس» أنه كان دارسا في الأساس، وينحدر من أصول متعلمة من جانبي الأب والأم.

الأب «هاينرش ماركس» محام، كان اسمه الأصلي «هيرشل هاليفي ماركس» وهو ابن حاخام وعالم تلمودي من نسل الحاخام الشهير «أليعازر هاليفي» في «ماينز»، وكان ابنه «يهودا مينز» رئيسا للمدرسة التلمودية في «پادوا». وأمه «هنريتابرسبورك» كانت أيضا ابنة حاخام ومن نسل علماء وحكماء.

ولد «ماركس» في «تراير»، (كانت أرضا بروسية) في ٥ مايو ١٨١٨، أحد أطفال تسعة ولكنه الولد الوحيد الذي عاش إلى ما بعد منتصف العمر، تزوجت أخواته على التوالي من مهندس وبائع كتب ومحام. كانت الأسرة نموذجا لأسرة من الطبقة المتوسطة الصاعدة، الأب ليبرالي يوصف كرجل بأنه «فرنسي حقيقي ينتمي للقرن الثامن عشر، ملم بأعمال «روسو» و«ڤولتير» على نحو تام»(١) وبسبب مرسوم بروسي صادر ١٨١٦، كان يحرم اليهود من المناصب العليا في القانون والطب، تحول إلى البرتستانتية، وفي ٢٦ أغسطس سنة ١٨٢٤ عمد أبناؤه الست. تثبت «ماركس» في سن الخامسة عشرة، ولفترة ما كان يبدو مسيحيا متحمسا، درس في مدرسة جيزويت سابقة أصبحت علمانية فيما بعد، وفي جامعة «بون»، ومنها انتقل إلى جامعة «برلين» أعظم جامعات العالم آنذاك. لم يتلق أي تعليم يهودي أو حاول أن يحصل عليه، كما لم يبد أي اهتمام بأي قضايا يهودية(٢)، وإن كان لابد أن يقال إنه كان يحافظ على أسلوب معين يتميز به علماء التلمود : وهو الميل إلى تكديس كم كبير من مواد نصف مهضومة والتخطيط لأعمال موسوعية لم تكتمل أبدا، واحتقار شديد لغير العلماء وإصرار متطرف وعنف في التعامل مع العلماء الآخرين. وكل أعماله في الواقع تتسم بسمات الدراسات التلمودية، وهي بعامة إما تعليق على أعمال الآخرين في مجاله أو نقد لها.

أصبح «ماركس» طالبا كلاسيكيا جيدا، وفيما بعد تخصص في الفلسفة على النحو الهيجلي السائد. حصل على الدكتوراه ولكن من جامعة «جينا» التي كانت أقل مستوى من جامعة «برلين»، ويبدو أنه لم يكن أبدا على مستوى يؤهله للحصول على مركز أكاديمي. وفي ١٨٤٢ عمل صحفيا مع «دويتش زيتونغ» وظل يحررها لمدة خمس شهور حتى منعت في ١٨٤٣، بعد ذلك كان يكتب لـ «دويتش ـ فرانزوشي جاهر بوشر» وصحف أخرى في «باريس» حتى ترحيله في ١٨٤٥، وبعد ذلك في «بروكسل». وهناك تورط في تنظيم الرابطة الشيوعية وكتب لها المانفيستو في ١٨٤٨، وبعد فشل الثورة أجبر على الرحيل (١٨٤٩)، وهذه المرة سوف يستقر في «لندن» إلى النهاية.

ولسنوات قليلة من ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر تورط في نشاط سياسي ثوري ـ مرة أخرى ـ مديرا لمنظمة العمال الدولية، ولكنه كان يقضي معظم وقته في «لندن» وحتى وفاته في ١٤ مارس

١٨٨٣ (أي ٣٤ سنة) في المتحف البريطاني بحثا عن مادة لعمله الكبير «رأس المال» ومحاولة إعداده للنشر، والذي رأى جزءا منه سنة ١٨٦٧ من خلال الصحافة. أما الثاني والثالث فقد تم تجميعهما من مذكراته بواسطة رفيقه «فردريك انجلز» ونشرا بعد موته.

عاش «ماركس» إذن حياة طالب علم، وذات مرة كان يشكو قائلا: «أنا آلة محكوم عليها بالتهام الكتب»(٣)، وبمعنى أعمق لم يكن دارسا ولا عالما بالمرة. لم يكن مهتما بالبحث عن الحقيقة وإنما بالمناداة بها. وفي شخصيته كانت هناك ثلاث جدائل: الشاعر، الصحفي، المعلم الأخلاقي. وكانت كل منها مهمة. هذه الجدائل مجتمعة وبارتباطها بإرادته الهائلة جعلت منه كاتبا ورائيا هائلا، ولكن لم يكن هناك أي شيء علمي عنه، وبالأحرى كان غير علمي في كل الأمور.

كان الشاعر في «ماركس» أكثر أهمية مما هو مفترض بوجه عام، رغم أن خياله الشعري سرعان ما تم استيعابه في رؤاه السياسية. بدأ كتابة الشعر في صباه في موضوعين رئيسيين: حبه لابنة الجيران «چيني ڤون وستفالين» وكانت من أصل بروسي اسكتلندي وتزوجها في عام ١٨٤١، الموضوع الثاني هو تدمير العالم. كتب شعرا كثيرا، ثلاثة مجلدات من المخطوطات التي كان يرسلها إلى «چيني» ورثتها ابنتهما «لورا» واختفت بعد موتها في سنة ١٩١١، ولكن نسخا من أربعين قصيدة بقيت، وتتضمن مأساة شعرية بعنوان: «أولانين»، والتي كان «ماركس» يأمل أن تكون «فاوست» العصر الذي كان يعيش فيه.

كما نشرت قصيدتان في ٢٣ يناير ١٨٤١ في «برلين أثينايم» بعنوان: «أغنيات متوحشة».

والوحشية سمة مميزة لشعره مع تشاؤم كبير عن الشرط الإنساني والكراهية والافتتان بالفساد والعنف والانتحار والتحالف مع الشيطان.. «نحن مكبلون بالأصفاد، محطمون، خاوون، خائفون، مسلسلون إلى الأبد بصخرة الوجود».. هكذا كان يكتب «ماركس» في شبابه.. «نحن قردة إله بارد». هو نفسه كان متقمصا شخصية الإله إذ يقول: «سوف أعوي بلعناتي المدوية على البشرية» وتحت سطح معظم أشعاره هناك انطباعة أزمة عالمية عامة تتكون(٤).

كان مغرما باقتباس عبارة «ميفيستو فيليس» في «فاوست»: «جوته»: «كل ما هو موجود يستحق الهلاك» واستخدمها على سبيل المثال في كراسة دعايته ضد نابليون الثالث، وقد ظلت تلك الرؤية الغامضة لكارثة واسعة محدقة بالنظام القائم ملازمة له طوال حياته: هي موجودة في شعره وهي خلفية البيان الشيوعي في ١٨٤٨، وهي قمة كتابه «رأس المال» نفسه. وباختصار فإن «ماركس» من البداية للنهاية كاتب أخروي (يؤمن بالآخرة وبالحساب)، ومن الملاحظ مثلا أنه ضمن المسودة الأصلية من الأيديولوجيا الألمانية (١٨٤٥ ـ ١٨٤٦) جزءا يذكرنا بقصائده يتناول يوم القيامة: «عندما تلوح في السماء الأضواء المنعكسة للمدن المحترقة» وعندما تتكون «الإيقاعات السماوية» من أنغام المارسيلييز والكارمانيول (أغنية شعبية اشتهرت أثناء الثورة الفرنسية) في صحبة مدفع مدو، بينما تعلن المقصلة الوقت، والجماهير الملتهبة تهتف، والوعي الذاتي مشنوق على عمود النور»(٥). وهناك كذلك أصداء من

«أولانين» في البيان الشيوعي والپروليتاريا ترتدي عباءة البطل(٦).

كما تنبثق النغمة الرؤيوية للقصائد مرة أخرى في حديث الفزع في ١٤ ابريل ١٨٥٦ : «التاريخ هو القاضي والبپوليتاريا هي الجلاد» ـ الرعب، المنازل التي عليها علامة الصليب الأحمر، بلاغة الكوارث، الزلزال، اللاڤا المنصهرة بينما تتشقق قشرة الأرض»(٧).

والفكرة أن مفهوم «ماركس» ليوم القيامة، سواء في صيغته الشعرية المتوهجة أو صيغته الاقتصادية النهائية، هو رؤية فنية وليست علمية، وكانت دائما في ذهنه. وكاقتصادي سياسي كان يعمل بالعودة إليها بحثا عن الدليل الذي يجعلها حتمية، وليس انطلاقا منها كمعلومات تم تمحيصها بموضوعية. وبالطبع فإن العنصر الشعري هو الذي يعطي فروض «ماركس» التاريخية ما فيها من دراما وجاذبية بالنسبة للقراء الثوريين الذين يريدون أن يصدقوا أن موت الرأسمالية وقيامتها قادمان. والموهبة الشعرية تتبدى في صفحات «ماركس» وتقدم لنا أجزاء لا تنسى، بمعنى أنه كان يحدس أكثر مما كان يفكر أو يحسب. لقد ظل «ماركس» شاعرا حتى النهاية. ولكنه أيضا كان صحفيا، وأحيانا صحفيا جيدا. واكتشف «ماركس» أن التخطيط لكتاب عمدة، ناهيك عن كتابته، ليس عملا صعبا فقط وإنما هو عمل مستحيل : حتى «رأس المال» هو عبارة عن سلسلة من المقالات أدمجت في بعضها دون بنية حقيقية. ولكنه كان أكثر قدرة على كتابة ردود أفعال قصيرة وحادة وعنيدة عما يجري من أحداث. وكان يعتقد، كما صور له خياله الشعري، أن المجتمع على شفا حفرة من الانهيار، وعليه فإن أي خبر مهما كان كبيرا يمكن أن يطبق عليه هذا المبدأ ويعطي كتابته الصحفية تماسكا مميزا. في أغسطس ١٨٥١ طلب «تشارلز آندرسون دانا» ـ أحد تلاميذ الاشتراكي المبكر «روبرت أون» والذي أصبح من كبار المسئولين في «نيويورك ديلي تريبيون» ـ من «ماركس» أن يكون المراسل السياسي للجريدة من أوروبا ويكتب لهم مقالين في الأسبوع لقاء جنيه استرليني عن كل مقال.

وعلى مدى السنوات العشر التالية قدم «ماركس» حوالي خمسمائة مقال كان «انجلز» وراء ما يقرب من ١٢٥ منها. كانت تستبدل وتعاد صياغتها في نيويورك ولكن الحجج القوية كانت لـ «ماركس»، وكان ذلك مكمن قوتها.

والحقيقة أنه كان موهوبا كصحفي قادر على الجدل. كان ضليعا في استخدام «الإبجرام والأفورزم★»، ومعظمها لم يكن من اختراعه. فمثلا : «مارات» هو صاحب عبارتي : «العمال لا وطن لهم» و«ليس لدي البروليتاريا ما تخسره غير قيودها»، النكتة الشهيرة عن البرجوازيين الذين يرتدون سترات من الدروع الإقطاعية على جنوبهم جاءت من «هيني» وكذلك عبارة «الدين أفيون الشعوب»، «لوي بلانش» هو صاحب عبارة «من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته»، ومن «كارل كاسبر» أخذ «ياعمال العالم اتحدوا»، ومن «بلانكي» : «دكتاتورية البروليتاريا» ولكن «ماركس» كان أيضا قادرا على

★ العبارات المحكمة التى تجرى مجرى الحكم والأمثال.

سك عباراته الخاصة مثل : «في السياسة، الألمان فكروا بما فعلته الدول الأخرى»، «الدين هو الشمس السرابية الوحيدة التي يدور حولها الإنسان إلى أن يبدأ الدوران حول نفسه»، «زواج البرجوازية هو مجتمع الزوجات»، الجسارة الثورية التي تصرخ في وجه متحديها : «أنا لا شيء ولابد أن أكون كل شيء»، «الأفكار الحاكمة لكل عصر كانت دائما أفكار الطبقات الحاكمة».

وإلى جانب ذلك كله كانت لدى «ماركس» موهبة نادرة في اقتباس أقوال الآخرين أو الإشارة إليها واستخدامها في الموضع المناسب في الجدل وفي التوقيت القاتل، فقد بز جميع الكتاب السياسيين الآخرين في العبارات الثلاث الأخيرة من البيان الشيوعي : «ليس لدى العمال ما يخسرونه سوى قيودهم، أمامهم عالم كامل لكي يربحوه، ياعمال العالم اتحدوا». إن عين «ماركس» الصحفية الحادة والتقاطها للعبارات البليغة القصيرة هي التي أنقذت فلسفته كلها من النسيان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أكثر من أي شيء آخر. ولكن إذا كان الشعر قد مده بالرؤية، وإذا كانت العبارات الصحفية المحكمة علامات بارزة في أعماله إلا أن الثقل كله كان في الرطانة الأكاديمية.

«ماركس» كان أكاديميا أو بالأحرى ـ وهذا أسوأ ـ أكاديميا فاشلا، هو معلم محبط كان يود أن يدهش العالم بإيجاد مدرسة فلسفية جديدة ، وكانت تلك أيضا خطة عمل أعدت لكي تمنحه القوة، ومن هنا موقفه من «هيجل» الذى يتسم بالتكافؤ الضدى . فى تقديمه للطبعة الألمانية الثانية من «رأس المال» يقول «ماركس» : «أعلنت نفسي بصراحة تلميذا لذلك المفكر العظيم» و«لعبت باستخدام المصطلح الهجيلي وأنا أناقش نظرية القيمة في رأس المال»، ولكنه يقول إن «نظريته الخاصة في الجدل» تتناقض مباشرة «مع نظرية هيجل».

بالنسبة لـ «هيجل» فإن عملية التفكير هي التي تخلق الواقع، بينما «في رأيي من جانب آخر أن المثال ليس أكثر من المادة عندما تنتقل وتترجم داخل رأس الإنسان». ومن هنا يقول : «في كتابات هيجل يقف الديالكتيك على رأسه، لابد أن تقلبه إلى الوضع الصحيح مرة أخرى إذا كنت تريد أن تكتشف الجوهر المنطقي المخبأ في طيات الغموض»(٨).

بعد ذلك كان «ماركس» يبحث عن الشهرة من خلال ما تراءى له أنه اكتشافه المثير للخطأ القاتل في منهج «هيجل»، والذي مكنه من أن يأتي بفلسفة جديدة بديلة له، بل وفلسفة متفوقة ستجعل كل الفلسفات الموجودة في ذمة التاريخ، ومع ذلك استمر في قبوله بأن الديالكتيك الهيجلي كان هو «مفتاح الفهم الإنساني»، ولم يستخدمه فقط وإنما ظل أسيرا له حتى آخر العمر، وذلك لأن الديالكتيك «وتناقضاته» كان يفسر الأزمة العالمية والتي كانت جوهر رؤيته الشعرية في صباه. وكما كتب في نهاية حياته (١٤ يناير ١٨٧٣) إن دورات العمل تعبر عن «التناقضات الكامنة في المجتمع الرأسمالي» وسوف تؤدي إلى «نقطة الذروة في هذه الدورات وهي الأزمة العالمية» وذلك سوف «يقرع طبول التناقضات» حتى في رؤوس «محدثي النعمة في الإمبراطورية الألمانية الجديدة».

ماذا كانت علاقة أي من ذلك بسياسة واقتصاد العالم الحقيقي ؟ لا شيء بالمرة. وتماما مثلما كان أصل فلسفة «ماركس» كامنا في رؤاه الشعرية، فإن التمادي فيها كان تدريبا على الرطانة الأكاديمية.

وفي الحقيقة فإن الذي كان وراء إطلاق حركة «ماركس» العقلية هو النبض الأخلاقي، وقد وجد ذلك في كراهيته للربا والمرابين وشعور عاطفي له صلة مباشرة ـ كما سنرى ـ بصعوبات شخصية. وقد ظهر ذلك في كتاباته الجادة الأولى في مقالين بعنوان «في المسائل اليهودية» نشرهما سنة ١٨٤٨ في «دويتش فرانزوسش جاهربوشر»، كان تابعو «هيجل» جميعا وبدرجات مختلفة معادين للسامية، وفي سنة ١٨٤٣ نجد أن «برونو باور» أحد الزعماء المعادين للسامية في اليسار الهيجلي، قد نشر مقالا يطلب فيه من اليهود أن يتخلوا عن اليهودية تماما. كانت مقالات «ماركس» ردا على ذلك، لم يعترض على معاداة «باور» للسامية وإنما في الواقع كان يشاركه فيها، دعمها، وكان يقتبس منها عن اقتناع ولكنه كان يختلف معه في أسلوب الحل، رفض «ماركس» اعتقاد «باور» أن الطبيعة غير الاجتماعية لليهود أساسها ديني وأن العلاج هو نزع اليهودي من عقيدته. «ماركس» يرى أن الشر أساسه اجتماعي واقتصادي. كتب «فلنأخذ مثلا اليهودي العادي، وليس يهودي السبت .. بل يهودي كل يوم» والذي كان يسأل عنه هو «المبدأ الأساسي لليهودي ؟ الحاجة العملية .. المصلحة الشخصية .. ما هي العبادة الدنيوية لليهودي ؟ البيع بالتجزئة. من هو إلهه الدنيوي ؟ المال»، واليهود هم الذين نشروا هذا الدين العملي تدريجيا في كل المجتمع :

«المال هو الإله الضنين لإسرائيل ولا إله غيره، المال يذل كل آلهة البشر ويحولهم إلى سلع كمالية، المال هو القيمة المكتفية بذاتها بين كل الأشياء، ومن هنا فقد حرم كل العالم الإنساني والطبيعي من قيمهما الصحيحة، المال هو جوهر عمل الإنسان ووجوده، الجوهر الذي يسيطر عليه ... ولذلك يعبده. إله اليهود تمت علمنته ليصبح إله العالم أجمع».

اليهودي أفسد المسيحي وأقنعه بأنه «ليس أمامه إلا أن يكون أغني من جيرانه وهذا أقل شيء» وأن «العالم بورصة أوراق مالية» وأن السلطة السياسية أصبحت عبدا «لسلطة رأس المال ... ومن هنا فالحل اقتصادي. و«يهودي المال» قد أصبح العامل اللا اجتماعي في العصر الحديث» ولكي نجعل «اليهودي مستحيلا» لابد من القضاء على «الشروط المسبقة» و«إمكانية» نوع النشاط المالي الذي تنتجه، اقض على توجه اليهودي نحو المال وسوف يختفي اليهودي ودينه والصورة الفاسدة للمسيحية التي فرضها على العالم : «بتحرير نفسه من البيع بالتجزأة ومن المال وبالتالي من اليهودية الحقيقية والعملية فإن عصرنا سوف يحرر نفسه»(٩).

وعليه فإن تفسيز «ماركس» لما هو خطأ في العالم كان مزيجا من أفكار طلاب المقاهي في معاداة السامية، وأفكار «روسو»، وقد وسع ذلك في فلسفته المتطورة على مدى السنوات الثلاث التالية (١٨٤٤ ـ ١٨٤٦) حيث وصل إلى أن عامل الشر في المجتمع لم يكن متمثلا في عملاء سلطة المال الربوية التي

تمرد عليها اليهود فقط ـ وإنما في الطبقة البرجوازية ككل(١٠). ولكي يفعل ذلك كان عليه أن يفيد بتوسع من ديالكتيك «هيجل». في جانب كانت هناك سلطة المال، الثروة، رأس المال، أدوات الطبقة البرجوازية، وفي جانب آخر هناك البروليتاريا، القوة الافتدائية الجديدة، والجدل معبر عنه بالأسلوب الهيجلي الصارم وباستخدام كل المصادر المعتبرة في الرطانة الفلسفية الألمانية وبأسوأ جوانبها الأكاديمية، رغم أن النبض التحتي واضح أنه أخلاقي والرؤية النهائية شعرية.

وهكذا: فإن الثورة قادمة، وستكون فلسفية في ألمانيا: «عالم لا يستطيع أن يتحرر دون أن يحرر نفسه من العوالم الأخرى، والذي هو باختصار فقدان كامل للإنسانية التي تستطيع أن تحرر نفسها بالخلاص من الإنسانية. هذا الذوبان للمجتمع كطبقة هو البروليتاريا».

ويبدو أن ما يريد «ماركس» قوله هو أن البروليتاريا، الطبقة التي ليست طبقة، والتي هي ذوبان أو انصهار الطبقة والطبقات هي قوة تحررية بلا تاريخ، وليست خاضعة للقوانين التاريخية، بل إنها تنهي التاريخ تماما في نفسها.

والغريب أن هذا مفهوم يهودي جدا ... عندما تكون اليهودية هي المسيح أو المخلص. والثورة تتكون من عاملين: «الفلسفة هي رأس التحرر والبروليتاريا هي القلب»، وهكذا فإن المثقفين سيشكلون الصفوة: الجنرالات، أما العمال فهم الجنود المشاة.

وبعد أن عرف الثورة بأنها سلطة المال اليهودي التي استشرت في الطبقة البرجوازية ككل، وعرف البروليتاريا بهذا المعنى الفلسفي الجديد، يتقدم «ماركس» نحو القلب من فلسفته مستخدما الديالكتيك الهيجلي، الأحداث التي سوف تؤدي إلى الأزمة الكبرى.

الجزء الرئيسي ينتهي هكذا:

«تقوم البروليتاريا بتنفيذ الحكم الذي حكمت الملكية الخاصة على نفسها به بأن خلقت البروليتاريا، كما تنفذ الحكم الذي نطق به العمل الأجير على نفسه بجلب الثروة للآخرين والبؤس لنفسه، وإذا انتصرت البروليتاريا فإن ذلك لا يعني أنها تصبح الوجه النهائي للمجتمع، حيث أنها تعتبر منتصرة فقط بالقضاء على نفسها وعلى نقيضها. حينذاك تختفي البرولتياريا هي ونقيضها النهائي .. الملكية الخاصة».

هكذا ينجح «ماركس» في تحديد الحدث الزلزالي الذي كان قد تراءى له بداية كرؤية شعرية، ولكن التعريف يجيء بمصطلحات أكاديمية ألمانية. وهو في الحقيقة ليس له أي معني بالنسبة للعالم الحقيقي خارج قاعات الدرس بالجامعة.

حتي عندما ينتقل «ماركس» إلى تسييس الأحداث فإنه يواصل استخدام نفس الرطانة الفلسفية «لا يمكن أن تتحقق الاشتراكية دون ثورة، وعندما يبدأ النشاط المنظم، عندما تظهر الروح، الشيء نفسه، حينئذ يمكن للاشتراكية أن تسقط جميع الأقنعة السياسية».

كان «ماركس» نموذجا ڤيكتوريا حقيقيا. كان يؤكد على كلمات كثيرة ويضع الخطوط تحتها كما كانت تفعل الملكة «ڤيكتوريا» في رسائلها، ولكن وضع خطوط تحت كلمات بعينها بغرض تأكيدها لا يساعد كثيرا في الواقع على توصيل معانيه التي تظل غارقة في غموض مفاهيم الفلسفة الألمانية الأكاديمية. ولكي يفرض آراءه يلجأ إلى تضخيم معتاد مؤكدا على الطبيعة الكونية للعملية التي يصفها، وهنا أيضا تقف الرطانة حجر عثرة. وهكذا فإن : «البروليتاريا يمكن أن توجد فقط من الناحية التاريخية مثل الشيوعية ويمكن أن يكون لأفعالها وجودا تاريخيا فقط» أو «الشيوعية ممكنة فقط من الناحية الإمبيريقية كسلوك للناس المسيطرين معا وفي نفس الوقت والذي يفترض التطور الشامل للقوى المنتجة والتجارة العالمية التي تعتمد عليها»، إلا أنه حتي عندما يكون المعنى واضحا عند «ماركس» لا تكون لأقواله أي درجة من الصحة، وهي ليست أكثر من آراء فيلسوف أخلاقي . غير ملزمة»(١١). وبعض العبارات التي ذكرتها سوف تبدو معقولة أو غير معقولة وبنفس الدرجة لو أننا حورناها قليلا لكي نجعلها تقول العكس.

أين إذن الحقائق والأدلة المستمدة من عالم الواقع، التي يمكن أن تحول تلك العبارات التنبؤية لفيلسوف أخلاقي وتلك الرؤى إلى علم ؟ «ماركس» كان لديه موقف متكافيء الضدية من الأفكار، كما كان بالنسبة لفلسفة «هيجل»، فهو من ناحية قضى عقودا كاملة من الزمن يكدس حقائق كثيرة تجمعت لديه في أكثر من مائة دفتر كبير، ولكنها الحقائق والمعلومات الموجودة في المكتبات، حقائق الكتب الزرقاء، أما الحقائق التي لم يكن ليهتم بها فهي تلك التي كانت تكتشف بفحص العالم والناس الذين يعيشون فيه بعينه وبأذنه. كان مقيدا بالمكتب ... وبشدة. لا شيء في الدنيا كان يزحزحه من المكتبة أو قاعة الدرس. اهتمامه بالفقر والاستغلال يعود إلى خريف ١٨٤٢ عندما كان في الرابعة والعشرين ، وكتب سلسلة من المقالات عن القوانين التي تنظم حق المزارعين المحليين في جمع الأخشاب. وكما يقول «انجلز» فإن «ماركس» أخبره أن : «كانت دراسته للقانون الخاص بسرقة الأخشاب وأبحاثه عن الفلاحين المعدمين هي التي حولت اهتمامه من السياسة المجردة إلى الظروف الاقتصادية، ومن ثم إلى الاشتراكية»(١٢)، ولكن لا يوجد أي دليل على أن «ماركس» كان قد تكلم فعلا مع الفلاحين وملاك الأراضي ونظر إلى الظروف مباشرة . ثم كتب في عام ١٨٤٤ مقالا للمجلة الأسبوعية المالية «فوروارد» عن الأحوال السيئة لعمال نسيج الكتان في «سيليسيا»، ولكنه لم يذهب أبدا إلى «سيليسيا» أو تكلم ـ على قدر علمنا ـ مع أي من العمال من أي صنف، ولو أنه فعل شيئا من هذا القبيل لكان ذلك ضد طبيعته.

كتب «ماركس» عن المال وعن الصناعة طوال حياته ولكن جميع معارفه في عالم المال والصناعة كانوا شخصين أحدهما خاله في هولندا واسمه «ليون فيلپس» ، وهو رجل أعمال ناجح أسس ما عرف فيما بعد باسم «شركة فيلپس الكهربائية» الضخمة ، وكان من الممكن أن تكون أفكار الخال «فيلپس» عن مجمل العملية الرأسمالية مفيدة ومثيرة لو كان «ماركس» قد حاول أن يستكشفها. ولكنه استشاره مرة

واحدة في شأن فني من الناحية المالية، ورغم أنه زار «فيلپس» أربع مرات إلا أن ذلك كان بخصوص أمور مالية تخص الأسرة.

الرجل الثاني العليم بأمور المال والصناعة كان «انجلز» نفسه، ولكن «ماركس» رفض دعوته ليرافقه في زيارة لمصنع نسيج أقطان، وعلى قدر علمنا أيضا فإن قدمي «ماركس» لم تطئا مصنعا أو منجما أو أي مكان عمل آخر طوال حياته. أما الأمر الأكثر إثارة من ذلك كله فهو عداء «ماركس» للرفاق الثوار من أصحاب تلك التجارب، أي العمال الذين أصبحوا على وعي سياسي. لقد التقى بأمثال هؤلاء لأول مرة فقط في سنة ١٨٤٥ أثناء زيارة قصيرة لـ «لندن» حضر فيها اجتماعا للجمعية التعليمية للعمال الألمان، لم يعجبه ما رآه، كان الناس الذين التقاهم عمالا مهرة (فني ساعات ـ طباعين، صانعي أحذية وكان رئيسهم أحد عمال الغابات) علموا أنفسهم بأنفسهم وكانوا منظمين وقورين مهذبين، معارضين للبوهيمية، متحمسين لتغيير المجتمع ولكن بخطوات هادئة تقودهم نحو الهدف النهائي.

لم يشاركوا «ماركس» رؤيته الخيالية، والأهم من ذلك كله أنهم لم يكونوا يتكلمون بنفس رطانته الأكاديمية ، كان ينظر إليهم باحتقار .. إنهم علف مدافع الثورة ... ولا أكثر !

كان «ماركس» يفضل دائما أن تكون صلاته بمثقفي الطبقة المتوسطة مثله ،عندما أسس هو و«انجلز» الرابطة الشيوعية ثم عندما أسسا «الدولية» ، حرص على استبعاد اشتراكي الطبقة العاملة من المراكز المؤثرة، وأن يكونوا في اللجان مجرد شكل «بروليتاري» قانوني ..

كان دافعه لذلك في جزء منه تنفجا فكريا، والجزء الآخر أن الأفراد من ذوي الخبرة العملية بأحوال المصانع كانوا لايحبذون العنف ويميلون إلى تحسين الأحوال تدريجيا : كانوا متشككين عن دراية في الثورة النهائية التي كان يزعم أنها حتمية وليست ضرورية فقط. كانت هجمات «ماركس» العنيفة موجهة إلى أناس من هذا النوع، وهكذا نجده في مارس ١٨٤٦ يقدم «وليم ويتلنج» لنوع من المحاكمة أمام اجتماع للرابطة الشيوعية في «بروكسل». كان «ويتلنج» هذا ابنا غير شرعي لامرأة غسالة ولايعرف اسم والده وكان قد تعلم مهنة خياطة الملابس واستطاع بالكدح والعصامية أن يحظى بثقة عدد كبير من العمال الألمان. كان هدف المحاكمة هو الإصرار على «سلامة» النظرية وإخماد أي صوت طالع من بين الطبقة العاملة يفتقر إلى العلم الفلسفي الذي كان يراه «ماركس» ضروريا. كان هجوم «ماركس» على «ويتلنج» غير عادي في عدوانيته، قال «ماركس» إنه كان مذنبا لقيامه بالتهييج دون علم ! وكان ذلك مقبولا في روسيا البربرية حيث «كان يمكن بناء اتحادات من الشبان والحواريين الأغبياء، بينما في بلد متحضر مثل ألمانيا لابد أن تعلم أن لا شيء يمكن أن يتحقق دون نظريتنا» ، ثم «إذا حاولت إغراء العمال، خاصة العمال الألمان دون نظرية ودون أفكار علمية واضحة فإنك تقوم بلعبة دعائية فارغة ولا أخلاقية ولن تسفر في النهاية إلا عن ملهم يقف في جانب، وفي الجانب الآخر مجموعة من الحمير تستمع إليه فاغرة أفواهها» .

وكان رد «ويتلنج» إنه لم يصبح اشتراكيا لكي يتعلم نظريات تم صنعها في المكتبات. كان يتكلم نيابة عن عمال حقيقيين ولن يستسلم لآراء منظرين بعيدين كل البعد عن معاناة العمال.

ويقول شاهد عيان إن ذلك «أغضب «ماركس» جدا لدرجة أنه خبط بقبضته على الطاولة بقوة أدت إلى اهتزاز المصباح، وقفز واقفا وهو يصرخ : «إن الجهل لم يساعد أحدا حتي الآن»، وانتهى الاجتماع و«ماركس» يذرع الغرفة جيئة وذهابا في غضب شديد»(١٣).

كان ذلك مجرد نموذج لهجمات أكثر ضراوة على اشتراكيين من أصول عمالية وعلى أي زعيم يحاول أن يستقطب حوله العمال عن طريق طرح حلول عملية لمشكلات تتعلق بالعمل وبالأجور. هكذا شرع «ماركس» في مناطحة «بيير ـ چوزيف برودون» منضد الحروف السابق، و«هيرمان كريج» المصلح الزراعي وأول اشتراكي ديمقراطي ألماني مهم، و«فرديناند لاسال» منظم العمل.

وفي بيانه ضد «كريج» راح «ماركس» الذي كان لا يعرف شيئا عن الزراعة في الولايات المتحدة ـ حيث كان يعيش كريج ـ يشجب اقتراحه بمنح مائة وستين فدانا من الأراضي العامة لكل فلاح، قائلا إن تجنيد الفلاحين يجب أن يتم بوعود بمنحهم الأرض، ولكن بمجرد قيام المجتمع الاشتراكي فإن الأرض يجب أن تكون ملكية جماعية.

كان «برودون» ضد الجمود الفكري. كتب يقول : «بحق الله، بعد عقول الناس، دعونا لا نجعل من أنفسنا قادة لظلم جديد»، وكان «ماركس» يكره هذا السطر. وفي نقده العنيف الذي كتبه ضد «برودون» في يونيو ١٨٤٦ بعنوان «بؤس الفلسفة» اتهمه بـ «الطفولية» و«الجهل المطبق» بالاقتصاد والفلسفة، وفوق ذلك بسوء استخدام أساليب وأفكار «هيجل»: «إن السيد «برودون» لا يعرف من ديالكتيك «هيجل» أكثر من اسمه»، أما بالنسبة لـ «لاسال» فقد أصبح فريسة لأقسي وأعنف سخريات «ماركس» العنصرية والمعادية للسامية، وكان يصفه بأنه «بارون آيتزج»، «الزنجي اليهودي»، «يهودي ملطخ بالشحم متنكر تحت طلاء ملمع وزينة رخيصة»، كما كتب إلى «انجلز» في ٣٠ يوليو ١٨٦٢ يقول : «لقد أصبح من الواضح لي تماما، وبناء على شكل رأسه وطريقة نمو شعره أنه من سلالة الزنوج الذين خرجوا مع موسى من مصر (إلا إذا كانت أمه أو جدته لأمه هجينا زنجيا)، إن هذا التزاوج اليهودي الألماني على أساس زنجي لقمين بإنتاج سلالة غير عادية»(١٤).

لم يكن «ماركس» حينذاك مستعدا لبحث ظروف العمل في الصناعة بنفسه، ولا أن يتعلم ذلك من العمال الأذكياء الذين مارسوها وخبروها. ولماذا يفعل ذلك ؟

في جميع الأمور الجوهرية وصل إلى نتائجه بخصوص مصير البشرية في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر باستخدام الديالكتيك الهيجلي، كل ما كان يحتاجه هو أن يجد الحقائق والبيانات لكي يقيم عليها الدليل، وتلك كان يمكن أن يجمعها من التقارير الصحفية وتقارير الحكومة والأدلة التي جمعها كتاب

سابقون .. وكل تلك المادة يمكن أن يجدها في المكتبات. فما الذي يجعله يبحث أكثر من ذلك ؟ المشكلة كما كانت تبدو له هي أن يجد النوع المناسب من الحقائق، النوع الذي يلائمه، وقد لخص الفيلسوف «كارل چاسبرز» أسلوبه كما يلي :

«أسلوب كتاباته ليس أسلوب باحث مدقق .. إنه لا يقتبس أمثلة أو يقدم حقائق قد تكون ضد نظريته، وإنما تلك التي تدعم أو تؤكد ما كان يعتبره الحقيقة القصوي، أسلوبه كله أسلوب تبرير وليس أسلوب تقصي، ولكنه تبرير شيء يعلن أنه الحقيقة الكاملة مع اقتناع مصدق لا عالم»(١٥).

وبهذا المعني لم تكن «الحقائق» مركزية بالنسبة لعمل «ماركس»، إنها شيء تكميلي، مساعد، يدعم النتائج التي كان قد تم التوصل إليها بدونها.

كتابه «رأس المال»، ذلك النصب التذكاري الذي تمحورت حوله حياته كباحث، لا يجب النظر إليه كبحث علمي عن طبيعة العملية الاقتصادية التي حاول أن يصفها، وإنما كتدريب في الفلسفة الأخلاقية، كتابة مثل كتابات «كارليل» أو «راسكين». إنه موعظة ضخمة وغير متماسكة في معظمها، هجوم على العملية الصناعية ومبدأ الملكية من قبل رجل يكن لهما كراهية شديدة متوهمة ولا مبرر لها.

والغريب أنها تخلو من حجة رئيسية يمكن اعتبارها مبدأ منظما، كان «ماركس» في البداية يتصور أن يتكون عمله هذا من ستة مجلدات : رأس المال، الأرض، الأجور والعمل، الدولة، التجارة والمجلد الأخير عن السوق العالمية والأزمة(١٦). ولكن اتضح أن الانضباط المنهجي الذاتي المطلوب لتنفيذ هذه الخطة لم يكن في مقدوره. فالمجلد الوحيد الذي أنجزه (والذي خرج في جزءين نتيجة للارتباك) لا يتسم بأي نسق منطقي، إنه سلسلة من الفروض المفردة في ترتيب عشوائي، وقد وجد الفيلسوف الفرنسي «لويس ألتوسير» بناءه مربكا لدرجة أنه كان يرى أن «لابد» للقراء من تجاهل الجزء الأول وأن يبدءوا بالجزء الثاني ـ الفصل الرابع(١٧)، ولكن المفسرين الماركسيين الآخرين كانوا يرفضون ذلك بشدة، مع أن أسلوب «ألتوسير» في الحقيقة لن يساعد كثيرا، وتلخيص «انجلز» للجزء الأول من «رأس المال» إنما يؤكد ضعفه أو بالأحري غيبة البنية فيه(١٨).

بعد موت «ماركس» استخلص «انجلز» المجلد الثاني من ١٥٠٠ صفحة من دفاتر «ماركس» وأعاد كتابة ربعها، وجاءت النتيجة ٦٠٠ صفحة مملة ومربكة عن دورة رأس المال مبنية أساسا على النظريات الاقتصادية في ستينيات القرن التاسع عشر، المجلد الثالث الذي عكف عليه «انجلز» من ١٨٨٥ ـ ١٨٩٣ يقدم مسحا لكل جوانب رأس المال التي لم يكن قد تم تغطيتها، ولكنه ليس أكثر من سلسلة من الملاحظات تتضمن ألف صفحة عن الربا ومعظمها كان من مذكرات «ماركس». والمادة كلها تقريبا تبدأ من أوائل الستينيات وجمعت في نفس الوقت الذي كان «ماركس» يعمل فيه في المجلد الأول. وفي الواقع لم يكن هناك ما يمنع «ماركس» من إتمام الكتاب بنفسه سوى عدم القدرة والمعرفة الناقصة. المجلدان الثالث والرابع ليسا من اهتمامنا، ومن غير المحتمل أن يكون «ماركس» هو الذي كتبهما على هذا

النحو أو أن يكون هو الذي كتبهما أصلا، حيث أنه كان قد توقف عن العمل فيهما بالفعل لمدة ١٥ سنة. في المجلد الأول، الذي هو من إنجازه، يهمنا فصلان، الفصل الثامن «يوم العمل»، والفصل الرابع والعشرون «التراكم الأولي» والذي يضم القسم السابع الشهير «الميل التاريخي للتراكم الرأسمالي»، وهذا ليس تحليلا علميا بأي معنى من المعاني وإنما هو مجرد نبوءة متواضعة.

يقول «ماركس» أنه سيكون هناك : ١ ـ نقصان مضطرد في عدد أقطاب الرأسمالية. ٢ ـ زيادة مماثلة في حجم الفقر والظلم والعبودية والتفسخ والاستغلال. ٣ ـ تعاظم مضطرد لغضب الطبقة العاملة.

هذه القوى الثلاث عندما تتفاعل معا تنتج الأزمة الهيجلية، أو الشكل السياسي الاقتصادي للكارثة الشعرية التي كان يتخيلها في شبابه : «تركيز وسائل الإنتاج واجتماعية العمل يصلان إلى نقطة يتضح عندها أنهما لا يتناسبان مع القشرة الرأسمالية التي تغطيهما، هذا يفجر التباعد، يدق ناقوس الملكية الخاصة الرأسمالية، الذين جردوا الناس من الملكية تصادر ملكيتهم(١٩)»، وكان ذلك أمرا مثيرا أدهش أجيالا من المتحمسين للاشتراكية، ولكن ليس فيه ما يمكن أن يدعي بأنه تفكير علمي أكثر مما هو تقويم فلكي.

الفصل الثامن «يوم العمل»، على النقيض من ذلك، يقدم نفسه على أنه تحليل واقعي لأثر الرأسمالية على حياة البروليتاريا البريطانية، وهو في الواقع الجزء الوحيد من عمل «ماركس» الذي يتناول العمال، الرعايا المفترضين لفلسفته كلها. وعليه فإنه يستحق الفحص بحثا عن قيمته العلمية(٢٠).

وحيث إن «ماركس» كما لاحظنا كان يبحث عن حقائق تناسب تصوراته المسبقة وحيث إن ذلك يعتبر ضد كل مبادىء الأسلوب العلمي، فإن هذا الفصل من الكتاب يتسم بضعف شديد من البداية. ولكن هل كان «ماركس» إلى جانب اختياره المنحاز لبعض الحقائق يقوم بتزييفها أو يسيء استخدامها أيضا ؟ هذا ما لابد أن نفحصه الآن.

الذي يحاول هذا الفصل أن يثبته وهو لب قضية «ماركس»، هو أن الرأسمالية بطبيعتها تتضمن الاستغلال المتزايد والمضطرد للعمال. وهكذا كلما زاد استخدام رأس المال زاد استغلال العمال، وهذا هو الشر المستطير الذي يؤدي إلى الأزمة النهائية. ولكي يبرر هذا الطرح علميا كان عليه أن يثبت أن : ١ ـ الأحوال السيئة في المصانع ما قبل الرأسمالية أصبحت أكثر سوءا في ظل الرأسمالية الصناعية. ٢ ـ بسبب طبيعة رأس المال التي لا يمكن تغييرها، وغير الواضحة، يتزايد استغلال العمال إلى أقصى حد فى الصناعات ذات رأس المال الكبير.

«ماركس» يكتب : «أما فيما يتعلق بالفترة من بداية الصناعة على نطاق واسع في انجلترا نزولا حتى سنة ١٤٥ فسوف ألمس بعض الأمور هنا وهناك محيلا القارىء إلى تفاصيل أكثر في عمل «فردريك انجلز» : «أحوال الطبقة العاملة في انجلترا» ـ ليبزج ١٨٤٥ ـ

ويضيف «ماركس» إن المطبوعات الحكومية خاصة تقارير مفتشي المصانع قد أكدت «بعد نظر «انجلز»

فيما يتعلق بطبيعة العملية الرأسمالية» وأظهرت «كيف صور تلك الظروف من خلال أمانة شديدة في التفاصيل التي ذكرها»(٢١).

وباختصار فإن الجزء الأول كله من دراسة «ماركس» لظروف العمل في ظل الرأسمالية في منتصف ستينيات القرن التاسع عشر يعتمد على عمل واحد مفرد وهو كتاب «انجلز» «أحوال الطبقة العاملة في انجلترا»، الذي كان قد صدر قبل ذلك بعشرين عاما. فما هي القيمة العلمية التي يمكن أن نسبغها على ذلك المصدر الوحيد ؟

«انجلز» من مواليد عام ١٨٢٠، وهو ابن أحد أصحاب مصانع القطن الأثرياء في «بارمن» في «راينلاند»، وشارك في عمل الأسرة في سنة ١٨٣٧، وفي عام ١٨٤٢ أرسل إلى مكتب الشركة في «مانشستر» حيث قضى عشرين شهرا في انجلترا، وأثناء تلك الفترة زار «لندن» و«أولد هام» و«روشدال» و«اشتون» و«ليدز» و«برادفورد» و«هدرسفيلد» بالإضافة إلى «مانشستر». هكذا كانت له خبرة مباشرة بصناعة النسيج ولكن ليس عن الأحوال في بريطانيا إذ ـ على سبيل المثال ـ لم يكن يعرف شيئا عن التعدين ولم ينزل إلى منجم في حياته ولم يكن يعرف أي شيء عن الريف أو العمالة الريفية. ومع ذلك يكرس فصلين لـ «عمال المناجم» و«البروليتاريا الزراعية».

وفي عام ١٩٥٨ قام عالمان دقيقان هما «دبليو. أو. هندرسن» و«دبليو إتش شالونر» بترجمة وتحليل كتاب «انجلز» وفحص مصادره والنصوص التي اقتبس منها في أصولها(٢٢)، وكان أثر تحليلهم مدمرا للقيمة التاريخية الموضوعية للكتاب بمجمله تقريبا وتحديد مستواه بأنه كان مجرد عمل طالب سياسة وأنه كراسة دعاية أو خطبة مسهبة. عندما كان «انجلز» يعمل في الكتاب كتب إلى «ماركس»: «إني أتهم الطبقات الإنجليزية المتوسطة أمام محكمة الرأي العام العالمي بالقتل الجماعي والسرقة بالجملة وكافة التهم الأخري في القائمة»(٢٣).

جزء كبير من الكتاب بما في ذلك دراسة مرحلة ما قبل الرأسمالية والمراحل الأولى من التصنيع لم يكن مؤسسا على مصادر أساسية وإنما على مصادر ثانوية قليلة مشكوك في قيمتها، خاصة كتاب «بيتر جاسكل»: «السكان الصناعيون في انجلترا» ـ ١٨٣٣، وهو عمل ميثولوجي رومانسي يحاول أن يظهر القرن الثامن عشر على أنه كان عصرا ذهبيا بالنسبة لصغار الموظفين والعمال الإنجليز. وفي الحقيقة وكما أظهرت اللجنة الملكية لتشغيل الأطفال في ١٨٤٢، فإن ظروف العمل في الورش والمحلات ما قبل الرأسمالية كانت أسوأ بكثير منها في مصانع القطن الكبيرة في «لانكشاير».

المصادر الأساسية المطبوعة التي اعتمد عليها «انجلز» كانت قديمة يتراوح تاريخها من خمس إلى أربعين سنة مضت رغم أنه كان يقدمها على أنها مصادر معاصرة، فعندما أعطى أرقاما لعدد المواليد غير الشرعيين من الأطفال حذف ما يثبت أن ذلك كان في سنة ١٨٠١، كما نقل معلومات من ورقة عن تعزيز الصحة العامة في «أدنبرة» دون أن يذكر أنها كانت مكتوبة في سنة ١٨١٨، وفي أحيان كثيرة كان

يحذف أو يتجاهل عمدا أحداثا وحقائق تكشف أدلته القديمة. وليس من الواضح دائما إذا ما كانت تحريفات «انجلز» خداعا للقارىء أم للنفس، ولكن الخداع كان عن قصد أحيانا. لقد استخدم أدلة على الأحوال السيئة كانت لجنة تقصي الحقائق عن المصانع قد كشفتها سنة ١٨٣٣ دون أن يقول للقراء أن قانون «لورد آلثورب» للمصانع لسنة ١٨٣٣ كان قد صدر وكان ساري المفعول منذ فترة طويلة، وتحديدا من أجل القضاء على الأحوال السيئة التي جاءت في تقرير لجنة تقصي الحقائق. واستخدم نفس أسلوب الخداع في تناول واحد من مصادره الرئيسية وهو كتاب الدكتور «ج.ب.كاي» : «الأحوال الصحية والنفسية للطبقات المتوسطة العاملة في صناعة القطن في مانشستر(١٨٣٢)» والذي ساعد على إصلاحات أساسية في الإجراءات الصحية الحكومية والتي لم يذكرها «انجلز».

كان يسيء تفسير الإحصائيات الجنائية أو يتجاهلها عندما لا تخدم أغراضه. وكان باستمرار وعن علم بذلك، يحجب الحقائق التي تناقض نظريته أو تدحض أي جزئية يحاول أن يثبتها. والفحص الدقيق لاقتباسات «انجلز» من مصادره الثانوية يبين أنها كانت دائما مقتطعة من السياق، مقتضبة، مشوهة أو محرفة ولكنها موضوعة بين أقواس كما لو كانت أقوالا مأثورة. والإشارات والهوامش في طبعة «هندرسن» و«شالونر» من الكتاب توضح تحريفات «انجلز» وعدم أمانته.

في قسم واحد فقط وهو الفصل السابع بعنوان «البروليتاريا» هناك تزييف يتضمن وقائع خاطئة وتغييرات في الصفحات رقم ١٥٢، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٤، ٢٠٣(٢٤)، ولا يمكن ألا يكون «ماركس» على علم بضعف كتاب «انجلز» وعدم أمانته، خاصة أن معظم عيوبه كانت قد كشفت بالتفصيل منذ ١٨٤٨ على يد الاقتصادي الألماني «برونو هيلد براند» في مطبوعة كان «ماركس» يعرفها(٢٥)، والأكثر من ذلك أن «ماركس» يضاعف من تزييف «انجلز» عن عمد عندما لا يقول للقارىء أي شيء عن التحسينات الضخمة التي طرأت نتيجة تطبيق قوانين المصانع والتشريعات الصحية الأخرى منذ نشر الكتاب، والذي أثر تحديدا على نوعية الأحوال التي كان قد أبرزها.

وعلى أية حال، كان «ماركس» يستخدم المصادر الأساسية والثانوية المكتوبة بنفس روح الإهمال الجسيم والتشويه المتعمد وعدم الأمانة التي كانت تميز عمل «انجلز»(٢٦). وفي الحقيقة فإنهما كانا شريكين في الخداع وإن كان «ماركس» هو المزيف الأكثر وقاحة ! وفي حالة واضحة محددة تفوق على نفسه، كان ذلك فيما يسمي بـ «الخطاب الافتتاحي» للجمعية الدولية للعمال التي أسست سنة ١٨٦٤، وبغرض إثارة الطبقة العاملة الإنجليزية واستنهاضها من لامبالاتها، وشغوفا لأن يثبت أن مستويات المعيشة كانت تتدهور، زيّف «ماركس» متعمدا أجزاء من حديث «جلادستون» عن الميزانية سنة ١٨٦٣، كان «جلادستون» قد قال معلقا على زيادة الثروة الوطنية : «لابد أن أنظر باستهجان وألم إلى الزيادة الرهيبة في الثروة والنفوذ، لو أن ذلك كان مقصورا على الطبقة التي تعيش في ظروف سهلة»، وأضاف «ولكن يسعدنا

أن نعرف أن الظروف العامة للعامل البريطاني قد تحسنت خلال العشرين سنة الأخيرة بدرجة غير عادية، ويجب أن نعترف بأن ذلك ليس له مثيل في تاريخ أي بلد وفي أي عصر»(٢٧).

ولكن «ماركس» في خطابه الافتتاحي جعل «جلادستون» يقول: «إن هذه الزيادة المتمثلة في الثروة والنفوذ مقصورة تماما على الطبقة المالكة».

وحيث أن ما قاله «جلادستون» كان صحيحا ومدعما بعدد من الأدلة الإحصائية وحيث أنه كان مهتما بالتأكد من توزيع الثروة على أوسع نطاق، فمن الصعب أن نتخيل تحريفا أكثر من ذلك لمعناه. وادعي «ماركس» أن مصدره في ذلك جريدة «مورننج ستار» وهو ادعاء غير صحيح حيث إن «مورننج ستار» وغيرها من الصحف كانت تحمل كلمات «جلادستون» الحقيقية، وقد اكتشف تزييف «ماركس» ومع ذلك وضعه في كتابه «رأس المال» مع غيره من التحريفات. وعندما تم دحض ذلك واستنكاره أراق حبرا كثيرا هو و«انجلز» وابنته «اليانور» فيما بعد محاولين الدفاع عن شيء لا يمكن الدفاع عنه لمدة عشرين عاما. ولا أحد منهم كان يريد أن يعترف بوجود الأصل أو بالتزييف الواضح، والنتيجة هي أن بعض القراء يصبح لديهم انطباع ـ كما كان يريد «ماركس» ـ أن هناك جانبين للمسألة، بينما الحقيقة غير ذلك. كان «ماركس» يعرف أن «جلاد ستون» لم يقل شيئا وأن الغش كان متعمدا(٢٨)، كذلك زيف «ماركس» مقتطفات من «آدم سميث»(٢٩).

وقد لفت سوء استخدام «ماركس» للمصادر انتباه اثنين من الباحثين في «كمبردج» في ثمانينيات القرن التاسع عشر، إذ باستخدام الطبعة الفرنسية المنقحة من «رأس المال» (١٨٧٢ ـ ١٨٧٥) قدما ورقة لنادي الاقتصاد في «كمبردج» بعنوان «تعليقات على استخدام «ماركس» للكتب الزرقاء في الفصل الخامس عشر من كتاب رأس المال «١٨٨٥»(٣٠). وقالا إنهما قد قاما في البداية بمراجعة مصادر «ماركس» «للحصول على معلومات أشمل عن بعض النقاط» ولكن لأنهما صدما «للاختلافات الكثيرة» فقد قررا أن يفحصا حجم وأهمية الأخطاء الموجودة وبشكل واضح» واكتشفا أن الاختلافات بين نصوص الكتاب الأزرق ومقتطفات «ماركس» منها لم تكن فقط نتيجة عدم الدقة ولكنها «تحمل آثار عملية تشويه»، وفي بعض الحالات وجدا أن المقتبسات عادة «كان يتم اختصارها بحذف أجزاء قد لا تتفق مع النتائج التي كان «ماركس» يحاول أن يقيمها»، وفي حالات أخرى كان «يجمع أجزاء من مقولات ومن جمل منفصلة من مواضع مختلفة من التقرير، ثم توضع مدسوسة على القارىء بين أقواس بما يوحي بأنها مقتبسات من الكتب الزرقاء نفسها. «وفي أحد الموضوعات «ماكينة الخياطة» يستخدم الكتب الزرقاء بإهمال شديد .. لإثبات العكس»، وانتهى الدراسان إلى أن تقريرهما رغم أنه قد لا يكون كافيا لإقامة اتهام بتزييف حقيقي، إلا أنه يظهر وبكل تأكيد «إهمالا جنائيا في استخدام المصادر» وينبه إلى ضرورة التعامل مع «الأجزاء الأخرى من عمل «ماركس» بحذر»(٣١).

والحقيقة أن أي محاولة ولو سطحية للتأكد من استخدام «ماركس» للدليل، تجبرنا على التعامل مع

ماكتبه بناء على بيانات بشك شديد، إذ لا يمكن أن نثق به، إن الفصل الثامن كله وهو أهم فصول رأس المال تزييف واضح ومنظم لإثبات فرضية لا يمكن إثباتها بناء على ما يقدمه من بيانات ، وهكذا فإن جنايته على الحقيقة تندرج تحت أربعة عناوين:

أولاً : يستخدم مادة قديمة لأن المادة الجديدة لا تدعم قضيته.

ثانيا : يختار صناعات معينة، كانت الأحوال فيها سيئة على نحو خاص، كنموذج للرأسمالية، وقد كان هذا الغش ضروريا بالنسبة له ولولاه لما كان الفصل الثامن قد كتب. كانت فرضيته هي أن الرأسمالية تفرز دائما أحوالا وظروفا سيئة تزداد سوءا، كلما زاد رأس المال زادت معاملة العمال سوءا لضمان عائد كاف. والأدلة التي يقدمها بإسهاب لتبرير تلك الفرضية يأتي بها من أعمال صناعية صغيرة فاشلة، رأسمالها ضعيف في صناعات بالية وفي معظم الحالات ما قبل الرأسمالية مثل الفخار والملابس والحدادة والخبز والكبريت وورق الحائط وأربطة الأحذية.

وفي كثير من الحالات المحددة التي ينظر إليها (الخبز مثلا) كانت الأحوال سيئة تحديدا لأن الشركة لم تكن قادرة على استخدام المعدات أو الآلات لنقص رأس المال.

كان «ماركس» في الحقيقة يتناول ظروف ما قبل الرأسمالية متجاهلا الحقيقة التي كانت تصفعه : كلما زاد رأس المال قلت المعاناة. وعندما يتناول صناعة حديثة ذات رأسمال كبير كان يجد أدلة قليلة، فعندما يتحدث عن الصلب يلجأ إلى تعليقات محرفة («يالها من صراحة عيابة»، «يالها من لغة معسولة») وعندما يتحدث عن السكة الحديد يلجأ إلى استخدام قصاصات صحفية بالية عن حوادث قديمة (كوارث جديدة للسكة الحديد) : كانت فرضياته تحتاج إلى معدل حوادث مرتفع بينما كان المعدل ينخفض بالفعل وبشدة. وعندما ظهر كتاب «رأس المال» كانت السكة الحديد قد أصبحت بالفعل أكثر وسائل السفر أمانا في تاريخ العالم.

ثالثا : في استخدامه لتقارير التفتيش على المصانع يقتبس أمثلة الأحوال السيئة وسوء معاملة العمال كما لو كان ذلك هو الأسلوب الحتمي للنظام، بينما كان ذلك مسئولية ما كان يطلق عليهاالمفتشون أنفسهم «أصحاب المصانع المحتالين» حيث كان المفتشون يعينون لاكتشافهم ومحاكمتهم وكانوا في الطريق للتخلص منهم.

رابعاً : وحيث أن دليل «ماركس» الرئيسي كان مستمدا من هذا المصدر «المفتشين» فإنه يكشف غشه. كان طرحه أن الرأسمالية فاسدة بطبيعتها ، والأبعد من ذلك أن الدولة البرجوازية كانت شريكتها في إنزال البؤس بالعمال، حيث إن الدولة كما كتب «عبارة عن لجنة تنفيذية لإدارة شئون الطبقة الحاكمة بشكل عام»، ولو أن ذلك كان صحيحا لما سن البرلمان قوانين المصانع ولما فرضتها الدولة. وكل ما كان «ماركس» ينتقيه من البيانات والمعلومات لكي يستخدمه (ويزيفه أحيانا) كان مستمدا من جهود الدولة

(المفتشون، المحاكم، .. إلخ) لتحسين الأحوال والتي كانت تتضمن بالضرورة كشف وعقاب المسئولين عن تلك الأحوال السيئة. ولو لم يكن النظام يقوم بعملية إصلاح ذاتي، الأمر الذي كان يراه «ماركس» مستحيلا، لما أمكنه كتابة «رأس المال»، وحيث أنه لم يكن على استعداد لأن يقوم بأي بحث مباشر وآني بنفسه كان مضطرا للاعتماد ـ تحديدا ـ على أدلة أولئك الذين كان يصفهم بـ «الطبقة المسيطرة» والذين كانوا يحاولون الإصلاح ونجحوا في ذلك إلى حد بعيد. وهكذا كان على «ماركس» أن يشوه مصدره الرئيسي أو أن يتخلي عن أطروحته، وقد كان الكتاب ومازال غير أمين في مضمونه.

والذي لم يستطع أن يفهمه «ماركس» وما كان ليفهمه لأنه لم يبذل أي جهد يذكر لكي يفهم كيف تعمل الصناعة، هو أنه منذ فجر الثورة الصناعية ١٧٦٠ ـ ١٧٩٠ ـ كان رجال الصناعة الأكفاء الذين وصلوا إلى رأس المال في جانب ظروف عمل أفضل بالنسبة لعمالهم. ولذلك كانوا يميلون إلى تدعيم تشريعات الصناعة وتطبيقها بفعالية لأن ذلك كان يقضي على ما كانوا يعتبرونه منافسة غير شريفة. ولذلك تحسنت الظروف. ولأن الظروف تحسنت لم يهب العمال كما تنبأ «ماركس»، وهكذا ارتبك النبي!!

والذي نخرج به من قراءة «رأس المال» هو فشل «ماركس» الذريع في فهم الرأسمالية. فشل تحديدا لأنه لم يكن علميا : لم يستطع أن يتقصى الحقائق بنفسه، أو أن يستخدم الحقائق التي تقصاها الآخرون بموضوعية، ومن البداية إلى النهاية فإن عمله كله وليس «رأس المال» فقط، يعكس إهمالا للحقيقة ولا مبالاة تصل أحيانا إلى درجة الاحتقار، وهذا هو السبب الرئيسي في عجز الماركسية كنظام عن تحقيق النتائج التي تدعيها، ووصفها بـ «العلمية» يعتبر أمرا منافيا للعقل.

وإذا لم يكن «ماركس» ـ رغم مظهره كباحث ـ مدفوعا بحب الحقيقة ، ماذا كانت إذن القوة الدافعة في حياته؟

للكشف عن ذلك علينا أن ننظر من كثب إلى شخصيته. إنها في الحقيقة وفي جوانب كثيرة منها حقيقة محزنة، فالأعمال الفكرية الكبيرة لا تنبع من الإعمال المجرد للذهن والخيال وإنما تكون عميقة الجذور في الشخصية، و«ماركس» نموذج بارز على هذا المبدأ. لقد نظرنا بالفعل إلى فلسفته كمزيج من رؤيته الشعرية ومهارته الصحفية وأكاديميته، ولكنها يمكن أن تقدم أيضا على اعتبار أن مضمونها الحقيقي وثيق الصلة بأربعة جوانب في شخصيته : ميله للعنف، شهوته للسلطة، فشله في الأمور المالية ونزوعه إلى استغلال من حوله.

إن مسحة العنف الباطنة الحاضرة دائما في الماركسية والتي تتبدى باستمرار في سلوك الأنظمة الماركسية كانت انعكاسا للرجل نفسه. لقد عاش «ماركس» حياته في جو من العنف اللغوي الشديد الذي كان يفجره أحيانا في شجار عنيف وأحيانا أخرى في هجوم بدني. كان أول مالاحظته عليه «چيني فون وستفالين» قبل أن تصبح زوجته الأولى هو الشجار داخل عائلته، ألقي القبض عليه مرة وهو طالب في

جامعة «بون» لحمله مسدسا وكاد أن يفصل من الدراسة، سجلات الجامعة توضح أنه كان يشارك في الصراعات الطلابية وأنه دخل في مبارزة وجرح جرحا بليغا في عينه اليسرى، شجاره الدائم داخل الأسرة ألقي بظلاله الكئيبة على حياة والده في سنواته الأخيرة وفي النهاية أدى إلى قطيعة تامة مع أمه. نقرأ في أحد الخطابات الأولي لـ «چيني» : «أرجوك لا تكتب بكل هذا الحقد والسخط»، وواضح أن الكثير من نوبات هياجه وشجاره كانت نتيجة ميله للكتابة بعنف والحديث بأسلوب أكثر عنفا ضاعف منه الشراب. لم يكن «ماركس» مدمنا ولكنه كان يشرب بانتظام، أحيانا بإفراط وأحيانا لفترات طويلة. جزء من متاعبه أنه كان قد عرف النفي في منتصف عشرينياته وكان يعيش في تجمعات ألمانية أساسا في مدن أجنبية، ونادرا ما كان يبحث عن معارف خارج تلك التجمعات، كما أنه لم يحاول أبدا أن يندمج معها، بالإضافة إلى أن المنفيين الذين كانت له صلات بهم كانوا مجموعة ضيقة، اهتمامها كله بالسياسة الثورية وهذا في حد ذاته يساعد على تفسير رؤية «ماركس» النفعية للحياة ، ومن الصعب تخيل خلفية اجتماعية أكثر تشجيعا لطبيعته العنيفة، وقد كانت تلك الأوساط معروفة بنزاعاتها العنيفة. وكما تقول «چيني» فإن نوبات هياجه وشجاره كانت دائمة باستثناء الفترة التي كان موجودا فيها في «بروكسل». في «باريس» كانت اجتماعات التحرير في شارع «مولان» تعقد خلف نوافذ مغلقة لكي لا يسمع الناس في الخارج صراخه الذي لا ينتهي، ومع ذلك لم تكن نوبات الغضب تلك بلا هدف. كان «ماركس» يتشاجر مع كل من له به صلة، بدءا من «برونو باور» إلى من سواه، إلا إذا نجح في السيطرة عليهم تماما. ونتيجة لذلك تجمعت عدة تقارير تصف «ماركس» أثناء نوبات غضبه وهياجه، حتى شقيق «باور» كتب قصيدة عنه : «إنسان عابس من «ترايز» يفور بالغضب، قبضته الشريرة محكمة، يزأر بلا توقف، كأن ألف شيطان قد أمسكوا به من شعره»(٣٢).

كان «ماركس» قصير القامة، عريض المنكبين، أسود الشعر، كث اللحية، شاحب البشرة (كان أطفاله يسمونه البربري)، يضع على عينيه «مونوكل» بروسي الموديل. يصفه «پاڤل أنينكوف» الذي رآه أثناء محاكمة «ويتلنج» : «شعر عنقه أسود كثيف، يدان يغطيهما الشعر، وسترة فراك مزررة في غير استقامة»، لم يكن لديه أي درجة من السلوك الحسن «متعجرف وراشح بالازدراء»، «صوته الحاد الرنان كان مناسبا تماما لإصدار الأحكام العنيفة التي يوزعها على البشر والأشياء بلا توقف»، كل شيء يقوله له «رنين مؤذ للأعصاب»(٣٣) من بين أعمال «شكسبير» كان يفضل مسرحية «ترويلس وكريسيدا» وكان معجبا بها لما فيها من ازدراء عنيف وكان يستمتع بالاقتباس منها لكي يسب الآخرين. أحد ضحاياه رفيقه الثوري «كارل هاينزن» قابل ازدراءه بمثله وترك صورة تذكارية بليغة يصفه فيها، لقد رأى «ماركس» : «قذرا بدرجة لا تحتمل»، «هجين قط وقرد»، «شعر أسود أشعث كالفحم وبشرة كالحة قذرة»، يقول : «كان من المستحيل أن أحدد إذا ما كانت ملابسه وبشرته بلون الطين أو أنها كانت قذرة، له عينان ضيقتان حادتان مملوءتان بالشر»، «ينفث حمما من نيران شريرة». كان من عادته أن يقول «سوف أمحوك من الوجود»(٣٤).

كان يكرس معظم وقته لجمع ملفات مفصلة عن أعدائه وخصومه السياسيين ولم يكن يتردد في توصيلها للشرطة لخدمة مصلحته ، أما شجاراته العنيفة ونوبات غضبه الكبيرة المعلنة مثل تلك التي ظهرت أثناء اجتماع الدولية في «هاجو» سنة ١٨٧٢ فتجعلنا نتذكر عمليات الانتقام في روسيا السوفيتية : لا يوجد شيء في المرحلة الستالينية لم يصور من قبل في سلوك «ماركس» ، أحيانا كان الدم يراق بالفعل. كان «ماركس» في غاية البذاءة في خصامه مع «أوجست ڤون ويليش» سنة ١٨٥٠ لدرجة أن «ويليش» تحداه للمبارزة ورغم أن «ماركس» كان مبارزا سابقا إلا أنه قال أنه لن يستدرج «إلى مزاح الضباط البروسيين» ، ولكنه لم يحاول أن يمنع مساعده الشاب «كونراد سكرام» من أن يحل محله رغم أنه لم يكن قد استخدم مسدسا في حياته ورغم أن «ويليش» كان راميا ماهرا. والنتيجة أن سكرام» جرح، أما الثاني الذي بارز «ويليش» في هذه المناسبة فكان أحد أصدقاء «ماركس» الفاسدين «جوستاف تيكو» والذي كانت «چيني» تمقته، وكان قد قتل ـ على الأقل ـ واحدا من الرفاق الثوريين، ثم تم إعدامه أخيرا لقتله أحد ضباط الشرطة.

«ماركس» نفسه لم يكن يرفض العنف أو الإرهاب عندما كان ذلك يناسب تكتيكه. عندما خاطب الحكومة البروسية في ١٨٤٩ كان يهدد : «نحن لا نعرف الرحمة ولا نطلبها منكم، وعندما يأتى دورنا لن نخفى إرهابنا»(٣٥) وفى العام التالى كانت «خطة العمل» التي وزعها في ألمانيا تشجع على عنف الدهماء : «بعيدا عن معارضة التطرف المزعوم، فإن هذه الأمثلة على الثأر العام من الأفراد المكروهين أو المنشآت العامة التي تحمل ذكريات كريهة يجب أن تحظى منا بكل مساعدة، ولا يكفي أن نغض الطرف عنها»(٣٦).

وفي ظروف معينة كان لا يتردد في دعم عمليات الاغتيال بشرط أن تكون مؤثرة. «مكسيم كوفاليڤسكي» أحد زملائه الثوريين كان حاضرا عندما تلقى «ماركس» أخبار المحاولة الفاشلة لاغتيال الإمبراطور «ولهلم الأول» في «أونتر دن ليندن» عام ١٨٧٨ ، ويسجل ثورة «ماركس» وهو «يسب ذلك الإرهابي الذي فشل في تنفيذ ذلك العمل الإرهابي»(٣٧) ، ومن المؤكد أن «ماركس» كان يلجأ إلى العنف والقسوة بمجرد أن يجد نفسه في مركز قوة، ولكنه بالطبع لم يكن أبدا في وضع يسمح له بتنفيذ ثورة على نطاق واسع .. عنيفة أو غير عنيفة، وعليه فإن غضبه كان يجد متنفسا له في كتبه التي تحمل دائما نبرات التصلب والطرف. أجزاء كثيرة منها تعطي الانطباع بأنها قد كتبت في حالة غضب شديد بالفعل، وفي الوقت المناسب كان «لينين» و«ستالين» و«ماوتسي تونغ» يمارسون على نطاق واسع ذلك العنف الذي كان يملأ قلب «ماركس» وتنضح به أعماله. ومن الصعب أن نعرف كيف كان «ماركس» يري أخلاقية أفعاله سواء بالنسبة لتشويه الحقيقة أو تشجيع العنف . بمعنى ما، كان كائنا أخلاقيا لدرجة كبيرة.

كانت تملؤه رغبة حارقة من أجل صنع عالم أفضل، ورغم ذلك كان يمتهن «أخلاقية الأيديولوچيا

الألمانية» ، كان يقول أنها غير علمية وأنها يمكن أن تكون عقبة في طريق الثورة، ويبدو أنه كان يعتقد في إمكانية التغاضي عنها نتيجة للتغير شبه الفسيولوچي الذي سوف يحدثه مجيء الشيوعية(٣٨).

وشأنه شأن كل المتمركزين حول أنفسهم، كان يميل إلى الاعتقاد بأن القوانين الأخلاقية ما كانت لتطبق عليه، أو أن يقرن بين مصالحه والأخلاق كثيرا. من المؤكد أنه كان يرى أن مصالح البروليتاريا وتحقيق آرائه الخاصة عملية مشتركة، وقد لاحظ الفوضوي «باكونين» أن «ماركس» كان لديه «إخلاص شديد لقضية البروليتاريا رغم أنه كان ممزوجا بالغرور الشخصي»(٣٩). كانت تنتابه الهواجس الشخصية دائما. هناك رسالة طويلة يزعم أنه كان قد كتبها لوالده، رغم أنها كانت مكتوبة عن نفسه أيضا(٤٠). لم تكن آراء أو مشاعر الآخرين ذات قيمة أو أهمية بالنسبة له أبدا، كان يدير بمفرده أي مؤسسة يعمل بها. لقد لاحظ «انجلز» عن أسلوب عمله في تحرير جريدة «نيو رايش زيتونج» أن «تشكيل مجلس التحرير كان عبارة عن دكتاتورية من «ماركس»(٤١)، لم يكن لديه وقت للديمقراطية ولا رغبة فيها إلا بالمعنى الخاص أو العكس الذي كان يفهم الكلمة عليه، كانت الانتخابات بالنسبة له مسألة بغضية مهما كان شكلها، وكان يصف الانتخابات الإنجليزية العامة بأنها طقوس سكارى(٤٢).

وفي شهادة من مصادر متنوعة عن أهداف «ماركس» السياسية وسلوكه لوحظ تكرار ظهور كلمة «الدكتاتورية» ، كان «أنينكوف» يسميه» التجسيد الحي للدكتاتور الديمقراطي»(١٨٤٦). أحد عملاء الشرطة السرية البروسية في تقرير عنه في «لندن» كتب : السمة السائدة في شخصيته هي الطموح غير المحدود وحب السلطة .. إنه الحاكم المطلق لحزبه، يعمل كل شيء بنفسه ويعطي الأوامر على مسئوليته ولا يتحمل أي معارضة» ، «تيكو» الذي تمكن مرة من أن يجعل «ماركس» يشرب حتى السكر يرسم صورة وصفية له : كان رجلا «ذا شخصية بارزة» ،«تفوق عقلي نادر» ، و«لو كان قلبه مناسبا لعقله ولو كان لديه حب بقدر ما لديه من كراهية لكان من الممكن أن أخوض النار من أجله» ولكنه يفتقر إلى نبل الروح، وأنا على يقين من أن طموحا شخصيا خطيرا قد أتى على كل شيء جيد فيه ... الاستحواذ على السلطة هدف كل سعيه» ، أما حكم «باكونين» الأخير عليه فيضرب على نفس الوتر : «ماركس لا يؤمن بالله ولكنه يؤمن جدا بنفسه ويجعل الجميع في خدمته، قلبه لا يملؤه الحب بل المرارة، ولا يحمل عطفا كثيرا للجنس البشري»(٤٣).

إن غضب «ماركس» المعتاد وعاداته الدكتاتورية ومراراته ، كل ذلك يعكس بلاشك وعيه المبرر بالسلطة والنفوذ وإحباطه الشديد لعدم استطاعته ممارستها بطريقة أكثر تاثيرا. في شبابه كان يعيش حياة بوهيمية وغالبا ما كانت عاطلة ومتحللة. حتى منتصف العمر كان من الصعب عليه أن يعمل بطريقة معقولة ومنظمة. غالبا ما كان يجلس طوال الليل يتكلم، ثم يرقد على أريكة نصف نائم معظم ساعات النهار، لم يكن منظما أبدا في عمله وكان لايقبل أي نقد مهما كان بسيطا. من الصفات المشتركة بينه وبين «روسو» إنه كان كثير الشجار والخصام مع الأصدقاء وفاعلى الخير، وخاصة إذا حاولوا إسداء النصح

إليه . عندما أشار عليه صديقه المخلص الدكتور «لودفيج كجلمان» في عام ١٨٧٤ إنه لن يجد صعوبة في الأنتهاء من «رأس المال »لو إنه نظم حياته بطريقة أفضل ، قاطعه إلى الأبد وجعله عرضة للاحتقار والازدراء(٤٤).

كانت لذاتيته الغاضبة جذورها الفيزيائية والنفسية. كان يعيش حياة غير صحية، لا يمارس الرياضة كثيرا، يأكل طعاما حريفا وبكميات كبيرة، يدخن بشراهة، يشرب بإفراط خاصة البيرة القوية، ونتيجة لذلك كان يعاني من آلام دائمة في الكبد. نادرا ما كان يستحم أو يغتسل. كل ذلك بالإضافة إلى النظام الغذائي غير المناسب قد يصلح تفسيرا لبلاء البثور والدمامل الذي ظل يعاني منه لمدة ربع قرن تقريبا والذي زاد من طبيعته النزقة. ويبدو أن بثوره ودمامله كانت في أسوأ حالاتها عندما كان يكتب «رأس المال»، كتب مهموما يقول لـ «انجلز» : «مهما حدث، أتمنى أن تجد البرجوازية ـ مهما طال بها الزمن ـ أسبابا تذكرها بدماملي»(٤٥) كانت البثور تختلف في حجمها وعددها وقسوتها ولكنها أحيانا كانت تظهر على كل أجزاء جسمه ... بما في ذلك الخدين وقنطرة الأنف والفخذين ..... مما يعني أنه لم يكن يستطيع أن يجلس للكتابة، كما كانت تظهر على قضيبه أيضا ! وفي سنة ١٨٧٣ أدت إلى نكسة عصبية مع رجفة ونوبات غضب متفجرة.

عدم كفاءة «ماركس» في التعامل مع المال، أحد الأسباب الرئيسية لغضبه المتكرر وإحباطه الشديد، وربما كان ذلك أيضا وراء كرهه للنظام الرأسمالي. وقع في شبابه في أيدي المرابين الذين كانوا يقرضونه بمعدل فائدة عال، وكان كرهه للربا هو الدينمو المحرك والحقيقي لفلسفته الأخلاقية. وهذا يفسر لنا تكريسه وقتا طويلا ومساحة كبيرة للموضوع ولماذا كانت جذور نظريته عن الطبقة في معاداة السامية، ولماذا ضمن «رأس المال» جزءا عنيفا في إدانة الربا، اختاره من إحدى خطب «لوثر» المعادية للسامية(٤٦).

كانت متاعب «ماركس» المالية قد بدأت في الجامعة واستمرت معه بقية حياته، وقد نشأت في الأساس من توجه طفولي . كان «ماركس» يقترض بطيش وينفق ببذخ، ثم يفاجأ ويغضب عندما يحين موعد تسديد الكمبيالات بالإضافة إلى الفائدة، كان يرى أن الحصول على الفائدة، وهو أمر ضروري بالنسبة لأي نظام قائم على رأس المال ، جريمة ضد الإنسانية وجوهر استغلال الإنسان للإنسان الذي كان يهدف نظامه إلى القضاء عليه. هكذا كان «ماركس» بشكل عام. ولكن في إطار حالته الخاصة فإنه استسلم للمصاعب التي كان يمر بها واستغل كل من كان يقع تحت يده ... وفي المقام الأول عائلته.

النقود تسيطر على كل مراسلاته العائلية، الخطاب الأخير من والده والذي كتبه وهو يموت في فبراير ١٨٨٣ يجأر فيه بالشكي من أن «ماركس» لا يبالي بأسرته إلا من أجل الحصول على مساعداتهم : «أنت الآن في الشهر الرابع من دراستك للقانون، وقد أنفقت في هذه المدة القصيرة وحتى الآن مبلغ ٢٨٠ «تالر» ، بينما لم أكسب أنا مثل هذا المبلغ طوال فصل الشتاء»(٤٧) . وبعد ثلاثة شهور مات الرجل. لم يشغل «ماركس» نفسه بحضور جنازته، بل بدأت ضغوطه على أمه. كان قد اتبع أسلوب الحياة اعتمادا

على الاقتراض من الأصدقاء وابتزاز مبالغ من العائلة من وقت لآخر، كان يقول أنها عائلة «غنية بما يكفي» وأن من واجبها أن تعوله وتكفيه من أجل عمله المهم. وباستثناء عمله في الصحافة والذي كان هدفه منه سياسيا أكثر من الحصول على دخل، لم يحاول «ماركس» بجدية أن يبحث عن عمل، رغم أنه تقدم ذات مرة لوظيفة عامل سكة حديد في لندن (سبتمبر ١٨٦٢) ولم يقبلوه لرداءة خطه. ويبدو أن عدم استعداده للبحث لنفسه عن عمل هو السبب الرئيسي لعدم تعاطف العائلة معه في طلباته المتكررة. رفضت أمه أن تسدد ديونه، كانت تعرف أنه سوف يقع فيها مرة أخرى ... وفي النهاية قطعت صلتها به تماما. كانت تصدق أمنيتها المرة في أن «كارل» سوف يجمع رأس المال بدلا من مجرد الكتابة عنه». إلا إنه بطريقة أو أخري استطاع أن يحصل على مبالغ مالية كبيرة بالميراث. ورث عن والده بعد موته ٦٠٠٠ فرانك ذهب، أنفق بعضها على تسليح العمال البلچيك. جلب له موت أمه مبلغا أقل مما كان يتوقع لأنه كان قد اقترض من خاله «فيلپس» مسبقا. وصله أيضا مبلغ محترم من ضيعة «ولهلم وولف» في سنة ١٨٦٤ كما جاءته أموال أخرى عن طريق زوجته وعائلتها (كانت قد أحضرت معها ضمن جهاز زواجها طاقم آنية من الفضة الخالصة ورثته عن أجدادها الأرجيل وأدوات مائدة فخمة ومفارش)، كما كانت تصلها مبالغ كبيرة وكانا يستثمرانها ولم يهبط دخلهما عن مائتي جنيه في السنة وهو ثلاثة أمثال متوسط أجر عامل ماهر. ولكن لا«ماركس» ولا «چيني» كان لهما أي اهتمام بالمال أكثر من إنفاقه. كانا يبددان ما وصلهما بالميراث أو بالاقتراض ولم يكن معهما أي مبلغ زائد أبدا. بالعكس، كانا دائما مدينين وأحيانا بمبالغ كبيرة. طاقم الفضة كان باستمرار في محلات الرهن مع أشياء أخرى ... ملابس الأسرة مثلا. وفي وقت ما كان على «ماركس» أن يترك المنزل محتفظا ببنطلون واحد. عائلة «چيني» مثل عائلته رفضت مساعدة زوج ابنتهم الذي كانوا يعتبرونه عاطلا ومسرفا وقصير النظر. كتب في مارس ١٨٥١ إلى «انجلز» يبلغه بمولد طفلة له وكان يشكو : «لايوجد فى المنزل أى بنس بمعنى الكلمة» (٤٨) فى هذا الوقت كان «انجلز» قد أصبح موضوع استغلاله. منذ منتصف الأربعينيات(١٨٤٠) عندما تقاربا وحتى موت «ماركس»، كان «انجلز» هو مصدر الدخل بالنسبة لأسرة «ماركس»، كان يعطيهم أكثر من نصف ما يحصل عليه. ومن الصعب أن نحسب كل ما أنفقه عليهم لأنه كان يفعل ذلك على مدى ربع قرن وبمبالغ متفاوتة، مصدقا وعود «ماركس» بأنه سوف يسدد ديونه بمجرد أن تصله أموال. كانت العلاقة علاقة استغلال من جانب «ماركس» وغير متكافئة بالمرة، حيث أنه كان المسيطر دائما. مع ذلك كان كلاهما في حاجة للآخر بطريقة غريبة مثل ممثلين كوميديين في فصل مشترك على المسرح لايستطيع أحدهما أن يؤدي دوره دون الآخر، كل منهما يرطن منفصلا ولكنهما في النهاية معا. هذه الشراكة انهارت في ١٨٦٣ عندما شعر «انجلز» بأن تطفل «ماركس» قد زاد عن حده. كان لدى «انجلز» منزلان في «مانشستر»، الأول لضيوف العمل والثاني لعشيقته «ماري بيرنز» التي حزن عليها كثيرا عندما ماتت، وغضب لاستلامه رسالة من «ماركس» (٦ يناير ١٨٦٣) مجردة من المشاعر يعزيه فيها باختصار ثم ينتقل في الحال إلى ما هو أهم وهو طلب نقود منه(٤٩). ولاشيء يمكن أن يصور أنانية «ماركس» المفرطة أكثر من هذا الموقف. رد عليه «انجلز» ببرود وأنهى ذلك الحادث العلاقة بينهما تقريبا، أو لعلها لم تعد

كما كانت أبدا بعد أن أظهر ذلك الموقف حدود شخصية «ماركس». ويبدو أن «انجلز» اكتشف هذه المرة أن «ماركس» لن يكون قادرا على الحصول على عمل أو إعالة أسرته أو تنظيم حياته. كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله من أجله هو أن يدفع له إعانة منتظمة، وهكذا في سنة ١٨٦٩ باع «انجلز» ما كان يملكه وضمن لنفسه دخلا أكثر من ٨٠٠ جنيها في السنة ، كان يعطي «ماركس» منها ٣٥٠ جنيها. وعلى مدى الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته كان «ماركس» يحصل على ريع من أرض مؤجرة وكان يشعر بالأمان إلى حد ما، وكان معدل إنفاقه ما يقرب من خمسمائة جنيه في السنة وربما أكثر، ،كان يبرر ذلك أمام «انجلز» بأن شكل البرولتياريا لن يكون مناسبا له في ذلك المكان(٥٠)، وعليه استمرت رسائله إلى «انجلز» والتي كان يطلب فيها مزيدا من المساعدات المالية(٥١)، إلا أن أكبر المتضررين وضحايا إسرافه وتبذيره وعدم استعداده للعمل كان أفراد أسرته وزوجته في المقام الأول. «چيني ماركس» واحدة من أكثر النساء مأسوية واستحقاقا للرثاء في تاريخ الاشتراكية. كانت تحمل الملامح الاسكتلندية الواضحة، بشرة شاحبة، عينان خضراوان، شعر أسود يميل الي الحمرة أخذته عن جدتها لأبيها. وكانت من سلالة «الإيرل الثاني» في «أرجيل» والذي قتل في «فلادن». كانت تحبه بعنف كما كانت تحارب معاركه مع عائلته وعائلتها، ولم يمت حبها له إلا بعد سنوات طويلة من الألم والحسرة.

ولكن كيف يتسنى لإنسان أناني مثل «ماركس» أن يفجر مثل تلك العاطفة ؟ الإجابة –في تقديري– هي أنه كان بارعا وقويا في شبابه، وفي بداية سن الرجولة كان وسيما رغم قذارته الدائمة وكان شخصية مرحة ومسلية رغم أن المؤرخين لايولون أهمية لتلك الصفة، (كانت تلك أيضا إحدى مزايا «هتلر» سواء على انفراد أو كمتحدث عام)، كانت سخريات «ماركس» وفكاهاته عنيفة ومتوحشة، وكانت نكاته الذكية تضحك الناس. ولولا المرح والفكاهة لبرزت كل صفاته السيئة الأخرى، ولما تجمع حوله أحد ولأدارت له النساء ظهورهن.

النكات دائما هي الطريق الأكيدة إلى قلوب النساء المتعبات، كثيرا ما كان يسمع «ماركس» و«چيني» وهما يضحكان معا، وبعد ذلك كانت نكاته أيضا هي سبب ارتباط بناته به. كان «ماركس» يزهو بالأصل الاسكتلندي النبيل لزوجه، وكان يبالغ في ذلك، وبصفتها ابنة أحد البارونات وأحد الكبار في الحكومة البروسية. في سنة ١٨٦٠ وزع بطاقات دعوة لحفل راقص كتب اسمها فيه «ني ڤون وستفالين» (أي أنه ألحق به اسم أسرتها قبل زواجهما لكي يذكر بأصولها)، وكان كثيرا ما يؤكد أنه يستطيع أن يتعايش مع الأرستقراطيين الحقيقيين عنه مع البرجوازية المتطلعة (ويقول شهود أنه كان يلفظ الكلمة الأخيرة بازدراء شديد)، ولكن «چيني» بعد أن حدث وتزوجت من ثوري عاطل وبلا وضع اجتماعي كانت تعيش حياة برجوازية مهما بدت صغيرة، ومنذ بداية ١٨٤٨ وعلى مدى السنوات العشر التالية على الأقل كانت حياتها كابوسا طويلا.

في ٣ مارس ١٨٤٨ صدر أمر رسمي بلچيكي بطرد «ماركس» وأخذ إلى السجن، وقضت «چيني»

الليلة في زنزانة هي الأخرى مع مجموعة من العاهرات، وفي اليوم التالي أخذت الأسرة مخفورة إلى الحدود. معظم السنة التالية كان إما هاربا أو مطلوبا للمحاكمة. وفي يونيو ١٨٤٩ كان قد أصبح معدما. في الشهر التالي كان يعترف لأحد الأصدقاء: «وجدت آخر قطعة في حلي زوجتي طريقها إلى محل الرهن»(٥٢)، كان «ماركس» يحافظ على روحه المعنوية بتفاؤل ثوري عبثي دائم، ويكتب إلى «انجلز»: «رغم كل شيء فإن البركان الثوري، الانفجار الشامل لم يبد قريبا كما هو الآن، والتفاصيل فيما بعد»، أما بالنسبة لزوجته فلم يكن هناك عزاء أو سلوى من هذا النوع، وكانت في فترة الحمل. «ماركس» و«چيني» وجدا الأمان في انجلترا ... والتدهور الاجتماعي أيضا.

والآن كان لديهما ثلاثة أطفال: «چيني» و«لورا» و«ادجار» وفي نوفمبر ١٨٤٩ جاء الرابع: «جي» أو «جيدو».

بعد خمس شهور طردوا من مسكنهم في «شيلسي» لعدم تسديد الإيجار وخرجوا «إلى الرصيف» ـ كما كتبت چيني ـ أمام كل الدهماء في شيلسي». باعوا الأسِرَّة لكي يسددوا ديونهم للجزار وبائع الحليب والخباز والصيدلي، ثم وجدوا مأوى في منزل قذر في «ليستر سكوير» كان يقيم فيه بعض الألمان المهاجرين، وهنا وفي نفس الشتاء مات الطفل «جيدو»، ولم يمنعها حبها لـ «ماركس» من كتابة وصف بائس لتلك الأيام السوداء(٥٣).

وفي ٢٤ مايو ١٨٥٤ تسلم السفير البريطاني في «برلين» «إيرل ويستمور لاند» تقريرا من جاسوس بروسي عن نشاط الثوار الألمان المتحلقين خول «ماركس»، ولا شيء أبلغ من ذلك يمكن أن يعبر عما كانت «چيني» تتحمله: «يعيش «ماركس» حياة مثقف بوهيمي، غسيل الملابس أو العناية بنفسه أو تغيير أغطية الفراش أشياء لا يقوم بها إلا نادرا، ومعظم الوقت في حالة سكر. رغم أنه عاطل معظم الأيام إلا أنه يمكن أن يعمل ليل نهار بلا كلل إن كان هناك عمل.

ليس له وقت محدد للنوم أو الاستيقاظ. عادة يسهر طوال الليل ثم يرقد بكامل ثيابه على الأريكة ويظل نائما حتي المساء. لا يزعجه دخول أو خروج الدنيا كلها عليه وهو نائم .. لا توجد قطعة أثاث واحدة سليمة أو نظيفة، كل شيء مكسور، ممزق، رث، طبقات من الغبار تغطي كل شيء والفوضي تعم المكان. في وسط غرفة المعيشة توجد طاولة كبيرة من طراز قديم عليها مفرش من البلاستيك، فوقه مخطوطات وكتب وجرائد ولعب أطفال وقطع قماش ومِزَق من سلة الخياطة الخاصة بزوجته، وأكواب بحواف مكسورة وسكاكين وشوك ولمبات ومحبرة وكؤوس، وغلايين تبغ ورماد .. إن صاحب أي محل خردة ليخجل من بيع تلك الأشياء الغريبة.

عندما تدخل غرفة «ماركس» تدمع عيناك من رائحة التبغ والدخان، كل شيء قذر يغطيه التراب والجلوس مخاطرة، هنا كرسي بثلاثة أرجل، وعلى كرسي آخر الأطفال يلعبون لعبة الطبخ. هذا كرسي وحيد بأرجل كاملة وهو الذي يقدم عادة للضيوف، ولكن الطعام الذي يطبخه الأطفال موجود فوقه، وإذا

غامرت بالجلوس فعلى بنطالك السلام»(٥٤).

وربما يكون هذا التقرير المكتوب في ١٨٥٠ هو الذي يصف أسوأ مرحلة في حياة الأسرة، إلا أن السنوات التالية حملت لهم أيضا المزيد من الضربات.

«إدجار» الإبن المحبوب والأقرب إلى قلب «ماركس» والذي كان يدلله بـ «موش» ـ أي الذبابة الصغيرة ـ أصيب بالتهاب معوي حاد وساءت حالته ومات في سنة ١٨٥٥، وكان موته ضربة قاصمة لكليهما، لم تبرأ «چيني» منها.

كتب «ماركس» يقول: «كل يوم تقول لي زوجتي أنها تتمنى الموت».

وماتت طفلة أخرى (إليانور) وكان عمرها ثلاثة شهور ولكنها لم تكن نفس الشيء بالنسبة لـ «ماركس»، كان يريد أبناء ذكورا، والآن لم يعد لديه أحد. البنات لم تكن لهن أهمية عنده إلا كمساعدات في أعمال السكرتارية.

في ١٨٦٠ أصيبت «چيني» بالجدري وفقدت ما كان قد تبقى من جمالها وإلى أن ماتت في سنة ١٨٨١ كانت نسيا منسيا في ذاكرة «ماركس»، امرأة متعبة، متحررة من الوهم، شاكرة لنعم قليلة: الأدوات الفضية عادت من محل الرهن، ومنزل خاص بها، وفي سنة ١٨٥٦ وبفضل «انجلز» استطاعت الأسرة أن تنتقل من «سوهو» إلى منزل بالإيجار (٩ جرافتون تراس ـ هاڤر ستوك هل)، وبعد تسع سنوات وبفضل «انجلز» أيضا كان لديهما منزل أفضل (١ ميتلاند پارك رود)، ومن الآن فصاعدا لن يكون لديهم أقل من خادمين.

كان «ماركس» يقرأ جريدة «التيمز» كل صباح واختير عضوا في مجلس الكنيسة، وفي أيام الأحد كان يخرج مع الأسرة للنزهة في «هامستيد هيث» .. هو يسير في الأمام وزوجته وبناته خلفه ... ولكن تبرجز «ماركس» أدي إلى شكل آخر من الاستغلال ... كان هذه المرة استغلاله لبناته.

البنات الثلاث كن في منتهى الذكاء، ونتصور أنه لكي يعوضهن عن طفولتهن الفقيرة والمضطربة التي تحملنها كأبناء ثائر، أنه سوف يتبع منطقا ثوريا ويشجعهن على العمل. الحقيقة أنه لم يوافق على تعليمهن تعليما كافيا. رفض أن يحصلن على أي تدريب، وأن يعملن .. رفض عملهن تماما. وكما قالت «إليانور» ـ وكانت أكثرهن حبا له ـ لأوليف سكرينر: «على مدي سنوات بائسة، كان بيننا وبينه حاجز». ظلت البنات بالمنزل يتعلمن العزف على البيانو والرسم بالألوان المائية مثل بقية بنات التجار، وعندما كبرن كان «ماركس» مازال يذهب إلى الحانات من وقت لآخر مع رفاقه الثوريين. ولكن حسبما يقول «ويلهلم ليبكنشت»: «إنه كان يرفض أن يغنون أغنيات خليعة في منزله خشية أن تسمعها البنات»(٥٥).

بعد ذلك رفض كل من تقدموا للزواج من بناته من بين رفاق الوسط الثوري. لم يعرقل زواجهن ولم

يستطع أن يمنعهن ولكنه كان يعقد الأمور، وقد تركت معارضته آثارا كبيرة. كان يطلق على «بول لافارجو» زوج «لورا» ابنته ـ وهو من كوبا وفي دمه أثر زنجي ـ اسم «نجرللو» أو «الغوريللا». لم يكن يحب «تشارلز لونجت» الذي تزوج ابنته «چيني». كان الزوجان في نظره أغبياء: «لونجت» آخر «البرودونيين» و«لافارجو» آخر «الباكونايين» ... «إلى الجحيم بهما». ابنته الصغرى «إليانور» هي أكثر من عانت بسبب رفضه لعمل بناته وعدائه لخطابهن.

كان «إدوارد آڤلنج» كاتبا وفي الطريق لأن يصبح سياسيا يساريا، وكان صياد نساء وخبيرا في إغواء الممثلات. كانت «إليانور» تريد أن تصبح ممثلة وبالتالي كانت فريسة طبيعية. ومن سخريات التاريخ الحادة أنه شارك مع «إليانور» و«برنارد شو» في أول قراءة خاصة لمسرحية «إبسن»: «بيت الدمية» التي تدعو إلى حرية المرأة وكانت «إليانور» تلعب دور «نورا». وقبل موت «ماركس» بوقت قصير كانت قد أصبحت عشيقة «آڤلنج» ثم عبده المطيع كما كانت أمها بالنسبة لأبيها ذات يوم(٥٧).

وربما كان «ماركس» دائما في حاجة إلى زوجته بأكثر مما يعترف، إذ بعد موتها في سنة ١٨٨١ انطفأ بسرعة. كان لا يعمل، وأصبح يتردد على عدد من المصحات الأوروبية للعلاج أو يسافر إلى «الجزائر» و«مونت كارلو» و«سويسرا» بحثا عن الشمس والهواء النقي. وفي ديسمبر ١٨٢٨ كان سعيدا لتزايد تأثيره في روسيا: «لا يبهجني نجاحي في أي مكان من العالم أكثر من هنا» ولأنه ظل مخربا إلى النهاية كان يتباهي: «مما يجعلني أشعر بالرضا أن أدمر تلك القوة التي تعتبر القلعة الرئيسية للمجتمع القديم بعد انجلترا». وبعد ثلاثة شهور مات في رداء النوم وهو جالس إلى جوار المدفأة، وكانت إحدى بناته «چيني» قد ماتت قبل ذلك بأسابيع قليلة.

نهاية البنتين الآخريين كانت مأسوية كذلك. «إليانور» التي كانت كسيرة القلب بسبب سلوك زوجها تعاطت جرعة زائدة من الأفيون في سنة ١٨٩٨ وربما كان ذلك ضمن اتفاق معه على الانتحار معا ولكنه لم ينفذ وعده. وبعد ١٣ سنة اتفقت «لورا» و«لافارجو» على ميثاق انتحار .. نفذاه.

وبقي على أية حال شخص واحد على قيد الحياة من تلك الأسرة المأسوية، والذي كان نتاج أسوأ عمليات «ماركس» في الاستغلال. في جميع أبحاثه عن مساوىء الرأسمالية البريطانية صادف ماركس عمالا كثيرين كانوا يحصلون على أجور متدنية، ولكنه فشل في أن يكتشف أحدا لا يحصل على أي شيء على الإطلاق، إلا أن ذلك العامل كان موجودا .... وبين أهل منزله.

عندما كان «ماركس» يأخذ أسرته للنزهة أيام الأحد، كانت هناك دائما في المؤخرة امرأة سمينة تحمل السلة واحتياجات الأسرة الأخرى. كان اسمها «هيلين ديمث»، وكانت تعرف بين الأسرة باسم «لينشن»، وهي من مواليد ١٨٢٣ لأسرة من الفلاحين. لحقت بعائلة و«ستفالين» وهي في الثامنة كمربية. كانت تعيش معهم ولا تحصل على أجر. وفي سنة ١٨٤٥ عندما شعرت البارونة بالقلق على ابنتها المتزوجة، تركت لها «لينشن» لكي تخفف عنها وكانت حينذاك في الثامنة والعشرين. وهكذا بقيت «لينشن» مع

أسرة «ماركس» حتى وفاتها في ١٨٩٠ ، كانت «إليانور» تعتبرها أرق إنسانة في الوجود مع الآخرين، بينما كانت طوال حياتها لا ترحم نفسها»(٥٨). كانت نشيطة : تطبخ وتنظف المنزل وتدبر أموره المالية وهو ما كانت «چيني» لا تستطيع أن تقوم به. لم يدفع لها «ماركس» بنسا واحدا. وفي سنة ١٨٤٩ ـ ١٩٥٠ ، أثناء أسوأ فترات حياة الأسرة أصبحت «لينشن» عشيقة لـ «ماركس» وحملت منه. كان الطفل «جيدو» قد مات منذ وقت قصير، ولكن «چيني» كانت قد حملت مرة أخرى. جميع أهل البيت كانوا يعيشون في غرفتين وكان على «ماركس» أن يخفي أمر «لينشن» عن زوجته وكذلك عن زواره العديدين من رفاقه الثوريين.

ولكن «چيني» اكتشفت الأمر في النهاية أو ربما يكون أحد قد أخبرها به ليضاعف ذلك من تعاستها في تلك الأيام، وربما كان ذلك نهاية حبها لـ «ماركس» . كانت تعتبر ذلك «حدثا لن أقف عنده طويلا رغم أنه قد سبب الكثير من أحزاننا العامة والخاصة» ، جاء ذلك في مقال على شكل سيرة ذاتية كتبته في سنة ١٨٦٥ في ٣٧ صفحة منها ٢٩ صفحة موجودة حتى الآن، وربما تكون «إليانور» قد دمرت الصفحات الأخرى التي كانت تصف فيها أمها مشاجراتها مع أبيها(٥٩).

ولدت «لينشن» طفلها في مسكنهم في ٢٣ يونيو ١٨٥١ (٢٨ دين ستريت)(٦٠)، وتم تسجيله باسم «هنري فردريك ديموث» ، رفض «ماركس» الاعتراف به حينذاك وبعد ذلك أيضا وكان يرفض أن يقول أحد أنه ابنه، ربما كان يريد أن يفعل ما فعله «روسو» وهو أن يسلم الطفل لأحد الملاجيء أو لأحد يتبناه. ولكن شخصية «لينشن» كانت أقوى من كونها عشيقة فأصرت على أن تعترف هي بالطفل ووضعته في رعاية أسرة عاملة هي عائلة «لويس» ، وكان يسمح له بزيارة بيت «ماركس» . كان ممنوعا من استخدام الباب الرئيسي ولا يرى أمه إلا في المطبخ. كان «ماركس» يخشى أن تكتشف أبوته لـ «فريدي» وأن يسبب له ذلك ضررا بالغا كقائد ثوري ورائي. هناك إشارة غامضة إلى ذلك في أحد خطاباته، أما الأدلة الأخرى فقد اختفت على يد كثيرين. وفي النهاية أقنع «انجلز» بأن يعترف بالطفل كعملية تغطية، وللاستهلاك الأسري ، وهذا فعلا ما صدقته «إليانور» . ولكن «انجلز» ورغم استعداده الدائم للخضوع لمطالب «ماركس» من أجل عملهما المشترك، لم يكن مستعدا لأن يحمل ذلك السر معه إلى القبر. «انجلز» مات بسرطان الحنجرة في ١٥ أغسطس ١٨٩٥ ، لم يكن قادرا على الكلام ولكن لم يكن أيضا على استعداد لأن يجعل «إليانور» (وكان يسميها تاسي) تستمر على اعتقادها بأن والدها كان بريئا. كتب على لوح : «فريدي» ابن «ماركس» ، ولكن «تاسي» تريد أن تصنع من والدها وثنا» ، وفي رسالة من «لويزا فريبيرجر» مدبرة منزل «انجلز» وسكرتيرته إلى «أو جست بيبل» في ٢ سبتمبر ١٨٩٢ تقول أن «انجلز» كان قد قال لها الحقيقة. وتضيف : «فريدي يشبه ماركس بطريقة غريبة، هذا الوجه اليهودي والشعر الأزرق المائل للسواد يجعلنا نعتبر نسبته إلى الجنرال ضربا من التعصب الأعمى» (وكانت تسمي «انجلز» بالجنرال) . «اليانور» نفسها قبلت حقيقة أن «فريدي» أخ غير شقيق» وتعلقت به، وهناك ٩ رسائل من التي كتبتها إليه(٦١) . ولكنها لم تجلب له أي حظ حسن حيث نجح حبيبها «آفلنج» في اقتراض

مدخرات «فريدي» ولم يسددها.

كانت «لينشن» هى الإنسان الوحيد من الطبقة العاملة التي لم يعرفها «ماركس» أبدا بشكل جيد. كانت الاتصال الحقيقي الوحيد له بالپروليتاريا، وربما يكون «فريدي» هو الثاني حيث نشأ كشاب من الطبقة العاملة، وفي السادسة والثلاثين حصل على شهادة كمهندس تركيبات، قضى حياته كلها تقريبا في «كنجز كروس» و«هاكني» وكان عضوا دائما في اتحاد المهندسين. ولكن «ماركس» لم يعرفه أبدا. التقيا مرة واحدة عندما كان «فريدي» يصعد السلم الخلفي للمطبخ ولم يكن لديه فكرة أن يكون هذا الفيلسوف الثوري والده. مات في يناير ١٩٢٩ في الوقت الذي كانت رؤية «ماركس» عن دكتاتورية البروليتاريا تأخذ شكلها المحدد والمرعب.

كان «ستالين» ـ الحاكم الذي حقق السلطة المطلقة التي كان يتمناها «ماركس» ـ يبدأ هجومه الفاجع على الفلاحين الروس.



الفصل الرابع

«هنريك إبسن» بالعكس !

الكتابة على اختلاف أنواعها صعبة، والكتابة الإبداعية تحديدا عمل ذهني شاق. فالإبداع الخلاق خاصة إذا كان على نطاق واسع، يتطلب طاقة استثنائية ودرجة عالية من التركيز. وأن يقضي إنسان ما حياته العملية كلها وهو يواصل تطوير وتوسيع حدود فنه، فإن ذلك يدل على مستوى رفيع من الانضباط النفسي وقوة الذهن، الأمر الذي لا يتوفر إلا لقلة من الكتاب.

كان ذلك بالضبط هو أسلوب عمل «إبسن» حيث من الصعب أن نتذكر كاتبا آخر في أي مجال ولا في أي عصر نجح في حرصه على ذلك مثله. إنه لم يخترع الدراما الحديثة فقط، وإنما كتب مجموعة من المسرحيات تشكل إلى الآن جزءا مهما من ريبرتوار المسرح. وجد «إبسن» المسرح الغربي خاليا ومجدبا، فحوله إلى شكل فني غني وقوي، وليس في بلده فقط وإنما في العالم كله. إنه لم يحدث ثورة في فنه فحسب، بل غير التفكير الاجتماعي لجيله كله وللجيل الذي جاء بعده، وحقق للقرن التاسع عشر ما كان «روسو» قد حققه لنهايات القرن الثامن عشر. فإذا كان «روسو» قد أقنع الناس بالعودة إلى الطبيعة فعجل بثورة اجتماعية، فإن «إبسن» بشر بثورة الفرد على محظورات وتحيزات النظام القديم التي كانت تحكم سيطرتها في كل مدينة وعلى كل أسرة. لقد علم الناس والنساء خاصة أن ضميرهم الفردي ومفاهيمهم الشخصية عن الحرية لابد أن تكون لهاالأولوية على متطلبات المجتمع، وبذلك عجل بثورة في الاتجاهات والسلوك كانت قد بدأت في زمنه ثم واصلت منذ ذلك بقفزات ووثبات مفاجئة، وقبل «فرويد» بوقت طويل، وضع «إبسن» أسس المجتمع المتساهل.

ولم يكن «روسو» ولا «ماركس» بالتأكيد أقوى منه أثرا على أسلوب الناس في معارضتهم للحكومات.

إن «إبسن» وأعماله من الدعائم الأساسية في قوس الحداثة. ويتبدى تميز إنجازه عندما نأخذ بالاعتبار الغموض المضاعف لخلفيته، أما كونه مضاعفا فلأن «إبسن» كان فقيرا على المستوى الشخصي وآت من بلد صغير فقير لا يملك أي تراث ثقافي رسمي . في العصور الوسطى الأولى (٩٠٠ ـ ١١٠٠) كانت «النرويج» قوية وجسورة، ثم جاء الانهيار خاصة بعد موت آخر ملوكها النرويجيين «أولاف الرابع» في سنة ١٣٧٨ ، وفي سنة ١٥٣٦ كانت ولاية من ولايات «الدانمرك» وبقيت كذلك ثلاثة قرون تقريبا. وقد تغير

اسم العاصمة «أوسلو» إلى «كريستيانيا» إحياء لذكرى حاكم دانمراكي ، وكانت كل الثقافة الراقية دانمركية : الشعر والرواية والمسرحية.

وفي مؤتمر «ڤيينا» في ١٨١٤ ١٨١٥ حصلت النرويج على ما يسمى بـ «دستور إيد سفول»(١)، الذي ضمن لها الحكم الذاتي تحت التاج السويدي. ولكن البلاد لم تعرف الحكم المستقل إلا في سنة ١٩٠٥ ، وحتى القرن التاسع عشر كانت النرويجية لهجة محلية ريفية أكثر منها لغة وطنية مكتوبة، والجامعة الأولى يرجع تاريخها إلى سنة١٨١٣ ، ولم يشيد أول مسرح نرويجي إلا في سنة ١٩٥٠ في بيرچن(٢) . في شباب «إبسن» ورجولته المبكرة كانت الثقافة في معظمها دانمركية، وأن تكتب بالنرويجية كان معناه أنك تعزل نفسك عن بقية اسكندنافيا، ناهيك عن العالم بمجمله ... وظلت الدانمركية لغة الأدب.

البلد نفسه كان بائسا وفقيرا، والعاصمة مدينة إقليمية صغيرة بالمقاييس الأوربية، لا يزيد عدد سكانها عن مائتي ألف، وكانت مكانا متربا لا يحتوي على أي جمال.

كانت «سكين» التي ولد بها «إبسن» في ٢٠ مارس ١٨٢٨ تقع على الساحل على مسافة مائة ميل جنوبا، منطقة مقفرة تنتشر فيها الذئاب ومرض الجذام ... قبل ذلك بسنوات قليلة كان قد شب في المكان حريق هائل بسبب إهمال إحدى الخادمات وأعدمت بسبب ذلك.

يصف «إبسن» المكان في جزء من سيرته الذاتية بأنه كان شيئا خرافيا مخيفا وموحشا يملؤه نباح الكلاب وأنين المناشير ... «عندما قرأت بعد ذلك عن المقصلة كنت أتذكر دائما نصال تلك المناشير» ، وفي قاعة المدينة كانت توجد المشهرة (آلة التعذيب والتشهير) : عمود لونه بني محمر بطول رجل تقريبا، وعلى قمته زر كبير مستدير كان لونه أسود في الأصل. من مقدمة العمود تتدلى سلسلة من الحديد في نهايتها شكال (قيد) مفتوح، كان يبدو لي مثل ذراعين صغيرين جاهزين ومستعدين للامتداد للإمساك بي من رقبتي .... وتحت قاعة المدينة زنازين، نوافذها الصغيرة مغطاة بقضبان، تطل على السوق ... ووراء تلك القبضان رأيت كثيرا من الوجوه الحزينة الكئيبة»(٣) .

كان «إبسن» الابن الأكبر بين خمسة أطفال (أربعة ذكور وبنت واحدة) لأب تاجر «كنود إبسن» وكان أسلافه من البحارة. أمه كانت من عائلة تعمل بالشحن.

وعندما بلغ «إبسن» السادسة أفلس والده وأصبح إنسانا مكسورا طفيليا مشاكسا نكد المزاج (شخصية إكدال العجوز في البطة البرية)، وأمه التي كانت جميلة ذات يوم وممثلة فاشلة اكتأبت وانغلقت على نفسها وكانت تختفي في غرفتها وتلعب بدمي الأطفال. كانت الأسرة غارقة في الديون دائما وتعيش على البطاطس. «إبسن» نفسه كان ضئيل الحجم وقبيحا، نشأ في ظل شائعة تقول أنه طفل غير شرعي لرجل مجهول، وكان يصدق ذلك أحيانا ويردده وهو في حالة سكر، وإن كان لا يوجد دليل على صحة ذلك.

وبعد طفولة مهينة، أرسل إلى ميناء «جريمشتاد» الكئيب ليعمل مساعدا لأحد الصيادلة، وهنا أيضا سيحالفه سوء الحظ .. فقد أفلس الصيدلي(٤).

... يعتبر خروج «إبسن» من هذه الهاوية ملحمة عن العصامية والتعليم الذاتي. في سنة ١٨٥٠ شق طريقه نحو الجامعة، ولعدة سنوات كانت معاناته شديدة. كان يكتب الشعر والمسرحية والنقد والتعليق السياسي. مسرحيته الأولى الساخرة «نورما» لم تقدم على المسرح، أول أعماله التي قدمت كانت «كاتالين» وهي مأساة شعرية كذلك ... وفشلت. لم يكن حظه أفضل مع ثاني مسرحية تقدم على المسرح وهي «ليلة سان چون». مسرحيته الثالثة «جبل المحارب» سقطت في «بيرچن»، الرابعة : «السيدة إنجار» وهي نثرية، قدمت باسم مجهول وفشلت أيضا. العمل الأول الذي جذب الانتباه : «حفل في سولهاج» كانت في نظره شيئا تقليديا تافها. ولو أنه اتبع ميوله الطبيعية كما فعل في الدراما الشعرية «كوميديا الحب» فإنها كانت تصنف علَى أنها «غير أخلاقية» وما كانت لتقدم على المسرح بالمرة. إلا أنه اكتسب خبرة مسرحية كبيرة بالتدريج، فقد اختاره الموسيقار «أول بول» مؤسس أول مسرح لغوي في «بيرچن» ليكون مؤلفا له نظير خمسة جنيهات في الشهر، ولمدة ست سنوات كان يعمل في المناظر والملابس وشباك التذاكر ويساعد في الإخراج (رغم أنه لم يمثل أبدا وكانت نقطة ضعفه عدم ثقته في قدرته على توجيه الممثلين).

كانت الظروف بدائية، فالإضاءة بالغاز التي كانت متوفرة في «لندن» و«باريس» منذ سنة ١٨١٠ تقريبا لم تكن معروفة هناك إلى أن ترك ذلك المكان في ١٨٥٦، بعد ذلك قضى خمس سنوات أخرى في مسرح «كريستيانيا» الجديد، وبقدرة استثنائية على العمل الجاد شق طريقه نحو الإجادة في الفن المسرحي ثم بدأ يجرب، ولكن المسرح الجديد أفلس في سنة ١٨٦٢ فاستغنوا عنه. في تلك الأثناء كان متزوجا وغارقا في الديون ومطاردا من أصحابها، مكتئبا ويشرب بإفراط. وكان الطلاب يشاهدونه واقعا فاقد الوعي في قنوات المجاري وأنشأوا صندوقا للتبرعات بغرض «مساعدة الشاعر السكير للسفر إلى الخارج»(٥).

هو نفسه كان يكتب الطلبات لذلك باستمرار ويقدمها للعرش والبرلمان من أجل منحة تمكنة من السفر إلى الجنوب. وفي النهاية استطاع أن يحصل على واحدة ليعيش على مدى الربع التالي من القرن في المنفي ... «روما» ... «درسدن» ... «ميونخ» ....

أما أول بادرة للنجاح فجاءت في سنة ١٨٦٤ عندما دخلت مسرحيته الشعرية «الأدعياء» ريبرتوار مسرح «كريستيانيا» الذي كان قد تم إحياؤه. كان من عادة «إبسن» أن ينشر مسرحياته في كتب أولا كما كان يفعل معظم شعراء القرن التاسع عشر من «بيرون» إلى «شلي» وبعدهما.

وكقاعدة، لم تكن تلك المسرحيات تظهر على المسرح إلا بعد سنوات .. وأحيانا سنوات طويلة، ولكن عدد النسخ المطبوعة والمباعة كان يتزايد تدريجيا من خمسة آلاف ليصل أحيانا إلى خمسة عشر ألفا.

ظهرت أولا مسرحياته الشعرية الكبيرة «براند» و«بيرجنت» في ١٨٦٦ ـ ١٨٦٧، في نفس الوقت الذي كان «ماركس» ينشر فيه «رأس المال». كانت «براند» هجوما على المادية التقليدية ودعوة إلى اتباع الضمير الفردي في مواجهة نظم المجتمع، وربما يكون ذلك هو الموضوع الرئيسي لكل أعماله. وقد أثارت المسرحية جدلا كبيرا عندما نشرت (١٨٦٦) وبدأ النظر إلى «إبسن» كقائد للتمرد على المعتقدات التقليدية، ليس في النرويج فقط وإنما في اسكندنافيا كلها، فقد خرج من البقعة النرويجية الضيقة.

وجاءت الموجة الثانية في سبعينيات القرن، فمع مسرحية «براند» أصبح ملتزما بمسرحيات الأفكار الثورية، ولكنه وصل إلى نتيجة منطقية وهي أن تلك المسرحيات سوف يكون تأثيرها أقوى عندما تقدم على المسرح أكثر من قراءتها في المكتبة. وهذا ما قاده إلى ترك الشعر وتبني النثر ومعه نوع جديد من الواقعية المسرحية، وكما كتب: «الشعر للرؤية ... النثر للأفكار»(٦)، ولكي تتحقق هذه النقلة فإنها أخذت سنوات مثل كل مراحل تطوره. فقد كان أحيانا يبدو كسولا ويفكر أكثر مما يكتب.

إن الكاتب المسرحي مقارنة بالروائي لايقضي وقتا طويلا في الكتابة، وعدد الكلمات حتى في المسرحية الطويلة صغير لدرجة ملفتة. في حالة «إبسن» كانت مرحلة ما قبل الكتابة قاسية جدا لأنه كان يفعل شيئا جديدا تماما. ومثل كل الفنانين العظام لم يكن يتحمل أن يكرر نفسه، وكان كل عمل من أعماله مختلفا، ودائما خطوة جديدة نحو المجهول، ولكن بمجرد ما أن يقرر ما يريد أن يحدث على المسرح كان يكتب بسرعة.... وجيدا. وقد تصادفت الثمار الأولى المهمة لتلك السياسة الجديدة وهي مسرحيات «أعمدة المجتمع» (١٨٧٧) و«بيت الدمية» (١٨٧٩) و«الأشباح» (١٨١١) مع انهيار مرحلة الازدهار في منتصف العصر الفيكتوري وحالة جديدة من القلق والتململ في المجتمع. لقد طرح «إبسن» أسئلة مقلقة عن سلطة المال، ظلم المرأة، حتى موضوع المرض الجنسي الذي كان من المحرمات. لقد وضع القضايا السياسية والاجتماعية فوق خشبة المسرح بأمانة، وبلغة الحياة اليومية البسيطة وبشكل يستطيع الجميع أن يدركه، لقد أثار الاهتمام في دوائر واسعة من اسكندنافيا، كانت «الأعمدة» بمثابة الاختراق إلى الجماهير في أوروبا الوسطي، و«بيت الدمية» إلى العالم الانجلوساكسوني، هما أول مسرحيات حديثة وهما اللتان بدأتا عملية تحويل «إبسن» إلى شخصية عالمية.

ولكن لأنه «إبسن» فقد وجد من الصعب عليه أن يكتفي بدور كاتب المسرح الاجتماعي، حتى ولو وضعه ذلك في دور الريادة العالمية. المرحلة الثالثة من تطوره والتي حدثت أيضا بسرعة مضطردة بعد سنوات من الحمل البطيء، شهدت تحوله من القضايا السياسية نحو مشكلة التحرر الشخصي والتي يبدو أنها كانت تشغل باله أكثر من أي جانب آخر في الوجود الإنساني. كتب في مذكراته :

«يتمثل التحرر في ضمان حق الأفراد في ذلك، كل حسب احتياجه الخاص»، وكان دائما يقول إن الحريات السياسية الشكلية عديمة الجدوي إلا إذا كان ذلك الحق (في التحرر) مضمونا من السلوك الفعلي للناس، ولذلك فإنه في المرحلة الثالثة قدم ضمن مسرحيات أخرى «البطة البرية» (١٨٨٤) و«بيت

روزميرز» (١٨٨٦) و«جون جابريل بوركمان» (١٨٩٦) وهي مسرحيات قد يجدها كثيرون محيرة أو ربما غير مفهومة في ذلك الوقت ولكنها أصبحت أكثر أعماله تقديرا : مسرحيات تستشكف النفس الإنسانية في بحثها عن الحرية، العقل الباطن، وذلك الموضوع المرعب وهو سيطرة إنسان ما على آخر. وكان من مميزات «إبسن» أنه لا يقدم فقط شيئا جديدا وأصيلا في فنه باستمرار، ولكنه كان أيضا شديد الحساسية بالنسبة لمفاهيم غير مكتملة في عقول الآخرين، أو لم تكتشف بعد.

وكما يقول الناقد الدانمركي «جورج براندز» الذي كان صديقا له في وقت ما : «.. وفي حالة توافق غريب مع الأفكار التي كانت تتخمر وفي طور التكوين في تلك الأيام، كانت لديه أذن تصغي لتلك الدمدمة الخفيضة التي تنبىء بأفكار تتفاعل تحت الأرض»(٧). بالإضافة إلى ذلك فإن تلك الأفكار كان لها رواج عالمي. كان رواد المسرح في جميع أنحاء العالم يرون أنفسهم أو جيرانهم في شخصيات الضحايا والمستغلين المعذبين في مسرحياته، هجومه على القيم القديمة، برنامجه للتحرر الشخصي، دعوته لأن يكون لكل البشر فرصة لتحقيق الذات ... كل ذلك كان يلقي ترحيبا في كل مكان، ومنذ أوائل تسعينيات القرن (التاسع عشر) وعندما عاد من «كريستيانيا» منتصرا، كانت مسرحياته تقدم ويتزايد الإقبال عليها في العالم كله.

وعلى مدي العقد الأخير من حياته (مات سنة ١٩٠٦) كان مساعد الصيدلي السابق قد أصبح أشهر رجل في اسكندناڤيا، وفي الحقيقة فإنه إلى جانب «تولستوي» في روسيا، كان يعتبر أعظم كاتب و رائي حي في العالم، وقد ذاعت شهرته على أيدي كتاب مثل «وليم آرشر» و«جورج برنارد شو»، وكان الصحفيون يقطعون آلاف الأميال لإجراء حوارات معه في شقته الكئيبة في «ڤيكتوريا تراس»، كما كان ظهوره اليومي في مقهى «جراند أوتيل» فرجة لسكان العاصمة. كان يجلس وحيدا يقرأ الجريدة أو يشرب البيرة والكونياك. وعندما كان يدخل المقهى في نفس التوقيت المعتاد يوميا كان جميع الجالسين في القاعة يقفون ويرفعون قبعاتهم ....، ولم يكن أحدهم ليجرؤ على الجلوس قبل ذلك الرجل العظيم، الكاتب الإنجليزي «ريتشارد لي جالين»، الذي كان يذهب إلى النرويج ـ مثل آخرين ـ لكي يشاهد ذلك المنظر، وكما كان يفعل آخرون يذهبون إلى «ياسنايا بوليانا» لمشاهدة «تولستوي»، يصف دخول «إبسن» بقوله : «حضور بغيض ساخط مزموم الشفتين، مبجل بأسلوب رسمي، منتصب مثل مدك البندقية، لا توجد لمحة تعاطف إنسانية واحدة في بشرته الورقية أو عينيه القاسيتين مثل عينا حيوان الغرير. كان يبدو مثل اسكتلندي عجوز يدخل إلى الكنيسة»(٨).

وكما ألمح «لي جالين» فإن ذلك الرجل المحنط في الاحترام الشعبي والتبجيل العالم في حياته كان في شخصيته شيء ما خطأ. المحرر العظيم، الرجل الذي درس الجنس البشري وغاص إلى أغواره وبكى من أجله، وعلّمه بأعماله كيف يحرر نفسه من قيود الماضي والتحامل والإجحاف .... لمذا يبدو هكذا وكأنه ينفر من الأفراد ؟

لماذا كان يرفض اقترابهم وودهم مفضلا أن يقرأ عنهم فقط في أعمدة جريدته ؟ ولماذا كان وحيدا دائما ؟ ومن أين كل تلك العزلة المفروضة ؟

كلما نظرنا إلى ذلك الرجل العظيم عن كثب بدا لنا أكثر غرابة. فالرجل الذي داس على التقاليد وكان يستحث حريات الحياة البوهيمية أصبح الآن شخصية تقليدية وأحيانا إلى درجة كاريكاتورية. الأميرة «ماري لويز» حفيدة الملكة «ڤيكتوريا» لاحظت أنه كان يحمل مرآة صغيرة مثبتة داخل قبعته ويستخدمها وهو يمشط شعره. كان أول شيء يلاحظه الناس عنه غروره الشديد والذي عبر عنه جيدا «ماكس بيربوم» في رسومه الكاريكاتورية. ولكنه لم يكن هكذا دائما. «ماجدالين ثورسون» زوجة أب زوجته كتبت تقول أنها عندما رأت «إبسن» الصغير لأول مرة في «بيرچن» «كان يبدو مثل حيوان المرموط الصغير الخجول .. لم يكن قد تعلم بعد كيف يحتقر البشر ولذلك كان يفتقر إلى الثقة بالنفس»٠ أبصح «إبسن» شديد العناية بملبسه لدرجة المبالغة والتنميق لأول مرة في سنة ١٨٥٦ بعد نجاح «سولهاج»، وضع أهداب الشعر الطويلة على أكمام سترته مثل الشعراء، وأصبح يرتدي قفازا أصفر ويمسك عصا. وفي منتصف السبعينيات (القرن التاسع عشر) زاد اهتمامه بالملبس ولكن بأسلوب أكثر كآبة يتناسب مع الواجهة المغلقة التي كان يقدمها للعالم.

يصفه الكاتب الشاب «چون پولسن» في جبال الألب النمسوية في عام ١٨٧٦ على هذا النحو :

«فراك أسود وأشرطة الأوسمة. قميص أبيض لامع من الكتان، ربطة عنق أنيقة، قبعة سوداء من الحرير اللامع، نظارة ذهبية .. فم صغير مزموم دقيق مثل نصل سكين .. كنت أقف أمام حائط جبلي مصمت .. لغز عصي على الفهم»(١٠). كان يحمل عصا من خشب الجوز لها قبضة من الذهب. في العام التالي حصل على أول دكتوراه فخرية من جامعة «أوپسالا»، ولم يحرص على أن ينادي بلقب «دكتور» فقط، ولكنه أيضا كان يرتدي سترة فراك طويلة سوداء ورسمية جدا لدرجة أن بنات الريف في الألپ كن يعتقدن أنه قسيس وينحنين لتقبيل يده أثناء تجواله(١١).

كان اهتمامه بالملبس تفصيليا وبدرجة غير عادية، في خطاباته تعليمات حرفية عن كيفية تعليق ملابسه في الخزائن ووضع جواربه وملابسه الداخلية في الأدراج، كان يلمع أحذيته بنفسه ويخيط أزرار قمصانه بنفسه ولكنه كان يسمح لخادمته أن تلضم الإبرة !

عندما زاره كاتب سيرته الشخصية «هنريك چيكر» سنة ١٨٨٧ كان يقضي ساعة كاملة كل صباح في ارتداء ملابسه، ولكن جميع محاولاته للتأنق فشلت. كان يبدو لمعظم الناس مثل العاملين على السفن وكان له وجه أسلافه الأحمر الغريب خاصة بعد أن يشرب.

كان الصحفي «جوتفريد ويستن» يعتقد أن أسلوب «إبسن» في الكلام عن الأشياء البدهية والعادية بتأكيد شديد يجعله يبدو مثل «بروفيسور ألماني صغير»، يريد أن ينقش على ذاكرتنا معلومات من قبيل :

«غدا سوف استقل القطار إلى ميونخ»(١٣).

جانب واحد من غرور «إبسن» كان يقترب من السخف لغرابته، حتى المعجبون به فشلوا في الدفاع عنه، وهو أنه كان مولعا بالميداليات والأوسمة والأنواط، وكان يتمادي في استجدائها ويفعل أي شيء في سبيلها.

«إبسن» كان ماهرا في الرسم، وأول ما رسم وسام نجمة الشرف. كان يرسم مثلا وسام بيت «إبسن» ويقدمه لزوجته(١٤). ولكن الذي كان يريده هو أن يحصل على الأوسمة لنفسه. حصل على أول وسام سنة ١٨٦٩ عندما عقد في «ستوكهولم» مؤتمر لمناقشة اللغة، وكانت تلك أول مرة يحتفي به فيها: قضي مساء كاملا يشرب الشمبانيا في القصر الملكي مع الملك كارل الخامس عشر الذي أنعم عليه بوسام «ڤازا»، بعد ذلك فوجيء «چورچ براندز» به عند أول لقاء لهما (وكانا قد تراسلا طويلا) يلبسه في المنزل، وربما كان قد بقي على دهشته عندما وجده في العام التالي يطلب المزيد. كتب إلى أحد المحامين الهولنديين من الذين يتناولون تلك الأمور يطلب منه أن يساعده في الحصول على وسام «دانبورج»: «لا يمكن أن تتصور أثر شيء كهذا في النرويج، وسام هولندي لاشك سوف يدعم موقفي هنا، والأمر مهم جدا بالنسبة لي». بعد شهرين من ذلك كتب إلى سمسار أرمني يعمل في ستوكهولم وله علاقة بالبلاط الملكي المصري ليساعده في الحصول على ميدالية مصرية ستكون «ذات قيمة كبيرة في تقوية وضعي في النرويج»(١٥)، وفي النهاية حصل على تكريم من تركيا بـ «الوسام المجيدي»، الذي كان يصفه بأنه «شيء أنيق». أما حصيلته من التكريم في سنة ١٨٧٣ فكانت جيدة: حصل على وسام «جونج» النمسوي، ووسام «سان أولاف» النرويجي، ومع ذلك لم يتوقف سعيه من أجل المزيد. صرح لأحد أصدقائه أنه ليس «لديه أي ميل شخصي لتلك الأشياء. ولكن عندما تأتي تلك الأوسمة إليّ لا يمكن أن أرفضها» وتشهد خطاباته أنه كان يكذب، إذ يروي عنه أيضا أنه في السبعينيات (من القرن التاسع عشر) وفي حمي سعيه من أجل الميداليات والأوسمة كان يخلع قبعته كلما مرت مركبة تحمل علامة أو شعارا ملكيا، حتى وإن لم يكن بداخلها أحد(١٦). وقد تكون تلك القصة اختراعا شريرا ولكن هناك أدلة كثيرة عن حبه لذلك، حيث كان يصر على عرض مجموعة نجومه اللامعة في كل مناسبة ممكنة. ويقال أنه كان يلبسها كلها منذ سنة ١٨٧٨ بما فيها وسام مثل طوق الكلب كان يضعه حول رقبته أثناء حفل عشاء في أحد الأندية. وقد التقاه الرسام السويدي «چورچ بولي» وهو يسير في أحد شوارع روما بكل ميدالياته ونياشينه وأوسمته، وأحيانا كان يرتديها كلها في المساء ويبرر ذلك بقوله: في وجود «الأصدقاء الصغار» فإن ذلك «ينبهني لأن أبقى دائما داخل حدود معينة»(١٧)، ولكن كل من كانوا يدعونه للعشاء كان يسعدهم ويريحهم أن يأتي دونها لأنها لا شك كانت تبعث على الضحك وأحيانا بصوت عال أثناء توزيع النبيذ. وأحيانا كان يضعها على صدره وحول رقبته نهارا ... فعندما كان عائدا إلى النرويج بالباخرة ارتدي ملابس رسمية ورصعها بكل نياشينه قبل أن يصعد إلى سطح السفينة قبل رسوها في «بيرچن»، وأصابه الرعب عندما وجد أربعة من أصدقاء الشراب السابقين (نجاران وموظف في كنيسة وسمسار) في استقباله

يحيونه صائحين : «مرحبا هنريك العجوز»، فما كان منه إلا أن عاد إلى قمرته حتي انصرفوا»(١٨). وفي أواخر سنوات العمر كان يطلب النياشين، في سنة ١٨٩٨ كان شغوفا للحصول على «صليب دانبورج العظيم» ومن فرط توقه لذلك اشترى واحدا من أحد الجواهرجية قبل أن يتسلمه رسميا، وأرسل إليه ملك الدانمراك واحدا آخر غير ذلك الذي قدم إليه .. في النهاية كان لديه ثلاثة وكان عليه أن يعيد اثنين منها إلى جواهرجي البلاط(١٩).

ومع ذلك كله كانت الشهرة العالمية ولمعان الأوسمة والنياشين تعطي انطباعا، لا عن غروره أو غبائه وإنما عن قوة الضغينة والسخط المكبوت، ورغم ضآلة جسمه كان يبدو كأنه يشع بالقوة بسبب رأسه الضخم ورقبته الغليظة.

كان «براندز» يقول : «كأنك في حاجة إلى عكاز لكي تتغلب عليه»، ثم كانت هناك عيناه المرعبتان، ويبدو أن الفترة المتأخرة من العصر الفيكتوري كانت فترة العيون المتوحشة. كانت عينا «جلادستون» تجعلان عضو البرلمان ينسى ما يريد أن يقوله عندما ينظر إليه. «تولستوي» كان يستخدم نظراته المهلكة لكي يخرس نقاده. نظرة «إبسن» المحدقة كانت تذكر الناس بقاضي الإعدام، كان يزرع الرعب. يقول «براندز» : «أربعة وعشرون عاما من المرارة والكراهية كانت مختزنة عميقا بداخله»، وأي شخص يعرفه جيدا كان على علم ــ وبدون ارتياح ــ ببركان الغضب الهادر تحت السطح.

كان من الممكن أن يبطل الشراب مفعول الانفجار، ولكن «إبسن» لم يكن مدمنا ولا حتى سكيرا باستثناء فترات قليلة. كان لا يشرب أبدا عندما يكتب. يجلس إلى مكتبه صباحا وهو صاح تماما، مرتديا الفراك النظيف المكوي. ولكنه كان يشرب كنوع من المشاركة الاجتماعية ولكي يتغلب على صمته وخجله الشديد، وبينما كانت المشروبات تفك عقدة لسانه كانت تشعل غضبه. ثورات غضبه في النادي الأسكندنافي فى روما كانت مشهورة وتخيف الناس منه، وكانت متوقعة دائما في الاحتفالات واللقاءات التي كانت من تقاليد القرن التاسع عشر في أوروبا وأمريكا الشمالية، ومحبوبة في اسكندنافيا على نحو خاص. ويبدو أن «إبسن» حضر المئات منها، وأغلبها انتهى نهايات فاجعة. يحكي «فردريك كنودزون» الذي تعرف عليه في إيطاليا عن حفل عشاء هاجم فيه «إبسن» الرسام الشاب «أوجست لورانج» الذي كان يعاني من مرض السل (أحد أسباب وجود كثير من الاسكندنافيين في الجنوب)، قال له «إبسن» إنه كان رساما رديئا : «إنك لا تستحق أن تسير على قدمين، أنت جدير بأن تزحف على أربع»، ويضيف «كنودزون» : «خيم الصمت علينا جميعا لذلك الهجوم على إنسان لا حول له ولا قوة، لديه ما يكفيه من الآلام ولم يكن في حاجة لأن يلطمه «إبسن» بتلك الإهانة».

وعندما نهض الجميع بعد العشاء لم يكن «إبسن» يستطيع الوقوف واضطروا إلى حمله للمنزل(٢٠).

ولسوء الحظ فإن الشراب الذي كان يزلزل رجليه من تحته لم يستطع أن يوقف لسانه السليط، وبينما كان «چورچ بولي» والرسام النرويجي «كريستيان روس» يحملانه مرة أخرى إلى منزله مرتديا كل أوسمته

بعد عشاء آخر في روما، كان «يعبر عن امتنانه بالتعبير عن رأيه صراحة في تفاهتنا»، قال عني إنني «مجرد جرو صغير مزعج»، وروس «شخصية قبيحة جدا»(٢١)، وعندما أقام «براندز» حفل عشاء على شرفه في فندق «جراند أوتيل» في كريستيانيا سنة ١٨٩١ تسبب «إبسن» في خلق جو من التوتر والغضب»، وكان يهز رأسه بعنف أثناء إلقاء «براندز» لكلمته مع أنه كان يمدحه، ورفض أن يرد عليها. كل ما قاله هو أن : «المرء يستطيع أن يقول الكثير عن تلك الكلمة»، وفي النهاية أهان مضيفه بقوله أنه «لا يعرف شيئا عن الأدب النرويجي». وفي حفلات استقبال أخرى كان يدير ظهره للجميع رغم كونه الضيف الرئيسي. وأحيانا كان يبلغ به السكر مداه فيظل يردد : ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ والحقيقة أن «إبسن» بدوره كان أحيانا ضحية سكر القراصنة الاسكندنافيين حيث يستطيع المرء أن يكتب كتابا كاملا في وصف الحفلات الاسكندنافية الفاشلة أو المؤسفة أثناء تلك الفترة. في حفل أقيم على شرفه في «كوبنهاجن» سنة ١٨٩٨ كان المتحدث الرئيسي هو البروفيسور «سوفوس سكاندروف» وكان في حالة من السكر لدرجة أن الشخصين اللذين كان يجلسان بجواره وهما قسيس وكونت كانا يسندانه، وعندما ضحك أحد الضيوف صرخ فيه : «إقفل فمك الـ ... وأنا أتكلم»، وفي نفس المناسبة عانق رسام سكران «إبسن» وكان من المعجبين به فصاح غاضبا : «احملوا هذا الرجل بعيدا عني»، وعندما أفاق لم يعتذر عن سلوكه. كان عيابا مغرما بالنقد القاسي. عندما دخلت فتاة النادي الاسكندنافي في روما متنكرة في زي رجل، أصر على فصل المسئول عن ذلك. كان غضبه ينفجر إزاء أي سلوك من الآخرين. كان متخصصا في الغضب وكان الغضب فنا بالنسبة له ويحب أن يراه حتى في الطبيعة. قال إنه عندما كان يكتب مسرحيته القوية «بران» : «كنت أضع أمامي على الطاولة عقربا في كوب البيرة الفارغة، من وقت لآخر كانت العقرب تتوعك، حنيذاك كنت ألقي إليها بقطعة من الفاكهة الطازجة فتتمدد نحوها في غضب ثم تحقن فيها سمها ...ثم يعود الأمر عاديا مرة أخرى»(٢٢).

هل كان يرى في العقرب صدي لرغبته الشخصية في التخلص من الغضب؟ وهل كانت مسرحياته التي كان يفور فيها الغضب أحيانا ويغلي أحيانا أخرى تدريبا أو ممارسة للعلاج الطبيعي؟

إن أحدا لم يعرف «إبسن» جيدا ولا عن قرب، ولكن عددا كبيرا من معارفه يدركون أن حياته الباكرة وكفاحه الأول قد أثرا عليه وتركا على كاهله حملا ثقيلا من الغيظ الذي لايهدأ. وفي ذلك كان مثل «روسو» : حملت ذاته الكدمات طوال حياته، وبالتالي كان وحشا في تمركزه حولها. كان يعتبر أباه وأمه مسؤولين عن شبابه التعس وأقاربه كلهم مذنبين في حقه بالتبعية. ولكنه ليس على حق في هذا الاتهام. بمجرد أن غادر «سكين» لم يحاول أن يتصل بأسرته، بل على العكس، ففي آخر زيارة لها في ١٨٥٨ لكي يقترض نقودا من عمه الغني «كريستيان باوس» تعمد ألا يزور والديه. كانت له صلات محدودة بشقيقته «هيدفج» ربما بسبب دين لها عليه لم يسدده. في خطاب مرعب كتبه إلى كاتب صديق اسمه «بجورنسون» في سنة ١٨٦٧ يقول «إبسن» : «الغضب يزيدني قوة، وإن كان لابد أن تقوم حرب فلتقم، لن أبقي على الطفل حيا في رحم أمه ولا على أي شعور أو إحساس يجعل أي إنسان

يتصرف فيستحق شرف أن يكون فريسه لي .. هل تعلم أنني قد أدرت ظهري لوالدي .. ولأسرتي طوال حياتي، لأنني لم أتحمل أن أستمر في علاقة قائمة على فهم قاصر ؟»(٢٣).

وعندما مات والده في سنة ١٨٧٧ كان «إبسن» قد قطع علاقته به منذ أربعين سنة. وكتب إلى عمه يدافع عن نفسه بأن السبب «ظروف مستحيلة منذ مرحلة باكرة جدا»، وكان يقصد بذلك أن والديه كانا يهبطان بينما نجمه في صعود، وكان لا يريدهما أن يتعلقا برقبته ليرفعهما معه. كان يخجل منهما ويخشى مطالبهما المالية، وكلما كان وضعه المالي يتحسن يتزايد ميله نحو قطع الصلة بهما.

لم يبذل أية محاولة لمساعدة شقيقه الأصغر منه «نيكولاي الكساندر» وكان مصابا بالشلل، وذهب في النهاية إلى الولايات المتحدة ليموت هناك في سنة ١٨٨٨ وعمره ٥٣ عاما، ونقشوا على قبره : «كرمه الغرباء، وحزن عليه الغرباء»، كما تجاهل أصغر أشقائه «أولي باوس» الذي عمل بحارا وبائعا في محل وعامل فنارة. كان «أولي» يعاني من الفقر بشكل دائم ولكنه كان الوحيد الذي يساعد والدهم المسكين. أرسل إليه «إبسن» ذات مرة شهادة تزكية تساعده في الحصول على وظيفة ولكنه لم يعطه بنسا واحدا في حياته ولا ترك له شيئا في وصيته ، إلى أن مات في أحد بيوت المسنين بائسا في سنة ١٩١٧(٢٤).

وبعيدا عن الأسرة الرسمية كانت هناك حكاية مؤلمة تم إخفاؤها بعناية وربما تكون قد جاءت من إحدي مسرحيات «إبسن» ـ كل حياة «إبسن» في الحقيقة عبارة عن دراما إبسنية ماكرة ـ في سنة ١٨٤٦ وعندما كان في الثامنة عشرة ويعيش فوق محل الصيدلي ، كان على علاقة بالخادمة التي كانت تعمل هناك واسمها «إلسي صوفي جنسداتر» وكانت تكبره بعشر سنوات. حملت منه وولدت له ابنا في ٩ اكتوبر سنة ١٨٤٦ وأسمته «هانز چاكوب هنريكسن»، كانت الفتاة من أسرة فلاحية محترمة تملك أرضا. وكان جدها «كريستيان لوفتسي» الذي قاد تمردا فلاحيا ضد الحكم الدانمركي ومات مسلسلا في صخرة في قلعة «أكيرشس»، أي أنها لم تكن فلاحة أمية مثل «لينشن» عند «ماركس»، ولكنها تصرفت مثلها بتعقل شديد وذهبت إلى والديها لتضع طفلها عندهما ولم تحاول أن تطلب شيئا من والده، ولكن بموجب القانون النرويجي وبحكم من المجلس المحلي كان على «إبسن» أن يدفع لها نفقة حتى يبلغ «چاكوب» الرابعة عشرة.

ولأن «إبسن» كان فقيرا بالفعل في ذلك الوقت فإنه كان يرفض بشدة ذلك النزف من راتبه الهزيل، ولم يغفر ذلك أبدا للطفل ولا لأمه. وكما فعل «روسو» و«ماركس» من قبل، لم يعترف «إبسن» بالطفل «هانز چاكوب» ولم يهتم به أو يقدم له أي مساعدة بسيطة سواء مادية أو غيرها. عمل الولد حدادا فيما بعد وعاش مع أمه حتى سن التاسعة والعشرين وأصيب بالعمي. وعندما أُخذ منهما منزل والديها ذهبت لتعيش في كوخ حيث كتب الإبن على الحجر ما معناه : «تل الجوع»، ثم ماتت هي الأخرى في فقر مدقع في ٥ يونيو ١٨٩٢ وكانت في الرابعة والسبعين، ويحتمل ألا يكون «إبسن» قد سمع بموتها.

كان «هانز چاكوب» إنسانا فظا وقارئا جيدا لكتب التاريخ والرحلات وصانعا ماهرا للكمنجات ولكنه

كان سكيرا وكسولا. وكان يأتي أحيانا إلى «كريستيانيا» حيث كان من يعرفون سره يدهشهم الشبه الواضح بينه وبين أبيه المشهور. حاول بعضهم أن يجعله يرتدي ملابس مماثلة لما كان يرتديه أبوه ويجلس مبكرا على نفس الطاولة في «جراند أوتيل»، حتى إذا جاء «إبسن» لتناول البيرة في الصباح رأى أمامه الدليل الحي على خطيئته، ولكن الشجاعة خذلت أصحاب الفكرة. ويقول «فرانسيس بول»، وهو أحد المراجع المهمة عن «إبسن» إن «هانز چاكوب» التقى بوالده مرة واحدة وكان ذلك في عام ١٨٩٢ عندما أفلس وذهب إليه يطلب نقودا، فتح «إبسن» الباب وعندما رآه أمامه ـ لأول مرة ـ وكان في السادسة والأربعين، لم ينكر علاقتهما ولكنه أعطاه خمس كورونات وهو يقول : «هذا ما كنت أعطيه لأمك ولابد أنه يكفيك»، ثم أغلق الباب في وجهه(٢٧). ولم يلتق الأب والابن بعد ذلك، ولم يحصل «چاكوب» على أي نصيب في وصية والده ومات معدما في ٢٠ اكتوبر ١٩١٦، كان أحد أسباب رفضه لأسرته الشرعية أو غير الشرعية خوفه من مطالبهم المادية، فقد جعله فقر حياته الباكرة يبحث دائما عن الأمان الذي لا يتحقق إلا باستمرار الكسب وتكديس الأموال وكان ذلك أحد القوى الدافعة لوجوده.

كان بخيلا وكان كل شيء آخر وعلى نطاق واسع. كان على استعداد أن يكذب من أجل المال : ومع الوضع في الاعتبار أنه كان ملحدا ويكره العرش في السر، فإن الطلب الذي قدمه إلى «كارل الخامس عشر» يستجدي فيه معاشا قدره مائة جنيه في الشهر يعتبر ذا دلالة : «أنا لا أصارع من أجل وظيفة أو منصب وإنما من أجل الدعوة التي أؤمن بها وأعرف أن الله قد اختصني بها .. ويبقى الأمر بيد سموك أن أظل صامتا وأنحنى أمام الحرمان القاسي الذي يجرح روح الإنسان، ذلك الحرمان الذي يجعل المرء يتخلى عن دعوته في الحياة، وأن أستسلم بينما أعرف أنني قد أعطيت الدرع الروحاني لكي أقاتل». في ذلك الوقت من سنة ١٨٦٦ كان قد حصل على بعض المال من مسرحية «براند» وبدأ الادخار. كانت البداية ببعض العملات الفضية في فردة جورب ثم تطور الأمر إلى شراء سندات حكومية. في إيطاليا كان زملاؤه من المنفيين يلاحظون أنه يسجل أدق تفاصيل مصروفاته ومشترواته في نوتة صغيرة. ومن سنة ١٨٧٠ وحتي أول خبطة له في سنة ١٩٠٠ كان يحتفظ بدفترين صغيرين يسجل في أحدهما دخله وفي الثاني استثماراته، وكانت كلها في أوراق حكومية. حتى آخر عشرين سنة في حياته لم تكن مدخراته كبيرة بالمقاييس الأنجلوساكسونية، حيث كانت مسرحياته بطيئة في تقديمها في عروض عالمية ولم تكن تتمتع بحقوق الملكية والنشر. ولكن في سنة ١٨٨٠ بدأ يكسب ـ لأول مرة ـ أكثر من ألف جنيه وهو دخل كبير بالنسبة للمستويات الدانمركية التي كانت سائدة آنذاك. وبدأ إجمالي دخله يتزايد باضطراد وكذلك استثماراته. ومن المحتمل ألا يكون مؤلف آخر قد استثمر نسبة كبيرة من دخله مثله ـ بين النصف والثلثين ـ خلال ربع القرن الأخير من حياته. ولكن من أجل ماذا كان ذلك كله ؟

عندماسأله ابنه ـ الشرعي ـ «سيجورد» عن سبب عيشهم في تقتير على ذلك النحو أجابه قائلا : «من الأفضل أن تنام جيدا وألا تأكل جيدا، بدل أن تأكل جيدا ولا تنام جيدا»، ورغم ثروته المتنامية واصل الحياة مع أسرته في منازل رثة الأثاث. كان يقول أنه يحسد «بجورنسون» لأنه كان يملك بيتا وأرضا،

ولكنه لم يحاول أبدا أن يشتري لنفسه ولأسرته أي شيء. الشقق الأخيرة التي عاش فيها في «ڤيكتوريا تراس»و«آربينز ستريت» كانت مثل السابقة : جرداء لا يوجد بها شيء. كل الشقق التي عاش بها كانت تتميز بصفة غير عادية : مقسومة إلى النصفين، كل من الزوج والزوجة يجهز لنفسه قلعة للعمليات الدفاعية والهجومية ضد الآخر. وعلى نحو ما، يمكن أن يكون ذلك وفاء بعهد كان قد قطعه على نفسه منذ أيام الشباب عندما قال لأحدِ أصدقائه «كريستوفر ديو» : «إن «زوجته ـ لو حدث أنه تزوج ـ سوف تقيم في دور منفصل، وأنهما لن يرى أحدهما الآخر إلا عند تناول الطعام»(٢٩).

تزوج «إبسن» من «سوزانا ثورسن» ابنة عمدة «بيرجن» سنة ١٨٥٨ بعد فترة خطوبة باردة استمرت عامين. كانت قارئة نهمة، عنيدة، شقراء، بيضاء الشعر، وكانت زوجة أبيها المثقفة تقول عن «إبسن» باحتقار إنها لم تعرف بعد «سورن كيركجارد» شخصا يضطر للانفراد بنفسه أكثر منه. كان الزواج وظيفيا أكثر منه دافئا. وبمعنى ما كان حاسما بالنسبة لإنجاز «إبسن» ، ففي فترة القنوط في حياته عندما كانت تتعرض مسرحياته للرفض أو الفشل وكان يفكر في تطوير موهبته الأخرى في الرسم، كانت زوجته تمنعه من ذلك وتجبره على الكتابة كل يوم. وكما قال «سيجورد» فيما بعد : «إن العالم يستطيع أن يشكر أمي لأنها احتفظت بالحد الأدنى من الرسام السيء وحصلت على كاتب عظيم بدلا منه»(٣٠)، كان «سيجورد» المولود في سنة ١٨٥٩ يصور أمه على أنها القوة الدافعة وراء أبيه : كان هو العبقرية وهي الشخصية ... شخصيته. وكان يعرف ذلك رغم أنه لم يكن على استعداد لأن يعترف به حتى النهاية» ، ومن الطبيعي أن «سيجورد» كان يصور الزواج كشراكة عمل بينما كان آخرون في نفس الوقت يرونه ويرون صاحبه بطريقة مختلفة. هناك صورة مخيفة عن أسرة «إبسن» أثناء السنوات الإيطالية في مذكرات شاب دانمركي اسمه «مارتن سكنيكلوث» ، يقول : «إن «إبسن» كان يرى نفسه «حالة ميئوس منها» بعد أن وجد نفسه متزوجا من امرأة لم يكن يحبها، مع عدم وجود إمكانية «لأي توافق» معها. كانت تعتبره «شخصية مسيطرة» ، أنانية، عنيدة، مع ذكورية جامحة ومزيج من الجبن الشخصي. كان يدعي المثالية رغم عدم حرصه على التعبير عن تلك المثالية في حياته اليومية.

أما هي فكانت امرأة لا حيلة لها ولكنها شخصية قوية تجمع بين الذكاء والغباء، لديها مشاعر ولكنها تفتقر إلى المودة والحب الأنثوي. كانا يشنان الحرب على بعضهما بضراوة وأحيانا ببرود. ومع ذلك كانت تحبه ولو من خلال ابنهما المسكين صاحب أسوأ مصير يمكن أن يواجه طفلا» ، ويضيف : «إبسن» نفسه كان مهووسا بعمله لدرجة أنه كان يعكس الحكمة التي تقول «الإنسانية أولا والفن ثانيا» .

وأعتقد أن حبه لزوجته كان قد اختفى من زمن بعيد، وأصبحت جريمته هي عدم القدرة على تصحيح الموقف بينهما، ولكنه كان يؤكد باستمرار طبيعته المتقلبة المستبدة، وسوء معاملته لها ولطفلهما المرتعد كسير الروح»(٣١).

«سوزانا» لم يكن لها حول ولا قوة إزاء أنانية «إبسن» الشديدة، وتقول زوجة «بجورنسون» إنها بعد أن

ولدت ابنها «سيجورت» قررت ألا تحمل مرة أخري وهذا يعني أنها قررت ألا تمارس الجنس معه (وإن كانت شهادة زوجة «بجورنسون» مشكوك فيها)، ومن وقت لآخر كانت هناك أقوال عن الانفصال بينهما. كان «إبسن» بالطبع يكره هذا النوع من الزواج، وكتب سنة ١٨٨٣ إن زواجا كهذا «يجعل من كل الناس عبيدا»، ولكن حصافته وحرصه على الأمان جعلاه يبقي عليه. وهناك خطاب منه أرسله إلى زوجته بتاريخ ٧ مايو ١٨٩٥ ينفي لها فيه الشائعات التي كانت تقول بأنه سوف يتركها من أجل «هيلدر آندرسون»، ويقول أن زوجة أبيها «ماجدالين ثورسين» ـ التي كان يكرهها ـ هي التي كانت وراءها(٣٢).

كان «إبسن» دائما فظا غليظ القلب وعنيفا مع زوجته ولكنها كانت تعرف كيف تحمي ظهرها. يثور فتضحك في وجهه ببساطة وهي واثقة من جبنه وخوفه من العنف. كانت في الواقع تلعب على أوتار مخاوفة وتمشط الصحف بحثا عن الأخبار المرعبة والكوارث اليومية التي تنقلها إليه(٣٣)، لم يكونا زوجين يمكن رؤيتهما معا في انسجام.

وبالتوازي مع ذلك كان لـ «إبسن» علاقات باردة وأحيانا عاصفة مع أصدقائه، وقد يكون من الخطأ أن نصفهم بـ «الأصدقاء». مراسلاته مع زميله الكاتب «بجورنسون» الذي كان يعرفه كالآخرين ولمدة أطول، تحتوي على أشياء مؤلمة. كان «إبسن» يعتبره خصما منافسا له وكان يغار من نجاحه الباكر وطبيعته المنبسطة وأسلوبه المرح في التعامل وقدرته الواضحة على الاستمتاع بالحياة. وقد فعل «بجورنسون» كل ما في وسعه ليجعل «إبسن» يقبل على الحياة، ولكن جحوده يدعو للرثاء. كانت العلاقة بينهما تشبه علاقة «روسو» بـ «ديدرو». ومثل «روسو» كان «إبسن» هو الذي يأخذ بينما «بجورنسون» هو الذي يعطي. إلا أنه لم يحدث بينهما شجار أو خلاف كبير. كان تبادل العلاقة على نفس المستوى صعبا بالنسبة لـ «إبسن» رغم كل ما كان يفعله «بجورنسون» من أجله. أرسل «إبسن» إليه برقية تهنئة بمناسبة عيد ميلادة الستين يقول فيها: «هنريك إبسن يرسل بأطيب تمنياته القلبية بمناسبة عيد ميلادك»، ومع ذلك كان ينتظر من «بجورنسون» أكثر من ذلك.

عندما نشر الناقد «كليمنت بيترسن» نقدا معاديا لمسرحية «بيرجنت» كتب «إبسن» خطابا شهيرا إلى «بجورنسون» الذي لم يكن له علاقة بما نشر. لماذا لم يصرع بيترسن»؟ كان يمكن أن أصرعه ليسقط فاقدا للوعي قبل أن أسمح له بارتكاب هذه الحماقة ضد العقل والعدل»، وفي اليوم التالي ذيله بملحوظة تقول:لقد نمت على تلك الكلمات وقرأتها بكل برود....وسوف أرسلها»، ثم أجهد نفسه بعد ذلك ليضيف : أنا ألومك لسلبيتك، ما كان يجب أن تسمح بذلك، لم تفعل شيئا ضد مؤامرة تمت في غيابي لوضع سمعتي تحت مطرقة صاحب المزاد»(٣٤)، وبينما كان «إبسن» ينتظر منه أن يحارب له معاركه، كان يعتبره مادة للسخرية والازدراء، فقد صوره في شخصية «ستنسجارد» الكريهة في مسرحيته «رابطة الشباب» التي تعتبر هجوما عنيفا على الحركة التقدمية. كان ناكرا للجميل مع كل الذين ساعدوه بالمال والذين وقّعوا طلب منحة الدولة له. كان يرى أي واحد من المشاهير هدفا مشروعا لهجومه، وكان يرفض

بشدة أي إشارات نحو عيوبه. عندما نشر «جون بولسن» رواية عن أب مسيطر يهوى جمع الأوسمة والنياشين أمسك «إبسن» ببطاقة زيارة من بطاقاته وكتب على ظهرها كلمة واحدة : «نذل»، وأرسلها مفتوحة إليه. نفس الأسلوب الذي سوف يتبعه «ماركيز كوينزبري» مع «أوسكار وايلد» في العقد التالي. كل علاقات «إبسن» بغيره من الكتاب انتهت بمعارك، وعندما لم يكن هناك عراك كانت العلاقات تموت لأسباب تافهة. لم يستطع أن يتبع نصيحة دكتور «چونسون» : «الصداقة يجب أن تحظى دائما برعاية مستمرة»، كان يغذيها بتوتر مستمر تتخلله فترات صمت، وكان على الطرف الآخر أن يبذل الجهد الأكبر لكي تستمر العلاقة.

لقد اقترب من وضع فلسفة ضد الصداقة. عندما كان «برانديز» يعيش مع زوجة رجل آخر ونبذوه في «كوبنهاجن» كتب إلى «إبسن» يشكو أنه كان بلا أصدقاء، خذله صاحبه قائلا إنه سبق أن مر بظروف صعبة كتلك وكان عليه أن ينتظر سنوات طويلة قبل أن ينجح في أن يكون كما هو الآن(٣٥).

رسالة «إبسن» تلك تكشف ـ وكما هي الحال مع كل المثقفين الذين عرضنا لهم ـ العلاقة بين المبدأ المعلن والضعف الشخصي.

كان «إبسن» يقول للناس : «كونوا أنفسكم»، بينما في خطابه إلى «برانديز» يعترف بأنه لكي تكون نفسك لابد أن تضحي بالآخرين. التحرر الشخصي كان في صميمه متمحورا حول الذات .. وبلا قلب، وفي حالته كان من المستحيل أن يصبح كاتبا مسرحيا مؤثرا دون تجاهل أو إهمال و ـ عند الضرورة ـ سحق الآخرين تحت قدميه. مبادىء الأنانية الخلاقة كانت كامنة في صميم أسلوب تناوله لفنه. كتب إلى «ماجدالين ثورسن» يقول : «معظم النقد يمكن اختصاره في لوم الكاتب لأنه يحاول أن يكون نفسه .... الشيء المهم هو حماية النفس الضرورية، الجوهرية، وأن تحتفظ بها نقية متحررة من كافة العوامل الدخيلة الأخرى».

أنانية «إبسن» الخلاقة كانت محاولة لتحويل ضعفه الشخصي إلى مصدر قوة. وهو صبي كان يحب العزلة لدرجة مخيفة. كان مدرسه يصفه بأنه «وجه رجل عجوز»، «شخص يتجه بصره نحو الداخل»، يدلي أحد الذين اضروه بشهادة يقول فيها : «ونحن صغار كنا لا نحبه لأنه كان دائما نكدا وبغيضا»، مرة واحدة سمعوه يضحك «مثل بقية البشر» وعندما كبر فرض عليه الفقر عزلة أشد قسوة : كان يخرج ليتمشي طويلا بمفرده لكي يظن الآخرون أنه قد خرج لتناول العشاء.

(وللأسف أن بخله جعل ابنه فيما بعد يلجأ إلى حيل مماثلة، كان عندما لا يستطيع أن يدعو أصدقاءه إلى منزلهم الكئيب يقول لهم أن أمه امرأة زنجية وطويلة كالمارد وتضع شقيقه الأصغر في صندوق .. لم يكن له أشقاء) جولات «إبسن» الطويلة منفردا أصبحت عادة. كتب : «تجولت في معظم الولايات البابوية في أوقات مختلفة على قدمي، حاملا على ظهري كيسا من الخيش»، كان «إبسن» منفيا بطبعه، ويرى المجتمع المحيط غريبا في أحسن الأحوال، ولكنه كان عدائيا وبشكل دائم. كتب في شبابه : «اكتشفت

نفسي في حالة حرب مع المجتمع الصغير الذي أنا سجين فيه»(٣٦)، ولذلك ليس من الغريب أن نجده يختار المنفي الفعلي في أطول فترات حياته وأكثرها انتاجا. وكما حدث مع «ماركس» قوى ذلك من إحساس الاغتراب لديه وحبسه في إطار جماعة ضيقة من المغتربين بكل شجاراتهم وعداوتاتهم.

بدأ «إبسن» بالتعرف على عيوب عزلته. في خطاب من عام ١٨٥٨ وصف نفسه «محاطا بجدران من البرود تجعل اقتراب أي صداقة أمرا صعبا .. صدقني، ليس من دواعي السرور أن ترى كل شيء من وجهة نظر اكتوبرية»، إلا أنه بعد ست سنوات يروض نفسه على العزلة ويقبل بعجزه عن القدرة للوصول إلى الآخرين. في سنة ١٨٦٤ كتب إلى «بجورنسون» : «لا أستطيع أن أعقد صلة وثيقة بأناس يطلبون أن يعطيهم المرء نفسه بحرية ودون تحفظ .. أنا أفضل أن أحبس نفسي (الحقيقية) بداخلي».

أصبحت عزلته عزلة خلاقة، وهذه في حد ذاتها حكاية، وهي الموضوع الرئيسي لشعره منذ قصيدته الباكرة «الاستسلام» التي كتبها سنة ١٨٤٧ إلى أن توقف عن كتابة الشعر في ١٨٧٠ ـ ١٨٧١، وكما قال «برانديز» : «إنه شعر الوحدة الذي يصور احتياج العزلة، كفاح العزلة، احتجاج العزلة»(٣٧). كل كتاباته التي تعبر عن عزلته أصبحت ملجأ ودفاعا وسلاحا في وجه العالم الغريب. وكما قال «سكنيكلوث» عن حياته في إيطاليا بإنه «كرس عقله كله وعاطفته كلها للسعي المحموم من أجل الشهرة الأدبية»، وبالتدريج أصبح يرى عزلته الأنانية وإخفاء نفسه سياسة ضرورية وربما فضيلة. كان يقول لـ«برانديز» : إن الوجود الإنساني كله حطام سفينة، وبالتالي فإن «التوجه العاقل الوحيد هو أن ينقذ المرء نفسه»، وفي سنواته المتقدمة كان ينصح أحد الشبان بقوله : «لا ينبغي أن تقول للناس كل شيء ... وأثمن ما في الحياة هو أن تحتفظ لنفسك بأشياء»(٣٨).

ومن الطبيعي أن نفترض أن تلك السياسة كان من الصعب السيطرة عليها دائما، فقد أصبحت عداء عاما ضد البشرية، وكان «برانديز» مضطرا إلى الوصول إلى نتيجة هي أن «احتقاره للجنس البشري كان بلا حدود». إن الأضواء الكشافة لكراهيته كانت تتحرك بنظام على كل جوانب المجتمعات الإنسانية، وتتوقف من وقت لآخر عند فكرة أو مؤسسة معينة تثير اشمئزازه الخاص. كان يكره المحافظين، وربما كان أول كاتب يقنع دولة محافظة بدعم حياة أدبية مكرسة للهجوم على كل ما هو عزيز لديها. (عندما عاد ليطلب دعما ماليا آخر قال أحد أعضاء لجنة المنح إن إبسن يستحق الجلد وليس منحة أخرى)، كما أصبح يكره الليبراليين وبدرجة أكبر. كانوا «مادة فقيرة من أجل سد الحواجز» ومعظمهم «منافق وكذاب ومخرب ولئيم»، ومثل معاصره «تولستوي» كان يكن كراهية شديدة للنظام البرلماني الذي كان يراه منبعا للفساد والدجل، وأحد أسباب حبه لروسيا أنها لم يكن لديها واحدا، كان يكره الديمقراطية. ملاحظاته العابرة المسجلة في مفكرة «كريستوفر چانسون» تقدم لنا صورة صارمة(٣٩) : «ما الأغلبية ؟ إنها الجماهير الجاهلة. الذكاء دائما من نصيب الأقلية»، كان يقول : «ليس من حق معظم الناس أن يكون لهم أي رأي»، أخبر برانديز : «تحت أي ظرف لن أرتبط بأي حزب يحشد الأغلبية خلفه». كان يرى نفسه

فوضويا، يعتقد عن حمق أن الاشتراكية والشيوعية والفوضوية سواء.

كان يقول لـ «برانديز» الذي كان يحب أن يجمع أقواله أن : «الدولة لابد أن تمحى»، «هناك الآن ثورة سوف أقدم لها كل دعمي وبكل سرور، الغوا مفهوم الدولة وأقيموا مبدأ الإرادة الحرة».

كان «إبسن» دون شك يعتقد أن لديه فلسفة متكاملة للحياة، كان قوله المفضل الذي وضعه على لسان شخصية دكتور «ستوكمان» : «الأقلية دائما على حق»، وكان يشرح ما يقصده بالأقلية لـ«برانديز» «الأقلية التى تتقدم فى أرض لم تطأها الأغلبية بعد»، وإلى حد ما كان مثل «د.ستوكمان» عندما قال لـ «براندیز» : «إن الرائد المثقف لا يمكن أن يجمع أغلبية حوله، ففي مدي عشر سنوات قد تصل الأغلبية إلى النقطة التي وقف عندها «د.ستوكمان» عندما كان الناس يعقدون اجتماعاتهم، ولكن خلال تلك السنوات العشر لم يكن «ستوكمان» قد بقي ثابتا في نفس المكان .. إنه يسبقهم على الأقل بعشر سنوات أخري. الأغلبية، الدهماء، الجماهير لن تلحق به وهو لن يستطيع أن يحثهم على شيء أو يجمع شملهم وهم وراءه، أنا نفسي أشعر باضطرار مماثل لا يهدأ، بأن أظل ماضيا إلى الأمام. هناك جموع تقف الآن حيث كنت أقف عندما كتبت كتبي الأولى، ولكن أنا نفسي لم أعد هناك. أنا في مكان آخر، أمامهم بمسافة طويلة، أو لعل ذلك ما أتمناه(٤٠).

وصعوبة هذه الرؤية التي كانت ڤيكتورية في طبيعتها، هي أنها تفترض أن الإنسانية سوف تتقدم دائما في الاتجاه المرغوب فيه بقيادة الأقلية المستنيرة، ولم يخطر ببال «إبسن» أن تلك الأقلية التي كان «لينين» يسميها فيما بعد بـ «النخبة الطليعية» و«هتلر» بـ «حملة الراية» سوف تقود العالم إلى الهاوية.

ولو أن «إبسن» عاش ليرى القرن العشرين الذي شارك بالكثير في صياغة فكره لأصابته الدهشة والرعب لما فيه من تطرف. وسبب القصور في تصور «إبسن» للمستقبل، ذلك المستقبل الذي كان يزعم أنه يتنبأ به، يرجع إلى الضعف الكامن في شخصيته وعدم قدرته على التعاطف مع الناس بدلا من الأفكار. عندما كانت الأفراد أو المجموعات مجرد أفراد مجسدة كما في مسرحياته، كان يتناولهم بفهم جيد وبتعاطف شديد. ومن لحظة دخولهم حياته كان يهرب أو يتصرف معهم بعداء.

آخر مجموعة من مسرحياته بقبضها القوي على النفس الإنسانية تصادفت مع نوبات الغضب والعراك والثورة في حياته الخاصة والتدهور المستمر في علاقاته الشخصية القليلة. التناقض الواضح بين الفكرة والواقع منعكس في مواقفه العامة. في ٢٠ مارس ١٨٨٨ أرسل برقية إلى اتحاد عمال «كريستيانيا» : «الطبقة العاملة، من بين جميع الطبقات في بلدي هي الأقرب إلى قلبي»(٤١). وكان ذلك محض هراء. لم يكن أقرب إلى قلبه من حافظة نقوده. لم يعر العمال أي اهتمام في حياته ولم يكن يحمل لأفكارهم سوي كل احتقار ولا يوجد أي دليل على أنه فعل شيئا لمساعدة حركة العمال. بعد ذلك أيضا وجد من الحصافة أن يقترب من الطلبة ويفوز برضائهم، وبدورهم أحبوا أن يكرموه بمواكبهم ومسيراتهم. ولكن تعاملهم الفعلى معه انتهي بعراك عنيف يعبر عنه خطاب طفولي طويل أرسله إلى اتحاد طلاب «النرويج»

في ٢٣ اكتوبر ١٨٨٥ يستنكر فيه «كثرة العناصر الرجعية بين صفوفهم»(٤٢).

نفس القصة في علاقته بالمرأة. نظريا كان إلى جانب المرأة، ويمكن القول إنه فعل الكثير على المدى الطويل لتحسين أوضاعها أكثر مما فعل أي مثقف آخر في القرن التاسع عشر. فمسرحيته «بيت الدمية» برسالتها الواضحة ـ الزواج ليس مقدسا، إمكانية تحدي سلطة الزوج، أهمية اكتشاف الذات عن أي شيء آخر ـ هي التي بدأت بالفعل حركة المرأة. لم يتفوق عليه أحد في التعبير عن قضيتها، وكما أظهرت مسرحية «هيدا جابلر» أن قلة من الكتاب هي التي بلغت مستواه في تصوير مشاعرها. ولكي نكون منصفين لابد أن نقول أنه كان يحاول أن يساعد المرأة أحيانا كفكرة مجسدة في الحياة العملية كذلك. أحد أحاديثه وهو سكران ـ في حفل ما ـ كان دفاعا عن حق النساء في دخول النادي الاسكندناڤي في روما : كان حديثا غاضبا، وربما لم يكن في صالح القضية، فقد أغمي على إحدى الكونتيسات من الرعب.

لم يكن له صبر مع النساء المشاركات في تلك القضية خاصة إذا كن كاتبات أيضا. في حفل العشاء المؤسف الذي أقامه له «برانديز» في «جراند أوتيل» في ١٨٩١ ثار «إبسن» عندما وجد أنهم يجلسونه إلى جوار الرسامة والمثقفة «كيتي كيلاند» وكانت في منتصف العمر.

عندما حاولت أن تنتقد شخصية «السيدة ألفستيد» في مسرحيته «هيدا جابلر» كشر عن أنيابه وانفجر : «أكتب لكي أصور الناس ولا يهمني أبدا ماذ يحب أو يكره المثقفون المتعجرفون»(٤٣).

كان الجحيم بالنسبة له هو أن يحضر حفلا ويجلس فيه إلى جوار امرأة عجوز من المناديات بحقوق المرأة، أو كاتبة كبيرة في السن. وكان هناك عدد كبير منهن في العواصم الاسكندناڤية في تسعينيات القرن (التاسع عشر). حاول جهده أن يترك حفل عشاء رسمي أقيم على شرفه في «كريستيانيا» في ٢٦ مايو ١٨٩٨ بتنظيم من الرابطة النرويجية لحقوق المرأة، وعندما لم يتمكن ألقي كلمة غاضبة كالعادة (٤٤). كان عصبي المزاج أيضا أثناء حفل عشاء أقامته له جمعيتان نسائيتان في «ستوكهولم» ولكن أمكن تجنب حدوث كارثة بتقديم بنات يرقصن رقصا شعبيا، وكان «إبسن» كما هو معروف مغرما بالبنات الصغار(٤٥)، إحدى الراقصات كانت «روزا فيتنجوف» ابنة كاتبة قصص للأطفال، وكانت الأخيرة في سلسلة طويلة من البنات اللائي دخل معهن «إبسن» في علاقات معقدة وأحيانا مدوخة. كان يميل إلى الشباب الذي كان يربط بينه وبين ما لا يمكن تحقيقه. عندما وقع في حب عنيف لأول مرة وهو يعمل في مسرح «بيرجن» كان ذلك مع فتاة في الخامسة عشرة من عمرها اسمها «هنريك هولست». كان مفلسا واعترض أبوها وانتهي الأمر. وعندما حقق نجاحه الأول كان يشعر بأنه عجوز وقبيح وأنه سوف يغامر ويواجه بالصد لو أنه تقدم لفتاة تصغره بكثير. ولكنه استمر في علاقات غرامية خطرة. في ١٨٧٠ كانت «لورا بيترسن» داعية تحرر المرأة، بعد أربع سنوات كانت «هيلدر سونتم» ذات العشر سنوات، حفيدة صاحبة البيت الذي يسكنه. ومع تقدم العمر لم يتغير ذوقه، بالعكس، كانت تخلبه قصة حب «جوته» لـ «ماريان

ڤون ويلمر» الشهية التي جددت شباب فنه.

وأصبح معروفا ومقبولا أن أي ممثلة إذا كانت صغيرة السن وجميلة يمكن أن تجعل «إبسن» يفعل أي شيء تريده، خاصة إذا جلبت له أخريات صغيرات.

عندما كان يزور العواصم الإسكندنافية كانت البنات تتزاحمن حول الفندق، وأحيانا كان يوافق أن يتحدث معهن، وأن يقبلهن ويعطيهن صوره. كان يهوى البنات الصغيرات بشكل عام ولكن اهتمامه يتركز على واحدة بعينها. في سنة ١٨٩١ كانت «هيلدر أندرسن»، وكانت «روزا فيتنجوف» الأخيرة.

أميز سلسلة البنات كانتا «إميلي بارداخ» و«هيلين راف» وكان قد التقى بهما في «الألب» سنة ١٨٨٩، كلتاهما كانت تحتفظ بمذكرات وببعض الرسائل. كانت «إميلي» فتاة نمسوية في الثامنة عشرة (وكان إبسن أكبر منها بثلاث وأربعين سنة) سجلت في مفكرتها : «غيرته تجعلني أشعر بالفخر، كل كلامه معي مليء بالإحساس والمشاعر القوية، يقول إنه لم يشعر في حياته أبدا بمتعة كتلك التي يشعر بها لمعرفته بي. لم يعجب بأحد قدر إعجابه بي». طلب منها «أن تكون صريحة معه لكي يعملا معا»، كانت تعتقد أنها تحبه «ولكن كلانا كان يشعر أن من الأفضل أن نبدو وكأننا غرباء»(٤٦).

الخطابات التي كتبها إليها بعد أن افترقا كانت عادية، وبعد ذلك بأربعين عاما صرحت للكاتب «إي. إيه، زاكر» أنهما حتي لم يتبادلا القبلات، ولكنها قالت أيضا أن «إبسن» تحدث عن إمكانية طلاقه، وحينئذ يمكن أن يتزوجها ويشاهدا العالم معا»(٤٧).

أما «هيلين» فكانت فتاة مدنية من «ميونخ»، أكثر ثقافة وتجربة، سمحت له أن يقبلها، وواضح أن العلاقة بينهما كانت رومانسية أكثر منها جنسية، ناهيك عن أنها كانت فتاة جادة. عندما سألته ماذا يرى فيها أجاب : «الطفولة، الشباب مجسدا، وأنا أحتاج لذلك في كتابتي»، وهذا يوضح ما كان يقصده بقوله «لكي نعمل معا»، وبعد أربعين عاما كتبت «هيلين» : لم تكن علاقته بالبنات الصغار تنطوي على أي خداع أو غش بمعنى الكلمة، كانت كلها نابعة من احتياجات خياله(٤٨).

كانت البنات «نماذج»، أفكارا من لحم ودم يستخدمهن في مسرحياته، ولسن «نساء» حقيقيات بمشاعر يتمني أن يحبها. وعليه فليس من المحتمل أن يكون «إبسن» قد فكر بجدية في أن يقيم علاقة حب بإحداهن، ناهيك عن الزواج. كانت لديه مكبوتاته عن الجنس.

يقول طبيبه الدكتور «ادڤارد بول» إنه كان لا يمكن أن يكشف عن ذَكَره حتى بغرض الفحص الطبي. هل كانت هناك مشكلة ما ؟ أو هل كان يظن ذلك ؟ يمكن أن نعتبر «إبسن» الذي كان لديه من الناحية النظرية على الأقل فهم عميق لسيكلوجية المرأة ـ معادلا للشخص العابث. من المؤكد أنه هو الذي كان يوجه «إميلي». كانت واسعة الخيال وساذجة بلا شك، ولم يكن لديها فكرة عن أن «إبسن» يستخدمها. في فبراير ١٨٩١ توقف عن مراسلتها بعد أن كان قد حصل على ما يريد. في نفس الشهر

روي الناقد «جوليوس الياس» ما كان «إبسن» قد قاله له أثناء غذاء في «برلين» : أنه قابل في «تايرول» فتاة من «ڤيينا» ذات شخصية متميزة، ائتمنته فورا على أسرارها، لم تكن مهتمة بفكرة الزواج من شاب حسن التربية .. كان شاغلها وما يروق لها هو خطف أزواج الأخريات. كانت بارعة في هدم البيوت. طائر فريسة، وكان من الممكن أن تضمه إلى قائمة ضحاياها.

درس شخصيتها عن كثب ولكنها لم تنجح معه. «لم تستحوذ عليّ ولكني استحوذت عليها ـ لمسرحيتي»(٤٩).

وباختصار فإن «إبسن» استغل «إميلي» كفكرة لواحدة من شخصياته وهي «هيلدا وانجل» في مسرحية «البنّاء العظيم» وأعاد تشكيلها وتحويلها الي شخصية كريهة. ولم يعرف الناس أنها كانت المقصودة بشخصية «هيلدا» من كلام الناقد «إلياس» فقط، وإنما كذلك من خطابات «إبسن» التي نشرت فيما بعد(٥٠) ولأكثر من نصف حياتها الطويلة (ظلت بلا زواج وعمرت حتي الثانية والتسعين) كانت موصومة كامرأة شريرة. وكان ذلك واضحا، ليس فقط في الطريقة التي يقدم بها «إبسن» شخصيات حقيقة في مسرحياته، وإنما أيضا في لا مبالاته بمشاعرهم وفضحهم أمام الناس. وكانت أسوأ حالة هي حالة «لورا كيلر» الشابة النرويجية البائسة التي التقى بها «إبسن» مرات قليلة. كانت خاضعة تماما لنفوذ زوجها ولجأت إلى السرقة متصورة أنها بذلك سوف تساعده. وعندما اكتشف أمرها كان يعاملها على أنها وصمة في حياته ووضعها في مصحة عقلية لبعض الوقت. وجدها «إبسن» نموذجا على اضطهاد المرأة وما تلاقيه من ظلم ـ فكرة أخرى من لحم ودم أكثر منها إنسان – واستخدم ذلك لخلق شخصية مسرحية هي شخصية «نورا» في «بيت الدمية»، وكان من الطبيعي أن تلفت الدعاية الكبيرة والشهرة الواسعة للمسرحية الأنظار وتركز الضوء على «لورا» ولم يكن من الصعب معرفة أنها هي الأصل. أصابها حزن شديد وكرب عظيم وطلبت من «إبسن» أن يعلن أن «نورا» ليست هي. وما كان ذلك ليكلفه شيئا. أما الخطاب الذي أعلن فيه رفضه لطلبها فهو خيرتعبير عن إنسان ليس لديه أي ذرة من ضمير:

«لا أستطيع أن أفهم ماذا يدور بعقل «لورا كيلر» بمحاولاتها استدراجي إلى هذه الأمور التافهة. إن إعلانا من جانبي كالذي تقترحه ليقول إنها ليست «نورا» سكون بلا معنى، وضربا من العبث، حيث إنني لم أقل أبدا أنها هي ... وأعتقد إنك توافقني على أن أفضل طريقة لمساعدة صديقتنا المشتركة هي الصمت.» واستغلال «إبسن» للشخصيات بطريقة قاسية شمل أولئك الأقرب إليه والأغراب على حد سواء. فالمسرحية التي دمرت حياة «اميلي» ألحقت أذى وضررا بزوجته كذلك، حيث تعرف الناس على «سوزانا» ـ زوجته ـ بسهولة في شخصية زوجة «سولنس» في مسرحية «البنّاء العظيم»، ضحية الزواج غير السعيد. شخصية « كاچا فوصلي» في نفس المسرحية أيضا كانت عملا من أعمال اللصوصية الإنسانية. فوجئت إحدي السيدات بتلقيها دعوات متكررة لتناول العشاء مع «إبسن»، وفعلت ذلك وهي في غاية السعادة. ولكنها فوجئت مرة أخرى عندما توقفت الدعوات فجأة ثم فهمت كل شيء عندما شاهدت المسرحية

ووجدت «بعضا منها» في شخصية «كاچا»... لقد استخدمها «إبسن»...!

كتب «إبسن» كثيرا عن الحب، وكان الحب على أية حال هو الموضوع الرئيسي لشعره حتى وإن كان ذلك بمعنى سلبي، للتعبير عن آلام العزلة. ولكن من المشكوك فيه أن يكون قد أحب أو استطاع أن يشعر بالحب نحو شخص بعينه أكثر من كونه فكرة أو فكرة مشخصة. الكراهية كانت هي الشعور الأكثر حقيقية بالنسبة له. ووراء الكراهية شعور أساسي وعميق ... الخوف. في الأعماق السحيقة لشخصيته كان هناك خوف كامن صامت، وربما كان ذلك أهم ما فيه. خجله كان قد أخذه عن أمه التي كانت تحبس نفسها في غرفتها عند أول فرصة. «إبسن» أيضا وهو طفل كان يحبس نفسه في الغرفة. الأطفال الآخرون كانوا يلاحظون خوفه ــ وهو يلعب معهم أحيانا ــ و«جبنه» ــ الجسماني والمعنوي ــ كانت الكلمة الأكثر التصاقا به من قبل من يعرفونه طوال حياته.

وهناك حادث أسود – على نحو خاص ــ في حياته وقع في سنة ١٨٥١ عندما كان في الثالثة والعشرين ويكتب مقالات غير موقعة للجريدة الثورية «أربجدر فورييننجيرنز بلاد». في يوليو من نفس العام اقتحمت الشرطة مكاتب الجريدة وألقت القبض على اثنين من أصدقائه هما «تيودور أبلدجارد» والزعيم العمالي «ماركوس ثرين». ولحسن حظ «إبسن» لم تجد الشرطة في أوراق المكتب ما يشيرإلى أنه كاتب المقالات. ومن فرط الرعب رقد مريضا لعدة أسابيع، وحكم على الرجلين وقضيا سبع سنوات في السجن، ولجبنه لم يقف إلى جوارهما أو يحتج على ذلك العقاب القاسي (٥١).

كان رجل كلام ولم يكن رجل فعل. كان ساخطا عندما قامت روسيا بغزو الدانمرك في سنة ١٨٦٤، وضمت «شلزويج هولستين»، وداَن بشدة جبن النرويج لأنها لم تهرع لنجدة الدانمرك، وكتب :

«كان لابد أن أبعد عن كل تلك القذارة هناك لكي أكون نظيفا» (٥٢)، ولكنه لم «يفعل» شيئا لمساعدة الدانمرك. سأله شاب دانمركي «كريستوفر برون» تطوع ليشارك في الحرب – بعد أن سمع بآرائه الصاخبة ــ لماذا لم يتطوع هو الآخر، كانت الإجابة العرجاء :«نحن الشعراء لدينا واجبات أخرى نؤديها»(٥٣). كان «إبسن» جبانا في الأمور الشخصية والأمور السياسية كذلك. علاقته بأول حب: «هنريك هولست» انتهت ببساطة لأن «إبسن» فر مذعورا عندما رآه والدها جالسا معها.

بعد عدة سنوات وكانت قد تزوجت حدث بينهما الحوار التالي :

إبسن : أتعجب لماذا لم يسفر علاقتنا عن شيء!

هنريك : هل نسيت؟ لقد لذت بالفرار .

إبسن : نعم! لا أستطيع أبدا أن أواجه أحدا (٥٤)..

كان «إبسن» طفلا عجوزا خائفا تحول مع الحياة باكرا إلى امرأة عجوز خائفة! قائمة الأشياء التي كان

يخاف منها طويلة جدا.

يصفه «فيلهلم بيرجسو» في «اسكيا» سنة ١٨٦٧ وهو مشلول من الخوف أن تنهار الصخور، وخائفا من الارتفاع ويصرخ : «أريد أن أخرج من هنا، أريد أن أعود إلى البيت».

عندما كان يسير في الشوارع كانت تنتابه المخاوف من سقوط شيء على رأسه. أزعجته ثورة «غاريبالدي» لدرجة كبيرة خوفا من الدم في الشوارع. كان يقلقه توقع حدوث زلازل. كان يخاف القوارب: «لن أخرج مع أولئك القوم، لو هبت عاصفة سوف ينبطحون في القارب ويصلون للعذراء بدلا من خفض الأشرعة». خوف آخر من انتشار الكوليرا، وكان انتشار الأوبئة هما أساسيا عنده. في ٣٠ أغسطس ١٨٨٠ كتب إلى ابنه «سيجورد»: «أنا ضد فكرة أن تترك أمتعتك في مستشفى «آنا داي»، الأطفال الذين ترعاهم من طبقة من الناس من المتوقع أن يكون وباء الجدري متفشيا بينهم»(٥٥)، وكان يخشى العواصف في البر والبحر، والاستحمام (يمكن أن يحدث لك تقلص عضلي) ويخاف من الخيول (معروفة بالرفس) ومن أي شخص يحمل بندقية صيد (ابعد عن أولئك الذين يحملون مثل تلك الأسلحة) ويخاف من حوادث المركبات.كان يضايق الأطفال عندما يطفيء شموع أشجار عيد الميلاد خشية حدوث حريق. لم تكن زوجته في حاجة إلى أن تخيفه بقراءة أخبار الكوارث في الصحف لأنه كان يمشط الصحف بنفسه (كانت مصدره الرئيسي لأفكار مسرحية)، وكان يدرس قصص الرعب سواء الطبيعية أو تلك التي من صنع البشر، خطاباته إلى «سيجورد» كلها قوائم تحذيرات ـ لقد قرأت في الصحف النرويجية تقريبا عن حوادث سببها العبث بالأسلحة النارية المحشوة بالطلقات»، وتعليمات ونصائح «ابرق لي إن كان هناك أي حادث ولو بسيط»، «أقل إهمال يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة»، «كن حذرا ويقظا في كل شيء»(٥٦).

أما الفزع الأكبر فكان من الكلاب. يحكي «بيرجسو» أنه في مناسبة ما في إيطاليا انتابه الخوف من كلب لم يكن هناك أي احتمال لأي أذى منه، وفجأة جري مسرعا، فما كان من الكلب إلا أن طارده وعضه. صرخ «إبسن» : «هذا الكلب مسعور ولابد من إعدامه وإلا أصابني السعار أنا أيضا» وكان «يرغي ويزبد من الغضب ولم يذهب عنه خوفه إلا بعد عدة أيام». ويسجل «كنودزون» حدثا آخر أكثر إثارة وقع في إيطاليا أيضا. كان «إبسن» وبعض الاسكندناقيين قد تناولوا الغذاء في أحد المطاعم وشربوا كثيرا من النبيذ : «توقعنا عاصفة. من البداية بدا «إبسن» وكأن في أعماق روحه دودة ضجر، كانت توجعه وتبحث عن مخرج»، عندما نهضوا ليغادروا المطعم لم يستطع «إبسن» أن يقوم من مكانه وكان لابد أن يساعده اثنان منهم على المشي.

لفت انتباهه باب حديدي خلفه كلب ضخم كان ينبح بغضب. حينئذ : «كان «إبسن» يمسك في يده بعصا وبدأ يلوح بها نحو الكلب الذي كان يشبه أسدا صغيرا، اقترب الكلب فلوح «إبسن» بالعصا وضربه بها، محاولا أن يثير جنونه ونجح في ذلك. اندفع الكلب نحو الباب فضربه «إبسن» مرة أخرى،

ولولا وجود الباب الحديدي لنجح الكلب في أن يمزقنا جميعا .... ظل «إبسن» على تلك الحال لمدة ست أو ثمان دقائق تقريبا»(٥٧) .

وكما يبين هذا الحادث فإن غضب «إبسن» الذي كان ملازما له طوال حياته ومخاوفه الدائمة كانت كلها مرتبطة ببعضها البعض. كان يغضب لأنه كان يخاف. وكان الكحول يهدأ من الخوف ولكنه يطلق عنان الغضب. وفي داخل الرجل الغاضب كان هناك آخر جبان.

فقد «إبسن» إيمانه مبكرا، أو كان يقول ذلك. ولكنه ظل يحمل الخوف من الخطيئة والعقاب حتي القبر. كان يكره المزاح عن الدين، «هناك أشياء لا يصح أن يسخر منها المرء» ، كان يقول إن المسيحية «تخفض المعنويات وتكبت كلا من الرجل والمرأة» ولكنه شخصيا ظل يؤمن بالخرافات. ربما كان لا يؤمن بالله ولكنه كان يخاف من الشياطين.

كتب في نسخة من «بيرجنت» : «أن تحيا، عليك أن تحارب الشياطين في القلب والروح» . كتب إليه «بجورنسون» : «توجد عفاريت كثيرة في رأسك أعتقد أنك لابد أن تسترضيها، جيش خطير، لا تحتفظ بهم حولك لأنهم ينقلبون على أسيادهم» . كان «إبسن» يعرف ذلك جيدا وكان يتكلم عن «شيطانه الأعلى» ــ كان يقول : «أنا أغلق الباب وأستحضره، لابد أن هناك شيطان في ما أكتب» . كان يحتفظ في مكتبه بمجموعة من التماثيل المطاطية لشياطين بألسنة حمراء(٥٨) ، وفي بعض الأحيان بعد عدد من كئوس الخمر وبعدما انهار نقده المبرر للمجتمع وتحول إلى ارتباك وفوضى كان يبدو «إبسن» ممسوسا بالشياطين. حتي «وليم آرشر» أبرز المدافعين عنه كان يرى أن آراءه الفلسفية والسياسية ــ عند فحصها عن قرب ــ لم تكن ثورية بقدر ما هي فوضوية. وكتب في سنة ١٨٨٧ : «لقد أصبحت أكثر اقتناعا أن «إبسن» لا وجود له كمفكر متعدد الجوانب أو حتى كمفكر منهجي» . كان «آرشر» يراه ببساطة ضد أي فكرة مستقرة من ناحية المبدأ. ويسجل «أنجفالد أندست» والد الروائي «سيجريد أندست» والذي كان قد استمع إلى أحاديثه الصاخبة في «روما» : «إنه فوضوي تماما، يريد أن يمحو كل شيء .. البشرية لابد أن تبدأ من الأساس لبناء العالم .. المجتمع وأي شيء آخر لابد أن يزول ... مهمة عصرنا الكبري هي أن تنفخ هذا النسيج القائم في الهواء» .

ماذا يعني ذلك كله ؟ يعني القليل في الحقيقة : إنه الغبار المتساقط من الخوف والكراهية من قلب لم يعرف أو لم يستطع التعبير عن الحب.

إن بارات عالم الشمال مملوءة برجال من نفس النوع. في سنواته الأخيرة التي بدأت بنوبة صرع في سنة ١٩٠٠ كانت تتكرر على نطاق ضيق على فترات، واصل «إبسن» أسلوبه الذي كان يتراوح بين الغضب والقلق .. تراقبه زوجته الساخرة. قلقه الرئيسي الآن هو التأمين، بينما مصدر ضيقه هو الوهن الجسماني وكره شديد لأن يساعده أحد. الغضب الشديد والثورة هما سادة الموقف. بمجرد أن انتهت الممرضة المقيمة من مساعدته في الطريق أمروها بأن تختفي. وعندما لم تفعل ذلك لوح «إبسن» لها

بالعصا ففرت مسرعة إلى المنزل. كان الحلاق يجيء ليحلق له ذقنه كل يوم ... لم يكلمه «إبسن» كلمة واحدة . مرة وحيدة همس فجأة : «شيطان قذر» .

مات في الثالث والعشرين من مايو ١٩٠٦ ، بعد ذلك قالت «سوزانا» إنه قال قبل أن يموت «زوجتي العزيزة، الغالية، كم كنت طيبة معي عطوفة عليّ» ، وهذا يبدو بعيدا عن شخصيته تماما. على أية حال فإن يوميات الدكتور «بول» تقول إنه كان في غيبوبة تامة في ذلك المساء ولم يكن يستطيع أن يتكلم، وفي رواية أخري أكثر معقولية، أن آخر كلمة لفظها كانت : «بالعكس» !!



الفصل الخامس

«تولستوي» : الشقيق الأكبر للإله !

من بين جميع المثقفين الذين ندرسهم هنا، كان «ليو تولستوي» الأكثر طموحا. جرأته مخيفة وأحيانا مرعبة. كان يعتقد أنه بمصادر عقله الخاص وبفضيلة القوة الروحية التي كان يشعر بها تتفجر بداخله، يستطيع إحداث تغيير أخلاقي في المجتمع.

كان هدفه كما حدده «أن نجعل من مملكة المسيح الروحية مملكة على الأرض»(١). كان يرى نفسه جزءا من تسلسل رسولي من المثقفين يضم: موسى وعيسى وكونفوشيوس والإغريق الأوائل وبوذا وسقراط، نزولا إلى باسكال وسبينوزا وفيورباخ وكل الآخرين من المجهولين وغير المعروفين الذين كانوا يفكرون ويتحدثون بإخلاص عن معنى الحياة.

ولكن «تولستوي» لم تكن لديه النية أن يظل «مجهولا أو غير معروف». فيومياته تكشف أنه عندما كان في الخامسة والعشرين كان يدرك أن لديه قوى خاصة، وأنه منذور لمصير أخلاقي مهم. «قرأت اليوم عملا عن التصوير الأدبي للعبقرية فأيقظ بداخلي اقتناعا بأنني إنسان متميز من ناحية القدرة والحماس للعمل». «لم ألتق حتى الآن بإنسان على نفس الدرجة التي أنا عليها من حسن الخلق، لا يتذكر لحظة من حياته لم يكن فيها مندفعا نحو فعل الخير أو على استعداد للتضحية بأي شيء في سبيله». كان يشعر في صميم روحه «بعظمة لا حد لها»، وكان يحيره عدم قدرة الآخرين على إدراك صفاته: «لماذا لا يحبني أحد؟ لست أحمق ولا مشوها». «لست سيئا، لست جهولا، إنه أمر غير مفهوم»(٢).

كان «تولستوي» يشعر دائما بنوع من العزلة عن الآخرين مهما حاول أن يتعاطف أو يتماثل معهم. وكان لديه إحساس غريب بأنه يراقبهم ويمارس عليهم سلطة أخلاقية.

وعندما أصبح روائيا وربما أعظم روائي في العالم، كان يغتصب لنفسه وبعفوية تلك السلطة شبه الإلهية. كان يقول لـ «مكسيم جوركي»: «أنا نفسي عندما أكتب أشعر بالتعاطف مع شخصية ما، فأمنحها بعض الصفات الخيرة، أو أنزع صفة خيرة عن شخصية أخرى لكي لا تبدو الأولى شديدة السواد عند مقارنتها بالآخرين»(٣)، وعندما أصبح مصلحا اجتماعيا أصبح تماثله بالله أقوى، حيث إن برنامجه الفعلى كان ممزوجا بالألوهية كما حدده «الرغبة في السعادة الكونية .. تلك التي نسميها بـ الإله»، كان

يشعر بالفعل بأنه مسكون بالألوهية فقد سجل في يومياته : «ساعدني، تعال يا أبي واسكن فيّ، أنت فعلا تسكنني، أنت حقا «أنا»(٤)، ولكن صعوبة أن يسكن الإله و«تولستوي» نفس الروح تكمن في أن «تولستوي» كان دائما في شك من خالقه كما يقول «جوركي»، والذي كان يذكّره بـ «دبين في عرين واحد» وقد جاء وقت على «تولستوي» كان يعتقد فيه أنه شقيق الله . وربما شقيقه الأكبر.

ولكن كيف أصبح «تولستوي» يشعر بنفسه على هذا النحو ؟ ربما كان العامل الأول في إحساسه بالعظمة هو مولده.

«تولستوي» من مواليد سنة ١٨٢٨ مثل «إبسن». ولكنه كان من سلالة طبقة حاكمة في بلد كبير سوف يحتفظ على مدى الثلاثين سنة التالية بنمط من العبودية يعرف بـ «القنانة».

وفي ظل ذلك النظام كانت أسر الأقنان (الرجال والنساء والأطفال) مقيدة بحكم القانون بالأرض التي تفلحها وكانت ملكيتهم تنتقل مع اللقب. وعندما ألغي هذا النظام في سنة ١٨٦١ كانت عائلات بعض النبلاء تمتلك أكثر من مائتي ألف قن، ولكن «آل تولستوي» لم يكونوا على هذا القدر من الثراء. كان والد «تولستوي» وجده من المبذرين، وكان الأب قد أنقذ نفسه بالزواج من ابنة الأمير «ڤولكونسكي» وكانت فتاة عادية إلا أن أهلها كانوا من أعلى طبقة شاركت في تأسيس المملكة وكانوا على نفس المستوي الاجتماعي لآل «رومانوف» عندما ظهرت أسرتهم في سنة ١٦١٣، كان جد «تولستوي» لأمه كبير القادة لدي الإمبراطورة «كاترين» كما كان مهر أمه يتضمن ضيعة «ياسنايا پوليانا» بالقرب من «تولا» وقد ورثها «تولستوي» عنها بما فيها من ٤٠٠٠ فدانا وما عليها من ٣٣٠ قنا.

في شبابه لم يكن «تولستوي» يفكر كثيرا في المسئوليات التي انتقلت إليه، وباع بالفعل أجزاء من الضيعة لتسديد ديون القمار، ولكنه كان فخورا ـ وفي الحقيقة مغرورا ـ باللقب وبأصله الذي كان يؤهله للدخول إلى الصالونات الراقية، كما كان يروع أصدقاءه الأدباء بتكلفه وتنفجه. كتب «تورجنيف» : «لا أستطيع أن أفهم سر ذلك التعلق الغريب بطبقة النبلاء البائسة»، أما «نكراسوف» فيقول : «كان يثير اشمئزازنا جميعا»(٥). وكانوا مستاءين كلهم من الأسلوب الذي يحاول أن يحصل به على أفضل ما في العالمين : المجتمع الراقي والبوهيمية.

وكان «تورجنيف» يسأل بغضب : لماذا تجيء إلى هنا بيننا ؟ هذا ليس مكانك، اذهب إلى أميرتك» . وعندما تقدم به العمر تخلى عن مظاهر البهرجة الكاذبة لطبقته،.ولكن بدلا منها أصبح في حالة من الجشع للأرض والذي تعمق، مستخدما مكاسبه الأدبية لشراء المزيد من الأراضي، وكان يكدس هكتارا على هكتار وعندما جاءت اللحظة ليقرر التخلي عنها لم يكن يملكها فقط وإنما يحكمها. كانت روحه سلطوية ونابعة مباشرة من لقب وراثي يملك الأرض والأرواح. كتب ابنه «إيليا» يقول : «كان العالم مقسوما إلى جزءين، أحدهما يتكون منا والثاني من كل الآخرين. كنا نوعا خاصا من البشر، والآخرون ليسوا على نفس المستوي. كان (والدي) مسئولا إلى حد كبير عن تلك الغطرسة التي لا مبرر لها

والاحترام الزائد للنفس الذي غرسه في نفوسنا ذلك النمط من التنشئة والذي وجدت أن من الصعب تحرير نفسي منه»(٦)، وحتى النهاية كان «تولستوي» يؤمن بأنه وُلد ليحكم على نحو أو آخر. كتب «جوركي»: «في عمره المتقدم ظل هو السيد، العقل، متوقعا أن تطاع رغباته فورا».

ومع رغبته الأساسية في السيطرة لم يكن مستعدا لقبول أي سيطرة عليه من الآخرين، كانت إرادته صلبة وساعدت الظروف على تقويتها. مات والداه وهو صغير، أشقاؤه الثلاثة كانوا ضعفاء، سيئي الحظ منغمسين في الملذات، أما هو فقد ربته عمته «تاتيانا» وعمة أخرى فقيرة، بذلت كل ما تستطيع لكي تعلمه الواجب وعدم الأنانية ولكن لم يكن لها أي سلطان عليه.

كتاباته عن سنواته الأولى «الطفولة» ومذكراته تضلل القارىء بأمانتها الظاهرية مثل كتابات «روسو» التي تخفي أكثر مما تظهر. هكذا يصف كيف ضربه معلم قاسي «مسيو دي سان توماس»: «أحد أسباب خوفي وكرهي لكل صور العنف طوال حياتي»(٧)، وفي الحقيقة فإنه كانت هناك صور مختلفة للعنف، بما في ذلك طبيعته الخاصة العنيفة التي لم تسبب له أي إزعاج حتى سن متأخرة. وبالنسبة لـ «سان توماس» فقد أخذ «تولستوي» أفضل ما فيه عندما كان في التاسعة، أما بعد ذلك فقد كانت حياته غير منتظمة كما اختار لها. في المدرسة كان يقرأ ما يريد ويعمل عندما يحب (وبجد غالبا)، في الثانية عشرة كان يكتب الشعر، في السادسة عشرة ذهب إلى جامعة «كازان» على «الفولجا» ودرس اللغات الشرقية لبعض الوقت. كان ينوي العمل بالسلك الدبلوماسي، بعد ذلك درس القانون، في التاسعة عشرة ترك الجامعة وعاد إلى «ياسنايا بوليانا» ليدرس بمفرده. كان يقرأ الأعمال الروائية الجديدة: «دوكوك»، «دوماس» «إيوجين سو»، وقرأ «ديكارت» وقبل ذلك كله «روسو»، وفي نواح كثيرة مهمة كان تلميذا لـ «روسو» بعد وفاته، وفي نهاية حياته كان يقول أن «روسو» كان له أكبر الأثر عليه، وأكثر من أي شخص آخر باستثناء مسيح العهد الجديد. كان يرى في «روسو» روحا صديقة وذاتا ضخمة أخرى واعية بخير غير محدود، شغوفة بنقله إلى الآخرين. ومثل «روسو» علم «تولستوي» نفسه بنفسه، وبكل الكبرياء والقلق وحساسية الذهن لدى العصاميين، مثل «روسو» أيضا جرب أشياء كثيرة قبل أن يستقر على العمل ككاتب. جرب العمل الدبلوماسي، القانون، الإصلاح التربوي، الزراعة، الجندية، الموسيقي.

وجد «تولستوي» مهنته بالصدفة عندما كان يعمل ضابطا متدربا في الجيش في عام ١٨٥١ وكان في الثانية والعشرين. ذهب إلى القوقاز حيث كان شقيقه «نيكولاي» في الخدمة العاملة، ولم يكن من سبب لذهابه إلى هناك سوى أن يجد شيئا يشغل به وقته ويحصل على بعض الميداليات التي تفيده عندما يظهر بها في الصالونات. قضى في الجيش حوالي خمس سنوات .. أعمال قتالية في الجبال الحدودية ثم في القرم ضد البريطانيين والفرنسيين والأتراك. كانت لديه ميول وعجرفة امبريالي روسي، وعند قبوله في الجيش وتعيينه في بطارية مدفعية كتب إلى شقيقه «سيرجي»: «سوف أساعد بكل قوتي وكل مدافعي على تدمير اللصوص والمتمردين الآسيويين»(٨).

وفي الواقع فإنه لم ينكر امبرياليته الروسية ولا الروح الشوفينية ولا الاقتناع بأن الروس كانوا جنسا خاصا ذا سمات أخلاقية فريدة (متمثلة في الفلاح) ودور إلهي يؤدونه في الحياة.

كانت تلك هي المعتقدات البسيطة الكامنة في نفوس رفاقه الضباط وكان «تولستوي» يعبر عنها، ولكنه كان يشعر بأنه مختلف في أشياء أخرى. كتب في يومياته: «مرة واحدة وإلى الأبد، لابد من تعويد النفس على فكرة أنني استثناء، إما لأنني سابق زمني أو لأن لي طبيعة متنافرة لايمكن أن تتأقلم أو تهدأ»(٩). أما رأي الجيش فيه فكان مختلفا. كان البعض يرونه متواضعا والبعض الآخر يرى فيه «شعورا بالأهمية والرضا الذاتي لايمكن فهمه»(١٠).

وكان الجميع يلاحظ نظراته المتوحشة العنيدة وعينيه المملوءتين بالرعب أحيانا، لدرجة أنه كان يمكن أن يحدق في وجه أي شخص فيصيبه بالإذعان! لاأحد ينازعه شجاعته سواء في العمل أو خارجه وكانت تلك سمة من سمات إرادته القوية. عندما كان طفلا أجبر نفسه على ركوب الخيل وتغلب على خجله، علم نفسه الصيد بما في ذلك صيد الدببة الخطر، ونتيجة للامبالاته وغطرسته كاد أن يفقد حياته في أول رحلة صيد للدببة. في الجيش كان شجاعا تحت النيران ورقي بسبب ذلك إلى ملازم أول، ولكن كل جهوده للحصول على ميدالية أو نوط باءت بالفشل رغم أنه رشح لذلك ثلاث مرات، لأن السعي للحصول على مثل تلك الأوسمة غير مقبول في الجيوش وسرعان ما يكتشف. والحقيقة إن «تولستوي» لم يكن ضابطا جيدا أو مقبولا. كان يفتقر إلى التواضع والرغبة في الطاعة أو التعلم وكذلك إلى التضامن مع زملائه. كان يميل إلى الانفراد بنفسه وكان من الممكن أن يترك الجبهة دون إذن ودون أن يخبر أحدا عندما لايكون هناك شيء يمكن أن يستفيد منه. كتب قائده : « «تولستوي» يحب رائحة البارود ولكن بشكل متقطع»، كان يميل إلى تجنب «المتاعب والمصاعب العرضية للحرب، يسافر إلى مناطق مختلفة مثل سائح، ولكن بمجرد أن يسمع صوت إطلاق النار يظهر على أرض المعركة فجأة، ثم يختفي عندما تنتهي، باختياره وعندما يريد»(١١).

في تلك الفترة ـ ودائما ـ كان «تولستوي» يحب الدراما. كان على استعداد أن يضحي بالراحة والمتعة، حتى بالحياة، بشرط أن يتم ذلك كحركة مسرحية يلاحظها الجميع. عندما كان طالبا صنع لنفسه كيسا للنوم يشبه العباءة لكي يؤكد شجاعته الروسية، وكانت تلك «حركة مسرحية» أثارت التعليقات، وفي الجيش كان على استعداد أن «يؤدي» بدل أن «يخدم» .

المتاعب والمصاعب الروتينية وكل جوانب الحياة العسكرية التي لم يكن لها قيمة في تحقيق شهرة أو لفت الأنظار لم تكن تثير اهتمامه. ولذلك كانت: بطولته، فضيلته، قداسته، كلها كانت أمورا للمسرح العام وليست من أجل الحياة اليومية الروتينية التي لا يلحظها أحد أو يهتم بها .

في جانب واحد فقط كان عمله في الجيش بطوليا. أثناء الخدمة جعل من نفسه كاتبا قويا، وواضح من تأمل الأحداث أنه ولد كاتبا. وواضح أيضا من كتاباته الوصفية بعد ذلك أنه كان ملاحظا جيداللطبيعة

والبشر ـومنذ وقت باكر ـوبدقة تفصيلية لم يتفوق عليها أحد. ولكن الكُتّاب بالفطرة لايصبحون كتابا بالضرورة. أما النقطة التي التقت عندها موهبتا «تولستوي» المتميزتان فكانت مشاهدته لجبال القوقاز وهو في طريقه للالتحاق بالجيش. إن روعة المشهد لم تثر فيه فقط شهيته الذهنية، وإنما أيقظت فيه خاصيته الثالثة المتميزة وهي الإحساس بعظمة الله ورغبته في أن يتحد معها على نحو ما.

بعد وقت قصير كان يكتب : «الطفولة» ثم قصصا واسكتشات عن الحياة في الجيش : «الغارة»، «القوزاق»، «قطع الأخشاب»، وثلاثة من «اسكتشات سيباستابول»، «الصبا» جزء من الشباب ـ، «صباح صاحب الأرض»، «ليلة الكريسماس».

أرسل «الطفولة» في يوليو ١٨٥٢ وحققت نجاحا كبيرا عندما نشرت، بعد عشر سنوات لم يكن قد انتهي من «القوزاق»، «ليلة الكريسماس» لم يكملها، ومواد أخرى مثل الحملة ضد الزعيم الشيشاني «شامل» احتفظ بها «تولستوي» لقصته الأخيرة الممتازة «الحاج مراد» التي كتبها في سن متأخرة. ولكن المدهش أن ذلك الكم الكبير من الأعمال كان يقدم على فترات متقاربة أثناء حياته في الجندية حتى في الجبهة، وفي نفس الوقت الذي كان يطارد فيه نساء القوقاز ويلعب القمار ويسكر على حد تعبيره هو. ولابد أن الدافع للكتابة كان قويا كما كانت الإرادة والصنعة. إلا أن ذلك الدافع القوي كان متقطعا، وهنا تكمن مأساة «تولستوي». كان أحيانا يكتب بابتهاج وشعور بالزهو بقدرته على ذلك. كتب في اكتوبر ١٨٥٨ : «سوف أقدم نسيجا لا يعرف أحد أوله من آخره»، وفي بداية ١٨٦٠ كتب : «أكتب الآن شيئا يأتيني طواعية كما لو كنت أتنفس، وأعترف بكل كبرياء أنه سوف يجعلني أنظر باحتقار إلى ما تصنعونه جميعا»(١٢).

ولكن هذا لا يعني أن الكتابة كانت عملية سهلة بالنسبة له، فقد كان يضع مقاييس عالية لنفسه وكان العمل صارما وشاقا، والجزء الأعظم من «الحرب والسلام» كتبه على الأقل سبع مرات. كما قام بالمراجعة وإعادة الكتابة أكثر من ذلك في «آنا كارينينا»، وكانت التغييرات ذات أهمية أساسية. وفي تلك المراجعات المتتالية نري تحولات «آنا» من محظية كريهة في البلاط إلى البطلة التراجيدية التي نعرفها»(١٣). ومن المعاناة الضخمة التي كان يتحملها «تولستوي» أثناء عمله يتضح أنه كان يعي ويسمع نداء الفنان بداخله. وهل كان من الممكن أن يكون غير ذلك؟ إنه يكتب أحيانا أفضل من أي كاتب آخر في الوجود، ومن المؤكد أن أحدا لا يستطيع أن يصور الطبيعة بمثل ذلك الصدق والشمول.

«العاصفة الثلجية» التي كتبها في سنة ١٨٥٦ والتي تسجل موته الوشيك وسط عاصفة في طريق عودته من «القوقاز» إلى «ياسنايا» دليل مبكر على أسلوبه القوي والمتمكن، الأمر الذي يتحقق مباشرة باختيار التفاصيل ودقتها المتناهية. إنه لا يلجأ إلى معان إضافية أو باطنة لا شعرا ولا إيحاء . وهو كما يصفه «إدوارد كرانكشو» مثل الرسام الذي يحتقر الظلال وتقاطع الأضواء مستخدما الوضوح التام وجلاء الرؤية (١٤).

كما يصفه ناقد آخر بمصوري عصر ما قبل «رافائيل» : أشكال، أنسجة، أصوات، ألوان، رائحة، أحاسيس ... كلها منقولةبشفافية ومباشرة(١٥). هنا مثالان، والنصان وصل إليهما «تولستوي» بعد مراجعات كثيرة، الأول «ڤرونسكي» تلك الشخصية المنبسطة :

«جميل! رائع! قال لنفسه وهو يضع ساقا على ساق

ممسكا بإحدى رجليه في يده. تحسس العضلة النابضة في ربلة الساق التي كدمهابالأمس عندما وقع

استلذ الوجع الخفيف في ساقه القوية، استلذ الإحساس العضلي للحركة في صدره وهو يتنفس، اليوم البارد الصافي من أيام أغسطس الذي جعل «آنا» تشعر باليأس بدا بالنسبة له منعشا .

كان كل ما يراه من نافذة العربة يبدو طازجا ومبهجا ومفعما مثله بالحياة، أسطح المنازل وهي تلمع تحت أشعة الشمس الغاربة، حواف الأسوار الحادة وزوايا المباني .... حتى حقول البطاطا.... كان كل شيء مثل منظر طبيعي جميل خرج للتو من تحت فرشاة فنان».

وهذا «ليڤن» وهو يطارد طائر « البكاسين» مع كلبه «لاسكا» :

«كان القمر قد فقد كل بريقه وبدا مثل سحابة بيضاء في السماء، لم تكن هناك نجمة واحدة، والبردي التي كانت فضية قبل ذلك تلمع الآن مثل الذهب، البرك الراكدة كلها مثل الكهرمان، زرقة الحشائش أصبحت خضرة صفراء، استيقظ صقر واستقر فوق كومة من العشب الجاف وراح ينقل رأسه من جانب إلى آخر وهو ينظر باستياء نحو المستنقع. كانت الغربان تحلق فوق الحقل، وطفل عاري القدمين يقود الخيل نحو رجل عجوز خرج من تحت معطفه وراح يمشط شعره، وكان دخان البندقية الأبيض نهرا من الحليب فوق خضرة العشب ..»

واضح أن طاقة الكتابة عند «تولستوي» كانت تنبع مباشرة من تبجيله للطبيعة، وإنه ظل محتفظا بكل من الطاقة والدهشة – وإن كان بشكل متقطع ـ حتى النهاية. في يومياته (١٩ يوليو ١٨٩٦) يسجل مشاهدته لبقعة صغيرة من نبات الأرقطيون الشائك، كانت قد ظلت حية في أرض محروثة : «سوداء بفعل التراب ولكنهاحية وحمراء في المنتصف، تحثني على الكتابة. إنها تؤكد الحياة إلى النهاية، وحدها في وسط الحقل بأكمله تؤكد ذلك على نحو أو آخر»(١٧). عندما كان «تولستوي» يرى الطبيعة بعينه الباردة المرعبة، وينقلها إلى كلمات بقلمه الدقيق ذي العيار الثقيل، كان أقرب ما يكون إلى السعادة أو السلام الروحي وبالقدر الذي كانت تسمح به شخصيته. ولكن للأسف لم تشبع الكتابة وحدها رغباته. كانت لديه رغبة – بل شهوة ـ شديدة للسلطة، والسلطة التي كان يمارسها على شخصياته لم تكن كافية. وأحد الأسباب أنه لم يشعر بأنه جزء منهم، كانوا جنسا آخر، نوعا آخر. في بعض الأحيان فقط وفي شخصية «آنا» أكثر من غيرها كان يفرض نفسه بجهد عبقري في عقل الشخص الذي يصفه. وكونه يفعل ذلك

بنجاح في مثل تلك الحالة يذكرنا بخطورة التعميم عن ذلك الرجل غير العادي. ولكنه -كقاعدة ـ يرى من الخارج، عن بعد، وفوق كل ذلك من أعلى. أقنانه، جنوده، فلاحوه، كلهم حيوانات مرسومة بذكاء. يصف الخيول ـ وكان لديه معرفة جيدة بها ـ بنفس الطريقة وبنفس الروح. إنه يرى من أجلنا وهو يأخذنا عبر مساء معركة كبيرة كما لو كان يراقبها من كوكب آخر. هو لا يشعر من أجلنا وإنما نحن الذين نشعر نتيجة نظرته الانتقائية وبالتالي يتحكم في مشاعرنا، فنحن في قبضة روائي عظيم ولكنه هو نفسه لا يشعر، يظل خالي البال، بعيدا، بمعزل، كأنه معتصم بجبل الأولب.

مقارنة بمعاصره الأكبر سنا «ديكنز» ومعاصره القريب «فلوبير» ـوكلاهما كان يتحرك على كوكب الخلق العالي ـ فإن «تولستوي» لم يستثمر سوى القليل نسبيا من رأسماله العاطفي في أعماله الروائية. كان لديه – أو لعله كان يظن أن لديه – أشياء اخرى أفضل يستغله فيها. نحن نفكر بـ «تولستوي» كروائي محترف، وبالطبع فإن ذلك صحيح على نحو ما. في كل من عمليه الرئيسيين مارس ما لا يمكن أن يسمى إلا بـ «العبقرية» :

تنظيم الكثير من التفاصيل وتوظفيها في نسق موضوعات كبرى بحيث يصل إلى غايتها.

ولأنه كان فنانا حقيقيا لم يكرر نفسه. «الحرب والسلام» تغطي مجتمعا بكامله. «آنا كارينينا» تركز على جماعة من الناس عن كثب. والكتابان جعلا منه بطلا قوميا، وحققا له شهرة عالمية وثروة وسمعة طيبة عن الحكمة الأخلاقية، ربما لم تتحقق لروائي آخر. ولكنه في معظم حياته لم يكن يكتب أعمالا روائية بالمرة. كانت هناك ثلاث فترات خلاقة :

القصص المبكرة في خمسينيات القرن (التاسع عشر)، السنوات الست التي قضاها في كتابة «الحرب والسلام» في ستينيات القرن (التاسع عشر)، ثم إبداع «آنا كارينينا» في السبعينيات من نفس القرن ... وبقية حياته الطويلة كان يصنع أشياء أخرى لها في نظره الأولوية الأخلاقية. في ظل النظام القديم كان الأرستقراطيون يجدون صعوبة في التخلص من فكرة أن الكتابة كانت من أجل من هم أقل منهم شأنا. «بايرون» مثلا لم يكن يعتبر الشعر أبدا أهم أعماله، رغم أنه كان من أجل مساعدة شعوب أوروبا لتحصل على استقلالها. كان يشعر بأنه هناك لكي يقود كما يناسب طبقته ويليق بها ، وهكذا كان «تولستوي» أيضا. كان يشعر بأنه عليه أن يفعل ما هو أكثر من القيادة ... النبوءة .. وأحيانا أن يقوم بدور المسيح . ماذا كان يفعل إذن عندما كان يقضي وقته في الكتابة؟ لقد أخبر مرة الشاعر «فت» : «أن كتابة القصص أمر سخيف ومخجل» ... لاحظ الصفة الثانية ... «مخجل»! كانت تلك نغمة متقطعة، أن الفن سوء استخدام شنيع للمواهب التي منحها الله للبشر، زعق بها «تولستوي» بطريقة أوضح عندما انتابته حالة هجوم على المؤسسات التقليدية. ولذلك فإنه من وقت لآخر وعلى نحو كان يتزايد مع تقدم العمر كان يجنح إلى اعتزال الفن ويمارس قيادة روحية وأخلاقية. «تولستوي» الذي كان يفكر في نفسه أكثر من أي إنسان آخر حتى «روسو» الذي كتب عن نفسه كثيرا، والذي يتمحور معظم أدبه حول ذاته على نحو أو آخر كان

ينقصه ـ وإلى درجة كبيرة ـ معرفته بذاته.

ككاتب، كان تولستوي مؤهلا بامتياز، وعندما كان يكتب كان يصبح أقل خطورة بالنسبة لمن حوله وللمجتمع ككل. ولكنه لم يكن يرغب في أن يكون كاتبا، وبالأحرى عن أمور دنيوية أو أرضية. كان بدلا من ذلك يريد أن يتنبأ .. أن يؤسس دينا وأن يغير العالم .. وكلها مهام لم يكن مؤهلا لها .. لا أخلاقيا ولا فكريا. ولذلك ظلت هناك روايات عظيمة لم يكتبها، ولكنه قاد أسرته ـ أو لعله جر نفسه وجرها ـ إلى برِّية مرتبكة مربكة.

كان هناك سبب أبعد يجعل «تولستوي» يشعر بأنه منذور لمهام أخلاقية كبرى. كان مثل «بيرون» يعرف أنه آثم، ولكنه على خلاف «بيرون» كان يشعر بالذنب لذلك. ذنب «تولستوي» كان أداة انتقائية وغير دقيقة، فبعض سقطاته، حتى جرائمه الناتجة عن ذاته المتعجرفة لم يكن يراها خطايا بالمرة ... ولكنها كانت قوية، وللتأكيد فقد كان في شبابه الكثير الذي يشعره بالذنب. يبدو أنه كان قد تعلم لعب القمار مبكرا وبإسراف شديد في «موسكو» وسان بطرسبورج» في ١٨٤٩، كتب إلى شقيقه «سيرجي» في ١ مايو : «جئت إلى سان بطرسبورج دون سبب مهم، ولم أفعل هنا شيئا مهما، كل ما حدث أنني بددت مالا كثيرا ووقعت في الدين»، وطلب من «سيرجي» أن يبيع جزءامن الضيعة فورا، «أنا في حاجة ماسة الآن إلى ٣٥٠٠ روبل إلى أن يصلني ثمن الأرض، إنك تستطيع أن ترتكب هذا النوع من الحماقة مرة واحدة في الحياة .. وها أنذا قد دفعت الثمن»(١٨)، والحقيقة أنه استمر في لعب القمار من وقت لآخر وأحيانا كان ينغمس في ذلك بشدة انغماسا يؤدي إلى كوارث. حدث ذلك في السنوات العشر التالية وكان يبيع معظم أراضية وتتكدس عليه الديون للأقارب والأصدقاء والتجار. ومعظم تلك الديون لم يسدد.

كان يلعب القمار وهو في الجيش. في مرحلة ما فكر في إصدار جريدة باسم «الجريدة العسكرية» وباع الجزء الرئيسي من «ياسنايا پوليانا» لتمويل مشروعه، وعندما وصله الثمن (٥٠٠٠ روبلا) خسره في القمار على الفور.

وبعد أن ترك الجيش وسافر إلى أوروبا عاد إلى القمار .. وإلى نفس النتيجة .. الخسارة! كتب الشاعر «پولونسكي» الذي شاهده في «شتوتجارد» في يوليو ١٨٥٧ : «ولسوء الحظ جذبته لعبة الروليت بشدة ... كان يميل دائما إلى اللعب، رأيته يودع ثلاثة آلاف فرانك ويغادر المكان بعد أن خسر كل شيء». «تولستوي» نفسه كتب في يومياته : «روليت حتى السادسة. خسرت كل شيء»، «اقترضت من «تورجنيف» ، وخسرت»(١٩).

بعد ذلك بسنوات كانت زوجته تقول إنه بالرغم من شعوره بالذنب للعب القمار على ذلك النحو ـ وكان قد أقلع عن ذلك ـ إلا أنه لم يشعر بأي ندم أو تأنيب ضمير لعدم تسوية الديون التي تراكمت عليه في تلك الفترة، وكان بعضها لأشخاص فقراء.

كان «تولستوي» يشعر بالذنب، وبشدة بسبب رغباته الجنسية وإشباعها رغم أن تأنيبه للنفس هنا أيضا كان انتقائيا، وكان متسامحا مع نفسه. كان يعتقد أن غريزته الجنسية جامحة . من يومياته : «لابد من امرأة، الرغبة الحسية لا تترك لي لحظة سلام» (٤ مايو ١٨٥٣).

«شهوة رهيبة لدرجة المرض الجسماني» (٦ مايو ١٨٥٦)(٢٠). في نهاية حياته أخبر كاتب سيرته «آيلرمود» أن رغبته كانت قوية لدرجة أنه لم يكن قادرا على الاستغناء عن الجنس حتى ما بعد الثمانين. في شبابه كان شديد الخجل مع النساء ولذلك كان يلجأ إلى بيوت الدعارة، الأمر الذي كان يثير اشمئزازه وأدي إلى النتائج المعروفة.

في مارس ١٨٤٧ سجل في مفكرته أنه كان يعالج من مرض «السيلان الذي حمله من المصدر المعتاد». وفي رسالة إلى شقيقه «نيكولاي» في ١٨٥٢ يكتب عن إصابة أخرى «المرض التناسلي زال، ولكن آثار العلاج بالزئبق تسبب لي آلاما مبرحة»، ولكنه ظل على علاقة بالداعرات اللائي كن يتنوعن بين الغجر والقوازاق وبنات الفلاحين كلما تيسر ذلك. النغمة المتكررة التي يكتب بها عنهن في يومياته مقززة وممزوجة بالكراهية : «شيء ما قرنفلي اللون .. فتحت الباب الخلفي، جاءت، لا أستطيع الآن أن أنظر إليها . منفرة .. قذرة .. كريهة ... تجعلني أخالف القواعد التي أسير عليها» (١٨ مايو ١٨٥٣)، وفي اليوم التالي يتخذ قرارا جيدا، ولكن «البغايا تمنعنني» (٢٦ يونيو ١٨٥٣)، وبعد زيارة لأحد بيوت الدعارة يسجل في أبريل ١٨٥٦ : «شيء مروع ولكنها المرة الأخيرة بكل تأكيد»، ومرة أخرى يكتب «شيء مقزز .. بنات ... موسيقى سخيفة .... بنات . حرارة ... دخان سجائر ... بنات .. بنات .. بنات ..». «تورجنيف» الذي كان «تولستوي» يستخدم منزله آنذاك كفندق، يعلق على ذلك في سنة ١٨٥٦ : «نوبات شرب، غجر، لعب ورق طوال الليل .. ثم ينام كالموتى حتى الثانية بعد الظهر»(٢١).

عندما كان «تولستوي» يقيم في الريف خاصة في ضيعته كان يختار من بين بنات الأقنان من يثرن فيه أكثر من مجرد الشهوة. كتب فيما بعد عن بنات «ياسنايا بوليانا» : «أتذكر الليالي التي قضيتها هناك، أتذكر جمال وشباب «دنيا شاه»، أتذكر جسدها القوي الممشوق»(٢٢).

أحد دوافعه للسفر إلى أوروبا في سنة ١٨٥٦ كان الهرب من إغراء واحدة من بنات الأقنان. كان يعرف أن والده كانت له علاقة بها وأنها ولدت ابنا كان يعامل كأحد أقنان الضيعة ويعمل في الأسطبل (وأصبح حوذيا فيما بعد).

ولكن «تولستوي» بعد عودته لم يستطع أن يكف يده عن النساء، خاصة عن واحدة متزوجة كان اسمها «أكسينيا»، في مايو ١٨٥٨ يسجل في يومياته : «اليوم . في الغابة الكبيرة القديمة ... أنا أحمق ... وحش ... جسدها البرونزي وعيناها . أحب كما لم أحب من قبل. لا أفكر في أي شيء آخر»(٢٣).

وكانت البنت «نظيفة .. مقبولة الشكل .. عيناها واسعتان سوداوان، صوتها عميق، رائحتها طازجة،

صدرها عامر وقوي ويرفع صدرية المريلة»، ومن المحتمل أن تكون «أكسينيا» قد ولدت ابنا سمي «تيموفي بازيكن». أحضرها «تولستوي» لتعمل خادمة بالمنزل وكان يسمح للطفل باللعب تحت قدميها لبعض الوقت، ولكنه كان مثل «ماركس» و«إبسن» ووالده لم يعترف بأن الطفل كان ابنه أو يعره أي اهتمام، الملاحظ أيضا أنه في الوقت الذي كان يتكلم فيه عن أهمية وضرورة تعليم الفلاحين، وفي الوقت الذي أدار فيه المدارس لتعليم أطفالهم في ضيعته، لم يبذل أي جهد لكي يضمن لابنه غير الشرعي تعلم القراءة والكتابة، ربما يكون قد خشي من الدعاوي فيما بعد، ويبدو أنه كان قاسيا في عدم الاعتراف بحقوق الأبناء غير الشرعيين حتى لا يكشف سلوكه.

أما «تورجنيف» فقد اعترف بابنته غير الشرعية وتحمل مسئولية تربيتها بطريقة لائقة.

وفي مناسبة ما، أهان «تولستوي» البنت المسكينة ملمحا إلى مولدها مما أدى إلى شجار حاد بينه وبين «تورجنيف» كاد أن ينتهي بمبارزة(٢٤). وهكذا ترك «تيموفي» ابن «تولستوي» ليعمل في الأسطبل، ثم بعد ذلك خفض إلى مرتبة عامل في الغابة بسبب سوء سلوكه. ولا توجد أي معلومات عنه بعد عام ١٩٠٠ عندما كان في الثالثة والأربعين، ولكننا نعرف أنه كان صديقا لـ «ألكس» ابن «تولستوي» الذي جعله حوذيه (سائق مركبته).

كان «تولستوي» يعرف أنه يمارس سلوكا خاطئا بلجوئه إلى العاهرات وإغوائه لبنات الفلاحين، وكان يؤنب نفسه لتلك المخالفات، ولكنه كان يميل إلى لوم النساء أكثر مما يلوم نفسه. كن جميعا بالنسبة له «حواء المغوية»، وقد لا يكون من المبالغة أن نقول إنه رغم احتياجه الجسدي للنساء طوال حياته ـ وربما بسبب ذلك ـ كان لا يثق بهن وربما يكرههن. أحيانا كان يرى أن إبداء الواحدة منهن لرغبتها الجنسية أو لمؤهلاتها الجنسية شيئا مقززا. كتب في آخر العمر يقول: «منظر امرأة وصدرها عار كان دائما شيئا مقززا بالنسبة لي حتى في شبابي»(٢٥).

كان «تولستوي» بطبيعته يميل إلى النقد العنيف، وربما كان متطهرا. فإذا كانت رغبته وميوله الجنسية تزعجه فإن ظهورها في الآخرين كان يثير استياءه الشديد. كتب سنة ١٨٧٥ وهو في «باريس»، وكان في ذلك الوقت شديد الانهماك في علاقاته النسائية: «في الشقة المفروشة التي كنت أسكنها، كان هناك ٦٣ خادمة، ١٩ منهن كن غير منتظمات .. كان ذلك شيئا مقززا للغاية»(٢٦). كانت الخطيئة الجنسية شرا مستطيرا ..... ومصدرها النساء. كتب في ١٦ يونيو ١٨٤٧ وكان في التاسعة عشرة:

«الآن سوف أضع لنفسي القاعدة التالية. سوف أعتبر صحبة النساء شرا اجتماعيا لابد منه وأحاول الابتعاد عنهن قدر الإمكان. من في الحقيقة سبب الميل الحسي والانغماس والعبث وكل الخطايا الأخرى بداخلنا إن لم يكن النساء؟ ومن الملوم لفقداننا صفاتنا الطبيعية من الشجاعة والإخلاص والتعقل والإنصاف إن لم يكن النساء»؟

وفي الحقيقة فإن الشيء المؤسف في «تولستوي» أنه ظل محتفظا بهذه النظرة الطفولية ـ الشرقية في جزء منها ـ إلى المرأة حتى آخر العمر. وعلى عكس جهوده لتصوير «آنا كارينينا» يبدو أنه لم يبذل أي محاولة جادة لفهم عقل المرأة. في الحقيقة لن يعترف بأن المرأة يمكن أن تكون جادة وناضجة وكائنا أخلاقيا. في سنة ١٨٧٨ كتب، وكان في السبعين : «المرأة بوجه عام غبية، ولكن الشيطان يعيرها عقلا عندما تعمل في خدمته وحينئذ تحقق معجزات في التفكير وبعد النظر والجلد لتصنع شيئا مؤذيا ...»، أو عندما يكتب : «من المستحيل أن نطلب من المرأة أن تقيم مشاعرها في الحب على أساس أخلاقي، إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك لأنها لا تمتلك شعورا أخلاقيا حقيقيا يعلو كل المشاعر الأخرى»(٢٧).

وكان يعارض بشدة آراء تحرير المرأة التي جاءت في كتاب «چون ستيوارت مل» : «تبعية النساء»، ويقول أن : حتى المرأة غير المتزوجة يجب أن تمنع من ممارسة مهنة، وكان يعتبر «الدعارة» واحدة من المهن القليلة «الشريفة» المناسبة للنساء. والجزء الذي يبرر فيه الدعارة جدير بالاقتباس : «هل نسمح بالاتصال الجنسي غير الشرعي كما يريد كثير من «الليبراليين» ؟ مستحيل ! في ذلك سيكون خراب الحياة الأسرية. ولمواجهة هذه الصعوبة فإن قانون التطور قد صنع «جسرا ذهبيا» هو «المومس»، تخيل «لندن» دون ما فيها من ٧٠ر٠٠٠ مومس ! ماذا يمكن أن يحدث للأخلاق والاحترام، كيف يمكن أن نحافظ على حياة الأسرة بدونهم ؟ كم امرأة أو فتاة ستظل عفيفة ؟ بالعكس، أنا أعتقد أن المومس ضرورية من أجل الحفاظ على كيان الأسرة»(٢٨).

المشكلة مع «تولستوي» أنه بينما كان يؤمن بالأسرة فإنه لم يؤمن حقيقة بالزواج، ولا بالزواج المسيحي ـ مهما كانت الظروف ـ بين كبار متساوين في الحقوق والواجبات. كان أكثر الناس تنافرا مع مؤسسة من هذا النوع. فتاة يتيمة من المنطقة كان عمرها عشرون عاما واسمها «ڤاليريا أرسينيڤ» هربت من ذلك المصير، في نهاية العشرينيات من عمره كان يتصور علاقة بها واعتبر نفسه خطيبها، كان يحب الجوانب الطفولية في شخصيتها، ولكن جانب الأنوثة فيها كان يصده. والحكاية واضحة في يومياته ورسائله. «للأسف لم يكن بها عظم ولا حرارة، كانت كتلة من البودنچ» ولكن «ابتسامتها فيها خنوع لدرجة مؤلمة»، كانت «رديئة التعليم، جاهلة وغبية بالفعل .. بدأت أوخذها بالأبرة بقسوة ولكنها كانت تبتسم والدموع في عينيها»، وبعد ثمانية شهور من المعاملة القاسية استفزها فأرسلت إليه خطابا غاضبا اتخذه ذريعة للانفصال. «نحن مختلفان وبعيدان جدا عن بعضنا، ولن يجلب لنا الحب والزواج سوى البؤس».

كتب إلى عمته : «لقد تصرفت بطريقة سيئة وأدعو الله أن يغفر لي، ولكن الخطأ إصلاحه مستحيل»(٢٩).

ثم وقع اختياره أخيرا وهو في الرابعة والثلاثين على فتاة في الثامنة عشرة هي «سونيا بهرز» ابنة أحد الأطباء.

لم يكن «تولستوي» صيدا ثمينا، لم يكن غنيا، كان مقامرا معروفا ودائما في مشاكل مع السلطات

لإهانته للقاضي المحلي. قبل سنوات كان قد وصف نفسه بأن له : «أقبح وأقسي ملامح، عينان رماديتان صغيرتان، غباء أكثر من الذكاء، وجه فلاح، يدان وقدمان كبيران»، والأكثر من ذلك أنه كان يكره أطباء الأسنان ولا يحب زيارتهم أبدا، وكان قد فقد كل أسنانه تقريبا في سنة ١٨٦٢، كانت «سونيا» فتاة عادية، غير ناضجة، طولها خمسة أقدام لا أكثر، وبعد منافسة مع أختيها استطاعت أن تحصل عليه، تقدم رسميا عن طريق رسالة ويبدو أنه كان في شك من قبوله حتى آخر دقيقة.

كان الزفاف نذيرا بكارثة محققة. في الصباح اندفع إلى شقتها : «. جئت لأقول مازال لدينا الكثير من الوقت .. كل شيء يمكن أن يؤجل»، وانفجرت باكية. جاء متأخرا عن حفل الزفاف وكان قد حزم ملابسه. وبكت ثانية. بعد تناول العشاء وبعد أن غيرت ملابسها استقلا عربة «دورمييز» تجرها ستة جياد. وبكت مرة أخري. لم يفهم «تولستوي» مع أنه كان يتيما وراح يصرخ : «إن كان فراقك لأسرتك يعني كل هذا الحزن بالنسبة لك فمعناه أنك لن تحبيني كثيرا»، كان يحاول أن يمسك بيدها وكانت تصده، استأجر جناحا في فندق «بيروليفو»، كانت يداها ترتعشان وهي تصب له الشاي من الساموڤار، حاول مرة أخري أن يمسك بيدها وكانت تصده أيضا. مفكرته تقول : «كثيرة البكاء، في العربة، تعرف كل شيء وأن الحكاية سهلة، ولكنها خائفة»، كان يظنها «حالة مرضية»، بعد أن مارس معها الجنس أخيرا وبعد أن استجابت (كما تصور) أضاف في يومياته : «سعادة لا توصف، لا أتصور أن ذلك يمكن أن يدوم إلى مالا نهاية»(٣٠)، وبالطبع لم يدم ! حتى أكثر الزوجات خنوعا كان لابد أن يجدن الزواج من إنسان مثله مفرط في حب ذاته أمرا صعب الاحتمال. كان لدي «سونيا» من العقل والروح ما يكفي لمقاومة تلك الإرادة الساحقة، على الأقل من وقت لآخر، ولذلك كان زواجهما من أسوأ الزيجات التي عرفها الجنس البشري (ومن أفضلها تسجيلا). بدأ «تولستوي» زواجه بخطأ في التقدير كان مدمرا. من سمات المثقف الاعتقاد بأن الأسرار، خاصة في الأمور الجنسية تعتبر ضارة، وأن كل شيء يجب أن يكون «على المكشوف»، لابد أن يكشف الغطاء عن كل ما في الصندوق ! والزوج والزوجة يجب أن يقولا لبعضهما «كل شيء»، وهنا يكمن البؤس غير الضروري. بدأ «تولستوي» سياسته في المصارحة بإصراره على أن تقرأ زوجته يومياته التي كان يدونها منذ ١٥ سنة، وفزعت عندما وجدتها ـ وكانت حينذاك في شكلها الأصلي دون أي حذف ـ تحتوي على تفاصيل عن حياته الجنسية بما في ذلك زياراته لبيوت الدعارة والمواخير وممارسة الجنس مع المومسات والغجر وبنات الأقنان، وحتى مع صديقات أمها. كان أول رد فعل لها : «إبعد هذه السجلات المخيفة عني، لماذا تعطيها لي ؟»، بعد ذلك قالت له : «نعم ! سامحتك. ولكنها مرعبة»، وهذه العبارة منقولة من يومياتها التي كانت تدونها منذ أن كانت في الحادية عشرة. كان من سياسة «تولستوي» المفتوحة أن يدون كل منهما يومياته وأن يكون له حق الاطلاع على ما يكتبه الآخر، وهي صيغة أكيدة للشك المتبادل .. وللبؤس أيضا.

الجانب الجسدي في زواج «تولستوي» ربما لم يشف «سونيا» من صدمتها الأولى عندما عرفت أن زوجها (وكما رأت) كان وحشا جنسيا. بالإضافة إلى ذلك فإنها قرأت مذكراته بأساليب لم يتوقعها. فقد

لاحظت السقطات التي حرص على اخفائها (كما كان يظن)، اكتشفت «سونيا» مثلا أنه لم يسدد ديونه التي اقترضها بسبب القمار. لاحظت أنه لم يخبر النساء اللائي مارس معهن الجنس بمرضه الجنسي والذي كان مايزال مصابا به. إن الأنانية والحب المفرط للذات اللذين تكشف عنهما اليوميات لا تخفى على القاريء قوي الملاحظة. ومن أقوى من الزوجة ملاحظة ؟ ـ وكانت أكثر وضوحا لها عن نفس المؤلف. علاوة على ذلك فإن حياة «تولستوي» الجنسية التي وصفها بدقة في يومياته أصبحت الآن ممزوجة في ذهنها برعب الاستسلام لرغباته وعواقبها النهائية المتمثلة في مرات الحمل المؤلمة والمتكررة. حملت «سونيا» ١٢ مرة في ظرف ٢٢ سنة. وفي تتابع سريع فقدت طفلها «پيتيا» بينما كانت حاملا في «نيكولاي» الذي مات بدوره في نفس العام الذي ولد فيه.

«ڤاڤارا» ولدت قبل موعدها وماتت على الفور. «تولستوي» نفسه لم يقدم أي عون للتخفيف من مشاكل الحمل، لم يبد أي اهتمام ولو دون إحساس. أصر أن يحضر عملية ولادة ابنه «سيرچي» (استخدم ذلك فيما بعد من أجل مشهد في آنا كارينا)، وانفجر غاضبا عندما كانت «سونيا» لا تستطيع أن ترضعه رضاعة طبيعية، ومع استمرار عمليات الحمل والإجهاض أصبح استياء زوجته من مطالبه الجنسية واضحا. كتب إلى صديق له :

«لا شيء أصعب على رجل في صحة جيدة من زوجة مريضة»، بعد الزواج بوقت قصير توقف حبه لها ولكن مأساتها أن بقايا حبها له استمرت. في ذلك الوقت فضفضت في يومياتها :

«لا شيء بداخلي سوى ذلك الحب المهين والنفسية السيئة وهذان الشيئان أصبحا سبب كل شقائي لأن حالتي النفسية تتداخل مع حبي دائما. لا أريد سوى حبه وحنانه ولكنه لا يعطيهما. لقد تمرغ كل كبريائي في الوحل، ولست سوى دودة بائسة مسحوقة لا أحد يريدها .. لا أحد يحبها، إنسانة عديمة القيمة. مرض يومي .. وبطن كبيرة»(٣١).

ومن الصعب أن نعتقد بقدر ما هو متوفر من دليل، أن ذلك الزواج كان محتملا ذات يوم، خلال فترة هادئة نسبيا من عام ١٩٠٠، وكان قد مر على زواجهما ٣٨ عاما، كتبت «سونيا» إليه : «أود أن أعبر لك عن شكري على السعادة الماضية التي منحتها لي، وعن أسفي لعدم استمرارها بنفس القوة والامتلاء والهدوء على مدي حياتنا كلها»، ولكن تلك كانت بادرة تهدئة. من البداية كانت «سونيا» تحاول أن تجعل الزواج يستمر. جعلت من نفسها مديرة لشئونه، وبطريقة استحواذية أحيانا، بتقديم خدمات له لا يستغني عنها، بأن تكون عبده الحرون، تحملت عبء كتابة النسخ النظيفة من رواياته نقلا عن خطه الرديء(٣٢)، كان ذلك عملا شاقا ولكنها ـ على نحو ما ـ كانت تستمتع به، فقد أدركت من وقت باكر أنه يكون أقل عنفا وتدميرا ويمكن تحمله عندما يمارس صنعته الحقيقية.

وكما كتبت لشقيقتها «تاتيانا» إنهما كانا سعداء جدا عندما كان يكتب رواياته. من ناحية فإن ذلك كان يحقق دخلا بينما أنشطته الأخرى تبدد النقود. ولكن «ليست هي النقود بالمعني الحرفي، أهم شيء

أنني أحب أعماله الأدبية. تعجبني، تهزني». وقد تعلمت من خلال التجربة المريرة أنه بمجرد أن يتوقف عن الكتابة الروائية كان يملأ فراغ حياته بحماقات تضر بالأسرة التي كانت تحاول هي أن تبقي عليها متماسكة.

أما «تولستوي» فكان يرى الأمور بطريقة مختلفة تماما، تكوين أسرة والحفاظ عليها يتطلب نقودا، ورواياته تحقق نقودا، أصبح يربط بين الكتابة الروائية وكسب المال ... ومن ثم كره الإثنين. وفي ذهنه كانت الرواية والزواج متصلين، وأكد هذه الصلة ضغط «سونيا» عليه لكي يكتب. والآن أدرك أن كلا من الزواج والروايات كانا يمعنانه من مواصلة عمله الحقيقي في النبوءة، وكما كتب في اعترافاته :

«إن الظروف الجديدة للحياة العائلية السعيدة قد حولتني تماما عن البحث عن المعنى الحقيقي للحياة. في ذلك الوقت كان وجودي كله مركزا على أسرتي وزوجتي وأطفالي وبالتالي على الاهتمام بزيادة مصادر دخلنا. إن نضالي من أجل كمال الذات والذي حل محله النضال من أجل الكمال عموما، تحول إلى مجرد جهد لتوفير أفضل الظروف للأسرة»(٣٣).

وهكذا أصبح «تولستوي» يري أن الزواج ليس مصدرا لشقاء كبير فقط، وإنما عقبة في طريق التقدم الأخلاقي. وقد عمم كارثته الخاصة لتصبح هجوما على المؤسسة الزوجية وعلى الحب الأسري ذاته. في سنة ١٨٩٧ وفي انفجارة مثل انفجارات «الملك لير» قال لابنته «تانيا» :

«أستطيع أن أفهم لماذا قد يجد رجل منحرف خلاصا في الزواج، ولكني لا أستطيع أن أفهم كيف تريد فتاة نقية أن تتورط في أمر كهذا. ولو أنني فتاة لما تزوجت مهما كان الثمن. أما إذا وقع الإنسان في الحب ـ رجلا كان أو امرأة ـ بما أنني أعرف معني ذلك وكيف أنها عاطفة حقيرة فضلا عن كونها غير صحية، وليست جميلة ولا نبيلة ولا شاعرية على الإطلاق ، لما فتحت بابي لها، ولكنت قد اتخذت من الاحتياطات ما يكفي لتجنب التلوث بذلك المرض كما أفعل لحماية نفسي من عَدْوَيَ أقل خطرا مثل الدفتريا أو التيفوس أو الحمى القرمزية»(٣٤).

ويوحي هذا الجزء كما توحي أجزاء أخري أن «تولستوي» لم يكن قد فكر جديا في الزواج. خذ مثلا العبارة المشهورة التالية من «آنا كارينا» : «جميع الأسر السعيدة سواء، ولكن أي أسرة تعسه، فهي تعسة على طريقتها الخاصة»، وبمجرد أن يبدأ المرء في تأمل تجربته الخاصة، يصبح من الواضح أن كلا من جزءي العبارة السابقة قابل للجدل وأن العكس هو الأقرب إلى الصواب. هناك أنماط واضحة ومتكررة للأسرة غير السعيدة، كأن يكون الزوج سكيرا أو مقامرا مثلا، أو أن تكون الزوجة مقصرة أو زانية. وعليه فإن علامات الشقاء الأسري معروفة ومتواترة.

وفي الجانب الآخر هناك أسر سعيدة على كل نوع، ولكن «تولستوي» لم يفكر في الأمر بجدية أو أمانة لأنه لم يكن يستطيع أن يجبر نفسه على التفكير بجدية أو أمانة بخصوص النساء : لقد هرب من

الموضوع خائفا غاضبا مشمئزا. إن الفل الأخلاقي لزواج «تولستوي» وفشله الفكري في أن يكون منصفا بالنسبة لنصف الجنس البشري كانا وثيقي الصلة. ورغم ذلك ـ حتى وإن كان زواج «تولستوي» كان محكوما عليه بالفشل من البداية على نحو ما ـ إلا إنه كان من الممكن أن يكون حظه أفضل لولا تلك المشكلة الإضافية، مشكلة ميراثه للضيعة. فبعد القمار والجنس كانت الضيعة هي المصدر الثالث لآثام «تولستوي» وأهمها. هي التي سيطرت على وجوده المستقر ودمرته في النهاية. كانت مصدر فخره ونفوذه .. وقلقه الروحي أيضا، لأن الأرض ومن عليها من فلاحين كانوا ربطة واحدة : وفي روسيا كان لا يمكن أن تمتلك أحدهما دون الآخر. أنت تمتلك الأرض وما عليها ومن عليها. وقد ورث «تولستوي» الضيعة عن أمه عندما كان صبيا، وهكذا بدأ يفكر في السؤال الكبير من البداية : أحيانا بشرف وأحيانا مُطلقا العنان لأهوائه : «ماذا أفعل بفلاحيني» ؟، ولو كان رجلا عاقلا لأدرك أن إدارة ضيعة لم يكن من شأنه، ولفهم أن موهبته وواجبه هما الكتابة، ولباع الضيعة وخلص نفسه من المشكلة الأخلاقية ليمارس القيادة من خلال كتبه،ولكنه لم يتخل عن تلك المشكلة ولم يحلها جذريا، بل ظل مترددا متأرجحا قرابة نصف القرن شاغلا نفسه بها دون حسم.

بدأ «تولستوي» أول «إصلاح» من أجل الفلاحين عندما ورث الضيعة في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر، وزعم فيما بعد أن : «فكرة تحرير أقنان الأرض لم يكن أحد قد سمع عنها شيئا في دائرتنا في الأربعينيات»(٣٥)، وهذا كذب. كانت الفكرة تتردد في كل مكان وعلى مدى جيل كامل، وكانت موضوع جميع أندية الفلسفة ولولا ذلك لما وصلت إلى «تولستوي». صاحبَ «إصلاحه» تحسينات أخرى بما في ذلك ماكينة درس تعمل بالبخار قام بتصميمها بنفسه ولكن لا شيء من هذه الجهود أثمر عن شيء.

وسرعان ما استسلم أمام الصعوبات المعقدة و«شراهة» الفلاحين «على حد تعبيره». كانت النتيجة الوحيدة هي شخصية «نيكليدوف» في «صباح إقطاعي»، الذي يتكلم نيابة عن «تولستوي» الشاب المتحرر من الوهم : «لا أرى شيئا سوى روتينا جاهلا، رذيلة، شك، يأس، أنا أضيع أفضل سنوات عمري». وبعد ثمانية عشر شهرا ترك «تولستوي» الضيعة وتفرغ لأمور أخرى : الجنس، القمار، الجيش، الأدب .. الشيء الوحيد الذي واصله هو أنه ترك الفلاحين أو بمعنى آخر فكرة الفلاحين تطن في عقله، ولكنه لم ينظر إليهم أبدا ككائنات حية مفردة. ظل شعوره نحوهم متعارضا متناقضا. في سنة ١٨٥٢ سجل فى يومياته : «قضيت المساء كله أتحدث مع «شوبين» عن العبودية عندنا في روسيا، صحيح أن العبودية شر، ولكنه شر جميل جدا».

في سنة ١٨٥٦ كانت محاولته الثانية من أجل «الإصلاح»، أعلن أنه سوف يعتق أقنانه في مقابل دفع إيجار ثلاثين سنة، وفعل ذلك على نحو متميز دون استشارة أي من معارفه من أصحاب الخبرة في تحرير الأقنان، وحدث أن الأقنان صدقوا الشائعات التي كانت تتردد عن أن الملك الجديد «إلكساندر

الثاني» كان ينوي أن يعتقهم دون شروط. كانوا متوجسين، لم يكتشفوا تباهي الكونت «تولستوي» ولكنهم كانوا يخشون فطنته التجارية (التي لم يكن لها وجود) فرفضوا ما عرضه عليهم فاتهمهم ـ غاضبا ـ بالجهل وبأنهم همج لا أمل فيهم، وكان بالفعل يعبر عن توتر عاطفي بسبب ذلك الموضوع، فكتب خطابا هيستيريا إلى الكونت «ديمتري بلودوف» : «إذا لم يحرر الأقنان في خلال ستة أشهر فنحن مقبلون على مذبحة جماعية»(٣٦).

وبدأ «تولستوي» في إظهار عدائه المخيف لأفراد عائلته الذين كانوا يعتبرون مشروعاته حمقاء وهوجاء، مثل عمته «تاتيانا» : «لقد بدأت أشعر بكراهية صامتة نحو عمتي رغم كل عطفها عليّ». والآن، يتحول إلى التربية كحل وحيد ونهائي لمشكلة الفلاحين ! إنه وهم المثقفين الغريب منذ «روسو» عندما يتصورون أن باستطاعتهم حل الصعاب المزمنة في تربية البشر بخبطة واحدة وبإقامة نظام جديد. بدأ يعلم أطفال الفلاحين بنفسه. كتب إلى الكونتيسة «الكساندرا تولستوي» : «عندما أدخل هذه المدرسة وأرى هذا الجمع من الأطفال المهزولين التعساء بملابسهم البالية وعيونهم التي يشع منها الذكاء وملامحهم الملائكية، تنتابني حالة من الفزع كأني أشاهد قوما مقبلين على الغرق . أنا أريد تعليما للشعب فقط لكي أنقذ أكثر من «پوشكين» ، وأكثر من «ڤيلاريتوف» وأكثر من «أوستروجراد» أراهم يغرقون هنا»(٣٧) .

استمتع «تولستوي» بالتدريس لهم لفترة قصيرة، بعد ذلك أخبر كاتب سيرته الذاتية الرسمي «بـ . أ . بريكوف» أن تلك كانت أفضل فترات حياته : «أنا مدين بأفضل مرحلة في حياتي ليس لحب النساء وإنما لحب الناس، حب الأطفال. كانت مرحلة رائعة»(٣٨) ، ولا نعرف إلى إي مدى كانت جهوده ناجحة. لم تكن هناك قواعد، لم يكن هناك واجب منزلي، وكما كتب : «كان كل المطلوب منهم هو أن يجيئوا، تكفي طبيعتهم المتفتحة وثقة في أن اليوم سيكون جميلا في المدرسة كما كان الأمس» ، بعد ذلك أنشأ شبكة من المدارس التي بلغ عددها في وقت ما سبعين مدرسة. ولكن جهوده الشخصية في التدريس لم تستمر، أصابه الملل وذهب في جولة إلى ألمانيا بزعم الاطلاع على عملية الإصلاح التعليمي هناك، ولكن «يوليوس فروبل» الشهير خذله : وبدلا من الاستماع إلى «تولستوي» كان يتكلم طوال الوقت، وعلى أية حال «لم يكن أكثر من يهودي» .

كان ذلك هو الوضع عندما أصدر «ألسكاندر الثاني» مرسوما إمبراطوريا بتحرير الأقنان فجأة في سنة ١٨٦١ ، وهاجم «تولستوي» المرسوم غاضبا لأنه جاء كعمل من الدولة التي كان قد بدأ يعترض عليها. وفي العام التالي تزوج وأخذت الضيعة أهمية من نوع آخر : كمنزل لأسرته التي كان عددها يتزايد، وكمصدر للدخل إلى جانب الروايات، وكانت تلك أفضل سنوات حياته إنتاجا. سنوات «الحرب والسلام» و«آنا كارينينا». ومع زيادة دخله من الكتب كان «تولستوي» يشتري ويستثمر في الضيعة. وفي وقت ما، كان لديه أربعمائة حصان في المزرعة.

كان هناك خمس مربيات ومعلمات في المنزل إلى جانب ١١ خادما، ولكن الرغبة في «الإصلاح»

لم تتركه، إصلاح الفلاحين ونفسه وأسرته والعالم بأسره ، كانت تهجع تحت السطح الخارجي لعقله توشك أن تنفجر في نشاط بالغ في أي لحظة. الإصلاح السياسي والاجتماعي والرغبة في تأسيس حركة دينية جديدة، كلها كانت أمور مترابطة في ذهن «تولستوي». فمنذ عام ١٨٥٥ كان قد كتب أنه يريد أن ينشيء عقيدة يؤسسها على «ديانة المسيح ولكنها خالية من الجمود واللاعقلانية، لا تعد بجنة مستقبلية وإنما تصنع جنة على الأرض»، وقد كانت تلك هي الفكرة الشائعة والعملة اليومية المتداولة بين عدد لا يحصي من المصلحين الدينيين البسطاء عبر القرون. لم يكن «تولستوي» أبدا لاهوتيا إلى درجة كبيرة. كتب دراستين طويلتين : «اختبار اللاهوت المتعصب» و«وحدة وترجمة الأناجيل الأربعة» ولكنهما لا يساعدان على اعتباره مفكرا منهجيا، كما أن الكثير من كتاباته الدينية لا قيمة كبيرة له إلا من ناحية دعوته إلى وحدة الوجود بطريقة غامضة. بمعنى : «أن تعرف الله وأن تحيا، فذلك شيء واحد. الله هو الحياة. عندما يكون الله مطلبك فلن تجد نفسك دونه» (١٨٧٨ ـ ١٨٧٩).

ولكن المفاهيم الدينية التي كانت تتدافع داخل رأس «تولستوي» كانت تنطوي على خطر لأنها في صلتها بالنزوات السياسية كونت مادة قابلة للاستعال يمكن أن تنفجر دون سابق إنذار. وبانتهائه من كتابة ونشر «آنا كارينا» التي دعمت سمعته أصبح قلقا، غير مكتف بالكتابة ومستعدا للإثارة العامة : شخصية عالمية، رائي، رجل تتطلع إليه أعداد كبيرة من المعجبين والقراء يلتمسون لديه الحكمة والهداية.

وجاء الانفجار الأول في ديسمبر ١٨٨١ عندما كان هو وأسرته في «موسكو»، فذهب إلى سوق «خيتروف» في أحد الأحياء الفقيرة بالمدينة وراح يوزع النقود على المتسولين ويستمع إليهم وهم يحكون عن حياتهم. وعندما تزاحم عليه الناس اضطر للاحتماء بلوكاندة حقيرة مجاورة، حيث رأى المزيد من المشاهد التي ضاعفت من حزنه. وبعد أن عاد إلى المنزل وخلع معطف الفراء جلس ليتناول عشاء مكونا من خمسة أصناف يقدمه له خدم وحشم يرتدون زيا خاصا وقفازات بيضاء وربطات عنق أنيقة، ولكنه بدأ يصرخ : «لايمكن أن يعيش المرء هكذا ... لا يمكن أن يعيش المرء هكذا ...» فأصاب «سونيا» بالرعب وهو يلوح بذراعه مهددا بالتنازل عن جميع ممتلكاتهم .

وعلى الفور، بدأ في وضع نظام للإحسان إلى الفقراء مستخدما تعداد السكان الذي كان قد أجرى مؤخرا كأساس إحصائي. ثم أسرع إلى الريف ليتشاور مع مرشده «ف. ب سوتاييف» الذي كان يسمي بـ «الرائي الفلاحي» بشأن المزيد من الإصلاحات، وترك «سونيا» وحيدة في «موسكو» مع ابنهما الوحيد «ألكس» الذي كان في شهره الرابع .

وهذا التخلي كما كانت تعتبره ، كان سبب كتابتها لخطاب ضرب وترا جديدا من المرارة في علاقتهما، يلخص متاعبها مع «تولستوي» إلى جانب الغضب الذي قد يشعر به معظم الناس العاديين في مجاراتهم لمثقف إنساني عظيم : «صغيري ما زال في صحة سيئة وأنا أشعر نحوه بالعطف والشفقة، ربما تكون أنت و «سوتاييف» لا تحبان أطفالكما، لكننا والبسطاءمن البشر الفانين مثلنا لا نستطيع ولا نود أن

نشوه مشاعرنا أو نبرر عدم حبنا «لشخص» بإعلان بعض الحب أو ما شابه ذلك «لكل العالم»(٣٩). كانت «سونيا» تثير سؤالا نتيجة ملاحظتها لسلوك «تولستوي» على مدى سنوات طويلة، وليس فقط بالنسبة لأفراد أسرته : إذا ما كان فعلا قد أحب أي كائن حي كفرد؛ مقابل حبه للإنسانية كفكرة.

كان شقيقه البائس «ديمتري» مثلا يستحق الشفقة بكل تأكيد : لقد تردى في البؤس، وتزوج من مومس، ومات صغيرا بالسل في ١٨٥٦ ، كل ما استطاع أن يفعله «تولستوى» هو أن يقتطع من وقته ساعة ليقضيها بجوار فراشه وهو يحتضر، ورفض تماما أن يحضر الجنازة ـ فضل أن يذهب إلى إحدى الحفلات ـ رغم أنه استخدم الحدثين ـ فراش الموت ورفض حضور الجنازة ـ فيما بعد في أعماله الروائية.

شقيقه الآخر «نيكولاي» والذي كان يموت بالسل أيضا، كان يستحق العطف، ولكن «تولستوي» رفض أن يزوره فجاء هو لكي يموت بين يديه. لم يفعل شيئا يذكر لكي يساعد شقيقه الثالث «سيرجي» عندما فقد كل ثروته في القمار. كانوا كلهم كائنات ضعيفة ولكن أحد مباديء «تولستوي» كان أن : «القوي يجب أن يهرع لمساعدة الضعيف» !!

سِجِلُ علاقاته بالأصدقاء يكشف عن الكثير. حالة واحدة فقط هي التي لم يكن فيها أنانيا ولا خنوعا، مع «ميتيا دياكوف» زميل الدراسة في جامعة «كازان» وكان أكبر منه سنا. ولكن ذلك أيضا تلاشي كقاعدة. كان «تولستوي» يأخذ وأصدقاؤه يعطون. كتبت «سونيا» عندما كانت تنقل يومياته الباكرة :

«إعجابه بنفسه يظهر في كل منهم، من المدهش أن الناس كانوا موجودين بالنسبة له فقط بقدر تأثيرهم عليه شخصيا»(٤١). والأكثر مدعاة للدهشة هو استعداد الذين كانوا يعرفونه ـ وليس المعوزين والطفيليين والمنافقين فقط بل وشخصيات مستقلة ـ أن يتحملوا أنانيته ويوقروه رغم كل ذلك. كانوا يجبنون أمام عينيه المرعبتين. وينحنون أمام إرادته الطاغية .. وبالطبع يتعبدون في محراب عبقريته.

«أنطون تشيكوف» وهو الإنسان الرقيق شديد الحساسية، والذي كان على علم بكثير من عيوب «تولستوي» كتب : «أخشي موت «تولستوي»، لو مات لحدث فراغ كبير في حياتي .. لم أحب شخصا كما أحببته، طالما هناك «تولستوي» في الأدب فمن السهل عليَّ ومن اللائق أن أكون كاتبا، لن يكون حتى مخيفا أن يدرك المرء منا أنه لم يفعل شيئا ولن يفعل شيئا طالما أن «تولستوي» سوف يفعل ما يكفي بالنسبة للجميع».

«تورجنيف» كان لديه أسباب أخرى كثيرة ليعرف أنانية «تولستوي» وقسوته حيث خبرهما عن كثب. كان كريما وذكيا في مساعدته للكاتب الناشيء، وفي المقابل لم يكن نصيبه سوى البرود والجحود وعادة «تولستوي» البشعة في إهانة واحتقار الأفكار التي كان يعرف أن أصدقاءه ينشدونها، وكان غالبا ما يفعل ذلك بذكاء.

«تورجنيف» كان عملاقا، رقيق القلب، معتدلا. وكان بمقدوره أن يتعامل مع «تولستوي» بنفس العملة، ولكنه اعترف بنفسه ساخطا على سلوك «تولستوي». إنه لم يعرف من قبل «شيئا أكثر فظاعة من تلك النظرة الخارقة المصحوبة بملاحظات حاقدة والتي يمكن أن تدفع المرء إلى الجنون»(٤٢) أعطاه «تورجنيف» روايته «آباء وأبناء» التي أجهد نفسه فيها لكي يقرأها، نام عليها ووجده «تورجنيف يشخر»، وبينما اعتذر «تورجنيف» برقة بعد الشجار بسبب ابنته والتهديد بمبارزة، كشر «تولستوي» عن أنيابه «حسب رواية سونيا» : «أنت خائف مني، أنا أحتقرك ولا أريد أن أتعامل معك بعد الآن»، كما قال بعد ذلك للشاعر «فت» الذي كان يحاول أن يصلح بينهما : «إن «تورجنيف» نذل ويستحق الجلد، أرجو أن تنقل إليه ذلك حرفيا، كما تنقل إليّ تعليقاته الجميلة»(٤٣)، كما سجل «تولستوي» أشياء كثيرة سيئة ـ وغير صحيحة غالبا ـ عن «تورجنيف» في يومياته، وكذلك تعكس مراسلاتهما اختلافا بيِّنا بينهما في درجة الصداقة. عندما شعر «تورجنيف» بدنو أجله كتب آخر رسائله إلى «تولستوي» في ١٨٨٣ : «صديقي، كاتب الأرض الروسية العظيم، استمع إلى ندائي، دعني أعرف أنك قد تسلمت هذه الكتابة المتعجلة واسمح لي أن أعانقك مرة أخرى .. وبقوة، أنت وزوجتك وكل أسرتك. لا أستطيع أن أواصل .. أنا متعب ..»، ورغم أن «تورجنيف» ظل على قيد الحياة بعد ذلك لمدة شهرين، إلا أن «تولستوي» لم يرد على ذلك الرجاء الحزين. ولذلك لا يتعاطف المرء مع رد فعل «تولستوي» عندما تلقي خبر وفاة «تورجنيف» : «أنا أفكر في «تورجنيف» باستمرار وأحبه كثيرا وأرثي له وأقرأ له وأعيش معه»، كانت كلمات تحمل رنة ممثل يؤدي الدور العام المتوقع منه. وكما كتبت «سونيا» فإن «تولستوي» : لم يكن قادرا على الخصوصية والحميمية الضرورية للحب المتبادل أو الصداقة الحقيقية. بدلا من ذلك كان يعانق الإنسانية لأن ذلك يمكن أن يتم بصوت عال وبطريقة درامية مثيرة على المسرح العام.

ولكن . إذا كان ممثلا فإنه كان من الممثلين لذين يغيرون دورهم باستمرار، أو يقوم بالتنويع على الموضوع الرئيسي الكبير ... خدمة البشرية.

كان أقوي دوافعه هو إلقاء المواعظ على الآخرين، وبمجرد أن يجد موضوعا جذابا يريد أن يكتب كتابا عنه أو يبدأ سلسلة من الإصلاحات الثورية، وعادة كان لا يحاول أن يتقن ذلك الدور أو يستشير العارفين به. في خلال شهور قليلة من ممارسته للزراعة بدأ في تصميم وصناعة الآلات الزراعية. تعلم العزف على البيانو وعلى الفور بدأ يكتب «أسس الموسيقى وقواعد دراستها»، بمجرد أن فتح مدرسة راح يقلب النظرية التربوية رأسا على عقب. كان يعتقد طوال حياته أنه يستطيع أن يتقن أي شيء، أن يعرف عيوبه، ثم يشرع في كتابة قواعده وأسسه. وكانت له على الأقل ثلاث محاولات في الإصلاح التربوي كما فعل بالنسبة للإصلاح الزراعي، في آخرها كان يكتب الكتب المدرسية بنفسه والتي كان على «سونيا» ـ مضطرة ـ أن تنسخها وهي مشمئزة شاكية : «أحتقر كتاب القراءة هذا، وكتاب الحساب والقواعد، ولا أستطيع أن أتظاهر بأنها ممتعة بالنسبة لي»(٤٤).

كان حرص «تولستوي» على أن يعمل بنفس درجة حرصه على أن يقوم بالتدريس، ومثل جميع المثقفين جاء وقت في حياته كان يشعر فيه بالحاجة إلى أن يتماثل مع «العمال» أو أن يقترب منهم . ظهرت تلك الرغبة على مراحل متقطعة في ستينيات وسبعينيات القرن (التاسع عشر) ثم بدأت في وضوح في سنة ١٨٨٤ ، تخلى عن لقبه (وليس عن أسلوبه السلطوي ـ وأصر على أن يدعي باسمه المجرد «ليونيكولايفتش» ، وقد تصادفت هذه الحالة مع واحدة من اللمحات الخاصة بالملبس والتي يحبها المثقفون : ارتداء لباس الفلاحين، وقد تلاءم ذلك مع حب «تولستوي» للدراما، كما لاءمه من الناحية الجسمية حيث كانت له بنية وملامح فلاح. حذاؤه، ثوبه، الفضفاض، لحيته، غطاء الرأس . أصبح ذلك هو زي «تولستوي» الجديد ..رائي العالم. كان ذلك جزءا بارزا من تلك الموهبة الغريزية في العلاقات العامة التي يبدو أن معظم المثقفين العلمانيين يمتلكونها. كان الصحفيون يقطعون آلاف الأميال للقائه، كان التصوير قد أصبح شائعا، أما الشرائط الإخبارية فكانت في بدايتها وهو في سنه المتقدمة. كان لباسه الفلاحي يناسب تماما ظهوره كأول نبي إعلامي !

كان يتم تصويره أيضا وهو يقوم بأعمال يدوية راح يعلن منذ الثمانينيات أنها «ضرورة ملحة». كتبت «سونيا» (١ نوفمبر ١٨٨٥) : «يستيقظ في السابعة والجو ظلام، يضخ الماء لكل المنزل ويسحبه بمشقة في وعاء كبير على زلاقة. ينشر كتل الخشب الطويلة ويقطعها من أجل الوقود، لا يأكل الخبز الأبيض ولا يخرج إلى أي مكان»(٤٥) .

أما يومياته فتقول لنا أنه كان يقوم بتنظيف المنزل مع أطفاله : «كنت خجلا أن أقوم بما يجب القيام به .. أن أفرغ مبولة غرفة النوم» ، ثم بعد أيام قليلة استطاع أن يتغلب على اشمئزازه وفعلها. تعلم من صانع أحذية في كوخه وكتب عنه : «إنه مثل الضوء والخلق الرائع .. يجلس في ركنه القذر المظلم» ، وبعد ذلك التدريب السريع على حرفة صعبة بدأ «تولستوي» يصنع أحذية للأسرة وأحذية ذات رقبة لنفسه، كما صنع زوجا للشاعر «فت» ، لا نعرف إن كانت قد أعجبته أم لا ، ولكننا نعرف أن أبناءه قد رفضوا الأحذية التي صنعها لهم. كان يقول مبتهجا وهو يدق بالمطرقة : «إن ذلك يعطيني الإحساس بأنني أصبحت عاملا .. حيث تزهر الروح» ، ولكن سرعان ما فترت الرغبة في صنع ورتق الأحذية واتجه إلى العمل الزراعي : كان ينقل السماد على عربة بعجلتين ويجر كتل الخشب الكبيرة ويحرث الأرض ويساعد في بناء الأكواخ. أحب النجارة والتقطت له الصور وهو يمارسها، ويعلق مثقابا في حزامه الجلدي العريض ويتدلى من خصره منشار .. ثم بسرعة انتهت تلك المرحلة أيضا كما بدأت.

لم يكن «تولستوي» رجل الوقفات الطويلة عند أي نشاط باستثناء الكتابة . حرفته الحقيقية. كان يعوزه الصبروالمثابرة والصمود أمام العقبات. حتى تربية الخيول التي كان يعرف عنها بعض الشيء كان يمارسها بطريقة سيئة، حيث فقد اهتمامه بالمزرعة بسرعة، وكان لـ«سونيا» شجار غاضب معه بسبب هذا الموضوع في ١٨ يونيو ١٨٨٤ ، قالت إن الخيول كانت في حالة بالغة السوء : كان قد اشترى بعض

الإناث من سلالة جيدة من «ساماريا» ثم تركها لتموت من الإهمال والإرهاق في العمل. وكان نفس الشيء يحدث في كل ما يقوم به .. حتى في الأعمال الخيرية : لا توجد خطة جيدة، لا اتساق، لا أحد من المدربين الذين يمكن أن توكل إليهم أعمال محددة. الفلسفة برمتها كانت تتغير من دقيقة لأخرى. خرج «تولستوي» من الغرفة مندفعا صائحا أنه سوف يهاجر إلى أمريكا. التشوش الذي خلقه في الضيعة لم يؤذ سوي دائرته الشخصية. أعماله العامة ومواعظه العلنية كان ضررهما أوسع وأكبر، وبالتأكيد لم تكن كلها سيئة التوجه. بدءا من سنة ١٨٦٥ بذل «تولستوي» جهودا قيمة وناجحة إلى حد ما في جذب الاهتمام إلى المجاعات التي كانت تحدث من وقت لآخر في بعض أرجاء روسيا، وقد حققت مشروعاته للإغاثة بعض الخير، خاصة في مجاعة ١٨٩٠ الكبري والتي كانت الحكومة تحاول أن تخفي حجمها. كان يهب أحيانا لنجدة وإنقاذ بعض الأقليات المضطهدة في روسيا : أعلن عن أخطاء «الدوخوبرز» ـ النباتيين المسالمين ـ وكانت الحكومة تريد أن تطوقهم وتقضي عليهم، واستطاع أن يحصل لهم على تصريح بالهجرة إلى كندا، ولكنه من ناحية أخرى كان فظا بالنسبة لمجموعة أخرى من المضطهدين «اليهود» وقد أضافت آراؤه إلى مشكلاتهم. أما الأكثر خطورة من ذلك فهو نظرته السلطوية واعتقاده بأن لديه ـ فقط ـ الحل لبؤس العالم وتعاسته. وكذلك رفضه المشاركة في أي جهود للإنقاذ أو الإغاثة لم يخطط لها هو أو يشرف عليها شخصيا. كانت أنانيته تطغى على كل شيء .. حتى إحسانه ! في مراحل مختلفة من حياته كانت آراؤه بخصوص كثير من المشكلات (السياسية، الإصلاح الزراعي، الاستعمار، النظام الملكي، الدولة، الملكية، .. إلخ) تتغير جذريا وقائمة تناقضاته لا نهاية لها. ولكنه كان متسقا مع نفسه في أمر واحد: رفض أن يشارك شخصيا في أي جهد منظم من أجل الإصلاح في روسيا ـ أن يتناول المشكلات من جذورها ـ كما شجب بعنف شديد مبدأ «التحسين» الليبرالي واعتبره وهما، بل شرا مستطيرا. كان يكره الديمقراطية، ويحتقر البرلمانات. نواب «الدوما» كانوا في رأيه «أطفالا يلعبون لعبة أنهم كبار»(٤٦) . كان يقول أن روسيا دون برلمانات أكثر حرية من انجلترا بكل برلماناتها ، وأن الأشياء المهمة في الحياة لم تأت نتيجة للإصلاح البرلماني. كانت لديه كراهية خاصة للتقاليد الروسية الليبرالية، وفي «الحرب والسلام» يُشهِّر بأول دعاة الإصلاح الكونت «سبيرانسكي».

جعل الأمير «أندرو» يقول عن مجلس الدولة الجديد الذي أنشأه «سبيرانسكي» : «ماذا يعني ذلك بالنسبة لي ؟، هل يمكن أن يجعلني هذا أحسن أو أفضل» ؟ إنها حقيقة ذات مغزى كئيب في تاريخ روسيا أن يدير كاتبها الأعظم وجها مثل الصوان لأي إصلاح منظم للنظام القيصري لمدة نصف قرن ويبذل كل جهده لاعتراض سبيل من يحاولون تطويره والسخرية منهم.

ولكن ماذا كان البديل عند «تولستوي» ؟ إن كلامه كان يمكن أن يكون معقولا لو أنه قال كما قال «ديكنز» و «كونراد» وغيرهما من الروائيين الكبار أن التحسينات في البنية كانت ذات قيمة محدودة وأن المطلوب كان التغيير في قلوب البشر. ولكن «تولستوي» بينما كان يؤكد الحاجة إلى الإصلاح الأخلاقي الفردي، لم يترك الأمور لتستقر هناك : كان يلمح باستمرار إلى الحاجة العاجلة لهزة أخلاقية تقلب العالم

رأسا على عقب وتؤسس مملكة سماوية، وكانت تحمل السمات المسرحية للتغيير المفاجيء والذي كان الأصل الشعري لنظرية «ماركس» عن الثورة كما رأينا.

بالإضافة إلى ذلك فإن فهم «تولستوي» للتاريخ كان معيبا. فهو مثل «ماركس» لم يعرف من التاريخ سوي القليل ولم تكن لديه فكرة عن كيفية وقوع الأحداث الكبرى. وكما قال «تورجنيف» فإن المحاضرات التاريخية المملة التي حشرها في «الحرب والسلام» كانت تحمل بصمات الواعظ الذاتي وكانت «مضحكة» ومحض «خداع».

«فلوبير» أيضا كتب إلى تورجنيف» وهو مستاء من أن «تولستوي» كان «يتفلسف»(٤٧)، أما نحن فنقرأ تلك الرواية العظيمة بالرغم من نظريتها عن التاريخ وليس بسببها. كان «تولستوي» حتميا، وضد الفردانية. وفكرة أن الأحداث تشكلها قرارات مدروسة من رجال أقوياء كانت بالنسبة له محض وهم، وهؤلاء الذين يبدو أنهم مسؤولون لا يعرفون شيئا عما يحدث، ناهيك عن جعله يحدث .

أما النشاط اللاشعوري فقط فهو المهم. التاريخ نتاج ملايين القرارات من قبل رجال مجهولين لا يرون ما يصنعون. وهذا على نحو ما، مفهوم «ماركس» رغم أنه يصل إليه عن طريق آخر. أما الذي وضع «تولستوي» على هذا الخط الفكري فغير واضح أو معروف. ربما كان فهمه الرومانسي للفلاح الروسي كحكم أو كقوة نهائية. كان يعتقد أن هناك قوانين خفية تحكم حياتنا في جميع الأحوال، قوانين مجهولة وربما غير قابلة لأن تعرف، وبدلا من مواجهة هذه الحقيقة غير المناسبة، ندعي أن التاريخ يصنعه بعض الأفراد والأبطال من خلال ممارسة إرادتهم الحرة . في أعماقه كان «تولستوي» مثل «ماركس» غنوصيا★، يرفض التفسير الواضح لحدوث الأشياء ويبحث عن معرفة الميكانيزم السري الكامن تحت السطح.

هذه المعرفة كان يتم إدراكها جماعيا وحدسيا بواسطة مجموعات مشتركة ـ بروليتاريا «ماركس» وفلاحو «تولستوي». وكانوا بالطبع في حاجة إلى مفسرين (مثل ماركس) أو أنبياء (مثل تولستوي) ولكن الأساس كان قوتهم الجماعية وشرعيتهم التي تحرك عجلة التاريخ .

ولكي يثبت نظريته عن كيفية عمل التاريخ قام «تولستوي» بتشويه السجل في «الحرب والسلام» كما تلاعب «ماركس» بـ «الكتاب الأزرق» ولوى مقتطفاته في «رأس المال»(٤٨). أعاد صياغة حروب «نابوليون» واستغلها تماما كما عذب «ماركس» الثورة الصناعية لكي تخضع لمفهومه للحتمية التاريخية. ولذلك ليس غريبا أن نجد «تولستوي» يتحرك نحو حل جمعي للمشكلة الاجتماعية في روسيا. منذ ١٣ أغسطس ١٨٦٥ كتب في يومياته وكانت المجاعة في ذهنه : «إن الواجب الوطني العام لروسيا هو أن تقدم للعالم فكرة بناء اجتماعي دون ملكية أراضي حيث أن الملكية والسرقة سوف يظلان هناك طالما وجدت الأسرة الإنسانية، ... الثورة الروسية يمكن أن تتأسس على ذلك فقط»(٤٩).

★ الغنوسطيه : مذهب العرفان : مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا بأن المادة شر وبأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية .

بعد ثلاث و أربعين سنة أخرى رأى تلك المفكرة مصادفة ودهش لقوة بصيرته، ولكن «تولستوي» حينذاك كان قد عقد صلات مع الماركسيين وأوائل اللينينيين مثل «إس.آي.مونتيا نوف» الذي كان يراسله من منفاه في «سيبيريا»، رافضا دعوة «تولستوي» لنبذ العنف : «من الصعب ياليونيكولايفتش أن تعيد تشكيلي. هذه الاشتراكية هي ديني وإلهي وأنت تقول نفس الشيء تقريبا، ولكنك تستخدم تكتيك «الحب» بينما نستخدم نحن تكتيك «العنف» كما تقول». الجدل إذن حول التكتيك وليس الاستراتيجية، حول الوسائل وليس الغايات. أما إذا كان «تولستوي» يتحدث عن «الله» وكان يقول أنه «مسيحي» فذلك لا يشكل فرقا كبيرا في اعتقادنا. لقد عزلته الكنيسة الأرثوذكسية في فبراير ١٩٠١ ولم يكن ذلك غريبا، لا لأنه أنكر ألوهية المسيح فقط، بل لأنه كان يؤكد أن اعتباره إلها أو الصلاة له بمثابة «التجديف الأكبر». والحقيقة أن «تولستوي» كان يختار من العهدين القديم والجديد ومن تعاليم المسيح والكنيسة ما يتفق معه ويرفض الباقي. لم يكن مسيحيا بأي معني من المعاني. ومن الصعب أن نقول أنه كان مؤمنا بـ «الله» حيث أن تعريفه لـ«الله» كان مختلفا في أوقات مختلفة. في صميم قلبه كان «الله» هو ما يريده أن يحدث ... «الإصلاح الشامل».

وهذا مفهوم علماني وليس مفهوما دينيا. أما بالنسبة لـ«الله» التقليدي، الأب، فكان في أفضل الأحوال ليس أكثر من ندٍ له، قابل للمراجعة والنقد ... دب آخر في نفس العرين (٥٠).

في سن متأخرة انقلب «تولستوي» ضد الوطنية والاستعمار والحرب والعنف بكل أشكاله، وهذا وحده كان كفيلا بمنع أي تحالف مع الماركسيين. كما شعر بأنهم إذا وصلوا إلى السلطة بالفعل فلن يتخلوا عن «الدولة» كما كانوا يقولون.

كتب في سنة ١٨٩٨ : لو حلت العقيدة الماركسية بالفعل «فإن الشيء الوحيد الذي سيحدث هو انتقال الاستبداد.الآن الرأسماليون يحكمون. حينذاك مدراء العمل هم الذين سيحكمون»(٥١). ولكن ذلك لم يكن يقلقه كثيرا، كان يفترض دائما أن انتقال الملكية إلى الجماهير سوف يتم في ظل نظام سلطوي ما، ويمكن أن يكون النظام القيصري. ولكنه على أية حال لم يكن يعتبر أن الماركسيين هم العدو. كان العدو الحقيقي «الديمقراطيون من النمط الغربي»، ليبراليو البرلمانات. كانوا يفسدون العالم كله من خلال نشر أفكارهم. في كتاباته المتأخرة «رسالة إلى الصينيين» و«مغزى الثورة الروسية» ـ كلاهما في ١٩٠٦ ـ ينسب نفسه وروسيا إلى الشرق. كتب : «كل ما تستطيع الشعوب الغربية أن تفعله ويجب أن يكون نموذجا لما يجب أن تفعله شعوب الشرق، لابد أن يكون بالأحرى نموذجا لما يجب تجنبه تحت أي ظرف. إن السير في طريق الأمم الغربية هو السير في طريق الدمار». أعظم خطر بالنسبة للعالم كان «النظام الديمقراطي» في بريطانيا والولايات المتحدة، المرتبط دون انفصام بقداسة الدولة والعنف المؤسسي الذي تمارسه، وعلى روسيا أن تدير وجهها عن الغرب، تتخلي عن الصناعة، تلغي الدولة وتتبنى عدم المقاومة.

وهذه الأفكار تبدو لنا شاذة وغريبة على ضوء الأحداث التي توالت، كما تبدو متناقضة مع ما كان

يحدث بالفعل في روسيا في وقتها. في سنة ١٩٠٦ كانت روسيا تقوم بتصنيع نفسها وبمعدل أسرع مما كانت تقوم به أي دولة في العالم، مستخدمة نمطا من رأسمالية الدولة ليصبح حجر السلم نحو دولة «ستالين» الشمولية. ولكن «تولستوي» في تلك المرحلة من حياته كان قد فقد الصلة والاهتمام بعالم الواقع. كان قد صنع عالما خاصا به في «ياسنايا پوليانا» يعيش فيه ويحكمه إلى حد ما.

أدرك أن سلطة الدولة مفسدة، ولذلك انقلب علي الدولة، ولكن الذي فشل في أن يدركه رغم وضوحه ـ وكان واضحا بالنسبة لـ «سونيا» مثلا ـ هو أن فساد السلطة يأخذ أشكالا متعددة. أحدها يمكن أن يمارسه رجل عظيم، رائي، نبي، على تابعيه وهو أيضا يفسده تملقهم وخنوعهم ونفاقهم.

حتى في منتصف الثمانينيات ـ من القرن التاسع عشر ـ كانت «ياسنايا پوليانا» قد أصبحت أشبه بالمزار أو المقام يهرع إليه الناس والمريدون من كل فج عميق التماسا للمساعدة والهداية وإعادة الطمأنينة والتماس الحكمة المعجزة أو للبوح بأمور خاصة ـ قوافل من النباتيين ومؤيدي الرضاعة الطبيعية و«هنري جورج» ورهبان ورجال دين وبوذيون ولاما ومعارضو العنف ومهاويس ومجانين ومرضى بأمراض مستعصية. وإلى جانب كل هؤلاء كانت هناك دائرة «كهنة ومريدي» وتلاميذ «تولستوي» والتي كانت تتغير باستمرار. وكلهم على نحو أو آخر كانوا يعتبرونه زعيمهم الروحي الذي يجمع بين البابا والبطريرك والمسيح.

ومثل كل الذين كانوا يحجون إلى مقبرة «روسو» في ثمانينيات القرن الثامن عشر، كان زوار «تولستوي» يتركون كتابات محفورة وخربشات على جدران المنزل الصيفي في حديقة «ياسنايا پوليانا» على شاكلة: «تسقط عقوبة الإعدام»، «ياعمال العالم اتحدوا وقدموا البيعة للعبقري»، «فلتمتد حياة ليونيكولايڤتش سنوات أخرى عديدة»، «الواقعيون في «تولا» يحيون الكونت تولستوي» .. هكذا.

وهذا الاحتفاء بـ «تولستوي» في أواخر العمر أصبح تقليدا يتكرر ـ كما سنرى ـ بين كبار المثقفين الذين يستمتعون بالشهرة العالمية: لقد شكل نوعا من الحكومة الوهمية، تتناول «مشاكل» من مختلف أنحاء العالم وتقدم الحلول، تراسل الملوك والرؤساء، تقدم احتجاجات، تنشر بيانات، توقع على أشياء، تقدم اسمه لدعم قضايا مقدسة أو دنسة، جيدة أو رديئة، ومنذ تسعينيات القرن (التاسع عشر) فإن «تولستوي» كحاكم لهذا النظام الفوضوي كان لديه حتى رئيس وزراء في شخص ضابط ثري سابق هو «ڤلاديمير جريجور يڤتش تشيرتكوف» (١٨٥٤ ـ ١٩٣٦) والذي استطاع بالتدريج أن يضع نفسه في موقع مسيطر في البلاط، ويظهر في الصور الملتقطة لـ «السيد»: فم رقيق، عينان لوزيتان تحتهما تجاعيد، لحية قصيرة وعليه سيماء الإخلاص والصلاح الأخلاقي. وبسرعة، بدأ يمارس نفوذا متزايدا على تصرفات «تولستوي»، ويذَكِّر الرجل المسن بنبوءاته وعهوده ويدفع به دائما في اتجاهات أكثر تطرفا، وبالطبع كان قد استطاع أن يجعل من نفسه زعيما لجوقة المنافقين، ولكن «تولستوي» كان يستمع إلى صوته بكل رضا.

كان الزائرون وأعضاء الدائرة الداخلية يدونون «آراء تولستوي» التي لا تترك انطباعا كبيرا، فهي تذكر

بأقوال «نابوليون» في المنفي أو أحاديث «هتلر» على المائدة. أقوال هي تعميمات غريبة وحقائق بدهية وعبارات متحاملة أو تافهة...

«كلما امتد بي العمر زاد اقتناعي بأن الحب هو أهم شيء»،

«يجب أن تتجاهلوا الأدب المكتوب في الستين سنة الأخيرة، إنه فوضى. اقرءوا أي شيء كتب قبل ذلك»،

«الواحد الذي بداخل كل منا هو الذي يقربنا من بعضنا البعض»،

«كما تتلاقي جميع الخطوط عند المركز، كلنا نلتقي في ذلك الواحد»،

«أول شيء يستوقفك عن استخدام تلك الطائرات هو أن ضرائب جديدة سوف تفرض على الناس وهذا دليل على أنه في مرحلة أخلاقية معينة من المجتمع لا يمكن أن يكون أي تقدم مادي مفيدا، بل لابد أن يكون ضارا».

ويقول عن التطعيم ضد الجدري: «لا داعي للهروب من المرض فأنت ميت ميت»، «لو أخذ الفلاحون الأرض لاختفت أحواض الزهور البلهاء»، «سوف يصبح العالم أفضل كثيرا لو أن النساء أقل ثرثرة»، «في شانغهاي تسير الحياة على نحو هادىء دون الشرطة»، «الأطفال ليسوا في حاجة إلى تربية من أي نوع، أنا مقتنع بأنه كلما زاد تعليم الرجل أصبح أكثر غباء»، «الفرنسيون شعب عاطفي جدا»، «دون الدين سيكون هناك دائما: فسوق وتباه أحمق وفودكا». «هكذا يجب أن يعيش المرء، يعمل من أجل الهدف العام، إنها نفس طريقة حياة الطيور وأوراق العشب». «كلما ازداد الأمر سوءا أصبح أفضل»، وفي وسط بلاط هذا النبي، كانت أسرة «تولستوي» في فخ! وحيث أن الوالد كان قد قرر أن يعيش حياته علنا، فقد احترقوا هم أيضا بلهيب الشهرة. كانوا مضطرين لأن يشاركوا في الدراما التي صنعها وتحملوا آثارها. لقد اقتبسنا سابقا كلمات ابنه «إيليا» عن مخاطر أن يصبحوا بشرا من نوع «خاص». «أندريه» ابن آخر، كان يعاني من نوبات عصبية، هجر زوجته وانضم إلى «المائة السود المعادون للسامية»، البنات شعروا بشدة كراهية والدهم المتزايدة للجنس. مثل «ماركس» لم يكن راضيا عنهن وكان يكره الذين اختاروهن للزواج. في سنة ١٨٩٧ وقعت ابنته «تانيا» في حب أرمل كان لديه ستة أطفال وكانت هي في الثالثة والثلاثين، كان الرجل إنسانا لطيفا ولكن لأنه «ليبرالي» ثارت ثائرة «تولستوي»، فأعطى ابنته محاضرة عن شرور الزواج يقف لها شعر الرأس. ابنته الأخرى «ماشا» أحبت أيضا وأرادت أن تتزوج ولقيت نفس المصير. ابنته الصغري «ألسكاندرا» كانت الأقرب لكي تكون من تلاميذه، والسبب هو أن علاقتها كانت سيئة بأمها. أما «سونيا» فكان عليها أن تتحمل العبء الأكبر نتيجة تغيرات «تولستوي» الأخلاقية. على مدي ربع قرن كان يفرض عليها مطالبه الجنسية، عرّضها لمرات حمل عديدة ومتلاحقة، فجأة صمم على أن ينبذا الجنس معا ويعيشا «كأخ وأخت». اعترضت على ذلك وكانت تراه إهانة لوضعها كزوجة، خاصة

أنه كان يميل إلى الحديث والكتابة عن ذلك، فلم يكن قادرا على احترام الخصوصية. لم تكن تريد أن تكون غرفة نومها موضوعا للكلام والكتابة. طلب أن يناما في غرفتين مستقلتين. صممت هي على سرير مشترك كرمز على استمرار الزواج. في الوقت نفسه كان يبدي غيرته دونما سبب. كتب قصة خبيثة بعنوان «سوناتا كرويتزر» عن مقتل زوجة على يد زوجها شديد الغيرة بسبب علاقتها بعازف كمان. كانت تقوم بنسخها (كما كانت تفعل مع كل أعماله الأخرى) وهي في حالة شديدة من الاستياء والانزعاج، مدركة أن الناس سيظنون أنها قد كتبت عنها، أوقفت الرقابة نشرها ولكن القصة انتشرت مخطوطة، وكذلك انتشرت الشائعات. بعد ذلك كانت «سونيا» هي التي تطلب من الرقابة السماح بنشرها معتقدة أن ذلك من شأنه إقناع الناس بأنها لم تكن موضوع القصة.

مع هذا الخلاف شبه العلني كانت هناك دائما مشاجرات أخرى شنيعة خلف الستار بسبب عدم قدرة «تولستوي» على الالتزام بعهده، وهجومه الجنسي على زوجته من وقت لآخر. سجل في يومياته في أواخر ١٨٨٨ : «داهمني الشيطان، في اليوم التالي، صباح يوم الاثنين، نمت نوما سيئا .. كان شيئا منفرا .. شعور ما بعد الجريمة ..»، ويسجل بعد أيام قليلة : «مازال الشيطان يتلبسني بقوة ... سقطت»، وفي سنة ١٨٩٨ أخبر «إيلمر مود» : «كنت أنا نفسي زوجا في الليلة الماضية، ولكن ذلك ليس سببا للتخلي عن الكفاح، فليساعدني الله لألا أكون كذلك مرة أخرى»(٥٣). ولأن «تولستوي» كان يمكن أن يناقش حياته الزوجية الجنسية مع أي شخص غريب، كانت «سونيا» تشعر بأن أدق أسرارها معروضة أمام أنظار العالم، وخلال هذه السنوات من التوتر المتصاعد أصبحت حماقة «تولستوي» بسياسته فى المصارحة أكثر وضوحا.

في البداية لم تكن «سونيا» تحب أن تقرأ يومياته ـ وأي إنسان عادي أو عاقل لن يحب ذلك ـ ولكنها أصبحت معتادة على قراءتها. ولأن خطه كان رديئا جدا كانت هي التي تنسخها بخط واضح، سواء اليوميات القديمة أو تلك التي كان يكتبها آنذاك. ولكنها عادة عند المثقفين الذين يكتبون كل شيء وعيونهم على النشر في المستقبل أن يستخدموا يومياتهم كوسائل للتبرير وأدوات للدعاية وأسلحة هجومية ودفاعية ضد نقاد محتملين ... حتى من يحبونهم.

وكان «تولستوي» مثالا جيدا على ذلك. ولذلك عندما انهارت علاقته بـ «سونيا» وأصبح شديد النقد لها في يومياته، أصبح أقل رغبة في أن تطلع عليها، وهكذا بدأت تلاحظ ذلك منذ سنة ١٨٩٠ وتسجل هي في يومياتها :

«بدأ يقلقه أن أنسخ له يومياته .. يتمنى أن يدمر يومياته القديمة ليظهر أمام أطفاله وأمام العالم في ثيابه البطريركية. إن غروره لشديد»(٥٤)، وسرعان ما بدأ يخفي يومياته الجديدة. وهكذا انهارت سياسة المصارحة (الجلاسناست) وحل محلها مكر واحتيال من الجانبين، وبدأ يستخدم يومياته ـ منفردا كما كان يظن ـ ليسجل مثلا خلافاته معها من خلال «سوناتا كرويتزر».

كتبت «سونيا» : «ليوفا قطعت علاقتها بي، ... قرأتُ يومياته سرا .. حاولتُ أن أرى ما يمكن القيام به في حياتنا ويمكن أن يوحدنا مرة أخرى ولكن يومياته تعمق إحساسي باليأس. ويبدو أنه اكتشف أنني أقرؤها لأنه أخفاها».

وتكتب مرة أخرى : «كان في الماضي يعطيني ما يكتبه لكي أنسخه ولكنه أصبح يعطيه لبناته (لا تقول بناتنا) ويخفيه عني جيدا، أسلوبه المستمر لإبعادي عن حياته الشخصية يصيبني بالجنون. أمر مؤلم وفوق الاحتمال». وفي فصل أخير عن محاولاته التخلي عن سياسة المصارحة بدأ يحتفظ بيوميات «سرية» كان يخفيها في حذاء ركوب الخيل. وعندما لم تجد شيئا في يومياته العادية بدأت تشك في وجود أخرى. بحثت عنها وأخيرا وجدتها .. وحملتها وهي تشعر بالانتصار لكي تقرأها في السر. بعد ذلك لصقت عليها قصاصة من الورق فيها : «نسخت هذه اليوميات المؤسفة لزوجي بقلب موجوع، كثير مما قاله عني .. وحتى عن زواجه غير منصف وقاسي ومشوه وكاذب ومختلق وليسامحني الله و«ليفوشكا» . في خلفية هذه المعركة الكابوسية لليوميات كانت قناعة «تولستوي» المتزايدة بأن زوجته تعوق تحققه الروحي بإصرارها على نمط حياة «عادية» ، أصبح يجده مقيتا من الناحية الأخلاقية.

لم تكن «سونيا» مادية فظة كما كان يتصور. ولم تنكر الصدق الروحي في كثير مما كان ينادي به، وكما كتبت إليه : «مع الجموع أري ضوء المصباح، أعرف أنه النور» ، ولكني لا أستطيع أن أمضي بسرعة أكبر، الجموع والتقاليد وما يحيط بي .. كل ذلك يمسك بي ويمنعني من التقدم .».

ولكن «تولستوي» عندما تقدم به العمر، أصبح أقل صبرا وأكثر نفورا من ترف الحياة الذي عاشه مع «سونيا» .

كتب : «نجلس في الخارج ونتناول عشرة أصناف من الطعام .. آيس كريم .... خدم وحشم ... آنية من الفضة .... وأمامنا يمر الشحاذون» ، وكتب إليها : «أسلوب حياتك هو نفس أسلوب الحياة الذي نجوتُ منه نجاتي من شر مستطير، يؤدي بي إلى الانتحار. لا أستطيع العودة إلى الأسلوب الذي عشت به والذي وجدت فيه كل الدمار .... بيننا صراع حتى الموت» .

بدأت الذروة المأسوية المؤسفة لهذا الصراع في يونيو ١٩١٠ ، وعجلت بها عودة «شيرتكوف» من المنفي، وكانت «سونيا» قد تعلمت أن تكرهه، وكان هو بدوره يعتبرها منافسته في السيطرة على «النبي» ، ويوجد لذلك سجل موثوق به وموضوعي نعرف منه كل ما حدث، حيث كان «ڤالنتين بولجاكوف» سكرتير «تولستوي» الجديد يحتفظ بيوميات. أما الدليل على استحواذ فكرة اليوميات كهاجس في دائرة «تولستوي» فهو الأمر الذي أصدره «شيرتكوف» إلى «بولجاكوف» بأن يرسل نسخة من يومياته (يوما بيوم) إلى سكرتيره الشخصي.

ويروي «بولجاكوف» أن «شيرتكوف» عندما عاد من المنفى : «وظهر على مسرح «ياسنايا پوليانا»

أدركت كم كنت مقيدا بذلك النوع من «الرقابة» ولجأت إلى ذرائع متعددة لكي أتوقف عن إرسال نسخ من يومياتي إلى «شيرتكوف» رغم طلبه لها»، ويقول أن «شيرتكوف» عاد متحاملا على الكونتيسة منحازا ضدها وحذره بأنها كانت «غير متعاطفة» إن لم تكن «عدائية» بينما كان يراها هو «لطيفة وكريمة». «أحببت النظرة المباشرة لعينيها البنيتين المشعتين، أحببت بساطتها ودماثة خلقها وذكاءها»(٥٥)، وما سجله «بولجاكوف» في يومياته يدل على أنه كان قد بدأ يلحظ ببطء أنها كانت مظلومة أكثر منها ظالمة، وأن صنمه : «تولستوى» كان قد بدأ يتداعى. وكان أول شيء يفعله «شيرتكوف» بعد عودته هو الاستحواذ على يوميات «تولستوي»، كما قام بتصويرها سرا دون علمه. وفي ١ يوليو أصرت «سونيا» على شطب الأجزاء التي كانت تعترض عليها حتى لا تنشر، وحدثت ثورة عارمة ثم استقلت العربة مع «بولجاكوف» وراحت تتوسل إليه أن يقنع «شيرتكوف» بإعادة اليوميات. كانت تبكي طوال الطريق وكانت في حالة يرثي لها .. لم أحتمل أن أراها تبكى ، امرأة تعسة لابد أن تتعاطف معها». وعندما تحدث مع «شيرتكوف» بشأن اليوميات «هاج وماج» واتهمه بأنه هو الذي أخبر الكونتيسة بمكان إخفائها»، «.. ولدهشتي البالغة، لوي قسمات وجهه بطريقة بشعة وهو يخرج لي لسانه»، ويبدو أنه أخبر «تولستوي» الذي كتب رسالة إلى «سونيا» (١٤ يوليو) وهو مصمم على أن : «تصرفاتك في السنوات الأخيرة أصبحت أكثر إزعاجا، أصبحت استبدادية وتفتقر إلى ضبط النفس» ..... والآن كان لدى كل منهما «فهم مختلف تمام الاختلاف عن معني الحياة والهدف منها»، ومن أجل حسم الخلاف أودعت اليوميات البنك تحت الشمع الأحمر»(٥٦).

بعد ذلك بأسبوع (٢٢ يوليو) كتب «تولستوي» أن «الحب هو التقاء روحين فصلهما الجسد عن بعضهما»، ولكنه ذهب سرا في نفس اليوم إلى قرية «جرمونت» القريبة ليوقع وصية جديدة تعطي كافة حقوق النشر لابنته الصغرى تحت إشراف «شيرتكوف»، الذي قام بترتيب كل ذلك. وجعلوا «بولجاكوف» خارج الموضوع خشية أن يخبر «سونيا»، وكان يشكو ويعلن عن شكه في أن «تولستوي» كان يعرف ما يقوم بالتوقيع عليه «وهكذا وقع ما كانت تخشاه، الأسرة التي ظلت تحمي مصالحها المادية وتسهر على حراستها أصبحت محرومة من الحقوق الأدبية لأعمال «تولستوي» بعد وفاته، ويضيف : أن «سونيا» كانت تشعر بغريزتها أن شيئا مرعبا قد وقع ولا سبيل لإصلاحه».

في ٣ أغسطس حدثت مشاهد كابوسية اتهمت «سونيا» أثناءها «شيرتكوف» بوجود علاقة جنسية شاذة بينه وبين زوجها، و«تجمد «تولستوي» من شدة الغضب»(٥٧). وفي ١٤ سبتمبر كان هناك موقف آخر أشد رعبا إذ قال «شيرتكوف» لـ «تولستوي» في حضورها : «لو أن لي زوجة مثل زوجتك لأطلقت النار على نفسي»، كما قال لها : «لو كنت أريد، لسحبت أسرتك إلى الوحل ولكنني لم أفعل»، وبعد أسبوع اكتشف «تولستوي» أن «سونيا» وجدت يومياته السرية في حذاء ركوب الخيل وقرأتها، وفي اليوم التالي وعلى عكس اتفاق سابق أعاد تعليق صورة شيرتكوف» في حجرته. وبينما هو في الخارج يركب الخيل مزقت «سونيا» الصورة وألقت بها في المرحاض ليجرفها الماء وراحت تطلق النار من مسدس أطفال

وهي تجري في الحديقة. هذه الحالات من الهياج والغضب كانت تنتاب الصغرى «إلسكاندرا» أيضا. كانت تأخذ وضع الملاكم وتستفز أمها وهي تقول: «هل هذه سيدة حسنة التربية أم حوذي»؟ مشيرة بلا شك إلى أسرار عائلية بائسة(٥٨).

وفي ليلة ٢٨/٢٧ اكتوبر ضبط «تولستوي»: «سونيا» وهي تقلب في أوراقه في منتصف الليل ويبدو أنها كانت تبحث عن الوصية السرية فأيقظ «الكساندرا» من النوم وأعلن: «سأرحل فورا .. وإلى الأبد».

وفي نفس الليلة استقل قطارا، وفي الصباح جاءت الأخبار إلى «بولجاكوف» عن طريق «شيرتكوف» المنتصر. «كان وجهه يفيض بالفرح والبهجة»، وعندما أبلغوا «سونيا» ألقت بنفسها في البركة، كما كانت هناك محاولات أخرى للانتحار.

وفي ١ نوفمبر عندما أصيب «تولستوي» بالتهاب في الشعب الهوائية والرئتين كان عليه أن يترك القطار ليوضع في سرير في محطة «استابوڤا» على خط «ريازان ـ الأورال». بعد يومين ذهبت «سونيا» والأسرة بقطار خاص للحاق به. وفي يوم ٧ نوفمبر جاءت أخبار وفاة النبي. أما الذي يجعل الشهور الأخيرة من حياته مؤلمة خاصة بالنسبة لمحبي إبداعه الروائي، فهو أنها لم تتميز بأي جدل نبيل حول القضايا الكبرى، وإنما تميزت بالغيرة والضغينة والانتقام والمكر والخيانة والمزاج السيء والهيستيريا والخسة.

كان خلافا عائليا من أحط الأنواع سممه شخص غريب صاحب مصلحة وانتهي بكارثة. بعد ذلك حاول المعجبون بـ «تولستوي» أن يصنعوا من سرير الموت في محطة «استابوڤا» مشهدا في تراچيديا إنجيلية، ولكن الحقيقة أن حياته الطويلة العاصفة لم تنته بدوي مفاجيء، وإنما بأنين حزين.

وحالة «تولستوي» مثال آخر لما يحدث عندما يسعى المثقف من أجل أفكار مجردة على حساب الناس. ولدي المؤرخ ما يغريه بأن يراها كمقدمة نقدية ـ على نطاق شخصي محدود ـ لتلك الكارثة القومية الكبري النهائية التي سرعان ما حلت بالاتحاد السوفيتي كله.

«تولستوي» دمر أسرته وقتل نفسه بمحاولته إحداث تحول أخلاقي شامل كان يراه حتميا، ولكنه أيضا كان يتوق ويتنبأ ـ كما شجع بكتاباته كثيرا ـ بتحول ألفي سعيد لروسيا نفسها، لا عن طريق الإصلاحات التدريجية الاجتهادية من النوع الذي كان يحتقره، وإنما عن طريق زلزال بركاني واحد جاء أخيرا في سنة ١٩١٧، ونتيجة أحداث لم يكن يتوقعها، وبوسائل لو تصورها لارتجف.

لقد أثبتت أن كل ما كتبه عن تجديد روح المجتمع هراء. روسيا المقدسة التي كان يحبها دمرت، ويبدو أنها قد دمرت إلى الأبد. ومن سخريات القدر أن يكون الضحايا الرئيسيون لأورشليم الجديدة: هم فلاحوه المحبوبون الذين تم اقتياد عشرين مليونا منهم نحو مجزرة جماعية قربانا على مذبح الأفكار.

❖

الفصل السادس

«إرنست هيمنجواي» : المياه العميقة !

رغم أن الولايات المتحدة قد نمت عددا وعدة خلال القرن التاسع عشر لتصبح أكبر وأعظم قوة صناعية في العالم مع نهاية القرن، إلا أن وقتا طويلا قد مر قبل أن يبدأ مجتمعها في إنتاج مثقفين من النوع الذي تناولناه حتى الآن، وقد كانت هناك أسباب كثيرة لذلك.

أمريكا المستقلة لم يكن لها أبدا ما يمكن أن يسمى بـ «النظام القديم» ، مؤسسة ثرية تعتمد على ملكية مكتسبة أكثر منها على العدل الطبيعي.

لم يكن هناك نظام جائر أو لا عقلاني يجعل النسل الجديد من المثقفين العلمانيين يفكر في أن يستبدله بنماذج جديدة مؤسسة على العلم والأخلاق.

الولايات المتحدة على العكس من ذلك، كانت نتاج ثورة على ظلم النظام القديم، تأسس دستورها على مباديء عقلانية وأخلاقية وتم تخطيطه وكتابته وتقنينه على ضوء تجربة باكرة وتم تعديله على أيدي بشر أذكياء يتمتعون برؤية فلسفية ومكانة أخلاقية. وهكذا لم يكن هناك شقاق بين الطبقات الحاكمة والمتعلمة، بل كانوا طبقة واحدة.

وكما يشير «دي توكيڤي» ، لم يكن هناك في الولايات المتحدة طبقة «إكليركية مؤسساتية» ، وبالتالي لم تكن هناك حركة ضدها، والتي كانت مصدرا لكثير من التخمر الثقافي في أوروبا. كان الدين في أمريكا عاما ولكنه تحت سيطرة الكافة. كان معنيا بالسلوك وليس بالجمود. كان اختياريا ويتسم بالتعددية الطائفية. وهكذا كان يعبر عن الحرية أكثر مما يقيدها ... وأخيرا كانت أمريكا أرض وفرة وفرص كبرى. لم يكن هناك أي دلائل ملحوظة عن ظلم واضح مثل الذي حرض المثقفين في أوروبا على اعتناق الأفكار الثورية.

كان معظم الناس مشغولين بالحصول على الأموال وإنفاقها، بالاستثمار والاندماج، مشغولين عن التفكير في الهموم الأساسية للمجتمع.

وقد أخذ المثقفون الأمريكيون الأوائل مثل «واشنطن ارڤنج» طابعهم وأسلوبهم ومضمونهم من أوروبا

حيث قضوا معظم وقتهم، وكانوا تراثا حيا للنزعة الثقافية الاستعمارية، وكان ظهور روح ثقافية وطنية أمريكية مستقلة في حد ذاته ردة فعل على تبعية وخضوع «ارڤنج» وأمثاله.

وأكبر دليل وأول ممثل لهذه الروح هو «رالف والدو إيمرسون» (١٨٠٣ ــ ١٨٨٢) المثقف الأمريكي النموذجي للقرن التاسع عشر، والذي أعلن أن هدفه كان استخراج «الدودة الشريطية الأوربية» من جسم وعقل أمريكا وأن «يطرد الولع الأوروبي بالولع الأمريكي»(١). وكان هو أيضا قد ذهب إلى أوروبا ولكن بروح نقدية رافضة. إلا أن إصراره على «أمريكية» عقله أدي إلى توحد عريض مع افتراضات مجتمعه، وتوثقت صلته به عندما تقدم به العمر وكان النقيض الواضح لنظرة المثقفين الأوربيين.

«إيمرسون» من مواليد «بوسطن» في سنة ١٨٠٣، ابن وزير وحدوي، كما أصبح هو نفسه وزيرا وحدويا ولكنه ترك الوزارة لأنه لم يستطع أن يقيم العشاء الرباني بضمير مستريح. سافر إلى أوروبا واكتشف «كانط»، وعاد واستقر في «كونكورد» ــ ماساشوستس ــ حيث أسس أول حركة فلسفية أمريكية أهلية عرفت بالفلسفة المتعالية* التي تضمنها كتابه الأول «الطبيعة» الذي نشره في سنة ١٨٣٦ وهي نظرة أفلاطونية جديدة، غير عقلانية إلى حد ما، صوفية بقدر، مع لمسة رومانتيكية، وفوق كل شيء غامضة. وقد دون «إيمرسون» في واحد من دفاتره الكثيرة: «من أجل هذا ولدت وجئت إلى العالم لكي أخلص النفس من نفسي والكون من الكون، لأقدم فائدة معينة لم تستطع الطبيعة أن تضيعها ولا أنا أعفي نفسي من تقديمها ....

الله غني يطوي جوانحه على رجال أكثر مني ينتظرون الفرصة الملائمة ... أتدفق إلى الأبد بحرا من الفائدة يفيض على بشر كثيرين، ...... لا المجرى يعود إلى الخلف ولا الخطيئة أو موت الإنسان يبددان الطاقة الثابتة التي توزع نفسها في البشر، كالشمس في الأشعة أو البحر في القطرات»(٢). وهذا لا معنى كبيرا له، أو لعله على نحو ما يعبر عن حقيقة بدهية. ولكن في عصر الإعجاب بفلسفة «هيجل» وبدايات «كارليل» كان الأمريكيون فخورين بأن بلدهم الوليد قد أنجب مفكرا خاصا بهم يعترف به، ولوحظ فيما بعد أن الإعجاب به كان لا يستند إلى فهم الناس له، وإنما على أساس «أن أناسا كهؤلاء يستحقون التشجيع»(٣)، وبعد عام من نشر «الطبيعة» ألقي «إيمرسون» خطابا في «هارڤارد» بعنوان «الدارس الأمريكي» كان يقول عنه «أوليڤر ويندل هولمز»: «إعلان استقلالنا الفكري»(٤)، وتناولت أفكاره الصحافة الأمريكية النامية. أما صحيفة «نيويورك تريبيون» أهم صحف البلاد آنذاك والتي كانت تنشر تقارير «ماركس» من أوروبا فقد روجت لأفكار «إيمرسون» ــ الترانسيندنتالية ــ بطريقة مثيرة وكانت تعتبرها ثروة قومية مثل «شلالات نياجرا».

و«إيمرسون» جدير بالدراسة لأن عمله يصف الصعوبة التي مر بها المثقفون الأمريكيون للإفلات من

★ الفلسفة المتعالية Transcendentalism كل فلسفة تقول بأن اكتشاف الحقيقة يتم بدراسة عمليات الفكر، لا من طريق الخبرة أو التجربة.

ربقة الإجماع المحلي. في جوانب كثيرة ظل نتاج خلفيته، خلفية «نيوانجلند» خاصة فيما يتعلق بأسلوب تناوله البدائي التطهري والشاحب للجنس. عندما نزل عند أسرة «كارليل» فى «كريجن باتوك» فى أغسطس ۱۸۳۳ كانت «چين كارليل» تراه كائنا شبه أثيري، آت من «السحاب»، «كارليل» نفسه كان يشعر بأنه «مثل ملاك بروحه الجميلة الشفافة»(٥).

ويصف «إيمرسون» في يومياته كيف كان مضطرا في زيارة تالية (أغسطس ١٨٨٤) أن يدافع عن المعايير الأخلاقية الأمريكية في حفل عشاء في منزل «چون فوستر» كان يحضره «ديكنز» و«كارليل» وآخرون. «قلت إنني عندما جئت إلى «ليڤربول» تساءلت إذا ما كان البغاء يمثل ظاهرة في تلك المدينة كما كان يبدو. كان بالنسبة لي يدل على فساد كبير في الدولة، ولم أعرف كيف يمكن لأي صبي أن ينشأ سالما، ولكنهم قالوا لي إن الوضع ظل على ما هو عليه لعدة سنوات، ليس أسوأ وليس أفضل. ورد «ديكنز» أن العفة في الذكور كانت جيدة كما كانت على أيامنا، وأنها كانت نادرة في انجلترا لدرجة أنهم يمكنهم إحصاء كل الاستثناءات، ولكنني أكدت له أن الأمر ليس كما يظن، وأن الشباب من ذوي التربية الجيدة يذهبون إلى سرير الزفاف في معظم الأحوال وهم عذارى مثل عرائسهم»(٦).

وكما كتب «هنري چيمس» فيما بعد عن «إيمرسون» :

«... إحساسه الناضج بالشر والكامن في اللاشعور ... أحد السمات الجميلة التي نعرفه بها»، ورغم أنه يضيف بقسوة : «يصبح لدينا انطباع عن ضمير يلهث في الفراغ، يتوق إلى الأحاسيس وحركة تشبه خياشيم سمكة على البر»(٧). وواضح أن الدوافع الجنسية لم تكن قوية عند «إيمرسون». كانت زوجته الأولى الشابة تسميه «جدي»، أما الثانية والتي كان عليها أن تتحمل أمه ـ التي كان يعبدها ـ حتى ماتت، فكانت تبدي ملاحظات مرة ولاذعة كان يسجلها ـ ببراءة ـ في يومياته : «أنقذوني من الأرواح العظيمة، أحب الروح الصغيرة ذات الحجم المعقول»، كان يعتقد أن قصيدته : «فلنمنح كل شيء للحب» قصيدة جريئة بينما لا يوجد أي دليل على أنه قد «منح» الكثير. كانت صداقته غير الزوجية مع امرأة علاقة أفلاطونية، أو لعلها كانت أفلاطونية جديدة .. وليس باختيارها.

«إيمرسون» يلمح بحذر : «لي أنا أيضا أعضاء، ولدي رغبة في اللذة، ولكن التجربة علمتني أيضا أن تلك اللذة طعم في فخ»(٩)، ويومياته التي تكشف لنا عنه الكثير، وأكثر مما كان يريد، تسجل حلما (عام ١٨٤٠ ـ ٤١) يحضر فيه مناقشة عن الزواج. اتجه أحد المتحدثين إلى الجمهور فجأة «مثل ماكينة يندفع منها ماء غزير وانتشر بعنف في كل اتجاه «ليطرد الجميع بعيدا ويصوب تيار الماء كله نحو «إيمرسون»»، «وأغرقني وأنا أحدق، ثم استيقظت لأجد نفسي جافا تماما والحمد لله»(١٠).

تزوج «إيمرسون» في المرتين لأسباب كلها تدبر وحصافة، وهكذا استطاع الحصول على رأسمال حقق له درجة معقولة من الاستقلال الأدبي. وباستثماره جيدا استطاع أن يحقق اقترابا معقولا من نظام المقاولات الذي كان ينمو بسرعة، كما استطاع أن يحقق سمعة قومية في النهاية، سمعة لاتبارى كحكيم

ونبي، ولم يكن ذلك من خلال كتبه وإنما من خلال شبكة المحاضرات التي كانت جزءا من ذلك النظام. في البداية كانت مجموعة محاضراته «الحياة الإنسانية» في «بوسطن»(١٨٣٨)، ثم «التميز» في «نيويورك»(١٨٤٢)، بعدها دراسته عن العقول العظمية «الممثلون النيابيون»(١٨٤٥). وقد تصادف بروز «إيمرسون» كمثقف رفيع المستوى – وشعبي في نفس الوقت ـ وكمحاضر تنقل الصحف المحلية والإقليمية والقومية محاضراته مع تطور حركة جمعيات المحاضرات العامة التي قام بتأسيسها «چوسيا هولبروك» في ١٨٢٩ لتثقيف الأمة التي كانت آخذة في الاتساع .

أنشئت قاعات المحاضرات العامة (الليسيوم) في «سينسيناتي». سنة ١٨٣٠ وفي «كليڤلاند» سنة ١٨٣٢ وفي «كولمبس» سنة ١٨٣٥ ثم بعد ذلك على امتداد «الميدوست» ووادي «المسيسيبي» وبنهاية الثلاثينيات كان هناك قاعة في كل مدينة كبرى تقريبا، وكان ذلك كله إلى جانب المكتبات وجميعات المحاضرات والمناظرات التي كان يقيمها التجار والموجهة للشباب وغير المتزوجين وموظفي البنوك والباعة في المحلات ... الخ ـ أي الذين كانوا يشكلون أغلبية سكان المدن (١٢)، وكانت الفكرة من وراء ذلك هي إبعادهم عن الشوارع والارتقاء بعملهم التجاري وبمستواهم الفكري. كانت آراء «إيمرسون» تناسب هذا المفهوم تماما . كان ضد النخب الثقافية والفكرية، وكان يعتقد أن ثقافة أمريكا الخاصة يجب أن تكون قومية وشاملة وديمقراطية. كان الاعتماد على النفس ضروريا، كان يقول أن أول أمريكي قرأ «هوميروس» في مزرعة قد أدي خدمة جليلة للولايات المتحدة، وأنه عندما كان يرى رجلا يقرأ كتابا في قطار كان يود أن يعانقه. كانت فلسفته الاقتصادية والسياسية الشخصية تتطابق مع الفلسفة العامة التي كانت تدفع الأمريكيين عبر القارة نحو تحقيق قدرهم الواضح : «القاعدة الوحيدة الأمينة توجد في نظام يتوازن ذاتيا بين العرض والطلب، لا تضع تشريعات، تدخل وسوف تنتزع القوة بقوانينك المالية. لاتقدم أي هبات، سن القوانين المتكافئة، حافظ على الحياة والممتلكات ولن تحتاج إلى تقديم الصدقات. افتح أبواب الفرصة أمام الموهبة والفضيلة وسوف تكون صادقة مع نفسها ولن تكون الملكية في أيد سيئة.

في جماعة حرة وعادلة سوف تندفع الملكية لتنتقل من الكسالى والبلهاء إلى الشجعان والمثابرين»(١٣) .

في هذا الوقت بالضبط كان من الصعب أن نجد من الأفكار ماهو أكثر تناقضا من ذلك مع الأفكار التي كان يدعو إليها «ماركس». وتجربة «إيمرسون» الميدانية كانت تتناقض مع الأسلوب الذي كان «ماركس» يقول أن الرأسمالية تعمل ـ أو لابد أن تعمل ـ بموجبه ـ وبدلا من معارضة هذا السعي من أجل التنوير، كان الملاك والمدراء يروجون له بطريقة إيجابية. وعندما ذهب «إيمرسون» إلى «پتسبورج» في سنة ١٨٥١ أغلقت الشركات أبوابها باكرا حتى يتسنى لصغار الموظفين الذهاب للاستماع إليه، رغم أن سلسلة محاضراته لم تكن مكرسة لدعم النزعة التجارية. كانت الموضوعات تتناول ـ على سبيل المثال ـ «الغريزة والإلهام»، «تطابق الفكر والطبيعة»، «التاريخ الطبيعي للعقل» .... وهكذا .

ولكن «إيمرسون» كان يميل إلى تقديم الدليل على أن المعرفة إلى جانب الشخصية الأخلاقية يمكن أن يؤدي إلى نجاح العمل التجاري. كثير من الذين كانوا يتوقعون أن يبهرهم ذلك الفيلسوف الكبير وجدوا أن ما كان يقوله في حكم البدهيات. وصفته جريدة «سينسيناتي» بأنه «غير مدع .. وطيب طيبة جد يقوم بتلاوة الإنجيل» ـ «الإنسان مبذر بحكم تكوينه ويجب أن يكون منتجا»، «الحياة هي السعي من أجل القوة» .

أقوال كتلك كان المستمعون إليه يرونها صادقة، وعندما كانت تلخص وتنتزع من سياقها في الصحف كانت تسري إلى مخزون الحكمة الشعبية الأمريكية. ولم يكن غريبا أن يرتبط «إيمرسون» دائما بنفس سلسلة محاضرات «ب.ت.بارنام» الذي كانت موضوعاته تتناول «فن الحصول على المال» و«النجاح في الحياة . «كان الاستماع إلى «إيمرسون» من علامات الطموح الثقافي والذوق الرفيع، وأصبح تجسيدا للإنسان المفكر. قالت صحيفة «شيكاغو تريبيون» عن آخر محاضرة له في «شيكاغو» سنة ١٨٧١ : «كان التصفيق الشديد ينم عن ثقافة الجمهور» . وبالنسبة لأمةٍ كانت تسعى نحو التقدم الأخلاقي والثقافي بنفس الحماس الذي تتطلع به إلى الثورة وتعتبر الإثنين ضروريين من أجل صنع حضارتها الجديدة، كان «إيمرسون» في نهاية سبعينيات القرن (التاسع عشر) معلما وبطلا قوميا، كما كان «هوجو» بالنسبة لـ : فرنسا و«تولستوي» بالنسبة لـ «روسيا» . كان قد وضع نموذجا أمريكيا .

أمام هذه الخلفية التي يتجلي فيها تطور الأمة الإقتصادي وحياتها الثقافية والفكرية في انسجام تام، يجب أن نضع «إرنست هيمنجواي»، الذي يصعب أن نعترف به كمثقف أو كمفكر من النظرة الأولى. ولكننا إذا نظرنا إليه عن كثب لوجدنا أنه يمتلك كل مواصفات المثقف الرئيسية بدرجة غير عادية وبتركيبتها الأمريكية المحددة .

وعلاوة على ذلك كان كاتبا عميق الأصالة أحدث تحولا في الأسلوب الذي كان يعبر به أقرانه الأمريكيون عن أنفسهم، وكذلك في أسلوب الجميع في العالم الناطق بالإنجليزية. خلق أسلوبا جديداشخصيا وعلمانيا شديد المعاصرة، أمريكي الأصل ولكنه انتقل بسهولة إلى ثقافات عدة. لقد مزج عدة توجهات أمريكية معا وجعل من نفسه نموذجا مجسدا لها ولذلك استطاع أن يكون تجسيدا لأمريكا في مرحلة معينة كما كان «ڤوليتر» بالنسبة لـ «فرنسا» في خمسينيات القرن الثامن عشر، و«بيرون» بالنسبة لـ «انجلترا» في عشرينيات القرن التاسع عشر .

ولد «هيمنجواي» في سنة ١٨٩٩ في ضاحية «أوك بارك» ـ شيكاغو، المشهورة بجوها الصحي النظيف والتي كانت قد احتفت بـ «إيمرسون» أيما احتفاء قبل ذلك بربع قرن. والداه «جريس» و«إدموندس» ـ إد ـ هيمنجواي، وهو شخصيا كانوا كلهم نتاجا واضحا للحضارة التي ساعد على صنعها إيمرسون» ومحاضراته والفاعلية الاقتصادية التي نشأت عن ذلك. كان الوالدان ـ أو بالتأكيد كان يبدو أنهما ـ يتمتعان بصحة جيدة ونشاط وكفاءة وتعليم جيد ومواهب عدة وتوافق اجتماعي ووفاء لموروثهما

الثقافي الأوروبي مع الإحاسس الشديد بالفخر بما أجرته عليه أمريكا من تطور .

كانا يخشيان الله ويعيشان حياتهما كاملة داخل منزلهما وخارجه. كان الدكتور «هيمنجواي» طبيبا ممتازا، يمارس الصيد والرماية والرحلات البحرية والبرية فى الأحراش والغابات، وكان يمتلك كل المهارات البرية لرجال الغابات وعلمها لابنه. أمه «جريس هيمنجواي» كانت امرأة شديدة الذكاء، قوية الإرادة، ذات انجازات كثيرة. قارئة ممتازة، تكتب نثرا جميلا وشعرا ذكيا، ترسم، تصمم الأثاث وتصنعه، تغني بصوت جميل وتعزف على آلات موسيقية مختلفة، وقد كتبت ونشرت أغنيات جيدة (١٤).

وكلاهما (الأب والأم) بذل كل ما في وسعه لكي ينقل للأبناء (كان إرنست الابن الأكبر والأكثر تفضيلا) كل موروثهم الثقافي ويضيف إليه. وكانا والدين نموذجيين في نواح كثيرة، فنشأ «هيمنجواي» قارئا جيدا، مثقفا ورياضيا ماهرا . كلاهما كان شديد التدين، ينتميان إلى طائفة أبرشية خاصة، كما كان الدكتور «هيمنجواي» إلى جانب ذلك من طائفة «المسبتن» الذين لايعملون يوم السبت مثل كثير من اليهود. كانوا يذهبون إلى الكينسة يوم الأحد ويصلون على المائدة عند تناول الطعام، وتضيف «صني» ـ شقيقة هيمنجواي ـ «كنا نصلي كل صباح ونقرأ ترنيمة أو أكثر من الإنجيل»، وكان الوالدان يفرضان قانون البروتستانتية الأخلاقي بشدة ويعاقبان الخارج عليه بصرامة.

كانت «جريس» تصفع الأطفال بفرشاة الأسنان، والدكتور بمشنحذ الموسي. وعندما كانوا يكذبون أو يتفوهون بألفاظ غير لائقة يغسلون لهم أفواههم بصابون مر عقابا لهم، وبعد العقاب يكون الركوع وطلب العفو من الرب. كان الدكتور «هيمنجواي» يوضح دائما أنه يعرف المسيحية بالشرف الذكوري والسلوك القويم. كتب إلى «هيمنجواي» ـ الإبن ـ يقول: «أريد أن تكون نموذجا لكل ما هو طيب ونبيل وشجاع ومهذب في الرجل، تخشى الله وتحترم المرأة»(١٦)، وكانت أمه تريده نموذجا للبروتستانتى التقليدى ، لايدخن ، لا يشرب، عفيفا قبل الزواج، مخلصا أثناءه، مطيعا لوالديه موقرا لهما في جميع الأحوال، خاصة أمه. أما «هيمنجواي» فقد رفض دين والديه بالكلية، كما رفض أن يكون الإبن الذي يريدون. ويبدو أنه كان قد قرر بحزم ـ منذ سنوات المراهقة أن يتبع أسلوبه الخاص في جميع الأمور وأن يصنع تصوره الخاص للإنسان الشريف والحياة الخيرة التي يستحقها، وكان ذلك تصورا رومانسيا أدبيا، وإلى حد ما أخلاقيا، ولكن دون أي مضمون ديني بالمرة. ويبدو أن «هيمنجواي» كان مجردا من الروح الدينية، فقد ترك «الاعتقاد» في السابعة عشر عندما التقى بـ «بل» و«كاتي سمث»(وقد تزوجت الأخيرة من چون دوس پاسوس فيما بعد) وكان والدهما مدرسا ملحدا، ألف كتابا بارعا يثبت فيه أن المسيح لم يكن له وجود أبدا. عند أول فرصة توقف «هيمنجواي» عن ممارسة الدين. كان قد ذهب ليعمل لأول مرة في «كانساس سيتي ستار» ويعيش في منزل لا يشرف عليه فيه أحد. وفي سنة ١٩١٨، وكان تقريبا في العشرين كان يؤكد لأمه : «لا تقلقي أو تبكي أو تحزني بخصوص أن أكون مسيحيا جيدا، فأنا كما كنت دائما أصلي كل ليلة، وإيماني قوي»(١٧). ولكنه كان يكذب ويقول ذلك فقط من أجل السلام

النفسي. لم يكن يؤمن بالله، والأكثر من ذلك أنه كان يعتبر الدين المنظم تهديدا للإنسانية، تقول زوجته الأولي «هادلي» أنها لم تشاهده يصلي سوى مرتين : عند زفافهما وعند تعميد ابنهما.

ولكي يرضي زوجته الثانية «پولين» تحول إلى الكاثوليكية دون أن يكون لديه أي فهم إضافي عن المذهب الجديد. وكان يثور عندما تحاول «پولين» أن تتبع قواعده (تنظيم النسل مثلا) بأساليب تضايقه. نشر كتابات ساخرة عبارة عن محاكاة تجديفية للمسيح في قصته : «مكان نظيف جيد الإضاءة»، ولعملية الصلب في «الموت في الظهيرة»، وهناك تجديف شديد أيضا في مسرحيته «الطابور الخامس». وعلى قدر فهمه للمذهب الكاثوليكي كان يكرهه. لم يبد أي بادرة احتجاج عندما احرقت مئات الكنائس وانتهكت في إسبانيا، ذلك المكان الذي كان يعرفه ويقول أنه يحبه. لقد تخلى عن ادعائه المظهري للكاثوليكية بعد أن ترك زوجته الثانية(١٨)، والحقيقة أنه عاش حياته كلها بعد سنوات المراهقة وثنيا يعبد أفكارا من صنعه.

ورفض «هيمنجواي» للدين كان من سمات المثقف المراهق وفي نفس الوقت من علامات رفضه لثقافة والديه الأخلاقية. بعد ذلك كان يحاول أن يميز بين والديه وبطريقة تبرىء والده دائما. عندما انتحر والده حاول أن يحمل أمه المسئولية، رغم أنها كانت حالة واضحة لطبيب أدرك أن مرضه لا شفاء منه. كان الدكتور «هيمنجواي» هو الطرف الضعيف في زواجه ولكنه كان يقف إلى جوار زوجته تماما في خلافاتها مع ابنهما، والذي كانت مشاحناته معهما معا أكثر مما هي مع الأم فقط. ولكن «هيمنجواي» كان يركز مقاومته على «جريس» وذلك ـ في نظري ـ لأنه كان يراها المصدر الرئيسي لإرادته الذاتية وقوته الأدبية. كانت امرأة قوية مخيفة، وكان هو في طور التكوين لأن يصبح رجلا قويا ومخيفا .. والدائرة لا تتسع لاثنين، وصل النزاع بينهما إلى ذروته. في سنة ١٩٢٠ عندما عاد «هيمنجواي» من الحرب العظمى وكأنه بطل. كان قد قضى الجزء الأخير منها في وحدة طبية على الجبهة الإيطالية، وبعد عودته فشل في أن يجد لنفسه عملا، وكان مزعجا لوالديه بسبب بطالته وسلوكه السيء في نظرهما. في شهر يوليو من ذلك العام كتبت إليه توبخه بشدة قائلة إن حياة أي أم تشبه البنك. «وكل طفل تلده يدخل إلى الحياة برصيد ضخم يبدو وكأنه لن ينفذ»، يستمر الطفل في السحب، «دون إيداعات جديدة في السنوات الأولى كلها»، بعد ذلك وحتى المراهقة «وعندما يكون السحب شديدا من البنك» تكون هناك «إيداعات قليلة ضئيلة على شكل خدمات، بعض الامتنان، وبعض عبارات الشكر»، وفي مرحلة الرجولة عندما يواصل البنك يستمر في تقديم الحب والحنان:

«وفي ذلك الوقت يكون البنك في حاجة إلى بعض الإيداعات معقولة الحجم على هيئة عرفان بالجميل وتقدير، والاهتمام بأفكار الأمه وشئونها. أشياء بسيطة تقدم للبيت، رغبة في إرضاء أي مطالب للأم لا إغضابها. زهور . حلوى .. أو قطعة ملابس جميلة ترتديها تقدم مع قبلة أو ضمة حنان .. تسديد بعض الفواتير لكي تخلي الأم ذهنها منها ... كل تلك الأشياء بمثابة إيداعات تجعل الحساب في وضع جديد. أعرف أمهات كثيرات يتلقين هدايا مثل تلك وأكثر من أبناء أقل قدرات وإمكانيات من ابني. إن

لم تثب يابني لرشدك وتكف عن كسلك وتسكعك وبحثك عن الملذات واستغلال وجهك الوسيم ، وإهمال واجباتك نحو الله ونحو مخلصك المسيح ..لن يكون في انتظارك سوى الإفلاس : بعد أن تكون قد سحبت أكثر من الرصيد»(١٩).

احتفظت أمه بهذه الورقة عدة أيام تمعن التفكير فيها كأنها دجاجة تحتضن بيضة لتفقس، تنمق فيها وتعيد صياغتها كما كان يفعل «هيمنجواي» ببعض كتاباته .. ثم قدمتها إليه بنفسها. وكانت ردة الفعل المتوقعة، الغضب المتصاعد باستمرار ... ثم البدء في التعامل مع أمه كعدو.

يقول «دوس باسوس» إن «هيمنجواي» كان الرجل الوحيد الذي لقيه في حياته ووجده يكره أمه لتلك الدرجة، ويقول الجنرال «لانهام» ـ أحد معارفه الآخرين ـ في شهادته : «منذ أيامي الأولى مع هيمنجواي كان لا يشير إلى أمه إلا بـ «تلك القحبة»، وكثيرا ما كان يخبرني بأنه يكرهها»(٢٠).

وكانت تلك الكراهية تنعكس مرارا وبطرق مختلفة في أعماله، وتطورت إلى بغض شديد لأخته الكبري : «أختي مارسيلين القحبة»، «عاهرة كاملة»، ثم اتسعت لتشمل أسراً بكاملها يعبر عنها في أطر غير مترابطة مثل تناول الرسامين السيئين (كانت أمه ترسم) في سيرته الذاتية : «حفل متنقل» : «لا يقترفون أشياء مرعبة أو يسببون ضررا، كل ما عليك أن تفعله بالنسبة للرسامين السيئين هو ألا تنظر إليهم. ولكنك حتى إذا تعلمت ألا تنظر إلى تلك الأسر وألا ترد على رسائلهم فلن يعدموا وسيلة لأن يكونوا خطرين». كانت كراهيته لأمه شديدة لدرجة أنها سممت حياته وذلك لأنه كان يشعر بالذنب، وظل هذا الإحساس يغذي الكراهية بداخله. كان قد ظل على تلك الكراهية في ١٩٤٩، وكانت هي في الثمانين من عمرها تقريبا عندما أرسل إلى ناشره من منزله في كوبا يقول : «لن أراها، وهي تعرف أنها لن تستطيع أن تجيء إلى هنا أبدا»(٢١). لقد فاق نفوره منها كره «ماركس» لأمه، أو لعله كان قريبا من موقف «ماركس» من النظام الرأسمالي نفسه، وبالنسبة لـ «هيمنجواي» كانت كراهية الأم تكتسب وضعية النظام الفلسفي.

انهيار الأسرة دفع «هيمنجواي» نحو «تورنتوستار» ومن ثم إلى أوروبا كمراسل أجنبي وروائي. إنه لم يرفض أو ينكر دين والديه فقط وإنما آراء أمه عن ثقافة مسيحية متفائلة والتي كانت تعبر عنها في كتاباتها القوية ـ التي كانت لا تروق له ـ وكانت رغبته الدائمة في ألا يكتب مثلها واستخدام أسلوبها الخطابي القديم، أحد القوي الدافعة له نحو الإتقان والتمكن الأدبي الذي أصبح سمته البارزة.

عاش «هيمنجواي» حياة مراسل أجنبي اعتبارا من ١٩٢١ متخذا من «باريس» قاعدة له. كان يقوم بتغطية أخبار الحرب في الشرق الأوسط والمؤتمرات الدولية ولكن بؤرة اهتمامه الرئيسية كانت مركزة على رجال الأدب المغتربين القادمين من ضفة اليسار. كتب «هيمنجواي» الشعر، وكان يحاول أن يكتب النثر. كانت إحدي عاداته التي أخذها عن أمه حمل الكتب أينما ذهب، يدسها في جيبه ليقرأ في أي مكان أو في أي وقت عندما يتيسر ذلك، كان يقرأ كل شيء، وطوال حياته كان يشتري الكتب وكانت أرفف

الكتب تغطي جدران كل مكان عاش فيه. في بيته في «كوبا» كان عليه أن يبني مكتبة ضخمة تضم ٧٤٠٠ مجلدا تميزها كتابات متخصصة عن الموضوعات التي تهمه وعلى نحو خاص النصوص الأدبية التي كان يقرأها أكثر من مرة. عندما جاء إلى «باريس» كان قد قرأ كل الأعمال الإنجليزية الكلاسيكية تقريبا، ولكنه كان لديه الإصرار الأكيد لتوسيع مجاله. لم يشعر بأي نقص لعدم إكمال تعليمه في الجامعة ولكنه كان يشعر بالندم وكان يحرص على ملء أي فراغ ناجم عن ذلك، ولذلك عكف على قراءة «ستندال» و«فلوبير» و«بلزاك» و«موپاسان» و«زولا» وأهم الروائيين الروس : «تولستوي»، «تورجنيف»، «ديستويفسكي»، والكتاب الأمريكيين : «هنري چيمس»، «مارك توين»، «ستيف كرين». وقرء المحدثين كذلك : «كونراد»، «ت.س.اليوت»، «جيرترود ستاين»، «إزرا پاوند»، «د.هـ.لورانس»، «ماكسويل آندرسن»، «چيمس چويس». كانت قراءاته واسعة وكان يمليها عليه أيضا رغبة قوية في الكتابة.

منذ الخامسة عشرة كان معجبا بـ «كپلنج» وواصل دراسته طوال حياته، والآن أضاف إلى ذلك اهتماما وثيقا بـ «كونراد» ومجموعة «چويس» الرائعة «أهل دبلن»، ومثل جميع الكتاب الكبار كان لا يلتهم الكتب فقط وإنما يتعلم من الجميع، حتى من كتاب الدرجة الثانية مثل «ماريات»، «هيو والپول»، «چورج مور».

انتقل «هيمنجواي» مباشرة إلى وسط مثقفي «باريس» في سنة ١٩٢٢، مع وصول «فورد مادوكس فورد» إلى هناك، والذي كان كشاف مواهب من الطراز الأول. فهو الذي ساعد على ظهور «لورانس» و«نورمان دوجلاس» و«ويندهام لويس» و«آرثر رانسوم» وغيرهم. في سنة ١٩٢٣ نشر الطبعة الأولى من «ترانس أتلانتيك ريڤيو»، وبترشيح وتوصية من «إزرا پاوند» عين «هيمنجواي» مساعدا له غير متفرغ لبعض الوقت.

كان «هيمنجواي» معجبا بـ «فورد» كراع ومشجع للأدب ولكنه كان كثير الشكوى منه : تجاهله لمعظم الكتاب الشبان، قلة اهتمامه بالأشكال وبالأساليب الأدبية الجديدة، ذوقه القريب من الذوق السائد في الصحف، وقبل ذلك كله اعتقاده أن معظم الأدب الجيد يجيء من فرنسا وانجلترا متجاهلا النتاج الأمريكي الذي كان يتزايد كما وكيفا. كان «هيمنجواي» يرى نفسه «أمبريزاريو» ـ الراعي الذي يدير النشاط ـ الطليعة الأمريكية، وكان يقول ـ من تحت الضرس ـ أن «فورد» : «يدير الأمور كلها بأسلوب المساومة»(٢٢)، وبمجرد أن وجد نفسه في مكتب المجلة بمفرده بدأ ينحو بها منحى أمريكيا لدرجة أنها إلى جوار ٦٠ مادة انجليزية و٤٠ مادة فرنسية كانت تحمل ٩٠ مادة كتبها أمريكيون. وعندما ذهب «فورد» في رحلة إلى «پاريس»، جعل «هيمنجواي» من أعداد يوليو وأغسطس معرضا للمواهب الأمريكية الشابة، لدرجة أن «فورد» عندما عاد، شعر بأنه كان لابد أن يعتذر «عن ذلك الكم عن أمريكا والذي فرضناه على قرائنا»(٢٣).

ولكن «هيمنجواي» كان لديه حافزه القوي من أجل الشهرة والتفوق الأدبي كما كان أقل اهتماما ـ

على المدي الطويل ـ بالأحزاب ومكائد مثقفي الشاطيء اليساري، من اهتمامه بتطوير موهبته. كان «پاوند» قد قدم «هيمنجواي» إلى «فورد» بقوله أنه : «يكتب نثرا جيدا جدا كما أنه صاحب أفضل أسلوب في العالم»(٢٤)، وهي ملاحظة على درجة عالية من الأهمية لأنها تجيء في سنة ١٩٢٢ حيث لم يكن «هيمنجواي» قد وجد طريقه الخاص، ولكنه كان يبحث عنه، كما تكشف أوراقه الأولى بما فيها من حذف وشطب وتعديل، وربما لا يوجد أي كاتب روائي آخر خاض كل ذلك الكفاح لكي يجد طريقة في الكتابة تناسب العمل الذي يريد أن يكتبه تماما. ودراسة «هيمنجواي» في تلك المرحلة تعتبر نموذجا على ما ينبغي أن يكون عليه الكاتب لكي يحقق مهاراته المهنية، وهي تشبه في المثابرة ونبل المقصد جهود «إبسن» لكي يصبح كاتبا مسرحيا، ولها أيضا نفس التأثير الثوري على الحرفة.

كان «هيمنجواي» يعتقد أنه قد ورث عالما زائفا يتمثل في دين والديه وثقافتهما الأخلاقية ويجب أن يحل محله عالم حقيق. ولكن ماذا كان يقصد بـ «الحقيقي»؟، ليست الحقيقة الموروثة التي يكشف عنها والداه : المسيحية ـ التي رفضها ـ وليست الحقيقة المستمدة من أي أيديولوجية أو عقيدة من الماضي تعكس عقل الآخرين مهما كان عظيما، ولكنها الحقيقة كما كان يراها هو، كما كان يشعر بها، يسمعها، يشمها ويتذوقها.

كان معجبا بفلسفة «كونراد» الأدبية وبالأسلوب الذي لخص به هدفه ـ «الإخلاص المدقق لحقيقة أحاسيسي الخاصة». كانت تلك هي نقطة البداية بالنسبة له. ولكن كيف تنتقل هذه الحقيقة ؟ معظم الناس عندما يكتبون بما في ذلك الكتاب المحترفون، يميلون إلى الانزلاق لرؤية الأحداث بعيون الآخرين، لأنهم يرثون التعبيرات البالية والصيغ المكررة والكليشيهات المعتادة. وهذا صحيح على نحو خاص بالنسبة للصحفيين الذين يقومون بالتغطية السريعة للمناسبات، وكثيرا ما يكون ذلك بطريقة مملة. ولكن «هيمنجواي» كانت لديه فرصة التدريب الممتازة الذي حصل عليه في «كانساس سيتي ستار»، كان رؤساء تحريرها الذين تناوبوا عليها قد وضعوا قواعد داخلية (١١٠ قاعدة) لإجبار المراسلين على استخدام لغة انجليزية بسيطة واضحة ومباشرة، خالية من الكليشيهات والتعبيرات المستهلكة. وكان يتم تطبيق تلك القواعد بصرامة. بعد ذلك كان «هيمنجواي» يصفها بأنها كانت «أفضل قواعد تعلمتها في مهنة الكتابة»(٢٥)، وفي سنة ١٩٢٢ وهو يغطي مؤتمر «جنوة» تعلم فن الكتابة التلغرافية عن طريق «لنكولن سيتفنس» واستوعبه بسرعة شديدة. كان يقول له وهو يعرض عليه أول برقية ناجحة يكتبها : «انظر إلى هذه البرقية : ليس فيها صفات ولا أحوال. لا شيء سوى الدم والعظم والعضلات .. إنها لغة جديدة»(٢٦).

على هذا الأساس الصحفي بني «هيمنجواي» أسلوبه الخاص والذي كان عبارة عن نظرية وتطبيق. وقد كتب كثيرا في بعض أعماله عن طريقته في الكتابة : في «حفل متنقل»، «تلال إفريقيا الخضراء»، «موت في الظهيرة» وغيرها(٢٧).

أما المباديء الأساسية للكتابة التي وضعها لنفسه فهي جديرة بالدراسة(٢٨) : ذات مرة عرَّفَ فن

الأدب الروائي ـ متبعا كونراد ـ : «ابحث عما أعطاك الإحساس، الفعل الذي أعطاك الدهشة، بعد ذلك اكتبه بوضوح حتى يراه القارىء كذلك»(٢٩). كل شيء لابد أن يتم باختصار، باقتصاد، ببساطة، بأفعال قوية، بعبارات قصيرة ودون أي شيء لا ضرورة له. «النثر معمار وليس ديكورا داخليا، لقد انتهى عصر الباروك»(٣٠).

كان يولي اهتماما خاصا لدقة التعبير وكان يفتش في القواميس عن الكلمات. ومن المهم بمكان أن نتذكر أن «هيمنجواي» أثناء فترة تكوين أسلوبه النثري كان شاعرا، وكان شديد التأثر بـ «إزرا باوند» الذي يقول أنه تعلم منه أكثر مما تعلم من أي إنسان آخر. كان «باوند» : «الإنسان الذي يؤمن بالكلمة الوحيدة الدقيقة التي ينبغي استخدامها، الرجل الذي علمني ألا أثق بالصفات»، كذلك درس «جويس» عن كثب. وهو كاتب يقلده في دقته ويحترمه من أجلها. وبقدر ما كان لـ «هيمنجواي» أسلاف من الأدباء يمكننا أن نقول أنه كان ذرية زواج «كپلنج» و«جويس». والحقيقة أن كتابة «هيمنجواي» فذة وفريدة، وتأثيره على ما كان الناس يكتبونه ويرونه في ربع القرن الممتد من ١٩٢٥ إلى ١٩٥٠ كان طاغيا وشاملا. أثره مسيطر لدرجة يصعب معها أن نطرحه من نثرنا، خاصة في الرواية. ولكنه في أوائل العشرينيات كان من الصعب أن يحقق اعترافا به أو أن ينشر له أحد عمله الأول «ثلاث قصص وعشرة قصائد». كان ذلك العمل محاولة أو مغامرة طليعية، وقد نشر محليا في «باريس» . لم تلتفت المجلات الكبرى إلى رواياته، وحتى سنة ١٩٢٥ كانت مجلة «دايال» ـ التي تعتبر نفسها مجلة مغامرة ـ ترفض قصصه بما في ذلك قصته الممتازة : «الذي لا يقهر». وما صنعه «هيمنجواي» هو ما يصنعه أي كاتب أصيل. أنشأ سوقه الخاصة، عَدَي الناس بذوقه الخاص. الطريقة التي تجمع بذكاء بين الالتقاط الدقيق للأحداث واللمحة الساخرة والاستجابة العاطفية لها كانت قد ظهرت فى ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥، وكان ذلك الاختراق تحديدا فى سنة ١٩٢٥ مع نشر «فى زماننا»، استطاع «فورد» أن يشيد به ككاتب أمريكا الرائد : «الأكثر ضميرا والأكثر إجادة والأكثر براعة» ، أما فى رأى «ادموند ولسن» فقد كان الكتاب يقدم نثرا «من الطراز الأول» و«أصيل لدرجة مدهشة». هذا النجاح الكبير تبعه صدور روايتين مهمتين : «وأيضا تشرق الشمس» (١٩٢٦، و«وداعا للسلاح» (١٩٢٩)، وربما كانت الثانية هى أفضل ما كتب، بيع من هذه الكتب مئات الألوف من النسخ، وقرأها الناس مرارا، وحسده كتاب كثيرون عليها. ومنذ سنة ١٩٢٧ عندما راجعت «دوروثى پاركر» مجموعة «رجال بلا نساء» فى الـ «نيويوركر»، أشارت إلى أن تأثير «هيمنجواى» خطير ـ «الشيء البسيط الذى يصفه يبدو وكأنه من السهل صنعه، ولكن انظر إلى الأولاد الذين يحاولون ذلك»(٣١).

يمكن محاكاة أسلوب «هيمنجواى»، ولكن أحدا لن يقلده بنجاح حيث إنه لا ينفصل عن موضوعات كتبه، خاصة جوها النفسى، كان هدف «هيمنجواى» هو تجنب أسلوب الوعظ والإرشاد الواضح مهما كان نوعه، وكان يكرهه فى الآخرين ... حتى العظماء كتب : «أنا معجب بـ «الحرب والسلام» بسبب الوصف الرائع والمؤثر للحرب وللناس، ولكنى لم أثق ذات يوم فى تفكير الكونت العظيم

... كان بإمكانه أن يبدع أكثر من ذلك وأصدق من ذلك عن أى واحد آخر، لكن تفكيره اليسوعى الأخرق لم يكن أفضل من تفكير مدرسى التاريخ الإيفانچليكيين، وقد تعلمت منه كيف أكره عقيدتى الخاصة بشدة وأن أكتب بصدق ومباشرة وموضوعية وتواضع قدر المستطاع»(٣٢). فى أفضل أعماله كان يتجنب دائما أن يعظ القارىء أو حتى يلكزه لينبهه لتصرف شخصياته، إلا أن كتبه تملؤها قيم علمانية جديدة وهذا نابع مباشرة من الطريقة التى يصف بها «هيمنجواى» الأحداث والأفعال. إن العمومية الدقيقة لأخلاقيات «هيمنجواى» هى التى تجعل منه ذلك النموذج للمثقف، كما أن طبيعة تلك الأخلاقيات هى التى تعكس أمريكيته : كان يرى الأمريكيين : أقوياء، نشطاء، فعالين، أو بالأحرى عنيفين، خلاقين، أصحاب إنجازات، غزاة، مسالمين، صيادين، وبنائين. كان هو نفسه عنيفا بالغ النشاط، وعندما كان يتحدث مع «پاوند» و«فورد» عن الأدب كان يتوقف من وقت لآخر لكى يلاكم شخصا وهميا فى استوديو «فورد». كان ضخما قوى البنية يجيد رياضات مختلفة كما كان من الطبيعى بالنسبة له كأمريكى وككاتب أن يعيش حياة فعل وأن يصفها.

كان موضوعه «الفعل»، ولم يكن هناك شىء جديد فى ذلك بالطبع. فقد كان «الفعل» أيضا هو موضوع «كپلنج». أبطاله وموضوعاته هى الجنود واللصوص والمهندسون والبحارة والحكام، الصغار والكبار، أى واحد وأى شىء يمكن أن يكون عرضة للتوتر والسلوك العنيف، حتى الحيوانات والآلات.

ولكن «كپلنج» لم يكن مثقفا، كان عبقريا. كان له «شيطان» ولكنه لم يكن يعتقد أن بإمكانه إعادة صياغة العالم بواسطة ذكائه فقط. لم يرفض تراث الحكمة الكبير الموروث، على العكس كان يتمسك بقوانينها. «هيمنجواى» أقرب إلى «بيرون»، وهو كاتب آخر كان ينشد الفعل ووصفه بمهارة شديدة. لم يكن يؤمن بمشروعات صديقه «شلى» الطوباوية والثورية والتى كانت تتراءى له مُثُلا مجردة أكثر منها مفاهيم يمكن تحقيقها، ولكنه صنع لنفسه قانونا أخلاقيا جاء كرد فعل على القانون التقليدى الذى كان يرفضه عندما ترك زوجته وترك انجلترا إلى الأبد.

بهذا المعنى، وبهذا المعنى فقط يمكن اعتباره مثقفا، لم يكتب أبدا عن نظامه بشكل رسمى رغم تماسك منطقه، ولكنه يتبدى فى رسائله ويملأ صفحات قصائده الطويلة «تشايلد هارولد» و«دون جوان». إنه نظام شرف وواجب، ليس مقننا ولكن الفعل يعبر عنه، ولا يستطيع أحد أن يقرأ تلك القصائد دون أن يتضح له كيف كان «بيرون» يرى الخير والشر وكيف كان يقيس البطولة بالتحديد. كان «هيمنجواى» يعمل بنفس الطريقة، بالتصوير. حدد مثله الأعلى ذات مرة بأنه القدرة على بيان «الفضيلة تحت ضغط»، ولكنه لم يوضح أكثر من ذلك، ربما كانت قيمة عصية على التعريف المحدد، ولكنها كانت قادرة وبلا شك أو حدود على التصوير، وتلك هى القوة الدافعة وراء جميع أعمال «هيمنجواى».

رواياته روايات فعل، وهذا فى ذاته يجعلها روايات أيديولوچية، فبالنسبة لـ «هيمنجواى» لا يوجد شىء اسمه الفعل المحايد أخلاقيا. حتى وصف وجبة غذاء يعتبر تعبيرا أخلاقيا طالما هناك أشياء صالحة أو غير

صالحة للأكل وطريقة جيدة أو رديئة للأكل. أى عمل يمكن أن يؤدى على نحو صحيح أو خاطىء وأن يكون نبيلا أو غير نبيل. المؤلف نفسه لا يحدد «الأخلاقى»، ولكنه يقدم كل شيء فى إطار أخلاقى ضمني بحيث تتكلم الأحداث عن نفسها، الإطار شخصى ووثنى ومن المؤكد أنه ليس مسيحيا. والداه، خاصة أمه، كانا يجدان قصصه لا أخلاقية وأحيانا يكون ذلك بوضوح، وكانت تكتشف فيها الحس الزائف والتجديفى، الذى كان «هيمنجواى» يقوله أو يلمح إليه هو أنه كانت هناك دائما طرق سليمة أو خاطئة لممارسة الزنا أو السرقة أو القتل، وجوهر أدبه هو مراقبة الملاكمين والصيادين ومصارعى الثيران والجنود والكتاب والرياضيين أو أى شخص تقريبا لديه مهارة معينة أو يقوم بعمل محدد ويحاول أن يعيش حياة جيدة حسب قيم كل منهم ... وعادة ما يفشل. والمآسى تحدث لأن القيم نفسها يتضح أنها خاطئة أو متوهمة أو بسبب الضعف الكامن أو النفاق الخارجى أو تشابك الحقائق الموضوعية وتداخلها. ولكن الفشل يمكن تعويضه برؤية الحقيقة، بامتلاك الشجاعة على رؤية الحقيقة ومواجهتها ، وشخصيات «هيمنجواى» تقف أو تسقط بكونها صادقة أو العكس، الصدق هو المكون الأساسى فى نثره، وهو الخيط الوحيد الذى يربط كل نظامه الأخلاقى ، وهو سبب تماسكه.

بعد أن صنع «هيمنجواى» أسلوبه وعالمه الأخلاقى، وجد نفسه يعيشهما معا. فقد أصبح كما كان : الضحية والسجن وعبد خياله الخاص ومجبرا على تنفيذ ذلك كله فى حياته العملية ، ولم يكن «هيمنجواى» شاذا فى ذلك أيضا. فالشاعر «بيرون» بمجرد أن نشر الرباعية الأولى من «تشايلد هارولد» وجد نفسه يسير على الدرب الذى حددته، ربما كان عليه أن يغير الاتجاه قليلا بكتابة «دون چوان» ، ولكنه لم يترك لنفسه خياراً حقيقيا سوى أن يحيا كما كان يغنى ... ولكنها بالنسبة لـ «بيرون» كانت مسألة ذوق وقسر. كان يجد متعة فى لعب دور مطارد النساء ومدعى البطولة والمحرر.

نفس الشيء بالنسبة لـ « أندريه مالرو» معاصر «هيمنجواى» : روائى و«مثقف / فعل» آخر، ثائر ومستكشف وباحث مغامر عن الكنوز الفنية، بطل مقاومة اختتم حياته بمنصب وزير يجلس على يمين «ديجول» . أما بالنسبة لـ «هيمنجواى» فالمرء يقف متحيرا، مطاردته للحياة الحقيقية، حياة الفعل كانت عملية نشاط ذهنى، بمعنى أنها كانت حيوية بالنسبة لنوع الأدب الذى كان يكتبه، وكما يقول البطل «روبرت جوردان» فى رواية الحرب الإسبانية : «لمن تدق الأجراس؟» (١٩٤٠) : «كان يجب أن يعرف كيف كان ذلك بالفعل، وليس كيف كان ينبغى أن يكون»، «هيمنجواى» المثقف المهووس بالفعل العنيف كان شخصا واقعيا. أحد زملائه من دقيقى الملاحظة فى «تورنتوستار» يصفه عندما كان فى العشرين من عمره . «يجمع بين الحساسية المرتجفة، والانشغال بعنف غير محدود»، كان يستمتع بكل رياضات والده خارج المنزل وأكثر منها : التزلج على الجليد، الصيد فى أعالى البحار، الصيد فى الغابات، ..... الحرب، ولم يكن هناك أدنى شك فى شجاعته عند الضرورة.

مراسل «نيويورك تيمز» ـ هربرت ماثيوز ـ يصف كيف أنقذه «هيمنجواى» من الغرق بشجاعة نادرة

أثناء معركة «نهر ابرو» سنة ١٩٣٨ : «كان رجلا عظيما عند أى مأزق»(٣٣). كما أدلى الصيادون البيض الذين أخذوه معهم فى رحلة صيد فى شرق افريقيا بشهادة مماثلة، وكان ذلك اختبارا جيدا. الأكثر من ذلك أن شجاعته لم تكن هوجاء أو غريزية. كانت شجاعة عقلية ، وهناك نوادر كثيرة تدل على أن حاسة الخطر لديه كانت حادة، إذ يعرف معنى الخوف وكيف يقهره. ولم يصف أحد الجبن بكل تلك الحيوية مثله، وقد جعل القارىء يشعر بالرغبة لأن يعيش رواياته. ذلك هو سبب النمو السريع للصورة التى رسمها «هيمنجواى» للإنسان / الفعل.

ومثل «روسو» وكثير من المثقفين الذين جاؤوا من بعده، كانت صورة «هيمنجواى» المجسمة المرئية، نقيض الصورة القديمة المخملية للرومانسيين والتى كانت صالحة فى زمانها، صنع صورة جديدة للنزعة الرجولية : البدلة السفارى، حزام الرصاص للكتف، البنادق، القبعة المدلاة على الرأس، رائحة البارود، التبغ، الويسكى..

أحد هواجسه كان أن يضيف عدة سنوات إلى عمره. فى العشرينيات رقى نفسه إلى «بابا» بسرعة، آخر فتاة يعرفها هى «إبنة». منذ بداية الأربعينيات أصبح «بابا هيمنجواى» شخصية مألوفة فى المجلات المصورة وشهيرا مثل نجوم «هوليود» وأكبر شخص فى التاريخ يعطى مقابلات صحفية واستجابات لكاميرات المصورين. وفى وقت ما كان وجهه ذو اللحية البيضاء أكثر شهرة من وجه «تولستوى».

ولكن فى محاولته لتجسيد عالمه وقيمه، ولأن يحيا الأسطورة التى خلقها، كان «هيمنجواى» يصعد أيضا إلى طاحونة لن يسمح لنفسه بالنزول من عليها حتى الموت. ومثلما كانت أمه تنظر إلى الحب الأموى كحساب فى البنك، كان «هيمنجواى» باستمرار يودع التجربة والخبرة فى حسابه ثم يسحب منه لصالح أدبه.

الحرب الإيطالية ١٩١٧ ـ ١٩١٨ كانت هى رأسماله الأول الذى أنفق معظمه فى العشرينيات معوضا مصروفاته بالرياضة المجنونة ومصارعة الثيران . فى الثلاثينيات كانت الإيداعات قيمة..... رحلات الصيد وتجربة الحرب الأهلية الإسبانية الثرية، ولكنه كان كسولا فى استغلال فرص الحرب العالمية الثانية، كما أن تورطه المتأخر فيها لم يضف إلى «رأسماله الكتابى» سوى القليل. بعد ذلك كان أهم إيداعاته هو صيد الأسماك وصيد الحيوانات، محاولاته للعودة إلى دائرة القنص الكبير ومصارعة الثيران كانت هزلية فى معظمها.

وقد لاحظ «ادموند ولسون» التناقض سواء فى الكتابة أو النشاط : «السيد الشاب والمنتحل العجوز». والحقيقة أن «هيمنجواى» واصل الاستمتاع ببعض هواياته العنيفة ولكن ليس بالقدر الذى كان يدعيه. كان هناك هبوط فى الحماس للحياة البرية وكما لو أنه كان يفعل ذلك بإرادته. فى رسائله إلى ناشر أعماله «تشارلز سكربنر» نجد إشارات زائفة ومدعية عن نشاط كبير. كتب إليه فى ١٩٤٩ : «احتفالا بعيد ميلادى الخمسين .. مارست الجنس ثلاث مرات، أصبت عشر حمامات (سريعة جدا) فى نادى الصيد،

شربت كثيرا مع الأصدقاء وجُبت المحيط طوال المساء بحثا عن السمك الكبير»(٣٤).

صحيح ؟ غير صحيح ؟ مبالغة ؟ لا أحد يعرف !

لا شيء من كلام «هيمنجواى» عن نفسه، والقليل من كلامه عن الآخرين، يمكن أن تأخذه على محمل الصدق دون دليل. ورغم الأهمية المركزية للصدق فى كتاباته، إلا أنه كان يؤمن ـ شأن المثقفين جميعا ـ بأن الصدق لابد أن يكون الخادم المطيع له. كان يعتقد، وأحيانا يتباهى، أن الكذب يعد جزءا من تدريبه ككاتب. كان يكذب بوعى ودون تفكير.

يعرف بالتأكيد أنه يكذب عمدا، كما يتضح ذلك فى قصته الجميلة «بيت الجندى» من خلال شخصية «كربز» : كتب : «من الطبيعى أن يكون أفضل الكتاب كذابين، جزء كبير من حرفتهم هو أن يكذبوا .. أن يخترعوا .. إنهم كثيرا ما يكذبون دون وعى، ثم بعد ذلك يتذكرون كذبهم بندم شديد»(٣٥). ولكن الدليل يوضح أن «هيمنجواى» كان يكذب من قبل أن يخترع اعتذارا رسميا عن ذلك. كان يكذب وهو فى الخامسة عندما ادعى أنه استطاع أن يوقف حصانا جامحا بمفرده. أخبر والديه أنه خطب لنفسه ممثلة السينما «ماى مارس» رغم أنه لم يكن قد رآها فى حياته سوى فى فيلم «ميلاد أمة»، وكان يردد ذلك أمام زملائه فى «كانساس سيتى» وبتفاصيل كثيرة منها أن خاتم الخطبة كان ثمنه ١٥٠ دولار.

أحيانا كان كذبه بينا ومزعجا كما فعل وهو فى الثامنة عشرة عندما أخبر أحد أصدقائه أنه اصطاد سمكة، بينما كان قد اشتراها من السوق. كان يروى قصصا كاذبة عن احترافه الملاكمة فى «شيكاغو»، ورغم كسر أنفه فى مباراة استمر فى اللعب. ادعى أنه من أصول هندية وأن له بنات فى الهند.

سيرته الذاتية «حفل متنقل» لا يمكن الاعتماد عليها، وشأنها شأن اعترافات «روسو» تصبح أكثر خطورة عندما تبدو صريحة ، كان يكذب عادة على والديه وإخوته ويكذب فى كلامه عنهم وأحيانا لأسباب غير واضحة. وهكذا قال أن أخته «كارول» اغتصبت وهى فى الثانية عشرة من قبل أحد الشواذ جنسيا (وهذا غير صحيح)، وبعد ذلك كان يزعم أنها طلقت، وأحيانا أنها قد ماتت. بينما كانت سعيدة فى حياتها الزوجية مع شخص يدعى «جاردينر» كان «هيمنجواى» يكرهه»(٣٦).

كثير من أكاذيب «هيمنجواى» الكبيرة والمتكررة كان يتعلق بخدمته فى الحرب العالمية الأولى. معظم الجنود بالطبع، حتى الشجعان منهم، يكذبون عن الحروب التى شاركوا فيها، والتقصى التفصيلى لحياة «هيمنجواى» يثبت أنه كان مثلهم(٣٧). اختراعاته عما حدث فى «إيطاليا» كانت كاذبة لدرجة غير عادية .

أولا : قال أنه تطوع فى الجيش ولكنهم رفضوه لضعف نظره وهذا غير ثابت فى السجلات وغير محتمل أن يكون قد حدث. من المؤكد أنه لم يكن مقاتلا ... وكان ذلك باختياره .

قال فى مناسبات مختلفة، بما فى ذلك مقابلات صحفية، أنه قد خدم فى فوج المشاة الإيطالى رقم ٦٩ وحارب فى ثلاث معارك كبيرة. ادعى أنه كان ضمن فوج مفرقعات «أرديتى» كما أخبر صديقه البريطانى العسكرى «شينك ـ دورمان سميث» أنه قاد هجوما فى «مونت جرابا» أصيب أثناءه بجرح بالغ. أخبر رفيقه فى الحرب الأهلية الإسپانية «الچنرال جوستان ديوران» أنه كان قائد سرية ثم كتيبة وهو لم يتجاوز التاسعة عشر من عمره .

صحيح أنه جرح ـ لاشك فى ذلك ـ ولكنه كان يكذب مرارا وتكراراعن المناسبة التى جرح فيها وعن طبيعة الإصابة . اخترع قصة أنه قد أصيب فى كيس الخصيتين، مرتين وليس مرة واحدة وأنه كان يريح خصيتيه على وسادة. قال أنه سقط مرتين بنيران مدفع ماكينة وأصيب اثنتين وثلاثين مرة بخمس وأربعين طلقة. وفوق كل ذلك قال إنه قد عمد كاثوليكيا على ما كانت تتصوره الممرضات فراش موته. وكل الأقوال السابقة غير صحيحة.

الحرب أطلقت عنان الكذاب فى شخصية «هيمنجواى». فى «إسپانيا» كان يغار من مهارات «ماثيوز» كمراسل حربى، فكان يرسل بتقارير كاذبة من جبهة «تيريول» :

«أرسلت أول رسالة عن الحرب إلى نيويورك قبل «ماثيوز» بعشر ساعات، وفوق ذلك عدت وحضرت الهجوم مع قوات المشاة، دخلت المدينة خلف سرية ديناميت وثلاث سرايا مشاة ثم سجلت ذلك وحصلت على أخطر رسالة عن القتال من بيت إلى بيت استعدادا لإرسالها»(٣٨). كذب أيضا عندما قال أنه كان أول من دخل «پاريس» المحررة سنة ١٩٤٤، والجنس مثل الحرب أيضا .. أطلق الكذب فى «هيمنجواى». إحدى حكاياته الإيطالية المختارة والمكررة أن امرأة من صقلية أخذته أسيرا جنسيا، كانت صاحبة فندق واحتجزته وكان عليه أن يمارس الجنس معها لمدة أسبوع بلا توقف. أخبر «برنارد بيرنسون» (أحد الذين تلقوا منه رسائل كثيرة كاذبة) أنه عندما انتهى من «وأيضا تشرق الشمس» اصطاد فتاة، ولكن زوجته جاءت فجأة فاضطر إلى تهريب الفتاة من السطح ... وهذا كله كذب !

كذب بخصوص شجاره الشهير مع «ذلك المدعو كيك لويب» فى «بامبلونا» سنة ١٩٢٥ قائلا إن «لويب» كان معه بندقية وهدده بالقتل. (كتب الحادث بشكل مختلف فى رواية وأيضا تشرق الشمس). كذب عن كل زيجاته وطلاقاته وتسوياته المادية سواء مع من يهمهن الأمر أو مع أمه. كذب عن زوجته الثالثة «مارتا جلهورن» كذبا صراحا. كانت هى أيضا تقول إنه «أكبر كذاب منذ منشاوزن»، معظم حكاياته التى قد تبدو مغطاة بغطاء من تفاصيل سيرته الذاتية يمكن أن تكون من اختراعه. كل ما يمكن أن نقوله هو أن احترامه للصدق كان قليلا. وبالتالى فقد كان مناسبا وجاهزا لتلك «الحقبة الهابطة والكاذبة» من الثلاثينيات.

لم يعتنق «هيمنجواى» أبدا أى مبادىء سياسية متسقة، كانت قيمه ومبادئه كلها عن أمور أو ولاءات شخصية. كان صديقه ـ ذات يوم ـ «دوس پاسوس» يقول أن «هيمنجواى» ـ كشاب ـ : «كان لديه

أذكى أحد الأدمغة لكى يعرى الادعاءات السياسية»(٣٩)، ولكن من الصعب أن نجد دليلا كافيا يؤكد ذلك. فى انتخابات ١٩٣٢ كان «هيمنجواى» يؤيد الاشتراكى «ايوچين دبز»، ولكنه فى ١٩٣٥ كان قد أصبح مناصرا قويا لخط الحزب الشيوعى فى معظم القضايا.

فى عدد «الجماهير الجديدة» ـ صحيفة الحزب الشيوعى ـ الصادر فى ١٧ سبتمبر ١٩٣٥ نشر مقالا عنيفا بعنوان «من القاتل»/ موجها اللوم للحكومة عن وفاة أربعمائة وخمسين من عمال السكك الحديدية السابقين فى إعصار «فلوريدا»، كانوا يعملون فى مشروعات فيدرالية. المقال يتسم بروح الدعاية والتهييج الشيوعى.

ويبدو أن نظرة «هيمنجواى» على مدى ذلك العقد، كانت هى أن الحزب الشيوعى هو القائد الشرعى الوحيد الموثوق به فى الحملة ضد الفاشية، وأن توجيه النقد إليه أو الإسهام فى أى نشاط معارض له يعتبر خيانة. كان يقول إن أى شخص يسير فى خط مضاد للحزب الشيوعى «إما أحمق أو وغد»، وأنه لن يسمح بوضع اسمه على ترويسة مجلة الجناح اليسارى الجديدة «كن» الصادرة عن «اسكواير» عندما اكتشف أنها ليست صوتا للحزب الشيوعى. كان هذا التوجه يحكم موقفه من الحرب الأهلية الإسبانية التى رحب بها على أساس مهنى كمصدر لمادته : «الحرب الأهلية أفضل حرب بالنسبة للكاتب، إنها الأكثر اكتمالا»(٤٠).

والغريب أنه قَبِلَ خط الحزب الشيوعى عن الحرب من البداية إلى النهاية بكل ما فيه من فجاجة. قام بزيارة الجبهة أربع مرات (ربيع وخريف ١٩٣٧ وربيع وخريف ١٩٣٨)، ولكنه حتى قبل أن يغادر «نيويورك» كان قد قرر كل أسباب الحرب الأهلية، ووقع بالفعل مع «دوس پاسوس» و«ليليان هيلمان» و«أرشيبالد ماكليش» لعمل فيلم دعائى بعنوان «إسپانيا فى اللهيب»، وكتب يقول : «قلبى دائما مع الناس العاملين المُستَغَلين ضد الملاك المقيمين فى أراض بعيدة، حتى وإن كنت أشرب مع الملاك وأصطاد الحمام معهم».

كان الحزب الشيوعى هو «ناس هذه البلاد»، وكانت الحرب صراعا بين «الناس» و«الملاك الغائبين»، «البربر، الطليان، الألمان»، وكان يقول إنه يحب ويحترم الحزب الشيوعى الإسبانى «أفضل ناس» فى الحرب!!

كان خط «هيمنجواى»، وتمشيا مع الحزب الشيوعى هو التقليل من قيمة دور الاتحاد السوفيتى، خاصة فى توجيه سلوك الحزب الشيوعى الإسبانى الضارى فى السياسة الداخلية الملطخة بالدماء فى إسبانيا الجمهورية، الأمر الذى أدى إلى قطيعة مخجلة مع «دوس پاسوس».

كان مترجم «پاسوس» وهو «جوسيه روبلز» رئيسا سابقا لجامعة «چون هوپكنز» وانضم إلى القوات الجمهورية عند بداية الحرب وكان صديقا لـ «أندريس نين» رئيس حركة POUM الفوضوية. كما

كان مترجما للجنرال «جان انطونوڤيتش بيرزن» رئيس البعثة العسكرية السوڤيتية فى «إسپانيا» وبالتالى فقد كان يعرف بعض أسرار تعاملات «موسكو» مع وزارة الدفاع فى «مدريد». كان «بيرزن» قد قتل على يد «ستالين» الذى أصدر فيما بعد أوامره للحزب الشيوعى الإسپانى بتصفية الـ POUM كذلك. تم تعذيب «نين» حتى الموت وألقى القبض على مئات آخرين متهمين بالنشاط الفاشى وتم إعدامهم. كما اتهم «روبلز» بالتجسس وأعدم سرا رميا بالرصاص، وقلق «دوس پاسوس» لاختفائه. كان «هيمنجواى» الذى يرى نفسه ضليعا فى الشئون السياسية و«پاسوس» مستجدا فيها، يسخر منه لذلك القلق. وفى فندق «جى لورد» فى «مدريد» والذى كان مأوى لقيادات الحزب الشيوعى حيث ينزل فيه «هيمنجواى» سأل صديقه «بيب كونيتا نيللا» (ظهر فيما بعد أنه المسئول عن معظم إعدامات الحزب الشيوعى) عما حدث. وأكد له أن «روبلز» كان حيا، مقبوض عليه بالتأكيد، ولكنه كان ينتظر محاكمة عادلة، وصدق «هيمنجواى» ذلك وأخبر «دوس پاسوس».

وفى الحقيقة كان «روبلز» قد أعدم بالفعل، وعندما اكتشف ذلك متأخرا ـ عن طريق صحفى كان قد جاء تواً من مدريد ـ أخبر «پاسوس» بأنه كان مذنبا، وأن من يصدق غير ذلك إنسان أحمق.

ولكن «پاسوس» الذى حزن كثيرا، رفض أن يصدق أن «روبلز» كان مذنبا، وراح يهاجم الشيوعيين علنا، وانفجر «هيمنجواى» : «تدور فى اسپانيا حرب بين الناس الذين اعتدت أن تكون إلى جانبهم وبين الفاشست، فإذا كنت بكراهيتك للشيوعيين تستطيع أن تجد مبررا لهجومك على الذين مازالوا يخوضون الحرب من أجل المال، فإنى أعتقد أنك على الأقل يجب أن تصحح معلوماتك.» ولكن «پاسوس» كما اتضح، كان قد حصل على معلومات صحيحة : كان هيمنجواى» هو الساذج البرىء، المغفل(٤٢).

وقد بقى هكذا حتى نهاية الحرب ولبعض الوقت بعدها. ووصل عمله من أجل الشيوعيين ذروته فى ٤ يونيو ١٩٣٧ عندما تحدث أمام المؤتمر العام الثانى للكتاب، الذى عقده الحزب الشيوعى الأمريكى فى قاعة «كارنيجى» فى «نيويورك» من خلال منظمة جبهوية. كان من رأى «هيمنجواى» أن الكتاب عليهم أن يحاربوا الفاشية لأنها النظام الوحيد الذى لن يمكنهم من قول الحقيقة، وأن من واجب المثقفين أن يذهبوا إلى إسپانيا ويفعلوا شيئا بأنفسهم، عليهم أن يكفوا عن الجدل حول أمور مذهبية فى مقاعدهم الوثيرة ويبدءوا القتال «تدور الآن هناك حرب سوف تستمر لفترة طويلة، فمن يريد من الكتاب أن يفهمها فليذهب إليها»(٤٣).

ولكن «هيمنجواى» كان مغفلا بكل تأكيد، وفى نفس الوقت كان يشارك فى أكذوبة بكل وعيه، حيث يتضح من روايته عن الحرب الإسپانية «لمن تدق الأجراس؟» أنه كان على علم بالجانب الأسود للقضية الجمهورية، وأنه ربما يكون قد عرف بعض الحقيقة عن الحزب الشيوعى الإسپانى بنفسه، ولكنه لم ينشر الكتاب إلا فى سنة ١٩٤٠ بعد أن كانت قد انتهت.

طوال فترة الحرب كان «هيمنجواى» يتبع نفس خط أولئك الذين كانوا يحاولون منع كتاب «جورج

أورويل» : «الثناء على قطالوينا»، وأن الحقيقة بعيدة جدا عن البراعة السياسية والعسكرية. وبالتالى فإن حديث «هيمنجواى» أمام مؤتمر الكتاب كان مخادعا تماما، كما كان غريبا، لأنه لم يبد أى رغبة فى أن يعمل بالنصيحة التى يقدمها للآخرين : «أن يذهب إلى هناك ليفهم الحرب». وعندما بدأت مشاركة أمريكا فى الحملة المناهضة للنازية علنا فى سنة ١٩٤١ لم ينضم إليها. فى ذلك الوقت كان قد امتلك منزلا فى «فينكافيجيا»، فى ضواحى «هاڤانا» فى كوبا، ظل مكان رقامته الرئيسى معظم سنوات عمره بعد ذلك. كما أن نجاح روايته «لمن تدق الأجراس؟» التى أصبحت من أكثر الكتب مبيعا فى القرن العشرين حقق له دخلا هائلا أراد أن يتمتع به فى رياضته المفضلة الآن وهى صيد الأسماك فى أعالى البحار، وكانت النتيجة مرحلة مخزية أخرى فى حياته عرفت بـ : «مصنع اللصوص»(٤٤).

كان لدى «هيمنجواى» ميل شديد لعقد صداقات فى مجتمع قاع المدينة، خاصة فى الدول الناطقة بالإسپانية. كان يحب الشخصيات الملتبسة المريبة، الذين تتكون منهم تجمعات مصارعى الثيران ورواد المقاهى، والقوادون والداعرات وصيادو الأسماك ومخبرو الشرطة، إلى غير أولئك من الذين كانوا يفرحون ويستجيبون لدعوته لهم على مشروب أو منحهم بقشيشا. فى عام ١٩٤٢ أصبح هاجسه هو الخطر المحدق من استيلاء الفاشست على الحكم. كان يقول أن هناك ثلاثمائة ألف من الكتائبيين أعضاء الحزب الفاشستى والمشهورين بالعنف، وأنهم قد ينتفضوا ليحولوا «كوبا» إلى نقطة نازية متقدمة على عتبة أمريكا. وكان يقول أن لديه معلومات تفيد أن الغواصات الألمانية موجودة فى المياه الكوبية، وقدم حسبة تقول أن قوة قوامها ألف غواصة ، يمكن أن تنزل ثلاثين ألفا من جنود النازى فى كوبا لمساعدة المتمردين. ومن الصعب أن نؤكد أنه كان يصدق تلك الأشياء الغريبة : طوال حياته كان «هيمنجواى» عبارة عن سطح خارجى يبدو متماسكا، ولكنه يخفى تحته لجة من السذاجة فى أى موضوع. ربما يكون قد تأثر برواية التجسس التى كتبها «إرسكين شيلدر» : «لغز الرمال»، فقد أقنع صديقه السفير الأمريكى «برادن» بضرورة عمل شىء. اقترح «هيمنجواى» أن يجند ويقود مجموعة من العملاء من بين أصدقائه فى قاع المجتمع لمراقبة عملاء الفاشست المشكوك فيهم، ويستخدم لنشه الخاص بعد تسليحه من أجل مراقبة المناطق المحتمل أن تأتى إليها الغواصات، وقد وافق «برادن» على الخطة وادعى فيما بعد أنها فكرته(٤٥).

ونتيجة لذلك كان «هيمنجواى» يحصل على مائة دولار شهريا ليدفع لستة عملاء يعملون كل الوقت، ولعشرين آخرين متنكرين، اختارهم من بين معارفه فى المقاهى والبارات. وفى وقت تقنين توزيع السلع التموينية كان يحصل على ١٢٢ جالونا من الجازولين فى الشهر لتشغيل اللنش الخاص به، والذى كان مزودا بمدفع ماكينة وعدد من القنابل اليدوية.

وجود «مصنع اللصوص» هذا كما كان يطلق عليه، رفع من مكانته بين رواد المقاهى والبارات فى «هاڤانا» وإن كان لا يوجد أى دليل على أنهم نجحوا فى اكتشاف جاسوس واحد للفاشست.

أحد الأسباب أن «هيمنجواى» وقع فى الخطأ الأولى وهو أنه دفع بسخاء من أجل تقارير مثيرة. مكتب

التحقيقات الفيدرالى الذى كان غير راض عن تلك المغامرة المنافسة، أبلغ «واشنطن» بأن كل تقارير عصابة «هيمنجواى» كانت «غامضة ولا أساس لها من الصحة وذات طبيعة ميالة للإثارة .... كما أن معلوماته لا قيمة لها». أما «هيمنجواى» الذى كان على علم بعداء المكتب، فقد رد بأن جميع عملاء الـ FBI من أصول أيرلندية أو رومان كاثوليك أو مؤيدين لـ «فرانكو» و ... «ميتزون»، ولكنه كان يستفيد بحصة الوقود فى رحلاته للصيد فى أعالى البحار.

هذه الأحداث أدت إلى واحد من أعنف شجارات «هيمنجواى»، كان الچنرال «ديوران» من بين الذين أعجب بهم كثيرا فى «إسپانيا»، وهو الذى ألهمه شخصية بطله «روبرت جوردان» فى «لمن تدق الأجراس؟». كان «ديوران» النموذج الذى يريد «هيمنجواى» أن يكونه ـ المثقف الذى يتحول إلى قائد استراتيجى. كان موسيقيا وصديقا لـ : «دى ڤالا» و«سيجوڤيا» وواحدا من صفوة مثقفى «إسپانيا» قبل الحرب، ولكنه كان يعتنق ما كان «هيمنجواى» يصادق عليه وهو أن «الحرب الحديثة» تحتاج إلى «ذكاء» وأنها عمل عقلى .. والحرب أيضا شعر .. شعر مأسوى(٤٦).

كان ضابط احتياط فى الجيش الإسپانى فى سنة ١٩٣٤ واستدعى فى بداية الحرب الأهلية، وسرعان ما أصبح جنرالا بارزا. وفى النهاية كان قائدا لفيلق الجيش العشرين.

وبعد انهيار الجمهورية حاول «ديوران» أن يتطوع فى الجيش الأمريكى أو البريطانى وفشل، وعندما اخترع «هيمنجواى» فكرة «مصنع اللصوص» استخدم نفوذه لربط «ديوران» بالسفارة الأمريكية وجعله مسئولا عن المشروع. فى نفس الوقت كان الجنرال وزوجته الإنجليزية «برونتى» ضيوفا عليه فى الـ «فينكا» ولكن «ديوران» اكتشف بسرعة أن الحكاية كلها كانت تهريجا فى تهريج وأنه كان يضيع وقته فتقدم لوظيفة أخرى. وحدث شجار شخصى عنيف ضم «برونتى» و«مارتا» ـ زوجة همنجواى» آنذاك ـ وانتهى بانفجار أثناء حفل غذاء بالسفارة. قطع «هيمنجواى» صلته بـ «ديوران» بعد ذلك، وعندما التقيا بالمصادفة فى مايو ١٩٤٥ قال له «هيمنجواى» من تحت أسنانه :

«لقد استطعت بنجاح أن تبقى بعيدا عن الحرب .. أليس كذلك» ؟

كان ذلك هو النموذج لانتهاء علاقات «هيمنجواى» بأصدقائه السابقين. الكاتب الذى كان يشيد فى أدبه بمزايا الصداقة كان من الصعب عليه أن يحتفظ بصديق لفترة طويلة. وكما كان الحال بالنسبة لكثير من المثقفين ـ روسو وإبسن مثلا ـ كانت خلافات «هيمنجواى» ومشاجراته مع زملائه الكتاب شديدة وشريرة. كان «هيمنجواى» شديد الغيرة ـ حتى بمقاييس الحياة الأدبية ـ من مواهب ونجاحات الآخرين. وبانتهاء سنة ١٩٣٧ كان قد تخاصم تقريبا مع كل من عرفهم من الكتاب باستثناء واحد فقط. الكاتب الوحيد الذى لم يهاجمه فى سيرته الذاتية كان «إزرا پاوند». من البداية إلى النهاية كان يكتب عنه بإعجاب. منذ بداية تعارفهما أعجب بعطف «پاوند» على الكتاب وبعدم أنانيته. كان يقبل النقد العنيف منه، والذى لا يمكن أن يقبله من غيره، بما فى ذلك تلك النصيحة الحادة فى ١٩٢٦ بأن يكتب رواية

بدلا من نشر مجموعة قصصية. ويبدو أنه كان يحب فى شخصية «پاوند» فضيلة كان يعرف أنها تنقصه شخصيا، وهى غيبة الغيرة المهنية تماما(٤٧).

عندما كان «پاوند» معرضا لخطر الإعدام بتهمة الخيانة العظمى فى سنة ١٩٤٥ بعد إذاعة ثلاثمائة حديث لصالح المحور، فإن «هيمنجواى» تحرك فعلا لإنقاذ حياته. قبل ذلك بعامين عندما وجهت إليه التهمة رسميا قال «هيمنجواى» : «لا شك أنه مجنون، أعتقد أنه يمكن إثبات جنونه منذ آخر رباعية كتبها .. تاريخه طويل فى الكرم والمساعدات النزيهة لغيره من الفنانين وهو واحد من أعظم الشعراء الأحياء».

والحقيقة أن «هيمنجواى» هو الذى كان وراء الدفع الناجح بأن «پاوند» كان مجنونا، واحتجازه فى إحدى المصحات العقلية ونجاته من غرفة الغاز(٤٨).

كذلك تجنب «هيمنجواى» الخصام مع «جويس» ربما لعدم وجود فرصة، وربما لأنه كان مستمرا فى إعجابه بأعماله منذ قال عنه ذات مرة : «إنه الكاتب الوحيد الذى أحترمه بين الكتاب الأحياء» .. أما بالنسبة للآخرين فالحكايات تبعث على الأسف، تخاصم مع «فورد مادوكس فورد» و«سنكلير لويس» و«جيرترود ستاين» و«ماكس إيستمان» و«دوروثى باركر» و«هارولد لويب» و«أشيبالد ماكليش» .. وغيرهم. صراعاته الأدبية أفلتت من داخله سلسلة من أعمال الحقد الشرير إلى جانب الجنوح إلى الكذب. جزء كبير من كذبه يتعلق بالكتاب الآخرين. فى سيرته رسم صورة لـ «ويندهام لويس» : «لا يبدو عليه الشر، يبدو عليه القبح .... عيناه عينا مغتصب فاشل». وواضح هنا أنه كان يثأر لنفسه من نقد كان «لويس» قد وجهه إليه(٤٩) ....، وفى نفس الكتاب يطلق سلسلة من الأكاذيب عن «سكوت فيتز جيرالد» وزوجته «زيلدا»، التى كانت قد خرقت ذات «هيمنجواى» المتضخمة، بينما كان زوجها يحبه ولم يسبب له أى ضرر. أما هجوم «هيمنجواى» العنيف والمتكرر على تلك الروح الهشة فمن الصعب فهمه إلا فى إطار الغيرة المحمومة. يقول «هيمنجواى» إن فيتزجيرالد» أخبره : «أنت تعلم أننى لم أنم مع أى امرأة سوى «زيلدا»، التى قالت أن تكوينى لا يمكن أن يرضى أى امرأة ... وذلك لا يرضيها». ودخل الإثنان إلى دورة مياه للرجال وأخرج «فيتز جيرالد» قضيبه للمعاينة! فأكد له «هيمنجواى» : «أنت لائق تماما» ... كتابة كأنها مقطع من رواية.!

كانت أقسى وأعنف خصومات «هيمنجواى» مع «دوس باسوس»، وهى الأشد إيلاما وذلك بسبب طول العلاقة التى كانت بينهما. من الواضح أن الغيرة كانت هى السبب .

«باسوس» ظهر على غلاف مجلة «تايم» فى سنة ١٩٣٦ (بينما كان على «هيمنجواى» أن ينتظر عاما آخر)، ثم جاءت حادثة «روبلز» فى «إسپانيا» وبعدها خلاف مع «پاسوس» و«كاتيا» فى «نيويورك» وكانت صديقة قديمة له. قال «هيمنجواى» أن «پاسوس» : متشرد، يقترض الأموال ولايردها، وأن زوجته مصابة بجنون السرقة، وأن هناك كلاما كثيراً فى السر عن أصله البرتغالى وميلاده غير الشرعى. وقد حاول

«هيمنجواى» أن يضع تلك العلومات فى كتاب فى سنة ١٩٣٧ ولكن ناشروه نصحوه بحذفها حتى لا يقع تحت طائلة القانون. كما أخبر «وليم فوكنر» فى سنة ١٩٤٧ أن «پاسوس» كان نَفَّاجا رهيبا (على أساس أنه لقيط) .

ولكى ينتقم «پاسوس» لنفسه من «هيمنجواى» صوره فى شخصية «چورچ ألبرت وارز» الكريهة فى روايته «البلد المختار» -١٩٥١- الأمر الذى جعل «هيمنجواى» يخبر «بيل سميث» صهر «پاسوس» بأنه كان يربى فى كوبا مجموعة من الكلاب والقطط المتوحشة لكى تهاجم اللقطاء البرتغاليين الذين يكتبون الأكاذيب عن أصدقائهم. وصوب سهاما أخرى نحو «پاسوس» فى «حفل متنقل» ، - كان مثل السمكة الدليل التى ترشد القرش إلى فريسته مثل «جيرالد ميرڤى» ، وأنه قد نجح فى تدمير زواج «هيمنجواى» الأول(٥٠) .

وهذا الكلام الأخير ليس صحيحا، لأن «هيمنجواى» لم يكن فى حاجة لأية مساعدة خارجية لكى يخرب زواجه الأول .

كان فى أدبه يكتب عن النساء عادة بفهم واضح، كان يشترك مع «كپلنج» فى موهبة تنويع أسلوب تناوله الذكورى مع تقديم وجهة النظر الأنثوية بشكل مؤثر وغير متوقع .

كان هناك كثير من التضارب حول مسحة أنثوية (أو ربما ميل لارتداء ملابس الجنس الآخر أو الانتماء إليه) فى «هيمنجواى» نابعة من هوسه الواضح بالشَّعر، خاصة الشعر القصير فى النساء، وينسب ذلك إلى أن أمه كانت ترفض أن تلبسه ملابس ولد، وتركت شعره دون أن تقصه لوقت طويل جدا(٥١)

الواضح أن «هيمنجواى» وجد من الصعب أن يقيم أى نوع من العلاقة المتحضرة مع امرأة،على الأقل لفترة طويلة، إلا إذا كانت تلك العلاقة قائمة على خضوع تام من جانبها .

الأنثى الوحيدة التى أحبها من بين أفراد عائلته كانت شقيقته الصغرى «أرسولا» ، أو «أختى الحبيبة أورا» كما كان يسميها. وذلك كانت مفتونه به وكانت عبدة له. أخبر صديقا له فى سنة ١٩٥٠ أنه عندما عاد من الحرب فى سنة ١٩١٩ (كانت «أرسولا» فى السابعة عشرة)«كانت تنتظر دائما، نائمة على السلم فى مدخل الطابق الثالث المؤدى إلى غرفتى. كانت تريد أن تستيقظ عندما أجىء، لأنها كانت تعرف أنه من غير المفضل أن يشرب الإنسان بمفرده. كانت تشرب شيئا خفيفا معى حتى أنام، وتنام هى الأخرى لكى لا أكون وحيدا بالليل. كنا ننام والنور مضاء، إلا إذا أطفأته هى أحيانا عندما تكتشف أننى قد نمت، أو تضيئه إذا رأتنى مستيقظا»(٥٢) .

وربما يكون ذلك من اختراعه أو ربما يعكس فكرة «هيمنجواى» عن كيف يجب أن يكون سلوك المرأة معه. وسواء كانت تلك الرواية حقيقية أو كاذبة فإنه ما كان ليجد ذلك الضرب من الخنوع فى

الحياة. ثلاث من زوجاته الأربع كن خانعات خاضعات على نحو غير عادى بالمقاييس الأمريكية فى القرن العشرين ... ولكن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة له.

كان يحب التنويع والتغيير، والدراما .

كانت زوجته الأولى «هادلى ريتشارد سون» تكبره بثمان سنوات وكانت غنية جدا. عاش على أموالها إلى أن أصبحت كتبه تباع بأعداد كبيرة. كانت ممشوقة القوام وجذابة حتى أصيبت بالسمنة بعد أن حملت بطفله الأول «چاك» ـ بمبى ـ وفشلت فى التخلص من سمنتها فيما بعد(٥٣) .

لم يكن «هيمنجواى» يتردد فى أن يغازل نساء أخريات فى وجودها مثل «ليدى توايزدن» التى ظهرت فى شخصية «برت آشلى» فى رواية «ثم تشرق الشمس» ، وكانت امرأة عابثة من «مونبارتاس» وسبب شجاره مع «هارولد لويب». تحملت زوجته «هادلى» كل ذلك الامتهان، ثم علاقة أخرى مع «پولين فايفر» ، فتاة جميلة لعوب، أغنى من «هادلى» ، كان أبوها واحدا من أكبر ملاك الأراضى وتجار الغلال فى «أركانساس» ، وقعت فى غرامه وأغوته ونجحت هى وهو فى إقناع «هادلى» بالسماح بوجود تلك العلاقة. ولم يكتفيا بذلك فأقحموها فى محاولة للانفصال ثم إلى الطلاق. قبلت ذلك وكتبت إلى «هيمنجواى» تقول : «لقد تزوجتك على الحلوة والمرة (وكانت تعنى ذلك فعلا)» ، كانت التسوية كريمة من جانبها، وكتب إليها «هيمنجواى» مبتهجا : «ربما يكون أسعد شىء بالنسبة لـ «بمبى» أن يكون له أما مثلك، كم أنا معجب بتفكيرك المستقيم، بعقلك، بقلبك وبيديك الجميلتين، وأدعو الله دائما أن يعوضك عن الأذى الذى ألحقته بك، يا أفضل وأصدق وأحب من عرفت»(٥٤) .

كان هناك عنصر بسيط من الصدق فى هذا الخطاب، وهو أن «هيمنجواى» كان يرى أن «هادلى» قد تصرفت بكل نبل، وكان قبل زواجه من «پولين» قد بدأ فى صنع أسطورة عن قداستها.

وكانت «پولين» من جانب آخر قد لاحظت أن «هادلى» لم تتعامل مع الطلاق بمنطق تجارى على أساس أن «هيمنجواى» لن يكون محظوظا فى المرة التالية، فاستخدمت ثروتها لتجعل حياتهما أكثر اتساعا. اشترت منزلا أنيقا فى «كى وست فلوريدا» ووسعته. وهو الذى جذبه إلى الصيد فى أعالى البحار والذى أحبه فيما بعد. انجبت له إبنا : «پاتريك» ولكنها عندما أعلنت فى سنة ١٩٣١ أنها كانت حاملا فى طفل آخر «جريجورى» بدأ الزواج فى الانهيار .. كان «هيمنجواى» الآن قد وجد بغيته وذوقه فى «هاڤانا» حيث تعرف على شقراء فى لون الفراولة «چين ماسون» زوجة رئيس الخطوط الجوية «پان ـ أميركان» فى كوبا، والتى كانت تصغره بأربعة عشر عاما. رشيقة .. جميلة .. تشرب كثيرا ... رياضية من الطراز الأول تستمتع بالتسكع معه فى البارات ومع أصدقاء البارات ثم تقود سيارات السباق بسرعة جنونية. كانت بطلة نموذجية من بطلات «هيمنجواى» ولكنها كانت مياله للاكتئاب ولا تستطيع أن تدبر حياتها المعقدة. حاولت الانتحار ونجحت فى أن تكسر ظهرها إلى الدرجة التى جعلت «هيمنجواى» يفقد الاهتمام بها. فى نفس الوقت كانت «پولين» قد قطعت خطوات يائسة نحو استعادة زوجها.

كتبت إلى «هيمنجواى» تقول أن والدها قد منحها مبلغا كبيرا من المال ... هل يريد جزءا منه ؟ «لا نهاية لهذه الأموال الوسخة .. دعنى أعرف .. لا تتخذ امرأة أخرى ... حبيبتك پولين» بَنَت له بركة سباحة فى «كى وست» وكتبت إليه : «ليتك هنا تنام فى سريرى، تستخدم حَمَّامى، تشرب من الويسكى الذى لدى .. بابا العزيز ... عد إلى البيت أرجوك .... وبأسرع ما تستطيع». ذهبت إلى جراح تجميل : «أنفى كبير .. شفتاى غير كاملتين، أذناى بارزتان، يجب إزالة كل ما فى وجهى من بثور قبل أن أذهب إلى كوبا ...» صبغت شعرها الأسود بلون ذهبى وكانت كارثة ... ولم تفلح رحلتها إلى كوبا .. ! أطلق «هيمنجواى» اسمها على قاربه ولكنه لم يحملها فيه ! كتب : «كلما عاملت شخصا بطريقة أفضل وأظهرت مدى حبك له، سئم منك» وكان يعنى ما يقول. علاوة على ذلك فإنه كإنسان يشعر بالذنب ويلقى بمسئوليته على الآخرين، راح يحملها مسئولية فشل زواجه الأول وبالتالى فهى تستحق كل ما يحدث لها.

التالية كانت «مارتا جلهورن»، كاتبة ومراسلة صحفية مثقفة مثل «هادلى» وتنتمى إلى الطبقة فوق المتوسطة مثل كل نساء «هيمنجواى»، كانت طويلة القامة، «ساقاها طويلان بشكل واضح»، شقراء، عينان زرقاوان ، وأصغر منه بعشر سنوات تقريبا. كان «هيمنجواى» قد التقى بها لأول مرة فى بار «سلوپى چو» ـ كى وست ـ فى ديسمبر ١٩٣٦، وفى العام التالى دعاها للحاق به فى إسبانيا، وفعلت. كانت التجربة مقدمة جعلتها تفتح عينيها، لا لأنه بدأها بكذبة : «كنت واثق أنك ستحضرين إلى هنا يابنيتى لأننى رتبت لتحقيق ذلك». لم يكن ذلك صحيحا كما كانت تعرف. أصر أيضا على إغلاق غرفتها من الخارج «لكى لا يضايقها أى رجل آخر»(٥٥). اكتشفت أن غرفته فى فندق «أمبوس ماندوس» كانت فى حالة من الفوضى المقززة.

كتبت فيما بعد : «كان «إرنست» على درجة بالغة من القذارة .. أحد أكثر الرجال الذين عرفتهم تدنيا فى الذوق». كان «هيمنجواى» قد أخذ عن والده غرامه بساندويتشات البصل وكان يمتعه أن يصنعها من أنواع البصل القوية فى أسبانيا، يقضمها بالتناوب مع جرعات من زمزمية الويسكى الفضية .. كانت «مارتا» شديدة الحساسية وكان ذلك يجعلها تشعر بالغثيان ولا يحتمل أن تكون قد أحبته جسديا .. كانت ترفض أن تنجب طفلا منه وفيما بعد تبنت واحدا : «ليس هناك ما يدعو لأن تنجب طفلا عندما يكون بمقدروك أن تشترى واحدا .. وهذا ما فعلته».

تزوجت «هيمنجواى» أساسا لأنه كان كاتبا مشهورا، شىء ما كانت تحاول هى أن تحققه : تتمنى أن يكون لها نصيب من نجوميته الأدبية. ولكن «پولين» كانت تقاتل بشراسة للاحتفاظ بزوجها، وعندما أحست بأنها كانت قد بدأت تخسر الحرب تذكرت تسوية «هادلى» السهلة، وأصرت من جانبها على تسوية «عنيفة» مما أجل الطلاق. وإلى أن حدث ذلك كان «هيمنجواى» يجنح إلى اعتبار «مارتا» المسئولة عن انهيار زواجه. وهناك شهود من بين الأصدقاء على مشاجراتهم العلنية فى مراحل باكرة.

كانت «ماريا» هى الأكثر مهارة والأقوى إرادة بين زوجاته فلم تكن هناك فرصة لاستمرار الزواج. أولا : كانت تعترض بشدة على إفراطه فى الشرب وما يتبع ذلك من قسوة وفظاظة. أصرت ذات مرة أن تقود السيارة وهما عائدان من حفل شرب فيه كثيرا (فى نهاية ١٩٤٢) وتشاجرا فى الطريق فصفعها على وجهها بظهر يده. أبطأت بالسيارة «اللنكولن» التى كان يحبها ودخلت بها فى شجرة وتركته بداخلها وانصرفت(٥٦).

ثانيا : كان هناك سبب آخر وهو القذارة .. وكانت تعترض بشدة على سرب القطط التى كان يقتنيها فى «كوبا» وكانت رائحتها قذرة جدا، حيث كان يتركها تتحرك فى عام ١٩٤٦ قامت بعملية إخصاء للذكور فكان يتمتم بغضب شديد فيما بعد : «لقد قطعت قططى»(٥٧) كانت تصحح له نطقه للغة الفرنسية وتتحدى معرفته بأنواع النبيذ الفرنسى وتسخر من «مصنع اللصوص». كانت تلمح بأنه يجب أن يكون بالقرب من ساحة القتال فى أوروبا وأخيرا قرر أن يذهب بعد ترتيب من «كولييرز» حيث كانت تعمل، ثم تركها وذهب مما ضاعف من ثورتها. تبعته إلى «لندن» فى سنة ١٩٤٤ حيث وجدته يعيش فى قذارته المعتادة فى «دورشستر» وزجاجات الويسكى الفارغة تتدحرج تحت سريره. فى هذا الوقت كان كل شيء قد بدأ فى الانهيار، بعد أن عادا إلى «كوبا» كان يوقظها فى الليل عندما يعود من جلسات الشراب. «عندما كنت أحاول أن أنام كان يوقظنى لكى يتنمر، يزمجر، يسخر منى. كانت جريمتى هى أننى ذهبت إلى الحرب وهو لم يذهب، ولكنه لم يكن يفهم الأمور على هذا النحو. كان يقول أننى مجنونة، أريد الإثارة وأحب المخاطرة، لا أتحمل مسئولية تجاه أحد، أنانية فوق كل الحدود. ولم يتوقف ذلك أبدا .. صدقنى ! كان كل شيء قاسيا وقبيحا»(٥٨)، «كان يهددنى»(٥٩). كتب قصيدة بذيئة بعنوان «إلى مهبل مارتا جلهورن» الذى كان يشبهه برقبة قربة ماء ساخن قديمة وكان يقرؤها فى السرير لأى امرأة ينام معها. كانت «مارتا» تشكو من أنه «كان يزداد جنونا عاما بعد عام» .. كانت تعيش «حياة عبد مع تاجر عبيد متوحش» .. وانسحبت منها.

كان تعليق ابنه «جريجورى» : «كان يعذب «مارتى» . وفى النهاية بعد أن دمر كل حبها له وتركته كان يَدَّعي أنها هى التى هجرته»(٦٠)، انفصلا فى سنة ١٩٤٤، وبموجب القانون الكوبى احتفظ هيمنجواى لنفسه بكل ممتلكاتها هناك على أساس أنها هى التى تركته. كان يقول أن زواجه منها «أفدح أخطاء حياتى»، كتب رسالة إلى «بيرنسون» يعدد له فيها خطاياها ويتهمها بالزنا : «أرنبة»، ويقول أنها لم تر فى حياتها شخصا يموت ومع ذلك حققت ثروة من وراء الكتابة عن الأعمال العدائية أكثر من أى امرأة أخرى منذ «هاريت بيتشر ستو» .... وكل ذلك غير صحيح.

زواجه الرابع والأخير استمر حتى موته والسبب أساسا أن بطلته هذه المرة «مارى ويلش» كانت تصر على أن يستمر مهما حدث. كانت من طبقة مختلفة عن الزوجات السابقات، ابنة تاجر أخشاب من «مينسوتا» ولم يكن لديها أية أوهام عن الرجل الذى تزوجته حيث أنه منذ بداية علاقتهما فى فندق «ريتز»

فى باريس فى فبراير سنة ١٩٤٥ وبعد أن استبد به السكر وجد صورة لزوجها الصحفى الاسترالى «نويل منكس» فألقى بها فى المرحاض وراح يصوب عليها بمسدسه الكبير فدمر المرحاض وأغرق الغرفة(٦١).
كانت «مارى» صحفية فى الـ «تايم»، ولم تكن بطموح «مارتا» ولكنها كانت نشيطة وذكية.

عندما أدركت أن «هيمنجواى» كان يريد زوجة خادمة أكثر منها منافسة، تركت الصحافة كلية لكى تتزوجه رغم أنها استمرت فى تحمل نوبات الثورة والغضب على شاكلة «لم أنم مع الجنرالات لكى أحصل على أخبار لمجلة «تايم»(٦٢).

كان يسميها «ڤينوس جيب بابا» وكا يتباهى بعدد المرات التى يمارس فيها الجنس معها. قال للجنرال «تشارلز (باك) لانهام» أنه بعد فترة من إهمالها كان من السهل أن يهدئها حيث أنه «رواها أربع مرات فى الليلة السابقة» (عندما سألها «لانهام» عن ذلك بعد موت «هيمنجواى» كانت تتنهد وهى تقول : ليت ذلك كان صحيحا)(٦٣).

كانت «مارى» قوية الإرادة، مديرة، وفيها الكثير من «الكونتيسة تولستوى»، وفى هذا الوقت كان «هيمنجواى» بالطبع فى شهرة «تولستوى»، رائيا للرجولة، نبيا خارج المنزل، مشروبات، بنادق، ملابس سفارى، رحلات صيد . إلخ.

حيثما كان يذهب ... فى إسبانيا، فى افريقيا وفى كوبا أساسا، كان يحيط به بلاط من الرفاق والمساعدين وأحيانا سيرك متنقل مركزه «هافانا». كان البلاط غريبا وشاذا مثل بلاط «تولستوى»، ربما لم يكونوا على نفس الدرجة من التبعية المعنوية، ولكنهم كانوا مخلصين على طريقتهم. قبل أن تتركه سجلت «مارتا جلهورن» ما اسمته بـ «مشهد مضحك جدا فى كوبا».

«هيمنجواى» وهو «يقرأ بصوت عال من رواية «لمن تدق الأجراس؟» لمجموعة من الأصدقاء الأغنياء المتعلمين صيادى الحمام، كانوا كلهم يجلسون على الأرض مسحورين»(٦٤).

ومع ذلك كانت حياة «هيمنجواى» أقل إثارة ولونا من تلك التى فى «ياسنايا پوليانا» بفضل عاداته المرعبة.

تركت لنا «ديورى شفلن» زوجة أحد المليونيرات أصحاب «هيمنجواى» وصفا للمشهد العام فى «كوبا» سنة ١٩٤٧ : «القارب قذر وغير مريح، القطط المتوحشة تتجول فى «الفينكا»، ولا يوجد بها ماء ساخن، «هيمنجواى» نفسه ينضح برائحة الويسكى والعرق، غير حليق الذقن، و«مارى» مسئولة عن عمل أشياء كثيرة»، كان هناك أيضا أسلوب الامتهان الواضح والمتعمد. كان يحب مجاملات النساء خاصة إذا كن جميلات وشهيرات. كانت هناك «مارلين ديترتش» التى كانت تغنى له فى الحمام وهو يحلق، و«لورين باكال» (...... أكبر مما كنت أتخيل)، «نانسى» (أنت رشيقة وجميلة ياحبيبتى) «ڤيرچينيا ڤيرتل» ـ أوچيچى ـ التى كانت دائما ضمن سيرك «هيمنجواى» فى فندق «ريتز». كتبت «مارى» وهى

حزينة : «ساعة ونصف الساعة الآن، منذ أن تركت غرفة «چيچي ڤيرتل» عندما قال «ارنست» سوف أحضر بعد دقيقة».

أما في «مدريد» فكان هناك بحسب تعبيره «بغايا القتال»، وفي «هاڤانا» : «مومسات جبهة الماء». كان يحلو له أن يعابثهن في حضور «ماري» كما كان يفعل مع «دوروثي تويسدن» تحت بصر «هادلي» مع تقدم العمر. كان يحب الفتيات والنساء الأصغر سنا. قال ذات مرة لـ «مالكولم كاولي» : «لقد مارست الجنس مع كل امرأة تمنيتها، ومع كثيرات ممن لم أكن أريد، ومارسته جيدا . أعتقد ذلك»(٦٥)، ولم يكن ذلك صحيحا بالمرة. بعد الحرب العالمية الثانية أصبح «هيمنجواي» أكثر كذبا. في «ڤينيسيا» وقع في غرام امرأة شابة اسمها «أدريانا إيڤا نسش» كانت مروعة ومثيرة للشفقة، جعلها بطلة لروايته المشئومة بعد الحرب «عبر النهر وبين الأشجار» ـ ١٩٥٠ ـ كانت باردة ونفاجة وبليدة الحس وكانت تريد أن تتزوج ولا شيء غير ذلك. كان ابنه «جريجوري» يصفها بـ «ذات الأنف المعقوف»، أغدق عليها هيمنجواي كثيرا من كرمه وأكثر مما أنفق على أي علاقة بين اثنين في التاريخ، ميولها الفنية وطموحها جعلاه يجبر ناشر كتبه على قبول غلافين صممتهما لكتابيه «عبر النهر» و«العجوز والبحر» ـ ١٩٥٢ ـ والكتاب الأخير هو الذي جعله يستعيد شهرته ويحقق له جائزة «نوبل»، وكان لابد أن يتم تغيير الغلافين. كانت «أدريانا» تتهم «ماري» بأنها «غير مثقفة»، نفس الحكم الذي كان يردده «هيمنجواي» والذي كان يثني على تربية المرأة وأسلوبها المتحضر ويقارن بينها وبين «ماري» التي كان يعتبرها «غسالة» أو «كناسة»(٦٦).

في رحلته الأخيرة للصيد في شتاء ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ كانت له مباذله وسقطاته، كان قد أصبح أكثر قذارة حتى بمقاييسه هو، الخيمة كلها مزق بالية وزجاجات ويسكي فارغة، ولأسباب غامضة مرتبطة بأفكاره الخاصة كان يرتدي اللباس الوطني ويحلق رأسه بالموسى ويصبغ بعض ملابسه باللون الأصفر الوردي ـ مثل الماساي ـ ويمسك حربة. الأسوأ من ذلك أنه رافق فتاة محلية من «الواكامبا» اسمها «دبيا» يصفها «دينيس زافينا» ـ عضو رحلة الصيد ـ بأنها كانت جزءا من قمامة المعسكر قذرة الرائحة»، كانت هي وصديقاتها يقمن الحفلات في خيمة «هيمنجواي»، وذات مرة وقع به سريره المعلق. وكما تقول «ماري» في يومياتها : «كانت هناك دائما مناقشاته الصاخبة الكثيرة والتي كانت تستمر ليلا ونهارا»(٦٧). ثم كانت هناك آخر رحلاته الكبرى إلى «إسپانيا» في سنة ١٩٥٩ عندما تحرك سيرك «هيمنجواي» بثمانين أو تسعين قطعة أثاث من أجل مصارعة الثيران. جاءت فتاة اسمها «ڤاليريا دابني ـ سميث» ـ ١٨ سنة ـ ابنة أحد عمال البناء في «دبلن» لتجرى معه مقابلة لوكالة أنباء بلجيكية جديدة. أحبها، وربما يكون قد فاتحها في الزواج. ولكنه وجد أن «ماري» كانت أكثر صلاحية لرعاية رجل مسن، زوجة طبيعية .. أخيرة. «.... من أجل الطريق»، ولكنه وظف «ڤاليريا» في السيرك براتب ٢٥٠ دولارا في الشهر وكانت تجلس في المقعد الأمامي للسيارة بالقرب من يده العابثة، بينما «ماري» قابعة في الخلف. كانت «ماري» تتحمل ذلك صابرة على أساس أن «ڤاليريا» لا ضرر منها، بل إنها تسري عن «هيمنجواي» وتجعله أقل عنفا. وبعد موته احتفظت بها بين موظفي السيرك (تزوجت جريجوري

هيمنجواى فيما بعد) ولكن بعد أن كانت قد تسببت فى أن يكون الصيف «مرعبا وبشعا وبائسا»(٦٨).

هل تحملت «مارى» أكثر مما تحملت «الكونتيسة تولستوى» ؟ ربما لا، على أساس أن «هيمنجواى» كان على عكس «تولستوى» طائر بيت (رجلا منزليا) ليس لديه ميول الانطلاق فى البرية. تعلمت «مارى» الإسبانية وأدارت شئون البيت جيدا وشاركت فى معظم رحلاته الرياضية. فى وقت ما، كتب «هيمنجواى» تقرير حالة عنها وحدد فيه مواصفاتها : «صيادة سمك ممتازة، صيادة طيور متوسطة، سباحة قوية، طباخة جيدة بالفعل، خبيرة نبيذ، بستانية ممتازة، تستطيع أن تدير العمل على قارب أو فى البيت باللغة الإسبانية»(٦٩). ولكنه كالعادة لم يبد أى عطف عليها عندما جرحت نفسها فى رحلة صيد برية. سجلت حوارا بينهما بعد إصابة مؤلمة : «يمكن أن تتحملى»، «أحاول»، «الجنود لا يفعلون هذا»، «لست جنديا»(٧٠). فى العلن خصام شديد، وفى داخل البيت عنف مرعب متبادل. ذات مرة ألقى بآلتها الكاتبة على الأرض وحطم منفضة سجائر كانت تعتز بها، وألقى بالنبيذ على وجهها وسبها بلفظ «عاهرة»، ردت عليه بأنه إن كان يريد أن يتخلص منها فإنها لن تترك البيت «حاول مهما أردت أن تجبرنى على تركه ولن تفلح، مهما قلت. ومهما فعلت .. اضربنى بالنار، اقتلنى، ولكنى سأظل هنا وأدير المنزل والـ «فينكا» إلى أن تعود فائقا من أثر السكر فى الصباح وتقول بصراحة وصدق أنك تريدنى أن أرحل»(٧١). كان ذلك عرضا ولكنه كان متعقلا ولم يقبله.

أطفال «هيمنجواى» من زوجاته كانوا دائما شهود صمت ـ وأحيانا خوف ـ على حياته الزوجية. وهم صغار كانوا يقضون معظم الوقت مع الخدم والمربيات حيث كان «سيرك» هيمنجواى دائم التنقل. نسمع عن واحدة منهن اسمها «آدا ستيرن» وكانت سحاقية. كان «بمبى» الابن الأكبر يرشوها بما يسرقه من نبيذ، و«پاتريك» كان يصلى لكى يدخلها الله النار، بينما كان «جريجورى» الأصغر يخشى أن تتركهم»(٧٢).

«جريجورى» هذا هو الذى كتب فيما بعد كتابا فاضحا ومدمرا عن والده. كان وهو شاب قد وقع فى مشكلة مع الشرطة فى كاليفورنيا، واتصلت أمه «پولين» وكانت قد طلقت من والده منذ فترة طويلة بـ «هيمنجواى» (٣٠ سبتمبر ١٩٥١) تقصى عليه المشكلة وتطلب مساعدته. رد عليها بأنها المسئولة : «انظرى إلى تربيتك»، وراحا فى نقاش غاضب،كانت «پولين» : «تصرخ فى التليفون وهى تنتحب». وفى تلك الليلة استيقظت من النوم على ألم داخلى شديد، وفى اليوم التالى ماتت (كان عمرها ٥٦ سنة) على طاولة العمليات نتيجة ورم فى الغدة الكظرية، وربما يكون التوتر الشديد هو سبب تفاقم الحالة قبل الوفاة. كان «هيمنجواى» يقول أن السبب هو جنوح ابنه، والابن يقول أن السبب هو غضب والده العنيف. «لم تكن متاعبى سبب ازعاجها، وإنما مكالمته التليفونية الوحشية معها قبل وفاتها بثمان ساعات». كتب «جريجورى» فى كتابه : «من الجيد أن تكون تحت تأثير شخصية مسيطرة طالما كانت تلك الشخصية صحية، ولكن عندما تكون قد جفت فيهاالروح كيف يمكن أن تقول لها أن رائحتها قد أصبحت لا

تحتمل ؟»(٧٣).

والحقيقة أن «هيمنجواى» لم يعان من جفاف الروح. كان سكيرا مدمنا وكان ذلك شيئا رئيسيا ومهما فى حياته وعمله، كما كان المخدر بالنسبة لـ «كوليردج». كان حالة دراسية نموذجية لمعرفة كيف يتحول الشخص إلى مدمن، يساعد على ذلك اكتئاب مرضى عميق من المحتمل أن يكون موروثا مما يؤدى إلى تفاقم الحالة. قال لـ «ماكليش» ذات مرة : «المشكلة أننى طوال حياتى عندما كانت تسوء الأمور، كنت أتناول كأسا، وسرعان ما يصبح كل شىء أفضل»(٧٤). بدأ يشرب منذ المراهقة ، كان الحداد «چيم دلورث» المقيم فى نفس المنطقة يزوده فى السر بشراب «السيدر» القوى، لاحظت أمه تصرفاته وخافت عليه من الإدمان (يقال أن إفراطه فى الشرب بدأ مع خصامه الشديد لـ «جريس»). فى «إيطاليا» عرف النبيذ، ثم بدأ فى تناول المشروبات الأقوى فى نادى الضباط فى «ميلانو». الجرح وعلاقة حب فاشلة جعلاه يشرب أكثر : اكتشفوا أن خزينته فى المستشفى كانت مليئة بزجاجات الكونياك الفارغة .. نذير سوء !

فى العشرينيات كان يشترى النبيذ بالجالون فى «پاريس» ويشرب خمس أو ست زجاجات مع وجبة الطعام الواحدة. وهو الذى علم «سكوت فيتزجيرالد» شرب النبيذ من الزجاجة مباشرة وكان على حد تعبيره : «مثل الفتاة التى تذهب للسباحة دون لباس بحر».فى «نيويورك» ظل ثملا لعدة أيام بعد أن وَقَّعَ عقد روايته «ثم تشرق الشمس»، وربما تكون تلك أول نوبة سكر طويلة . أشيع أنه أول من اخترع عبارة Have a drink التى انتشرت فى العشرينيات رغم أن هناك من يتهمونه بأنه كان بخيلا ولا يقدم كأسا لأحد، وهو بدوره كان يميل إلى اتهام معارفه بالتطفل كما فعل مع «كين تينان» فى «كوبا» فى الخمسينيات(٧٥).

كان «هيمنجواى» يحب أن يشرب مع النساء، وكان يبدو له ذلك بديلا عن رضاء أمه. «هادلى» التى كانت تشرب كثيرا معه كتبت : «مازلت أتوق كما تعرف إلى تلك الملاحظة التى أبديتها بأنك كنت مجنونا بى فى قدرتى على الشرب»(٧٦)، نفس الدور لعبته «چين ماسون» رفيقته فى «هاڤانا» فى الثلاثينيات، التى كان يشرب معها «الچن» و«الشمبانيا» وشراب «الدايكويرز» المثلج فى «كوبا». فى ذلك العقد كان قد أصبح لا يستطيع التحكم فى نفسه مع الشراب. كان أحد السقاة فى حانات «هاڤانا» يقول عنه : «لم أشاهد فى حياتى شخصا يستطيع أن يشرب تلك الكمية من المارتينى». فى منزل صديقه «ثوروالد سانشيز» تحول إلى سكير شرس ... مقاتل .. ألقى بملابسه من النافذة وحطم كئوس من الباكاراه فصرخت زوجة صديقه فزعة وطلبت من الخادم أن يغلق عليه الغرفة. كانوا فى أثناء رحلات الصيد يشاهدونه وهو يتسلل من خيمته من أجل المشروب.

يقول شقيقه «ليستر» أنه فى «كى وست» فى نهاية الثلاثينيات كان يشرب سبعة عشر كأسا من الويسكى بالصودا فى اليوم، وغالبا ما يأخذ زجاجة شمپانيا معه إلى السرير وهو ذاهب لينام. فى هذه

المرحلة بدأت آلام الكبد الشديدة لأول مرة، ونصحه الطبيب بأن يترك الشراب، وحاول أن يحدده بثلاث كئوس قبل العشاء ولكن ذلك لم يستمر. أثناء الحرب العالمية الثانية كان المعدل يتزايد باضطراد، ويقال أنه كان يضيف «الجن» إلى الشاى عند الفطور. فى سنة ١٩٤٨ أجرى معه «أ.هوتشنر» مقابلة لحساب «كوزموبوليتان» قال فيها إنه شرب سبعة كئوس مضاعفة من شراب يسمى «بابا دابلز» (الشراب الهافانى المسمى باسمه وهو خليط من الروم والجريب فروت والماراشينو)، وعندما ذهب إلى العشاء أخذ الكأس الثامنة معه من أجل قيادة السيارة. كما زعم : «شربت ذات ليلة ستة عشر كأسا هنا»، وكان يتباهى أمام ناشر أعماله : أنه قد بدأ المساء بالـ «أبسنثى» ـ عشبة طبية تستخدم فى انتاج المسكرات ـ ثم شرب زجاجة نبيذ على العشاء ثم انتقل إلى جلسة فودكا، وبعدها ثبتها بالويسكى والصودا حتى الثالثة صباحا». قبل العشاء فى «كوبا» كان يشرب الروم على نحو خاص، وفى أوروبا المارتينى، وقد شاهدته مرة فى أوائل الخمسينيات وهو يتناول ستة كئوس على التوالى ـ كان شديد التبجح فى تناوله للشراب أمام الناس ـ فى حديقة فندق «دوم» فى «مونبارناس». مشروباته على الإفطار لابد أن تكون «الجن» و«الشمبانيا» و«الويسكى» أو «الموت فى مجرى الخليج» وهى كأس كبيرة من «الجن» والليمون من ابتكاره. فوق ذلك كله كان هناك «الويسكى» باستمرار : كان ابنه «باتريك» يقول إن والده كان يستهلك ربع جالون فى اليوم على مدى العشرين سنة الأخيرة من حياته. كانت قدرته على التماسك شديدة، لم تلحظ «ليلان روس» التى رسمت صورة قلمية له لحساب الـ «نيويوركر» أنه كان سكرانا طوال الوقت الذى كان يتكلم فيه معها. يقول «دينيس زافيرو» عن آخر رحلة صيد له : «أعتقد أنه كان سكرانا طوال الوقت ولكن نادرا ما كان يظهر عليه ذلك»، كما كان يبدى مقدرة غير عادية على قطع الشرب أو التوقف عنه تماما لفترات قصيرة، هذا إضافة إلى أن قوة بنيانه كانت تساعده على التحمل، ولكن آثار الإدمان كانت قوية كما كان الشرب سببا مهما فى عدد الحوادث التى سببها . كان «والتر بنيامين» يصف المثقف ـ وهو نفسه مثقف ـ بأنه : «رجل يحمل على أنفه نظارة طبية وفى قلبه الخريف»، ومن المؤكد أن «هيمنجواى» كان يحمل فى قلبه الخريف ـ وربما منتصف الشتاء ـ ولكنه كان يبعد النظارة عن أنفه قدر الاستطاعة رغم ضعف عينه اليسرى الشديد الذى ورثه عن أمه (كانت هى أيضا قد رفضت أن تضع نظارة بدافع من الغرور). وربما كان جسمه الضخم الغريب أيضا أحد أسباب الحوادث الكثيرة فى حياته ، فالقائمة طويلة جدا(٧٧) . عندما كان طفلا وقع وهو يضع عصا فى فمه فجرحت اللوزتين. دخلت سنارة صيد السمك فى ظهره. إصابات متكررة فى الملاكمة وكرة القدم. فى سنة ١٩١٨ أصيب فى الحرب وجرح قبضته عندما حطم بها واجهة عرض زجاجية. بعد عامين جرح قدميه وكان يسير على زجاج مكسور. وقع على مربط قارب فى المرسى وأصيب بنزيف داخلى. حرق نفسه بعد أن حطم سخان ماء بيده (١٩٢٢)، مزق أربطة قدمه (١٩٢٥)، جرح ابنه عينه السليمة (١٩٢٧). فى ربيع ١٩٢٨ وقع أول حادث كبير له نتيجة السكر، كان قد عاد إلى المنزل وجذب سلسلة مصباح السقف بدلا من سلسلة الطرد لتنظيف المرحاض فسقط الغطاء الزجاجى على رأسه وأصيب بارتجاج فى المخ واحتاج إلى تسع غرز فى الرأس، مزق عضلة فخذه (١٩٢٩)، حطم إبهامه بالخرامة، كسر ذراعه فى حادث سيارة سنة ١٩٣٠ ، طعن ساقه وهو سكران

وكان يحاول أن يطعن سمكة قرش (١٩٣٥)، كسر إصبع قدمه الكبير وهو يركل بابا مغلقا، اخترق مرآة أمامه فكسر قدمه، أصاب عينه الضعيفة سنة ١٩٣٨، وفى سنة ١٩٤٤ أصيب مرتين بارتجاج فى المخ. الأول عندما دخل بسيارته فى الظلام فى خزان لنقل الماء، والثانية عندما قفز من فوق دراجة نارية فى حفرة. فى سنة ١٩٤٥ أصر على أن يقود السيارة بدلا من السائق لتوصيل «مارى» إلى مطار «شيكاغو»، انزلقت السيرة واصطدمت بكومة من التراب وكسرت له ثلاثة ضلوع وركبته وجرح فى جبهته (بينما دخلت مارى فى زجاج السيارة)، أنشب أسد مخالبه فيه وهو يلعب معه فى سنة ١٩٤٩، وقع على القارب فشج رأسه وجرح قدمه وأصيب بارتجاج فى المخ للمرة الخامسة. فى سنة ١٩٥٣ خلع كتفه بعد أن سقط من سيارته، كما شهد نفس الشتاء سلسلة من الحوادث وقعت له فى افريقيا: حرق نفسه وهو يحاول أن يطفىء حريقا شب فى العشب وكان سكرانا .. حادثا طيران، ارتجاج آخر فى المخ، شق فى الجمجمة، كسر فى العمود الفقرى، جروح داخلية، ثقب فى الكبد، إصابات فى الكلى والطحال، شلل فى العضلة العاصرة، الحوادث التى كانت تجىء بعد السكر استمرت تقريبا حتى نهاية حياته: أربطة ممزقة، التواءات فى الكاحل نتيجة تسلق سور (١٩٥٨)، ثم حادث سيارة آخر (١٩٥٩).

ورغم بنيانه لقوى كان للإدمان أثره المباشر على صحته بدءا بالكبد المدمر فى أواخر الثلاثينيات. فى سنة ١٩٤٩ وأثناء التزلج على الجليد فى «كارتينو داميزو» دخل غبار فى عينه، ومع الشرب تطورت إلى حالة خطرة من الاحمرار والالتهاب ظل يعانى منها لمدة عشر سنوات بعد ذلك، مع ندبة حمراء امتدت من قنطرة الأنف حتى الفم. فى ذلك الوقت ومنذ نوبات الإفراط فى الشرب فى إسبانيا (١٩٥٩) كان يعانى من متاعب فى الكلى والكبد (تليف وجفاف فى البشرة وسكر) إلى جانب الأرق المرضى وتجلط الدم ومشاكل جلدية أخرى(٧٨).

أصبح عنيدا وعجوزا قبل الأوان. كانت آخر صورة حزينة التقطت له وهو يسير بجوار منزل كان قد اشتراه فى «ايداهو». الصورة تعبر عن نفسها. حتى وهو على تلك الحال كان مازال يسير على قدميه ..حيا. وأصبح التفكير بالنسبة له أمرا صعبا. انتحر والده بسبب الخوف من مرض عادى كان من الممكن علاجه، أما «هيمنجواى» فكان يخشى أن تكون أمراضه مستعصية.

فى الثانى من يوليو ١٩٦١ وبعد محاولات فاشلة كثيرة للعلاج من الأكتئاب والبارانويا أمسك ببندقيته الإنجليزية المفضلة ذات الماسورتين، وضع بها خزنتين من الرصاص وفجر جمجمته.!

لماذا كان «هيمنجواى» يريد الموت ؟ إنه أمر غير عادى بين الكتاب .. معاصره «ايفيلين وو»، كاتب بالإنجليزية وذو قيمة مماثلة تقريبا كان هو الآخر يتوق إلى الموت. ولكن «وو» لم يكن مفكرا مثقفا . لم يعتقد أنه كان بإمكانه إعادة صياغة قوانين الحياة من دماغه، ولكنه خضع للمنهج التقليدى لكنيسته ومات لأسباب طبيعية بعد خمس سنوات. «هيمنجواى» صنع قانونه الخاص القائم على الشرف والصدق والإخلاص، خذل قانونه وقانونه خذله. والأخطر من ذلك أنه ربما كان قد شعر أنه يخذل فنه، كانت له

أخطاؤه الفادحة، ولكن كان هناك شيء مهم لا ينقصه : الصدق الفنى .. النزاهة الفنية ... التى ظلت تضيء كالمنارة طوال حياته. لقد وضع أمام نفسه مهمة أن يخلق أسلوبا جديدا فى الكتابة الإنجليزية والأدب الروائي ونجح . كان ذلك أحد الأحداث البارزة فى تاريخ لغتنا وهو الآن جزء لا يتجزأ منها.

كرس «هيمنجواى» لتلك المهمة مصادر هائلة من المهارة الخلاقة والطاقة والجلد .. وكان ذلك فى حد ذاته أمرا صعبا. ولكن الأصعب منه ـ كما اكتشف ـ أن يحافظ على المستوى الإبداعى الذى حدده لنفسه.

أصبح ذلك واضحا له فى منتصف الستينيات وكان إضافة إلى اكتئابه العادى، منذ ذلك الوقت أصبحت قصصه القصيرة الناجحة عبارة عن اهتزازات على منزلق طويل، ولو أنه كان فنانا بدرجة أقل لما همه ذلك كإنسان، ولكان قد استمر فى كتابة ونشر روايات أقل قيمة كما فعل كتاب كثيرون، ولكنه عندما كان يكتب أقل من مستواه كان يعرف، ولم يستطع أن يتحمل ذلك. كان يحاول أن يجد العون فى الشراب حتى أثناء الكتابة. فى البداية كانوا يشاهدونه فى العشرينيات وأمامه مشروبه «روم سان چيمس» ، كانت عادة نادرة فى البداية، ثم أصبحت متقطعة ثم ثابتة. يقال أنه فى الأربعينيات كان يستيقظ فى الرابعة والنصف صباحا ويبدأ بالشرب مباشرة ويكتب واقفا. القلم الرصاص فى يد والكأس فى اليد الأخرى(٧٩) . وكان أثر ذلك على عمله مدمرا كما كان متوقعا.

إن المحرر الخبير يستطيع أن يعرف دائما ما إذا كانت كتابة ما قد أنجزت بمساعدة الشراب مهما كان الكاتب موهوبا.

بدأ «هيمنجواى» فى إنتاج مادة وفيرة لا تصلح للنشر، أو مادة كان يشعر أنها لا ترقى إلى الحد الأدنى من المستوى الذى وضعه لنفسه، ومع ذلك نشر بعضها ولوحظ أنها أقل إن لم تكن محاكاة لأعماله السابقة. كان هناك استثناء واحد . أو لعلهما استثناءان .. وبالذات «العجوز والبحر» ، رغم أنها لا تخلو أيضا من عنصر محاكاة للذات.

ولكن المستوى العام كان ضعيفا . وفى هبوط .. ووعى « هيمنجواى» بأنه كان عاجزا عن إعادة القبض على عبقريته ـ ناهيك عن تطويرها ـ عجل باكتمال دائرة الاكتئاب والشراب من حوله. «همنجواى» رجل قتله فنه !

وحياته درس يجب أن يعيه كل المثقفين ... وهو أن الفن وحده لا يكفى !!



الفصل السابع

«برتولد برخت» : قلب من الجليد !

منذ زمن بعيد أدرك كل من يحاول السيطرة على أفكار الناس أن المسرح هو الوسيلة المثلي لذلك. في ٧ فبراير ١٦٠١ ، وقبل يوم واحد من قيام «إيرل اسكس» ورجاله بتمردهم في لندن، دفعوا للفرقة التي كان ينتمي إليها «شيكسبير» لكي تقدم عرضا خاصا ـ لم يكن في البرنامج ـ لمسرحيته «ريتشارد الثاني» والتي كانت تعتبر مسرحية مناهضة للملكية آنذاك.

الإصلاح المضاد الذي كان يقوده «الچيزويت» كان يعتمد اعتمادا رئيسيا في دعايته على العرروض المسرحية. «ڤولتير» و«روسو» كتبا للمسرح، والأخير حذر من قدرته الخطيرة على إفساد الأخلاق العامة. «ڤيكتور هوجو» استخدمه لتدمير آخر «البوربون» ، «بيرون» كرس جزءا كبيرا من طاقته للدراما الشعرية ... حتي «ماركس» كان يكتب مسرحية.

ولكن «إبسن» كما رأينا، كان أول من استخدم المسرح بشكل واضح ومنظم وبنجاح مدهش من أجل إحداث ثورة في التوجهات الاجتماعية، خليفته الطبيعي في هذا المجال كان «برتولد برخت» رغم أنه كان كاتبا مسرحيا يختلف عنه في وجوه عدة. هو الذي صنع مسرحية الدعاية الحديثة المصقولة، مستخدما ـ وبكل ذكاء ـ واحدة من المؤسسات الثقافية الجديدة في القرن العشرين ، أى المسرح المدعوم من الدولة.

وعلى مدي عقدين من الزمن بعد وفاته ـ الستينيات والسبعينيات ـ كان هو أكثر كتاب العالم تأثيرا، ورغم ذلك كان «برخت» أثناء حياته وإلى حد ما إلى اليوم شخصية غامضة!

كان ذلك هو الخيار المدروس سواء من جانبه أو من جانب الحزب الشيوعي، ذلك التنظيم الذي خدمه بكل إخلاص على مدي السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته. كان «برخت» من جانبه يريد أن يحول الاهتمام العام بحياته إلى اهتمام بعمله، وبنفس الدرجة كانت المؤسسة الشيوعية لا تريد لأحد أن يستكشف أصله أو خلفيته أو أسلوب حياته(١) . وهكذا توجد في مسيرته الحياتية فجوات كثيرة رغم أن الخطوط الرئيسية واضحة بما يكفي.

ولد في ١٠ فبراير ١٨٩٨ في مدينة «أوجسبورج» الكئيبة، العريقة، والتي تبعد ٤٠ ميلا عن «ميونخ» .

وعلى عكس التأكيدات الشيوعية المتكررة، لم يكن «برخت» من سلالة فلاحين. كان أسلافه من الجانبين وحتى القرن السادس عشر من الطبقة المتوسطة. بينهم فلاحون متعلمون وأطباء ومدرسون وموظفون ورجال أعمال(٢). كانت أمه ابنة موظف مدني وكان والده يعمل بتجارة الورق، موظفا ثم مديرا للمبيعات في مصنع الورق في «أوجسبورج». شقيقه الأصغر «والتر» دخل نفس المهنة فيما بعد وأصبح خبيرا في صناعة الورق في جامعة «دارمشتات» الفنية.

كان «برتولد» يشكو من متاعب في القلب ويبدو نحيلا فأصبح (مثل كثير من المثقفين) طفل أمه المدلل. كانت تقول إنها لا تستطيع أن ترفض له أي طلب من طلباته الكثيرة. في سن المراهقة سئم الحياة وفقد الاهتمام بأسرته. نادرا ما كان يذكر إسم والده، لم يبادل أمه الحب، وعندما ماتت في سنة ١٩٢٠ أصر على دعوة جماعة من أصدقائه الصاخبين إلى المنزل في اليوم التالي .. يتذكر أخوه: «كنا جميعا في غاية الحزن»، ثم غادر المنزل قبل جنازتها بيوم واحد رغم أنه ندم على ذلك أشد الندم ذات يوم في لحظة من لحظات لوم النفس: «كنت استحق الضرب»(٣) تقول أسطورة «برخت» أنه وهو في المدرسة كان لا يعترف بالدين، بل انه أحرق «الإنجيل» وكتاب التعاليم علنا وكاد يطرد بسبب آرائه السلامية. والحقيقة أنه كتب أشعارا وطنية ولم تكن مشاكله في المدرسة بسبب آرائه السلامية وإنما بسبب الغش في الامتحانات.

كان «برخت» جزءا من الثقافة الألمانية الشبابية ما قبل ١٩١٤: الغرام بالعزف على الجيتار والتوجه إلى الطبيعة والأيديولوچيا المضادة للمدينة، معظم معاصريه من الطبقة الوسطى جندوا وذهبوا إلى جبهة القتال، منهم من قضى نحبه هناك ومنهم من أصبح نازيا بعد نجاته من الموت. لم يكن «برخت» رافضا حمل السلاح بسبب مبادىء سياسية أو دينية ولكنه أعفي من ذلك بسبب مرض القلب فأصبح مساعدا طبيا (كان قد درس الطب فترة قصيرة في جامعة ميونخ)، وقد رسم فيما بعد صورة مرعبة للمجزرة التي شهدها في المستشفيات العسكرية. «إذا أمرني الطبيب: ابتر هذه الساق أجيبه: حاضر ياسيدي، وأبتر الساق»، إذا أمرني باجراء عملية تربنة كنت أفتح جمجمة الرجل وأعبث بمخه، رأيت هناك كيف كانوا يرممون البشر لكي يعيدوهم إلى الجبهة بأسرع ما يمكن»(٤)، ولكن «برخت» لم يكن قد استدعي حتى اكتوبر ١٩١٨، وكان معظم القتال قد انتهى. كان عمله الأساسي عبارة عن متابعة بعض حالات الأمراض التناسلية.

وهو يكذب أيضا عندما يدعي بعد ذلك (كلمته في حفل استلام جائزة «ستالين» للسلام) أنه في نوفمبر ١٩١٨ هرع «على الفور» إلى جمهورية «باڤاريا» الشيوعية وأصبح مساعدا عسكريا. كان يروي حكايات مختلفة عما قام به من أعمال ولكنها بالتأكيد لم تكن ـ حينذاك ولا في أي وقت آخر ـ بطولية(٥).

منذ سنة ١٩١٩ وما بعدها رسخ «برخت» نفسه كشخصية أدبية: أولا كناقد مرهوب الجانب لقسوته

ووقاحته ووحشيته، ثم في المسرح نفسه وذلك بفضل عزفه على الجيتار وبراعته في كتابة الأغاني (كانت موهبته الشعرية هي الأفضل والأنقى من البداية إلى النهاية) وقدرته على أدائها بصوت جميل ساحر من الطبقة العالية.

في بداية العشرينيات كانت الحالة المسرحية ذات نزعة يسارية شديدة، ومنها أخذ «برخت» الإشارة. كان أول نجاح له «سپارتكوس» التي أعيد تسميتها بـ «طبول في الليل» سنة ١٩٢٢ وحصل بها على جائزة «كليست» لكتاب المسرح الشبان وحققت الضجة المطلوبة. ولكن «برخت» في تلك المرحلة كان انتهازيا أكثر منه صاحب أيديولوچية. كان يريد أن يلفت الأنظار إليه ونجح في ذلك لدرجة كبيرة. كان هدفه هو ترويع البرجوازية. كان يكره الرأسمالية وكل مؤسسات الطبقة المتوسطة. هاجم الجيش. كان يمدح الجبن ويمارسه : «كينر» بطل قصته القصيرة المشهورة «احتياطات ضد العنف»، والذي يحمل الكثير من سيرته الشخصية، جبان، صديقه «ڤالتر بنيامين» قال بعد ذلك أن الجبن والنزعة التدميرية كانا من صفاته البارزة(٦).

كان يحب أن يثير بأعماله ضجة ويكشف عن فضائح، كان يريد أن تثير مسرحياته الهمس وصيحات الاستنكار من جانب من الجمهور والتصفيق الحاد من الجانب الآخر. لم يكن يهتم بالنقد المسرحي القائم على التحليل. كان يكره ويحتقر المثقفين التقليديين، خاصة ذلك النوع الأكاديمي أو الرومانسي. اخترع «برخت» في الواقع مثقفا من نوع جديد كما فعل «روسو» و«بيرون» في زمانهم. نموذج «برخت» الجديد رفيع الثقافة والذي كان هو نفسه نموذجا له، كان فظا غليظ القلب شكاكا. أراد أن يضع على المسرح الجو الخشن والعنيف الموجود في الساحة الرياضية. كان مثل «بيرون» يستمتع بصحبة الملاكمين المحترفين.

طلبوا منه ذات يوم في سنة ١٩٢٦ أن يقوم بالتحكيم في مسابقة شعرية فتجاهل أربعمائة مساهمة من الشعراء ومنح الجائزة لقطعة جافة وجدها في مجلة رياضية للدراجات(٧). رفض التراث الموسيقي النمسوي / الألماني وانحاز إلى أصوات معدنية رتيبة لدي المؤلف اليهودي «كورت ڤيل» الذي تعاون معه. كان يريد أن تظهر مناظر مسرحه عظامها على الخشبة .. المعدات وراء الإلهام ... كان ذلك هو نوع الصدق الجديد الذي يريده ، كانت المعدات والأجهزة تخلبه وكذلك الرجال خلفها . المهندسون.

كان «برخت» بارعا في العمل بيده ومهندسا عقليا كذلك. كثير من توجهات «برخت» ونشاطه الذهني في العشرينيات يعكس عبقريته في الدعاية لنفسه. كان موهوبا في ذلك مثل «هيمنجواي» ــ وكثير من المثقفين ــ وكجزء من ذلك كان مثل «هيمنجواي» أيضا يقوم بتطوير أسلوبه المتميز في الملبس. ولكن «هيمنجواي» كان أمريكيا تماما . ورياضيا. والواضح أن «برخت» كان معجبا به ــ وإن كان في السر ــ ولكن كان يضايقه أن يقول أحد أنه كان يسرق أفكار «بابا». في العشرينيات كان لا يكتم إعجابه بالولايات المتحدة، وكانت تلك آخر مرحلة يقبل فيها المثقف الأوروبي أن يكون معجبا بالأمريكان، خاصة

بزعماء العصابات وأبطال الرياضة منهم. كتب «برخت» قصيدة : عن معركة ديمبسي / تني عام ١٩٢٦، ولذلك جاءت أفكار ملابسه عبر الأطلنطي ولكن بعضها الآخر كان أوروبيا، كانت السترة ذات الحزام الجلدي والكاب تجذب الشباب العنيف، وكان «لينين» هو الذي ابتدعها في سنة ١٩١٨، ولكن برخت أضاف إلى ذلك اختراعاته الخاصة : ربطة عنق جلدية وصديرية جلدية بأكمام من القماش. كان يريد أن يبدو نصف طالب ونصف عامل وأنيقا في نفس الوقت، وأثارت ملابسه الجديدة تعليقات كثيرة. كان أعداؤه يقولون أنه يرتدي قمصانا من الحرير تحت الملابس الجلدية البروليتارية، وكان «كارل زوكماير» يصفه بأنه «هجين سائق شاحنة وطالب چيزويت»(٨)، ثم أكمل هذا الأسلوب الخاص بابتداع طريقة في تصفيف شعره مباشرة إلى أسفل جبهته والاحتفاظ بذقن غير حليقة لمدة ثلاثة أيام . لا أكثر ولا أقل. كان المثقفون يقلدون تلك اللمسات بعد ذلك على مدي ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة، كما قلدوه في ارتداء نظارات طبية متقشفة ذات إطار معدني. كان «برخت» يفضلها رمادية .. لونه المفضل. كان يكتب على ورق رمادي، وبعد أن اشتهر كان ينشر «أعمالا في طور الإعداد» ـ وهي مسودات نصوصه ـ في كتيبات رمادية اللون مثل الكتب المدرسية، وهو نوع من الدعاية الشخصية قلدوه أيضا فيما بعد، كانت سيارته رمادية اللون وكان قد حصل عليها من شركة سيارات كتب لها أغاني إعلانات. وباختصار فإن «برخت» كان صاحب موهبة متميزة في التجلي البصري، ذلك الميدان الذي تفوق فيه الألمان وتصدروا العالم فيه في العشرينيات، نفس الوقت تقريبا عندما كان «هتلر» يصمم جهاز الحزب النازي الذي أنفق عليه الكثير ويخترع أسلوب العرض الليلي الذي عرف فيما بعد بـ «الصوت والضوء».

كان صعود «هتلر» أحد العوامل التي دفعت بـ «برخت» في موضع سياسي أكثر عمقا.

في سنة ١٩٢٦ كان قد قرأ «رأس المال» أو أجزاء منه، بعد ذلك كانت له صلات بالحزب الشيوعي الألماني رغم شهادة «روث فيشر» ـ أحد قيادات الحزب وشقيقة صديقه الموسيقار «هانز آسلر» بأنه لم ينضم إلى الحزب رسميا إلا في الثلاثينيات(٩). كما كانت سنة ١٩٢٦ مهمة أيضا حيث شهدت بداية تعاونه مع «ڤيل». في سنة ١٩٢٨ قدما «أوبرا البنسات الثلاثة» ـ أول ليلة عرض في ٣١ أغسطس ـ ونجحت نجاحا كبيرا في ألمانيا وفي كل العالم بعد ذلك. في جوانب كثيرة كانت تلك المسرحية نموذجا دالا على أسلوب «برخت» في العمل. كانت الفكرة الأساسية مأخوذة من «أوبرا الشحاذين» لـ «جاي»، وكانت أجزاء بكاملها مسروقة بكل بساطة من ترجمة «ك.ل.آمرز» لـ «فرانسوا ڤيلون» (وبعد احتجاج كان «آمرز» يحصل على جزء من الحقوق). كانت موسيقى «ڤيل» الرائعة والمؤثرة أحد أهم أسباب نجاح العمل. ولكن «برخت» استطاع على نحو ما أن يجعل الفضل ينسب إليه ويحصل على كل الثناء، وعندما اختلف مع «ڤيل» في النهاية أعلن بازدراء : «سوف أركل هذا الـ «ريتشارد شتراوس» المزيف على السلم وأتركه ليتدحرج»(١٠).

أحد أسباب استيلاء «برخت» على الفضل لنفسه كان براعته في العلاقات العامة وأساليب تقديم

نفسه للجمهور. في سنة ١٩٣٠ اعترض «ج.و.پابست» الذي كان قد حصل على حق فيلم «أوبرا البنسات الثلاثة» على تصوير المعالجة التي كتبها برخت وحوّرها نحو اتجاه أكثر شيوعية، ولكن «برخت» رفض تغييرها وانتقلت القضية إلى المحكمة في شهر اكتوبر. كان «برخت» يقوم بتمثيل نوبات غضب مسرحية أمام الكاميرات والصحفيين ورغم أن القضية كانت على وشك أن تسير ضده حصل على مقابل مادي ضخم في نظير التنازل عنها واستطاع أن يظهر بمظهر الشهيد لنزاهته الفنية أمام نظام رأسمالي وحشي. ثم نشر معالجته الخاصة مع مقدمة تبرز المغزى الماركسي المتشدد : «العدالة والحرية الشخصية كلها شرطية عند الإخراج»(١١) كان بارعا في تقديم مصالحه الخاصة في نفس الوقت الذي يعلن فيه إخلاصه للجماهير. سبب آخر لشهرة «برخت» المتنامية هو أن الحزب الشيوعي في سنة ١٩٣٠ كان قد بدأ يعتبره نجمه الخاص وأصبح يتمتع بدعم جميع مؤسساته.

لم يكن لـ «برخت» قيمة كبيرة في «موسكو» أيام «ستالين»، حتى الحزب الشيوعي الألماني الأكثر مرونة في الأمور الفنية كان يعتبر بعض أعماله خفيفا ويحمل أفكارا خارجة على الإجماع، على سبيل المثال «قيام وسقوط مدينة ماهاجوني» ـ ١٩٣٠ ـ التي أثارت هياجا ومظاهرات نازية منظمة، ولكن «برخت» كان يظهر بمظهر المذعن للانضباط الحزبي. كان يحضر محاضرات الماركسية اللينينية في كلية العمال في «برلين»، ولأنه كان في قرارة نفسه «هيجلي» يحب عالم الفانتازيا الفكرية للجدل ـ مثل «ماركس» ـ وجد النظام جذابا من الناحية العقلية كان أول عمل ماركسي صحيح له هو Die Massnahme في سنة ١٩٣٠، أما إعداده لرواية «جوركي» : «الأم» فقد قدمت في جميع أنحاء ألمانيا في قاعات تابعة للحزب الشيوعي. كان يكتب سيناريوهات أفلام الدعاية السياسية، وقد طور بالاشتراك مع «ڤيل» ـ الذي لم يكن أبدا ماركسيا مخلصا ـ القالب الفني السياسي الجديد وهو الأوپرا المدرسية أو الدراما التعليمية، والتي لم يكن هدفها ـ كما تزعم ـ هو تثقيف الجمهور سياسيا بقدر ما هو تحويله إلى «كورس» مدرب جيدا لا يختلف كثيرا عن جماهير «نورمبرج». الممثلون أصبحوا مجرد أدوات سياسية. آلات أكثر منهم فنانين، والشخصيات في المسرحيات أنماط وليست أفرادا تؤدي أدوارا موضوعة في إطار محدد.

الميزة الفنية لهذا الشكل كانت تكمن في الإبهار المسرحي الذي تفوق فيه «برخت» بكل تأكيد، ولكن استخداماتها السياسية كانت واضحة وعاشت عدة عقود ووصلت إلى الحضيض مع دراما الأوبرا الكئيبة التي كانت تقدمها السيدة «ماو» أثناء الثورة الثقافية الصينية في الستينيات. كما اخترع «برخت» أيضا استخدام مشاهد المحاكمة (الساحرات، سقراط، جاليلو، جريدة ماركس الممنوعة .. إلخ) لأغراض الدعاية وانتقل هذا التكنيك إلى «ريبرتوار» الجناح اليساري، وكان يظهر من وقت لآخر كما حدث في محاكمة «رسل» لجرائم حرب «ڤيتنام». والحقيقة أن الكثير من اختراعات «برخت» المسرحية ـ المكياج الأبيض، النعوش، الهياكل العظمية، منصات الأسلحة الضخمة ـ مازالت تستخدم في مسرح الشارع التقدمي والمواكب والمظاهرات.

كما كانت لدي «برخت» وسائله الأخرى لكي يظل اسمه في ذاكرة الجمهور. كان يحرص على أن تلتقط له الصور وهو يكتب الشعر وسط تجمعات العمال ليؤكد أن أيام الرومانسية السياسية الفردية قد ولت، وأن الشعر الآن قد أصبح نشاطا پروليتاريا جماعيا. كان يمارس مبادىء النقد الذتي الماركسية في العلن. حمل مسرحيته التعليمية «الإمعة» إلى مدرسة «كارل ماركس» التي كان يشرف عليها الشيوعيون، وطلب من الطلاب أن يقدموا تعليقاتهم عليها وأعاد كتابتها على ضوء ذلك (وبعد أن حقق لنفسه الدعاية المطلوبة أعادها إلى ما كانت عليه)(١٢).

كان يؤكد باستمرار على عنصر المشاركة في العمل رغم أنه عند فشل أي مسرحية كان يسارع ليؤكد أن دوره كان متواضعا.

وضع صعود «هتلر» إلى السلطة في ١٩٣٣ نهاية مفاجئة لهذا النشاط الكبير، وغادر «برخت» ألمانيا صباح اليوم التالي لحريق «الرايخستاغ».

كانت الثلاثينيات فترة صعبة بالنسبة له، ولم يكن لديه رغبة في أن يكون شهيدا. حاول أن يستقر في «ڤيينا» ولكن حالة الميل المتزايدة للسياسة الألمانية لم تعجبه فغادرها إلى «الدانمرك». رفض صراحة أن يحارب في إسپانيا. ذهب عدة مرات إلى «موسكو» وكان بالفعل محررا مشاركا في Das Wort التي كانت تصدر في روسيا (مع فيشت وانجر وويلي بريديل) والتي كانت تحقق له الدخل الوحيد المنتظم. ولكنه كان على حق في اكتشافه أن «روسيا» لم تكن مكانا آمنا لشخص مثله، ولذلك لم يقض أكثر من أيام معدودة في كل زيارة.

كتاباته في الفترة من ١٨٣٣ ـ ١٨٣٨ كانت عملا من أعمال الهواية السياسية. بعد ذلك وبالقرب من نهاية العقد بدأ فجأة يقدم إنتاجا عالي المستوى وفي تتابع سريع: «حياة جاليليو» ـ ١٩٣٧ ـ، «محاكمة لوكولوس» ـ ١٩٣٨ ـ، «سيدة ستشوان الطيبة» ـ ١٩٣٨: ١٨٤٠ ـ، «الأم شجاعة» ـ ١٩٣٩ ـ، قرر أن يجرب السوق الأمريكية فكتب: «أرتورو أوي» ويظهر فيها «هتلر» في شخصية رجل عصابات من شيكاغو. وعندما قامت الحرب في ١٩٣٩ وجد أن «الدانمراك» لن تكون آمنة، فانتقل إلى «السويد» ثم «فنلندا»، ثم ـ بعد أن حصل على ڤيزا لدخول أمريكا ـ عبر روسيا والباسيفيكي إلى كاليفورنيا وهوليود(١٩٤١) كان قد زار أمريكا قبل ذلك ولكنه لم يترك أثرا أخارج دوائر اليسار. كانت تصوراته الأولي عن أمريكا قد ذوت ولم يحب الواقع الجديد، بل لعله كان يكرهه. لم يستطع أن يعمل بأسلوب «هوليود» وأصبح شديد الحقد على المهاجرين الآخرين الذين نجحوا هناك (كان «بيترلو» استثناء)(١٣). لم يحب الناس أعماله السينمائية وبعض مشروعاته فشل فشلا ذريعا. في ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ اشترك معه «و.هـ.أودن» لإعداد نص انجليزي من «دائرة الطباشير القوقازية»، كما اشتركا في إعداد «دوقة مالفي» ولكن معالجتهما رفضت في اللحظة الأخيرة لصالح النص الأصلي الذي كان يحقق نجاحا كبيرا في «لندن»، ولذلك سحب «برخت» اسمه من على العمل. كذلك فشل عرض «جاليليو»

ببطولة «تشارلز لوتون». لم يفهم «برخت» السوق في «هوليود» أو «برودواي» ولم يستطع التوافق معها. لم يتحمل سادة المسرح ولا حتى أقرانه منهم. كان يريد أن يكون مسئولا تماما لكي يصبح مؤثرا، وبعد أن تأكد له أن مسرحه لن ينجح إلا تحت ظروف مثالية يسيطر عليها تماما، جهز «برخت» نفسه لصفقة فاوستية عَجّل بها ظهوره في ٣٠ أكتوبر ١٩٤٧ أمام لجنة التحقيق في النشاط المعادي لأمريكا، كانت اللجنة تحقق في النشاط الشيوعي في هوليود، وقد استدعي «برخت» مع ١٩ آخرين للمثول أمامها للإدلاء بشهاداتهم، رفض الآخرون كلهم أن يجيبوا عن الأسئلة التي تتناول عضويتهم في الحزب الشيوعي واتهموا بازدراء المحكمة وحكم على عشرة منهم بالسجن سنة واحدة(١٤). ولكن «برخت» لم يكن لديه النية أن يقضي فترة في سجن أمريكي. عندما سئل عن عضوية الحزب أنكر ذلك تماما «لا .. لا .. لا .. لا .. لا أبدا»، كان الاستجواب مضحكا إلى حد ما لأن مترجمه «ديفيد بومجاردت» من مكتبة الكونجرس كان ينطق بلكنة أكثر حدة من لكنة «برخت»، لدرجة أن رئيس المحكمة «ج. بارنل توماس» كان يصيح غاضبا : لا أستطيع أن أفهم المترجم بأكثر مما أفهم الشاهد».

اكتشف «برخت» أن اللجنة لم تكن مستعدة جيدا، ولذلك راح يكذب بهدوء وثقة «ألم تؤسس كثيرا من كتاباتك على فلسفة «ماركس» و«لينين» ؟ «لا ! لا أظن ذلك صحيحا، ولكني درست بالتأكيد. كان عليّ أن أدرس ككاتب مسرحي تاريخي». وعندما سئل عن الأغاني التي نشرت له في «كتاب أغاني الحزب الشيوعي»، قال إنها لم تكن ترجمة صحيحة، وفكر في الإدلاء بشهادة مطيعة مؤكدا : «نشاطي .. كان دائما نشاطا أدبيا ذا طبيعة مستقلة تماما». ولكنهم لم يمكنوه من قراءة شهادته. كان يكذب باقتناع شديد، وكان حريصا على تصحيح أي أخطاء في الأحداث، وبدا متعاونا مع اللجنة بقدر الإمكان لدرجة أنهم شكروه علنا كشاهد متعاون(١٥).

الكتاب الآخرون الذين كانوا قد استدعوا كانوا في دهشة بالغة للطريقة التي استطاع بها «برخت» أن يخدع اللجنة، لدرجة أنهم تجاهلواأو نسوا أنه خدعهم بموافقته على المثول أمام لجنة التحقيق. وهكذا ظل بطلا لليسار. وبعد أن عاد سالما إلي أوروبا كان يجلس بكل شجاعة أمام الصحافة ليقول : «عندما اتهموني بمحاولة سرقة مبنى «الإمباير ستيت» شعرت بأن الوقت قد حان لكي أرحل»(١٦)

والآن، وقد استقر في سويسرا ، بدأ «برخت» يجري مسحا جيدا للمشهد الأوروبي قبل التفكير لعمله المستقبلي. صمم لنفسه زيا جديدا، بدلة عمالية رمادية اللون .. أنيقة .. مع كاب رمادي. كان له معارف على صلة وثيقة بالحزب الشيوعي فاكتشف بسرعة حقيقة شديدة الأهمية بالنسبة له. كان النظام الوليد التابع للسوفيت في ألمانيا الشرقية يناضل من أجل الاعتراف السياسي به، أو بالأحرى من أجل الاحترام الثقافي. وكان على استعداد لاحتضان شخصية أدبية مهمة تساعد على منحه الشرعية. وكانت لدى «برخت» ـ بالضبط ـ أوراق الاعتماد الأدبية والأيديولوجية المناسبة لأهداف ألمانيا الشرقية. في اكتوبر ١٩٤٨ قام «برخت» بعملية استطلاعية في «برلين الشرقية» أثناء حضوره حفل استقبال على شرفه أقامته

اللجنة الثقافية للحزب الشيوعي. كان يجلس إلى جواره «ولهلم بيك» الذي سيصبح فيما بعد رئيسا لألمانيا الشرقية، ومن الناحية الأخرى الكولونيل «توبانوف» القوميسار السياسي السوفيتي. وطُلِبَ من «برخت» الذي كان يجلس بينهما أن يرد على كلمتيهما، فما كان منه إلا أن قام بحيلة بارعة تترك الطريق مفتوحة أمام كل خياراته وتعطي لمحة عن تواضعه بأسلوب مسرحي. كل ما فعله هو أن صافح كُلاً منهما وجلس في مكانه. بعد ثلاثة شهور كان افتتاح «الأم شجاعة» في «برلين الشرقية» بعد أن قدموا له دعما كبيرا، ونجحت المسرحية نجاحا ساحقا مع قدوم النقاد من جميع أرجاء أوروبا الغربية لمشاهدتها، وأخيرا أغري ذلك «برخت» أن يجعل من ألمانيا الشرقية قاعدة انطلاق لعملياته المسرحية. إلا أن خطته الكبرى كانت أكثر تعقيدا، إذ وجد أن النمسا أيضا كانت تبحث لنفسها عن شرعيةما بعد الحرب. كان النمساويون من بين مؤيدي «هتلر» المتحمسين قد أداروا له الكثير من معسكرات الاعتقال (أربعة من ست معسكرات ضخمة من معسكرات الموت)، ولأسباب استراتيجية كان الحلفاء قد ارتأوا أن يعاملوا «النمسا» على أنها «كانت بلدا محتلا»، أي «ضحية لعدوان النازي» أكثر من اعتبارها عدوا، ولذلك كان للنمساويين هوية محايدة بعد سنة ١٩٤٥، ومن هنا كان من المناسب جدا بالنسبة له أن يحصل على جواز سفرنمسوي. في نفس الوقت كانت السلطات النمسوية شغوفة مثل الألمان الشرقيين لاستعادة مكانتها في قلوب المتحضرين من خلال التأكيد على إسهاماتهم الثقافية .... ووجدوا كذلك في «برخت» ضالتهم المنشودة .... وهكذا عُقِدَت صفقة أخرى. يقول «برخت» أنه كان يريد «أن يقوم بدور ثقافي في بلد يوفر المناخ المناسب لذلك»، ويضيف :

«دعني أؤكد أنني أعتبر نفسي شاعرا فقط ولا أريد أن أخدم أي أيديولوجية سياسية بعينها، أنا بريء من فكرة إعادة توطين نفسي في ألمانيا»، وكان يصر على أن ارتباطاته بـ«برلين» الشرقية كانت سطحية. «ليس لدي أي مهمة رسمية أو ارتباط محدد في «برلين» ولا أتقاضى أي راتب بالمرة ... وفي نيتي أن أتخذ من «سالزبورج» مقرا دائما لي»(١٧) .

ومعظم تلك الأقوال كانت أكاذيب، ولم يكن لديه أية نية للإقامة في «سالزبورج» ولكنه حصل على جواز السفر النمسوي، الأمر الذي سيمكنه من السفر حيث يريد ويحقق له قدرا كبيرا من الاستقلالية إزاء حكومة ألمانيا الشرقية .

كان هناك عنصر ثالث آخر في استراتيجية «برخت» المحكمة التدبير، كانت ترتيباته مع الألمان الشرقيين على أساس أنهم سوف يزودونه بشركة ومسرح لحسابه مع دعم ضخم في مقابل توحده الفني مع النظام، وكانت حسابات «برخت» صحيحة كما اتضح فيما بعد، حيث إن استثمارا كهذا يمكن أن يحقق لمسرحياته دفعة صحيحة كانت تحتاج إليها لكي تشق طريقها نحو الريبرتوار العالمي. حقوقه عنها سوف تصبح كبيرة ، ولم تكن لديه النية أن يترك الألمان الشرقيين يفيدون منها ولا أن يضع نفسه تحت رحمة دور النشر لديهم .

وفي السنوات العشر ما بين ١٩٢٢ـ١٩٣٢ كان يرفض تماما أن تكون له علاقة بالمؤسسات التعاونية للنشر التابعة للحزب الشيوعي الألماني مفضلا عليها الشركات الرأسمالية التي تدفع العائد المناسب. الآن أيضا يعهد بحقوق النشر الخاصة بأعماله ليد ناشر من ألمانيا الغربية «بيتر سوهر كامپ» ويجبر الألمان الشرقيين على أن يكتبوا على طبعاتهم من كتبه «بإذن من سوهر كامپ ـ فرانكفورت ـ أون ين». كانت جميع أرباحه من النشر من العالم ومستحقاته عن تقديم أعماله تدفع في مواعيدها بعملة ألمانيا الغربية وتحول إلى حسابه في أحد بنوك سويسرا. وبحلول صيف ١٩٤٩ وبفضل قدر كبير من المخاتلة والكذب الصراح كان ما يريده بالضبط قد تحقق : جواز سفر نمسوي، دعم حكومي من ألمانيا الشرقية، ناشر من ألمانيا الغربية، حساب في بنك سويسري .

حصل «برخت» على مسكن بصفته «مستشارا فنيا» لما كان بالفعل شركته الخاصة «برلين انسامبل» وكانت مديرتها زوجته «هيلين ويجل». وفي ١٢ نوفمبر ١٩٤٩ كان الافتتاح الكبير بمسرحية «السيد پونتيللا» وفي الوقت المناسب كان مسرح «سكيف باوردام» قد أعطي له كمقر دائم للشركة وتم تدشينه ببوستر لـ «پيكاسو». لم يعط لأي فنان منذ «ڤاجنر» إمكانيات على هذا المستوى المثالي لتقديم أعماله. كان لديه ٦٠ ممثلا بالإضافة إلى مصممي المناظر والملابس والموسيقيين وعشرات المساعدين ... وكان العدد الإجمالي للعاملين ٢٥٠ مستخدما. كل ما يحلم به أي كاتب مسرح كان متوفرا له وكان يستطيع أن يجري بروفات لمدة ٥ شهور، وكان يستطيع أن يلغي عرضا مسائيا لمسرحية في الريبرتوار بالفعل لكي يكمل بروفات مسرحية جديدة ـ وفعلها ـ وكانت قيمة التذاكر ترد بكل بساطة للجمهور عندما يحضر. لم يكن هناك أي قلق عن عددالممثلين أوتكاليف الإنتاج، كان يغير ويعيد الكتابة عدة مرات على ضوء البروفات الكاملة فيحقق درجة من الإتقان لم يصل إليها أي كاتب مسرحي آخر في العالم. كان تحت تصرفه ميزانية ضخمة للسفر والتنقل تمكنه من حمل مسرحية «الأم شجاعة» ـ ذلك الإنتاج الضخم ـ إلى «باريس» سنة ١٩٤٥ ، ثم «دائرة الطباشير القوقازية» في العام التالي، وكانت تلك الزيارات هي البداية الحقيقية لشهرته وتأثيره. ولكنه كان قد أعد العدة لهذا اليوم منذ سنوات طويلة مستخدما كل مهاراته الفذة في الدعاية لنفسه. تحسين من صورته الپروليتارية ومن صورة مسرحياته، عناية فائقة بإعداد وتفصيل الملابس، مقابلات شخصية مع الصحف يسيطر عليها جيدا، تصوير ولكن بشرط أن يختار الصور التي سوف تنشر. كان «برخت» يحرص على إعطاء عمله بعدا جادا ورصينا، وجذب اهتمام الأكاديميين الذين رآهم أفضل مـن يروج لشـهرة الكاتب .

وكان ذلك هو السبب الذي جعله يبدأ سلسلته: «عمل في طور الإعداد» والتي استأنفها الآن على نطاق واسع. كان يحتفظ في الولايات المتحدة بـ «سجل عمل» يضمنه تقارير مستمرة عن أفكاره وأعماله وتوثيق قصاصات وكتابات الصحف وما إلى ذلك. وفي سنة ١٩٤٥ بدأ في تسمية ذلك إلى جانب أوراق العمل الأخرى بـ «الأرشيف» .

ثم صور ذلك كله بطريقة تشبه المايكروفليم المستخدمة هذه الأيام وأقنع «مكتبة نيويورك العامة» بالاحتفاظ بمجموعة كاملة منها، كان هدفه هو تشجيع الدارسين الذين يعدون رسائل الدكتوراه عن أعماله وتسهيل الأمر لهم .

كما أرسل مجموعة أخري إلى «جيرها رد نيل هاوس» أحد خريجي «هارفارد»، والذي كان يعد رسالة عنه في ذلك الوقت وأصبح فيما بعد من أكبر المتحمسين له والمروجين لصورته في الولايات المتحدة. كان «برخت» أيضا قد استطاع أن يستقطب أحد الأكاديميين الأمريكيين «اريك بنتلي» أستاذ اللغة الإنجليزية الذي كان يعد رسالة عن «ستيفان چورچ». وفي سنة ١٩٤٣ شجعه «برخت» على أن يترك «چورچ» ويركز عليه، وفيما بعد كان هو الذي يترجم «دائرة الطباشير القوقازية» ـ مع ماجابنتلي ـ وينظم لعرضها الأول في الولايات المتحدة سنة ١٩٤٨ ويصبح قارع الطبل الرئيسي لـ«برخت» عبر الأطلنطي .

كان «برخت» باردا إزاء هذا النوع من التابعين وكان يدفعهم باستمرار للتركيز على أعماله بلا هوادة. يقول «بنتلي» : «لم يحاول أبدا أن يعرف الكثير عني، ولم يتركني أبدا أعرف الكثير عنه»(١٨) . كان «برخت» يعتقد أن إثارة العقبات في طريق هؤلاء وحتى إهمالهم يشحذ همتهم لخدمته والتقرب منه. أصبح غريب الأطوار ومن الصعب إرضاؤه وكل ذلك باسم الأمانة الفنية. كان «روسو» قد وصل إلى نفس الاكتشاف واستخدمه، ولكن في حالة «برخت» كان أسلوب التطبيق يتم بكفاءة ألمانية وبتمكن. في الخمسينيات كانت تلك الجهود تؤتي ثمارها في أمريكا، وكان «برخت» يروج لشهرته في أوروبا كذلك ويشجع الآخرين لكي يفعلوا مثله. سلطته القوية في «برلين» الشرقية كراع للمسرح جذبت حوله مجموعة من مخرجي المستقبل والمصممين. كان يقودهم ويأمرهم مثل قائد بروسي، كان في الواقع يدير الشركة كلها بسلطة قوية مطلقة، وكان الكل يحترمه ويرهب جانبه. حتى البروفات كانت مناسبات مسرحية يسجلها تلاميذه وتوضع في الأرشيف وتوزع في «لندن» و «پاريس» وغيرهما، وكان أولئك الشباب وسيلة نشر «الرسالة البريختية» في عالم المسرح في أنحاء العالم(١٩) .

كان هناك مثقفون من خارج دائرته أيضا يروجون له، في «پاريس» كان «رولان پارت» يقرع الطبول في مجلة «تياتر پوپيولير» ـ المسرح الشعبي ـ وكواحد من مؤسسي علم السيميولوجيا الحديث ـ دراسة أنماط الاتصال الإنساني ـ كان «پارت» في موضع مثالي لكي يجعل «برخت» محط إعجاب المثقفين. في بريطانيا كان هناك «كينيث تينان» والذي كان مازال مؤثرا وكان قد تحول إلى «برخت» عن طريق «اريك بنتلي» في الخمسينيات وأصبح ناقدا مسرحيا في «الأوبزرڤر» منذ عام ١٩٥٤، كان من الممكن أن يكون هذا الترويج المحموم لـ «برخت» وأعماله أقل تأثيرا لولا أنه تصادف مع التغير الأساسي في اقتصاديات المسرح الغربي. في ربع القرن الممتد من ١٩٥٠ ـ ١٩٧٥ ولأول مرة، كانت كل دولة في أوروبا، وبمعني الكلمة، قد قبلت فكرة المسرح المدعوم من الدولة. وتبلورت هذه المؤسسات الجديدة، على نطاق واسع وأغدقت عليها موارد سخية، كانت في بعض الأحيان، تمول من القطاع الخاص.

وعلى عكس مسرح الدولة في النظام القديم والذي يعد «الكوميدي فرانسيز» نموذجا له، كانت الشركات الجديدة توضع بقوانينها خارج سيطرة الحكومة وكانت تفخر باستقلاليتها. كانت من الناحية الظاهرية تشبه المسارح التي تمولها الدولة بسخاء في أوروبا الشرقية خاصة مسرح «برخت»، وكانت كلها تتخذ أوروبا الشرقية نموذجا وتركز على عروض ضخمة تجرى لها بروفات عديدة، والفرق كان أنها تقدم أعمالا كلاسيكية وأعمالا جديدة ـ ذات مغزى ـ من الريبرتوار العالمي. وكانت أعمال «برخت» هي الاختيار الطبيعي لهؤلاء. وفي «لندن» حيث كان التغيير أكثر ثورية ـ أزاحت المسارح المدعومة المسارح التجارية وأصبحت تقدم مسرحيات ذات نوعية معينة ـ عين المسرح القومي «كينيث تينان» ليكون أول مدير أدبي له. وهكذا في أوروبا كلها وفي كل العالم أصبح الناس يشاهدون مسرحيات «برخت» في ظروف جيدة وعلى مسارح مدعومة وفي معظم الأحيان بنفس المستوى التي كانت عليه في مسرحه الخاص.

«ڤاجنر» نفسه لم تتوفر له هذه الدرجة من حسن الحظ. وهكذا أتت صفقة «برخت» الفاوستية أكلها، وحتي في نهاية حياته أخذ يواصل تحققه بسرعة كأهم شخصية وأعظمها تأثيرا في عالم المسرح، وكان دائما على استعداد لأن يستخلص نصيبه حيث لم يستطع أن يكبح خبثه.

كان «برخت» منذ وقت باكر جدا يمارس الخنوع لتحقيق مصالحه الشخصية بل ويعتبره عقيدة. أحد الأقوال الأولى التي تنسب إليه : «لا تنس أن الفن خداع وأن الحياة نفسها خدعة»، ولكي تبقى على قيد الحياة يجب أن تنغمس أنت أيضا في الخداع والاحتيال ... بحذر وبنجاح. وكل أعماله مليئة بنصائح من هذا النوع ولنفس الهدف، في «طبول في الليل» يتفاخر «كراجر» الجندي الجبان : «أنا خنزير، والخنزير يعود إلى البيت ـ من الحرب»، بطله «جاليليو» يقول وهو ينحني أمام المديتشي : «تعتقد أن خطابي خانع أكثر مما ينبغي ؟ .. إن رجلا مثلي، بإمكانه أن يصل إلى وضع محترم بالزحف على بطنه فقط، وأنت تعرف أنني أحتقر الناس الذين لا تستطيع عقولهم أن تملأ بطونهم»، وكان «برخت» يكرر تلك الأفكار خارج المسرح أيضا. كان يقول لابنه «ستيفان» : «لابد من تحاشي الفقر بكل وسيلة ومهما كان الثمن، لأن الفقر يعوق الكرم. ولكي تنجو لابد أن تكون أنانيا»، وأفضل وصاياه كانت : «أحسن إلى نفسك»(٢٠).

وخلف هذه الفلسفة كانت تكمن أنانية عنيدة ويبدو أنها كان سمة عامة في كبار المثقفين. ولكن «برخت» كان يتابع أهدافه الأنانية بقسوة منظمة ودم بارد إلى درجة نادرة حتى بمقاييسهم. قبل المنطق الكئيب للخنوع : بمعنى أنه إذا انحنى للقوي استبد بالضعيف، كان موقفه من النساء طوال حياته متسقا اتساقا مرعبا : جعلهن جميعا في خدمة أغراضه. كلهن دجاجات في مزرعة هو الديك الوحيد بها. كان يصمم زيا خاصا لهن مكملا لزيه : فساتين طويلة غامقة الألوان كلمحة من التطهر(٢١).

ويبدو أنه كان قد حقق أول نجاح له وهو في السابعة عشرة عندما أغوى فتاة أصغر منه بعامين. كان

وهو شاب يركز على بنات الطبقة العاملة : الفلاحات، بنات المزارعين، بائعات، عاملات صالونات الحلاقة، ثم الممثلات فيما بعد ... وبالعشرات.

لم يسبق لأي امبريزاريو (مدير فرقة) أن استخدم أريكة الفرقة المسرحية بطريقة مجردة من المباديء مثله. كان «برخت» يجد متعة خاصة في إفساد البنات من ذوات النشأة الكاثوليكية المتشددة. ولا ندري لماذا كان البعض يجدنه جذابا. تقول «ماريان زوف» وهي ممثلة كانت صديقة له أنه كان دائما قذرا، وكان عليها أن تغسل له رقبته وأذنيه بنفسها. «إلزا لانكستر» زوجة «تشارلز لوتون» كانت تصف أسنانه بأنها «شواهد قبور صغيرة تبرز من فم مظلم»، ولكن صوته الساحر، العالي، كان يروق للبعض. وعندما كان يغني كما تقول «زوف» : كان صوته «المعدني المثير» يرسل الرعدة عبر عمودها الفقري. كانت تحب فيه كذلك رفعه العنكبوتي و«عيناه السوداوان العميقتان». «عينان تلسعان». كان «برخت» «في المرحلة الأولى» مجاملا، مقبل أياد من الطراز الأول، مثابرا. وقبل ذلك كله كثير المطالب. ولم تكن أمه فقط هي التي اكتشفت أن مطالبه اللحوحة من الصعب مقاومتها. علاة على ذلك، فإن «برخت» ـ رغم قسوة قلبه ـ كان يرى النساء أهم من الرجال بالنسبة له، كان يعطيهم مسئوليات إن كان ذلك على أساس من تذلل وخنوع. كان يستهويه أن يطلق على كل واحدة إسما لا يستخدمه سواه. «بي»، «ما»، «ملك»، .. وهكذا. لم يكن يهتم بالغيرة ، البصق، الهرش، ثورة الغضب. كان يحب ذلك كله.

كان هدفه ـ مثل «شلي» ـ أن يدير تجمعات جنسية صغيرة يكون سيدها، وقد نجح «برخت» فيما فشل فيه «شلي»، في جميع الأوقات كان لديه أكثر من امرأة في وقت واحد. في يوليو ١٩١٩ أنجب ابنا من سيدة شابة كان اسمها «پاولا بانهولرز» (بي)، كان قد لوح لها بوعد الزواج. في فبراير ١٩٢١ كانت «زوف» (مار) التي حملت منه أيضا وأرادت أن تحتفظ بالجنين ولكنه رفض : «إن ابنا يمكن أن يدمر كل سلامي النفسي». اكتشفت كل منهما علاقته بالأخرى وكانت معركة وطرحاه أرضا في أحد مقاهي «ميونخ». ثم أجلسته ليختار بينهما فقال : «كلاكما»، ثم اقترح على «بي» أن يتزوج «مار» ليجعل ابنها شرعيا ثم يطلقها ويتزوج «بي» ويجعل ابنها شرعيا كذلك. ولكن «مار» أعطته درسا بليغا من التأنيب وغادرت المقهى باشمئزاز. كما انصرفت «بي» وهي تتمنى أن تفعل نفس الشيء لولا أنها كانت خجولة.

ذهب «برخت» خلفها وصعد إلى عربة القطار حيث كانت تجلس وعرض عليها الزواج وقبلت. وبعد أسابيع قليلة تزوج «مار» وليس «بي» ! فقدت «مار» طفلها الأول ولكنها ولدت له طفلة «هانا» في مارس ١٩٢٣، بعد شهور قليلة كان «برخت» قد بدأ علاقة أخرى مع ممثلة «هيلين ويجل»، انتقل إلى شقتها في سبتمبر ١٩٢٤ وبعد شهرين ولدت طفلهما «ستيفان»، وبالتدريج كان العدد يتزايد في «مجموعته الجنسية» بما في ذلك سكرتيرته المخلصة «اليزابيث هريتمان»، ثم ممثلة أخرى «كارولا نيهر» التي لعبت دور «پولي» في «أوپرا البنسات الثلاثة».

ثم حدث الطلاق بين «برخت» و«مار» في عام ١٩٢٧ ليصبح على استعداد للزواج مرة أخرى. فمن

تراه يختار الآن ؟ ظل مترددا لمدة عامين ثم اختار «ويجل» في النهاية .. لأنها الأكثر نفعا. قدم باقة ورد إلى «نيهر» على سبيل الترضية قائلا : «لا أستطيع وإن كان هذا لا يعني شيئا»، فما كان منها إلا أن ضربته بالباقة على رأسه. أما «هويتمان» فحاولت الانتحار. هذه الفوضى التي سببت للنساء كل هذا القدر من الغيظ والإحباط لم يكن لها أي تأثير عليه. كان كما هو هادئا صافيا، لم يظهر عليه ذات يوم أي قلق أو اضطراب لما سببه لأي امرأة. كان يستخدمهن ثم يلقي بهن بعد تحقيق الأهداف التي يريدها. هناك مثلا الحالة المأسوية لـ «مارجريت ستيفن» ـ ملك ـ وهي ممثلة هاوية أعطاها دورا في مسرحية وأغواها أثناء البروفات، تبعته «ملك» في منفاه وعملت سكرتيرةله دون أجر. كانت موهوبة في اللغة وتولت كل مراسلاته الأجنبية (كان برخت يجد صعوبة في التأقلم مع أي لغة باستثناء لغته)، وكانت تعاني من السل ثم ساءت حالتها أثناء سنوات المنفى في الثلاثينيات، وعندما نصحها طبيبها وصديقها الدكتور «روبرت لاند» بدخول المستشفى رفض «برخت» : «لا فائدة من ذلك، ولا يمكنها البقاء في المستشفى الآن حيث أنني في حاجة إليها»، وهكذا لم تكمل العلاج وواصلت العمل من أجله. وبعد أن تخلى عنها في «موسكو» سنة ١٩٤١ وغادر إلى «كاليفورنيا» ماتت هناك بعد أسابيع قليلة وهي تمسك في يدها ببرقية منه. كانت في الثالثة والثلاثين.

حالة أخرى هي حالة «روث بيرلو» التي بدأت علاقته بها في سنة ١٩٣٣، كانت دانمركية ذكية في الرابعة والعشرين، سرقها من زوجها الطبيب الممتاز، وكما فعل مع عشيقاته السابقات كان يكلفها بكثير من أعمال السكرتارية بيد أنه كان يبدي اهتماما بملاحظاتها على مسرحياته مما كان يشعل نار الغيرة لدى «ويجل» التي كانت تكرهها أكثر من عشيقاته الأخريات. كانت «بيرلو» معه في أمريكا وكانت تشكو مر الشكوى وتقول : «أنا زوجة «برخت» السرية»، و«أنا عاهرة كاتب كلاسيكي»، كما أصيبت بخبل عقلي وكان لابد أن تعالج في مستشفى «بيليف» في «نيويورك» وكان تعليق «برخت» : «ليس هناك من هو أكثر جنونا من شيوعي مجنون». وبعد أن غادرت المستشفى كان تشرب بشراهة، ثم تبعته إلى «برلين» الشرقية، أحيانا خنوعة ذليلة وأحيانا تسبب له الفضائح إلى أن أرسلها أخيرا عنوة إلى الدانمرك حيث أدمنت الشراب.

كانت «بيرلو» طيبة القلب، موهوبة، ولكنه لم يفكر في معاناتها طوال السنوات التي عرفها فيها.

كانت «ويجل» أكثر نساء «برخت» عنفا وإن كانت أكثرهن خضوعا له، والواقع أنها حلت محل أمه. كان مثل «ماركس» لديه ميل لاستغلال الآخرين وقد وجد فيها بغيته على أوسع نطاق. كانت بالنسبة له «چيني» و«لينشن» معا، وكانت، في أمور كثيرة قوية الذهن مع سمات قيادية وقدرات تنظيمية كبيرة. كانا في الظاهر يبدوان متساويين : يناديها بـ «ويجل» وتناديه بـ «برخت»، ولكنها كامرأة كانت تفتقد الثقة في نفسها خاصةبالنسبة للرغبة الجنسية، وكان هو يدق على نقطة الضعف هذه ويستخدمها. كانت تقوم على خدمته في البيت وفي المسرح على السواء. في البيت تغسل وتنظف بطاقة قوية وتتجول

في محلات الأنتيكات لشراء التحف الجميلة، وتطبخ كثيرا وجيدا وتنظم الحفلات لأصدقائه ورفاقه وعشيقاته وكانت تساعده على تطوير قدراته المهنية بكل ما تملك من طاقة. وعندما امتلك مسرحا خاصا به في ١٩٤٩ كانت تقوم بإدارته وتشرف على شباك التذاكر والفواتير وأعمال النظافة والفنيين والتغذية وكافة الشئون الإدارية، ولكنه كان يشير دائما إلى أنها مسئولة فقط عن المبنى وليس لها أي علاقة بالنشاط الإبداعي الذي كان يبعدها عنه تماما ... لدرجة أنها كانت تكتب إليه لتذكره بمواعيده الخاصة في المسرح.

عزلها عن جو نزواته النسائية الذي استمر بقوة خلال سنواته في «برلين» عندما كانت قدراته ووضعه يسهلان له الحصول على عدد كبير من الممثلات الشابات. وعندما يفيض الكيل أحيانا كانت تترك البيت، ولكنها بشكل عام كانت متحملة ومتسامحة باستسلام حزين. وفي بعض الأحيان تقدم النصح لعشيقاته الصغيرات : «برخت غيور جدا، لا يقتصر على امرأة واحدة، يتوقع أن تكون نساؤه مخلصات له أو على الأقل يعملن حسب توجيهاته». كان يحب السيطرة ولذلك كان في حاجة إلى معلومات. كان يجري اتصالات تليفونية عديدة للتأكد مما تفعله أي واحدة لا تقضي المساء معه، وقرب نهاية حياته صار يبدو مثل مهر عجوز ذليل يبذل جهدا جهيدا ليحتفظ بجزءي مؤخرته معا .. !

لم تترك له علاقاته النسائية العديدة وقتا لأطفاله، وكان لديه على الأقل طفلان غير شرعيين، ولدت له «روث بيرلو» ابنا في ١٩٤٤ ولكنه مات صغيرا. ابنه الأكبر من «پاولا» : «فرانك بانهولزر» كبر وأصبح رجلا وقتل على الجبهة الروسية في سنة ١٩٤٣، لم يرفض «برخت» الاعتراف به بالضبط كما فعل «ماركس» بالنسبة لابنه «فريدي»، ولكنه لم يكن مهتما به، وكان نادرا ما يراه ولم يذكره أبدا في مذكراته أو يومياته وكذلك أبناؤه الشرعيون لم يكن لهم وجود ظاهر في حياته. كان يكره أي وقت يقضيه معهم ويضن عليهم به. نفس الحكاية المعتادة للمثالية الفكرية. الأفكار قبل البشر ! البشرية ـ بحروف كبيرة ـ قبل النساء والزوجات والأبناء والبنات.

«فلورانس» زوجة «أوسكار هومولكا» التي كانت تعرفه جيدا في أمريكا لخصت المسألة بذكاء شديد : «في علاقاته الإنسانية كان مقاتلا من أجل حقوق الناس دون أن يكون مكترثا بسعادة أقرب الأقارب إليه»(٢٢). كان «برخت» نفسه يقول مستشهدا بكلمات «لينين» أن على المرء أن يكون قاسيا على الأفراد من أجل خدمة المجموع، نفس الأسلوب كان يطبقه في العمل.

كان لديه أسلوبه الخلاق والأصيل في تقديم مادته، ولكن المادة كانت مأخوذة من كُتّاب آخرين. كان معدا موهوبا، بارعا في المحاكاة، مجددا ومعدلا لأفكار وحبكات أعمال الآخرين، وصحيح أنه من أكثر الذين حققوا شهرة وأهمية بالقليل الذي كان من عنده بالفعل. وكان يتساءل بسخرية : ولم لا ؟ ماذا يهم إذا كان ذلك من أجل البروليتاريا ؟

وبعد اكتشاف سرقته من «آمرز» سلم بما يسميه «ضعفه الأساسي فيما يتعلق بالملكية الأدبية»، وهو

اعتراف خطير من رجل أصبح متشددا فيما بعد في حماية إنتاجه. مسرحيته «سان چوان أوف ستوكياردز» ـ ١٩٣٢ ـ محاكاة لعمل «شيللر» «عذراء الأورليانز» ومسرحية «شو» : «سان چوان».

أسس عمله «بنادق سنيورا كارار» على عمل «ج.م.سينج» : «رايدرز توذاسي». مسرحيته «پونتيللا» تنطوي على سرقة من عمل باحثة الفولكلور «هيللا وولوجوكي» التي استضافته في فنلندا، وهذا مثال حي على عدم الوفاء. سرق من «شلي»، سرق من «كپلنج»، سرق من «هيمنجواي». وعندما لفت «إرنست پورنمان» نظره إلى التشابه الغريب بين إحدى مسرحياته وقصة قصيرة لـ «هيمنجواي» ـ وهكذا لمس نقطة حساسة ـ انفجر «برخت» : «اخرج من هنا .. اخرج .... اخرج ....».

«هيلين ويجل» التي كانت في المطبخ ولم تسمع بداية النقاش ولا تعرف موضوعه انضمت إليه واندفعت إلى داخل الغرفة وهي تصرخ .... «نعم .. اخرج ..... اخرج» وهي تلوح له بالمقلاة مثل السيف(٢٣).

«ضعف برخت» الرئيسي كان أحد أسباب عدم شعبيته في وسط الكتاب الآخرين خارج توابعه والمرتبطين به من الناحية الحزبية. كان الكتاب الأكاديميون من «مدرسة فرانكفورت» يحتقرونه (ماركيوز وهوركهايمر) ويعتبرونه «ماركسيا فظا». كان «أدورنو» يقول عنه أنه يقضي الساعات كل يوم ليضع الطين تحت أظافره لكي يبدو مثل العمال. في أمريكا كان عدوا لكل من «كريستوفر آشروود» و «د.هـ أودن». كان «آشروود» يكره محاولاته ومحاولات «ويجل» لتحطيم معتقداته البوذية الجديدة التي اعتنقها. كان يرى «برخت» إنسانا «متحجر القلب»، «متنمرا»، ويعتبرهما أشبه بفردين من «جيش الخلاص»(٢٤).

«أودن» الذي كان شريكا سابقا له، كان يمتدح شعره ولكنه يحتقره كسياسي جاد (لا يستطيع أن يفكر)، وأخلاقياته يرثي لها (إنسان سيء جدا). (شخص كريه)، أحد قلة يستحقون الإعدام ـ «وفي الواقع يمكن أن أتصور أن أقوم بذلك بالنسبة له»(٢٥). كان «توماس مان» يكرهه ويعتبره «من بطانة الحزب» ولكنه «للأسف موهوب»، «وحش».

وكان «برخت» يرد على ذلك : «ذلك الذي يكتب قصصا قصيرة»، «فاشستي أصيل»، «نصف موهوب» «حيوان زاحف»(٢٦).

أحد أسباب كراهية «أدورنو» وأصدقائه لـ «برخت» أنهم كانوا يستاؤون من «تمسحه بالعمال»، وكانوا يرون ذلك «دجلا»، وبالطبع فإن زعمهم أنهم كانوا يفهمون مطالب العمال كان أيضا بلا أساس. كانوا يعيشون حياة الطبقة المتوسطة. ومثل «ماركس» نفسه لم يلتقوا أبدا بأبناء الشقاء ولكنهم على الأقل لم يلبسوا ملابس عمال من تصميم خياطين يتقاضون أجورا باهظة عنها. كانت هناك درجة من الكذب والخداع المنظم من قبل «برخت» كفيلة بأن تقلب معدتهم. كانت هناك مثلا حكاية يروجها عن نفسه أنه عندما وصل إلى باب أحد الفنادق الفخمة من أجل موعد («سافوي» في لندن و«ريتز» في باريس

و«پلازا» في نيويورك ... كان الموقع يتغير) مرتديا ملابس العمال بالطبع، رفض حراس الفنادق الذين يلبسون ثيابهم الرسمية أن يسمحوا له بالدخول. وحيث أن «برخت» كان بطبيعته مستبدا وعلى استعداد لأن يتصرف كأي أرستقراطي بروسي غاضب لو أن أحدا حاول أن يمنعه من الحصول على ما يريد، فمن المحتمل جدا ألا يكون شيئا من هذا القبيل قد حدث. ولكن «برخت» كان يستخدم ذلك كشعار لتعامله مع النظام الرأسمالي. وفي رواية أخرى له عن نفس الموضوع يقول إنهم أوقفوه عند المدخل وهو ذاهب إلى حفل استقبال غربي فخم وطلبوا منه أن يملأ استمارة بيانات، وعندما فعل ذلك سأله حارس على الباب : «برتولد برخت ؟ .. هل أنت أحد أقارب برتولد برخت» ؟ فأجاب : نعم ! «أنا ابنه» ثم خرج وهو يهمهم : «في كل مكان صغير أو كبير مازلت تجد القيصر ولهلم الثاني»(٢٧).

كان يأخذ بعض حيله للدعاية من «شارلي شاپلن» الذي كان معجبا به واعتبره ذات يوم مخرجا أفضل منه. وهكذا عندما وصل بسيارته إلى حفل رسمي وفتح له الحاجب الباب خرج «برخت»بسرعة من الباب الآخر تاركا الحاجب يبدو عليه الغباء والمتزاحمين في المكان ينفجرون في الضحك، أما السيارة فكانت هي نفس سيارته الرمادية القديمة وكان قد رفض قبول سيارة رسمية (ليموزين فاخرة) من ألمانيا الشرقية محدثا الضجة الإعلامية المفيدة ! أما الاحتفاظ بالسيارة القديمة وتسييرها (بما في ذلك الوقود وقطع الغيار والصيانة ..) فكان ميزة أكبر في الممارسة ـ لم يكن بمقدور أحد غير متصل بالنظام أن ينفق على سيارة خاصة ـ لأنه استخدمها كوسيلة جديدة للدعاية.

كان هناك أيضا شيء غامض ومضلل في أسلوب حياة «برخت»، فبالإضافة إلى الشقة الفاخرة المطلة على المقابر المدفون بها حبيبه «هيجل» (كانت شقة ويجل تحتها) اشترى «برخت» منزلا ريفيا في ضاحية «بكو» على بحيرة «شارموزيل»، كانت الحكومة قد صادرته من أحد الرأسماليين وكان «برخت» يستخدمه في إجازاته الصيفية ويستجم في ظل أشجاره الوارفة. والحقيقة أنهما منزلان، أحدهما كبير والآخر صغير.

وكان «برخت» يقول أنه يعيش في ما كان يسميه بالكوخ الريفي. وفي شقته في المدينة كان يحتفظ بصور «ماركس» و«انجلز» لكي يريها لمسئولي النظام عند زيارتهم له، ولكنه كان يضعها بطريقة بها قدر من السخرية ـ غير ملحوظة للعين الرسمية ـ يثير ضحك الأصدقاء.

قلق «برخت» للحفاظ على صورته وتقديم مظهر الاستقلال بأي وسيلة، كان نابعا من الحقيقة المؤكدة أنه قد عقد صفقة فاوستية. ولم يكن هناك بالفعل أي شيء جديد في توحد مصالحه المهنية مع بقاء وانتشار الشيوعية، وكان ذلك يتم ضمنيا وأحيانا صراحة في حياته منذ سنة ١٩٣٠.

كان «برخت» ستالينيا في الثلاثينيات .. وأحيانا متشددا . يسجل الفيلسوف الأمريكي «سيدني هوك» حوارا فاترا معه عندما زاره «برخت» في سنة ١٩٣٥ في شقته في «باروستريت» ـ مانهاتن ـ وكانت حملات التطهير في بدايتها، أثار «هوك» معه قضايا «زينوفيف» و«كامينيف» وسأله كيف يتحمل العمل

مع الشيوعيين الأمريكيين الذين كانوا يعلنون عن جرائمهم بصوت عال ؟ قال «برخت» : إن الشيوعيين الأمريكيين لم يكونوا صالحين ـ ولا الألمان أيضا ـ وأن أهم شيء هو الحزب الشيوعي السوڤيتي. قال «هوك» أنهم جميعا جزء من نفس الحركة ومسئولون عن القبض على رفاقهم السابقين الأبرياء وسجنهم. وقال «برخت» : «بالنسبة لهم فإنهم كلما كانوا أكثر براءة، حق عليهم الإعدام».

هوك : ماذا تقول ؟

برخت : كلما كانوا أكثر براءة حق عليهم الإعدام.

(كان الحوار بالألمانية كما سجله هوك)

هوك : لماذا ؟ لماذا ؟

كرر السؤال ولكن «برخت» لم يجب. فقام «هوك» وذهب إلى الحجرة الأخرى وأحضر معطف «برخت» وقبعته. «عندما عدت كان مازال جالسا في مقعده ممسكا بكأس في يده وعندما رأى المعطف والقبعة في يدي نظر إليّ بدهشة. وضع الكأس من يده، نهض بابتسامة باهتة وتناول معطفه وقبعته وانصرف»(٢٨).

عندما نشر «هوك» ذلك لأول مرة اعترض عليه «اريك بنتلي» ولكن ـ حسب رواية هوك ـ عندما حكى له الحادث (في مؤتمر برلين للحرية الثقافية ـ ١٩٦٠) قال «بنتلي» : «هذا هو برخت» !!. ويذكرنا ذلك برد فعل «بيرون» عندما سمع حكاية «كلير كلير مونت» والابن غير الشرعي لـ «شلي»ويؤكد ذلك أيضا البروفيسور «هنري پاتشر» ـ سيتي يونيفرستي ـ الذي يشهد بأن «برخت» قال نفس الشيء في وجودي» ، مضيفا نفس التبرير المدمر الذي كان يقدمه لذلك : «بعد خمسين سنة من الآن سيكون الشيوعيون قد نسوا «ستالين» ، ولكني أريد أن أتأكد أنهم سوف يواصلون قراءة «برخت» ، وهكذا لا أستطيع أن أعزل نفسي عن الحزب»(٢٩) ، والحقيقة أن «برخت» لم يحتج أبدا على حملات التطهير حتى عندما شملت أصدقاءه، وعندما ألقي القبض على عشيقته السابقة «كارولانيهر» في «موسكو» كان تعليقه : إذا كانت مدانة فلابد أن هناك أدلة ضدها(٣٠) ، وأختفت «كارولا» .. والمؤكد أنها أعدمت بواسطة «ستالين» .

وعندما أعدم «ستالين» صديقا آخر له : «ترتياكوڤ» ، رميا بالرصاص، كتب «برخت» قصيدة رثاء ولكنه لم ينشرها إلا بعد سنوات طويلة. أما أثناء الحدث فكان تعليقة : لقد أثبتت المحاكمات بكل وضوح وجود مؤامرات ضد النظام . وقد انضم إليها كل الحثالة في الداخل والخارج، كل الطفيليين محترفو الإجرام، والمخبرون. كلهم شارك فيها .. وكان لكل أولئك الغوغاء نفس أهداف المتآمرين، وأنا مقتنع بأن تلك هي الحقيقة»(٣١) . في ذلك الوقت بالفعل كان «برخت» يؤيد كل سياسات «ستالين» علنا بما فيها سياساته الفنية، في سنة ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ مثلا أيد الهجوم على «الشكلانية» ، أو على أي نوع من

التجريب أو الإبداع الفني. وكتب : «إن الحملة المفيدة على «الشكلانية» قد ساعدت على التطور الخلاق للأشكال الفنية بإثباتها أن المضمون الاجتماعي هو الشرط الحاسم لمثل هذا التطور، وأي إبداع شكلي لا يخدم المضمون الاجتماعي هو الشرط الحاسم لمثل هذا التطور، وأي إبداع شكلي لا يخدم المضمون الاجتماعي أو يستمد مبرراته منه سيظل ضربا من العبث»(٣٢).

وعندما مات «ستالين» في النهاية كان تعليق «برخت»: «إن المظلومين في قارات العالم الخمس لابد أنهم شعروا بتوقف قلوبهم عندما سمعوا أن «ستالين» قد مات. لقد كان تجسيدا لآمالهم»(٣٣). كان في غاية السعادة عندما حصل على جائزة «ستالين» للسلام سنة ١٩٥٥، معظم القيمة المادية (١٦٠٠٠٠روبل) ذهب مباشرة إلى حسابه في البنك السويسري، ولكنه ذهب إلى «موسكو» ليتسلم الجائزة وطلب من «بوريس باسترناك» ـ ربما لم يكن على علم بوضعه ـ أن يترجم كلمته في الحفل.

كان «باسترناك» سعيدا أن يقوم بذلك، ولكن فيما بعد ـ أعيد تسمية الجائزة ـ تجاهل طلب «برخت» أن يترجم مجموعة من قصائده في مديح «لينين». كان «برخت» مستاءً لتوزيع حديث «خروشوف» في الجلسة السرية عن جرائم «ستالين»، وعارض نشره بشدة وأبدى أسباب ذلك لأحد تلاميذه :

«لدي حصان أعرج وأجرب وأحول، يجيء شخص ما ليقول : لكن الحصان أعرج وأجرب ... وانظر .. إنه أحول! هو على حق ... ولكن ما فائدة ذلك بالنسبة لي ؟ ليس لدي غير هذا الحصان .. لا يوجد غيره. وأفضل شيء في رأيي أن يكون كلامنا عن عيوبه بأقل قدر ممكن»(٣٤). و«عدم التفكير» كان سياسة اضطر «برخت» أن يتبناها منذ سنة ١٩٤٩، حيث كان قد أصبح موظفا مسرحيا لنظام ألمانيا الشرقية المغالي في ستالينيته. لقد بدأ ـ وفي نيته الاستمرار ـ كتابة قصيدة بلاط بعنوان «إلى بني وطني» بمناسبة انتخاب «ولهلم بيك» رئيسا لجمهورية المانيا الديمقراطية الجديدة في ٢ نوفمبر ١٩٤٩، وأرفقها بخطاب إليه معبرا عن ابتهاجه بتلك المناسبة. وعموما كان «برخت» أكثر اتساقا في وفائه من بين كتاب الحزب الشيوعي إذا استبعدنا ابتذالاته. كان يعطي اسمه لأي سياسة دولية يتبناها النظام. احتج بشدة على المثقفين في ألمانيا الغربية لتواطئهم مع إعادة تسليح الجمهورية الاتحادية وصمتهم عن التسليح المماثل في ألمانيا الديمقراطية. كان من عادته أن يستهجن الآخرين بسبب أخطائه : كان أحد الموضوعات المتكررة في تلك السنوات هو خطورة المثقفين الذين «يخدمون» الرأسمالية من أجل المال والامتيازات، وكان يكتب مسرحية تتناول هذا الموضوع عندما مات. قدم مادة وفيرة ضد «أديناور» تتضمن رباعية غريبة بها أبيات مثل : «أديناور ..أديناور .. أديناور .. أرنا يدك! إنك تبيع أراضينا من أجل ثلاثين قطعة من الفضة .. الخ»

وحقق له ذلك جائزة ألمانيا الديمقرلطية للأدب (من الدرجةالأولى). كان «برخت» باستمرار جاهزا للقاء كبار الضيوف وتقديم حديثه المعد سلفا والذي يستنكر إعادة تسليح ألمانيا الغربية. كان يوقع برقيات الاحتجاج ويكتب أغاني المسيرات والقصائد الأخرى للنظام.

وكانت هناك أحيانا خلافات على النقود عادة كما حدث مثلا مع مؤسسة السينما في ألمانيا الشرقية على مسرحية «الأم شجاعة». كان النظام قد رفض «كريجزفيبل» في البداية على اعتبار أنه «سلامي» ولكنهم رضخوا عندما هدد «برخت» بنقل القضية إلى «مجلس السلم العالمي» الذي يسيطر عليه الشيوعيون .

ولكن كقاعدة، كان «برخت» هو الذي يرضخ. مسرحيته «محاكمة لوكوللوس» ـ١٩٣٩ـ التي كتبت في الأصل كتمثيلية إذاعية معارضة للحرب، كتب لها الموسيقى «پول ديساو» وتم التخطيط لتقديمها في ١٧ مارس ١٩٥١ على مسرح أوبرا الدولة في «برلين» الشرقية، وانزعج النظام للدعاية الضخمة الباكرة، حيث كان يرى أنها أيضا «سلامية»، ولأن الوقت كان قد فات بحيث لا يمكن إيقاف العمل، خفضوه إلى ثلاثة عروض ووزعوا التذاكر كلها على عمال الحزب، ولكن بعضها قد تسرب إلى السوق السوداء ووصل إلى أيدي إشخاص من «برلين» الغربية حضروا وكانوا يصفقون بحرارة، وتم إلغاء العرضين الآخرين .. بعد ذلك بأسبوع كانت جريدة الحزب الرسمية «نيوز دوتيش لاند» تنشر هجوما تحت عنوان «محاكمة لوكوللوس: فشل تجربة في مسرح أوبرا الدولة». تركز الهجوم الناري كله على موسيقي «ديساو» واتهموه بأنه تابع لـ«سترافينسكي» : «مخرب التراث الموسيقي الأوروبي»، ولكن النص كذلك كان محل انتقاد «لفشله في التطابق مع الواقع»، وتم استدعاء كل من «برخت» و«ديساو» إلى اجتماع حزبي استمر ثمان ساعات. وفي نهاية الاجتماع تحدث «برخت» بدافع من الواجب : «أين يمكن أن تجد حكومة فى أي مكان في العالم تبدي مثل هذا الاهتمام بالفنانين وتولي أهمية لما يقولون ؟» ثم قام بعمل التعديلات التي طلبها الحزب، مغيرا العنوان إلى «إدانة لوكوللوس»، كما أعاد «ديساو» كتابة الموسيقى .

ولكن الانتاج الجديد (١٢ اكتوبر) لم يكن مرضيا كذلك.

وقالت «نيوز دويتش لاند» : «تحسن كبير، ولكنه مازال يفتقر إلى الجاذبية الشعبية «ويقترب من الرمزية بدرجة خطيرة». وهكذا بعد إدانة العمل، إختفي من المسرح الألمانى الشرقي رغم أن «برخت» استطاع أن يقدمه في الغربي(٣٥). أما الاختبار الحقيقي لصفقة «برخت» الفاوستية فقد حدث في سنة ١٩٣٥ عندما قام العمال في ألمانيا الشرقية بانتفاضتهم وجاءت الدبابات السوفيتية لقمعها. وظل «برخت» وفيا ولكن ليس مجانا! لقد استغل المأساة بكل ذكاء وخبث لتقوية موقفه وتحسين شروط الصفقةالتي عقدها. عندما مات «ستالين» سنة ١٩٣٥ كان «برخت» قد وقع تحت ضغط من سلطات ألمانيا الشرقية لأن يتواءم مع السياسة الفنية السوفيتية، وكانت في ذلك الوقت تروج لأساليب «ستانسلافسكس» التي كان «بخت» يكرهها. صحيفة «نيوز دويتش لاند» التي كانت تعبر عن آراء لجنة الفنون الجميلة التابعة للدولة ـ حيث كان لـ«برخت» أعداء، والتي كانت تشن حملة على فرقته ـ حذرت من أن شركة «برخت» كانت تقف ضد كل ما يمثله «ستانسلافسكي»، وفي نفس الوقت كانت فرقته تشارك في أحد المسارح وكانت اللجنة تصد محاولات «برخت» للاستيلاء على مسرح «آم سكيف باوردمان»، كان هدف «برخت» هو

تحطيم اللجنة والاستيلاء على المسرح .

ويبدو أن الانتفاضة جاءت مفاجئة له مما يثبت أنه كان بعيدا كل البعد عن حياة الناس العاديين. كان لديه النقد الأجنبي الوفير، وكان يسافر إلى الخارج كثيرا هو وزوجته ويتسوقان من أنحاء العالم، وفي ألمانيا الشرقية نفسها كان لديه إمكانية التسوق من المحلات الخاصة بكبار رجال الحزب والنخبة المتميزة. ولكن الجماهير ـ ومعظمهم كانوا يتضورون جوعا ـ فكانوا تحت رحمة التقلبات العشوائية في سياسة الحكومة لتوزيع الحصص التموينية. وقد لجأ ستون ألفا إلى «برلين» الغربية وحدها. وفي شهر أبريل تم رفع الأسعار فجأة وسحبت بطاقات التموين من قطاعات كبيرة من الناس (الذين يعملون لحسابهم وأصحاب المنازل مثلا)، ولكن «برخت» أعفي من ذلك لوضعه المتميز وكمواطن نمسوي رغم أنه كان يعمل لحسابه ويملك منزلا! وفي ١١ يونيو عكست السياسة فجأة وأعيدت بطاقات التموين وتحركت سياسة الأسعار والأجور بحدة ضد مصلحة عمال المصانع. في ١٢ يونيو طلب عمال البناء عقد اجتماع جماهيري عندما وجدوا أجورهم تخفض إلى النصف. وبدأت الاحتجاجات بصورة جادة في ١٥ يونيو واستمرت مع تزايد الغضب الجماهيري إلى أن تدخلت الدبابات السوفيتية. ورغم مفاجأة الانتفاضة له، هرع «برخت» الذي كان في منزله الريفي للاستفادة منها، مدركا أهمية مساندته للنظام في هذا الظرف المصيري، فكتب إلى رئيس الحزب «أوتو جروتيووهل» في ١٥ يونيو يطلب إعطاءه المسرح وإعلان ذلك، ويفهم من ذلك أن المقابل سيكون تأييد خط الحزب مهما كان الأمر. كانت ثمة صعوبة في تحديد الخط قبل يومين عندما ألقي القبض على عاطل من «برلين» الغربية كان قد تسلل إلى القطاع الشرقي ليحصل على إعانة البطالة الخاصة به، وأدين سراً بتهمة «التحريض الغربي» وأعدم رميا بالرصاص ...وهكذا أصبح اسم الانتفاضة هو : «الإثارة والتحريض الفاشستي»، وهكذا أيضا تحدد خط الحزب الذي تبناه «برخت» فورا. وبنهاية نفس اليوم كان قد أملي رسائل إلى قادة الحزب «أولبرشت»، «جروتيووهل»، والمستشار السياسي السوفيتي «ڤلاديمير سيميونوف» الذي كان هو الحاكم العام الروسي من الناحية الفعلية. وفي ٢١ يونيو كانت «نيوز دويتش لاند» تنشر : أن «برتولد برخت» الحائز على جائزة الدولة قد أرسل إلى «ڤالتر أولبرشت» السكرتير العام للجنة المركزية لحزب الوحدة الاشتراكي خطابا يعلن فيه : «أشعر في هذه اللحظة بالحاجة إلى أن أعبر لك عن ارتباطي بالحزب. المخلص برتولد برخت». بعد ذلك زعم «برخت» أن خطابه كان ينطوي على نقد كثير للحكومة وأن تلك العبارة المنشورة كان يسبقها عبارتان هما : «سوف يسجل التاريخ احترامه للحسم الثوري للحزب، وأن المناقشة الواسعة مع الجماهير عن معدل البناء الاشتراكي سوف تؤدي إلى غربلة الإنجازات الاشتراكية وتأمينها» وكتب المراسل السويسري «جودي سوتر» : «كانت تلك هي المناسبة الوحيدة التي رأيته فيها صغيرا لا حول له ولا قوة: عندما جذب من جيبه أصل الخطاب المرتبك لكن يريه لعدد كبير من الناس»(٣٦) .

على أية حال فإن «برخت» لم يحاول أن ينشر النص الأصلي للخطاب آنذاك ولا بعد ذلك، ومالديه كان نسخة بالكربون وليس الأصل. ولو أنه نشرها لكان النظام قد نشر الأصل. كان «برخت» قادرا على

إرسال خطاب ... ثم يشكو على انفراد أنه قد أرسل واحدا مختلفا، حتى وإن كان النص الذي كان يحتفظ به صحيحا فإن شكواه من تصرف «أولبرشت» لم يكن لها أساس. كان قادة ألمانيا الشرقية مشغولين بأمور أخرى أهم من عناوين «برخت» الفرعية، كانوا يفكرون في كيفية إنقاذ رقابهم مثلا !

وعلى أية حال ... ألم يكن شراء «برخت» قد تم .. والثمن قد تم تسديده ؟ فلماذا إذن يترددون في اختصار كتاب الشكرذاك ؟ بعد يومين نشرت «نيوز دويتش لاند» خطابا طويلا آخر منه كشف موقفه بوضوح : أشار في الواقع إلى حالة من «السخط» سائدة «بين قطاع عريض من عمال «برلين» بسبب سلسلة من الإجراءات الاقتصادية التي أخفقت»، وتمضي الرسالة : «وقد حاولت عناصر فاشية منظمة أن تستغل هذا السخط لخدمة أغراضها الدنيئة، وظلت «برلين» لعدة ساعات على حافة حرب عالمية ثالثة، ولكن تم إحباط محاولاتهم بفضل التدخل السريع والحاسم للقوات السوڤيتية. وكان من الواضح أن تدخل القوات السوفيتية لم يكن موجها ضد تظاهرات العمال، وإنما ضد محاولة هولوكوست جديدة»(٣٧) ، كما كرر تلك الصيغة إلى ناشره الألماني «دهماء تدفقت في كل أنحاء «برلين» الشرقية ولكن الجيش السوڤيتي فقط هو الذي استطاع أن يمنع حربا عالمية»، وكان ذلك هو خط الحزب بالضبط، بينما لم يكن هناك أي دليل على وجود «مهيجين فاشست» ولا كان «برخت» نفسه يعتقد ذلك ، إلا بعد وفاته بوقت طويل(٣٨) . كان «برخت» قد وجد أن الحقيقة كريهة، وهي أن العمال الألمان كانوا رافضين للنظام .

ومثل معظم أفراد أي طبقة حاكمة، لم يلتق «برخت» بالعمال إلا في صورة خدم أو أحيانا على هيئة حرفيين يقومون بأعمال إصلاحات في منزله. وقد سجل محادثة جرت بينه وبين عامل سباكة كان يقوم ببعض الإصلاحات في منزله الريفي. شكا له العامل أن صبيا كان يعمل لديه وفصله بسبب السرقة كان الآن في مخفر الشرطة، شرطة الشعب، المملوء بنازيين سابقين. كان العامل يريد انتخابات حرة، فقال له «برخت» : «في هذه الحالة سوف ينتخب الناسُ النازيين»، لم يكن ذلك أبدا هو منطق عامل السباكة ولكنه يعكس توجه عقل «برخت» . لم يكن يثق بالشعب الألماني وكان يفضل الحكم السوڤيتي الاستعماري على الديمقراطية(٣٩) .

حصل «برخت» على المقابل لقاء تأييده للنظام، رغم أن «أولبرشت» انتظر قرابة العام لكي يسلمه له. في محاولته لتدمير لجنة الفنون الجميلة، اكتشف «برخت» أنه كان في حاجة إلى مساعدة «ولفجانج هاريش» أستاذ الماركسية النجيب في جامعة «همبولت» والذي زوده بالدفوع الأساسية التي لم يكن هو نفسه ليستطيع أن يبرزها بالأسلوب الصحيح، وفي أوائل سنة ١٩٥٤ أُلغيت اللجنة وحل محلها وزارة جديدة للثقافة وعلى رأسها صديقه الحميم «جوهانز بيكر». وفي شهر مارس كان قد تم دفع القسط الأخير من الصفقة، فقد حصل «برخت» رسميا على ملكية المسرح الذي تمناه طويلا. وقد احتفل بهذا الانتصار بأن سرق «آيسوت كيليان»، زوجة «هاريش» الجميلة، واتخذها عشيقته الرئيسية ورقاها من ممثلة

ثانوية إلى مساعدة له في مكتبه الرئيسي. وكانت نصيحته لـ«هاريش» المصدوم أن : «طلّقها فورا، وتستطيع أن تتزوجها ثانية بعد عامين «كان يقصد أنه سيكون قد انتهي منها آنذاك. ولكن عندما جاء «ذاك» الوقت كان هو الذي انتهى بالفعل!

فقد مرض في نهاية ١٩٥٤ ومر وقت طويل قبل أن يكتشفوا متاعب القلب، وهو أمر غريب بالنسبة لتاريخه الطبي. لم يكن «برخت» يثق بالطب الشيوعي، وكان يتردد على عيادة في «برلين» الغربية وأجرى ترتيبات ليذهب إلى عيادة آخرى في «ميونخ» في سنة ١٩٥٦ ولكنه لم يذهب. قضت عليه جلطة عنيفة في الشريان التاجي في ١٤ أغسطس .

خدعة جديدة لـ«ويجل» التي طالما عانت على يديه، فقد كتب وصية خصص فيها جزءا من حقوق نشر أعماله لأربع نساء : سكرتيرته وعشيقته القديمة « اليزابيث هوبتمان» (حصلت على حقوق أوبرا البنسات الثلاثة أكثر أعماله قيمة) والمسكينة «روث بيرلو» و «آيسوت كيليان» و«كاثي روليك»، والتي كان قد أغواها سنة ١٩٥٤ وكان يتناوبها مع «كيليان» في نفس الوقت! ولكن «كيليان» التي فوضها «برخت» بتوثيق الوصية لم تطق صبرا للانتظار بمكتب المحامي، وهكذا لم تعد الوصية صالحة. أما «ويجل» وبصفتها الزوجة الشرعية الوحيدة فقد حصلت على كل شيء وأعطت للنساء الأخريات حسبما تراءى لها .

كل رغبات «برخت» الأخرى تم تنفيذها. كان يريد أن يوضع في تابوت من الصلب الرمادي لكي يحفظه من الديدان، وأن يوضع خنجر من الصلب في قلبه بمجرد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ... وقد تم ذلك بالفعل وأعلن عنه : وربما كانت تلك الأخبار هي أول إشارة للكثيرين ممن عرفوه أنه كان له قلب !!

لقد حاولت في هذه الدراسة أن أجد شيئا لصالح «برخت» أستطيع أن أقوله، ولكن بصرف النظر عن كونه كان يعمل بجد دائما ويرسل طرود الطعام إلى أوروبا أثناء الحرب وبعدها مباشرة (وربما كانت «ويجل» هي التي تفعل ذلك)، لا يوجد ما يقال عنه .

إنه المثقف الوحيد ـ بين أولئك الذين قد تناولتهم ـ الذي يبدو دون ملمح واحد يفتديه. كان مثل معظم المثقفين يفضل الأفكار عن الناس ويقدمها عليهم. لم يكن هناك دفء في أي من علاقاته. لم يكن له أصدقاء بمعنى الكلمة .

كان يستمتع بالعمل مع الناس بشرط أن يكون هو المسؤول. ولكن كما قال «اريك بنتلي» فإن العمل معه كان سلسلة من الاجتماعات واللجان، ولم يكن ـ كما يقول «بنتلي» أيضا ـ يبدي أي اهتمام بالناس كأفراد، وربما كان ذلك سبب عدم قدرته على خلق شخصيات ... بل أنماط! كان يستخدمهم كأدوات لخدمة أغراضه، كرفيقات سرير ... كسكرتيرات، كطباخات ... أكثر مما كان ينظر إليهن كأفراد ... كبشر !

وفي النهاية .. ماذا كانت أهدافه؟ ليس من الواضح بالمرة أنه كان لديه معتقدات حقيقية ثابتة. قال مترجمه الفرنسي «پيير ابراهام» أن «برخت» قد أخبره قبل وفاته بوقت قصير أنه كان ينوي أن ينشر مسرحياته التعليمية بمقدمات جديدة يقول فيها أنه لم يقصد أن يأخذها أحد على محمل الجد، وإنما «كتمارين لياقة لأبطال الروح .. أولئك الذين يؤمنون بالجدل» .

ولكن تلك الأعمال كانت تقدم بجدية في ذلك الوقت، وإذا كانت مجرد «تمارين» ... فأي من أعماله الأخرى لم يكن كذلك؟

في شتاء ١٩٢٢ـ٢٣ كان «آرنولد برونين» يتناقش مع «برخت» عن احتياجات الناس، وكان لـ«برونين» تأثير كبير عليه، وكان قد جعل اسمه «أكثر يسارية» بتغييره من «آرنولد» إلى «آرنولت» وقلده «برخت» في ذلك. إنه لم يسقط فقط اسميه المسيحيين «ايوچين» و«فردريك» لأنهما «ملكيان جدا» ولكنه حسَّن اسمه من «برتولد» إلى «برتولت». ولكن عندما كان «برونين» في نفس تلك المناسبة يستعجل الحاجة لتغيير العالم لكيلا يشعر أحد بالجوع، غضب «برخت» وقال حسب رواية «برونين» : «وماذا يضيرك إن كان الناس يتضورون جوعا؟ إن المرء يجب أن يمضي في طريقه، يصنع لنفسه اسما، ويكون له مسرح يقدم عليه أعماله»، ويضيف برونين : «لم يكن يهمه أي شيء آخر»(٤١).

كان «برخت» يحب أن يجمع بين الأضداد، أن يكون غامضا، ملتبسا، كان يغطي عقله بحجاب ذكي كما يلف جسمه في ملابس العمال، ولكن ربما في هذه المناسبة ... ولمرة واحدة فقط .. قد قال ما كان يؤمن به بالفعل !



الفصل الثامن

«برتراند رسل» : تفاهات منطقية !

«برتراند رسل» أو «إيرل رسل» الثالث، هو صاحب أطول مرحلة في تاريخ المثقفين فى تقديم النصح والإرشاد للبشرية (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠). ولد في العام الذي أعيد فيه انتخاب الجنرال «أوليسس س. جرانت» لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، ومات على مشارف الـ«ووترجيت». كان أصغر من «مارسيل پروست» و«ستيڤن كرين» بشهور قليلة، وأكبر من «كالڤن كوولدچ» و«ماركس بيربوهم» بأسابيع قليلة. إلا أنه عاش طويلا ليحي الطلاب الثائرين في ١٩٨٦ ويستمتع بأعمال «ستوبارد» و«پنتر». على مدى هذا الزمن، قدم تيارا متدفقا من النصح والموعظة والمعلومات والتحذيرات في موضوعات شتى. تحصي إحدى البيليوجرافيات (وهي ليست كاملة بكل تأكيد) ثمانية وستين كتابا له، أولها «الديمقراطية الاجتماعية الألمانية» الذي نشر في ١٨٩٦ قبل وفاة الملكة «ڤيكتوريا» بخمس سنوات، بينما ظهر كتابه الصادر بعد موته (١٩٧٣) «مقالات في التحليل» في العام الذي استقال فيه «نيكسون» .... وبينهما نشر أعمالا في الهندسة والفلسفة والعدالة وإعادة البناء الاجتماعي والفكر السياسي والتأمل والمنطق والبلشفية والعين والعقل والصناعة وألف باء الذرة (كان ذلك في سنة ١٩٢٣، وبعد ذلك بست وثلاثين سنة أصدر كتابا عن الحرب النووية) والعلم والنسبية والتربية والشك والزواج والسعادة والأخلاق والتبطل والدين والشؤون الدولية والتاريخ والسلطة والحق والمعرفة والنفوذ والمواطنة والأخلاقيات والسيرة والإلحاد والحكمة والمستقبل ونزع السلاح والسلام والحرب والجريمة .... وموضوعات أخرى(١).

إلى جانب ما سبق لابد أن نضيف عددا هائلا من المقالات في الصحف والمجلات تناولت كل ما يخطر على الذهن من موضوعات، لانستثني منها «استخدام أحمر الشفاة» و«أخلاق السواح» و«اختيار نوع السيجار» و«ضرب الزوجات».

فما الذي جعله يشعر بأنه مؤهل لتقديم كل ذلك النصح؟ ولماذا كان الناس يستمعون إليه؟ إن الإجابة عن هذا السؤال لا تبدو واضحة لأول وهلة. وربما يكون السبب الرئسي الوحيد لكتابة كل هذا الكم هو أنه وجد الكتابة عملية سهلة ـ وفي مثل حالته ـ وكان يتقاضى عنها ثمنا جيدا.

كتب عنه صديقه «مايلز ماليسون» في العشرينيات يقول: «لابد أن يخرج «بيرتي» للسير بمفرده كل

صباح لمدة ساعة فيخطط ويفكر لعمل اليوم. بعد ذلك يعود ويجلس ليكتب بقية الصباح ... بسهولة ..دون توقف ... ودون تصحيح واحد»(٢). أما النتائج الاقتصادية لهذا النشاط فكان يسجلها في مفكرة صغيرة، ويكتب فيها المبالغ التي تقاضاها عن كل شيء نشره أو أذاعه طوال حياته، وكان يحتفظ بها في جيب داخلي. وفي الأوقات التي كان لا يكتب فيها أو عندما كان يشعر بالملل يخرجها من جيبه ويتفحصها بعناية. وكان يسمي ذلك «أكثر المشاغل فائدة»(٣).

والمؤكد أن «رسل» لم يكن بالإنسان الذي حصل على تجربة واسعة عن حياة معظم الناس أو بالإنسان الذي كان يهتم بآراء ومشاعر العامة. كان يتيما، مات والده قبل أن يصل إلى سن الرابعة، قضى طفولته في كنف جده «إيرل رسل الأول» ـ لورد چون رسل ـ الذي قاد قانون الإصلاح العظيم عبر مجلس العموم البريطاني في سنة ١٨٣٢، أما خلفية «رسل» فكانت خلفية «الأرستقراطية الهويجية» Whig: Aristocracy التي كان لديها ذوق اعتباطي للأفكار الثورية، رغم أن هؤلاء يحجزون أنفسهم بإحكام وبمعزل عن الاتصال بالعامة أو حتى الطبقة العليا.

كان «الإيرل» العجوز وبصفته رئيس وزراء سابق يعيش في مسكن فاخر في «ريتشموند پارك» كانت الملكة «ڤيكتوريا» قد خصصته له. وهنا نشأ «رسل»، وكنت أتصور أن لكنته الفريدة في وضوحها وقدمها قد انتقلت إليه من جده مباشرة، رغم أنها كثيرا ما كانت تصنف ـ بالخطأ ـ على أنها لكنة بلومسبري»، على أن التأثير الرئيسي على طفولته كان لجدته، السيدة القوية صاحبة المبادىء، شديدة التدين، ذات الآراء ووجهات النظر التطهرية المتزمتة. أما والده فكانا ملحدين و ثوريين، وكانا قد تركا تعليمات بأن يربي ابنهما تحت رعاية «چون ستيوارت مل» ولكن جدته لم تكترث بذلك، واحتفظت بالطفل في المنزل في جو الأناجيل والكتب الزرقاء(الكتب الدراسية الرسمية) التي تدرسها له مجموعة من المربيات والمعلمين (أحدهم على أية حال اتضح أنه كان ملحدا)، ولكن ذلك لم يكن له أي أثر حيث شق «رسل» طريقه الخاص رغم كل شيء.

في سن الخامسة عشرة كان يسجل في يومياته مستخدما الأبجدية اليونانية لكي يخفي آراءه عن العيون المتطفلة: «.... وكان عليّ أن أنظر في أسس الدين الذي نشأت عليه»(٤). في هذا الوقت تقريبا كان قد فقد إيمانه وظل هكذا بقية حياته. لم يرق له أبدا ذلك المفهوم الذي يدركه معظم الناس عن حاجتهم لكائن أسمى، وكان يعتقد أن العقل البشري يمكنه أن يجد إجابة عن جميع ألغاز الكون أو لايجدها أبدا.

لا أحد كان لديه ثقة أكثر منه في قدرة العقل وقوته، رغم أنه كان يميل إلى أن يراها قوة مجردة غير مجسدة. ومن المحتمل أن يكون حبه للعقل المجرد وشكه في الحركات الجسدية واللذين استمدهما من التعليمات البيوريتانية لجدته، هما اللذان جعلا منه عالم رياضيات، فكان عالم الأرقام ـ الذي لا يوجد أبعد منه عن الناس ـ هو أول وأعظم حب في حياته. وبمساعدة جيش من المدرسين الخصوصيين حصل

على منحة في «ترينيتي كوليدج» ـ كمبردج ـ حيث تفوق في الرياضيات. بعد ذلك كانت «زمالة» ترينيتي، والمسودة الأولى للعمل العظيم الذي كتبه مع «الفريد نورث وايتهد» ـ «مبادىء الرياضيات» والذي أكملاه في آخر يوم من أيام القرن الماضي. كتب : «أحب الرياضيات لأنها ليست إنسانية»، وفي مقال بعنوان «دراسة الرياضيات» يزهو بالقول: «إن الرياضيات لا تحتوي على الحقيقة فقط، وإنما على الجمال الأسمي، ذلك الجمال البسيط الهادئ مثل جمال النحت دون الميل إلى أي جانب ضعيف في طبيعتنا، جمال الرياضيات جمال نقي، قابل للإتقان الذي يستطيع الفن العظيم وحده أن يظهره»(٥).

لم يتصور «رسل» أبدا أن العامة كان يمكنهم أو حتى يجب أن يشجعوا على اختراق حدود المعرفة، وكان يؤدي عمله الاحترافي في الرياضيات بأسلوب عال جدا من الناحية الفنية، ولايقدم أي تنازل لغير المتخصص، فالتفكير الفلسفي عنده يجب أن يتم بلغة خاصة ، وكان يقاتل من أجل الاحتفاظ بهذا الدستور الكهنوتي وتدعيمه. كان كبير الكهنة الذي يمنع الدخلاء من اقتحام سر أسرار العقل، وكان يعارض بشدة أسلوب زملائه الفلاسفة مثل « ج.إي مورو» الذين كانوا يريدون أن يناقشوا المشكلات بلغة عادية، مصراً على أن «لغة الناس العاديين غير المصقولة تجسد مبادىء الهمج» ، ورغم ذلك، بينما كان من واجب كبار الكهنة أن يحتفظوا بالسر الأكبر فيما بينهم، كان من واجبهم كذلك وبالاعتماد على مخزنهم من الحكمة، أن يمتعوا العامة ببعض الفاكهة القابلة للهضم من تلك الحكمة. ولذلك فإنه كان يفرق بوضوح بين الفلسفة الاحترافية والأخلاقيات العامة ويمارس كليهما. كان زميلا في كلية «ترينتي» بين ١٨٩٥ و١٨٩٧ ، ثم من ١٩١٩ ـ ١٩٢١ ، ومن ١٩٤٤ ـ ١٩٤٩ ، كما قضى عدة سنوات يحاضر ويدرس في عدد من الجامعات الأمريكية. ولكن الجزء الأكبر من حياته قضاه يعلم الجماهير كيف يجب أن تفكر وتعمل. وقد كان لهذا الأسلوب من التبشير الفكري الغلبة على النصف الثاني من حياته المديدة. ومثل «ألبرت أينشتين» في العشرينيات والثلاثينيات كان «رسل» بالنسبة للجماهير في كل العالم مثالا ونموذجا للفيلسوف المجرد وتجسيدا للرأس المتكلم .. فماذا كانت الفلسفة؟ حسن. كانت الفلسفة هي تلك الأشياء التي يقولها «رسل». كان شارحا موهوبا. في عمل باكر له شرح أفكار «ليبنتز». الذي كان يجُله كثيرا(٦). كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» هو أفضل ما كتب في موضوعه وكان يباع في جميع أنحاء العالم، أما رفاقه الفلاسفة الذين كان ينتقدهم فكانوا يستنكرون عمله الشعبي. كان «لودفيج وتجنشتين» يري أن كتابه «انتزاع السعادة» ـ١٩٣٠ ـ لا يمكن احتماله(٧).

وعندما نشر آخر عمل فلسفي مهم له «المعرفة الإنسانية» ـ ١٩٤٩ـ رفض النقاد الأكاديميون أن يأخذوه على محمل الجد، حيث قال عنه أحدهم أنه «تمتمه المشعوذ»(٨)، ولكن الجماهير تحب الفيلسوف الذي ينزل إلى العالم، إلى جانب ذلك كان هناك إحساس بأن «رسل» كان شجاعا في اقتناعه بأفكاره ـ سواء كان محقا أو مخطئا ـ وكان على استعداد أن يقاسي في سبيلها. ومثلما ذهب «أينشتين» إلى المنفي هربا من الاستبداد النازي، تخاصم «رسل» مرارا مع سلطات متعددة، وكان يتحمل العقاب بشجاعة نادرة.

وهكذا كتب في سنة ١٩١٦ منشورا مجهولا مع الرافضين لحمل السلاح يعترض على إرسال شاب إلى السجن بسبب رفضه حمل السلاح لاعتبارات أخلاقية ودينية. تم القبض على موزعي المنشور ومحاكمتهم وسجنهم، فكتب «رسل» رسالة لـ«التيمز» أعلن فيها أنه هو الذي كتبه، فقدم للمحاكمة التي قضت بتغريمه مائة جنيه، رفض أن يدفعها فحجز على أثاثه في «ترينيتي» وتم بيعه، فقرر مجلس «ترينيتي» المكون من كبار «الزملاء» شطب عضويته. لقد تعاملوا مع الأمر بجدية تامة وبعد تفكير طويل(٩). أما بالنسبة للجماهير فبدا الأمر مثل عقاب مزدوج على نفس المخالفة.

وفي ١١ فبراير ١٩١٨ حوكم «رسل» وأدين مرة أخرى وكان ذلك لأنه نشر مقالا بعنوان «عرض السلام الألماني» في صحيفة «تربيونال» الراديكالية يقول فيه: «إن الحامية الأمريكية التي سوف تكون محتلة لانجلترا وفرنسا في ذلك الوقت، وسواء كانت ندا للألمان أم لا، ستكون قادرة بلاشك على بث الرعب في نفوس المضربين، وهو عمل اعتاد عليه الجيش الأمريكي في الداخل». وبسبب هذه العبارة المندفعة وجه إليه الاتهام.. «كتابة ونشر عبارات تسيء إلى علاقة جلالة الملكة بالولايات المتحدة الأمريكية» وأدين وحكم عليه بالسجن ستة شهور(١٠). وبعد الإفراج عنه رفضت وزارة الخارجية (لبعض الوقت على الأقل) أن تمنحه جواز سفر، وقد أشر السير «آرثر نيكلسون» وكيل الوزارة الدائم على ملفه بأنه «أحد المخبولين المولعين بالأذى في البلاد»(١١).

اصطدم «رسل» كذلك بالقانون في سنة ١٩٣٩ـ٤٠، عندما عُين أستاذ كرسي في «سيتي يو نيڤيرستي» في نيويورك. كان في ذلك الوقت قد أصبح معروفا بآرائه اللادينية واللاأخلاقية. وبالإضافة إلى عدد لا يحصي من المقالات المعادية للمسيحية قرأ بيانا عن «عقيدة الملحد» كان يتلوه من أنفه كما يفعل القساوسة: « نحن لا نؤمن بالله وإنما نؤمن بسيادة الإنسانية، لا نؤمن بالحياة بعد الموت وإنما نؤمن بالخلود من خلال العمل الصالح»(١٢) وكان يجد متعة في تلاوة ذلك على مسامع أطفال أصدقائه التقدميين. وعندما أُعلن عن تعيينه في جامعة «سيتي يونفيرستي» – نيويورك «احتجت الدوائر الأنجليكانية والكاثوليكية بشدة، وحيث أن الجامعة كانت مؤسسة خاضعة لإشراف البلدية كان من حق المواطنين أن يرفعوا دعاوي ضد تعييناتها، وقامت إحدي السيدات بذلك فـ ـلا. قال محاميها إن أعمال «رسل» : «فاسقة، شهوانية، فاجرة، خبيثة، جنسية، قبيحة، مضللة، مجردة من النسيج الأخلاقي»

أما القاضي ـ أمريكي من أصل پولندي ـ فقد أضاف إلى تلك السلسلة من القدح وحكم بأن «رسل» ليس كفئا لشغل المنصب : «فهو ملحد وداعية للحرية الجنسية». رفض رئيس البلدية أن يسأنف ضد الحكم، أما أمين السجل المدني في الإقليم فقد أعلن أن «رسل» يجب أن «يغطي بالقطران والريش ويطرد من البلاد»(١٣).

كان آخر صدام مع السلطة في سنة ١٩٦١ وكان في الثامنة والثمانين ، وحاول جاهدا أن يستفزهم للقبض عليه بتهمة العصيان المدني احتجاجا على الأسلحة النووية. شارك في اعتصام غير قانوني أمام مبني

وزارة الدفاع في لندن في ١٨ فبراير وظل جالسا على الرصيف عدة ساعات. لم يحدث شيء واضطر للانصراف إلا أنه أخطر في ٦ أغسطس للحضور أمام المحكمة في ١٢ سبتمبر متهما بتحريض الجماهير ضد القانون، وأدين وحكم عليه بشهر سجن تم تخفيضه إلى أسبوع (قضاه في مستشفي السجن)، وعند النطق بالحكم صاح رجل : «ياللعار .. ياللعار ... إنه رجل مسن في الثامنة والثمانين»، ولكن القاضي قال : «ولكنك عجوز بما يكفي لكي يجعلك تعرف أفضل»(١٤). ومن المشكوك فيه أن تكون هذه الأحداث قد ساعدت على تقديم أفكار «رسل» إلى الجماهير، ولكنها جميعا تشهد على إخلاصه واستعداده لأن ينقل الفلسفة من برجها العاجي الأكاديمي إلى الشوارع والأسواق.

كان الناس يرونه وإن كان على نحو غير واضح ـ «سقراطا» جديدا يجرع السم، أو «ديوچينيس» جديدا يظهر.

والواقع أن فكرة أنه كان يحمل الفلسفة إلى العالم فكرة مضللة، رغم أنه حاول دون نجاح أن يضغط العالم ويدخله إلى الفلسفة ووجد أن ذلك غير ممكن. حالة «أينشتين» كانت مختلفة، حيث أنه كان فيزيائيا يعنيه سلوك الكون كما هو، وأصر على أن يطبق على وصفه لهذا السلوك أدق مقاييس البرهان التجريبي. وبتصحيحه لفيزياء «نيوتن» فإن «أينشتين» غير الطريقة التي نرىِ بها الكون برمتها وأصبح لعمله تطبيقات عديدة مستمرة، والحقيقة أن إسهامه في النظرية الذرية كان أول علامة بارزة على طريق الطاقة النووية التي صنعها الإنسان.

على العكس من ذلك، كان «رسل» أبعد من يكون عن الحقيقة الفيزيائية، لم يكن يستطيع تشغيل جهاز ميكانيكي بسيط أو يؤدي أي عمل روتيني يمكن أن يقوم به أي إنسان مدلل دون تفكير، كان يحب الشاي ولا يستطيع أن يصنعه !

عندما اضطرت زوجته الثالثة «پيتر» ذات يوم للخروج من المنزل وكتبت له في مذكرة المطبخ : «ارفع غطاء الموقد، ضع غلاية الشاي على السطح المعدني الساخن، انتظر حتي يغلي، صب الماء من الغلاية في إبريق الشاي»، وفشل فشلا ذريعا في تنفيذ ذلك(١٥).

في آخر العمر ضعف سمعه ووضعوا له سماعة ولم يكن يستطيع أن يستخدمها دون مساعدة. كان العالم الإنساني مثل العالم الحسي يحيره ويربكه. كتب يقول أن قدوم الحرب العالمية الأولى قد اضطره إلى : «مراجعة آرائي عن الطبيعة الإنسانية .... كنت حتي ذلك الحين أعتقد أن العادي أن يحب الآباء أطفالهم، ولكن الحرب أقنعتني بأن ذلك استثناء نادر. كنت أعتقد أن معظم الناس يحبون المال أكثر من أي شيء آخر، ولكني اكتشفت أنهم يحبون الدمار أكثر، كنت أعتقد أن المثقفين يحبون الحقيقة دائما ولكني وجدت هنا ثانية أن نسبة لا تزيد عن عشرة بالمائة منهم هي التي تفضل الحقيقة على الشهرة»(١٦).

هذه العبارات الغاضبة تكشف جهلا عميقا بكيفية عمل عواطف الناس العاديين في وقت الحرب أو ربما في أي وقت آخر، كما توجد عبارات أخري كثيرة في مجلدات سيرته الذاتية تضع القاريء العادي في حيرة شديدة لكون رجل بهذه الدرجة من الذكاء لا يستطيع أن يفهم الطبيعة الإنسانية.

الشيء الغريب هو أن «رسل» كان قادرا على أن يكتشف في الآخرين الجمع الخطير بين المعرفة النظرية والجهل العملي بمشاعر الناس ورغباتهم، وربما كان يرثي لذلك أو يأسف له. في عام ١٩٢٠ زار روسيا البلشفية، وفي ١٩ مايو قابل «لينين»، وجده «نظرية مجسدة». كتب يقول: «ترك لدي الانطباع بأنه يحتقر الجماهير وأنه أرستقراطي مثقف»، لقد رأي «رسل» جيدا كيف يمنع هذا الجمع بين الصفتين المرء من إصدار أحكام عاقلة، ويضيف: «لو كنت قد التقيته دون أن أعرف من هو، لما كنت قد خمنت أنه كان رجلا عظيما، ولتصورت أنه أحد الأساتذة المتشبثين برأيهم»(١٧). لم يستطع «رسل» أن يري أن وصفه لـ «لينين» كان ينطبق عليه شخصيا إلى حد ما، فقد كان هو أيضا من الأرستقراطية المثقفة، يحتقر الناس ويرثي لأحوالهم أحيانا. علاوة على ذلك فإن «رسل» لم يكن فقط جاهلا بسلوك معظم الناس، وإنما كان ينقصه الوعي العميق بالذات أيضا. لم يستطع أن يري سماته الشخصية في مرآة «لينين»، والأخطر من ذلك أنه لم يلحظ أنه شخصيا كان معرضا لقوى عدم العقل والعاطفة والتي كان يأسى لوجودها في الآخرين. كان موقف «رسل» العام أنه من الممكن علاج كل أسقام العالم عن طريق المنطق والعقل والاعتدال، لو أن الرجال والنساء اتبعوا عقولهم أكثر من عواطفهم وناقشوا بالمنطق بدلا من الحدس، ومارسوا الاعتدال بدلا من الانغماس في التطرف، لأصبحت الحرب مستحيلة والعلاقات الإنسانية أكثر انسجاما، ولتحسنت أحوال البشرية بالتدريج. وكان كعالم رياضيات، يري أن الرياضة البحته لا يوجد بها أي مفهوم عصي على المعرفة بالمنطق، ولا توجد بها أي معضلة إلا ويمكن حلها من خلاله. لم يكن بالطبع غبيا لكي يفترض أنه يمكن حل المشكلات الإنسانية مثل المعادلات الرياضية، ولكنه كان يعتقد أنه مع الوقت والصبر والأسلوب المناسب والاعتدال يمكن أن يقدم العقل الحلول والإجابات لمعظم مشكلاتنا العامة والخاصة. وكان مقتنعا بأنه يمكن الوصول إليها بروح من التجرد الفلسفي. وفوق كل ذلك كان يعتقد أن معظم الناس قادرون على التصرف القويم لو منحوا الإطار العقلي والمنطقي السليم.

المشكلة هي أن «رسل» كان يوضح تكرارا وفي مختلف ظروف حياته أن جميع تلك الافتراضات لم تكن على أرض صلبة، عند كل منعطف زمني مهم كانت آراؤه وأفعاله تسير حسب عواطفه كما تسير حسب عقله، وفي وقت الأزمات كان يتخلي عن المنطق تماما، ولا يمكن لأحد أن يضمن أنه سوف يتصرف تصرفا سليما عندما كان يوجد ما يهدد مصالحه. وكانت هناك نقاط ضعف أخرى: عندما كان يعظ بمثاليته الإنسانية كان يضع الحقيقة فوق أي اعتبار آخر، ولكنه كان من الممكن أن يكذب ليخرج من أي ورطة أو مأزق. وعندما كانت تغضب روح العدالة فيه ويثور، ينهار احترامه للدقة. وكان من الصعب عليه أن يحقق التماسك والتجانس اللذين كان يجب أن يفرضهما العقل والمنطق نظريا على المخلصين لهما، ودعنا نتابع آراء «رسل» وكيف تطورت بالنسبة لمسألة الحرب والسلام، وهو الموضوع الذي

استهلك طاقته ربما أكثر من أي شيء آخر. كان «رسل» يعتبر الحرب النموذج الأعلى للسلوك غير المنطقي، عاش حربين عالميتين وحروبا أخرى أصغر وكرهها جميعا وكانت كراهته للحرب حقيقية. في سنة ١٨٩٤ كان قد تزوج من «آليس ويتال» شقيقة «لوجان پيرسال سميث»، كانت من طائفة «الصاحبيين» ـ الكويكر ـ وقوّت روحها الدينية السلامية من نزعته المنطقية. وعندما نشبت الحرب في سنة ١٩١٤ أعلن أنه ضدها كلية وبذل كل ما في وسعه على كلا جانبي الأطلنطي لكي يحقق السلام معرضا حياته وعمله للخطر. ولكن التعليقات التي أدت إلى سجنه لم تكن تعليقات أو ملاحظات شخص مهادن أو معتدل أو عاقل. بيانه الفلسفي الرئيسي بعنوان «أخلاقيات الحرب» (١٩١٥) الذي يدافع عن السلامية ويقول فيه أن من الصعب إيجاد مبرر للحرب، مقال منطقي(١٨)، ولكن سلاميته آنذاك وفيما بعد وجدت التعبير عنها بأساليب شديدة الاندفاع إن لم تكن قتالية، فعلى سبيل المثال عندما اتخذ الملك «چورچ الخامس» عهدا على نفسه في وقت الحرب بأن يقلع عن الكحول سنة ١٩١٥، أقلع «رسل» في الحال عن التوقف عن المسكرات الذي كان قد أتخذه بناء على رغبة «آليس» وكتب يقول أن دافع الملك «كان بغرض تسهيل قتل الألمان، وبالتالي بدا كما لو أن هناك صلة بين السلامية والكحول»(١٩).

وفي الولايات المتحدة كان يرى أن القوة الأمريكية وسيلة لفرض السلام وناشد الرئيس «ولسون» واستفزه، وكان يراه آنذاك مُخلّصا للعالم، : «أن يتولي نصرة البشرية ضد المولعين بالحروب»(٢٠)، وبروح يسوعية كتب رسالة إلى «ولسن» باسم أوروبا، «يدفعني اقتناع داخلي أن أتكلم نيابة عن كل الأمم باسم أوروبا، فباسم أوروبا ألجأ إليك لكي تحقق لنا السلام».

ربما كان «رسل» يكره الحرب، ولكنه كان أحيانا يحب القوة . كان في سلاميته شيء عدواني، وربما ميل للقتال. بعد الإعلان الأولي للحرب كتب : «لعدة أسابيع ظل ينتابني شعور بأنني لو حدث والتقيت «آسكويث» أو «جري» لما أستطعت أن أمنع نفسي من ارتكاب جريمة قتل»(٢١). والحقيقة أنه التقي «اسكويث» بعد ذلك. خرج «رسل» من السباحة في «جارسنجتون مانور» عاريا، فوجد رئيس الوزراء جالسا على الشاطيء، ولكن غضبه هدأ، وبدلا من أن يقتله دخلا في حوار عن «أفلاطون» ، كان «اسكويث» مثقفا كلاسيكيا. يقول «كنجسلي مارتن» رئيس التحرير الذي عملت معه والذي كان يعرف «رسل» جيدا، أن جميع المشاكسين الكبار الذين التقاهم كانوا مسالمين مثل «رسل». ونفس الشيء يقوله «ت.س.اليوت» تلميذ «رسل» : «كان «رسل» يعتبر أي عذر كافيا للقتال»، ولكن ليس معنى ذلك أنه كانت لديه ميول للاشتباك باليد أو التلاكم ، وإن كان إلى حد ما يؤيد الحكم المطلق ويؤمن بالحلول الشمولية. وقد عاد أكثر من مرة إلى فكرة عصر يتم فيه فرض السلم على العالم بقرار من سلطة دولية.

وقد طرأت له هذه الفكرة لأول مرة قرب نهاية الحرب العالمية الأولي عندما قال أن «أمريكا» لابد أن تستخدم قوتها العظمي للإصرار على نزع السلاح : «مزيج الأجناس ذلك، والغياب النسبي للتراث الوطني يجعلان أمريكا مناسبة بامتياز للوفاء بهذا العمل»(٢٢)، ثم عندما حققت «أمريكا» احتكار الأسلحة

النووية في ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ عاد إليه الاقتراح بقوة. وحيث أن «رسل» حاول بعد ذلك أن ينكر أو يعتم على آرائه أو يفسرها أثناء تلك الفترة، يصبح من المهم أن نعرضها في ترتيبها الزمني مع بعض التفصيل. وكما يقول كاتب سيرته «رولاند كلارك» فإن «رسل» كان مع حرب وقائية ضد «روسيا»، ولم يكن ذلك مرة واحدة بل عدة مرات وعلى مدى سنوات كثيرة(٢٣)، وعلى خلاف كل أفراد اليسار فإن النظام السوفيتي لم يستوعب «رسل» أبدا. وكان قد رفض الماركسية تماما، وكتابه «الممارسة والنظرية البلشفية» ـ ١٩٢٠ ـ والذي وصف فيه زيارته لروسيا ، كان شديد الانتقاد لـ «لينين» وما كان يفعله. كان يعتبر «ستالين» وحشا، وكان يصدق التقارير المبتورة التي تصل إلى الغرب عن المزارع الجماعية المفروضة والمجاعة الكبري وحملات الاعتقال والمعسكرات ، ولم يشاركهم الرضا الذي قبلوا به امتداد الحكم السوفيتي على معظم أوروبا الشرقية في سنة ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥، وكان يعتبر ذلك كارثة بالنسبة للحضارة الغربية. كتب في ١٥ يناير : «أكره الحكومة السوفيتية فوق ما يتصور العقل»، وكان يعتقد أن التوسع السوفيتي سوف يستمر إن لم يوقفه التلويح باستخدام القوة، كما أكد في خطاب بتاريخ ١ سبتمبر ١٩٤٥ : «أعتقد أن «ستالين» قد ورث طموح «هتلر» لفرض دكتاتوريته على العالم(٢٤).

ولذلك عندما تم تفجير أول الأسلحة النووية بواسطة الولايات المتحدة على اليابان، أحيا بسرعة فكرة أن أمريكا لابد أن تقوم بفرض السلام ونزع السلاح العالمي مستخدمة أسلحتها الجديدة حتي تجبر «روسيا» المتمردة على الطاعة. وكانت تلك بالنسبة له فرصة جاءت من السماء وقد لا تعود ثانية. وقد أطلق هذه الاستراتيجية أولا في مقالات في صحيفة «فورواردد» ـ حزب العمل ـ في «جلاسجو» (١٨ أغسطس ١٩٤٥) وفي «مانشستر جارديان» في ٢ أكتوبر. ثم كانت هناك مقالة أخري عن نفس الموضوع في «كافالكاد» في ٢٠ أكتوبر بعنوان «الفرصة الأخيرة للإنسانية» وتضمنت ملاحظته الدالة : «لن يكون من العسير إيجاد ذريعة تبرر الحرب».

ظل «رسل» يكرر مثل تلك الأفكار على مدي خمس سنوات أطلقها أولا في «بوليمك» في يوليو ـ أغسطس ١٩٤٦ ، وفي حديث في «الرويال امباير سوسيتي» في ٣ ديسمبر ١٩٤٧ ، وطبعت في «يونيتد امباير» في يناير ـ فبراير ١٩٤٨ وفي «نيو كومن ولث» في يناير ١٩٤٨ ، وفي محاضرة في كلية الدفاع الملكية في ٩ ديسمبر ١٩٤٧ ثم كررها في مناسبات مختلفة : في مؤتمر طلابي في مدرسة «وستمنستر» في نوفمبر ١٩٤٨ وطبعت في «القرن التاسع عشر وما بعده» في يناير ١٩٤٩ ثم في مقال في «ورلد هورايزون» في مارس ١٩٥٠ ، لم يحرف «رسل» كلماته. في حديثه في «الرويال امباير سوسيتي» اقترح تحالفا ـ فيما بعد ـ يملي شروطا على «روسيا» ـ : «أنا أميل إلى الاعتقاد أن «روسيا» سوف تذعن، وإذا لم تذعن، بشرط أن يكون ذلك بسرعة، فالعالم قد ينجو من الحرب التي سوف تنتج ويخرج بحكومة واحدة كما يريد العالم»، وفي مايو ١٩٤٨ كتب إلى دكتور «والتر مارسيللي» أحد خبراء نزع السلاح في أمريكا: «سيكون الدمار أكثر مما نتصور، وعمليا فإنه سيتم إرسال كل المثقفين إلى معسكرات العمل شمال شرق «سيبيريا» أو على شواطيء البحر الأبيض حيث سيموت معظمهم من المشقة، ومن ينجو يتحول إلى

حيوان. وإذا استخدمت القنابل الذرية فسوف يكون إلقاؤها في البداية فوق أوروبا الغربية حيث أن «روسيا» ستكون بعيدة. أما الروس وبدون قنابل ذرية فسيكون بمقدروهم تدمير كل المدن الكبرى في «انجلترا» . لا يوجد عندي شك في أن «أمريكا» سوف تنتصر في النهاية، ولكن إذا لم نحفظ أوروبا الغربية من الغزو فسوف تفقد حضارتها لعدة قرون. ورغم هذا الثمن الباهظ أعتقد أن الحرب تستحق أن تخاض. لابد من القضاء على الشيوعية وإقامة حكومة عالمية»(٢٥).

كان «رسل» يؤكد باستمرار على ضرورة السرعة : «عاجلا أو آجلا سوف يكون لدى الروس قنابل ذرية، وعندما يمتلكونها سوف يصبح الموقف أكثر صعوبة، لذا يجب أن يتم كل شيء بأقصى سرعة ممكنة»(٢٦)، حتى عندما قامت «روسيا» بتفجير قنبلة ذرية كان مستمرا في الضغط برأيه ليحث الغرب على تطوير القنبلة الهيدروچينية : «لا أعتقد أنه في الوضع العالمي الحالي يمكن أن يؤدي اتفاق لتقييد النشاط الذري العسكري سوى إلى الضرر، حيث سيظن كل من الجانبين أن الآخر يتهرب منه»)، بعد ذلك صاغ شعار : «الموت أفضل من أن نكون حمرا» في صيغة متشددة : «إن الحرب القادمة لو قدر لها أن تقوم فسوف تكون أكبر كارثة تحل بالجنس البشري إلى هذه اللحظة، ولكني أستطيع أن أفكر بكارثة أعظم : وهي امتداد نفوذ «الكرملين» على العالم بأسره»(٢٧).

كان تأييد «رسل» لشن حرب وقائية معروفا على نطاق واسع ويناقش في تلك السنوات، وقد هاجمه بسببه وبشدة، المندوب السوفيتي «آرنوست كولمان» في المؤتمر الدولي.للفلسفة الذي عقد في أمستردام سنة ١٩٤٨، ورد عليه «رسل» بخشونة مماثلة : «عُد واخبر سادتك في الكرملين بأن عليهم أن يرسلوا خدما أكثر كفاءة لتنفيذ برامجهم في الدعاية والغش»(٢٨)، وفي ٢٧ سبتمبر كتب في مجلة «نيويورك تيمز» : «رغم أن حربا عالمية جديدة سوف تكون مرعبة، إلا أنني من جانبي مازلت أفضلها على امبراطورية شيوعية عالمية».

وربما في ذلك الوقت تقريبا، ورغم كل ذلك، كانت آراء «رسل» قد بدأت في التغير فجأة وبصورة أساسية، ففي الشهر التالي مباشرة ـ اكتوبر ١٩٥٣ ـ أنكر في مجلة «نيشن» أنه كان قد «أيد القيام بحرب وقائية ضد روسيا» وقال أن «الحكاية برمتها اختراع شيوعي»(٢٩)، وظل لفترة كما يقول أحد أصدقائه، عندما يُذكّره أحد بآرائه بعد الحرب يقول بإصرار ... «أبدا، ذلك من اختراع صحفي شيوعي»(٣٠)، وفي لقاء مع تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية أجراه معه «چون فريمان» في برنامجه المشهور «وجها لوجه» غير «رسل» موقف. فقد أرسل إليه خبراء نزع السلاح في «أمريكا» مقتطفات من تصريحاته وأقواله السابقة ولم يستطع أن ينكرها، ولذلك قال لـ «فريمان» الذي سأله عن خط الحرب الوقائية «هذا صحيح تماما، ولست نادما على ذلك، وهو متسق بالكامل مع ما أعتقده الآن»(٣١)، وأتبع ذلك برسالة إلى مجلة هيئة الإذاعة البريطانية الأسبوعية : «المستمع» يقول فيها : «لقد نسيت في الواقع تماما أنني كنت قد فكرت في سياسة تهديد بالحرب كشيء مقبول، وفي سنة ١٩٥٨ ذكرني السيد «ألفرد كوهلبرج» والسيد «والتر

و.مارسيللي» بأشياء كنت قد قلتها في سنة ١٩٤٧ وقرأتها وأنا في غاية الدهشة، وليس لدي أي عذر أقدمه»(٣٢). وفي الجزء الثالث من سيرته الذاتية (١٩٦٨) قدم المزيد من التفسير : «....... عندما قدمت تلك النصيحة كان ذلك عرَضا ودون أي أمل حقيقي في اتباعها، ولذلك نسيتها بسرعة»، ويضيف : «كنت قد ذكرتها في رسالة خاصة ثم في حديث لم أكن أتوقع أن تقوم الصحافة بتشريحه»(٣٣)، ولكن التقصي الذي قام به «رولاند كلارك» أثبت أن «رسل» كان قد تحدث مرارا عن الحرب الوقائية في مقالات وأحاديث عديدة وعلى مدى سنوات طويلة، ومن الصعب أن نصدق أن يكون قد نسي تماما موقفه المتصلب ذلك.

وعندما أخبر «رسل» : «چون فريمان» أن أفكاره عن الأسلحة النووية في أواخر الخمسينيات كانت تتسق مع تأييده بعد الحرب للقيام بحرب وقائية، فإنه كان يتمادى في السذاجة بطريقة أخرى، وكان معظم الناس في الواقع يقولون أن كلامه هراء.

إلا أنه كان هناك نوع آخر من الاتساق، هو اتساق التطرف، فكل من الحرب الوقائية ومسألة الموت أفضل من أن نكون حُمرا كما عبر عنهما «رسل» كانا مثالين على جدل معقول، تم دفعه إلى التطرف عن طريق الاستخدام الأرعن غير المسئول. وغير الإنساني للمنطق . وهنا كانت نقطة الضعف في «رسل» كان يعلق قيمة زائفة على ما يمليه المنطق في إرشاده للبشرية كيف تدبر شئونها مع السماح لها بتجاوز المعقول. وهكذا فإنه عندما قرر في منتصف الخمسينيات أن الأسلحة النووية كانت شرا مستطيرا، ولا يجب استخدامها تحت أي ظرف، فإنه أيضا كان يتبع نداء المنطق في اتجاه آخر .. مختلف، ولكنه متطرف بنفس الدرجة. أعلن اعتراضه على الأسلحة النووية أولا في حديث إذاعي سنة ١٩٥٤، بعد ذلك جاءت مؤتمرات وبيانات دولية مع تصلب موقفه في تحريمها بالكامل مهما كان الثمن. وفي ٢٣ نوفمبر ١٩٥٧ نشر «رسالة مفتوحة إلى أيزنهاور وخروشوف» في جريدة «نيو ستيتسمان» يعرض فيها القضية(٣٤)، بعد شهر وأنا أقرأ بريد القراء المنشور بالجريدة أدهشني وجود مقالة طويلة مترجمة مع رسالة بالروسية موقعة من «نيكيتا خروشوف» وكان ذلك رد الزعيم السوفيتي الشخصي على «رسل»، كان ذلك بالطبع مجرد دعاية لأن الروس مع كل تفوقهم في الأسلحة التقليدية كانوا على استعداد لقبول اتفاق على فك الأسلحة النووية (رغم أنه قد لا يخضع لإشراف). ولكن الخطاب أثار ضجة كبرى عند نشره. بعد ذلك جاء رد أكثر ترددا من الجانب الأمريكي، ولم يكن في الواقع من الرئيس وإنما من وزير خارجيته «چون فوستر دالاس»(٣٥). كان «رسل» في غاية الفرح لتلك الاستجابة ذات المستوى المتميز، فقد دغدغ الرد الأمريكي غروره ـ وتلك نقطة ضعف أخرى ـ وقلب تقديره للأمور، الذي لم يكن أبدا أقوى ما فيه. رسالة «خروشوف» التي كانت تتعاطف مع موقفه دفعته للتطرف ضد الرسالة الأمريكية، ليس هذا فقط بل إنها حفزته لكي تصبح قضية منع الأسلحة النووية مركز حياته، وبدأت تظهر عليه ميول «تولستووية» !

وفي العام التالي ١٩٥٨ عُين «رسل» رئيسا للحملة الجديدة لنزع السلاح النووي وكانت عبارة عن

هيئة متواضعة مكونة من «چون كولينز» والروائي «جـ .ب. پريستلي» وآخرين لحشد الرأي العام في بريطانيا ضد تصنيع الأسلحة النووية، وقامت بتنظيم مظاهرات سلمية ملتزمة تماما بالقانون، وكانت مؤثرة وذات فاعلية في مراحلها الأولى، ولكن علامات التطرف ظهرت بسرعة من جانب «رسل». سجل «روبرت كراوشاي وليمز» ـ أفضل من كتب عن «رسل» في تلك السنوات ـ في يومياته (٢٤ يوليو ١٩٥٨) أن «رسل» انفجر غاضبا وبشدة ضد «چون ستراشي» الذي كان شيوعيا سابقا، ثم بعد ذلك أصبح عضوا في البرلمان عن الجناح اليميني في حزب العمال، ثم وزيرا للحربية في حكومة «آتلي» بعد الحرب، ولكنه في ١٩٥٨ كان بعيدا عن السلطة ولم تكن لديه أي مسئوليات رغم أنه من المعروف عنه إيمانه بضرورة الردع النووي. وعندما سمع «رسل» أن «كراوشاي وليمز» وزوجته كانا يقيمان مع «ستراشي» سأل عن رأي الأخير في القنبلة الهيدروچينية، وعندما وقف على آرائه تصور أنها لابد أن تكون نفس آراء «كراوشاي» وزوجته. قال وهو يدق بقبضته على مسند المقعد : «أنت وچون ستراشي تنتميان إلى نادي القتلة الذي يضم أناسا لا يكترثون بما يحدث للعامة، إذ أنهم حكام يشعرون أنهم سوف يبقون ويحافظون على مزاياهم ويحرصون على سلامتهم ببناء ملاجىء خاصة مضادة للقنابل».

وعندما سألوه إذا ما كان يعتقد بالفعل أن لدى «ستراشي» ملجأ مضادا للقنابل هاج وماج وانفجر غاضبا : «عنده بالطبع ...»، بعد ذلك بأسبوعين دار بينهما حوار عن القنبلة الهيدروچينية، بدأ هادئا، «وفجأة صرخ «برتي» : عندما ترى صديقك «چون ستراشي» قل له أنني لا أستطيع أن أفهم لماذا يريد أن يمتلك عبد الناصر القنبلة الهيدروچينية ...؟ كان مقتنعا بأن أمثال «چون» يعرضون العالم للخطر وكان يشعر أن لديه ما يبرر ذلك»(٣٦).

الغضب المتصاعد، وغيبة الاهتمام بالحقائق الموضوعية، ونسبة الدوافع الشريرة لكل من يعتنق رأيا مخالفا، وعلامات انفصام الشخصية . كل ذلك عبر عن نفسه بشكل علني في ١٩٦٠ عندما انشق «رسل» عن الـ(CND) ـ حملة نزع السلاح النووي ـ وتكوينه لجماعته الخاصة المنشقة باسم «لجنة المائة» الداعية للعصيان المدني، وكان من بين أوائل الموقعين الأساسيين لهذه الجماعة مثقفون بارزون وفنانون وكتاب مثل «كومپتون ماكينزي»، «چون برين»، «چون أوسپورن»، «آرنولد وسكر»، «ريج بتلر»، «أوجسطس چون»، «هربرت ريد»، «درويس ليسنج» وغيرهم ومعظمهم من المتطرفين. ولكن الجماعة سرعان ما خرجت عن السيطرة، ويدلنا التاريخ على أن جميع الحركات السلامية تصل إلى نقطة يصاب عندها العنصر الأكثر نشاطا بالإحباط بسبب عدم التقدم، ويلجأ إلى العصيان المدني وأعمال العنف، وهذا يحدث عند المرحلة التي تتوقف فيها عن الاحتفاظ بجماهيريتها . وكانت لجنة المائة والاضمحلال الذي حدث لحملة نزع السلاح مثال على ذلك، إلا أن سلوك «رسل» على أية حال عجل بما كان يمكن أن يحدث. وفي ذلك الوقت كان يُعزي ذلك لتأثير سكرتيره الجديد «رالف شوينهام» عليه. وسوف نتحرى علاقته بـ «شوينهام» بعد قليل ولكن من الجدير بالملاحظة أن أفعال وأقوال «رسل» خلال أزمة الـ(CND) كانت واحدة. الاجتماعات التي أدت إلى استقالته من رئاسة الحملة كانت مؤسفة، حيث

كان يتهم «كولينز» بوجود دوافع شخصية لديه، كما اتهمه بالكذب.وأصر على تسجيل الجلسات الخاصة على أشرطة(٣٧).

وبمجرد أن تخلص «رسل» من يد «كولينز» وأصدقائه، استولى التطرف على ذهنه تماما وأصبحت تصريحاته عبثية، وبدأ ينفر من الجميع باستثناء المتعصبين الذين يستمعون إلى أفكاره ويذعنون لها، وكان ذلك يتناقض مع القواعد الأساسية للإقناع التي كان يعرفها عندما يكون هادئا.

في مقال عن «ڤولتير» كتبه سنة ١٩٥٨ يقول : «لا يجب اعتناق أي رأي بحماس، لا أحد يعتنق أن سبعة ضرب ثمانية تساوي ستا وخمسين لأن من المعروف أن ذلك كذلك، الحماس ضروري فقط عند تزكية رأي مشكوك فيه أو هناك دليل على زيفه»(٣٨).

الكثير من أقوال «رسل» منذ عام ١٩٦٠ كان متهورا وليس حماسيا فقط، وكان يدلي بها توا بعد أن يكون قد أرهق نفسه في حالة نقمة مع الذين لا يشاركونه نفس الأفكار، ولذلك فإنه من أجل حديث في «برمنجهام» في سنة ١٩٦١ يقوم بتحضير مذكرات تقرأ كما يلي : «على أساس إحصائي محض، فإن «ماكميلان» و«كينيدي» شريران أكثر من «هتلر» خمسين مرة»، وقد كان ذلك أمرا في غاية السوء لأنه ـ وبصرف النظر عن أي شيء آخر ـ كان يقارن حقيقة تاريخية باحتمال مستقبلي، ولكن التسجيل يبين لنا أن ما قاله «رسل» في حديثه كان هو : «اعتدنا أن نعتبر «هتلر» شريرا عندما كان يريد أن يقتل جميع اليهود، ولكن «كينيدي» و«ماكميلان» لا يريدان قتل اليهود فحسب، وإنما قتلنا جميعا، ولذلك فهما أكثر شرا من «هتلر»، وأضاف : «لن أتظاهر بطاعة حكومة تنظم مذبحة للجنس البشري كله .. إنهم أسوأ أناس عاشوا في تاريخ الإنسانية»(٣٩).

تسليما بمقدمات «رسل» كان هناك منطق في اتهاماته، ولكن النطق كان يطبق بطريقة انتقائية. كان أحيانا يعتقد أن جميع من يملكون الأسلحة النووية سواء في تخطيطهم للإبادة الجماعية .. بما في ذلك الروس، وهكذا راح يؤكد في خطاب وجهه عام ١٩٦١ من «سجن بركستون» أن «كينيدي» و«أديناور» و«خروشوف» و«ديجول» و«ماكميلان» و«جيتسكل» يعملون جميعا من أجل هدف مشترك : نهاية الحياة الإنسانية، ولكي تسعد أولئك الناس لابد أن تمحي إلى الأبد كل العواطف الخاصة والآمال المشتركة(٤٠) وكقاعدة، كان «رسل» يركز نيرانه على الغرب خاصة على بريطانيا، وقبل الجميع على الولايات المتحدة. وكان ذلك يعني نسيان كيف كان يكره الاتحاد السوفيتي وروسيا والروس أنفسهم، بعد الحرب كان يردد دائما أن الروس سيئون مثل النازيين، بل ربما أسوأ منهم، وقد سجل لنا «كراوشاي» بعض انفجاراته : «كل الروس برابرة شرقيون»، «كل الروس استعماريون»، ومرة «تمادى حتى في القول أن جميع الروس يمكن أن يزحفوا على بطونهم لخيانة أصدقائهم»(٤١)، ولكن في أواخر الخمسينيات وما بعدها غادرت المشاعر المعادية للروس عقله وحلت محلها المشاعر المعادية للأمريكان. كانت كامنة فيه وسبق لها أن ظهرت على السطح قبل ذلك، وساعد على اندفاعها كبرياء بريطاني قديم ووطنية الطبقة

العليا واحتقار لمحدثي النعمة، إلى جانب كراهة ليبرالية لأكبر دولة رأسمالية في العالم. كان والداه الراديكاليان ينتميان إلى جيل يربط أمريكا بالتطور الديمقراطي، وسبق أن قاما بزيارة طويلة لها في سنة ١٨٦٧، لأنه كما سجل «كان الشبان الذين يتمنون إصلاح العالم يذهبون إلى أمريكا لمعرفة كيف يفعلون ذلك هناك»، ويضيف: «لم يستطيعوا التنبؤ بأن الرجال والنساء الذين فتنهم جوهم الديمقراطي وأعجبوا بمعارضتهم للعبودية كانوا هم أجداد وجدات أولئك الذين قتلوا «ساكو» و«فانزيتي»(٤٢). هو نفسه قام بزيارة أمريكا عدة مرات وعاش هناك سنوات لكسب المال: «أنا مفلس لدرجة مرعبة، وأتطلع إلى أمريكا لأعيد توازن أوضاعي المالية» كتب ذلك في سنة ١٩١٣ وكرر كلاما مثله فيما بعد.

كان «رسل» دائم النقد للأمريكان، لاحظ في أول زيارة له في ١٨٩٦ أنهم «كسالى في كل شيء عدا البزنس»(٤٣)، ولكن آراءه عن تأثير أمريكا على العالم كانت شديدة التذبذب، وكما رأينا أثناء الحرب العالمية الأولي كان يعتبر أمريكا «ولسون» منقذة العالم، وعندما خاب أمله هناك تحول إلى وجهة نظر مضادة في عشرينيات القرن. كان يقول أن الاشتراكية التي كان يفضلها آنذاك لن تتحقق في أوروبا «حتي تتحول أمريكا إلى الاشتراكية أو على الأقل تكون على استعداد لأن تبقى محايدة»(٤٤). اتهم أمريكابأنها تقوم «بتدمير حضارة الصين ببطء» وتنبأ بانهيار الديمقراطية الأمريكية إن لم تتبع الجماعية، ونادي «بتمّرد عالمي» ضد الاستعمار الرأسمالي الأمريكي وأكد أنه «إذا لم يتم هز إيمان أمريكا بالرأسمالية فسيكون هناك انهيار شامل للحضارة»(٤٥).

بعد عشرين عاما، أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية كان يؤيد السياسة العسكرية الأمريكية، ولكن ذلك كان يصحبه كراهية متزايدة لأساليب السياسة الأمريكية عموما.

وبعد عودته من زيارة لأمريكا كتب إلى «كراوشاي وليمز» في نهاية سنة ١٩٥٠ يقول: «كانت أمريكا بغيضة، والجمهوريون أشرار بقدر ما هم أغبياء، وأخبرت الجميع بأنني كنت أجد متعة في أن أدرس جو دولة بوليسية. وأعتقد أن الحرب العالمية الثالثة سوف تبدأ في مايو القادم»(٤٦)، راهن «مالكولم ما جردج» أن «چوزيف مكارثي» سوف ينتخب رئيسا (ولو أنه كان عليه أن يدفع الرهان عندما مات السيناتور)، وعندما بدأ «رسل» حملته ضد القنبلة الهيدروچينية كان عداؤه للأمريكيين قد أصبح شديدا وظل كذلك حتى وفاته. كان يؤمن بنظرية المؤامرة بالنسبة لاغتيال «كيندي» ثم بعد أن سئم قضية القنبلة - كانت فترة اهتمامه بالقضايا قصيرة مثل تولستوي - انتقل إلى قضية «ڤيتنام» ونظم حملة عالمية واسعة لفضح سلوك أمريكا هناك. ومشحونا من سكرتيرة «شوينهام» سقط «رسل» صيدا سهلا للبدع المتهورة. قبل نصف قرن كان يدين استخدام الحلفاء وحكاياتهم عن السلوك الألماني العدائي في «بلچيكا» لكي يحرك حمي الحرب. وفي كتابه «العدالة الاجتماعية في وقت السلم» -١٩١٦- حاول أن يكشف زيف الكثير من تلك الأفكار. وقد استغل مكانته في الستينيات لنشر و إعطاء مصداقية لروايات من «ڤيتنام» كانت أقل معقولية، وكان ذلك كله بغرض إذكاء روح الكراهية ضد أمريكا. وقد انتهت هذه السياسة

بمحكمة جرائم الحرب(١٩٦٦ـ ٦٧) التي نظمها والتي اجتمعت في النهاية في «ستوكهولم» لتنطق بالحكم ضد أمريكا. ومن أجل هذه الدعاية استطاع أن يجند مثقفين ممن لديهم الاستعداد لذلك مثل «اسحق دويتشر» و«چان پول سارتر» و«سيمون دي بوڤوار» والمؤلف اليوغوسلافي «فلاديمير ديديچيه» (الذي رأسها)، وأحد رؤساء المكسيك السابقين، وأكبر شاعر في «الفلپين»، ولكن لم يكن هناك حتى أي ادعاء للعدل أو النزاهة حيث أن «رسل» نفسه قال أنه يعقدها لمحاكمة مجرمي الحرب «چونسون» و«راسك» و«مكنمارا» و«لودچ» وأعوانهم من المجرمين»(٤٧)، وكفيلسوف كان «رسل» يصر دائما على استخدام الكلمات بحذر وبمعناها المحدد، وكناصح للإنسانية كان يعترف في سيرته الذاتية «بوصف الأشياء غير المقبولة باستهجان لكي يشاركه الآخرون ثورته»(٤٨)، وهذا اعتراف غريب من رجل مكرس بحكم المهنة لتحليل المشكلات بطريقة مجردة ويرفع راية العقل، هذا إلى جانب أن محاولاته للاستفزاز وإغاظة الآخرين كانت تفلح مع أولئك الذين لم يكن لغضبهم قيمة،أو كان موجودا بالفعل. وعندما قال «رسل»(في سنة ١٩٥١) أن «لا أحد في أمريكا يستطيع أن يقوم بأي عمل سياسي قبل أن ينظر خلف الباب لكي يتأكد أن لا أحد يسمعه»، لم يكن عاقل يصدقه(٤٩)، وعندما أعلن أثناء أزمة الصواريخ الكوبية(١٩٦٢): «يبدو من المحتمل أنكم جميعا ستموتون خلال أسبوع لكي يسعد الأمريكان المجانين»، كان يدمر نفسه بذلك وليس «چون كيندي»(٥٠)، وهندما قال أن جنود أمريكا في «ڤيتنام» كانوا«على نفس الدرجة من السوء مثل النازيين» بدأ جمهوره ينفض من حوله تدريجيا(٥١).

وفي الحقيقة لابد من القول أن «رسل» وعلى مدى حياته كان أكثر تأثيرا في الجدل المستمر أكثر منه صاحب أقوال مأثورة. ومجموعة أقواله ليست أفضل من أقوال «تولستوي» : «الچنتلمان هو الرجل الذي يزيد دخل جده عن ألف جنيه في العام»، «لن تكون هناك حكومة ديمقراطية في أفريقيا»، «يجب إرسال الأطفال إلى مدارس داخلية لإبعادهم عن حب الأم» الأمهات الأمريكيات «ذنبهن قصورهن الغريزي، يبدو أن ينابيع الحب قد نضبت فيهن»، «نادرا ما يمكن تعلم النظرة العلمية للحياة من المرأة»(٥٢).

والملاحظة الأخيرة تذكرنا بأن «رسل» رغم ارتباطه الذهني في العقود الأخيرة من حياته بالآراء السياسية تماما، إلا أنه اشتهر أيضا بآرائه في موضوعات جدلية مثل الزواج العرفي، الحب الحر، إصلاح نظام الطلاق، التعليم المشترك. وكان على أية حال يؤيد مبدأ حقوق المرأة الذي كان ينادي به المدافعون عنه. كان يطالب بمساواة المرأة داخل الزواج وخارجه وكان يعتبر النساء ضحايا نظام أخلاقي قديم ليس له أساس من القيم.لابد من الاستمتاع بالحرية الجنسية، وانتقد بشدة مبادىء المحرمات والتضحية الإنسانية التي تنتقل تقليديا وتعتبر «فضيلة»(٥٣).

كانت هناك أصداء كثيرة في آرائه من «شلي» بالنسبة للمرأة والحياة الاجتماعية والأطفال والعلاقات الإنسانية، وكان لديه في الحقيقة إخلاصي لـ«شلي» الذي كان يعتبر شعره خير معبر عن توجهاته في الحياة. استقر «رسل» في تلك المنطقة من «ويلز» حيث كان «شلي» قد حاول أن ينشيء مجتمعا في

١٨١٢ ـ١٣، وكان منزله في «پلاس مانرهاين» من تصميم نفس المعماري الذي بنى منزل«مادوكس» صديق «شلي» فوق مصب نهر «پورتمادوك». إلا أنه مثل «شلي» لم يكن سلوكه العملي نحو النساء يتطابق دائما مع مبادئه النظرية. زوجته الأولى «آليس» الأمريكية، وكانت من طائفة «الكويكرز»، إنسانة لطيفة ومثقفة ورقيقة، راحت ضحية فسق زوجها المتواصل، تماما مثل «هاريت» زوجة «شلي». كان «رسل» كما رأينا قد نشأ نشأة متشددة وظل هكذا بخصوص الأمور الجنسية حتى عشرينياته. وعندما ترك شقيقه «فرانك» ـ الإيرل الثاني ـ زوجته في سنة ١٩٠٠ وحصل على الطلاق وتزوج أخري رفض «رسل» أن يعترف بالزوجة الثانية وكان يطلب من «فرانك» ألا يحضرها معه على العشاء.(وقدهوجم «فرانك» فيما بعد أمام مجلس العموم بسبب زواجه من امرأتين في وقت واحد)،ولكن عندما تقدم العمر بـ«رسل» أصبح مثل «ڤيكتورهوجو» من قبله، أكثر انغماسا في الشهوات وأقل نزوعا لاتباع قواعد المجتمع ... إلا عندما كان يراها مناسبة له. وقد أسقط «آليس» فعلا من حياته ـ بعد ١٦ سنة ـ في ١٩مارس ١٩١١ عندما زار «ليدي أتولين موريل» مضيفة «بلومسبري» المليئة بالحيوية، في منزلها. (في ٤٤ بدفورد سكوير). وجد زوجها «فيليب» ـ مصادفة ـ في الخارج... ونام معها! يقول «رسل» في مذاكرته: إنه لم يقم «علاقة كاملة» مع ليدي أوتولين» في تلك الليلة ولكنه عزم على ترك «آليس» وعلى أن يجعل «ليدي أوتولين» «تترك فيليب». وما قد تشعر به أو تفكر فيه «موريل» «لم يكن أمرا ذا أهمية بالنسبة لي»، كما تأكد له أن الزوج «قد يقتلنا نحن الإثنين»، ولكنه كان «على استعداد أن يدفع ذلك الثمن لقاء ليلة»

ونقل «رسل» الأخبار في الحال لـ«آليس» التي استشاطت غضبا وقالت أنها مصممة على الطلاق وأنها ستذكر اسم «أوتولين»، وبعد نقاش قال «رسل» «بحزم» أنها إذا نفذت ما هددت به «سوف أُقدم على الانتحار لكي ألتف على فكرتها». بعد ذلك كان «غضبها فوق الاحتمال، وبعد ثورة عاصفة استمرت عدة ساعات كنت أجلس لأعطي درسا في فلسفة «لوك» لإبنة اختها»(٥٤). وهذه الرواية التي تتفق مع أغراضه ليست متسقة مع سلوك «آليس» الفعلي. كانت طوال الوقت تعامله بتحفظ شديد واعتدال وحب... فوافقت على أن تذهب لتعيش مع أخيها لكي يستطيع هو مواصلة علاقته مع «ليدي أوتولين»، وأجلت الطلاق إلى مايو ١٩٤٠ واستمرت على حبها له. وعندما جردته «ترينيتي كوليدج» من درجة «الزمالة» كتبت : «كنت قد وفرت مبلغ مائة جينه لاستثمارها في بعض السندات، ولكني سوف أعطيها لك حيث أخشى أن يكون هذا الاضهطاد قد أثر على دخلك»(٥٥).

وعندما دخل السجن قالت: «أفكر فيك بحزن شديد كل يوم وأحلم بك كل ليلة»(٥٦).ولكن «رسل» لم يرها بعد ذلك حتى سنة ١٩٥٠، كان انفصاله عن «آليس» ينطوي على كثير من الكذب والخداع والنفاق. مرة، حلق شاربه ليخفي شخصيته أثناء لقاءاته السرية مع «ليدي أوتولين».

أصدقاؤه أصابتهم صدمة عندما اكتشفوا ما كان يدور : لأنه كان دائما يتحدث معهم بصراحة وانفتاح. وهذه السلسلة من الأحداث صنعت مرحلة من الارتباك الجنسي في حياته. لم تكن علاقته مع

«ليدي أوتولين»مرضية، وحسب روايته: «كنت أعاني من التهاب اللثة رغم أنني لم أكن أعرف ذلك، ولذلك كانت رائحة نَفَسي كريهة... وذلك أيضا لم أكن أعرفه،ولكنها لم تذكر ذلك(٥٧)... وهكذا بردت العلاقة بينهما.وفي سنة ١٩١٣ التقى بزوجة «محلل نفسي» في الألب و«كنت أرغب في ممارسة الجنس معها ولكني فكرت أنني لابد أن أشرح لها موقفي من «أوتولين». لم تكن المرأة مهتمة بذلك وقررت أنها «يمكن أن تتجاهل ذلك ولو ليوم واحد». ولم يرها «رسل» بعد ذلك. ثم في سنة ١٩١٤ كانت أحداث مخزية أخرى مع فتاة صغيرة من شيكاغو. كانت «هيلين دادلي» إحدى أربع شقيقات بنات طبيب نساء شهير وكان «رسل» يقيم معه أثناء إلقاء محاضراته. وطبقا لرواية «رسل» : «قضيت ليلتين تحت سقف والدهن، الثانية قضيتها معها وكانت شقيقاتها الثلاث يقمن بالمراقبة لتحذيرنا في حال اقتراب أحد الوالدين»، وقد رتب «رسل» بحيث تحضر إلى انجلترا في ذلك الصيف وتعيش معه علنا في انتظار حصوله على الطلاق. كتب إلى «ليدي أوتولين» يخبرها بما حدث، ولكنها كانت قد عرفت أنه عولج من رائحة نفسه الكريهة فأخبرته برغبتها في استئناف العلاقة معه. على أية حال كانت الحرب قد أعلنت في الوقت الذي وصلت فيه «هيلين دادلي» إلى لندن في أغسطس ١٩١٤، وقرر «رسل» «أن يعارضها» «ولم أكن أرغب في زيادة تعقيد موقفي بفضيحة خاصة تجعل أي شيء أقوله عديم القيمة»، ولذلك أخبر «هيلين» أن خطتهم أصبحت غير قائمة. وبالرغم من «أنني كنت على علاقة بها من وقت لآخر» فإن الحرب «قتلت عاطفتي نحوها وكسرت قلبها»، ثم يقول: «إنها سقطت ضحية مرض مجهول أصابها بالشلل في البداية ثم أودي بها إلى الجنون»، ولا شك في أن ذلك كان أكثر من طاقتها على الاحتمال.

في نفس الوقت فإن «رسل» زاد موقفه تعقيدا بعشيقة أخرى هي «ليدي كونستانس ماليسون»، سيدة مجتمع كانت تعمل تحت إسم «كوليت أونيل»، وكان قد التقى بها في سنة ١٩١٦، وفي أول مرة اعترفا فيها بحبهما «لم يذهبا إلى الفراش»، حيث كان ذلك «كثيرا عليَّ أن أقوله». كان كلاهما من دعاة السلامية، وأثناء أول اتصال جنسي بينهما «فجأة سمعنا صيحة فرح عالية في الشارع، قفزت من السرير لأجد «منطاد زبلن» يسقط على الأرض محترقا... كان حب «كوليت» في ذلك الوقت هو ملاذي، لا من القسوة ذاتها والتي كانت غير مقبولة، وإنما من الألم المبرح لإدراكي أن يكون الناس هكذا»(٥٨). سرعان ما تغلب «رسل» على ألمه الشديد، وخلال سنوات قليلة كان قد أصبح شديد القسوة على «ليدي كونستانس». ارتضت أن تشارك «ليدي أوتولين» فيه. وكانت السيدتان تزورانه بالتناوب كل أسبوع أثناء سجنه المؤقت. وحسب فهم «ليدي كونستانس» فإن «أوتولين» فضلت أن تبقى مع زوجها آنذاك لكي تحصل على «رسل» عندما يتحقق له الطلاق. وعلى هذا الأساس قدمت «الدليل» الذي مكنه من الحصول على حكم نافذ المفعول في وقت معين (مايو ١٩٢٠)، ومع ذلك كان «رسل» في ذلك الوقت قد وقع في علاقة جديدة مع سيدة جديدة أصغر سنا... داعية نسائية اسمها «دورا بلاك»... وحملت منه! لم تكن ترغب في الزواج، فهي ضد تلك المؤسسة، ولكن «رسل» الذي لم يكن يريد أن يُعقّدموقفه أكثر من ذلك أصر على الزواج، واحتفلا قبل مولد الطفل بستة أسابيع... وهكذا تم التخلي عن «ليدي

كونستانس» وأجبرت «دورا» على قبول «عار وشنار الزواج»(٥٩)،على حد تعبيرها.

«رسل» الآن في الخمسين. مأخوذ بسحر «دورا» الفاتن، يبهجه أن «تخرج لتستحم في ضوء القمر أو تجري عارية القدمين على العشب الرطب»، هي نفسها كانت تجلس مأسورة وهي تحكي كيف اقتحم أحد العسكريين منزله وهو يقول : «مجنون السلام اللعين يعيش هنا»(٦٠).

من الناحية الجسدية لم يكن «رسل» يروق للجميع، في ذلك الوقت كان قد أصبح له ضحكة متشققة مدوية، كان ــ تلميذه في كمبردج ــ «ت.س.اليوت» يصفها بأنها : مثل «صوت نقار الخشب»، كما يقول «چورج سنتيانا» إنها مثل صوت الضبع. وكان «رسل» يرتدي بذلة قديمة غامقة اللون، مكونة من ثلاث قطع نادرا ما يغيرها. (ونادرا ما كان لديه أكثر من بذلة واحدة في نفس الوقت، ووقاء للجزء الأعلى من الحذاء وياقات عالية مثل معاصره «كوولدچ». عند زواجه الثاني سجلت «بياتريس ويب» في مفكرتها أنه كان «عفن الرائحة، غير صحي، يشك في حسن الدوافع البشرية، عجوز قبل الأوان»، ولكن «دورا» كانت تحب «شَعره الكث المائل إلى البياض عندما يتماوج مع الهواء، أنفه الحاد، ذقنه الدقيقة، شفته العليا الممدودة». كانت تقول : «قدماه الصغيرتان العريضتان تتجهان نحو الخارج»، وأنه بالضبط كان يشبه : «صانع قبعات مجنون»(٦١)، وكانت تريد ــ وتلك رغبة قاتلة ــ «أن تحميه من سذاجة الخاصة». أنجبا طفلين، «چون» و«كاتي»، وفي سنة ١٩٢٧ أنشأ مدرسة تقدمية «بيكون هل» بالقرب من «بيترسفليد»، وأخبر «نيويورك تيمز» أنه يحبذ أن تكون هناك «جماعات تعاونية من عشر أسر» يجمعون أطفالم معا «ويتناوبون رعايتهم»، على أن يكون هناك كل يوم «ساعتان للدروس» مع مراعاة «التوازن المناسب»، ويترك بقية الوقت ليقضوه «كما يحلو لهم»(٦٢) وكانت «بيكون هل» محاولة لتجسيد هذه النظرية. ولكن اتضح أن المدرسة كانت باهظة التكاليف مما اضطره لكتابة أشياء كثيرة لمجرد الحصول على المال لتسديد نفقات المدرسة. علاوة على أنه مثل «تولستوي» سئم هذا الروتين وترك «دورا» وحدها، والتي كانت بفضل آرائها التقدمية وإحساسها الأكبر بالمسئولية تدير المدرسة. كانا يتشاجران أيضا بسبب الجنس، كانت «بياتريس ويب» قد توقعت أن زواج «رسل» من فتاة ذات شخصية خفيفة طائشة، وفلسفة مادية لا يحبها ولا يستطيع أن يحترمها لابد أن يفشل. ومرة أخرى مثل «تولستوي» كان «رَسل» قد صمم على سياسة «مصارحة» وافقت عليها : كل منا : «برتي» وأنا ترك الآخر حرا بخصوص مغامراته الجنسية»، لم يعترض عندما أصبحت سكرتيرة للفرع الإنجليزي من الرابطة العالمية للإصلاح الجنسي، ولا عندما حضرت المؤتمر الدولي للجنس في «برلين» (أكتوبر ١٩٢٦) مع رائد عمليات تحويل الجنس دكتور «ماجنس هيرشفيلد»، وطبيب النساء «نورمان هير» ، ولكنه لم يشعر بالارتياح عندما أقامت علاقة صريحة مع صحفي ــ جريفن باري ــ وأنجبت منه طفلين، رغم أنه كان يقول بأن نساء طبقة «الهويج» في القرن الثامن عشر كان لهن في العادة أطفال من آباء مختلفين، وبعد عدة سنوات كان يعترف في سيرته الذاتية : «حاولت في زواجي الثاني أن أحافظ على احترامي لحرية زوجتي، والذي كنت أعتقد أن عقيدتي تفرضه، إلا أنني وجدت أن طاقتي على الغفران، وما يمكن أن يسمى بالحب المسيحي لم يكونا متساويين مع ما

أتطلبه» ويضيف : «كان من الممكن أن يقول لي ذلك أي شخص مقدما ولكن الحقيقة أن النظرية أعمتني»(٦٣).

والذي لم يذكره «رسل» أنه كانت له أنشطة غامضة على نحو خاص، الأمر الذي كان يتناقض مع سياسته في المصارحة، وهي حقيقة بارزة أن جميع الحالات التي يحاول فيها المثقفون إفشاء كل ما يتعلق بالجنس كانت تنتهي إلى درجة من السرية المذنبة غير المعتادة حتى في أسوأ العائلات. وقد روت «دورا» فيما بعد كيف استدعيت إلى المنزل الذي كانوا يقضون فيه عطلاتهم في «كورنوول» بواسطة طباخ، رفض أن تترك طفليهما الشرعيين بالقرب من المربية لأنها كانت «نائمة مع السيد»(٦٤)، بعد ذلك تم فصل الطباخ المسكين من الخدمة(٦٤). كذلك وجدت «دورا» بعد عدة سنوات أن «رسل» كان يجيء بحبه القديم «ليدى كونستانس» لتقضي معه أوقاتا غرامية في غيابها. وعندما عادت بعد ذلك إلى المنزل مع وليدها الجديد، وجدت أمامها مفاجأة سيئة : «صدمني «برتي» بقوله أنه قد اتجه بعواطفه الآن نحو «بيتر سبنس». كانت «مارجري» ـ بيتر ـ طالبة من «أكسفورد» جاءت لرعاية «جون» و«كاتي» أثناء الإجازات. وكانت أسرة «رسل» تقضي عطلة رباعية في جنوب غرب فرنسا، كل طرف مع حبيبه أو حبيبته (١٩٣٢)، ولكن قبل ذلك بعام كان «رسل» قد أصبح «إيرل» بعد موت شقيقه الذي لم يكن له أبناء، وكان هناك فرق.

أصبح الآن أكثر ميلا نحو سلوك وتصرفات اللوردات، كان يتوق لعلاقة منتظمة ولذلك أخذها لتعيش معه في منزل الأسرة. تقول «دورا» المصدومة : «لم أكن أعتقد في البداية أن «برتى» يمكن أن يفعل ذلك» وتضيف : أنه كان من المحتم أن «يؤذي رجل من هذا النوع كثيرين في طريقه»، ولكن «سقطته التراجيدية» كانت في أنه «لم يشعر بندم كبير» : ورغم أنه كان يحب الجماهير وكان يعاني معهم، إلا أنه ظل بعيدا عنهم، لأن الأرستقراطي الذي بداخله كان ينقصه الحس الشعبي(٦٥).

كما اكتشفت «دورا» أيضا ـ الطريق الصعب ـ أن «رسل» عندما كان يتخلي عن زوجة ويتخذ أخرى لم يكن ساذجا أو بسيطا. كان مثل غيره من أبناء الطبقة والثروة يستأجر فريقا من المحامين النافذين، ويعطيهم تفويضا مطلقا ليحصلوا له على ما يريد. كان الطلاق عملية في غاية التعقيد وقد يستغرق ثلاث سنوات، فالزوجان كانا قد وقّعَا في مرحلة سابقة على «صك انفصالى» يسمح للجانبين بممارسة الجنس الحر، واتفقا على ألا يثير أحدهما أي مخالفات زوجية تكون قد حدثت قبل ٣١ ديسمبر ١٩٣٢ في أي دعوي قضائية. وذلك بدوره جعل الدعاوي أكثر تعقيدا وارتباكا، كما جعل محامي «رسل» أكثر عدوانية.

كلا الوالدين كان يريد أن تكون له حضانة الطفلين الشرعيين، وفي النهاية قاتل «رسل» بنجاح لكي يجعلهما تحت وصاية المحكمة العليا مثل ذرية «شلي» البائسة، ولكي يحصل على هذه النتيجة ـ الحكم ـ استطاع محاموه تدبير شهادة سائق كانت «دورا» قد طردته من العمل بالمدرسة ـ وكان يعمل عند رسل ـ تفيد أنها كانت دائما في حالة سكر، تحطم زجاجات الويسكي في غرفتها، وأنها كانت تمارس فيها

الجنس مع الأدباء والزائرين(٦٦). ولكن «رسل» لم يخرج من القضية دون خسائر، إذ قال قاضي الطلاق الذي أصدر الحكم أخيرا في سنة ١٩٣٥ أن الزنا بالنسبة للزوجة «كان على الأقل يسبقه حالات خيانة من زوجها، الذي كان مدانا في حالات منها وفي ظروف أدت إلى تفاقم المخالفة .. خيانة المدعي عليه مع أشخاص في المنزل أو التورط في أعمال مشتركة»(٦٧).

وقراءة التقارير الطويلة عن هذا الموضوع لابد أن تجعل المرء يشعر بالشفقة على «دورا» التي ظلت مخلصة لمبادئها من البداية إلى النهاية، بعكس «رسل» الذي تخلى عن مبادئه بمجرد أن أصبحت غير ملائمة له شخصيا ثم أقحم القانون. أولا هي لم تكن تريد الزواج، وكان ذلك في «مارس ١٩٣٥ قبل أن أتحرر تماما من زواجي القانوني. كنت في أواخر الثلاثينيات من العمر وقد أخذ الطلاق ثلاث سنوات من حياتي وخلّفَ مآس لم أُشْفَ منها تماما»(٦٨).

استمر زواج «رسل» الثالث من «پيتر سپنس» حوالي ١٥ سنة. يقول باقتضاب : «عندما قررت زوجتي في عام ١٩٤٩ أنها لا تريد أن تبقى معي ... انتهي زواجنا(٦٩). وخلف هذه العبارة القصيرة المضللة حكاية طويلة عن خيانات زوجية من جانبه، لم يكن «رسل» أبدا إيجابيا أو مبادرا لإغواء النساء أو البحث عن فريسة نسائية، ولكنه لم يكن يتردد في إغواء أي واحدة تقع في طريقه. والحقيقة أنه كان قد أصبح خبيرا في المراوغات التي كان يتقنها أي فاسق في عصر ما قبل الإباحية. ففي مناسبة ما نجده يكتب إلى «ليدي أوتولين» .... «أأمن خطة بالنسبة لك هو أن تجيئي إلى المحطة وتنتظري في استراحة الدرجة الأولى على رصيف القطار المغادر، ثم بعد ذلك تخرجي معي في سيارة أجرة إلى أحد الفنادق وندخل معا .. المخاطرة هنا أقل منها في أي خطة أخرى كما أنها لا تبدو غريبة بالنسبة لمسئولي الفندق(٧٠).»

بعد ذلك بثلاثين سنة نجده يقدم نصيحة تطوعية في أمور مشابهة لـ «سيدني هوك» : «هوك . لو حدث أن أخذت أي امرأة إلى أحد الفنادق وشك فيكما موظف الاستقبال، فعندما يخبرك بسعر الغرفة دعها تقول بصوت عال : «السعر مرتفع جدا»، من المؤكد أنه سيعتقد أنها زوجتك»(٧١). كان «رسل» يفضل النساء مع مقدمات منطقية ! وكان ذلك يجعل الأمور أكثر سهولة، في ١٩١٥ قدم لتلميذه السابق المفلس «ت.س.اليوت» هو وزوجته «ڤيڤيان» مأوى في شقته في «بري ستريت» في «لندن».

وقد وصفه «إليوت» كـ «مستر أپوليناكس» «الجنين غير المسئول ويقول أنه كان يسمع دقات القنطور على الأرض الصلبة»، وكان «حديثه الجاف والعاطفي يبتلع المساء»، ولكن «اليوت» كان إنسانا يثق بالآخرين ويأتمنهم، فترك زوجته بمفردها مع القنطور وحديثه العاطفي وقد حكي «رسل» لعشيقاته الأخريات طرفا مما حدث. قال لـ «ليدي أوتولين» أن مغامراته مع «ڤيڤيان» كانت أفلاطونية، واعترف لـ«ليدي كونستانس» أنه قد مارس الجنس معها، ولكنه وجد التجربة «جهنمية وكريهة»(٧٢)، ومن المحتمل أن تكون الحقيقة غير الحكايتين معا، ومن الممكن أن يكون تصرفه قد أسهم في جنون «ڤيڤيان إليوت».

كانت ضحايا «رسل» دائما من الكائنات المتواضعة : خادمات، مربيات، أو أي أنثى صغيرة وجميلة تتحرك في البيت. في الصورة التي رسمها لـ «رسل» يقول «البروفيسور هوك» أن ذلك كان السبب الرئيسي لفشل زواجه الثالث، يقول أنه قد عرف من مصدر موثوق به أن «رسل» بالرغم من عمره المتقدم كان يمكن أن يطارد «أي شيء داخل تنورة» يأتي في طريقه، وكان يفعل ذلك بطريقة فاضحة حتى مع الخادمات .... وليس من وراء ظهر «بيتر»، بل أمام عينيها وعيون ضيوفه. تركته ثم عادت ولكن «رسل» رفض أن يتعهد بالإخلاص للحياة الزوجية، وفي النهاية قررت أنها لم تعد تحتمل كل ذلك الامتهان»(٧٣). ثم جاء الطلاق بعد ذلك في سنة ١٩٥٢ عندما كان «رسل» في الثمانين، بعد ذلك تزوج مدرسة من «برين ماور» اسمها «اديث فينش» كان يعرفها من عدة سنوات، قامت على رعايته بقية حياته، وعندما كان يتهمه أحد بمعاداة أمريكا كان يقول بمكر شديد : «نصف زوجاتي أمريكيات»(٧٤).

نظريا، كان «رسل» مع حركة القرن العشرين لتحرير المرأة، أما من الناحية العملية فكان مغروسا في القرن التاسع عشر. كان ڤيكتوريا، وعندما ماتت الملكة العجوز كان في الثلاثين تقريبا، وكان يميل لأن يري النساء يتبعن الرجال كذيول لهم. كتبت «دورا» : «بالرغم من دفاعه عن حق المرأة في الانتخاب، لم يكن «برتي» يؤمن حقيقة بالمساواة بينها وبين الرجل. كان يعتقد أن الرجل أذكي منها. وذات مرة قال لي أنه كان دائما يجد ضرورة لأن يتحدث إلى المرأة باحتقار»(٧٥).

ويبدو أنه كان يشعر في قرارة نفسه أن وظيفة المرأة هي إنجاب الأطفال للأزواج، كان لديه ابنان وبنت وكان أحيانا يحاول أن يكرس نفسه لهم، ولكنه مثل بطله «شلي» كان يجمع بين نزعة التملك الشديدة واللامبالاة. وكانت «دورا» تشكو من أنه قد أصبح «بعيدا عن فهم مشاكلهم، وانهمك تماما في دوره في السياسة العالمية»، كما أنه ـ هو نفسه ـ اضطر للاعتراف بأنه «فشل كأب»(٧٦).

وكما هو الحال بالنسبة لكثير من المثقفين فقد كان الناس ـ بما فيهم النساء والأطفال ـ يميلون لأن يكونوا خدما لأفكاره، وبالتالي لأنانيته. في بعض جوانب من شخصيته كان «رسل» إنسانا لطيفا طيب القلب، متحضرا، قادرا على إظهار لمسات الحب نحو الآخرين وإبداء الكرم. لم يكن فيه ذلك الاستغراق الذاتي في شئونه الخاصة مثل «ماركس» أو «تولستوي» أو «إبسن»، ولكن المسحة الإستغلالية فيما يخص علاقته بالنساء كانت حاضرة.

كما أن النساء لم تكن هي الفئة الوحيدة التي استغلها، كما توضح ذلك حالة «رالف شوينمان». كان أمريكيا درس الفلسفة وتخرج في «برنستون» ومدرسة «لندن» للاقتصاد وانضم إلى الـ CND في سنة ١٩٥٨، وبعد عامين ـ وكان في الرابعة والعشرين ـ كتب إلى «رسل» عن خططه لتنظيم جناح للعصيان المدني في الحركة. أعجبت الفكرة الرجل العجوز فشجع «شوينمان» على الحضور للقائه، ووجده شخصية جذابة. كانت أفكار «شوينمان» المتطرفة متطابقة مع أفكاره، وكانت العلاقة بينهما تشبه العلاقة بين «تولستوي» و«تشيرتكوف».

وبسرعة أصبح «شوينمان» سكرتيرا له ومنظما لأنشطته، وفي الستينيات كان قد أصبح بمثابة رئيس الوزراء في بلاط الملك ـ النبي !

والحقيقة أنه كان هناك بلاطان، أحدهما في «لندن» مركز نشاط «رسل» العام، والثاني هو منزله في «بلاس بنرهين» على شبه جزيرة «پورتميريون» شمال «ويلز». كانت «پورتميريون» قرية إيطالية منطلقة بناها المهندس المعماري اليساري «ك. وليمز إيليس»، الذي كان يمتلك معظم المساحة المحيطة. وكانت زوجته «أمابيل» شقيقة «جون ستراشي» مدافعة متحمسة عن مبادىء «ستالين» ومؤلفه كتاب دعائي عن بناء قناة البحر الأبيض (عن طريق السخرة كما تكشّف لنا الآن)، وهو أحد الوثائق الكريهة التي بقيت من سنوات الثلاثينيات المظلمة. كان كثير من التقدميين الأغنياء مثل «بوزويل»، «كرواشاي وليمز»، «آرثر كوستلر»، «همفري سلاتر»، العالم العسكري «ب.م.س (اللورد فيما بعد) بلاكيت» والمؤرخ الاقتصادي «م.م. پوستان» يعيشون في تلك المنطقة الجميلة يستمتعون بالحياة ويخططون من أجل الألفية الاشتراكية، كان «رسل» هو مليكهم، وإلى جانب مثقفي الطبقة المتوسطة، كانت تأتي إلى بلاطه وفود الحجيج من جميع أنحاء العالم، ينشدون الحكمة ويطلبون الرضا، كما كان يفعل أسلافهم عند «تولستوي» في «ياسنايا پوليانا». كان «رسل» يستمتع بصولاته وجولاته المصحوبة بالدعاية الكبيرة في «لندن»، يلقي الخطب، يقود المظاهرات، يعرض نفسه للقبض عليه ويزعج المؤسسة بصفة عامة. ولكنه كان يفضل الحياة في «ويلز» وبالتالي كان يناسبه جدا أن يدير له «شوينمان» أموره في «لندن» غير مأجور، فهو مخلص .. بل متعصب له.

وهكذا لعب «شوينمان» دور وزير السلطان واستمر حكمه ست سنوات ! كان معه عندما ألقي القبض عليه في سبتمبر ١٩٦١ ودخل السجن أيضا. وعندما خرج اقترحت وزارة الداخلية ترحيله كأجنبي غير مرغوب فيه، فكتب عدد كبير من المثقفين يطلبون بقاءه ولانت الحكومة !

ولكنهم بعد ذلك ندموا على وساطتهم عندما اتضح أن «شوينمان» أصبحت له السيطرة التامة على عقل «رسل» كما كانت لـ «تشيرتكوف» على عقل «تولستوي». كان من الصعب على أصدقائه القدامى أحيانا أن يتحدثوا إليه بالتليفون. كان «شوينمان» يرد على المكالمات ويعد بتحويل الرسائل إليه، كما أُتهم بأنه كان المؤلف الحقيقي للرسائل الكثيرة التي بعث بها «رسل» لـ «التيمز» أو البيانات التي كانت ترسل باسمه لوكالات الأنباء تعليقا على الأحداث العالمية، وكان «شوينمان» نفسه يؤيد هذه الظنون. كما كان يزعم أن «جميع المبادرات السياسية المهمة التي حملت اسم «برتراند رسل» اعتبارا من سنة ١٩٦٠ كانت من صنعي فكرا وتنفيذا»، وقال: «هناك على الأقل جزء من الحقيقة في أن الرجل المسن قد تم الاستيلاء عليه من قبل شاب ثائر شرير»(٧٧). كان «شوينمان» يتحمل عبئا كبيرا في لجنة المائة ومحكمة جرائم حرب فيتنام وإنشاء مؤسسة «رسل» للسلام. وفي الستينيات كانت قاعدة «رسل» في لندن قد أصبحت نوعا من وزارة خارجية مصغرة ـ بشكل كوميدي ـ ترسل الخطابات والبرقيات التي لا

تنتهي إلى وزراء الخارجية ورؤساء الدول : إلى ماوتسي تونج وشو إن لاي في الصين، وخروشوف في روسيا، وعبد الناصر في مصر، وسوكارنو في إندونيسيا، وهيلاسلاسي في إثيوبيا ومكاريوس في قبرص .. وغيرهم، وعندما أصبحت تلك الرسائل طويلة ومملة وأكثر عنفا تضاءل الاهتمام بها والرد عليا شيئا فشيئا. كما كان هناك كذلك التعليق على أي أحداث داخلية تقع : قضية «بروفيومو» خطيرة لا لأن الحكومة تتألف من متلصصين وشواذ جنسيا وبغايا، إنها خطيرة لأن الموجودين في السلطة قد حطموا نزاهة القضاء وزوروا الأدلة وأرهبوا الشهود وتواطئوا مع الشرطة في تحطيم الدليل، بل وسمحوا لهم بأن يقتلوا رجلا»، وكانت الصحف تمتنع أحيانا عن نشر مثل هذا الهراء. وكان الأصدقاء القدامى الذين فقدوا الاتصال بـ «رسل» يعتقدون أن «شوينمان» هو مؤلف كل تلك البيانات. ولا يوجد شك في أنه كتب الكثير منها ولم يكن في ذلك جديد. لقد كان «رسل» يترك أي شخص آخر يكتب مقالا باسمه إذا لم يكن مهتما بالموضوع. ففي سنة ١٩٤١ عندما استاء «سيدني هوك» من مقال «جلامور» بعنوان «ماذا تفعلين إذا وقعت في غرام رجل متزوج؟» بقلم «برتراند رسل»، اعترف له «رسل» بأنه قبض عنه خمسين جنيها : بينما كانت زوجته هي التي كتبته ووقعت باسمه(٧٨). ولا يوجد أي دليل على أن جهود «شوينمان» لم تكن تعبر عن آراء «رسل»، فقد كانت عنيفة تماما مثل آراء أمين سره. وتوضح لنا السجلات والأرشيف أن شوينمان كان يغير ويغلظ عبارات وجملا معينة في نصوص «رسل» بخط يده، ربما كان ذلك إملاء منه (مثال على ذلك البيان الخاص بأزمة الصواريخ الكوبية)، وعندما كانت تجمح العاطفة بـ «رسل» كان يخرج عن النص المعتدل المكتوب. أما إذا كان الكثير من البيانات التي تحمل اسمه قد تبدو طفولية اليوم، فلابد أن نتذكر أن الستينيات كانت حقبة طفولية وأن «رسل» أحد الذين يعبرون عن روحها.

كان مذنبا دائما خاصة في آخر العمر، مذنبا بنوبات غضب طفولية، وهكذا نظم حفلا خاصا ليمزق بطاقة عضويته في حزب العمال. وعندما اتجه «هارولد ولسون» رئيس الوزراء آنذاك نحوه مادا إليه يده قائلا : «لورد رسل»، احتفظ الإيرل العجوز بيديه في جيوبه بتباه واضح. الواضح جدا كما يقول «رونالد كلارك» كاتب سيرته أنه ـ وعلى عكس ما كان يعتقد البعض ـ لم يصل إلى خرف الشيخوخة أبدا. كان يسمح لـ «شوينمان» بقدر من الجموح ولكن السيطرة كانت له في النهاية. وعندما قرر أخيرا أن «شوينمان» لم يعد صالحا لأغراضه بدأ يتصرف باندفاع. لم يعترض على تطرفه ولكنه كان يكره سرقته للأضواء منه. قام «شوينمان» بعدة جولات في الخارج باسم «الممثل الشخصي لـ «ايرل رسل» وسبب ذلك مشاكل. ففي الصين أشعل غضب «شوإن لاي» عندما حث الجماهير على عصيان الحكومة، وشكا «شوإن لاي» إلى «رسل».

وفي يوليو ١٩٥٦ كانت هناك صور أخرى من سوء تصرفه في مؤتمر السلم العالمي في «هلسنكي»، عندما تلقي «رسل» برقية ناقمة من المنظمين : لقد أحدثت كلمة ممثلك الشخصي ضجة كبرى، رفضها الجمهور بشدة كما أثارت الاستفزاز في مؤتمر السلام، المؤسسة أصبحت بلا مصداقية، لابد من تبرئة نفسك من «شوينمان» وكلمته .. مع التحية»(٨٠).

ثم كانت مشاحنات طويلة بعد ذلك، سرية وعلنية، بخصوص محكمة جرائم حرب فيتنام. وفي سنة ١٩٦٩ ـ وكان «رسل» في السابعة والتسعين من العمر ـ قرر أنه لم يعد في حاجة إلى «شوينمان» وخدماته وقطع صلته به فجأة، وفي ٩ يوليو شطبه من وصيته كمنفذ ووصي وقطع العلاقة به تماما في منتصف الشهر. بعد شهرين حذف اسمه من مجلس إدارة مؤسسة «رسل» للسلام وفي نوفمبر أملى على زوجته الرابعة «اديث» بيانا من سبعة آلاف كلمة عن كل علاقته بـ «شوينمان» طبعته على الآلة الكاتبة ووقع على كل صفحة منه مع خطاب مرفق موقع كتب على آلة أخري. كانت النبرة رافضة ومتعالية : لابد أن يكون «رالف» راسخا في جنون العظمة، والحقيقة أنني لم آخذه أبدا على محمل الجد كما يتصور، كنت معجبا به في السنوات الأولى ولكني لم أعتبره أبدا إنسانا موهوبا أو متفوقا أو له أي أهمية خاصة»(٨١).

أما أحد أسباب احتفاظ «رسل» به لفترة طويلة فهو براعته في جمع الموارد المالية بطرق لم يكن «رسل» يراها تليق به لو فعلها.

كان «رسل» شديد الحرص في كل ما يتعلق بالمال .. الحصول عليه، إنفاقه، وللإنصاف يمكن أن نقول منحه أيضا. أثناء الحرب العالمية الأولى أعطى «ت.س.اليوت» الذي كان معوزا أسهما بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه لم يكن يريد أن يحتفظ بها في شركة هندسية تحولت إلى إنتاج الأسلحة الحربية، وكانت الأسهم قد آلت إليه بالميراث، ويتذكر : «بعد ذلك بسنوات، وكانت الحرب قد انتهت ولم يعد «اليوت» فقيرا، أعادها إليّ(٨٢).»

كان «رسل» عادة يقدم الهدايا الثمينة الغالية خاصة للسيدات، كما كان جشعا وبخيلا ! يقول «هوك» : أن خطاياه الرئيسية كانت الغرور والجشع، وأنه كان يكتب في الولايات المتحدة مقالات لا قيمة لها أو مقدمات لكتب يعتبرها تافهة مقابل مبالغ ضئيلة من المال.

وكان يدافع عن نفسه بإلقاء اللوم على المدرسة التي كانت تكلفه ٢٠٠٠ جنيها شهريا، ثم على زوجاته. كان يقول أن زوجته الثالثة مبذرة، وبعد طلاقهما كان يؤكد أنه أعطاها عشرة آلاف جنيها من الأحد عشر التي حصل عليها من جائزة نوبل عام ١٩٥٠، وأن عليه أن يدبر مالا كثيرا وأن يهتم بنقوده لأنه كان يدفع نفقتين في وقت واحد. كان «رسل» يستمتع بفكرة أنه من ذوي الدخل الكبير، ومن هنا كان حرصه الشديد على الاحتفاظ بمفكرة يسجل فيها الدخل والمصروف. وقد سجل «كراوشاى وليمز» في مذكراته :

«كان يستمتع بتشجيعنا له على إمعان النظر في المبلغ البسيط الذي كان يحققه في تلك الأيام»، وعلى نحو خاص كانت سعادته بالغة بحصوله على جائزة «سوننج» الدانمركية التي تصل قيمتها إلى حوالي خمسة آلاف جنيه، وهتف سعيدا «ومعفاة من الضرائب .:. مكسب صاف»، أخبر «كراوشاي وليمز» أنه سوف يقضي يومين فقط في الدانمراك : «نحن ذاهبون فقط لقبض المبلغ والعودة فوراً». كان

«شوينمان» «وزير مالية بامتياز، وكان يرفق بخطابات «رسل» قصاصات مكتوب عليها عبارات مثل : إذا كنت ترى أن العمل الذي يقوم به «رسل» من أجل السلام ذا قيمة فلربما فكرت في دعمه ماليا ... هذه المذكرة، على أية حال، مرسلة إليكم دون علم «لورد رسل» عن طريق سكرتيره(٨٤). كما كان يتقاضى مبلغ ثلاثة جنيهات (خفضها بعد ذلك إلى جنيهين من كل من يطلب توقيع «رسل» على أتوجراف، كما كان يحصل من كل صحفي يريد إجراء مقابلة معه على مائة وخمسين جنيها، ومن المؤكد أن «رسل» كان على علم بذلك الابتزاز حيث أنه سمع كثيرا من الشكاوي والاحتجاجات على الأسلوب الأمريكي الذي يتبعه «شوينمان» في جمع الأموال، ومع ذلك سمح باستمراره، ويبدو أنه بارك اثنين من مشروعات «شوينمان» الكبيرة. إذ على الرغم من نصيحة ناشر «رسل» القديم «السير ستانلي آنون» أقام «شوينمان» مزادا على حقوق نشر السيرة الذاتية لـ «رسل» في أمريكا ـ وكان ذلك يكاد يكون أسلوبا غير معروف في تلك الأيام ـ ودفع بالعطاء إلى مبلغ يصل إلى مائتي ألف دولار وهو مبلغ ضخم آنذاك، كما استغل وجود أرشيف ضخم لدي «رسل» ـ مثل «برخت» ـ فقد كان «رسل» مثل معاصرة «تشرشل» من أوائل الذين أدركوا قيمة الخطابات التي تصله من المشاهير وكان يحتفظ بها كلها إلى جانب صور من رسائله، وفي الستينيات كان قد تجمع لديه ربع مليون وثيقة كانت تعتبر : «أهم أرشيف خاص من نوعه في بريطانيا» وقد نقل «شوينمان» أستاذ الدعاية والترويج الأرشيف إلى «لندن» في سيارتين مدرعتين وبعد طويل مساومة باعه لجامعات «مكماستر» و«هاميلتون» و«أونتاريو» مقابل ربع مليون جنيه(٨٥).

كانت ضربة المعلم بالنسبة لـ «شوينمان» أن يجعل مؤسسة السلام التي حصل لها على وضع خيري معفاة من الضرائب وعلى مستوي مؤسسة الأطلنطي للسلام، يقول «رسل» : «ثم على غير رغبة مني ضغط عليّ رفاقي لكي تحمل المؤسسة اسمي»(٨٦)، وفي سنواته الأخيرة كان يستطيع أن يقدم مبالغ كبيرة من أجل جميع أغراضة سواء كانت معقولة أو حمقاء ويتمتع بدخل كبير ويدفع أقل قدر قانوني من الضرائب.

وبعد أن أقام «شوينمان» هذا الصرح البارع أعفي من العمل، أما بالنسبة للإدعاء بأن «رسل» كان مثل صديقه «وليمز إيليس» ـ غنيا واشتراكيا ـ فلم لم يتبرع أي منهما بأمواله ؟ كانت لدى «رسل» إجابة جاهزة في مخزونه : «أخشى أن تكونوا قد فهمتموني على نحو خاطىء، أنا و«كلوج وليمز إيليس» اشتراكيان ولا ندعي أننا مسيحيان». إن القدرة على الحصول على أفضل ما في العالمين، عالم تنامى الشعور بأنه أفضل أخلاقا من الآخرين وعالم التميز، قضية مهمة تسري في حياة كثير من كبار المثقفين، وليس هناك من هو أكثر من «رسل» تعبيرا عن ذلك. لم يكن يرفض أبدا ما كان يجلبه له حسبه وشهرته واتصالاته، رغم أنه لم يكن يطلب ذلك مباشرة. وهكذا عندما حكم عليه قاضي «بوستريت» بالسجن ستة أشهر مع الشغل في سنة ١٩١٨ تم تخفيض الحكم في الاستئناف وأعلن رئيس المحكمة : «سوف تكون خسارة كبيرة للبلاد لو عوقب السيد «رسل» الرجل الممتاز بهذه الطريقة»(٨٧)، أما ما يقوله «رسل» في سيرته الذاتية فهو أن تخفيف الحكم كان بفضل زميل فيلسوف، كان حينذاك وزيرا للخارجية : «بفضل

تدخل «آرثر بلفور» تم تخفيض الحكم إلى الفئة الأولى ـ دون شغل ـ لكي يتسنى لي أن أقرأ وأكتب كما أريد أثناء السجن بشرط ألا أقوم بأية دعاية سلامية، وقد وجدت السجن ملائما في جوانب كثيرة»(٨٨) في سجن «بركستون» كتب مقدمة للفلسفة الرياضية ، وشرع في كتاب «تحليل العقل»، كما كان يستطيع أن يحصل على أحدث الكتب ويقرأها بما في ذلك الكتاب المدمر الشهير : «الڤيكتوريون الكبار» من تأليف «ليتون ستراتشي» والذي جعله «يضحك ويقهقه لدرجة أن الضابط جاء إلى زنزانته قائلا : «أن عليّ أن أتذكر أن السجن مكان للعقاب»، بينما تدهورت في السجن صحة صديق آخر من السلاميين مثل «إي. دي. موريل» وكان يقضي عقوبة من نفس الدرجة. كان «رسل» يتمتع أيضا بامتيازات أخري، عندما رتب له «شوينمان» أن يتسلم حصة إضافية من القصص البوليسية من المكتبة العامة : التهم «رسل» عددا كبيرا من القصص والروايات البوليسية مثل كثيرين من أبناء جيله من المثقفين . (كان صديقه القديم «جـ . ماكتاجارت» يحتاج إلى ثلاثين كتابا في الأسبوع)، كما لم يحتج أحد ضده ـ ومن يستطيع ؟ ـ حتى أثناء نقص المواد التموينية في فترة ما بعد الحرب عندما كان يرسل إليه مصنع خمور اسكتلندي صندوقا من الويسكي كل شهر مكتوب عليه «إيرل رسل»(٨٩).

كان من الصعب عليه في معظم الأحيان أن ينسى أصوله الاجتماعية فكان يصف زوجته الأولى بأنها «ليست من النوع الذي قد تلقبه جدتي بـ «ليدي»، وأطلق على عيد ميلاده الواحد والعشرين «اليوم الذي كبرت فيه». كان يجد متعة في أن يكون وقحا مع الناس الذين يسميهم بالطبقة المتوسطة مثل المعماريين. وعندما يزعجه أحد لدرجة كبيرة كان يستدعي الشرطة مثلما حدث عندما اعتصمت ممثلة ووكيلها في بيته في «لندن» رغم أنهما كانا يقلدان ممارساته. كانت لديه رغبة شديدة في الحصول على وسام الاستحقاق، وكان يعتبر عارا أن يحصل عليه أحد قبله أقل منه شأنا مثل «إدنجتون» و«وايتهد». ثم شعر بالرضا عندما أنعم به عليه أخيرا «چورج السادس»، واعتقاد اليسار أن «رسل» لم يستخدم لقبه أبدا اعتقاد غير صحيح، فعلى العكس من زوجته الثالثة التي يبدو أنها كانت سعيدة بذلك، كان «رسل» يستخدمه عمليا عندما كان يعتقد أن ذلك سوف يحقق فائدة له. كان «إيرل رسل» يتصرف كشخص عادي عندما لا تكون هناك ضرورة أو عندما تكون هناك ! ولكن أحدا لم يكن يجرؤ ـ أو يسمح له ـ أن يتبسط معه.

أما بالنسبة للمنطق فكان يلجأ إليه كذلك عند الحاجة، أثناء الغزو السوڤيتي لـ «تشيكوسلوڤاكيا» تم إقناعه بتوقيع رسالة احتجاج مع عدد كبير من الكتاب وكان عليّ أن أناقش مسألة نشرها في «التيمز». كان عنوان الرسالة لابد وأن يكون وحسب الترتيب الأبجدي لأسماء الموقعين : «من مستر كنجسلي آميس وآخرين»، قررت، ووافق محرر بريد «التميز» أن أثر العنوان لابد أن يكون أقوى في العالم الشيوعي لو أنه كان : «من «إيرل رسل» (الحاصل على وسام الاستحقاق) وآخرين» .. وقد كان. ولكن «رسل» لاحظ تلك الخدعة البسيطة وغضب جدا واتصل تليفونيا محتجا، ثم لحقني عند المطبعة وأنا أقوم بتسليم «نيو ستيتسمان» للطباعة. وقال أنني فعلت ذلك لأعطي انطباعا زائفا بأنه هو نفسه الذي فكر في الرسالة ،

أنكرت ذلك قائلا أن الهدف الوحيد كان من أجل أن يكون للرسالة تأثير قوي. ثم قلت له : «إذا كنت قد وقّعتَ على الرسالة فليس من حقك أن تشكو إذا وضع اسمك في المقدمة .. إن هذا غير منطقي ... «فما كان منه إلا أن ضرب سماعة التليفون بعنف وهو يقول : «تفاهات منطقية . !» .



الفصل التاسع

«سارتر» : كُرَةٌ صغيرة من الفراء والحبر !

مثل «برتراند رسل» ، كان «چان پول سارتر» فيلسوفا محترفا، ومثله كان يريد أن يؤثر في أكبر جمهور ممكن مع الفارق في الأسلوب، «رسل» كان يري في الفلسفة علما كهنوتيا لا يمكن للعامة أن يسهموا فيه، وكان أقصى ما يمكن أن يقوم به فيلسوف خبير بالناس مثله هو أن يُقَطِّرَ كميات صغيرة من الحكمة ثم يوزعها على هيئة محلول في المقالات الصحفية والكتب الشعبية والإذاعات. أما «سارتر» فعلى العكس من ذلك، لأنه كان يعمل في بلد يدرس الفلسفة في المعاهد والكليات، كما تناقش في المقاهي، وكان يعتقد أنه يستطيع أن يجذب الجماهير لكي تشارك في منظومته من خلال المسرحيات والروايات، وبدا كما لو كان قد نجح في ذلك لوقت ما على الأقل. ومن المؤكد أنه لا يوجد من فلاسفة هذا القرن من له مثل أثره المباشر على عقول واتجاهات ذلك الكم من البشر، خاصة الشباب، في جميع أنحاء العالم.

كانت « الوجودية» هي الفلسفة الشعبية الأكثر انتشارا في أواخر الأربعينيات والخمسينيات من هذا القرن. كانت مسرحياته ناجحة، تباع بأعداد كبيرة وقد وزع بعضها أكثر من مليوني نسخة في فرنسا وحدها(١) .

كان «سارتر» يقدم أسلوبا للحياة، ورأس كنيسة علمانية وإن تكن غامضة، ومع ذلك ... ماذا كانت النتيجة في نهاية الأمر ؟ مثل معظم المثقفين الكبار . كان «سارتر» أنويا من الدرجة الأولى، وليس هذا بالأمر الغريب لو أخذنا ظروف طفولته بالاعتبار. كانت حالة كلاسيكية للطفل الوحيد المدلل. الأسرة تنتمي للشريحة العليا من الطبقة الريفية المتوسطة، الأب ضابط بحري، الأم من عائلة «شفايتزر» الغنية في «الألزاس» . الأب وبكل المقاييس شخص عديم الأهمية، كان يُعامل بقسوة شديدة من والده، كان ماهرا في الفنون التقنية، يحتفظ بشارب ضخم يعوضه عن قصر القامة (خمسة أقدام وبوصتان) ، وعلى أية حال مات و«سارتر» في الشهر الخامس عشر وأصبح «مجرد صورة معلقة في غرفة نوم أمي» .

أما الأم «آن ـ ماري» فقد تزوجت مرة ثانية من «چوزيف مانسي» رئيس مصنع «ديلوناي ـ بيليڤيل» في «لاروشيل» ، ورث «سارتر» المولود في ٢١ يونيو ١٩٠٥ قصر قامة والده (خمسة أقدام وبوصتان ونصف البوصة) ، كما ورث عنه عقله وكتبه، ولكنه في سيرته الذاتية «الكلمات» اتخذ طريقا مستقلا

وحاول أن يطرده من حياته. كتب : «لو أنه عاش لكتم أنفاسي وحطمني، ولحسن الحظ مات صغيرا»، «لم يستطع أحد في الأسرة أن يثير فضولي بشأنه»، أما بالنسبة للكتب «فكان مثل معاصريه يقرأ أشياء تافهة وقد بعتها .. كان الرجل الميت لا يعني الكثير بالنسبة لي»(٢). أما الجد الذي سحق أبناءه فقد منح «چان پول» : «كل العطف وأعطاه دخل مكتبته الكبيرة. كانت أمه شديدة الخنوع وكان الطفل الصغير هو أثمن ممتلكاتها، كانت تلبسه ملابس البنات وتركت شعره طويلا ـ أطول من شعر هيمنجواي ـ حتى الثامنة تقريبا، عندما أصدر جده أوامره وكانت مذبحة لجز الشعر الطويل ! كان «سارتر» يسمي طفولته بـ «الجنة»، أما أمه فكانت «العذراء التي تعيش معنا تحت الرقابة والسيطرة من الجميع. كانت في خدمتي، ملكي أنا، ولم يكن أحد ليستطيع أن يتحدي امتلاكي لها .. لم أعرف العنف ولا الكراهية ولم أمر بتجربة الغيرة»، لم يكن هناك أي مجال «للتمرد»، ولم تكن نزوة أي فرد آخر تعتبر قانونا بالنسبة لي» وضع الملح ذات مرة في المربي وكان في الرابعة من عمره، وباستثناء ذلك لم تكن هناك أي جرائم أو عقاب. كانت أمه تناديه بـ «پولو»، وكانوا يقولون أنه جميل «وكنت أصدق ذلك»، كان ينطق بأشياء «أكبر من سنه»، وكانوا يتذكرون ذلك ويروونه له»، ولذلك «تعلمت أن أُشَكِّل الآخرين»، ويقول أنه «عرف كيف يقول أشياء أكبر من سنه دون مجهود»(٣)، وأحيانا تذكرنا كتابة «سارتر» بـ «روسو» وتستعيد كلماته : كان الرب مولودا في أعماق قلبي، والحقيقة في ظلام فهمي»، «لم يكن لي حقوق لأنني كنت مغمورا بالحب، لم يكن لدي واجبات لأنني كنت أعمل كل شيء من خلال الحب»، كان جده «يؤمن بالنهضة وأنا كذلك : النهضة ذلك الطريق الطويل الصعب الذي يفضي إلى نفسي»، كان يصف نفسه بأنه «ملكية ثقافية .. كنت مشبعا بالثقافة وكنت أعيدها إلى العائلة مثل الإشعاع». ويتذكر موقفا حدث مع أمه عندما طلب ذات يوم إذنا لكي يقرأ رواية «مدام بوڤاري» لـ «فلوبير» (وكانت مازالت تعتبر رواية صادمة).

الأم : ولكن إذا قرأ عزيزي الصغير كتبا كتلك في مثل هذه السن .. ماذا سيفعل عندما يكبر؟

سارتر : سوف أعيشها !

«وفيما بعد كانوا يعيدون تكرار هذه الإجابة اللماحة في محيط الأسرة بإعجاب شديد»(٤)، ولكن احترام «سارتر» للحقيقة لم يكن كبيرا، ومن الصعب أن نحكم على مصداقية وصفه لطفولته وشبابه، فأمه تضايقت عندما قرأت «الكلمات» وكان تعليقها أن «پولو لم يفهم أي شيء عن طفولته»(٥). أما الذي صدمها بشدة فكانت تعليقاته القاسية على أفراد الأسرة.

لا شك أنه كان مدللا، ولكن عندما كان في الرابعة حدثت كارثة، إذ على أثر نوبة انفلونزا حادة أصيب بشحاذ في عينه اليمنى، ولم يعد قادرا على استخدامها فيما بعد. كانت عيناه دائما سبب متاعب له، وكان باستمرار يضع نظارة سميكة وفي ستينياته كان يتجه نحو العمى. في المدرسة اكتشف أن أمه كانت تكذب بخصوص شكله وعرف أنه كان قبيحا، ورغم قصر قامته إلا أنه كان قوي البنية عريض

الصدر، وجهه خال من التعبير وعينه المريضة تجعله يبدو بشعا، ولأنه كان قبيحا كان التلاميذ يعتدون عليه بالضرب. أما هو فكان يرد بالسخرية والنكات اللاذعة فأصبح الشخصية المرحة ومهرج المدرسة، بعد ذلك عندما كبر وأصبح يطارد النساء كان يقول : «لكي أتخلص من عبء قبحي»(٦).

وقد أتيح لـ «سارتر» أفضل تعليم يمكن أن يتوفر لشخص من جيله : مدرسة «ليسيه» جيدة في «لاروشيل»، عامان في مدرسة «ليسيه هنري الرابع» الداخلية في باريس وكانت أفضل المدارس العليا في فرنسا في ذلك الوقت، ثم مدرسة المعلمين العليا التي تخرج فيها أفضل الأكاديميين الفرنسيين. كان بين معاصريه شخصيات ممتازة : «پول نيزان»، «ريموند آرون»، «سيمون دو بوڤوار». كان يلعب الملاكمة والمصارعة ويعزف على البيانو ـ سيئا ـ ويغني جيدا بصوت قوي ويساهم في تقديم الاسكتشات الفكاهية في حفلات المدرسة. كتب الشعر والرواية والمسرحية والأغاني والقصص القصيرة والمقالات الفلسفية. كان المهرج مرة أخرى ولكن على نطاق أوسع من الحيل والخدع، اعتاد ـ وحافظ على ذلك لسنوات كثيرة ـ أن يقرأ قرابة ثلاثمائة كتاب في العام(٧)، وكان مجال قراءاته واسعا : كما كانت تستهويه الروايات الأمريكية.

حصل أيضا على أول عشيقة «سيمون چوليڤيه» وكان مثل والده يفضلهن طويلات القامة إذا تيسر ذلك، كان «سيمون» شقراء ونحيلة وأطول منه بكثير. فشل «سارتر» في أول امتحان للحصول على الدرجة الدراسية وفي العام التالي نجح بتفوق وكان ترتيبه الأول، كما كانت «سيمون دو بوڤوار» ـ وتصغره بثلاث سنوات ـ الثانية.

الآن نحن في عام ١٩٢٩، ومثل معظم النابهين من الشباب في ذلك الوقت عمل «سارتر» مدرسا.

كانت اللاثينيات عقدا مفقودا بالنسبة لـ «سارتر» تقريبا، لم تتحقق له الشهرة الأدبية التي كان يتوقعها ويتمناها بشدة، قضي معظم سنوات العقد مدرسا في «لي هاڤر» التي كانت تعتبر نموذجا مصغرا للزراية الإقليمية. شهدت تلك السنوات سفريات إلى «برلين»، وهناك ـ عملا باقتراح «آرون» ـ درس «هوسرل» و«هيدجر» وفلسفة الظاهريات التي كانت الفلسفة الأصيلة في أوروبا الوسطي، ولكنها بشكل عام كانت تعلم الكدح. كره البرجوازية. كان وعيه الطبقي حادا ولكنه لم يكن ماركسيا، والحقيقة أنه لم يقرأ «ماركس» بالكامل، ربما بعض مقتطفات. كان ثائرا ولكن بلا قضية. لم ينضم لأي حزب ولم يكترث لصعود «هتلر» إلى السلطة. لم تحركه أحداث «إسپانيا»، ومهما زعم فيما بعد فإن سجله لا يوحي بأي آراء سياسية قوية له قبل الحرب، هناك صورة فوتوغرافية له يبدو فيها متأنقا من أجل حديث أكاديمي، في رداء أسود وعباءة صفراء مزينة بالفراء والملابس كلها كبيرة عليه. كان عادة ما يرتدي سترة رياضية وقميصا مفتوحا ويرفض ربطة العنق، في منتصف العمر فقط أصبح يرتدي زي المثقفين : پلوڤر پولو برقبة، وسترة غريبة نصفها من الجلد. كان يفرط في الشراب. في يوم الحديث الثاني كان هو الممثل الرئيسي وسط منظر غريب يشبه شخصية «جيم المحظوظ». في رواية «كنجسلي آميس»، كان ثملا وغير

متماسك ولم يستطع أن يقدم مساهمته فأنزلوه من على المسرح(٨). في تلك الأيام، وطوال حياته، كان يحب الاقتراب من الشباب والطلاب على نحو خاص. كان «سارتر» يترك طلابه يفعلون ما يحلو لهم. كانت رسالته : الفرد مسئول عن نفسه تماما وله حق انتقاد كل شيء وأي شخص. كان بأمكان الطلاب أن يخلعوا ستراتهم وأن يدخنوا في قاعة الدرس. لم يهتموا بكتابة أي مذكرات أو تقديم أي مقالات. كتب «سارتر» كثيرا ولكن كتاباته لم تجد ناشرا. كان يضايقه أن يرى صديقيه «نيزان» و«آرون» ينشران أعمالهم ويحققان قدرا من الشهرة. وأخيرا في عام ١٩٣٦ أنجز كتابا عن دراساته الألمانية (أبحاث فلسفية) فلم يجذب سوى القليل من الاهتمام. ولكنه كان يرى ما يريد أن يحققه. كان «جوهر» عمل «سارتر» هو إبراز الفعالية الفلسفية من خلال الأدب الروائي والدراما وأصبح ذلك راسخا في ذهنه في أواخر الثلاثينيات. كان يحاول إثبات أن جميع الروائيين الموجودين ـ وفي ذهنه «دوس پاسوس» و«فرچينيا وولف» و«فوكنر» و«چويس» و«ألدوس هكسلي» و«توماس مان» ـ يعبرون كلهم عن أفكار قديمة معظمها مستمد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من «ديكارت» و«هيوم». كتب إلى «چان پاولهان» يقول : «قد يكون من المهم أن تكتب رواية عن زمن «هيدجر»، وهذا ما أود أن أفعله». مشكلته أنه في الثلاثينيات كان يعمل في كل من الرواية والفلسفة على انفصال، ولكنه بدأ يثير الناس فقط عندما وضعهما معا وفرضهما على اهتمام الجماهير عن طريق المسرح. كانت رواية فلسفية من نوع ما تولد ببطء، وكان يريد أن يسميها «الملنخوليا» ولكن الناشر غير الإسم إلى «الغثيان»، عنوان أكثر تأثيرا، وصدرت في سنة ١٩٣٨، ومرة أخرى كانت الاستجابة ضعيفة في البداية. الحرب هي التي صنعت سارتر. كانت كارثة على فرنسا، وبالنسبة لأصدقاء مثل «نيزان» كانت الموت. جلبت الخطر أو العار لآخرين .. أما حرب «سارتر» فكانت مفيدة. تم تجنيده في قسم الأرصاد الجوية التابع لمجموعة مدفعية حيث كان عليه أن يختبر اتجاه الريح بإطلاق بالونات الهواء الساخن في الجو وكان زملاؤه يضحكون عليه. كان الرقيب المشرف عليه أستاذ رياضيات وكان يقول : «من البداية كنا نعرف أنه لن تكون له أي فائدة من الناحية العسكرية . كانت الروح المعنوية في صفوف العسكرية الفرنسية في الحضيض. وكان «سارتر» مشهورا بالقذارة وبأنه لا يستحم. كل ما كان يفعله هو أن يكتب.

كان كل يوم يكتب خمس صفحات في رواية وكانت في النهاية «أجراس الحرية»، ويكتب أربع صفحات في «مفكرة الحرب» وعددا لا يحصى من الرسائل كلها إلى نساء. عند الغزو الألماني انهارت الجبهة ووقع «سارتر» في الأسر وهو يحاول أن يكتب (٢١ يونيو ١٩٤٠)، وفي معسكر الأسرى القريب من «تريڤييه» انخرط فى السياسة فعلا بسبب الحراس الألمان الذين كانوا يحتقرون الأسرى الفرنسيين، خاصة عندما يكونوا قذرين، وكانوا يركلون «سارتر» باستمرار في مؤخرته العريضة. وكما فعل في المدرسة قبل ذلك كان ينجو من تلك المواقف بالتهريج وكتابة المواد المسلية للمعسكر، كما واصل العمل بجد في كتابة رواياته ومسرحياته حتى أفرج عنه في مارس ١٩٤١ بتقرير طبي عن عمى جزئي.

سلك «سارتر» طريقه مباشرة نحو «باريس» وحصل على وظيفة مدرس فلسفة في ليسيه «كوندورسيه»

الشهيرة، حيث كان معظم مدرسيها قد نفوا أو اختفوا تحت الأرض أو في معسكرات الاعتقال. وبالرغم من أسلوبه في التدريس ـ وربما بسببه ـ كان الموجهون يعتبرونه مدرسا ممتازا.

وجد «باريس» منعشة في زمن الحرب، وفيما بعد كتب : «هل يفهمني الناس إذا قلت أن الرعب كان فوق الاحتمال ولكنه كان يناسبنا جدا؟ ... لم نكن أبدا أحرارا مثلما كنا في ظل الاحتلال الألماني»(٩)، ولكن ذلك كان يتوقف على من تكون ! و«سارتر» كان محظوظا ! لم يظهر اسمه على أي قوائم أو سجلات نازية لأنه لم يكن قد شارك في السياسة قبل الحرب ولا حتى في الجبهة الشعبية في سنة ١٩٣٦، فكان بالنسبة لهم يعتبر «نظيفا»، وكان من المرضى عنهم عند من يقدرون الفن، فقد كانت «باريس» مليئة بالمثقفين الألمان المحبين للثقافة الفرنسية من الذين يرتدون الملابس العسكرية مثل «جيرهارد هيللر» و«كارل ايتنج» و«كارل هينز بريمر»، ولم يمتد تأثيرهم على الرقابة فقط وإنما امتد إلى الصحف والمجلات المسموح بها والمسرح ومراجعات الكتب(١٠). وبالنسبة لهم كانت روايات «سارتر» ومسرحياته تحظي بالقبول بسبب خلفيتها الفلسفية التي تنتمي إلى أوروبا الوسطى، خاصة في تأكيدها على «هيدجر» الذي كان مرضيا عنه من قبل مثقفي النازية الأكاديميين. لم يتعاون «سارتر» بنشاط مع النظام أبدا، أقرب مرة كانت عندما كتب لمطبوعة أسبوعية بعنوان «كوميديا»، ولكنه لم يكن يجد أي صعوبة في نشر أعماله وتقديم مسرحياته. وكما قال «أندريه مالرو» : «كنت أواجه الجستابو فى الوقت الذى كانت مسرحيات «سارتر» تقدم فيه في «باريس» بتصريح من الزقباء الألمان»(١١).

كان «سارتر» يميل للمشاركة في المقاومة بطريقة غامضة، ولحسن حظه باءت جهوده بالفشل. ،هنا مفارقة ساخرة من تلك التي يواجهها المرء عندما يكتب عن المثقفين. كانت فلسفة «سارتر» الشخصية التي سوف تسمي بـ «الوجودية» بعد ذلك بسرعة تتشكل الآن في عقله. وكانت في جوهرها فلسفة فعل تقول بأن شخصية الإنسان وقيمته تقررهما أعماله وليس آراؤه. الإنسان بأفعاله وليس بكلماته. أطلق الاحتلال النازي كل غرائز «سارتر» المعادية للسلطة، كان يريد أن يحاربها، ولو اتبع حكمة شعاراته الفلسفية لكان عليه أن يفجر القطارات أو يطلق النار على أفراد «الجستابو» ولكنه لم يفعل. كان يتكلم. يكتب. يقاوم نظريا، بالعقل والروح وليس بالعمل الفعلي، ساعد في تشكيل جماعة سرية «الحرية والاشتراكية» التي كانت تعقد الاجتماعات وتناقش، ويبدو أنه كان يعتقد أن المثقفين لو اجتمعوا وأطلقوا النفير فسوف تتداعي جدران النازية، ولكن «جيد» و«مالرو» خذلاه عندما قصدهما، وكان بعض أعضاء الجماعة مثل رفيقه الفيلسوف «موريس ميرلو پونتي» قد بدءوا يضعون ثقتهم في الماركسية.

سار «سارتر» وراء «پرودون» : بتلك الروح كتب أول بيان سياسي له في مائة صفحة يتناول حالة فرنسا بعد الحرب(١٢). هكذا كان هناك كثير من الكلمات .. ولا فعل !

كتب أحد الأعضاء «چان پويلون» يقول : «لم نكن جماعة مقاومة منظمة، كنا مجرد مجموعة من الأصدقاء قررت أن تكون ضد النازيين وأن ننقل أفكارنا إلى الآخرين». كما كان هناك نقد شديد أيضا

من آخرين لم يكونوا أعضاء في الجماعة. يقول «چورچ كازيلاس» الذي اختار الحزب الشيوعي : «صدمت منذ البداية إذ وجدت أنهم مجموعة من الأطفال : لم يكونوا أبدا بالوعي الذي يمكن أن يجعل ثرثرتهم تصيب أعمال الآخرين بالشلل»، وكان «راؤول ليفي» ـ أحد رجال المقاومة النشطين ـ يقول : «عملهم مجرد ثرثرة حول كوب من الشاي» و«سارتر» نفسه «جاهل سياسي»(١٣)، وفي النهاية ماتت الجماعة لعدم فاعليتها.

لم يقدم «سارتر» إذن أي شيء للمقاومة، لم يرفع إصبعا أو يكتب كلمة ضد المجازر، كان كل تركيزه على تطوير عمله، يكتب بلا هوادة : مسرحيات وفلسفة وروايات. وكان بشكل أساسي يكتب في المقاهي. نصه الفلسفي الرئيسي «الوجود والعدم» الذي يعبر عن مبادئه بشكل شامل، كتب معظمه في شتاء ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ الذي كان قارس البرودة، وكان «المسيو بوبال» صاحب مقهى «فلور» في «بوليڤار سان چيرمان» ماهرا في تدبير الفحم للتدفئة والتبغ للتدخين، ولذلك كان «سارتر» يجلس ليكتب هناك كل يوم، يقبع متدثرا بسترة قبيحة واسعة من الفراء الصناعي لونها برتقالي فاقع، يشرب كوبا من الشاي بالحليب، يخرج محبرته وقلمه وينفجر في الكتابة بلا توقف لمدة أربع ساعات تقريبا، ونادرا ما كان يرفع عينه عن الورقة «كرة صغيرة من الفراء والحبر»(١٤). تقول «سيمون دو بوڤوار» التي وصفته على النحو السابق أنه كان يطعم الكتاب الذي انتهى إلى ٧٢٢ صفحة بـ «عبارات حريفة»، عبارة عن الفتحات عموما، وأخري عن فتحة الشرج وممارسة الجنس على الطريقة الإيطالية»(١٥)، ونشره في ١٩٤٣ ولكن النجاح كان بطيئا (ولم تصدر عنه مراجعات مهمة حتي ١٩٤٥) وتراكميا(١٦). ولكن شهرة «سارتر» وتأكيده لأهميته تحققا من خلال المسرح. مسرحيته «الذباب» قدمت في نفس الشهر الذي صدر فيه «الوجود والعدم»، وفي البداية كان توزيع التذاكر قليلا إلى حد ما، وإن كانت قد لفتت الانتباه ورسخت من شهرته الصاعدة. وبسرعة طلب مه «پاتيه» أعمالا سينمائية فكتب ثلاثة ليحقق بذلك دخلا ماديا كبيرا لأول مرة، ثم انشغل في تأسيس مجلة نقدية جديدة مهمه «لي ليتر فرانسيز» ـ ١٩٤٣ ـ وفي الربيع التالي أضيف اسمه إلى هيئة المحكمين في جائزة «لاپلياد» مع «أندريه مالرو» و«پول إيلوار» وهي دلالة أكيدة على أنه كان قد أصبح ذا مكانة أدبية مهمة. وفي ٢٧ مايو ١٩٤٤ قدمت مسرحيته «جلسة سرية»، ذلك العمل الممتاز الذي يلتقي فيه ثلاثة أشخاص في غرفة استقبال يتضح أنها غرفة مؤدية إلى الجحيم، والمسرحية على مستويين : أحدهما تعليق على الشخصية مع رسالة أن «الجحيم هو الآخرون»، وعلى المستوي الآخر تقدم «الوجود والعدم» بأسلوب شعبي، نسخة مثورة منذ «هيدجر» أعطيت بريقا فرنسيا وعلاقة معاصرة وتقدم رسالة عن النشاط الثوري والتحدي المضمر. كان ذلك هو الشيء الذي برع فيه الفرنسيون، تناول فكرة ألمانية وتحديثها في الوقت المناسب. ونجحت المسرحية نجاحا كبيرا سواء مع النقاد أو الجمهور ووصفت بأنها : «الحدث الثقافي الذي دشن العصر الذهبي للسان چيرمان ـ دي پرس»(١٧).

اشتهر «سارتر» بسبب «جلسة سرية»، وهي دليل آخر على قدرة المسرح التي ليس لها نظير في التعبير عن الأفكار، ولكن الغريب أن تطير شهرة «سارتر» العالمية ـ شهرة سيئة في الواقع ـ ليصبح ذلك «الوحش

المقدس» من خلال المنبر القديم: المحاضرات العامة.

بعد عام من تقديم المسرحية كان السلام قد عاد إلى فرنسا، وراح الكل ـ خاصة الشباب ـ يحاول تعويض سنوات الثقافة المفقودة ويبحث عن أكسير الحقيقة بعد الحرب. كان الشيوعيون والديمقراطيون الاشتراكيون الكاثوليك (MRP) ـ وكانت قوة وليدة ـ يحاربون معركة طاحنة للسيطرة على الحرم الجامعي.

استخدم «سارتر» فلسفته لكي يقدم البديل : ليس الكنيسة ولا الحزب وإنما فلسفة للفردية يبدو فيها كل كائن حي سيدا مطلق الحرية عندما يختار طريق الفعل والشجاعة. كانت رسالة حرية بعد الكابوس الشمولي. كان «سارتر» بالفعل قد رسخت مواهبه وقدراته كمحاضر ساحر بسلسلة ناجحة عن «الأساليب الاجتماعية في الرواية» التي ألقاها في شارع «چان چاك» في خريف ١٩٤٤ وحينذاك ألمح فقط إلى بعض مفاهيمه، بعد عام وكانت فرنسا قد أصبحت حرة ومتعطشة للإثارة الفكرية أعلن عن محاضرة عامة في «سال دي سنترو» ـ ٨ شارع چان جوجون ـ في التاسع والعشرين من اكتوبر ١٩٤٥، لم تكن كلمة «الوجودية» من عنده، ويبدو أنها من اختراع الصحافة. ففي شهر أغسطس السابق كان قد طلب منه أن يُعرِّف المصطلح فقال : «الوجودية ؟ أنا لا أعرف ما هي. كل ما أعرفه أن فلسفتي فلسفة وجود». الآن كان عليه أن يتبنى الاصطلاح الذي سكه الإعلام ليجعل عنوان محاضراته : «الوجودية فلسفة إنسانية» وكما قال «ڤيكتور هوجو» : «ليس هناك أقوى من فكرة تجيء في زمانها».

كان زمن «سارتر» قد جاء على نحوين متميزين. كان يبشر بالحرية وسط أناس جائعين لها وينتظرونها، ولكنها لم تكن حرية سهلة.

يقول «سارتر» : «الوجودية تعرف الإنسان بأفعاله .. تقول له أن الأمل لا يوجد إلا في الفعل، وأن الشيء الوحيد الذي يجعله يعيش هو الفعل» ولذلك «فالإنسان يلتزم بحياته وهكذا يستمد صورته التي لا يوجد بعدها شيء»، كما يقول : إن الإنسان الأوروبي الجديد في ١٩٤٥ هو الفرد الوجودي الجديد ـ وحده وبلا أعذار، وهذا ما أقصده بقولي أننا محكوم علينا بالحرية»(١٨).

هكذا كانت حرية «سارتر» الوجودية والجديدة شديدة الجاذبية لجيل ضال، وحيد، فقير، نبيل، عدواني إلى حد ما ـ حتي لا نقول عنيفا ـ ضد النخبوية، شعبي، ولا يُستثنى من ذلك أحد. كان أي شخص خاصة من الصغار يمكن أن يكون وجوديا.

الأمر الثاني أن «سارتر» كان يرأس واحدة من تلك الثوارات المرحلية بأسلوب فكري. بين الحربين كانت طبقة المثقفين الفرنسيين قد سئمت التجاوزات النظرية للمعركة الطويلة حول «دريفوس» وأشلاء الفلاندز وفضلت العزلة. وكان هذا التوجه قد أرساه «چوليان بندا» الذي شجع كتابه الناجح «خيانة المثقفين» ـ ١٩٢٧ ـ الابتعاد عن الالتزام بعقيدة أو بحزب أو قضية، والتركيز على المبادىء المجردة والنأي

بالنفس عن ميدان السياسة. وكان «سارتر» شخصيا أحد الذين التفتوا إلى «بندا»، وحتى سنة ١٩٤١ لم يكن هناك من هو أقل منه التزاما، ولكن الآن وبعد أن اختبر الجو ببالونات الهواء الساخن لديه استشم نسيما مختلفا، أسس هو وأصدقاؤه مجلة جديدة «الأزمنة الحديثة» ورأس تحريرها، وظهر العدد الأول منها الذي يضم بيانه التحريري في شهر سبتمبر، وكان نداء ملحا للكتاب بالالتزام مرة أخرى.

«للكاتب مكان في زمنه. كل كلمة لها صداها، وكذلك كل صمت، وأنا أعتبر «فلوبير» و«ادموند» جونكور مسئولين عن القمع الذي تلي الكوميونة لأنهما لم يكتبا سطرا واحدا لمنعه، ربما قال قائل منكم أن ذلك لم يكن من واجبهما، ولكن هل كانت محاكمة «كالا» من واجب «ڤولتير» ؟ وهل كانت إدانة «دريفوس» من واجب «زولا» ؟(١٩).

كانت تلك أرضية المحاضرة وكان هناك توتر ثقافي في «باريس» في ذلك الخريف. قبل ثلاثة أيام من محاضرة «سارتر» شهدت «باريس» انفجارا عاطفيا أثناء افتتاح عرضين للباليه في مسرح الشانزلزيه، عندما علت أصوات الجمهور بالاستهجان ضد ستار «پيكاسو».

لم يتم الإعلان عن محاضرة «سارتر» بكثافة، لم يظهر سوي بضع كلمات في خانة الإعلانات الصغيرة في «ليبراسيون» و«لوفيجارو» و«ليموند» و«كومبات»، وعندما اقترب «سارتر» من القاعة في الساعة الثامنة والنصف كان الزحام شديدا في الخارج فتصور أنها كانت مظاهرة منظمة من قبل الحزب الشيوعي، زحام من جماهير تريد الدخول، ولأن القاعة كانت قد امتلأت عن آخرها، أصبحوا لا يسمحون إلا بدخول المشاهير أو الشخصيات المهمة، وكان على أصدقاء «سارتر» أن يفسحوا له طريقا لكي يدخل بصعوبة. في الداخل وبسبب الزحام كان قد أغمى على عدد من النساء وبدأت المحاضرة متأخرة عن موعدها. كانت الحكاية كلها محاضرة أكاديمية في الفلسفة، ولكن تلك الظروف المحيطة بها جعلت منها أهم حدث إعلامي بعد الحرب، وبالمصادفة كان «چوليان بندا» يلقي محاضرة عامة في نفس الليلة، في قاعة شبه خالية من الجمهور. كانت التغطية الصحفية لمحاضرة «سارتر» مذهلة(٢٠). عدد كبير من الصحف نشر آلاف الكلمات من نص «سارتر» رغم النقص الشد، في الورق في تلك الأيام. كل ما قاله والطريقة التي قال بها كان محل استهجان شديد. قالت الجريدة الكاثوليكية اليومية «لاكروا» أن الوجودية «أشد خطرا من عقلانية القرن الثامن عشر ووضعية القرن التاسع عشر»، واتفقت في الرأي مع «لي هيومانيتيه» على أن «سارتر» عدو للجميع. وبعد فترة وجيزة تم إدراج كل أعمال «سارتر» على قائمة الكتب الممنوعة من قبل «الفاتيكان»، وقال عنه «الكساندر فادييڤ» القوميسار الثقافي لـ «ستالين» أنه «ابن آوي يحمل آلة كاتبة، ضبع يمسك بقلم حبر». كذلك أصبح «سارتر» محل غيرة مهنية شديدة. مدرسة فرانكفورت التي كانت تكره «برخت» أصبحت تكرهه بدرجة أشد. «مارك هوركهايمر» كان يعتبره «المحتال والمبتز في عالم الفلسفة»، ولكن كل هذا الهجوم كان يسرع بقوته فتمحق كل من يعترض طريقها.

والآن، كان «سارتر» قد أصبح مثل الكثيرين من كبار المثقفين قبله، خبيرا في فنون الدعاية لنفسه، وما لم يكن يفعله كان يقوم بعمله من أجله أصدقاؤه ومريدوه. علقت صحيفة «ساميدي سوار» بالقول: لم نشهد انتصارا دعائيا كهذا منذ أيام بارنوم»(٢١).

وكلما كان الهجوم يتزايد على ظاهرة «سارتر» كانت تزدهر «الأزمنة الحديثة»، في عددها الصادر في نوفمبر أشارت إلى أن فرنسا كانت بلدا مهزوما منهار المعنويات، وكل ما خلفته هو الأدب وصناعة الأزياء، وأن «الوجودية» هدفها أن تمنح الفرنسيين بعض الكرامة وتبقي على خصوصيتهم في عصر يتسم بالتفسخ. وهكذا يصبح اتّباع «سارتر» عملا وطنيا. وفي شهر واحد باع كتاب صغير يضم محاضرته ـ وتمت طباعته بسرعة ـ أكثر من نصف مليون نسخة.

والأكثر من ذلك أن الوجودية لم تكن فلسفة تُقرأ، كانت جنونا يستمتع الناس به، يقول كتاب تعليمي عنها: «الوجودية مثل العقيدة لا يمكن شرحها، يمكن أن تعيشها»، وكان «سارتر» يعلِّم الناس أين يعيشوها(٢٢)، ولم يكن أمرا جديدا أن يصبح سان ـ چيرمان ـ دي ـ برس» مركزا لصرعة فكرية جديدة. كان «سارتر» في الحقيقة يواصل السير على طريق «ڤولتير» و«ديدرو» و«روسو» الذين كانوا من الزبائن الأول لمقهي «پروكوپ» القديم في مكان قريب من البوليڤار. وفي وقت آخر كان يموج بالحياة في ظل الإمبراطورية الثانية في عصر «جوتييه» و«چورج صاند» و«بلزاك» و«زولا»، وكان ذلك عندما افتتح مقهي «فلور» لأول مرة وكان من بين زبائنه الدائمين «هويسمانز» و«أپولينير»(٢٣).

ولكن في «باريس» ماقبل الحرب كان «المونپارناس» هو البؤرة الثقافية، حيث النبرة غير ملتزمة سياسيا، وشاذة جنسيا إلى حد ما، وكوزموپوليتانية، وكانت تغشى مقاهيه الفتيات النحيلات اللائي ينتمين للجنسين!

كان التحول إلى «السان چيرمان» تحولا شديدا لأنه كان تحولا اجتماعيا وجنسيا وثقافيا في نفس الوقت حيث كان «سارتر» يساريا، ملتزما، متجها نحو الجنس الآخر بشدة وشديد الفرنسية.

كان «سارتر» شخصية مرحة، يعشق الويسكي والچاز والبنات وعلب الليل. إن لم يكن في مقهى «فلور» أو الـ «دي ماجو» القريبة أو يتناول طعامه في «براسيري ليپ» على الجانب الآخر من الطريق، كان لابد أن تجده في علب الليل الجديدة أو الكهوف التي انشقت عنها فجأة أحشاء الحي اللاتيني. في ملهي «روزيه روچ» كانت هناك المغنية «چوليت جريكو» التي كتب لها أغنية جميلة، والكاتب والمؤلف الموسيقي «بوريس ڤيان» الذي كان يعزف على آلة «الترومبون» ويكتب في مجلة «الأزمنة الحديثة». وفي شارع «دوفيني» كان يوجد مقهي «تابو» و«بارڤير» في شارع «چاكوب». أما «سارتر» نفسه فكان يعيش على مقربة من ذلك كله، في «٢٤ شارع بوناپرت»، وكانت شقته تطل على كنيسة «سان چيرمان» ذاتها وعلى مقهي الـ «دي ماجو» (كانت أمه مقيمة هناك أيضا وتواصل اهتمامها بغسيل ملابسه). كانت للحركة جريدتها اليومية «كومبات» برئاسة تحرير «البير كامو» الذي كانت رواياته الواسعة الانتشار تعتبر وجودية.

فيما بعد كتبت «سيمون دو بوڤوار» : «كانت كومبات تنقل كل شيء يصدر عن أفوهنا وأقلامنا بشكل مقبول». كان «سارتر» يعمل طوال اليوم، يكتب بلا هوادة. وفي تلك الفترة كتب ملايين الكلمات : محاضرات، مسرحيات، روايات، مقدمات كتب، أحاديث إذاعية، قصص، سيناريوهات، ومقالات نقدية وفلسفية(٢٤). وصفه «چاك أوديبرتي» بأنه : شاحنة تركن في كل مكان محدثة جلبة ضخمة .. في المكتبة، في المسرح، في السينما». أما الليل فكان للعب. مع نهاية المساء يكون قد استبد به السكر ويصبح عدوانيا. تشاجر مع «كامو» ذات مرة وأصابه بكدمة سوداء حول عينه(٢٥). كان الناس يجيئون لكي يحملقوا فيه، كان ملك الحي، رئيس الغاضبين، سيد العارفين وفئران السراديب، وبكلمات «چان پولهان» : «كان الزعيم الروحي لألوف الشباب».

ولكن إذا كان «سارتر» هو الملك، فمن تراها تكون. الملكة ؟

وإذا كان هو الزعيم الروحي لألوف الشباب، فإلى أين يا ترى كان يقودهم؟ سؤالان مستقلان رغم أنهما متصلان ويجب تناولهما على التوالي.

كان «سارتر» قد أصبح مشهورا على المستوي الأوروبي بحلول شتاء ١٩٤٥ـ٤٦، وكان قد مر على بدء علاقته بـ «سيمون دو بوڤوار» عقدان من الزمان تقريبا. «سيمون» كانت فتاة من «مونپارناس»، وولدت بالفعل فوق مقهي «روتوند الشهير». كانت طفولتها صعبة، تحطمت أسرتها بسبب إفلاس شائن أودي بجدها إلى السجن، مهر أمها لم يسدد أبدا، كان والدها عاطلا متسكعا لم يمارس عملا مناسبا في حياته(٢٦). كتبت «سيمون دو بوڤوار» بمرارة شديدة عن والديها : «كان والدي مقتنعا بجريمة «دريفوس» كما كانت أمي مقتنعة بوجود الله»(٢٧)، وجدت مَهْربا في العمل بالتدريس وأصبحت مثقفة ذات اهتمامات فكرية.. وكانت أنيقة. في جامعة «باريس» كانت طالبة متميزة في الفلسفة وجذبها «سارتر» ودائرته. قال لها: «من الآن سوف آخذك تحت جناحي» وظل ذلك صحيحا بمعنى ما، رغم أن علاقتهما كانت سكينا ذا حدين بالنسبة لها. كانت أطول منه ببوصة واحدة وأصغر منه بثلاث سنوات. وبمعني أكاديمي محدد كانت أكثر مقدرة منه. يقول «موريس دي جانديلاك» ـ أحد معاصريها ـ أن عملها «صارم ودقيق وبارع وعلى درجة عالية من الفنية»، ورغم صغر سنها كانت تنافس «سارتر» على المركز الأول في مادة الفلسفة. وكان الممتحنان «چورج ديڤي» و«چان واهل» يعتبرانها الأفضل(٢٨). ومثل «سارتر» كانت كاتبة قوية ومجيدة في مجالات عدة. لم تكتب مسرحيات، ولكن أعمالها الأوتوبيوجرافية (السيرة الذاتية) أكثر تشويقا من كتاباته رغم أنها ليست صادقة تماما. وروايتها الرئيسية«الصفوة المثقفة» التي تصور عالم الأدب بعد الحرب وحققت لها جائزة «الجونكور» أفضل بكثير من أي رواية لـ «سارتر».

إلى جانب ذلك لم يكن فيها أي شيء من عيوبه سوي الكذب. إلا أن هذه المرأة الذكية صاحبة العقل القوي أصبحت عبدا لـ «سارتر» منذ لقائهما الأول تقريبا، وظلت هكذا طوال حياتها وحتي آخر العمر.

كانت تقوم على خدمته كعشيقة وزوجة سرية وطباخة ومديرة منزل وحرس نسائي وممرضة، ودون أن تطلب أي وضع قانوني أو مالي في أي وقت. وفي كل تلك الأدوار لم يعاملها «سارتر» أفضل مما كان «روسو» يعامل «تيريز» بل ربما أسوأ. لم يكن مخلصا لها، ولا نجد في سجلات الأدب حالات كثيرة أسوأ من ذلك من زواية استغلال المرأة. وتعتبر تلك الحالة هي الأكثر غرابة لأن «دو بوڤوار» كانت من رائدات الحركة النسوية طوال حياتها. في سنة ١٩٤٩ كتبت أول بيان حديث للحركة النسوية «الجنس الثاني» وكان توزيعه جيدا في جميع أنحاء العالم(٢٩). من كلماته الافتتاحية :«إنها لا تولد امرأة... وإنما تصبح امرأة» وهي صدى واع لافتتاحية «روسو» في «العقد الاجتماعي». كانت «بوڤوار» في الواقع هي سلف الحركة النسوية، ويجب اعتبارها ـ عن حق ـ الراعي الأول لها، ولكنها في حياتها كانت تخون كل ما تدافع عنه. وليس واضحا كيف استطاع «سارتر» أن يفرض عليها تلك السيطرة التامة، حيث إنها لم تكتب عن تلك العلاقة بأمانة.. ولا هو حاول. عندما التقيا كان هو الأكثر قراءة واطلاعا وقدرة على تقطير قراءاته وتحويلها إلى مونولوجات حوارية لم تستطع أن تقاومها. كانت سيطرته عليها ذات صبغة فكرية ولا يمكن أن تكون ذات طابع جنسي. كانت عشيقته معظم سنوات الثلاثينيات ولكنه توقف عن ذلك في مراحل معينة، ويبدو أن العلاقة الجنسية بينهما لم تكن موجودة في الأربعينيات، كانت توجد فقط في حال عدم وجود البديل الأفضل!

كان «سارتر» نموذجا مثاليا لما كان يسمي بالشوفينية الذكورية في الستينيات. كان هدفه هو أن يصنع لنفسه في الكبر جنة الطفولة الباكرة التي كان مركزها وسط تعريشه معطرة بحب النساء المعجبات به.

كان يفكر في النساء بأسلوب الانتصار والغزو، يقول في «الغثيان» :

«كانت كل نظرية من نظرياتي فعل غزو وامتلاك، وكنت أعتقد أنني بفضلها سوف أغزو العالم ذات يوم»، كان يريد كل الحرية لنفسه. وكتب: «كنت قبل كل شيء أحلم بتأكيد هذه الحرية ضد النساء»(٣٠) ، وعلى عكس غواة النساء المجربين لم يكن «سارتر» يكرههن، بل كان في الحقيقة يفضلهن على الرجال، ربما لأنهن كن أقل ميلا للجدل معه. كتب: «أفضل أن أتحدث عن أتفه الأشياء مع امرأة عن الحديث عن الفلسفة مع «آرون»(٣١). كان يحب كتابة الرسائل لهن، وبالعشرات يوميا. لم يكن يراهن كأفراد بل كعلامات انتصار يضيفها إلى حزام قنطوره★. أما محاولاته للدفاع عن سياسته في الغزو وتبريرها فلاتضيف سوى طبقة من الرياء. وهكذا كان يقول أنه يريد أن يقهر امرأة تماما كقولك أنك تريد أن تقهر حيوانا متوحشاً»، ولكن ذلك «كان لمجرد أن يحولها من وضعها الوحشي إلى وضع المساواة بالرجل» أو بالنظر إلى غزواته الباكرة كان يفكر في «عمق الاستعمار في ذلك كله»(٣٢). ولكن لا يوجد دليل على أن أفكارا كتلك حدث أن جعلته يبتعد عن صيد محتمل، كانت فقط للتاريخ !

عندما أغوي «سيمون دو بوڤوار» في البداية لخص لها فلسفته الجنسية. كان صريحا حيث قال لها

★ القنطور كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس.

عن رغبته أن ينام مع نساء كثيرات وأن عقيدته كانت «السفر، تعدد النساء، الشفافية».

في الجامعة كان أحد الزملاء قد لاحظ أن اسمها كان يشبه الكلمة الانجليزية «Beaver» والتي تقابل في الفرنسية كلمة «القندس» أو «السمور» «Castor». بالنسبة لـ «سارتر» كانت هي دائما «كاستور» أو حضرتك «Vous» لم يخاطبها أبدا بـ «أنت» «Tu»(٣٣)، يشعر المرء أحيانا أنه كان يعتبرها حيوانا جيد التدريب. كتب عن سياسته «لتأكيد» حريته ضد النساء: «قبلت كاستور تلك الحرية وحافظت عليها». أفهمها أن هناك نوعين من النشاط الجنسي (Sexuality): «الحب الضروري» و«الحب العارض»، والثاني ليس مهما لأنه يتم مع أطراف مؤقتة.

أما حبه لها فكان من النوع «الضروري» .. الدائم. كانت هي المركز ولم تكن طرفا من الأطراف. وبالطبع كانت لديها الحرية لكي تمارس نفس السياسة. كان يمكن أن يكون لها «أطرافها» هي الأخرى طالما أن «سارتر» يبقي هو المركز بالنسبة لها ويظل حبها الضروري، وكلاهما لابد أن يظهر الشفافية. وكانت تلك أيضا كلمة أخرى أو تسمية أخرى للعبة المثقفين المفضلة «المصارحة» الجنسية التي قابلناها عند «تولستوي» و«رسل». يقول «سارتر» إن كلا منهما كان عليه أن يخبر الآخر بما ينوي عمله، وكما كان متوقعا أدت سياسة الشفافية أو المصارحة في النهاية إلى إضافة طبقات أخرى من التخفي ربما أكثر سمكا. حاولت «دو بوڤوار» أن تمارسها ولكن آلمها أنه كان يقابل أخبار علاقاتها بلامبالاة. لقد ضحك مثلا عندما وصفت له كيف حاول «آرثر كوستلر» إغواءها، كما كتبت في كتابها عن النخبة المثقفة. هذا إضافة إلى أن الذين استدرجوا إلى سياسة المصارحة لم يحبوا ذلك دائما. أهم علاقة طرفية عندها وربما حب حياتها كان الروائي الأمريكي «نلسون ألجرن»، عندما كان في الثانية والسبعين وكان حبهما قد أصبح مجرد ذكرى، أعطي «ألجرن» مقابلة صحفية عبر فيها عن غضبه لأنها فضحت ما كان بينهما، وقال أن ذكرها ذلك في كتابها كان شيئا سيئا رغم أنها أعطته إسما آخر. ولكنها في الجزء الثاني من سيرتها الذاتية «ربيع العمر» لم تحدد اسمه فقط، وإنما اقتبست من رسائله إليها بحيث لم يكن أمامه سوى أن يعترف: «ياللجحيم! إن الرسائل الغرامية يجب أن تظل شأنا خاصا»، «لقد دخلت مواخير في جميع أنحاء العالم كانت النساء فيها يغلقن الأبواب سواء في كوريا أو الهند، ولكن هذه المرأة فتحت الباب على مصراعيه ودعت كل الناس والصحافة للفرجة»(٣٥). كان «ألجرن» غاضبا لسلوك «دو بوڤوار» لدرجة أنه أصيب بذبحة صدرية بعد انصراف الصحفي الذي كان يحاوره ومات في نفس الليلة.

«سارتر» أيضا كان يمارس المصارحة ولكن في حدود. في محادثاته ورسائله كان يخبرها بالنساء والبنات الجدد: هكذا: «هذه هي المرة الأولي في حياتي التي أنام فيها مع امرأة سمراء .. رائحة ... مشعرة .. زغب أسود في مستدق ظهرها .. جسد أبيض ... لسان مثل الزمارة لا يتوقف عن ... يتغلغل في أعماق حلقي ..»(٣٦٤)، ومن المؤكد أنه لا توجد امرأة مهما كانت «مركزيتها» في علاقة ما تتمنى أن تقرأ شيئا مثل ذلك عن إحدى منافساتها. عندما كان «سارتر» في «برلين» سنة ١٩٣٣ ولحقت به

لفترة قصيرة كان أول شيء يقوله لها أن له عشيقة جديدة «ماري ڤيل»، ومثل «شلي» كان لديه ميل طفولي أن يوافق الحب القديم على الحب الجديد ويرتضيه. ولكن «سارتر» لم يكن يقول كل شيء. كان قد أعطاها خاتم زواج تلبسه عندما كانت تعمل مدرسة في «الروين» في الثلاثينيات أو عندما عاشت معه في «برلين»، وكانت تلك أقرب المناسبات لفكرة الزواج.

كان لهما لغتهما الخاصة، وكانا يسجلان في الفنادق باسم السيد والسيدة «أورجاناتيك» أو السيد والسيدة «مورجان هاتيك» المليونير الأمريكي، ولكن لا يوجد أي دليل على أنه كان يريد أن يتزوجها أو أنه أعطاها الخيار لعلاقة أكثر رسمية. كما أنها لا تعرف أنه عرض الزواج على كثير من علاقاته الطرفية في ظروف عدة.

وواضح أن الحياة التي عاشاها معا كانت تسير ضد ميولها وعلى غير رغبتها. لم تستطع «دو بوڤوار» أن توطن نفسها على قبول عشيقاته برباطة جأش. كانت مستاءة من «ماري ڤيل»، وأكثر استياء من التي تلتها ..«أولجا كوزاكيفتش»، والأخيرة كانت إحدى شقيقتين («واندا».. الأخرى أصبحت أيضا عشيقة له) وإحدي تلميذات «دو بوڤوار» لكي يزداد الطين بلة. كانت «دو بوڤوار» تكره علاقته بـ «أولجا» جدا لدرجة أنها وضعتها في رواية لها .. «الضيف» وقتلتها(٣٧). وتعترف في سيرتها الذاتية : «تضايقت من «سارتر» لأنه خلق هذا الموقف، ومن «أولجا» لأنها استغلته»، وردت على ذلك «لم يكن لدي النية أن أتنازل عن تلك المنزلة الممتازة التي كنت أحتلها دائما .. وهي أن أكون في قلب قلب الكون»(٣٨). ولكن أي امرأة تشعر بالاضطرار لأن تشير إلى حبيبها بأنه «قلب قلب الكون» لا يمكن أن تكون في وضع قوي يمكنها من إيقاف انحرافه عنها. كل ما فعلته هو أنها حاولت أن تتحكم في انحرافاته بشكل من المشاركة. كان الثلاثة : «سارتر» و«سيمون» و«الأخرى» ـ التي كانت غالبا إحدى تلميذاته أو تلميذاتها ـ يشكلون أضلاع مثلث، و«بوڤوار» في موضع الإشراف عليه. كان اصطلاح «التبني» هو المستخدم دائما. في أوائل الأربعينيات كان «سارتر» قد أصبح مشهورا بإغواء تلميذاته، وفي نقد عدائي لمسرحيته «جلسة سرية» كتب الناقد «روبرت فرانسيس» : «من منا لا يعرف السيد «سارتر» إنه مدرس فلسفة غريب الأطوار متخصص في دراسة الملابس الداخلية لتلميذاته»(٣٩)، ولكن حيث أن «سيمون» كانت تقوم بالتدريس لبنات «أفضل»، كانت معظم ضحايا «سارتر» من بينهن. بل يبدو أنها كانت قريبة ـ أحيانا ـ من دور القوّادة، ولأنها كانت مملوءة بالرغبة في ألا تكون مستبعدة من مجال حبه، عقدت صداقات حميمة مع البنات ـ إحداهن كان اسمها «ناتالي سوروكين» ابنة روسي في المنفي وكانت أفضل تلميذات «دو بوڤوار» في «ليسيه موليير» في «پاسي» التي كانت تقوم بالتدريس بها أثناء الحرب، في عام ١٩٤٣ اتهم والد الفتاة «سيمون دو بوڤوار» رسميا باختطاف ابنته القاصر، وهي مخالفة جنائية كبيرة تمخضت عن حكم بالسجن. وبعد تدخل من أصدقاء مشتركين أسقطت التهمة الجنائية، ولكن «سيمون» منعت من التدريس في الجامعة، كما سحب منها الترخيص بالتدريس في أي مكان في فرنسا طوال حياتها(٤٠).

أثناء الحرب كانت «سيمون» أقرب إلى أن تكون زوجة فعلية له : تطبخ وتخيط الملابس وتغسل وتدبر أموره المالية، ولكن في نهاية الحرب وجد نفسه غنيا فجأة، محاطا بالنساء اللائي جذبهن بريقه الثقافي وشهرته الواسعة.

كانت سنة ١٩٤٦ أفضل سنوات صولاته وجولاته النسائية، وهي التي كانت بالفعل نهاية علاقته الجنسية بـ «سيمون» : «في مرحلة باكرة نسبيا» ـ كما يقول چون ويتمان ـ «قبلت «سيمون» ضمنا بدور الزوجة القديمة المتقاعدة جنسيا على الهامش بين حريمه»(٤١). كانت تزمجر بسبب «الأموال التي ينفقها عليهن»(٤٢)، وكانت تلاحظ بقلق أنه كلما تقدم في السن كان يميل إلى البنات والنساء الأصغر سنا (١٧ ـ ١٨ سنة)، وكان يتكلم عن «التبني»، بالمعنى القانوني، أي أن يرثن حقوق نشر أعماله. وكانت هي تقدم لهن النصح والتحذير كما كانت تفعل «ويجل» مع بنات ونساء «برخت» رغم أنها لم تكن تتمتع بنفس الوضعية القانونية للمرأة الألمانية.

كان «سارتر» يكذب عليها باستمرار. عندما كان في زيارة لأمريكا في ١٩٤٦، ٤٧، ١٩٤٨ كان يصلها تقرير مفصل عن علاقته المتقدة بسيدة اسمها «دولوز»، وبينما كان يقول لها أنه قد «سئم تلك العاطفة المرهقة» كان في الحقيقة يعرض عليها الزواج. ثم كانت هناك «ميشيل» زوجة «بوريس ڤيان» : «البيضاء كالعسل»، و«واندا» الجميلة شقيقة «أولجا» و«ايڤيلين راي» الممثلة الشقراء الغريبة التي كتب لها دورا في آخر مسرحياته «سجناء ألطوانا»، كما كانت هناك «آرليت» التي كانت في السابعة عشرة عندما التقطها ـ أكثر من كانت تكرههن «سيمون» ـ و«هيلين لا سيثيو تاكيس» الفتاة اليونانية الصغيرة. وفي وقت ما في أواخر الخمسينيات كان يقيم علاقة مع أربع عشيقات في وقت واحد : «ميشيل» و«آرليت» و«ايڤيلين» و«واندا» بالإضافة إلى «سيمون» وكان يخدعهن جميعا على نحو أو آخر.

أهدي كتابه «نقد العقل الجدلي» ـ ١٩٦٠ ـ علنا إلى «سيمون»، ولكنه طلب من ناشره «جاليمار» أن يطبع نسختين سرا مع إهداء إلى «واندا». وعندما صدرت سجناء «ألطونا» أخبر كلا من «واندا» و«ايڤيلين» أن الكتاب كان مهدى لها.

أحد أسباب كراهية «سيمون» لأولئك الشابات هو أنها كانت تعتقد أنهن يشجعنه على حياة الإسراف والتطرف، ليس في الجنس فقط وإنما في الكحول والمخدرات. أنجز «سارتر» كما كبيرا من الكتابة والأعمال الأخري بين عامي ١٩٤٥ ـ ١٩٥٥ ـ، ولكي يستطيع ذلك كانت كمية ما يتعاطاه من كحوليات ومخدرات تتزايد باستمرار. أثناء زيارة له لـ «موسكو» سنة ١٩٤٥ سقط من فرط الشراب وحملوه إلى المستشفى. ولكنه بمجرد أن يفيق من سكره كان يكتب مرة أخرى ثلاثين أو أربعين صفحة في اليوم ويتعاطي غالبا أنبوبة كاملة من حبوب «الكوريدران» لكي يواصل، (وهو عقار سحب من الأسواق في سنة ١٩٧١ لخطورته) ويبدو أن كتاب نقد العقل الجدلي قد كتب تحت تأثير الكحول والمخدرات، تقول «آني كوهين سولال» كاتبة سيرته أنه عادة ما كا بشرب ربع جالون من النبيذ أثناء غذاء قد يستمر

ساعتين سواء في «ليب» أو «كوپول» أو «پالزار» أو أي مأوى مفضل. وتحسب له الجرعات التي يتعاطاها يوميا في تلك الفترة بأنها تحتوي على : علبتي سجائر، عدة حشوات من التبغ الأسود للپايپ، ربع جالون من الكحول (وهي بشكل أساسي الويسكي والڤودكا والنبيذ والبيرة)، ٢٠٠ مللجرام من الأمفيتامين و١٥ جرام من الأسبرين، كمية كبيرة من المسكنات ... وهذا كله بالإضافة إلى الشاي والقهوة(٤٣).

والحقيقة أن «سيمون» لم تكن منصفة في معاملتها للعشيقات الصغيرات. كن جميعا يحاولن إصلاحه، وكانت «آرليت» ـ وهي أصغرهن ـ هي الأكثر حرصا على ذلك لدرجة أنها انتزعت منه ذات يوم تعهدا مكتوبا بأنه لن يقرب «الكوريدران» ولا التبغ ولا الكحول .. ولكنه أخل بذلك التعهد في الحال!

ولأنه كان معظم الوقت محاطا بالمعجبات ـ رغم نكده ـ كان للرجال في حياته وقت قليل. توالى على العمل في السكرتارية معه أكثر من رجل، كان بعضهم ذا قدرات عالية مثل «چان كاو»، كما كان يحيطه باستمرار مجموعة من المثقفين الشباب من الذكور، ولكن هؤلاء جميعا كانوا يعتمدون عليه ماديا سواء في الانفاق عليهم أو رعايتهم. أما الذي لم يكن ليستطيع هضمه طويلا فهو ذلك النوع من المثقفين الذكور الذين كانوا في مثل سنه أو مستواه، الذين يستطيعون الرد على أطروحاته في أي وقت، والتي غالبا ما كانت طنانة وغير دقيقة. كان «نيزان» قد قتل قبل أن تحدث قطيعة بينهما، ولكنه تشاحن مع الآخرين جميعا : «ريموند آرون» (١٩٤٧)، «آرثر كوستلر» (١٩٤٨)، «ميرلوبور» (١٩٥١)، «كامو» (١٩٥٢)، وأولئك فقط هم الأشهر. كانت خصومته مع «كامو» عنيفة مثل خصومة «روسو» مع «ديدرو» و«ڤولتير» و«هيوم» أو «تولستوي» مع «تورجنيف». وعلى عكس الحالة الأخيرة لم تسؤ الأمور.

ويبدو أن «سارتر» كان يغار من وسامة «كامو» ـ التي جعلته جذابا بالنسبة للنساء ـ ومن قدرته وأصالته كروائي. كانت رواية «الطاعون» التي نشرت في يونيو ١٩٤٧ قد أحدثت أثرا كبيرا بين الشباب وبيع منها ٣٥٠,٠٠٠ نسخة في وقت قصير. وبعد نقد أيديولوجي لها في «الأزمنة الحديثة» استمرت الصداقة بينهما ولكن على نحو غير مريح. وعندما انحرف «سارتر» ناحية اليسار أصبح «كامو» أكثر استقلالية وكان على نحو ما يحتل نفس مكانة «چورچ أورويل» في بريطانيا تقريبا : وضع نفسه ضد كل الأنظمة السلطوية وأصبح يرى «ستالين» شريرا بنفس مستوى «هتلر». و«كامو» مثل «أورويل» ـ بعكس «سارتر» ـ كان يعتقد أن الناس أهم من الأفكار. تقول «سيمون دو بوڤوار» أنه قال لها فيما بينهما في سنة ١٩٤٦ : «الشيء المشترك بيني وبينك هو أن الأفراد عندنا أهم من أي شيء آخر. نحن نفضل المحسوس على المجرد، والناس عن الأفكار، ونقدم الصداقة على السياسة»(٤٥).

ربما كانت «سيمون» مقتنعة بذلك في داخلها، ولكن عندما جاءت القطيعة الأخيرة بسبب كتاب «كامو» : «الإنسان المتمرد» (١٩٥١ ـ ١٩٥٢) انحازت بالطبع لمعسكر «سارتر».

وجد «سارتر» وكهنته في «الأزمنة الحديثة» أن الكتاب هجوم على الستالينية فقرروا التصدي له على

مرحلتين. في المرحلة الأولى صدَّر «سارتر» كاتبا شابا في التاسعة والعشرين هو «فرانسيس چانسون» ليكتب عن الكتاب، وقال في اجتماع التحرير أنه «سيكون الأشد قسوة ولكنه على الأقل سيكون مهذبا»، ثم عندما رد «كامو» كتب «سارتر» نفسه هجوما طويلا وسيئا يتناول «كامو» شخصيا : «لقد تملكتك دكتاتورية مظهرية عنيفة، مدعومة ببيروقراطية غريبة تتظاهر أنها تحكم بناء على قانون أخلاقي»، وأنه كان «يعاني من كبرياء جريح»، وقد انغمس في «معركة مع كاتب صغير»، .. «إن جمعك بين الغرور الكئيب وعدم تحملك للنقد كانا دائما لا يشجعان الناس على مواجهتك بالحقيقة دون تزويق»(٤٦). في ذلك الوقت كان اليسار كله وراء «سارتر»، وسبَّب الهجوم ضررا بالغا لـ «كامو» وربما أذاه ـ كان رجلا سريع التأثر ـ وكان أحيانا يصاب بالاكتئاب بسبب القطيعة مع «سارتر»، وفي أحيان أخرى كان يراه إنسانا مهرجا : «رجل مازالت أمه تسدد عنه ضريبة الدخل».

إن عدم قدرة «سارتر» على الحفاظ على صداقة أي شخص من مستواه الثقافي أو الفكري قد يساعد على فهم عدم ترابط وتماسك أفكاره السياسية وطيشها أحيانا، والحقيقة أن «سارتر» لم يكن حيوانا سياسيا بطبعه، وفي الحقيقة أيضا أنه لم يعتنق أية آراء ذات أهمية قبل الأربعين، وبمجرد أن فارق أمثال «كوستلر» و«آرون» ـ كلاهما كان قد نضج سياسيا في أواخر الأربعينيات ـ أصبح «سارتر» يمكن أن يمنح تأييده لأي شخص وأي شيء.

في سنة ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ وبعد أن أصبح واثقا جدا من مكانته بين الشباب، كان مترددا في اختيار الحزب الذي يؤيده، ويبدو أنه كان يعتقد أن من واجب المثقف الأخلاقي أن يساند «العمال»، والمشكلة أن «سارتر» لم يعرف ولم يبذل أي جهد ليقابل «أي عمال» غير سكرتيره اللامع «چان كاو»، والذي كان من أصل پروليتاري ولكنه كان يعتبره من العمال.

أليس من واجبه إذن أن يساند الحزب الذي يسانده معظم العمال ؟ في الأربعينيات بفرنسا كان ذلك يعني «الشيوعيون» ولكن «سارتر» لم يكن ماركسيا، بل إن الماركسية في الحقيقة كانت هي النقيض للفلسفة شديدة الفردية التي كان يبشر بها.

ورغم ذلك لم يستطع أن يدين الحزب الشيوعي أو الستالينية أواخر الأربعينيات، وهو أحد أسباب خلافه مع «آرون» و«كوستلر».

كتب تلميذه السابق «چان كاناپا» ـ وكان قد أصبح مثقفا شيوعيا بارزا ـ يقول : «إنه حيوان خطر يحب أن يلهو بالماركسية، لأنه لم يقرأ «ماركس» ومعلوماته عنها قليلة»(٤٧).

الخطوة الإيجابية الوحيدة له هي أنه ساعد على تنظيم حركة معارضة للحرب الباردة بين اليسار غير الشيوعي في فبراير ١٩٤٨ باسم : التجمع الثوري الديمقراطي (RDR)، كان يسميها «الدولية العقلية»، تهدف إلى تجنيد مثقفي العالم، وموضوعها الوحدة الأوربية. وفي كلمة له في يونيو ١٩٤٨

كان ينادي : «ياشباب أوروبا، سوف يخلق هذا الجيل الجديد الديمقراطية»(٤٨).

ولو أن «سارتر» حقيقة كان يريد أن يلعب بالورقة الأوربية ويصنع التاريخ لكان قد دعم «چان مونيه» الذي كان آنذاك يرسي أسس التحرك الذي سوف يتجه إلى الوحدة الأوربية بعد ذلك بعشر سنوات، ولكن ذلك كان يعني الاهتمام الكبير بتفاصيل اقتصادية وإدارية كثيرة، الأمر الذي كان «سارتر» يراه مستحيلا. وبالضبط كما رآه رفيقه في تنظيم الـ (RDR) «ديڤيد روسيت» : لا فائدة منه «ورغم بعد نظره كان يعيش في عالم منعزل تماما عن الواقع».

يقول «روسيت» : «كان منغمسا جدا في اللعب بالأفكار وتحريكها، ولكنه كان قليل الاهتمام بالأحداث الفعلية». «كان «سارتر» يعيش الوهم». عندما عقد أول مؤتمر عام للحزب في يونيو ١٩٤٩ لم يجدوه في أي مكان. كان في المكسيك مع «دولوز» يحاول إقناعها بالزواج منه. انتهت الـ (RDR) ببساطة وحول اهتمامه المتذبذب إلى حركة «جاري ديڤز» العبثية : «مواطني العالم» . كان الروائي المستقل والكاثوليكي الساخر «فرانسوا مورياك» يقدم نصائحه العلنية لـ «سارتر» مرددا كلمات صديقه «روسو» الساخرة : «على فيلسوفنا أن يستمع إلى صوت العقل ويترك السياسة ويدرس الرياضيات»(٤٩).

ولكن «سارتر» بدلا من ذلك تبني قضية «چان چينيه» اللص الشاذ، ذلك المحتال الذي كان يروق للجانب الساذج من طبيعة «سارتر» والذي كان يبحث عن بديل للإيمان الديني. كتب عن «چينيه» كتابا ضخما وغريبا (٧٠٠ صفحة) كان فى حقيقته احتفالا بالتناقض والفوضي والانحلال الجنسي. وفي رأي العقلاء من أصدقائه كانت تلك هي النقطة التي توقف عندها «سارتر» بدل أن يكون مفكرا منهجيا جادا، وتحول إلى مثقف إثارة(٥٠). والغريب أن «سيمون» التي كانت أكثر عقلانية والتي كانت تبدو وتلبس وتفكر مثل مدرِّسة قديمة لم تستطع أن تفعل الكثير لإنقاذه من تلك الحماقات، إلا أنها كانت حريصة على الاحتفاظ بحبه وبمكانها في بلاطه وكانت تشعر بالقلق لإسرافه في الشرب والمخدرات، ولكي تحتفظ بثقته كانت تشعر أنها لابد أن تستمر معه، لذلك كانت تمثل الصدى بالنسبة له أكثر منها ناصحة أمينة وأخذت العلاقة بينهما هذا الشكل، كانت تدعم أحكامه السيئة وتدشن حماقاته فهي مثله أيضا لم تكن حيوانا سياسيا، وفي وقت ما كانت تدلي بنفس الهراء عن الأحداث العالمية.

في سنة ١٩٥٢ حسم «سارتر» تردده بشأن الحزب الشيوعي وقرر أن يسانده، وكان ذلك من منطلق عاطفي وليس عقلانيا، وقد وصل إلى هذا القرار عبر تورطه في حملتين دعائيتين للحزب.

قضية «هنري مارتن» الذي كان جنديا في البحرية وسجن لرفضه المشاركة في الحرب الهندية الصينية، وعملية القمع الوحشية التي قام بها للتمرد الذي نظمه الحزب الشيوعي ضد القائد الأمريكي لحلف شمال الأطلنطي الجنرال «ماثيو ريدچواي»(٥١).

وكما كان يرى كثيرون في ذلك الوقت فإن حملة الحزب الشيوعي للإفراج عن «مارتن» أدت إلى

أن تحتفظ السلطات به في السجن أطول مما قرروا، ولكن الحزب الشيوعي لم يعبأ بذلك ـ فقد كان اعتقاله يخدم أغراضهم ـ ولكن «سارتر» كان يجب أن يكون أذكى من ذلك.

وينكشف لنا تفكيره السياسي من اتهامه لرئيس الوزراء «أنطوان بيناي» ـ أحد قدامى البرلمانيين المحافظين ـ بأنه كان يقيم دكتاتورية(٥٢).

لم يبد «سارتر» أبدا أي اهتمام أو معرفة حقيقية ـ دعك من الحماس ـ للديمقراطية البرلمانية، ولم يكن أبدا يقصد بكلامه عن الحرية أن يكون للمرء صوت انتخابي في مجتمع متعدد الأحزاب .. ولكن ماذا كان يقصد إذن ؟ وهو سؤال الإجابة عنه أكثر صعوبة.

لم يكن هناك أي معني منطقي بالمرة لأن ينحاز «سارتر» إلى الشيوعيين في سنة ١٩٥٢، في نفس الوقت الذي كان الشيوعيون الآخرون يتركون فيه الحزب الشيوعي جماعات لأن جرائم «ستالين» كانت موثقة ومنشورة في أنحاء الغرب، هكذا وجد «سارتر» نفسه يقف على رأسه فلزم صمتا مريبا إزاء جرائم «ستالين»، وكان دفاعه عن هذا الصمت تناقضا صارخا مع البيان الذي نشره في «الأزمنة الحديثة» : «بما أننا لم نكن أعضاء في الحزب أو عاطفين مجاهرين، فلم يكن من واجبنا أن نكتب عن معسكرات العمل السوفيتية، كنا أحرارا في أن نبقى بمنأى عن الجدل حول طبيعة ذلك النظام، طالما لم تقع أي أحداث ذات طبيعة اجتماعية»(٥٣). هكذا كان يقول ويجادل ولكن بصوت خافت.

كما أجبر نفسه على الصمت إزاء المحاكمات التي عقدت في «براغ» لـ «سلانسكي» وغيره من الشيوعيين اليهود التشيك، والأسوأ من ذلك أنه ارتضى لنفسه أن يكون دبا يمثل في ذلك المؤتمر العبثي الذي عقدته حركة السلام الشيوعية العالمية في «ڤيينا» في ديسمبر ١٩٥٢، وكان معنى ذلك الإذعان لـ «فادابيف» الذي كان قد وصفه بـ «ابن آوى» وبـ «الضبع»، عندما قال أمام الوفود أن أهم ثلاثة أحداث في حياته كانت : الجبهة الشعبية في ١٩٣٦ والتحرير و«هذا المؤتمر» ـ وهي كذبة واضحة ـ ولا تقل عن إلغاء عرض مسرحيته القديمة المعادية للشيوعية «الأيدي القذرة» في «ڤيينا» بأوامر من زعماء الحزب الشيوعي(٥٤).

وبعض الأشياء التي كان يفعلها أو يقولها خلال السنوات الأربع التي أيد فيها الحزب الشيوعي تستعصي على التصديق، فهو مثل «رسل» يذكرنا بتلك الحقيقة المؤلمة في قول «ديكارت» : «لا يوجد شيء مغرق في العبث أو عصي على التصديق لم يؤكده فيلسوف ما».

في شهر يوليو ١٩٥٤ وبعد زيارة لروسيا، أعطى مقابلة استمرت ساعتين لمراسل من «الليبراسيون»، وتعتبر أكثر الشهادات بؤسا ومذلة عن الدولة السوفيتية من جانب مفكر غربى مهم منذ رحلة «برنارد شو» سيئة الذكر في أوائل الثلاثينيات(٥٥).

قال «سارتر» إن المواطنين السوفيت لا يسافرون إلى الخارج لا لأنهم ممنوعون، بل لأنهم لا يحبون ترك

بلادهم الرائعة .. كما أكد «.. المواطنون السوفيت يوجهون النقد لحكومتهم أكثر وبأشد مما نفعل»، بل كان يقول : «هناك حرية تامة للنقد في الاتحاد السوفيتي»، وبعد سنوات طويلة كان يعترف بهذا الكذب : «لقد كذبت بعد زيارتي الأولى للاتحاد السوفيتي في سنة ١٩٥٤، وربما تكون «الكذب» كلمة صعبة في الحقيقة، ولكن الذي حدث هو أنني كتبت مقالا قلت فيه بعض الأشياء الودية والمجاملة عن الاتحاد السوفيتي لم أكن أؤمن بها، وقد فعلت ذلك لأنني أعتبرت أنه ليس من اللياقة أن تسيء إلى مضيفك بمجرد أن تعود إلى بلدك، وكذلك لأنني لم أكن أعرف بالفعل أين أقف بالنسبة للاتحاد السوفيتي وأفكاري الخاصة»(٥٦). وكان ذلك اعترافا غريبا من «الزعيم الروحي لآلاف الشباب» هذا إلى جانب ما فيه من تضليل وزيف، حيث أن «سارتر» كان منحازا إلى مبادىء الحزب الشيوعي في ذلك الوقت بكل طواعية ووعي، ورحمة به لابد أن نسحب الغطاء على بعض أفعاله وأقواله في الفترة من ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦.

وعند هذا التاريخ الأخير كانت سمعة «سارتر» العامة سواء في «فرنسا» أو خارجها قد تدهورت، ولم يكن من الممكن أن يلاحظ هو ذلك، تلقى أنباء الغزو السوفيتي للمجر بارتياح شديد، ووجد في ذلك سببا ـ أو على الأقل عذرا ـ للقطيعة مع «موسكو» والحزب الشيوعي. وجد في الحرب الجزائرية التي كانت في بدايتها ـ خاصة بعد عودة «ديجول» للسلطة ـ سببا جيدا لاستعادة مكانته بين اليسار المستقل خاصة الشباب، وكانت هذه المناورة حقيقية وحققت بعض النجاح. كانت الحرب الجزائرية «جيدة» بالنسبة له، كما كانت الحرب العالمية الثانية. وعلى العكس من «رسل» لم ينجح في أن يجعل السلطات تلقي القبض عليه رغم محاولاته المستميته. أقنع بعض المثقفين في سبتمبر ١٩٦٠ بالتوقيع على بيان يؤكد «حق العصيان (بالنسبة للمدنيين والعسكريين) ورفض المشاركة في الحرب الجزائرية»، كان يمكن أن تسجنه حكومة الجمهورية الرابعة، ولكن في عهد الخامسة كانت الأمور أكثر تعقيدا حيث كان يسيطر عليها اثنان من ذوي الثقافة والفكر : «ديجول» نفسه و«أندريه مالرو». قال «مالرو» : «من الأفضل أن نترك «سارتر» يزعق : «يحيا الإرهاب» في ساحة الكونكورد عن أن نلقي القبض عليه ونزعج أنفسنا»، أما «ديجول» الذي كان يتذكر قضايا «فرانسوا فيلون» و«ڤولتير» و«رومان رولان» فقال للحكومة أن من الأفضل عدم التعرض للمثقفين «أولئك الناس سببوا متاعب كثيرة في زمنهم، ولكن من الضروري أن نظل على احترامنا لحرية التفكير والتعبير طالما أن ذلك لا يتعارض مع قوانين الدولة والوحدة الوطنية»(٥٧).

قضى «سارتر» معظم وقته في الستينيات في الأسفار إلى الصين و«العالم الثالث»، كان الجغرافي «ألفريد سوڤي» هو الذي اخترع هذا الاصطلاح ولكن «سارتر» هو الذي نشره.

وأصبح هو و«سيمون» شخصيتين مألوفتين، تظهر صورهما مع زعماء آسيا وأفريقيا ـ هو يرتدي بدل وقمصان العالم الأول، وهي ثياب المعلمات المحبوكة وتعطيها الحيوية تنورات وأوشحة عرقية»، وما كان يقوله «سارتر» عن الأنظمة التي كانت توجه إليه الدعوة لزيارتها لم يخرج عن الثناء الذي كان يكيله لـ

«روسيا ستالين»، ولكنه كان مقبولا إلى حد ما.

قال عن «كوبا كاسترو» : «البلد الذي خرج من الثورة الكوبية بلد ديمقراطي»، وعن «يوغوسلافيا تيتو» : «فلسفتي وقد تحققت»، وعن «مصر عبد الناصر» : «حتى الآن كنت أرفض أن أتكلم عن الاشتراكية فيما يتعلق بالنظام المصري، والآن أدرك أنني كنت مخطئا».

كان شديد الحماس في مديحه للصين بقيادة «ماو»، وكان صاخبا في إدانة «جرائم الحرب» في ڤيتنام، وشبَّه أمريكا بالنازية (ولكنه آنذاك كان يشبِّه «ديجول» بالنازي ناسيا أن «الجنرال» كان يحاربهم بينما كانت مسرحياته هو تعرض في باريس المحتلة).

كان «سارتر» و«سيمون دو بوڤوار» ضد أمريكا على طول الخط : في سنة ١٩٤٧ وبعد زيارة لها كتبت «سيمون» مقالا في «الأزمنة الحديثة» جاء حافلا بالأخطاء الهجائية الفادحة في أسماء الأشخاص والأماكن، وكانت تؤكد فيه أن الأغنياء فقط هم المسموح لهم بدخول المحلات في الشارع الخامس، وكانت كل معلوماتها غير صحيحة تقريبا، فكان مثار سخرية وتفنيد من «ماري مكارثي»(٥٨). والآن في الستينيات كان «سارتر» يقوم بدور قيادي في محكمة جرائم الحرب التي أقامها «رسل» في «ستوكهولم»، ولكن شيئا من كل ذلك النشاط الفارغ لم يكن له أي أثر في العالم. بل كان يفسد أثر أي شيء جاد كان عليه أن يقوله. إلا أنه كان هناك جانب أكثر فسادا في النصح الذي كان يقدمه «سارتر» للمعجبين به في العالم الثالث. رغم أنه شخصيا لم يكن رجل أفعال إلا أنه كان يشجع الآخرين على الفعل، وكان الفعل يعني العنف ـ من تشنيعات «كامو» الموجعة عليه أنه كان رجلا يحاول أن يصنع التاريخ وهو جالس في مقعده.

أصبح نصيرا للمُنَظِّر الأفريقي «فرانز فانون» الذي لابد أن يسمى بمؤسس التمييز العنصري الأفريقي الأسود الحديث، وكتب له مقدمة إنجيله عن العنف : كتاب «معذبو الأرض» ـ ١٩٦١ ـ وهي مقدمة أكثر تعطشا للدماء من الكتاب نفسه. كتب «سارتر» يقول : أن الرجل الأسود «عندما يقتل إنسانا أوروبيا فهذا يعني أنه يضرب عصفورين بحجر واحد، إنه يدمر الإنسان الذي يضطهده، كما يدمر في نفسه الإنسان المضطهد في ذات الوقت»، كان ذلك تحديثا للوجودية : تحرير الذات من خلال القتل. كان «سارتر» هو الذي اخترع ذلك التكنيك اللفظي (المأخوذ من الفلسفة الألمانية) عندما عرَّفَ النظام القائم ووصفه بأنه «عنيف» : (العنف المؤسسي)، وبذلك يبرر القتل كوسيلة لقلبه. كان يؤكد : «المشكلة الأساسية بالنسبة لي هي رفض النظرية التي تقول أن اليسار لا ينبغي أن يواجه العنف بالعنف»(٥٩). لاحظ أنه لا يقول : «المشكلة»، بل «المشكلة الأساسية»، وحيث إن كتاباته كانت منتشرة على نطاق واسع خاصة بين الشباب فقد أصبح الأب الروحي الأكاديمي لكثير من الحركات الإرهابية التي بدأت تظلم المجتمع منذ أواخر الستينيات وما بعدها، ولكن الذي لم يتنبأ به والذي كان لابد أن يراه أي إنسان عاقل، هو أن معظم العنف الذي كان يمنحه دعمه الفلسفي لن يكون من قِبَل السود تجاه البيض وإنما

تجاه سود آخرين، وبمساعدته لـ «فانون» على إشعال أفريقيا فقد ساهم في الحروب الأهلية والمذابح الجماعية التي اجتاحت تلك القارة منذ منتصف الستينيات وإلى الآن. أما تأثيره على جنوب شرق آسيا حيث كانت حرب ڤيتنام تقترب من نهايتها فكان أكثر ضررا. كانت الجرائم البشعة التي ارتكبت في «كمبوديا» من ابريل ١٩٧٥ وبعد ذلك والتي تضمنت وفيات ما بين خمس إلى ثلث السكان، من تدبير مجموعة من مثقفي الطبقة المتوسطة الفرانكفونيين، تعرف باسم «انجكاليو» أو المنظمة العليا، وكان بين قادتها الثمانية خمسة مدرسين وأستاذ في الجامعة وموظف ورجل اقتصاد، وكانوا جميعا قد درسوا في «فرنسا» في الخمسينيات، ولم يكونوا أعضاء في الحزب الشيوعي فقط ولكنهم أيضا كانوا قد استوعبوا أفكار «سارتر» عن الفعالية الفلسفية و«العنف الضروري» .. وكانت تلك المذابح الجماعية بنات أفكاره أو أطفاله الأيديولوجية !

أفعال «سارتر» الخاصة في السنوات الخمس عشرة الأخيرة من حياته لم تضف كثيرا، ومثل «رسل» تقريبا حاول مستميتا أن يظل في الواجهة . في ١٩٦٨ انحاز إلى الطلاب كما كان شأنه منذ اشتغاله بالتدريس ولكن الذين خرجوا من أحداث ١٩٦٨ بصورة حسنة كانوا قلة قليلة (كان «ريموند آرون» استثناء مهما في فرنسا)(٦٠)، ولذلك لا يستحق أداء «سارتر» هنا أن يوجه إليه لوم كبير. في مقابلة مع راديو «لوكسمبرج» وجه التحية لمتاريس الطلاب : «العنف هو الشيء الوحيد الباقي أمام الطلاب الذين لم ينضوا في منظومة آبائهم بعد ... وحتى الآن فإن الطلاب يمثلون القوة الوحيدة المضادة للمؤسسة في بلادنا الغربية المترهلة، ومن شأنهم أن نقدم لهم النصح في هذا الخصوص»(٦١). وكان ذلك تصريحا غريبا من رجل أمضي ثلاثين عاما ينصح الشباب ماذا يفعلون ! كانت هناك حماقات أخرى، كان يقول للشباب : «إن أهم شيء في عملكم أنه يحول الخيال إلى قوة»، وكانت «سيمون» على نفس الدرجة من الحماس.. من بين الشعارات المتهورة التي كان الطلاب يكتبونها على جدران «السوربون» كان يعجبها شعار «المنع ممنوع»، كما هبط «سارتر» بمستواه لكي يجري مقابلة مع الزعيم الطلابي «دانيل كوهين» ـ الذي لم يستمر طويلا ـ وينشرها على حلقتين في «نوڤيل أوبرزر ڤاتير». كان يشعر بأن الطلاب «على حق مائة بالمائة» طالما أن النظام الذي كانوا يحاولون تحطيمه هو «سياسة الجبن .. دعوة للقتل». كرس أكثر من مقال للهجوم على صديقه السابق «آرون» الذي لم يكن في ذلك الوقت مشغولا بتلك الحماقات(٦٢).

ولكن «سارتر» لم يكن بقلبه في هذا الهذر، كانت حاشيته من الشباب هم الذين يدفعونه ليكون له دور نشط. عندما ظهر يوم ٢٠ مايو في مدرج «السوربون» ليخطب في الطلبة، بدا رجلا مسنا مرتبكا وسط الأضواء الساطعة والدخان، وكانوا ينادونه بـ «چان پول» وهو شيء لم يكن يجرؤ عليه أحد من كهنته قبل ذلك.

لم يكن للكلمة التي ألقاها معنى مهما وأنهاها بقوله : أترككم الآن .. أنا مرهق، وإن لم أتوقف الآن

فقد أنتهي إلى قول أشياء بلهاء»، وعندما ظهر للمرة الأخيرة أمام الطلاب في ١٠ فبراير ١٩٦٩ كان شديد الارتباك حيث سلموه في يده قبل أن يبدأ كلامه توجيها وقحا من زعماء الطلبة : «سارتر .. أوضح .. اختصر .. لدينا أشياء كثيرة نريد مناقشتها وإقرارها»، كان ذلك نوعا من التوجيه لم يعتد على تلقيه ولا كان يقدر على اتباعه(٦٣). في هذا الوقت كان قد أصبح لديه اهتمام جديد. وهو مثل «تولستوي» و«رسل» كانت فترات اهتمامه بالأشياء لا تستمر طويلا. لم يدم اهتمامه بحركة الطلاب أكثر من سنة، وربما أقل. بعد ذلك جاءت محاولة قصيرة ـ أيضا ـ ولكنها أكثر شذوذا وهي «الانحياز للعمال» الذين كتب عنهم كثيرا ولم يفهمهم أبدا طوال حياته. في ربيع ١٩٧٠ جرت محاولة متأخرة من قبل اليسار المتطرف لتطبيق ثورة «ماو» الثقافية العنيفة في أوروبا. كانت الحركة تسمى «اليسار البروليتاري» ووافق «سارتر» على الانضمام إليها وأصبح ـ نظريا ـ رئيس تحرير صحيفتها «قضية الشعب»، وكان ذلك أساسا لكي يمنع الشرطة من مصادرتها. كانت أهدافها شديدة العنف حتى بذوق «سارتر» ـ طالبت بسجن مدراء المصانع وجلد نواب البرلمان ـ ولكنها كانت خيالية وطفولية ومعادية للثقافة. وفي الحقيقة لم يكن لـ «سارتر» مكان فيها، ويبدو أنه شعر بذلك فكان يقول : لو كان عليَّ أن ألتحم بهؤلاء الثوار فمن الضروري أن يدفعوني أمامهم على كرسي له عجل . وسوف أكون عقبة في طريقهم»، ولكنه كان مدفوعا بواسطة الشباب، وفي النهاية لم يستطع أن يقاوم إغراءات المظهر السياسي.

وهكذا اعتادت «باريس» على منظره الغريب وهو في السابعة والستين (وهو الذي كان «ديجول» يناديه بـ «الأستاذ العزيز» رغم ضيق «سارتر» به) يبيع صحف الكتابة الفجة في الشوارع ويوزع المنشورات على المارة المتضجرين. وقد التقطت له صورة على هذا النحو في «الشانزليزييه» في ٢٦ يونيو ١٩٧٠ مرتديا «سويتر» أبيض وسترة رياضية وبنطلونا واسعا. حاول أن يجعلهم يلقون القبض عليه ولكنهم أطلقوا سراحه بعد أقل من نصف ساعة، وفي اكتوبر أعاد الكرَّة فوقف على أحد براميل الزيت أمام مصنع «رينو» في «بيللاينكورت» يخطب في عمال السيارات، بعدها ظهر تقرير في «لورور» يقول بسخرية شديدة إن «العمال لم يكن لهم علاقة به وإن التجمع الذي كان حوله كان عبارة عن مجموعة صغيرة من الماويين الذين جاء بهم»(٦٤).

بعد ١٨ شهرا، عاد مرة أخرى إلى أحد مصانع «رينو» وفي هذه المرة هرَّبوه إلى الداخل لكي يتضامن بإضرابه عن الطعام، ولكن أفراد الأمن اكتشفوه وطردوه. ولا يبدو أن تكون جهوده قد أثارت أي اهتمام بين عمال صناعة السيارات، فجميع شركائه كالعادة كانوا من بين مثقفي الطبقة المتوسطة ولكن بالنسبة للرجل الذي فشل في «الفعل»، والذي لم يكن رجل «فعل» على أي نحو، كانت «الكلمات» دائما هناك.

ولهذا كان من المناسب أن يسمي ذلك الجزء الخاص من سيرته الذاتية بهذا العنوان. كان شعار «سارتر» : «لا يجب أن يمر يوم دون كتابة»، وكان ذلك عهدا حافظ عليه. كان يكتب بسهولة شديدة

أكثر من «رسل»، ويستطيع أن يكتب مالا يقل عن عشرة آلاف كلمة في اليوم، كان معظمها هزيلا أو طنّانا أو يخلو من مضمون واضح. وقد تحققت من ذلك بنفسي في «پاريس» عندما كنت أترجم مناظراته في أوائل الخمسينيات : كانت جيدة عندما تقرأها بالفرنسية، ولكن عندما تعبر عنها بمصطلحات أنجلو ساكسونية تنهار على الفور. لم يكن «سارتر» يهتم بنوعية ما يكتب. عندما كان يكتب لـ «سيمون دو بوڤوار» في سنة ١٩٤٠ راح يفكر في كمية الكلمات التي وضعها على الورق . واعترف : «كنت دائما اعتبر الكم ميزة»(٦٥) . والغريب أنه في العقود الأخيرة من حياته كان «فلوبير» يلح عليه، وهو كاتب شديد الحساسية خاصة عندما كان الأمر يتعلق بالكلمات، وكان يراجع أعماله بمثابرة أقرب إلى الهوس ! أما الكتاب الذي أنجزه «سارتر» أخيرا عن «فلوبير» فجاء في ثلاثة أجزاء ووصل إلى ٢٨٠٢ صفحة ... كثير منها لا يُقرأ !! كتب «سارتر» أعمالا كثيرة بعضها ضخم، وأخرى لم ينته منها رغم أنه كان يستخدم مادتها في أعمال أخرى : مجلد ضخم عن الثورة الفرنسية، وآخر عن «تنتوريتو»، وآخر ضخم وهو سيرته الذاتية، العمل الذي ينافس في طوله كتاب «شاتوبريان» : «ذكريات لقبر آخر» والمعروف أن «الكلمات» جزء منه.

كان «سارتر» يعترف أن الكلمات هي كل حياته : «لقد استثمرت كل شيء في الأدب . وأعرف أن الأدب بديل عن الدين»، كما يعترف بأن الكلمات كانت تعني بالنسبة له أكثر من حروفها ومعانيها، إنها كانت حية : «كنت أشعر بصوفية الكلمات . وشيئا فشيئا، التهم الإلحاد كل شيء فعريت الكتابة وعلمنتها ... وكلي شك، عدت إلى الكلمات محاولات أن أعرف ماذا يعني الكلام، أنكب على نفسي ولكني أشعر أمامي بموت الحلم، وبوحشية جميلة، بالإغراء الدائم للرعب»(٦٦) .

كتب ذلك في ١٩٥٤ وكان مايزال أمامه ملايين الكلمات ليكتبها ! فماذا يعني ذلك كله ؟ ربما يعني القليل ! كان «سارتر» دائما يفضل أن يكتب كلاما فارغا، عن عدم الكتابة بالمرة، وهو كاتب يؤكد ملاحظة «دكتور جونسون» الخشنة : «الرجل الفرنسي لابد أن يتكلم سواء كان يعرف شيئا عن الموضوع أم لا»(٦٧)، وكما قال هو نفسه : «الكتابة عادتي مثلما هي مهنتي»، وكانت نظرته تشاؤمية عن أثر ما يكتب : «كنت لعدة سنوات أعتبر قلمي سيفي، والآن أدرك كيف أننا بلا حول ولا قوة : لا يهم ! أنا أكتب وسوف أواصل كتابة الكتب». كان أيضا كثير الكلام ولدرجة الملل، وأحيانا كان يتكلم رغم أنه لا أحد يستمع إليه. هناك صورة قلمية ذكية له في السيرة الذاتية للمخرج السينمائي «جون هستون» في ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩، عندما كانا يعملان معا في فيلم عن «فرويد». جاء «سارتر» ليقيم في منزل «هستون» في «أيرلندة»، ويصفه بأنه كان «رجلا أشبه ببرميل صغير، كأقبح ما يكون الكائن الحي، وجه منتفخ وفي نفس الوقت مليء بالندوب، أسنانه صفراء، أحول وجاحظ العينين»، ولكن خاصيته الأساسية كانت كلامه الذي لا يتوقف . «لم يكن ما بيننا حوارا، كان هو الذي يتكلم بلا توقف ولا يمكن أن تقاطعه، قد تنتظر أن يأخذ نَفَسَه ولكنه لا يفعل. تتدفق الكلمات منه مثل الشلال». كان «هستون» في غاية الدهشة وهو يراه يسجل بعض كلماته وهو يتكلم، وأحيانا كان يترك الغرفة غير محتمل

لذلك الدفق من الكلام، ولكن صوت «سارتر» كان يلاحقه في أرجاء البيت ومن على البعد، وعندما يعود يجده مستمرا في الكلام(٦٨). وفي النهاية كان هذا الإسهال الكلامي هو الذي قضى على جاذبيته كمحاضر. عندما ظهر كتابه عن «الديالكتيك» دعاه «چان واهل» لإلقاء محاضرة عنه في كلية الفلسفة، بدأ «سارتر» في السادسة وهو يقرأ مخطوطة في ملف كبير «بصوت ميكانيكي سريع»، لم يرفع عينيه عن النص. كان مستغرقا تماما، بعد ساعة أصاب الملل الجمهور وكانت القاعة مزدحمة بالجلوس والوقوف، بعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة كان الإرهاق قد بلغ بالجمهور مبلغه، فكان البعض ينام على الأرض، يبدو أنه كان قد نسي أن أحدا هناك. في النهاية اضطر «واهل» أن يشير إليه بالتوقف، وفجأة حمل أوراقه وانصرف دون كلمة واحدة»(٦٩). ولكن كان هناك دائما البلاط الذي يستمع إليه، وبالتدريج كان هذا البلاط يقل عددا مع تقدم «سارتر» في العمر.

كوَّنَ «سارتر» ثروة كبيرة في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، ولكنه بددها بنفس السرعة التي كونها بها. كان لا يهتم بالمال. عندما كان طفلا كان يأخذ من كيس أمه ما يريد .. ببساطة شديدة ! وعندما كان مدرسا كان هو و«سيمون» يقترضان ويقرضان بحرية شديدة. تقول : «كنا نقترض من أي شخص»(٧٠). وكان يقول : «للنقود خاصية التلاشي التي أحبها، أحب أن أراها تتسرب من بين أصابعي وتختفي»(٧١). كان لهذه اللامبالاة جانبها الإيجابي.

وعلى خلاف كثير من المثقفين والمشاهير منهم خاصة، كان «سارتر» كريما حقا بالنسبة للنقود. كان يجد متعة في أن يدفع حساب المطعم أو المقهى لأناس وربما لا يعرفهم. كان يدعم القضايا، قدم للـ «RDR» أكثر من ثلاثمائة ألف فرانك (أكثر من مائة ألف دولار بسعر التحويل في سنة ١٩٤٨)، كان سكرتيره «چان كاو» يقول عنه أنه «كريم لدرجة غير معقولة»(٧٢).

أحيانا كانت ليبراليته وروحه المرحة هما أفضل جوانب شخصيته، ولكن نظرته للمال كانت غير مسئولة.

كان يدعي أنه خبير بأمور الأملاك والضرائب والعوائد، وفي لقائه الوحيد مع «هيمنجواي» سنة ١٩٤٩ لم يناقشا سوى هذا الموضوع، وهو حديث كان يروق لـ «هيمنجواي»(٧٣). ولكن ذلك كان لمجرد الاستعراض! تقول «كلود فوكس» التي عملت سكرتيرة له خلفا لـ «چان كاو» : «كان يرفض وبإصرار أن يكون لع علاقة بالنقود ويرى في ذلك مضيعة للوقت، إلا أنه باستمرار كان في حاجة إليها.. لكي ينفقها ولكي يساعد الآخرين»(٧٤). ونتيجة لذلك تراكمت عليه ديون كثيرة للناشرين وكان مُطَالبا بمبالغ كبيرة لضريبة الدخل بسبب تأخره في الدفع. كانت أمه تدفع عنه ضرائبة ـ سرا ـ (من هنا كانت سخرية «كامو») ولكن مواردها كانت محدودة، وفي نهاية الخمسينيات واجه مصاعب مالية شديدة لم يستطع أن يخلع نفسه منها، ورغم دخله الضخم والمستمر كان مدينا ومفلسا. شكا ذات مرة أنه كان لا يستطيع أن يشتري لنفسه حذاء جديدا. وكانت هناك قائمة بأسماء يدفع لها رواتب أو تتلقى منه

مساعدات، كان هؤلاء هم بلاطه الخارجي، أما النساء فكن البلاط الداخلي، في أواخر الستينيات تناقص العدد لأن موقفه المالي كان ضعيفا، كما تقلص البلاط الخارجي. في السبعينيات كان قد أصبح شخصا يستحق الشفقة .. كبير السن، عجوزا قبل الأوان، أعمى فعلا، دائم السكر، قلقا بسبب المال، غير واثق من أفكاره.

تسلل إلى حياته شاب يهودي جاء من القاهرة اسمه «بن ليڤي» كان يكتب باسم «پيير ڤيكتور». كانت أسرته قد هربت من مصر أثناء أزمة السويس (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧) وكان بلا هوية. ساعده «سارتر» وحصل له على إذن بالإقامة في فرنسا واتخذه سكرتيرا.

كان لدي «ڤيكتور» ميل للغموض والسرية، يضع نظارة سوداء وأحيانا لحية مستعارة وكانت آراؤه غريبة ومتطرفة، وكان كثيرا ما يفرضها على السيد.

كان اسم «سارتر» يظهر على بيانات ومقالات غريبة يكتبانها معا(٧٥). وكانت «دوبوڤوار» تخشي أن يتحول «ڤيكتور» إلى «رالف شوينمان» آخر، وكان استياؤها شديدا عندما تحالف مع «آرليت»، أصبحت تكرهه وتخشاه كما كانت «سونيا تولستوي» تكره «تشيرتكوف» وتخشاه، ولكن «سارتر» في ذلك الوقت كان قد أصبح غير قادر على الحماقات العلنية.

ظلت حياته الجنسية متنوعة، ووقته موزعا على الحريم. كان يقضي إجازاته هكذا : ثلاثة أسابيع مع «آرليت» في المنزل الذي امتلكاه معا جنوبي فرنسا، أسبوعان مع «واندا» وغالبا في إيطاليا. عدة أسابيع على جزيرة يونانية مع «هيلين». وبعد ذلك شهر مع «سيمون دو بوڤوار» وغالبا في روما. وفي باريس يتنقل بين الشقق المختلفة التي تعيش فيها نساؤه . وفي كتابها الصغير : «وداعا سارتر» وصفت «سيمون» سنواته الأخيرة بقسوة بالغة: عدم قدرته على التحكم في نفسه، سكره (والذي كان يساعد عليه تهريب البنات الويسكي له)، الصراع للاستيلاء على البقية الباقية من ذهنه، كان لابد أن يكون موته راحة لهن جميعا (عندما حدث ذلك في مستشفى «بروسياس» في ١٥ ابريل ١٩٨٠)، وفي سنة ١٩٦٥ كان قد تبنى «آرليت» في السر كابنته، ولذا ورثت ي كل شيء بما في ذلك تركته الأدبية وتربعت على ما نشر منها بعد موته.

أما بالنسبة لـ «سيمون» فقد كانت تلك هي الخيانة الأخيرة: سقط «المركز» مهزوما أمام أحد «الأطراف».

عاشت بعده خمس سنوات، الملكة الأم لليسار الفرنسي المثقف... ولكن بلا أطفال أو ورثة !

والحقيقة أن «سارتر» ـ مثل «رسل» ـ فشل في تحقيق أي نوع من الترابط أو التماسك في أفكاره بالنسبة للسياسة العامة، وفي النهاية فشل ـ مثل «رسل» أيضا ـ.

كان لايمثل أي شيء أكثر من رغبة غامضة في أن ينتمي لليسار ومعسكر الشباب. السقوط الفكري

لـ «سارتر» والذي كان يبدو فيما بعد أنه فلسفة حياتية مثيرة كان كبيرا. ولكن هناك دائما قطاع من الجمهور المثقف الذي يحتاج إلى قادة مفكرين مهما كانوا قاصرين. رغم كل شناعات «روسو» إلا أنه حصل على تكريم كبير في حياته ومماته.

وهذا «سارتر»... وحش مقدس آخر، تنظم له «پاريس» الثقافية جنازة عظيمة. أكثر من خمسين ألف شخص معظمهم من الشباب يسيرون وراء نعشه إلى مقابر «مونپارناس» بعضهم تسلق الأشجار لكي يرى جيدا.. وأحدهم سقط فوق النعش مباشرة.

تكريما لأي قضية جاء كل هؤلاء؟ أي عقيدة؟ أي حقيقة مشرقة عن الإنسانية كانوا يحاولون أن يؤكدوا بذلك الحضور الجماهير الضخم؟ كلنا يتساءل!



الفصل العاشر

«ادموند ولسون» : الوسم بالنار !

تعتبر حالة «ادموند ويلسون»(١٨٩٥ـ١٩٧٢)حالة كاشفةلأنها تمكننا من التمييز بين رجل الأدب التقليدي وبين المثقف من ذلك النوع الذي تناولناه. وهو في الحقيقة يمكن أن يوصف بأنه بدأ كأديب ثم أصبح مفكرا يبحث عن حلول سعيدة، ثم ـ أكثر حكمة ووقارا ـ عاد إلى اهتماماته الباكرة بالأدب... ميدانه الحقيقي.

عندما ولد، كان رجل الأدب يعتبر مؤسسة راسخة، وقد تجسد ذلك في «هنري چيمس» كمثال. كانت المعرفة بالنسبة لـ «چيمس» هي الحياة، كان يرفض بازدراء مفهوم المفكر العلماني بأنه يمكن تغيير العالم والإنسانية عن طريق أفكار ليس لها أساس.

وكان التاريخ والتراث والصدارة والتقاليد الراسخة بالنسبة له تمثل حكمة الحضارة الموروثة والمرشد الذي يهتدي به السلوك الإنساني. جنح «چيمس» نحو الإهتمام الجاد بالشؤون العامة . وإيماؤه للحصول على الجنسية البريطانية في ١٩١٥ والإنحياز إلي قضية كان يراها عادلة، يبين لنا أنه كان يرى أن من حق الفنان أن يتجه نحو القضايا العامة المهمة. ولكن الأدب كان يأتي دائما في المقدمة، وأولئك الذين كرسوا حياتهم له، الكهنة الذين خدموا في مذبحه لا ينبغي لهم أن ينسحقوا خلف آلهة السياسة الزائفين. كان «ويلسون» في صميمه ذا ميول متشابهة رغم أنه أمريكي أكثر صرامة وأصعب مراسا، وهو على العكس من «چيمس» كان يرى أن أوروبا ـ وعلى نحو خاص انجلترا ـ فاسدة من الناحية المؤسسية، كما كان يري أن أمريكا ـ ورغم كل نقائصها ـ هي التجسيد لمثال نبيل، وهذا يفسر لنا لماذا يوجد في داخل الإطار الخارجي التقليدي ثائر عنيف يحاول دائما أن يخرج منه.

وسواء بحكم المولد أو بالخلفية ـ وأحيانا بالميل ـ فإنه اتبع الطريق اليعقوبية.«ويلسون» ينحدر من أسرة كهان في «نيوانجلند»، وفي طفولته كلها لم يعرف أحد تقريبا خارج نطاقها. كان والده محاميا ونائبا عاما ـ لمرة واحدة ـ عن ولاية «نيوچيرسي»، وكانت لديه غرائز القاضي التي ورثها عنه «ويلسون». كان يقول أن والده يتعامل مع الناس «بموضوعية» ولكن «من أعلى إلى حد ما»، وكما أشار «ليون ايدل» الذي حرر أوراق «ويلسون»: فإن أبرز سمات «ويلسون» كناقد كانت الميل إلى استجواب مدعي الأدب والجلوس

منهم في مقعد القاضي (١). وإن كان قد أخذ عن والده أيضا حبا شديدا للحقيقة وإصرارا عنيدا على أن يجدها، وكان ذلك في النهاية وسيلة خلاصة.

كانت أمه مادية النزعة، محافظة، تحب العمل في الحديقة وتتابع مباريات كرة القدم، وحتى نهاية العمر كانت حريصة على حضور الدورات الرياضية في «پرنستون». كانت أمنيتها أن يكون ابنها بطلا رياضيا، ولم تكن تهتم بكتاباته. وربما كان ذلك بغرض تجنب التوتر المدمر الذي نشأ بين «هيمنجواي» وأمه المثقفة.

دخل «ويلسون» مدرسة الرابطة الكرملية الابتدائية، ثم مدرسة «هل»، ثم «پرنستون»(١٩١٢ـ١٩١٥) حيث درس على «كريستيان چاوس»،قضي فترة في أحد معسكرات الجيش وكرهها، عمل مراسلا لجريدة «نيويورك ايڤننج صن»، ذهب إلى فرنسا مع وحدة طبية عسكرية، وانتهت الحرب وهو رقيب في المخابرات. كان «ويلسون» دائما قادرا على القراءة المثابرة والمنظمة، وتبين لنا مذكراته أنه في الفترة بين أغسطس ١٩١٧ والهدنة (١٥) قرأ أكثر من مائتي كتاب، ليست فقط لكتاب أكبر منه مثل «زولا» و«رينان» و«چيمس»و«اديث وارتون»، وإنما كذلك لعدد كبير من المعاصرين من «كپلنج» إلى«ليتون ستراشي» و«كومپتون ماكينز» و«ريبيكا وست» و«چيمس چويس». لم يكن يضارعه أحد في القراءة بعمق وتمعن وكان يقرأ بأسلوب القاضي، كأنه يخضع الكاتب لمحاكمة قد يدفع فيها حياته. أما ككاتب فقد كان أقل انتظاما ومنهجية. لم يكن قادرا على التخطيط المستقبلي بعيد المدى، فكتبه تلف وتدور وتسهب، وأعماله غير الروائية تبدأ كأنها مقالات ورواياته كأنها قصص قصيرة.

كان يكتب على طريقة الصحفي وعندما يهتم بالموضوع يصبح ميله القضائي للوصول إلى الحقيقة متعمقا قليلا. كان ذلك لفترة قبل أن يجد ما يجب أن يفعله. في العشرينيات عمل بـ «ڤانيتي فير»، ثم في «نيويورك ريپابليك»، كتب الشعر والقصص ورواية (حلمت بديزي)، ثم عكف بجد على دراسة عن الكتاب المحدثين (حصن أكسيل). عاش حياة أعزب لفترة قصيرة من ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥، ثم جرب الزواج مع الممثلة «ماري بلير» ثم عاد إلى حياة العزوبة مرة أخرى، ثم تزوج مرة ثانية من «مارجريت كانبي» في ١٩٢٩، في ذلك الوقت كان مايزال كاتبا صغيرا، اهتماماته كثيرة ومتنوعة وسمعته يحسد عليها لموضوعيته الصارمة.

كان الازدهار الذي حدث في العشرينيات عظيما، وبدا وكأنه يمكن أن يحجم التمرد السياسي. حتى «لينكولن ستيفنس» الذي كانت مجموعة مقالاته الفضائحية «عار المدن» ـ ١٩٠٤ ـ علامة على المرحلة التقدمية، كان يقول أن الرأسمالية في الولايات المتحدة يمكن أن تكون فعالة مثل الجماعية السوڤيتية «يمكن انقاذ الجنس البشري على نحو أو آخر، وأنا أعتقد أن كلا الأسلوبين صالح»(٢). وبدأت «نيشن» في نشر سلسلة استمرت ثلاثة شهور عن دوام الرفاهية كتبها «ستوارت تشيس»، نشرت أول جزء منها في ٢٣ اكتوبر ١٩٢٩، ولكن عندما ظهرت معالم الأزمة وظهر الكساد بوضوح اتجه الرأي العام وجهة

أخري، وقد ضرب هذا التدهور الاقتصادي الكتاب على نحو خاص.

في سنة ١٩٣٣ هبطت مبيعات الكتب إلى ٢٥٪ مما كانت عليه في سنة ١٩٢٩، كما وصفت مؤسسة «بوسطن ليتل براون» عام ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ بأنه «أسوأ عام حتي الآن» منذ بدأت نشاطها في النشر سنة ١٨٣٧، وكان «جون شتاينبك» يشكو من أن كتبه لا توزع على الإطلاق : «عندما يفلس الناس فإن أول شيء يتخلون عنه هو الكتب»(٣). لم يتجه جميع الكتاب نحو اليسار ولكن معظمهم فعل ذلك وانضموا إلى حركة راديكالية عريضة غامضة سيئة التنظيم، كانت مليئة بالخلافات معظم الوقت.

وقد وصف «ليونيل تريلنج» بزوغ هذه القوة في أوائل الثلاثينيات بأنها كانت نقطة تحول كبيرة في التاريخ الأمريكي :

«يمكن أن يقال أنها هي التي خلقت الطبقة الأمريكية المثقفة كما نعرفها الآن بحجمها وأثرها الكبيرين، وثبتت شخصيتها على أنها يسارية من خلال التحولات في الرأي. وبصرف النظر عن الرأي : فإن الميل السياسي في الثلاثينيات حدد أسلوب الطبقة. ومن تلك الراديكالية جاءت الحاجة الأخلاقية، الإحساس بالأزمة، والقلق بشأن الخلاص الفردي الذي رسم وجود المثقف الأمريكي»(٤).

ويقول «تريلنج» أن جوهر المثقفين واضح في ملاحظة «ف.ب ييتس» أن الإنسان لا ينبغي عليه أن يتهرب من «العمل العظيم للفكر الروحي» وأنه : «لا شيء أعظم من ذلك الذي ينظف اللوح القذر للإنسان» أما المشكلة كما يقول «تريلنج» فهي أنه في الثلاثينيات كان هناك كثيرون يريدون أن يتجهوا عكس «چيمس» وأن ينظفوا اللوح من خربشات الأسرة والطبقة والجماعة العرقية أو الثقافية ... (و) المجتمع بوجه عام»(٥).

وانجرف «ادموند ويسلون» مع تلك الجماعة المهتاجة من المثقفين والتي كانت تتوق إلى لوح أملس تكتب عليه من جديد وثائق تأسيس حضارة. في شتاء ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ كانت جريدة «نيوريبابليك» المهزوزة والمحبطة بلا سياسة، وكان «ويسلون» هو الذي اقترح أن تتبني الاشتراكية، وفي «نداء للتقدميين» قال : إنه حتي وقوع صدمة «وول ستريت» كان الليبراليون والتقدميون في أمريكا يراهنون على الرأسمالية أن توفر السلع والاحتياجات وتحقق حياة معقولة للجميع، ولكن الرأسمالية انهارت. وكان يتمنى أن يكون الأمريكيون الآن على استعداد لأول مرة لأن يضعوا مثاليتهم وعبقريتهم في التنظم خلف تجربة اجتماعية راديكالية». روسيا سوف تمثل تحديا بالنسبة للولايات المتحدة طالما أن الدولة السوفيتية لديها «تقريبا كل الصفات التي يجلها الأمريكيون ـ الكفاءة الشديدة والرغبة في القيام بعمل جماعي جبار وإنجاز شيء كبير في خمس سنوات مثل دافع القرض الحر»(٦).

وعندما يقارن «ويلسون» خطة «ستالين» الخمسية الأولى بالقروض الحرة، فإن ذلك يكشف لنا قدر سذاجة المثقف الثوري الجديد في تلك المرحلة، ولكنه بدأ وبكل طاقته الجبارة يقرأ الأعمال السياسية

الكاملة لـ «ماركس» و«لينين» و«تروتسكي»، وبنهاية عام ١٩٣١ كان قد أصبح مقتنعا بأن التحولات لابد أن تكون ضخمة، وأن المثقفين لابد أن يجدوا حلولا سياسية واقتصادية ويجسدونها في برامج تفصيلية. وفي مايو ١٩٣٢ كتب مع «چون دوس پاسوس» و«لويس ممفورد» و«شرود أندرسن» مسودة بيان صاغوه بحروف اللاهوت السياسي يقترحون فيه «ثورة اجتماعية سياسية»(٧)، وتبع ذلك في الصيف ببيان شخصي عن أفكاره الخاصة بدأ بقوله :

«أتوقع أن أصوت لصالح المرشحين الشيوعيين في انتخابات الخريف القادم» ، ولا يبدو أنه كان يفكر في الانضمام إلى الحزب الشيوعي ولكنه كان يعتقد أن زعماءه هم «أنماط أمريكية حقيقية»، بينما يصر على «الطاعة لسلطة مركزية والتي بدونها لا يمكن القيام بأي عمل ثوري جاد» وأنهم «لم يفقدوا سيطرتهم على الظروف الأمريكية»، وأن الحزب الشيوعي كان على حق في إصراره على أن الجماهير الفقيرة لم يكن أمامها من خيار سوى الاستيلاء على الصناعات الأساسية وإدارتها للنفع العام»(٨).

كان «ويسلون» يعي جيدا أنه وأصدقاؤه قد ينظر إليهم أنهم مجموعة من الأغنياء الدخلاء الذين يلعبون بسياسة الطبقة العاملة، والحقيقة أن هذا التصور كان صحيحا، فبصرف النظر عن قراءة الماركسية كان إسهامه في القضية هو أن يقيم حفل كوكتيل لزعيم الحزب الشيوعي «وليم ز. فوستر»، قام الأخير فيه بالإجابة عن أسئلة عدد من الكتاب محدثي الثورية، استشهد «فوستر» بصورة وصفية لـ «والتر ليپمان» وهو يقف في ملابس السهرة الكاملة في منزله الكبير في «واشنطن» : «ممسكا في يده بمقلاة صغيرة يحاول أن يتقي بها غمرا من الماء يتسرب من السقف، وهي الصورة الدقيقة للمثقف الذي يتعامل مع الأزمة بمنطق عقيم»(٩).

ولكنه يقدم، ودون وعي، صورة كاشفة عن نفسه وهو يشكر خادمه الأسود المخلص الذي «قام بتوسيع وترقيع» بنطاله كي يستطيع أن يذهب إلى احتفال القنصلية السوفيتية «بدستورهم الجديد»(١٠). ولكن «ويلسون» الذي كان يكن للحقيقة حبا صادقا، وعلى خلاف جميع المثقفين الذين جاء ذكرهم في هذا الكتاب تقريبا، بذل جهدا مخلصا وجادا وطويلا لكي يحيط نفسه علما بالظروف الاجتماعية التي كان يريد أن يكون أسقفها ويتكلم عنها، وبمجرد أن انتهى من «حصن أكسيل» في سنة ١٩٣١ اندفع إلى كتابة التقرير، فراح يكتب المقالات من جميع أنحاء الولايات المتحدة والتي جمعت فيما بعد بعنوان «الهزات الأمريكية» ـ ١٩٣٢ ـ، كان «ويلسون» مستمعا جيدا ومراقبا لماحا ومسجلا دقيقا، درس صناعة الصلب في «بيتلهم» و«پنسلفانيا» ثم انتقل إلى «ديترويت» ليدرس صناعة السيارات. كتب عن إضراب عمال النسيج في «نيوانجلند» والمناجم في غرب «فرچينيا» و«كنتكي». ذهب إلى «واشنطن» عبر «كانساس» و«ميدوست» حتي «كولورادو»، ثم نزل إلى «نيومكسيكو» و«كاليفورنيا». وما قدمه من وصف جدير بالملاحظة لخلوه من التحيز وقدرته على الإمساك بالتفاصيل والاهتمام بالعادي واللاسياسي وغير المألوف إلى جانب الصراع الطبقي. وفوق كل شيء لإهتمامه بالناس قدر اهتمامه بالأفكار، وباختصار فإن

ما قدمه كان على العكس من عمل «انجلز»: «أحوال الطبقة العاملة في انجلترا». كان «هنري فورد»: «توافقا غريبا بين العظمة والرخص، الوضاعة والإرادة القوية، الصراحة الشمالية الغربية والغموض، مع نوع مفيد من التميز»، كما لاحظ «ويلسون»: «استخداما على نطاق واسع في «ديترويت» للوقاء الذي يحيط بالجزء الأعلى من الحذاء». كما سجل كثيرا من النوادر عن الجرائم والمنازعات التي لم يكن لها علاقة بالأزمة، ووصف الشتاء في «ميتشجن» والعمارة الرائعة في «كاليفورنيا» ومزارع الخيول في «نيومكسيكو». كانت زوجة «جون باريمور»: «كعكة صغيرة ناعمة» وأخبرته فتاة بأنها كانت «تحاول أن تحقق فائدة من آخر أربع وعشرين ساعة في الرأسمالية»، كانت الهياكل المعدنية القديمة بالقرب من شاطيء «لاجونا»: «تشبه عجائز الكهنة ولحاهم المدلاة على صدورهم»، وفي «سان ديجو» كان فنار بعيد يضيء وينطفيء يذكره بـ «ذكر ينتفض بإيقاع داخل مهبل»(١١). وفي شتاء ١٩٣٢ الرهيب، عندما كان هناك أكثر من ١٣ مليون عاطل، انضم «ويلسون» إلى مجموعة كبيرة من المثقفين الذين كانوا يراقبون إضراب عمال الفحم في «كنتكي»، وكتب وصفا مستفزا عما شاهده، وجمع الكُتّاب المعونات ومواد التموين وقال لهم النائب العام في «كونتي»: «يمكنكم أن تقوموا بتوزيع الطعام كما تريدون، ولكن بمجرد حدوث أي خرق للقانون فسوف يكون من دواعي سروري، كما هو من واجبي أن أحاكمكم»، كما وصف «ويلسون» الروائي «والدو فرانك» وهو يهدد عمدة إحدى المدن بالكتابة العلنية:

فرانك: القلم كما قال «شكسبير» أصدق أنباء من السيف

العمدة: لم أخف من أي قلم شيوعي ذات يوم!

كان يتم تفتيش المثقفين الزائرين بحثا عن أسلحة، وكان الضرب أو الطرد من نصيب بعضهم. كتب عن المقر الرئيسي للحزب الشيوعي: «مجموعة من المشوهين، أحدب يقوم بتشغيل المصعد، امرأة قزم تضع نظارة طبية، أخري جزء من وجهها مشوه اللون ربما نتيجة حرق ولكن مع نمو بارز في الجزء المشوه». كان يبدي تشككا صحيحا في قيمة تلك الزيارات وكتب إلى «دوس پاسوس»: «كل شيء كان مثيرا ومهما بالنسبة لنا رغم أنني لا أعرف إذا كان ذلك كذلك بالنسبة لعمال المناجم»(١٢).

إن الجانب الأكثر تميزا في راديكالية «ويلسون» في الثلاثينيات ظهر في ثورية عقله وحرصه على الحقيقة حيث منعاه من أن يصبح مثل «هيمنجواي»: أداة طيعة في يد الحزب الشيوعي. وكما أخبر «دوس پاسوس» أن الكتّاب لابد أن يقوموا بتكوين مجموعتهم المستقلة بالتحديد: «لكي لا يلعب بهم الرفاق كالمغفلين»، وكان قد لاحظ بالفعل أن المثقف الثوري من أبناء الطبقة المتوسطة تنقصه خاصية إنسانية جوهرية، وهي القدرة على التوحد مع جماعته الاجتماعية. وفي مذكرة عن «الشخصية الشيوعية» ـ ١٩٣٩ ـ وضع إصبعه على ضعف المثقف.

«يمكن أن يوحد اهتمامه مع اهتمامات قلة خارجة على القانون ... وتضامنه الإنساني فقط مع ما يتخيله عن التحسن الإنساني العام، وهي قوة دافعة لا يمكن أن تقدر قيمتها مهما كانت، وما يخسره في

علاقاته الإنسانية المباشرة يعوض بقدرته أن يرى الأبعد منها والأفراد الذين يشترك معهم فيها : الأسرة والجيران»(١٣).

ولم يكن ذلك التعويض كافيا بالنسبة لرجل مهتم جدا بالحياة الإنسانية والشخصية مثله، إلا أنه كان قد عقد العزم على أن يكتشف الشيوعية، ليس فقط في أصولها النظرية ـ بل يعمل بالفعل فيما أصبح كتابا مهما عن التاريخ الماركسي بعنوان: «إلى المحطة الفنلندية» ـ وإنما كذلك في تطبيقاتها العملية في الاتحاد السوفيتي. وقد بذل جهدا كبيرا على نحو ما، للوصول إلى الحقيقة وبأكثر مما فعل أي مثقف آخر في الثلاثينيات.

تعلم قراءة وتحدث اللغة الروسية وهضم الكثير من أدبها في أصوله، وفي ربيع ١٩٣٥ قُبلَ طلبه للحصول على منحة «جنجهايم» للدراسة في الاتحاد السوفيتي مع ٢٠٠٠ دولار شهريا. ذهب إلى «لينينجراد» على باخرة روسية وفي الحال كان يتكلم مع الناس. ومن «لينينجراد» سافر إلى «موسكو» ثم بالقارب إلى «أوديسا». كانت عملية التطهير الحزبي في بدايتها، ولكن المسافر كان يستطيع أن يتحرك بحرية إلى حد ما. وفي «أوديسا» أصيب بحمى قرمزية وتبعها أزمة حادة في الكلي، وقضى عدة أسابيع في مستشفي عزل صحي قذرة، مهدمة، حيث العطف وبق الفراش والاشتراكية والفساد السياسي في مزيج واحد!

معظم الشخصيات يمكن أن يكون قد خرج مباشرة من بين صفحات «پوشكين». فالمكان قد بني فعلا عندما كان «پوشكين» على قيد الحياة. وقد حقق ذلك لـ «ويلسون» تعرفا على المجتمع الروسي ما كان ليتحقق له. ونتيجة لذلك غادر روسيا مع كراهية متزايدة لـ «ستالين»، وشك كبير في النظام بالكامل، ولكن مع احترام أكبر للشعب الروسي وإعجاب أشد بأدبهم.

ومن الواضح أن اهتمام «ويلسون» القوي بالناس وعدم استعداده أن يسمح لهم بالتأثر بالأفكار هو الذي منعه من الإبقاء على وضعية المثقف طويلا. وبنهاية الثلاثينيات كانت كل غرائز وأشواق رجل الأدب تعود اليه، إلا أن عملية تحرير نفسه من شرك الماركسية واليسار لم تكن عملية سهلة. كان كتابه «إلى المحطة الفنلندية» يتضخم ويتضخم ولكنه لم يكن قد نشر حتى سنة ١٩٤٠، حتى في الطبعة الثانية منه بعد نشره، لم يكن «ويلسون» قد شجب«الستالينية»: «كإحدى أبرز صور الاستبداد البشعة التي عرفتها البشرية». والكتاب نفسه خليط، ويحتوي على مادة ترجع إلى فترة اكتشافه للتأثير الفكري الطاغي لـ«ماركس»: وهكذا يربط بين أعمال «ماركس» الدعائية النقدية الثلاثة: صراع الطبقات في فرنسا (١٨٤٨ـ٥٠)، الشهر الثامن عشر للويس بونابرت(١٩٥٢) والحرب الأهلية في فرنسا(١٨٧١) «كواحدة من المنتوجات الرئيسة لعلم/ أدب التاريخ الحديث»، بينما كانت في الحقيقة خلطة لا أخلاقية من الزيف والسذاجة والقدح ولا قيمة تاريخية لها. إنه يدافع أو يتغاضى عن معاداة «ماركس» للسامية: «إذا كان «ماركس» يحتقر جنسه فإن ذلك ربما يكون كغضب موسى عندما رأى أطفال إسرائيل يرقصون أمام

العجل الذهبي»، ويصف موقف«ماركس» من المال بأنه نابع من «مثالية مجنونة» دون أن يذكر شيئا عن غشه لرجال التجارة وانتظاره موت أقاربه بشغف بما فيهم أمه، والاقتراض دون نية لسداد الديون أو المضاربة في البورصة (وربما لم يكن «ولسون» على علم بهذا النشاط الأخير)، لم يتأثر «ويلسون» على الإطلاق بالمعاناة التي أنزلها «ماركس» بأسرته باسم قضيته، ويستطيع أن يتخيل أن يقوم بها هو نفسه على الأقل نظريا. ولكن ماذا عن الممارسة العملية؟

من الواضح أن «ويلسون» كان ينقصه اللامبالاه بالحقية وتفضيل الأفكار على البشر وهي السمات التي تميز المثقف العلماني الحقيقي، ولكن هل كان يمتلك الأنانية البارزة ـ والتي كما رأينا ـ التي تميز المجموعة أيضا؟ عندما ننظر إلى هذا الجانب من شخصيته ونفحص سلوكه الشخصي لا نجد دليلا حاسما. تزوج «ويلسون» أربع مرات. فارق الأولى باتفاق مشترك لعدم الانسجام بين عمليهما وظلا أصدقاء. الثانية التي كانت تحضر حفلا في «سانتا باربرا» في ستمبر ١٩٣٢ زلت قدمها فسقطت وأصيبت بكسور في الجمجمة وماتت. بقي بدون زوجة طوال الفترة التي كان مرتبطا فيها بالماركسية الروسية،وفي سنة ١٩٣٧ قابل «ماري مكارثي» وتزوجا في العام التالي، وكانت كاتبة شابة لامعة، أصغر منه بسبعة عشر عاما.

أضافت الزوجة الثالثة بعدا جديدا لوجود «ويلسون» السياسي، كانت «ماري» مزيجا غريبا من الأصول والميول. كانت من «سيتل». من ناحية أمها كان الدم يهوديا وبروتستانتي من «نيو انجلند». جداها من ناحية الأب كانا ينتميان إلى الجيل الثاني من المستوطنين الزراعيين الأيرلنديين الذين أصبحوا أغنياء من تجارة الغلال.

ولدت «ماري مكارثي» في ١٢ يونيو ١٩١٢، ثم ولد بعدها ثلاثة أشقاء ولكنهم ماتوا جميعا. رباها في البداية عم وعمة كاثوليكيان مستبدان. ثم نشأت في كنف جديها البروتستانت(١٤). كان تعليمها متطرفا من البداية في دير كاثوليكي ثم في «ڤاسار» وهي كلية بنات كلاسيكية شهيرة(١٥). وكما هو متوقع نمت متزمتة ملطخة بالحبر، مزيجا من راهبة فاسدة وامرأة ذات اهتمامات ثقافية، كانت طموحاتها الحقيقية مسرحية وكانت الكتابة هي السبيل الوحيد الباقي أمامها.

كاتبة جيدة، سرعان ما حققت شهرة كمراجعة كتب ممتازة ثم كناقدة مسرحية. تزوجت ولكنها بسرعة بزت زوجها «هارولد چونسرود» الكاتب والممثل الفاشل. وعندما انتهى زواجهما بعد ثلاث سنوات قامت بتشريحه في قصة ممتازة بعنوان«معاملة وحشية قاسية»(١٦). مغامرتها التالية في ١٩٣٧ كانت السكنى في شقة واحدة مع «فليب راهف» رئيس تحرير «پارتيزان ريڤيو» وكان روسي المولد، الأمر الذي أدخلها إلي قلب المشهد الثوري في «نيويورك».

النقطة الغريبة والمتناقضة هي أن «نيويورك» في الثلاثينيات كانت «قد أصبحت أهم جزء في اهتمامات الاتحاد السوڤيتي، ذلك الجزء الذي يتبدى فيه الصراع صراحة بين «ستالين» و «تروتسكي»(١٧)، وحميت المعركة حول «پارتيزان ريڤيو» نفسها. كانت المطبوعة قد تأسست في سنة ١٩٣٤ وكان الحزب

الشيوعي يسيطر عليها من البداية. ولكن «راهف» رئيس تحريرها كان روحا صعبة الانقياد. كان قد أنهى تعليمه الرسمي في سن السادسة عشرة وبعد ذلك كان طليقا ينام في حدائق نيويورك ويقرأ في المكتبة العامة، وفي أوائل الثلاثينيات تحول مثل «ويلسون» إلى الماركسية مسجلا ذلك التحول في «رسالة مفتوحة إلى الكتاب الشبان»، صمم فيها على «أن تقطع كل صلة لنا بتلك الحضارة المجنونة المعروفة بالرأسمالية»(١٨)، وكان يعزف نفس اللحن السائد في تلك المرحلة في «پارتيزان ريڤيو»، لحن مثقف الطبقة المتوسطة الذي ينزل إلى مستوى العامل ـ الفلاح «لقد خلعت رداء النفاق الروحي الذي ساعد عليه الكتاب البرجوازيون لكي أصبح مناصرا ثقافيا للپروليتاريا»(١٩)، وكان منظما عظيما لما كان يسميه بـ «الحرب الطبقية في الأدب»، وهو عنوان إحدى مقالاته(٢٠).

ولكنه تخاصم مع الشيوعيين في سنة ١٩٣٦ بسبب محاكمات «موسكو» التي كان على ثقة من أنها كانت مجرد مكيدة ضد بعض الأبرياء. كان «راهف» راعيا ماهرا لماشية أدبية وكان شديد الحساسية بالنسبة لحالتهم النفسية الجماعية. أوقف صدور «پارتيزان ريڤيو» لفترة حتى يرى اتجاه حركة الرأي الأدبي ثم استأنفها لمجلة شبه تروتسكية واكتشف أن حدسه كان صحيحا، حيث أن معظم الكتاب المهمين في هذا الوسط كانوا معه، وكان من بينهم «ماري مكارثي» التي أصبحت عشيقته أيضا، وهي إضافة تستحق حيث كانت جميلة وصغيرة ومرحة(٢١). لم تكن السياسة بمعناها الكامل هي التي جذبتها إلى حرب ستالين / تروتسكي، وإنما ما تمخضت عنها من حرب مسرحية.

كتب «چيمس ت. فاريل» ـ روائي من شيكاغو ـ يقول: «هناك الآن خط من الدم مرسوم بين أنصار «ستالين» وأنصار «تروتسكي»، ويبدو مثل نهر صعب اجتيازه»(٢٢).

كما قال «إيرل براودر» زعيم الحزب الشيوعي أنه يجب «إبادة» التروتسكيين الذين ألقي القبض عليهم وهم يوزعون المنشورات في اجتماعات الحزب الشيوعي. كذلك وصفت «ماري مكارثي» فيما بعد مكاتب «پارتيزان ريڤيو» بأنها كانت تشبه حامية عسكرية منعزلة في «يونيون سكوير»: «المنطقة كلها كانت أرضا شيوعية ـ وكانوا في كل مكان، في الشوارع، في المقاهي، وفي كل مبنى مهجور تقريبا، ولابد أن تجد إحدى مجموعاتهم المتقدمة أو مدارسهم أو مطبوعاتهم»، وعندما انتقلت «پارتيزان ريڤيو» إلى «آستور پلاس» اشتركت في مبنى واحد مع جريدة الحزب الشيوعي «الجماهير الجديدة» ... «كانوا يقابلونهم في المصعد، ينزلون في صمت، يتحملون نظراتهم الباردة وكان ذلك مدعاة للتندر .. والخشية أيضا»(٢٣).

ويبدو أنها وجدت تلك الحرب الدينية بجوها المفعم باللاهوتية البغيضة أمرا مثيرا، ومن الغريب أن يتحول تعليمها الكاثوليكي الأخلاقي إلى تزمت أيديولوجي، مثل رفضها الكلام أو تناول الطعام أو الاختلاط مع أي واحد من الذين كانوا يكسرون أيا من مبادئها الأخلاقية ـ الفكرية ـ السياسية. كان اهتمامها بالسياسة أو إلمامها بها ضعيفا، وقد اعترفت فيما بعد أنها انجرفت إلى الأوضاع السياسية حبا في

الظهور أو رغبة في التسلية. كانت كثيرة النقد بحيث إنها لم تكن تصلح لتكون «رفيقة» بالمعنى الذي كان سائدا في الثلاثينيات، وفيما بعد كانت تشبّه «تروتسكي» بـ «غاندي» مما يعني أنها كانت لا تعرف الكثير عن أي منهما. حتى في ذلك الوقت كانت تثير الضجة في اجتماعات الأحزاب اليسارية عندما تكون مترنحة وتتحدث عن قتل أسرة القيصر(٢٤).

وباستعادة الأحداث واستعراضها يتضح أنها لم تكن حيوانا سياسيا بالمرة : بداية، كانت تجهل الشيوعية تماما، ثم أصبحت شيوعية، ثم أصبحت ـ وبالمصادفة تقريبا ـ تروتسكية، ثم معادية للشيوعية، ثم لا شيء بالمرة وإنما يسارية معتدلة .. لجميع الأغراض، ولكنها كانت كثيرة الانتقاد طوال الوقت، وساعدها على ذلك طبيعتها الخاصة ودراستها للنقد الأدبي الإنجليزي، وفي صميم قلبها لم تكن مهتمة بالأفكار وإنما بالناس اهتمام فتاة مثقفة أكثر مما كانت هي نفسها كذلك.

لا شك في أن «راهف» كان رجلا مثقفا ولكنه لم يكن جذابا، وفي نفس الوقت كان خبيرا في إرشاد ما كان يسمى بـ «قطيع العقول المستقلة»(٢٥)، وكان يكبح مشاعره الداخلية ويتكتم عليها.

وكما كتب عنه «وليم ستايرون» : «كان غامضا لدرجة أنه كان مجهولا»، و«ماري مكارثي» نفسها تقول : «إنه لا يشبه أحدا على الإطلاق»(٢٦). كان رجلا لديه «شهرة طاغية للسلطة»(٢٧) حسب شهادة «نورمان بود هوريتز»، وقد عبرت هذه الشهوة عن نفسها كثيرا في ممارسته للسلطة على الآخرين كما اكتشفت عشيقته الجديدة بسرعة.

وهكذا فإن «ماري مكارثي» الرومانسية التي كانت تحب حياة الصراع في «نيويورك» ـ وإن كان لم يسيطر عليها طويلا ـ خرجت من تحت تأثير «راهف» ووجدت نفسها تتزوج من «ويلسون»، وكان يجب أن يصبح ذلك ـ من الناحية النظرية على الأقل ـ تحالفا أدبيا أو اتحادا فكريا مثل ارتباط «سارتر» و«سيمون دو بوڤوار». أما من الناحية العملية فإن ذلك أيضا كان يحتاج إلى شخصين مختلفين لكي يكتب له النجاح، والمؤكد أن موقف «ويلسون» من المرأة كان يشبه موقف «سارتر» : أي أنه كان متمركزا حول نفسه ومستغلا، وتسجيله الشهير لحديث مع «سيريل كونوللي» أجري في ١٩٥٦ عن موضوع الزوجات يكشف أنه يرى أن الوظيفة الأساسية للزوجة هي خدمة زوجها، وقد نصح «كونوللي» أن يتخلص من زوجته آنذاك «باربرا سكيلتون» : «كان لابد أن يكون لديه امرأة من نوع آخر، تهتم به على نحو أفضل»، وقال «كونوللي» أنه كان يحاول بالفعل أن يعمل بتلك النصيحة وينقذ نفسه : «مازلت أقف على الورقة المصمغة، بدأت أخلص قدمي ولكنني لم أنتزعها بالكامل بعد». كان كلاهما (ويلسون وكونوللي) يتحدث عن الزوجات كما لو كن نوعا من الخدم»(٢٨).

ولكن «ويلسون» ـ على العكس من «سارتر» ـ كان يتعامل مع النساء بشك، وبدرجة من الخوف. فالنساء، كما كان يقول في مطلع حياته، «أخطر من يمثل القوى المحافظة» التي تعتبر حياة البطل الأدبي كلها «احتجاجا عليها». وكان يحمي نفسه ـ كما يعتقد ـ بمتابعة سياسته المعتادة في «المصارحة»

والانفتاح التي كان المثقفون مغرمين بها :

سجل في مذكراته فقرات طويلة يصف فيها نساءه في أوضاعهم شديدة الخصوصية، خاصة في علاقته الجنسية بهن.

كان «ويلسون» كاتبا روائيا وناقدا، وعندما كون عادته في تسجيل مذكراته كان تحت تأثير كبير بعمل «چويس» : «عوليس»، ويبدو أنه كان يعتقد أن بإمكانه التخلص من مخاوف الجنس ومن سطوة النساء عليه بتسجيل ما يحدث. كتب كثيرا عن «إدنا سان ڤانسان ميلاي» الشاعرة الجميلة التي فتنته والتي ربما كانت أقوى حب في حياته، ووصف كيف وصل إلى اتفاق هو والشاب الذي كان يشاركه المسكن ـ «جون بايلي بيشوب» الذي كان يحبها هو الآخر ـ على أن يشتركا فيها.

«بيشوب» له الجزء العلوي من جسدها، و«ويلسون» الجزء السفلي، وكانت هي تسميهما «جوقة الجحيم»(٢٩)، كما يصف كيف قام (في سنة ١٩٢٠) بشراء أول عازل طبي، «ذهبت إلى إحدى الصيدليات في جرينوتش آڤينيو» ووقفت أرقب من الخارج لأتأكد أنها كانت خالية من النساء»، عرض عليّ مساعد البائع «عازلا من المطاط وقال أنه جيد، ثم نفخه مثل البالون لكي يريني متانته» ولكن العازل انفجر، «واتضح أن تلك كانت علامة فأل سيء»، ووصف كيف أصيب بمرض جنسي. كتب أنه كان «فريسة لكثير من المخاطر الجنسية .... عمليات إجهاض، سيلان، مآزق كثيرة، تحطيم قلوب ..»(٣٠). كان يهتم كثيرا بالثياب التي كان على النساء أن يخلعنها لكي يدخل .. ! كان «نزع أحد تلك المشدات يشبه أكل المحار»(٣١).

أما معظم الفقرات القاسية فكانت تتعلق بزوجته الثانية «مارجريت» : «كانت تقف عارية في غرفة الجلوس في شارع رقم ١٢ بصدرها العامر المستدير الناعم»، «كان جسمها قصيرا وأنا أضمها .. عارية .. فخذان كبيران، صدر كبير ناعم، جذع ضخم، وقدمان صغيران».

كما سجل أيضا : «كفان صغيران ... عندما تنام على السرير، ذراعان وساقان صغيرتان، أطراف قمرية تمتد في كل ركن»، كما يصف كيف مارس الجنس معها وهي على مقعد ذي ذراعين، ترتدي ملابس راقصة ... «كانت عملية صعبة جدا، هل كانت تضع ساقا على ذراع ؟» أو «عندما خلعت ثوبها ومعه ملابسها الداخلية .... : أنا إحدى أولئك المستعدات دائما..»(٣٢).

كما كانت هناك أيضا علاقاته الخاصة بالزنا، «صدمتني امرأة عندما قالت أنها تريدني أن أضربها، كان أحد أصدقائها يحب أن يضرب زوجته بالسوط. اشتريت فرشاة أسنان شعرها من السلك .. وفي البداية رحت أحك لها .. بعد ذلك أخذت أضربها بقسوة ووجدت ذلك عملية صعبة جدا، ربما بسبب تهيبي لذلك . ولكنها قالت فيما بعد أنها كانت مستمتعة جدا»، وعن امرأة أخرى كانت تعتقد أن أعضاء الرجال منتصبة باستمرار، لأنهم كانوا عندما يقتربون منها لكي ترى، كانت تجدها واقفة دائما» وعن بغي

التقطها من «كيرزون» يقول : «كانت تعمل بكل قوتها، وبمنتهي الدكتاتورية».

نساء كثيرات .. كثيرات .. كن يبدين إعجابهن .. «كان كبيرا .. وقويا ..»(٣٣)، أما زوجته الرابعة «لينا» فقد لقيت منه نفس المعاملة .. وهكذا أثناء الحملة الانتخابية في ١٩٥٦ «جلسنا على الأريكة ونحن نستمع إلى «أدلاي ستيڤنسون» وهو يقوم بحملته في «ماديسون سكويرجاردن»، وبدأت أتحسسها ـ كانت نصف جالسة ـ وباعدت بين ساقيها ... كانت تحب ذلك .. وبعد انتهاء الحملة انتقلنا إلى شيء أكثر نشاطا».

.... ويكمل ...« يبدو أنني لن أشبع هذه الأيام». وهو في انجلترا، وبعد أن سئم «الرهبانية المتبذلة» لدى الجميع في «أكسفورد» عاد إلى «لندن» مسرعا حيث «قفزت فوق «لينا» وهي نائمة»(٣٤). في مذكراته التي كان يحتفظ بها أثناء فترة زواجه الثالث من «ماري مكارثي» لم يكن هناك أي شيء من هذه المادة الپورنوجرافية، ولم ينشر أي شيء منها. استمر الزواج من فبراير ١٩٣٨ حتى نهاية الحرب ولكن يبدو أنه كان فاشلا من البداية. ربما كان «سارتر» يعامل «سيمون دو بوڤوار» معاملة العبيد، ولكنه لم يقل لها أبدا ماذا تكتب، أما «ويلسون» فكان يصر على أن تكتب «ماري» روايات، وكان يعاملها مثل طالبة مجتهدة تحتاج دائما إلى إشراف أكاديمي. ويبدو أنها تزوجته بعد إصرار من جانبه، وبعدها اكتشف ميله للسيطرة.

كان يشرب بإفراط، وعندما يسكر يتحول إلى العنف إن هي احتجت أو تمردت، وفيما بعد ظهرت في قصصها شخصيات الرجال العدوانيين ذوي الشعر الأحمر والذين يترنحون من السكر، كما ظهرت أيضا شخصيات نساء بعيون سوداء وكدمات من فعل الأزواج(٣٥). (وكان شعر «ويلسون» أحمر رغم لون عينيه البني) استمرت العلاقة الزوجية المتعثرة حتى سنة ١٩٤٦، ولكن الأزمة الحرجة جاءت في صيف ١٩٤٤ كما وصفتها «مكارثي» نفسها في شهادتها أثناء نظر دعوى الانفصال. كان هناك حفل حضره ١٨ شخصا، وبعد انصراف الجميع وقفت لتغسل الصحون : «طلبت منه أن يفرغ القمامة فقال : «أفرغيها أنت» وشرعت في حمل الـ مفيحتين الكبيرتين، وأنا خارجة من الباب ظل يردد في سخرية «افرغيها أنت» صفعته ـ ليس بشدة ـ وخرجت وأفرغتهما ثم صعدت إلى الدور العلوي. ناداني فنزلت، نهض من مكانه على الأريكة واستدار ولطمني على وجهي بشدة قائلا : تعتقدين أنك لست سعيدة معي .. حسنا .. سأعطيك شيئا لن تكوني سعيدة به كذلك ...». «جريت خارج البيت وقفزت إلى سيارتي»(٣٦).

وقد وصفت فيما بعد ذلك الشجار بسبب القمامة في كتابها «حياة مسحورة»، حيث تبدو «مارتا» مذعورة أمام «مايلز» ذو الشعر الأحمر. «لا أحد مثل «مايلز» نجح في إرهابها .. معه كانت تقوم دائما وبانتظام بكل ما تكره». وعندما كتبت «مكارثي» إلى «ويلسون» تقول : «أنه ليس المقصود بشخصية «مايلز» قال أنه لم يقرأ الكتاب : «وإن كنت أعتقد أنه واحد آخر من رجالك الأيرلنديين المرضى حمر

الرؤوس»، والحقيقة أن «مكارثي» كانت شخصية قوية جدا، وموهوبة جدا، بحيث لا يمكن أن تكون مناسبة أبدا لشخص بمثل هذه القسوة وهذا العنف.

ربما تكون من البداية قد أطالت تورطه مع سياسة اليسار، ولكنها بروح الاستقلال لديها ساعدت في النهاية على أن تجعله يكره فكرة الاتجاهات التقدمية برمتها، وكان رحيلها هو النقطة التي توقف عندها عن أن يكون مثقفا، وعاد إلى دور رجل الأدب. في سنة ١٩٤١ كان قد اشترى منزلا قديما كبيرا في «ويل فليت كيب كود» ثم بعد ذلك بفترة، ورث منزلا عن الأسرة في شمال ولاية «نيويورك» وكان ينتقل بينهما حسب الفصول. أما زوجته الخامسة «إلينا» المولودة باسم «هيلين مارتامام» فكانت ابنة تاجر خمور نصف ألماني من ريف «شمپانيا» في «الرايمز»، وكان يشير بكل الرضا إلى أن «روحها الحيوانية الصريحة كانت تتناقض مع أخلاقها الرسمية «الأرستقراطية». كان يجد فيها «راحة عظيمة» وبدأ «في التصرف بأسلوب طبيعي ثانية». كانت تدير منزله بانضباط أوروبي تقليدي وتحاول أن تجعل حياته مرتبة ومريحة. وقد قبل ذلك الروتين عن رضا. يعمل طوال النهار بكل تركيزه المعتاد، سواء في «الپيجامة» أو في «روب» النوم، ثم يقوم في الخامسة مساء من أجل ما كان يسميه بالموعد الاجتماعي، مرتديا بذلة أنيقة مكوية جيدا وقميصا نظيفا وربطة عنق، وفي ١٩ يناير ١٩٤٨ كتب مذكرة عن حياته الجديدة كعضو من الطبقة التقليدية ذات التوجه الأجتماعي. كان يخرج للتمشية بالكلاب : «وكان منظهرهم جميلا وخلفهم الثلج»، بعد ثمان سنوات كتب مقالا : «المؤلف في الستين» وهو ترنيمة عن أهمية التراث والتواصل. كتب : «الحياة في الولايات المتحدة معرضة جدا للإحباط والتمزق والانهيار والتلاشي التدريجي»، وعندما كان صغيرا شعر بأن نفس المصير يتهدده، ولكن : «الآن وأنا في الواحد والستين أجد أن روح الاستمرارية أحد الأشياء التي ترضيني»، وعاد إلى الريف : «محاطا بكتب عهد الصبا وأثاث والدي»، هل كان في «أحد جيوب الماضي ؟»، بالعكس ! كان «في قلب الأشياء»، طالما أن ذلك القلب كان يمكن أن يكون في رأس المرء، وأن أفكاري ومشاعري يمكن أن يشاركني فيها كثيرون(٣٨). وهنا لا يبتعد توجهه في الحياة كثيرا عن توجه «هنري چيمس»، إلا أنه لابد أن نلاحظ أن «ويلسون» احتفظ حتي في تقمصه لشخصية رجل الأدب ببعض المواصفات التي فعت به إلى الحياة الثقافية الراديكالية. كان رجلا ينشد الحقيقة دائما . وبكل إخلاص. ولكن كانت هناك مناطق تحيز في عقله يحتفظ فيها بالحقيقة في وضع حرج، مما يضطره إلى الدفاع عن نفسه بضراوة. شدة بغضه لانجلترا، مزيج من معاداة الاستعمار، كراهية للنظام الطبقي الإنجليزي وعدم الشعور بالأمان ... بقيت فيه كل تلك المشاعر كما هي. في مذكراته بعد الحرب يشعر القارىء أنه كان يطحن على أسنانه وهو يكتب : «تشرشل إنسان مقزز ولا يمكن تحمله»، وعندما يقول ـ وبجدية شديدة ـ : «إن البريطانيين يحاولون أن تكون تجارة القنب في أيديهم»، وهذا نوع من الحقائق، أو ربما اللاحقائق، التي يمكن أن تأتي في سياق تقرير لقنصل فرنسي من الدرجة الثانية.

كان شديد الانتقاد لأخلاق وطبائع الإنجليز ويقول : «لقد تحولت إلى كاره للإنجليز هنا لدرجة أنني

أصبحت متعاطفا مع «ستالين» لأنه يجعل الأمور صعبة بالنسبة لهم»(٣٩). التقى في أحد الحفلات مع «إي. إم. فورستر» : «رجل دقيق الحجم تحسبه من أول نظرة موظفا صغيرا في محل نظارات طبية»، ويقول بكل عدوانية أنه بينما كان يشاركه الحماس بالنسبة لكتبه الثلاثة المفضلة : «الحرب والسلام» ، «الكوميديا الإلهية»، وكتاب «جيبون» : «سقوط وانهيار»، «كنت أعتقد أن «رأس المال» ينتمي إلى نفس المستوى»، وكانت تلك ملاحظة غريبة يبديها رجل أدب في مواجهة مثقف(٤٠). وعندما سأله «إيسايا برلين» إن كان «قد كره كل من التقى من شخصيات «لندن» الأدبية في «لندن» أجابه : «لا . لقد أحببت «ايڤيلين وو» و«سيريل كونوللي» أكثر من غيرهما»، لماذا ؟

«لأنني أعتقد أنهما الأكثر قذارة»(٤١).

كان عداؤه شديدا لكل مثقفي بريطانيا ورأيه فيهم لا يسر.

رأس «د. هـ. لورانس» صغير على نحو مشوه وكأنه عامل من عمال المناجم ناقصي النمو» .. كما رسم صورة بائسة لـ «سكوت فيتز جيرالد» وهو يرقد على الأرض سكرانا في ركن من الغرفة وعن «روبرت لويل» : «المجنون» وعن « كمنجز» بصوته «الأنثوي»، وعن «أودن» : «السمين» وعن «دوروثي پاركر» ذات العطر الرخيص، و«ڤان ويك بروكس» الذي لا يفهم في الأدب العظيم» و«سيريل كونوللي» الذي لا يستمع إلى أحد آخر، و«ت.س.اليوت» الذي «يخفي وغدا» في مكان ما «بداخله»(٤٢).

كان بداخل القاضي الأوليمبي كراهية شديدة. كما كان هناك خلل في التوازن بالنسبة للأمور العادية، ذلك الخلل الذي نجده في صفوف المثقفين أحيانا، والذي ظل ملازما لـ «ويلسون» طويلا بعد أن انفصل عنهم، وقد ظهر ذلك فجأة وبطريقة فاجعة في معركة «ويلسون» العنيفة مع المسئولين في هيئة العائدات الأمريكية الداخلية والتي كتب عنها كتابا غاضبا : كانت مشكلته بسيطة جدا، لم يسجل أي عائد لدى ضريبة الدخل بين عامي ١٩٤٦ ، ١٩٥٥ وهي مخالفة خطيرة جدا في الولايات المتحدة وفي كثير من الدول، وفي أمريكا يعاقب عليها القانون بشدة بالغرامة والسجن، وعندما اعترف «ويلسون» في البداية لأحد المحامين بأنه لم يسددها «أخبرني فورا أنني كنت في مأزق وأن أفضل ما يمكن عمله هو أن أصبح مواطنا يتبع دولة أخرى»(٤٣). ـ أي أن يحصل على جنسية أخرى ـ أما الأسباب التي ساقها لعدم تطبيقه للقانون فهي في غاية التفاهة. كان معظم سنوات شبابه كاتبا حرا. وفي نهاية ١٩٤٣ حصل على عمل منتظم في «النيويوركر» وكانت الضرائب تخصم عند المنبع من دخله هناك. وفي ١٩٤٦ نشر «مذكرات هيكاتي كاونتي» وهو العمل الوحيد الذي حقق نجاحا تجاريا، وحتي ذلك الحين كان أقصى دخل له هو ٧٥٠٠ دولارا كمحرر مشارك للـ «نيو ريپابليك» ، في ذلك العام أيضا كان قد تزوج مرة أخري وكان عليه أن يدفع «فواتير طلاقين» . كان يقول أنه كان ينوي أن يسدد ما عليه لضريبة الدخل، وكان الكتاب مازال يوزع جيدا والنقود تتدفق عليه .. وفجأة .. دخل الكتاب عالم النسيان وتوقفت النقود، وهكذا «اعتقدت أنه ربما يكون من الأفضل أن أنتظر بعض الشيء قبل أن أقوم بتسديد ما عليّ

عن الفترة من ١٩٤٥، وحدث ذلك بالفعل في ١٩٥٥ عندما نشرت «نيويوركر» دراسته الطويلة الممتازة «مخطوطات البحر الميت» والتي صدرت بعد ذلك في كتاب ناجح. حينذاك ذهب إلى محامي الضرائب والتي كانت نصيحته صدمة :

«لم يكن لدي آنذاك أية فكرة عن كيف أصبح نظامنا الضرائبي ثقيلا أو عن شدة العقوبة لعدم تسديد الضرائب»(٤٤). وكان ذلك اعترافا غير عادي. هنا رجل كتب كثيرا عن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلال الثلاثينيات، وقدم نصائح كثيرة للسلطات عن الإنفاق العام وتأميم الصناعات الرئيسية.

وكان قد نشر كتابه «إلى المحطة الفنلندية» وتتبع فيه بحماس تطور الأفكار التي تهدف إلى تثوير أوضاع الناس العاديين بالاستيلاء على الأصول الاقتصادية للبرجوازية.

فكيف كان تصوره أن تكون الدولة قد مولت مشروعها للصفقة الجديدة، ذلك المشروع الذي كان قد أيده بشدة ؟ ألم يشعر بأنها كانت مسئولية شخصية أمام الجميع لأن يساعدوا على نجاح ذلك الإصلاح، خاصة أمثاله، أولئك الذين كانوا يعبرون عن التزام أخلاقي مباشر نحو الأقل قدرة ؟ وماذا عن الشعار الماركسي الذي أقره من قبل ؟ «من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته» ؟ أم تراه كان يعتقد أن ذلك كان ينطبق على غيره وليس عليه ؟

وباختصار . هل كانت تلك حالة إنسان ثوري يقف في جانب الإنسانية عموما، ولم يكن يفكر في أي إنسان على نحو خاص ؟ إذا كان الأمر كذلك فلابد أنه يعتبر صحبة جيدة ـ أو سيئة ـ حيث يبدو أن «ماركس» لم يدفع أي «بنس» في حياته لضريبة الدخل.

كان موقف «ويلسون» في الحقيقة مثالا صارخا على المثقف الذي يقول للعالم ـ بحس أخلاقي ـ كيف يدير شئونه، ويظن أن النتائج العملية لمثل تلك النصيحة لا علاقة لها بأمثاله . إنها مجرد نصائح عامة !

محاميان وعدد من المحاسبين وخمس سنوات لتسوية حسابه مع جهاز الضرائب. ولابد أن يكون الجهاز قد سبب له بعض المتاعب : تقاضى منه ٦٩٠٠٠ دولار بسبب تجمع فائدة ٦ ٪ عن العشر سنوات بالإضافة إلى ٩٠ ٪ غرامة قانونية و٥٠ ٪ بسبب التهرب، ٢٥ ٪ بسبب التأخير، ٥ ٪ لعدم قيامه بتسجيل دخله، ١٠ ٪ لعدم الإعلان عن دخله الحقيقي، .. وقد كانت تلك عقوبة بسيطة نسبيا، لأنه كان من الممكن أن يسجن سنة واحدة عن كل مرة لم يسجل فيها دخله . علاوة على ذلك فلأنه ادعى الفقر، كان عليه أن يسدد ١٦٠٠٠ دولار رسوما قانونية، وفي النهاية قبل الجهاز المصالحة على أن يدفع لهم مبلغ ٢٥٠٠٠ دولار، ولذلك كان لابد أن يعتبر نفسه محظوظا. إلا أنه بدلا من ذلك كتب نقده العنيف «الحرب الباردة وضريبة الدخل : احتجاج»، وبكل المقاييس كان ذلك رد فل غير منطقي لما واجهه من

متاعب. لقد أعطاه ذلك رؤية داخلية مخيفة عن قسوة الدولة الحديثة في دورها لجمع الضرائب، بينما المفروض ألا يكون ذلك مفاجأة لرجل صاحب خيال، جعل من واجبه أن يدرس الدولة عمليا ونظريا.

فالشخص الذي وصل إلى هذه الدرجة المنخفضة من المعنويات ليهاجم الدولة، هو نفسه الذي لم يتجاهل إمكانياتها للشر عندما كان يؤيد توسعها على أسس إنسانية. ولكنه يبدأ في الاحتجاج فقط عندما يخطيء أو يكون ضحية لها بسبب إهماله. هذا ما يفسر موقف «ويلسون» بالضبط ـ في كتابه حاول أن يتفادي عدم اتساق أفكاره بقوله أن معظم عائد ضريبة الدخل يذهب للإنفاق على الدفاع بسبب جنون الحرب الباردة، ولكنه لم يدفع ضريبة دخله في ولايته والتي لم تذهب للدفاع.

كتاب «ويلسون» يظهره في أسوأ حالاته ويجعل الإنسان مقتنعا بأنه قد توقف عن أن يكون مثقفا سياسيا عندما وصل إلى الأربعين. وبعودته إلى دوره الطبيعي كرجل أدب، كان نضوجه مثمرا، يضم ذلك «مخطوطات البحر الميت» ـ ١٩٥٥ ـ «اعتذار إلى أروكيوس» ـ ١٩٥٩ ـ عن الكونفيدرالية الهندية ـ، «الدم الوطني» ـ ١٩٦٢ ـ عن أدب الحرب الأهلية الأمريكية.

هذه الكتب وغيرها تتسم بالشجاعة وبما بُذل فيها من جهد. فلكي يكتب «مخطوطات البحر الميت» تعلم العبرية بكل دأب واهتمام حتى يصل إلى الحقيقة، وهذا في حد ذاته جعله بعيدا عن معظم المثقفين، وكذلك لأن أبحاثه ودراساته كانت تتركز حول الناس كمجوعات وكأفراد ، أكثر منها حول أفكار مجردة.

نفس هذا الاهتمام هو الذي أعطي لونا وحيوية لنقده الأدبي وجعله ممتعا، لأن «ويلسون» كان يعي تماما، ويضع في تفكيره دائما أن الكتب ليست كيانات منفصلة، وإنما تأتي من قلوب وعقول بشر (رجال ونساء) أحياء. وأن مفتاح فهمها يكمن في افتراض أن البشر يمكن أن تنثني لكي تتناسب معها. إن فائدة الفن العظيم تكمن في الأسلوب الذي ينتهجه في الانتقال من التنوير الفردي إلى العمومية.

وعندما كان يتناول «إدناڤانسان ميلاي» التي كتب عنها بشكل رائع، كان «ويلسون» يقدم أكمل تعريف عن أسلوب عمل الشاعر :

«بتعبيرها الراقي عن التجربة الشخصية العميقة استطاعت أن تتوحد مع تجربة إنسانية أكبر وأشمل، وأن تكون متحدثا رسميا باسم روح الإنسانية»(٤٥).

وقد كانت إنسانية «ولسن» هي التي مكنته من فهم ذلك كله، الأمر الذي أنقذه من مغالطات العصر.

❖

الفصل الحادي عشر

«ڤيكتور جولانسز» : الضمير المضطرب !

أحد السمات المهمة التي تظهر لنا عند دراسة حالة كل من المثقفين على حدة، هي قلة اهتمامهم بالصدق أو الحقيقة، فهم في تلهفهم على تعزيز «الحقيقة المتجاوزة» التي يعتبرون أنفسهم مسئولين عن ترسيخها نيابة عن الإنسانية، لا يطيقون صبرا على الحقائق اليومية الموضوعية التى تعترض حججمهم تلك الحقائق التي يعتبرونها ثانوية أو غير مناسبة لهم، يقومون بإزاحتها جانبا أو يتلاعبون بها أو يعكسونها .. وربما قمعوها صراحة.

المثال الواضح على ذلك هو «ماركس»، ولكن المثقفين الذين تناولناهم حتي الآن عانوا من ذلك إلى حد ما، وكان الاستثناء الوحيد هو «ادموند ويلسون» الذي ربما لم يكن مثقفا حقيقيا بالمرة.

والآن نحن أمام اثنين من المثقفين لعب الخداع في أعمالهم وحياتهم دورا مركزيا وربما فاصلا، بما في ذلك خداع النفس.

الأول هو فيكتور جولانسز (١٨٩٣ ـ ١٩٦٧) الذي لم يكن مهما لأنه خلق فكرة بارزة، وإنما لأن وسيلته التي فرض بها أفكارا عديدة على المجتمع كانت قوية وحققت نتائج ملموسة، وربما كان أكبر مثقفي القرن خبرة بأمور الدعاية والترويج، لم يكن شريرا بأي حال من الأحوال، وحتي عندما يخطيء، كان يعرف ذلك وكان ضميره يوخزه. ولكن عمله يوضح لنا، على نحو تام، المدى الذي يمكن أن يلعبه الخداع في نشر الأفكار والترويج لها. حتى في حياته كان كل من له تعاملات معه يدرك كيف يمكن أن يكون فارسا مع الحقيقة.

والآن، بفضل أمانة ابنته «ليفيا جولانسز» التي فتحت أوراقه للفحص والدراسة، وبفضل النزاهة الفكرية لكاتبة سيرة من الطراز الأول هي «روث دادلي ادواردز» يمكننا أن نفحص طبيعة أكاذيبة ومداها على نحو دقيق(١).

كان «جولانسز» محظوظا في ميلاده وزواجه، فهو ينحدر من أسرة متحضرة كما تزوج من أسرة مشابهة. العائلة من يهود «بولندا» التقليديين. كان الجد قائد جوقة ترتيل في معبد «هامبرو»، أما والده

«ألكساندر» فكان جواهريا ناجحا ورجلا ذا ورع وثقافة. عمه «سيرهيرمان جولانسز» كان حاخاما وعالما في السامية ويؤدي الكثير من الخدمات العامة، وكان له عم آخر «إسرائيل جولانسز»، متخصص في «شيكسبير»، وكان سكرتيرا للأكاديمية البريطانية، وهو الذي أسس قسم اللغة الإنلجيزية في جامعة «لندن»(٢).

كانت إحدي عماته من خريجات «كمبردج» والأخرى عازفة بيانو شهيرة أما زوجته «روث» فكانت سيدة جيدة التعليم، تخرجت في مدرسة «سان پول» للبنات، حيث درست الفن وكانت مثل بقية أبناء عائلة «لوي» الذين نجحوا في الجمع بين الدراسة والفن والعمل. وكلن النساء على نفس مستوى الرجال فى طلب العلم والثقافة.

(ترجمت «بيللا لوي» كتاب «جراتيز» الشهير : «تاريخ اليهود»).

طوال حياته إذن، كان «جولانسز» محاطا بأناس لهم علاقة بكل ما هو راق ومهم في الحضارة الأوربية. ومنذ الصغر كانت كل الفرص مهيأة له لكي يستمتع بها. الولد الوحيد لوالدين معجبين به، والشقيقات خانعات، وكان يُعامَل بالفعل معاملة طفل وحيد. كان مصروف جيبه كبيرا، ويكفي أن يجعله يحب الأوپرا ويدمن الذهاب إليها، وكان قد عرفها في وقت باكر ـ عندما كان في الحادي والعشرين من عمره حيث شاهد أوبرا «عايدة» ٤٧ مرة ـ وكان التجول بين دور الأوپرا في العالم هو البرنامج المفضل لعطلاته حتي آخر العمر(٣). حصل على منحة من «سان پول» كما حصل على تعليم كلاسيكي ممتاز ـ كان يقوم بترجمة الافتتاحية الرئيسية في التيمز إلى اليونانية واللاتينية مرتين كل أسبوع ـ ثم ذهب لدراسة الأوپرا في «نيوكولدج ـ أكسفورد». بعد ذلك حصل على جائزة المقال اللاتيني ثم على الجائزة الأولي في العلوم الكلاسيكية.

كان «جولانسز» بالفعل مثقفا راديكاليا، استمد زادا قويا من «إبسن» و«ميترلنك» و«ويلز» و«شو» و«والت ويتمان»، ويبدو أنه كان قد حسم أمره منذ وقت باكر بالنسبة لمعظم القضايا الكبري ولم يجد سببا لتغيير أفكاره فيما بعد.

كان زملاؤه في المدرسة والجامعة يرونه جامد الفكر «دوجماتيك»، واثقا بنفسه أكثر مما يجب، ولم يكن محبوبا في أي من المكانين، تخلي عن اليهودية التقليدية في سن باكرة، قائلا أنه لا يستطيع أن يتحمل السير لمدة ٤٠ دقيقة (وسائل النقل ممنوعة يوم السبت عند اليهود) من منزله في «ميدافيل» إلى معبد «بايز ووتر»، وكانت تلك مبالغة واضحة، حيث كانت المسافة لا تستغرق أكثر من ربع الساعة، سار على الطريق المعتادة عبر اليهودية الإصلاحية إلى لا شيء، ساعده على ذلك «جلبرت موراي» أحد كبار الملحدين في «أكسفورد»، ولكنه صنع لنفسه فيما بعد نمطا خاصا من المسيحية الأفلاطونية تتمركز حول المسيح «المفرد الأسمي» كان لهذا النوع من الاعتقاد ميزة كبرى هي تزويده برواد ع دينية عند أي مواقف علمانية يتبناها، ولكنه كان لا يجد غضاضة في رواية النكات غير المؤذية عن اليهود.

أبعده ضعف بصره عن الحرب العالمية الأولى لبعض الوقت، بعد ذلك مر بمرحلة صعبة وهو ملازم ثان في وحدات البنادق في «نورثمبرلاند» حيث خالف القواعد العسكرية وتعرض للمحاكمة، ففر هاربا ليعمل بالتدريس في «ريبتون». كان نصف داعية للسلام (رغم عدوانيته الاستثنائية)، وداعية نسائيا من الناحية النظرية، وشخصية اجتماعية ومعارضا لعقوبة الإعدام ومصلحا لقانون العقوبات، كما كان في ذلك الوقت من «اللاأدريين»★. كتب فيما بعد يقول: «لقد اتخذت قراري، سوف أتكلم في السياسة مع هؤلاء الأولاد ومع غيرهم ممن سأجدهم يوما بعد يوم»(٤). وكانت تلك قد أصبحت كلمة السر في حياته: كان رائيا، مشعوذا، استطاع أن يمسك بحقيقة، أو بالحقيقة. وكان كله عزم على أن يدقها في رؤوس الآخرين، ولم يزعجه على الإطلاق أن يكون الآباء غير راغبين في تعرض أبنائهم لدعاية مخربة من شخص مثله. وكان يدافع عن هذا النهج هو وزميله «د.س.سومرڤيل» وكتبا كراستين: «التربية السياسية في المدارس العامة» ـ وهي دعوة لتدريس السياسة في المدارس العامة كشيء أساسي في عملية التعليم ـ و«المدرسة والعالم».

وقد لاحظ «چيوفري فيشر» ـ ناظر المدرسة ـ الذي أصبح أسقف «كانتربري» فيما بعد ـ قدرة «جولانسز»، وأن أحدا لم يكن ليستطيع أن يجاريه، فحذره حتى لا يتمادى. وبعد ذلك أنهوا خدمته قرب عيد الفصح في سنة ١٩١٨ بتوصية من مكتب الحرب الذي كان قد أعد ملفا عن النشاطات السلامية في «ريبتون».

بعد ذلك عمل «جولانسز» موظفا في وزارة التغذية، مسئولا عن توزيع حصص «الكوشر»، ثم لفترة قصيرة في «سنغافورة»، ثم في مجموعة للبحث، ثم لدى مؤسسة «رونتري»، وفي النهاية وجد الوظيفة التي تناسبه في مجال النشر لدى «بن براذرز».

كانت الشركة تصدر عددا كبيرا من المجلات مثل: «زارعي أشجار الفاكهة» و«عالم الغاز»، كان يجد أنها مملة، إلى جانب الكتب التي كانت في معظمها مراجع. وقد استطاع «جولانسز» أن يقنع «السير إرنست بن» بأن يحول قسم الكتب إلى شركة مستقلة، بعمولة وأسهم، وفي خلال ثلاث سنوات حققت نجاحا كبيرا. وقد سجل «بن» في يومياته: «إنها تعتبر شهادة على عبقرية «ڤيكتور جولانسز» المسئول الوحيد عنها، وهو يهودي وخلطة نادرة من التربية والمعرفة الفنية والكفاءة في العمل التجاري»(٥).

أما سر نجاح «جولانسز» فهو إصداره مجموعات من الكتب من جميع المستويات وبأسعار مختلفة لا تتأثر بحكم طبيعتها بتقلبات السوق، مع قيامه بدعاية كبيرة لها. فأصدر كتبا عن موضوعات فنية جديدة مثل التليفونات الآلية التي كانت تهم أصحاب الأعمال، كما كان ينشر الأدب الروائي المباح. كما أنه هو الذي بدأ المكتبة الناجحة المعروفة بمكتبة «بن» ذات الست «پنسات»، وهي سلسلة من الكتب كانت

★ الذين يعتقدون بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها، واسم المذهب «اللاأدرية»: Agnosticism

إرهاصا بسلسلة «پنجوينز» الشهيرة.

ومن ناحية أخري كان ينشر كتب الفن الغالية الثمن، مثل «الأميرة النائمة» مستخدما تصميمات «باكست»، وكما يقول «دوجلاس چيرولد» المساعد اللامع الذي عينه معه، فإن كتب الفن كانت تتضمن بعض الغش، كانت ألواح الألوان مزيفة يقوم بتلوينها رسامو المنمنمات ثم يتم تصويرها(٦) . وفي سنة ١٩٢٨ كان يكسب خمسة آلاف جنيه سنويا، ولكنه كان يريد أن يكون له نصف أسهم الشركة وأن تصبح باسم : «بن وجولانسز»، وعندما رفض «سير ارنست بن» أنشأ «جولانسز» شركة خاصة به وأخذ معه أفضل المؤلفين من شركة «بن» مثل «دوروثي.ل.سايرز». كانت الشركة الجديدة ببنيتها وتنظيمها تحمل كل علامات مقدرة «جولانسز» على إقناع الناس بقبول كل ما يحقق مصالحه على حساب مصالحهم(٧) . ساهم فيها بأقل من نصف رأس المال، ولكنه ظل المدير المسيطر بالفعل، يتحكم في الأصوات، وله ١٠ ٪ من الأرباح قبل دفع العائدات. وكان ذلك أشبه بالتنظيم الذي أقامه «سيسيل روس» لمؤسسة الذهب والماس في جنوب أفريقيا، وربما تكون الفكرة قد جاءت إليه من هنا. حققت الشركة نجاحا كبيرا من البداية، وكان المستثمرون يكسبون ما يكفي لإسكاتهم، وقد نجح «جولانسز» لأنه كان يبيع كميات كبيرة من الكتب خاصة الرواية ، بأسعار منخفضة.

كانت الكتب رخيصة التكلفة والأغلفة براقة ملونة من تصميم فنان كبير مثل «ستانلي موريسون» ، مع دعاية لم يسبق لها مثيل في عالم النشر في بريطانيا أو أمريكا. وإلى جانب تلك الأسباب التجارية لازدهار الشركة كانت هناك دائما عمليات الاحتكار والخداع. كان له جواسيسه الذين ينقلون إليه أسرار الشركات الأخري، خاصة فيما يتعلق بالمؤلفين المختلفين معهم أو الذين لا يشعرون بالرضا. وعندما كان يجد كاتبا من هذا النوع الذي يستحق أن يأخذه لشركته كان يكتب له رسالة طويلة لإقناعه، وكان يجيد ذلك. كما كان بعضهم يأتي إليه دون إيعاز لأن «جولانسز» ـ في أيام عزه ـ كان بارعا في الدعاية والترويج للكاتب الجديد، وفي تحويل الكتب الراكدة إلى سلعة جيدة التوزيع، وبشكل أفضل من أي ناشر على الشاطيء الآخر للأطلنطي، ولكن الكاتب كان يكتشف العيوب بمجرد انتقاله إلى معسكر «جولانسز» الذي كان يعتقد أن الدعاية أهم من النصوص ذاتها في عملية تسويق الكتب، ولذلك لم يكن لديه أي شك في إجبار المؤلفين على قبول مقدمات ضئيلة وعائدات قليلة لكي يزيد من ميزانية الدعاية، وكان يكره الوكلاء الذين لا يعجبهم ذلك، ويحاول بقدر الإمكان أن يقنع الكتاب بألا يكون لهم وكلاء. أما الكتاب الذين كان يحبهم فأولئك الذين لا يهتمون بالمال مثل «دافني دو مورييه».

كان يتفق مع الكتاب شفهيا ويعتقد أن له ذاكرة حادة، وكانت لديه قدرة مدهشة على إعادة كتابة التاريخ في رأسه ثم الدفاع عن الصيغة الجديدة باقتناع تام. وهكذا كانت هناك دائما خصومات واتهامات متبادلة. عندما اتهمه الروائي «لويس جولدنج» بأنه لم يدفع له مستحقاته عن روايته «ماجنوليا ستريت» التي بيعت جيدا، رد عليه برسالة من ست صفحات تفيض بالإخلاص والاستقامة المجروحة ليثبت له أن تصرفه

معه لا غبار عليه !

كما كتب إلى وكيل شك في ذاكرته : «كيف تجرؤ على ذلك ؟ أنا لا أخطىء(٨)» ، وكان يدعم تلك التكتيكات التجارية العنيفة بنوبات من الغضب والصراخ، وعندما يستثار كان صوته يدوي في أرجاء المبني. كان يحب أن يتنقل في مكتبه وفي يده تليفون بسلك طويل وهو يصرخ في السماعة لمن يحدثه من وكلائه أو أعدائه الآخرين .. كما كانت رسائله تتأرجح بين الغضب الهستيري والدفاع المداهن ـ وكان بارعا فيه ـ وربما يحدث ذلك أثناء مناقشة موضوع واحد. وعندما يكون في حالة ثورة يؤجل الرسالة لمدة يوم مثلا لكي يدع «الشمس تغرب على غضبي» ، ولذلك يوجد بعض الخطابات في ملفه وعليه تأشيرة : «لم يرسل». كان بعض المؤلفين يخضع ويستسلم، والبعض الآخر يتسلل إلى شطآن أكثر هدوءا، ولكن في الثلاثينيات والأربعينيات على الأقل كان الميزان في صالح الشركة ،كذلك كانت توجد أسباب أخري لزيادة الأرباح حيث كان يدفع أجورا منخفضة. وعندما كانت تظهر حاجة حقيقية كان يدفع مكافأة أو يعرض سلفة بدلا من زيادة المرتبات أو المبالغ التي يدفعها مقدما، سبب آخر جعله يعطي أجورا أقل حتى بمقاييس مهنة النشر هو أنه كان يقوم بتشغيل النساء بدلا من الرجال كلما كان ذلك ممكنا. كان يستطيع أن يبرر ذلك بقوله أنه يقف إلى جانب الحركة النسوية ولكن الأسباب الحقيقية ليست كذلك، فالنساء أولا يمكن أن يقبلن بأجور أقل وظروف عمل أصعب، وثانيا فهن أكثر انقيادا لأسلوبه في العمل. كان يثور في وجوههن، يجعلهن يبكين فيحضنهن ـ كانت عادته في تقبيل النساء غريبة وغير مألوفة في الثلاثينيات ـ ويناديهن بأسمائهن الأولى أو بأسماء الدلع، ويغازلهن. وكانت بعض النساء تحب هذا الجو العاطفي في مكاتبه. وكن يعرفن أيضا أن شركة «جولانسز» هي المكان الوحيد الذي تتوفر فيه فرصة للترقي إلى مناصب عليا، رغم قلة الرواتب. كان يسمح لهن بفرصة للاستبداد. في مذكرة للعاملين في شهر ابريل ١٩٣٦ يتضح لنا جو العمل في مكاتبه وهو في قمة نجاحه : «لقد لاحظت منذ فترة غياب تلك الروح التي كانت سائدة بين العاملين وتبعث الحياة في جو العمل ... إن افتقاد تلك السعادة القديمة قد سبب لي قدرا من عدم السعادة، وأعتقد أننا لابد أن نعود إلى تلك العاطفة القديمة مع قدر من القيادة، لذا قررت أن أجعل «مس ديبز» رئيسا ومشرفا على جميع العاملات والموظفات في الطابق الرئيسي، وبذلك تشغل المنصب الذي كان يشغله رئيس مجلس المصنع في الصناعة السوفيتية(١٠) .

وفي ظل هذا التنظيم البطريركي انتعش بعض النسوة، إحداهن واسمها «شيلا ليند» رقيت لتصبح عشيقته، وكان يصحبها معه في الإجازات (ثلاث مرات) وكان يسمح لها بأن تناديه «حبيبي الريس» . أما الرجال فكان وضعهم صعب، ولم يكن السبب عدم قدرته على اكتشاف «دوجلاس چيرولد» أحد أفضل الناشرين في جيله، ولكنه لم يف بوعده بأن يجعله يعمل معه في الشركة الجديدة.

اكتشف «نورمان كولينز» أحد رجال الإعلام البارزين ولكنه افتعل معه خلافا في النهاية وطرده لتحل محله امرأة خانعة. كما انتهت علاقته بـ «ستانلي موريسون» أحد مهندسي نجاح الشركة بفاصل من

الصياح وبرحيل «موريسون». كان بينه وبين المؤلفين من الرجال خلافات ونزاعات باستمرار. بعد الحرب جاء بابن أخيه «هيلاري روبنشتاين» وكان موظفا ممتازا واستغله عدة سنوات ثم طرده.

إن أحد موضوعات هذا الكتاب هو أن الحياة الخاصة والمواقف العامة لبعض كبار المثقفين لا يمكن الفصل بينها، كما أن الرذائل ونقاط الضعف تنعكس على مسرح الحياة في السلوك. وقد كان «جولانسز» مثالا بارزا على هذا المبدأ. كان أحد وحوش خداع الذات. وبخداعه لنفسه، استمر في خداعه للآخرين وعلى نطاق واسع. كان يعتقد أنه فاعل خير كبير .. وبالفطرة .! ومخلص للإنسانية ...!

والحقيقة أنه كان في غاية الأنانية، متمركزا حول نفسه وبدرجة لا علاج لها، ويمكن ملاحظة ذلك على نحو خاص في علاقته بالنساء، كان يتظاهر بالإخلاص لهن خاصة من كن يتبعنه، والحقيقة أنه كان يحبهن طالما كن في خدمته. كان مثل «سارتر» يحب أن يكون الطفل المراهق الذي تحيط به الأنوثة من كل جانب. ولأن وجود أمه كان يتمحور حول والده ـ وليس حوله ـ قام بطردها من حياته، ولا يظهر اسمها في سيرته الذاتية إلا نادرا، كما يعترف في رسالة كتبها في سنة ١٩٣٥ «أنا لا أحبها».

طوال حياته كان يحيط نفسه بالنساء ولكنه كان يريد دائما أن يكون اهتمامهن الأول، وجد أنه لا يمكن أن يحتمل فكرة المنافسة مع الرجال. في الشباب كان هناك شقيقاته المعجبات به، بعد ذلك كانت هناك زوجته المعجبة به والتي أنجبت له بعد ذلك مجموعة من البنات المعجبات به ! وهكذا كان هو الذكر الوحيد في أسرة من ستة أفراد. كانت «روث» ذات عقل ذكي وقدرات ممتازة، ولكن «جولانسز» لابد أن يكون شغلها الشاغل. لم ترفض له سوى طلب واحد، وهو أن تتوقف عن الذهاب إلى المعبد اليهودي،باستثناء ذلك كانت عبدا مطيعا. كانت تدير منازله في «لندن» والريف وتقود السيارة عند الضرورة لتوصيله، وتقص له شعره وتدبر أموره المالية (التي وللغرابة لم يكن يستطيع تدبيرها)، وتعطيه مصروف الجيب وتشرف على كل أموره الشخصية. كان كالأطفال لا حول ولا قوة في أمور كثيرة، وكان يحلو له أن يناديها بـ «مامي». عندما يسافرون إلى الخارج كان الأطفال والمربيات ينزلون في فندق آخر ـ أرخص ـ لكي تفرِّغَ «روث» نفسها تماما له. تحملت خياناته وعاداته القبيحة في تحسس أجساد النساء، الأمر الذي جعل «جـ .ب.بريستلي» يعلق بقوله : إن الزنا يعتبر نقيا، مقارنة بما يفعله «جولانسز». كان يحب أن تشرف على عشيقاته (مثل حالة «هيلين ويجل» عند «بريخت» و«دو بوفوار» عن «سارتر»، لأن ذلك كان يعني أنها تغفر له ويبعده عن الشعور بالذنب . ولكنها لم تفعل ولم ترضخ لذلك.

كان يطلب الولاء والتبعية منهن جميعا سواء كن من بين أعضاء الأسرة أو من بين العاملين، حتى فيما يتعلق بالرأي. رفض مرة أن يعطي عملا لامرأة لمجرد أنها لم توافق معه على ضرورة إلغاء عقوبة الإعدام. كان يحتاج إلى إخلاص نسائي ـ مهما كان جزئيا ـ لكي يهدأ من مخاوفه غير المنطقية عندما يخرج والده للعمل فى الصباح كانت أمه تعتقد أنه لن يعود ويتملكها القلق، وقد ورث «جولانسز» هذا الخوف الذي يركزه على «روث»، كما أن العادات الغريبة التي كونها وهو شاب أدت إلى أرق مرضي مما

عمق من مخاوفه. ورغم قدرته المذهلة على الخداع إلا أنه لم يستطع أن يسكن ضميره المترصد والذي كان يكمن له على هيئة ذنب، ولذلك فإن وساوسه التي اتسع مداها وتنوعت عندما كبر في السن، كانت غالبا ما تعبر عن هذا الذنب. كان «جولانسز» يعتقد أن علاقاته الجنسية غير الشرعية لابد أن تنتهي بأمراض تناسلية وكانت معلوماته عنها قليلة. كما يعتقد كاتب سيرته أنه كان يعاني من هيستيريا المرض السري، أصيب في منتصف الحرب بانهيار جسدي مصحوب بحكة مؤلمة وآلام جلدية وشعور بالتدهور مخيف. كان «لورد هوردر» يعتقد أنه مصاب بفرط حساسية في الأعصاب، وكان أهم أعراض ذلك اعتقاده بأنه لن يكون قادرا على استخدام عضوه. وكما كتب في أحد أجزاء سيرته : «بمجرد أن أجلس يختفي العضو، كنت أشعر به بتراجع وينكمش بداخلي».

كان مثل «روسو» تستبد به الهواجس بخصوصه ولأسباب غير واضحة، وكان يخرجه باستمرار ليفحصه ويري إن كانت هناك أعراض لذلك عدة مرات في اليوم في مكتبة وبالقرب من شباك يغطيه الثلج يظن أن أحدا لا يراه من خلاله، ولكن أعضاء المسرح المقابل كانوا يلاحظونه . وكانت عادة مزعجة(١١).

وقد سبب خداع «جولانسز» لنفسه معاناة كثيرة له وللآخرين، ولكن الواضح أن رجلا من هذا النوع كانت قبضته على الحقيقة الموضوعية ضعيفة في نواح كثيرة، لم يكن مؤهلا بطبعه لتقديم المشورة السياسية للإنسانية. كان طوال حياته اشتراكيا على نحو أو آخر ويعتقد أنه كان منذورا «لمساعدة العمال»، وكان مقتنعا بأنه يعرف كيف يفكرون وماذا يريدون. والحقيقة أنه لا يوجد دليل واحد على أنه عرف عاملا واحدا طوال حياته، إلا إذا استثنينا رئيس حزب العمل البريطاني «هاري پوليت»، الذي كان يعمل في صناعة المراجل ذات يوم. كان لدى «جولانسز» عشرة من الخدم في منزله في «لادبروك جروف» في لندن، وثلاثة عمال في حديقة منزله الريفي في «برومپتون ـ بيركشاير»، ولكنه لم يكن يتصل بأحد منهم إلا من خلال الرسائل. كان ينكر بشدة أنه لا علاقة له بالپروليتريا. وعندما اتهمه أحد المؤلفين الذين يعملون لديه بأنه يؤخر مستحقات العاملين من أجل الطبقة العاملة(١٢).

كان «جولانسز» يعتقد أنه يعيش حياة شبه رهبانية، والحقيقة أنه منذ منتصف الثلاثينيات كان لديه سيارة بسائق ويدخن السيجار الكبير ويشرب الشمپانيا المعتقة ويستمتع بمائدة غذاء عامرة يوميا في فندق «سافوي». كان دائما ينزل في أفخم الفنادق، ولا يوجد أي دليل على أنه حرم نفسه من أي شيء كان يريده، وتوجد حقيقة غريبة وهي أن إسهامه في القضايا النشطة المعارضة للرأسمالية كان في الفترة ١٩٢٨ ـ ١٩٣٠، وهي بالضبط نفس الفترة التي أصبح فيها رأسماليا ناجحا، كان يقول إن الرأسمالية تشجع ميل الإنسان الفطري للجشع وبالتالى للعنف . فى سبتمبر ١٩٣٩ نجده يكتب إلى الكاتب المسرحى «بن ليڤي» أن : «رأس المال» لـ «ماركس» في رأيي هو رابع أجمل كتاب في الأدب العالمي وأنه يجمع بين ميزات قصة بوليسية من الطراز الأول وأحد الأناجيل».. هل قرأه فعلا؟»(١٣).

وكانت تلك مقدمة لعلاقة حب طويلة مع الاتحاد السوفيتي. لقد التهم تقرير «ويبز» عن كيفية عمل النظام السوفيتي(١٤)، ووصفه بأنه «تقرير مدهش»، وأن أجزاءه مكرسة لإزالة الشكوك والفهم الخاطيء للطبيعة الديمقراطية للنظام، «وتلك أهم أجزاء الكتاب»(١٥). وفي الوقت الذي كانت فيه أعمال القمع في قمتها كان يصف «ستالين» بأنه «رجل العام». بدأ «جولانسز» نشاطه السياسي الخاص بأن طلب من «رامساي ماكدونالد» الزعيم العمالي مقعدا في البرلمان ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، فركز على النشر التعليمي. ومنذ أوائل الثلاثينيات كان يقدم نسبة متزايدة من كراسات الدعاية السياسية التي كان من بينها «دليل الرجل الذكي عبر الفوضى العالمية» من تأليف: «ج.د هـ. كول» وكانت نسبة توزيعه هائلة، وكتاب: «ماذا يريد «ماركس» حقيقة؟ «لنفس المؤلف، وكتاب «چون ستراشى»: «الصراع القادم على السلطة»، وهو مؤلف شديد اليسارية، ربما كان له أثره الكبير على جانبي الأطلنطي أكثر من أي كتاب آخر في ذلك الوقت(١٦).

عند هذه النقطة كان «جولانسز» قد توقف عن أن يكون ناشرا تجاريا كما كان سابقا وأصبح داعية سياسيا، وعند هذه النقطة أيضا بدأ خداعه المنظم. أحد علامات هذه السياسة الجديدة رسالة إلى القس «پيرسي ديرمر» من هيئة كنيسة «وستمنستر» المفوض بتحرير كتاب «المسيحية والأزمة». والكتاب الذي وضعه يجب أن يكون «رسميا». ويضم مساهمات «عدد كبير من أهم شخصيات الكنيسة». ولكنه كتب: «ربما أكون ناشرا غريبا في هذا الخصوص وبالنسبة لموضوعات أعتقد أنها ذات أهمية حيوية، فأنا حريص ألا أنشر شيئا لا أوافق عليه». ولذلك يجب أن يبدأ الكتاب من نقطة أن «المسيحية ليست مجرد دين خلاص شخصي وإنما يجب أن تهتم بالسياسة «ولابد أن تتجه نحو الاشتراكية العملية المباشرة ونحو الدولية»(١٧)

ورغم هذه العوامل الواضحة في الخداع والتمويه إلا أن هيئة الكنيسة وضعت الكتاب وظهر في سنة ١٩٣٣، وكان يعطي تعليمات مشابهة للمؤلفين الآخرين. كانت توجيهات «جولانسز» لـ «ليونارد ولف» محرر كتاب «طريق الرجل الذكي لمنع الحرب»» أن الفصل الأخير بعنوان « الاشتراكية الدولية مفتاح السلام» هو أهم فصول الكتاب، وأن بقية الفصول الأخرى لابد أن «تؤدي وتوصل عن قصد إلى هذا الفصل الأخير»، ومن أجل إخفاء هذا الهدف يفضل «ألا يكتب الفصول الأولي من الكتاب «أشخاص معروفون بارتباطهم بالاشتراكية»(١٨).

وعلى مدي الثلاثينيات كان عنصر الخداع يكبر ويزداد وضوحا. في رسالة داخليةإلى محرر كان ينقد كتابا عن اتحادات العمال من تأليف الشيوعي «چون ماهان»، كان «جولانسز» يشكو: «النقد يفضح الجناح اليساري، يجب أن نتجنب ذلك بالنسبة لهذا الموضوع تحديدا»، أما ما كان يريده فهو «يجب تقديم وجهتي النظر بطريقة تجعل القارىء يصل إلى النتيجة الصحيحة». في جميع كتب «جولانسز» كانت هناك كافة أساليب خداع القارىء. كان دائما يكتب «الجناح اليساري» بدلا من «الحزب

الشيوعي». في كل رسائله كان يمارس القمع المصحوب بشكوىٍ من وخز الضمير. في رسالة إلى «ويب ميللر» بخصوص كتاب عن «إسبانيا»، طلب حذف فصلين يعرف أنهما صحيحان ويقول: «أشعر بالحزن وربما بالخجل وأنا أكتب هذه الرسالة»، كان يعرف أن كلام «ويب»: «لا يوجد فيه أي مبالغة» ولكن «أجزاء كثيرة من هذين الفصلين سوف تستخدم كدعاية ضد الشيوعية وكدليل على بربريتها». كان يشعر أنه لايستطيع أن ينشر أي شيء يمكن أن يستخدمه الطرف الآخر في دعايته ويضعف التأييد الشيوعي» ويضيف:

«قد يعتقد ميللر» أن في ذلك تلاعبا بالحقيقة وهذا ليس صحيحا:فالمرء لابد أن يضع النتيجة النهائية في الاعتبار» ثم توسله الأخير: «أرجو أن تسامحني» مثلما كان يطلب دائما من «روث» أن تغفر له وجود عشيقة في حياته»(١٩).

ورغم أن بعض تعلمياته للمؤلفين كانت تنطوي على الغش، إلا أنها كانت مشوشة بشكل غير عادي ـ بسبب وخز ضميره المبرح ـ كتب إلى مؤلف كتب تاريخية : أريدك أن تنجز العمل بأعلى درجة من التجرد، ولكنني في نفس الوقت أريد من كاتبي المتجرد أن يكون ذا عقل ثوري» ويضيف، «إن ثورية المؤلف هي الضمان حتى لا تتجه ميوله الوجهة الخطأ».

والواضح من رسائله أنه في تلك المرحلة كان يريد كتبا مُحَرَّفَة بشرط ألا تبدو كذلك. وتلك الرسائل التي اكتشفت في ملفاته كانت مهمة جدا لأنها توضح حالة من الحالات النادرة التي يوجد فيها دليل واضح على قيام أحد المثقفين بتسميم آبار الحقيقة، ويعرف أنه ينحو نحوا خاطئا ويبرر خطأه بادعاء قضية أسمي من الحقيقة ذاتها.

كان «جولانسز» يمارس عدم الأمانة على نطاق واسع. بعد صعود «هتلر» إلى السلطة في يناير ١٩٣٣ قرر أن يحذف من قائمته أي كتاب لم يحقق ربحا أو يخدم هدفا دعائيا. كما بدأ مشروعات ضخمة للدعاية الاشتراكية ولصورة الاتحاد السوفيتي، كان المشروع الأول هو «المكتبة السوفيتية الجديدة» وهي سلسلة من كتب الدعاية لمؤلفين سوفيت ومن خلال السفار السوفيتية والحكومة مباشرة، ولكن حدثت صعاب غير متوقعة فكان الحصول على النصوص أمرا صعبا، حيث أن فكرة السلسلة تصادفت مع حملات القمع، واختفي فجأة عدد من المؤلفين المقترحين في سجون ومعتقلات «الجولاج» أو أعدموا.

وكانت بعض النصوص ترسل إليه دون اسم المؤلف وتملأ الخانة فيما بعد ليضع إسما غير اسم الكاتب الذي تم إعدامه، ثم حدثت نكسة أخري أكثر أسفا هي نكسة «أندريه فيشنسكي» المدعي العام السوفيتي الذي كان يقوم في نظام «ستالين» بنفس الدور الذي يقوم به «رولاند فريزلر» عند «هتلر»، وهو رئيس محكمة الشعب، كان اسمه هو المقترح لتأليف كتاب : «العدل السوفيتي» ولكنه كان مشغولا بإصدار أحكام الإعدام على رفاقه السابقين فلم يكتبه.

وعندما وصل النص أخيرا وجد مكتوبا بطريقة رديئة بادية التسرع ولكن قراء «جولانسز» كانوا لايعرفون شيئا عن ذلك ، وعلى أية حال عندما ظهرت السلسلة كان «جولانسز» مشغولا بمشروع أكبر هو «نادي الكتاب اليساري» ، الذي أنشأه أصلا ليواجه عدم استعداد باعة الكتب للدعاية للكتب اليسارية كما ينبغي، بدأ النادي بحملة دعائية ضخمة في فبراير ـ مارس ١٩٣٦ ، وتصادف مع تبني «الكومنتيرن» لسياسة «جبهة شعبية» عبر أوروبا ، وفجأة توقفت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية مثل «العمل» عن أن يكونوا «اشتراكيين فاشست» وأصبحوا «رفاق نضال» !!

وافق أعضاء نادي الكتاب اليساري أن يشتري كل منهم بمبلغ نصف كراون كل شهر (ولمدة ٦ شهور على الأقل) كتبا تختارها لجنة مكونة من ثلاثة : «جولانسز» شخصيا و«چون ستراشي» والپروفيسور «هارولد لاسكي» من مدرسة الاقتصاد في «لندن» ، كما كانوا يحصلون بالمجان على نشرة أخبار الكتاب اليساري الشهرية مع الحق في المشاركة في أنشطة كثيرة : مدارس صيفية، ندوات، غذاء، فصول تعليم اللغة الروسية، إضافة إلى استخدام النادي(٢٠). كانت الثلاثينيات هي العصر الذهبي للجماعات المشتركة، وأحد أسباب نجاح «هتلر» في ألمانيا أنه خلق عددا كبيرا منها لجميع الأعمار ولكل الاهتمامات، وقلده الحزب الشيوعي متأخرا وبرهن نادي الكتاب اليساري على فعالية هذا الأسلوب.

كان الهدف الرئيسي عند «جولانسز» هو تحقيق ٢٫٥٠٠ مشتركا بنهاية مايو ١٩٣٦ ، والذي حدث أنه حقق ٩٫٠٠٠ ثم ارتفع العدد في النهاية إلى ٧٥٫٠٠٠ وكان أثر النادي أوسع وأعمق مما تعكسه هذه الأرقام، كما كان الأفضل بين كل المؤسسات الإعلامية في الثلاثينيات والأكثر نجاحا في وضع برنامج له وفي إدارة المناقشات، ومع ذلك كله كان مؤسسا على سلسلة من الأكاذيب. الكذبة الأولى والتي جاءت في الكتيب الخاص به هي أن لجنة الإختيار «تمثل وبدرجة متساوية كافة الآراء في الحركة اليسارية النشطة والجادة» ، والحقيقة أن نادي الكتاب اليساري ـ ولكل الأسباب العملية ـ كان يدار لصالح الحزب الشيوعي . في تلك المرحلة كان «جون ستراشي» تحت سيطرة الحزب الشيوعي تماما(٢١) ، «لاسكي» كان عضوا في حزب العمال وكان قد انتخب في لجنته التنفيذية ولكنه تحول إلى الماركسية في ١٩٣١ وكان يتبع خط الحزب الشيوعي حتي سنة ١٩٣٩(٢٢) ، و«جولانسز» كان أيضا عاطفا على مباديء الحزب مروجا لها دون أن يكون عضوا به حتي نهاية سنة ١٩٣٨ ، وكان ينفذ كل ما كان يطلبه منه. كتب مقالا مثيرا للإشمئزاز من أجل جريدة الحزب «الديلي وركر» بعنوان : «لماذا أقرأ الديلي وركر» استخدمته في الترويج لنفسها، يتحدث فيه عن إخلاصها للحقيقة والدقة والثقة في ذكاء القاريء ـ وكان يعرف أن ذلك كله لا أساس له من الصحة ـ وقال : «فيها سمات الرجال والنساء وليس السيدات والسادة، ومن جانبي أنا الذي التقي بكثير من السيدات والسادة وأجد أكثرهم مزعجا، أرى أن سمات هذه الجريدة منعشة»(٢٣). كما زار روسيا (١٩٣٧) وأعلن : «لأول مرة أشعر بالسعادة تماما ... هنا يمكن أن ينسى الإنسان الشر الموجود في العالم»(٢٤) ، إلا أن أكبر خدمة قدمها «جولانسز» للحزب الشيوعي هي أنه وضع كوادره في نادي الكتاب اليساري.

«شيللا ليند» ،«إميل بيرنز» و«چون لويس» الذين كانوا يقومون بتحرير كل المواد، و«بيتي ريد» التي كانت تنظم مجموعات النادي، كانوا طوال الوقت أعضاء في الحزب الشيوعي أو خاضعين له، وكانت كل القرارات ـ حتي ذات الطبيعة الثانوية ـ تناقش مع مسئول الحزب الشيوعي. «جولانسز» نفسه كان يتعامل مع «پوليت» سكرتير عام الحزب، ولكن لا شيء من ذلك كان معروفا للجمهور. كان نادي الكتاب اليساري يشير إلى أعضاء الحزب بـ «الاشتراكيين» لكي يخفي انتماءهم. كل الكتب الخمس عشرة الأولي المختارة باستثناء ثلاثة كانت من تأليف أعضاء في الحزب الشيوعي أو شيوعيين منتسبين إليه سرا، وكان ذلك أمرا مقلقا لـ «جولانسز» لم تكن حقيقة الأمر هي المقلقة وإنما الانطباع الذي سوف يتركه النادي من أنه ليس مستقلا، وهذا الاستقلال المفترض ـ المفتقد ـ كان ميزته الكبيرة في نظر الحزب الشيوعي، وقيمة الحزب الحقيقية «هي في اعتقاد الجماهير أن النادي» مؤسسة تجارية مستقلة» وليس دعاية لمؤسسة سياسية بعينها، كما يقول «آر.پالمي دات» مفكر الحزب في رسالة إلى ستراشي».

وكانت الكذبة الثانية هي تأكيد «جولانسز» المستمر على أن كل مؤسسة نادي الكتاب بجماعاتها واجتماعاتها تدار بطريقة ديمقراطية، ولم يكن لذلك أي مصداقية أكثر من مصداقية «مس دييز» و«مكتبها السوڤيتي»، ووراء التظاهر بالأوليجاركية كان هناك في الواقع استبداد من جانب «جولانسز»، لسبب بسيط وهو أنه كان يتحكم في الأمور المالية بالكامل، لم يحتفظ بحساب مستقل للنادي وكانت كل تفاصيل الدخل والإنفاق متداخلة في حساب «شركة جولانسز المحدودة»، والنتيجة أنه لا توجد وسيلة لمعرفة إذا ما كان «جولانسز» قد كسب أم خسر من هذه التجارة. وعندما أكد النقاد أنه حقق ثروة من وراء ذلك قاضاهم بتهمة القذف، وكان يقول في رسائله للمؤلفين أن خسائره كانت فادحة، ويضيف : «وهذا أمر سري تماما، ومن وجهات نظر كثيرة فإنه أقل خطورة أن نعتبر أننا نحقق أرباحا طائلة من أن يعتقد الناس أننا نخسر»(٢٥)، وقد يكون ذلك لتبرير المبالغ التافهة التي كان يدفعها للمؤلفين، أو عدم دفعها لهم بالمرة وليس صحيحا أن أحدا من أعضاء النادي كان له رأي، فعندما بحث عن محرر لأخبار نادي الكتاب اليساري كان من ضمن شروطه : «أنه لابد أن يجمع بين المبادرة والطاعة التامة والمباشرة لتعليماتي مهما بدت سخيفة في نظره(٢٦).

والكذبة الثالثة جاءت على لسان «جون ستراشي» : «نحن لا نحلم برفض اختيار كتاب لمجرد أننا نختلف مع استنتاجاته»، وبصرف النظر عن كتاب أو اثنين من كتب حزب العمل التذكارية، فإن «كليمنت أتلي» زعيم حزب العمل دعي للمساهمة بكتاب : «حزب العمل : وجهة نظر»، وهناك دليل قاطع على أن الإذعان لخط الحزبُ الشيوعي كان المعيار الأساسي للاختيار.

ومن الحالات الصارخة حالة كتاب «أوجست تالهايمر» : «مقدمة للمادية الجدلية» والذي كان «جولانسز» يعتبره رأيا قويما، ووافق على نشره في مايو ١٩٣٧ ولكن المؤلف دخل بعد ذلك في نزاع وخلاف غامض مع «موسكو» فطلب «پوليت» من «جولانسز» أن يوقف الكتاب. كان قد تم الإعلان عن

صدوره واعترض «جولانسز» بأن أعداء النادي سوف يستغلون هذا الإيقاف «كدليل دامغ على أن النادي كان جزءا من الحزب الشيوعي»، ورد «پوليت» بأسلوبه البروليتاري العسكري الزائف : «لا تنشره، عندما لا يكون على أن أتماشي مع اللوطي العجوز واللوطي العريق ومؤخرة الكاهن الحمراء» (وكان يقصد بأولئك : «ستالين» و«بالم دوت» و«هيوليت جونسون» أسقف كانتربري)، وأذعن «جولانسز» وأوقف النشر ولكنه كتب بعد ذلك رسالة إلى «پوليت» كلها شكوى : «كنت أكره وأزدري أن أفعل ذلك، ومن طبيعتي أن هذا النوع من الزيف يدمر شيئا بداخلي». وهناك كتاب آخر أراد الحزب أن يوقفه، وهو «لماذا تعني الرأسمالية الحرب؟» من تأليف الكاتب الاشتراكي «إتش إن. بريلزفورد» لأنه كان ينتقد محاكمات «موسكو». وعندما عرضت المسودات على «جولانسز» في سبتمبر ١٩٣٧ كان من رأيه أن الحزب لن يقبل هذا الكتاب حتى إذا خضع للحذف والتغيير الكبير، وفي هذه المرة أيضا كان إلى جانب منع الكتاب. وكتب إلى المؤلف : «لا أستطيع أن أكون ضد ضميري في هذه المسألة»، وأن نشر كتاب ينتقد المحاكمات سيكون «بمثابة ارتكاب معصية في حق الروح القدس»، ولكن «لاسكي» الذي لم يكن سعيدا بالمحاكمات وصديقا قديما لـ «بريلز فورد» قال أن الكتاب لابد أن يصدر، وهدد بالاستقالة التي كان يمكن أن تحطم الواجهة الشعبية لنادي الكتاب اليساري ... وهكذا فعل «جولانسز» كما طلب «لاسكي» ولكنه أصدر الكتاب في أغسطس دون أى دعاية ، أو لعله «دفنه سرا في مقبرة النسيان» كما يقول «بريلزفورد». كما اخترع «جولانسز» : «أسبابا فنية» لمنع كتاب من تأليف «ليونارد وولف» الذي كان يمتلك مطبعة خاصة ويعرف أكثر مما يعرف «جولانسز» عن الطباعة، فاكتشف الكذبة وهدده بفضيحة لو أنه أخل بالعقد وهنا أيضا استسلم «جولانسز» أو انهار رغم أنه حاول أن يجعل الكتاب يفشل.

كانت مطبوعات نادي الكتاب اليساري تعد بشكل صريح لكي تروج لخط الحزب عن طريق الخداع، وكما كتب «جولانسز» إلى محرر الكتب التعليمية بالنادي : «مكتبة الجامعة المنزلية اليسارية» أن المعالجة «لا يجب أن تكون ماركسية عنيفة بالطبع»، «ويجب أن تكون الكتب مكتوبة بشكل يجعل القارىء لا يشعر أو يستنتج أو يتساءل : لماذا كل هذه المادة الماركسية ؟»..وفي بعض الأحيان كانت علاقاته بالمستويات التنظيمية الحزبية وثيقة : وتوضح السجلات أنه كان يقوم بتحويل مبالغ نقدية إلى «پوليت» : «أرجو أن تصلني النقود هذا الصباح ـ نقدا ـ وآسف لإزعاجك، ولكنك تعرف الظروف»(٢٧). كانت الرقابة التابعة للحزب تتدخل في كافة التفاصيل الصغيرة، وهكذا فإن «ج.آر.كامپل» الذي كان محررا لـ «وركر» فيما بعد سئل عن سبب حذف أعمال «تروتسكي» وآخرين من ببليوجرافيا أحد الكتب. ورغم أن سلوك «جولانسز» لا يمكن الدفاع عنه، ورغم أنه موثق «كمادة إجرامية كبيرة» كما يسميه كاتب سيرته، إلا إننا يجب أن ننظر إليه في إطاره. كانت الثلاثينيات هي عصر الأكاذيب الكبيرة والصغيرة على حد سواء أكثر من أي عقد آخر، وكانت الحكومتان النازية والسوفيتية تكذبان على نطاق واسع وتستخدمان لذلك موارد مالية كبيرة وآلاف المثقفين، المؤسسات الشريفة التي كانت قد عرفت ذات يوم باحترامها للحقيقة أصبحت تقمعها، في «لندن» كان «چيوفري داوسن» رئيس تحرير «التيمز» يستبعد موادا «من

مراسليه ـ كما كان يقول ـ يمكن أن تدمر العلاقات الإنجليزية الألمانية. وفي «باريس» اضطر «فيليسيان شالاي» العضو القيادي في «رابطة حقوق الإنسان» الشهيرة التي شكلت لإثبات براءة «درايفوس» إلى الاستقالة منها احتجاجا على الأسلوب المخجل الذي انتهجته لإخفاء الحقيقة بالنسبة لفظائع «ستالين»(٢٨)، كان الشيوعيون يديرون مؤسسات كذب احترافية لخداع الرفاق المثقفين، من خلال منظمات جبهوية متعددة مثل «رابطة مناهضة الاستعمار» وهي منظمة كانت تدار من «برلين» في البداية ثم بعد صعود «هتلر» إلى السلطة أصبحت تدار من «باريس» بواسطة الشيوعي الألماني «ويلي مونزنبرج» الذي كان يصفه «مارتن كنجسلي» محرر «نيو ستيتسمان» بـ «الدعائي الملهم»، أما ساعده الأيمن فكان الشيوعي التشيكي «أوتو كاتز» وكان يسميه أيضا بـ «المسئول المتعصب الذي لا يرحم»، والذي استطاع أن يجند العديد من المثقفين البريطانيين لمساعدته(٢٩)، وكان من بينهم الصحفي «كلود كوكبيرن» الذي كان يعمل في «لندن تيمز» قبل ذلك، ورئيس تحرير «ذاويك» صحيفة الفضائح، والذي كان يساعد «كاتز» في فبركة أخبار مثل : «تمرد ضد فرانكو» في «تيتوان»، وعندما نشر «كوكبيرن» فيمابعد تقاريره عن هذه الأعمال هاجمه «آر. اتش. اس. كروسمان» عضو البرلمان في «نيوز كرونايكل» لعدم خجله من أكاذيبه.

كان «كروسمان» متورطا ـ رسميا ـ في نشاط الحكومة البريطانية لتشويه الحقائق في الحرب من ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥، كتب يقول : «أحيانا تكون الدعاية السوداء ضرورية في الحرب، ولكن معظم الذين مارسوها منا كانوا يحتقرون ما يفعلون»، وقد وبخ «كوكبيرن» هذا النموذج من المثقفين الذين يقدمون الأفكار على الناس، ووصف آراء «كروسمان» بأنها «موقف أخلاقي مريح بشرط أن تستطيع أن تمنع نفسك من الضحك، وبالنسبة لي على الأقل فإن شيئا مضحكا يبدو في منظر رجل يطلق أكاذيبه الدعائية .. ولكنه يخلي ضميره «باحتقار ما يفعل»، أما بالنسبة لـ «كوكبيرن» فإن القضية التي يحارب من أجلها المرء ، تستحق أن يكذب من أجلها»(٣٠).

(قضية قتل «ستالين» كلا من «مونز نبرج» و«كاتز» بسبب الخيانة وكان مقتل «كاتز» على أساس أنه قد تواطأ مع بعض «الإمبرياليين الغربيين» مثل كلود كوكبيرن).

ونحن يجب أن ننظر إلى أكاذيب وأضاليل «جولانسز» في علاقتها بهذه الخلفية، وأشهرها رفضه لنشر فضح «چورج أورويل» لفظائع الشيوعيين ضد الثوار الأسبان : إجلالا لكاتالونيا»، ولم يكن «جولانسز» وحده هو الذي رفض «أورويل»، فقد رفض «مارتن كنجسلي» له أيضا سلسلة مقالات عن نفس الموضوع، وبعد ثلاثة عقود كان مايزال يدافع عن هذا القرار : «كان رفضي لنشرها تماما مثل رفضي أن أنشر مقالا لـ «جوبلز» أثناء الحرب ضد ألمانيا»، كما أقنع محرره الأدبي «ريموند مورتيمر» أن يرفض مراجعة كتاب لـ «أورويل»، وقد ندم «مورتيمر» على ذلك فيما بعد(٣١).

كانت علاقة «جولانسز» بـ «أورويل» طويلة ومعقدة ومريرة وحقيرة . نشر له «الطريق إلى ويجان باير»

التي كانت تنتقد اليسار البريطاني قبل أن يبدأ نادي الكتاب اليساري نشاطه، وعندما قرر أن تصدر في طبعة أخرى عن النادي كان يريد أن يحذف الجزء المثير للخلاف، ولكن «أورويل» لم يسمح له بذلك، وهكذا نشره «جولانسز» بمقدمة كاذبة كتبها بنفسه محاولا أن يفسر فيها أخطاء «أورويل» بقوله أنه كتبه بصفته «عضوا من الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة»، وحيث أنه كان عضوا من ذات الشريحة رغم أنه كان أغني من «أورويل» بمراحل، وحيث إنه على العكس من «أورويل» لم يكن له صلة بالعاملين، فإن تلك المقدمة كانت غير أمينة بالمرة، وبعد ذلك كان «جولانسز» يخجل منها غاية الخجل، وثار عندما أعاد طباعتها ناشر أمريكي»(٣٢).

وفي الوقت الذي كان فيه صراعه مع «أورويل» في قمته، كان «جولانسز» يقوم بمراجعة أفكاره بخصوص صلاته الشيوعية، وكانت هناك أسباب عدة لذلك. أحدها الاعتقاد بأنه يحطم مستقبله أو خططه القادمة، التقطت دار نشر «سيكر آند وابرج» كتاب : «إجلالا لكاتالونيا» وغيره من الكتب ـ والمؤلفين ـ التي يمكن أن تنشر عن طريق «جولانسز» لولا اعتراضات الحزب الشيوعي، وكان خط «جولانسز» مع الحزب يعتبر خصما لشركته، سبب آخر هو صبر «جولانسز» المحدود، فلم يكن يطيق صبرا على شيء واحد لفترة طويلة، كما لم يهتم بشيء لفترة طويلة .. (الكتب، المؤلفون، النساء ـ باستثناء «روث» ـ الأديان ـ القضايا)، لفترة ما، كان يجد متعة في العمل بنادي الكتاب اليساري والاجتماعات التي كان ينظمها الحزب الشيوعي نيابة عنه في «ألبرت هول» ويقف فيها أسقف «كانتربري» ليدعو : «فليبارك الرب نادي الكتاب اليساري». اكتشف «جولانسز» أنه يملك مواهب كبيرة كخطيب مفوه، ولكن نجوم الحزب الشيوعي وعلى رأسهم «پوليت» نفسه هم الذين كانوا ينتزعون التصفيق من الجمهور الأنيق.

في خريف ١٩٣٨ كان يبدو عليه الملل والضيق بكل شيء، وفي تلك الحالات يصبح أكثر ميلا للانفتاح العقلي. أثناء إحدى عطلات الكريسماس في «پاريس» قرأ تقريرا طويلا عن محاكمات «موسكو» والتي اقتنع بأنها عملية دجل وخداع، وعندما عاد إلى «لندن» قال لـ «پوليت» : أن نادي الكتاب اليساري لن يتبع خط «موسكو» في هذه القضية على الأقل. وفي فبراير تمادي أكثر من ذلك ليعترف في نشرة الكتاب اليساري بأن «هناك عوائق معينة أمام الحرية الفكرية الكاملة في الاتحاد السوڤيتي»، وفي الربيع كان «أورويل» في غاية الدهشة لقرار «جولانسز» إصدار روايته «الخروج للهواء»، الأمر الذي كان يعد تغيرا أساسيا في الخط. بحلول الصيف كان قد استبد به الشوق للقطيعة مع «موسكو» فرحب بحلف «هتلر ـ ستالين» في أغسطس ولو على مضض. كان ذلك يعني أن الحرب حتمية ـ وجاء ذلك فرصة من السماء ليكمل قطيعته مع الحزب الشيوعي. وفي الحال، بدأ يكتب دعاية مضادة لـ «موسكو» مشيرا إلى أمور كثيرة تدل على السلوك الشرير، والتي كانت معروفة لكل عاقل منذ عدة سنوات. وكما كان تعليق «أورويل» لـ «چيوفري جورار» : «من المرعب أن يكون لأناس على هذه القدر من الجهل كل هذا النفوذ»(٣٣).

وبعدالقطيعة بين «جولانسز» و«موسكو» لم يعد نادي الكتاب اليساري كما كان في الماضي، فقد انقسم العاملون به.«شيلالیند» و«بيتي ريد» و« جون لويس» تمسكوا بالحزب الشيوعي. وقرر جولانسز ألا يفصل «لويس» أو «ليند» ـ التي لم تعد الآن عشيقته ـ ولكنه استغل الفرصة لتخفيض وضعهما الوظيفي ومرتبيهما وتقصير فترة الإنذار بالفصل»(٣٤). وعلى العكس من « كنجسلي مارتن» الذي كان يتباهى بسلوكه، فإن «جولانسز» قرر أن يحقق أكبر فائدة ويحول الندم إلى فضيلة. في سنة ١٩٤١ قام بتحرير كتاب يضم مساهمات لكل من «لاسكي» و«أورويل» و« ستراشی» بعنوان: «خيانة اليسار: تمحيص ودحض السياسة الشيوعية»، أدلى فيه باعترافات رسمية عن خطايا نادي الكتاب اليساري. «كنت أقبل أي كتابة عن روسيا سواء كانت جيدة أو رديئة، لأنها كانت قويمة الرأي، بينما رفضت أخرى كتبها اشتراكيون مخلصون أو رجال أمناء لأنها لم تكن كذلك. كما قمت بنشر الكتب التي تبرر المحاكمات فقط وأرسلت النقد الاشتراكي الذي يتناولها إلى أماكن أخرى، وأنا متأكد ـ على قدر ما أستطيع ـ وكنت متأكدا في ذلك الوقت ـ أن ذلك كله كان خطأ». ولكن من الصعب القول أو الحكم إذا ماكان تغير «جولانسز» أو تحوله أو اعترافه بالذنب حقيقي.

من المؤكد أنه كان يمر بلحظات ندم أيام الحرب وانتهت بتلك الأزمة التي يصفها. ولكن في «اسكتلنده» وعلى غير المألوف بالنسبة لمثقف، فقد استمع إلى صوت الله يأمره..« ألا يحتقر» قلبا «ضعيفا نادما»، فاعتنق دينا جديدا أخذ شكل فكرته عن الاشتراكية المسيحية، واتخذ عشيقة جديدة، وتملكه حماس جديد للنشر أخذ شكل الترويج الشديد لأفكار حزب العمال من خلال سلسلة كتب بعنوان «المخاطر الصفراء»، ولكنه سرعان ما عاد إلى حيله وألاعيبه القديمة. في شهر أبريل ١٩٤٤ رفض رواية «أورويل» الساخرة «مزرعة الحيوان»: «لم أكن لأستطيع أن أنشر هجوما بهذا الشكل على روسيا». هذه الرواية أيضا ذهبت إلى الناشر «سيكر»ـ آن ـ واربورج» وحققت مبيعات هائلة ودخلا كبيرا للمؤلف، وكذلك روايته «١٩٤٨» مما اضطر «جولانسز» ـ نادما ـ أن يعتبر ذلك «مبالغة في التقدير»(٣٥). كانت أمانة «أورويل» تؤرقه ـ وأيضا كنجسلي مارتن ـ بقية حياته، وكان ذلك يدفعه لمهاجمته وهو أمر لا أخلاقي ولا معني له.

كتب يقول أنه لايقبل الإعتراف بأمانة «أورويل» : «وفي رأيي أنه كان شغوفا بأن يبدو أمينا لدرجة توحي بأنه لم يكن كذلك، ألا يتحلى بسذاجة بالغة لدرجة أن نعتبرها عدم أمانة بالنسبة لمثقف في حجمه؟ أنا أعتقد ذلك»(٣٦).

عاش «جولانسز» حتي سنة ١٩٦٧ ولكنه كان بلا حول ولاقوة، ولم يكن ليستطيع أن يمارس نفس النفوذ الذي كان له في الثلاثينيات، ويعتبره كيثرون مسؤولا مع «نيوستيتسمان» و« الديلي ميرور» عن النجاح التاريخي الذي حققه حزب العمال في انتخابات ١٩٤٥ والذي خلق إطار العمل السياسي في بريطانيا ومعظم دول أوروبا الغربية بعد الحرب، والذي استمر حتي عهد «تاتشر». ولكن رئيس الوزراء

«آتلي» لم يمنحه ما كان يستحقه من تكريم ولم يحصل على أي شيء بالمرة حتى عهد «هارولد ويلسون» ـ الذي كان أكثر كرما ـ فمنحه لقب «فارس» في ١٩٦٥

المشكلة أن غرور «جولانسز» كان يجعله يعتقد أنه أكثر شهرة وأهمية عما هو عليه بالفعل. في سنة ١٩٤٦ عندما رست الباخرة التي كان عليها في رحلة إلى جزر «الكناري»، صرخ وانتابه رعب مفاجيء متصورا أن شرطة «فرانكو» سوف تلقي القبض عليه وتقوم بتعذيبه بمجرد نزوله إلى الشاطيء، كما أصر على أن يحضر القنصل البريطاني إلى الباخرة لحمايته. وأرسل القنصل أحد موظفيه ليؤكد له أن لا أحد على الجزر قد سبق له أن سمع باسمه، وكانت النتيجة أن «جولانسز» الذي صدمه ذلك قال: «هو نفسه لم يسمع بي». كان عمل «جولانسز» بعد الحرب سقطة مميتة. كتب عدة كتب ناجحة ولكن أعماله لم يعد لها مكان الصدارة في الأسواق، لم يواكب الزمن ولم يعرف النجوم الجدد في عالم الكتابة. وعندما كتب إليه « لودفيج وتجنشتاين»، رد عليه بسطر واحد: «أشكرك على خطابك الذي أثق في حسن نيته»، كما أخطأ في هجاء اسم الفيلسوف معتقدا أنه نكرة(٣٧). كذلك فقد بعض المؤلفين الجيدين الذين كانوا ينشرون عنده وفشل في الحصول على كتب جيدة ليصدرها. احتفى برواية «لوليتا» لـ: «نابوكوف» واعتبرها « تحفة نادرة عن الفهم الإنساني» وعندما فشل في شرائها «قرر» غاضبا أنها كانت «كتابا رديئا جدا وقيمتها الأدبية مبالغ فيها جدا»، وفي النهاية استقر رأيه على أنها من كتابات « البورنو».

لعب «جولانسز» دورا ناجحا لإلغاء عقوبة الإعدام، وهي القضية التي حققت له شهرة أكثر من غيرها وكانت قريبة إلى نفسه، ولكن دوره في هذه القضية غطى عليه دور «آرثر كوستلر» الذي كان يكرهه، دور «جيرالد جاردنر» البليغ الذي حمل هذا الشرف. والأسوأ من ذلك أنه فشل في الحصول على مكان الصدارة في حملة نزع السلاح النووي عندما شكلت في ١٩٥٧، كان في ذلك الوقت موجودا في الخارج وأصابه غم شديد عندما عاد ليجد أنهم لم يطلبوا منه الانضمام إلى اللجنة، واعتبرها ـ على حد تعبيره ـ «إهانة بالغة» تركته «كسير القلب»، وفي البداية كان يوجه اللوم لصديقه القديم «كانون جون كولينز» الذي عين رئيسا لها، أي في المنصب الذي ظن «جولانسز» أنه الأجدر به. كان «كولينز» قد حارب معركة خاسرة لكي يجعلهم يضمون «جولانسز»، وبعد ذلك كان «جولانسز» يعتقد أن «جـ.ب. بريستلي» هو المسؤول، كان يعزو العداء بينهما لخلاف قديم ـ في أوائل الثلاثينيات ـ حول كتاب «بريستلي»: «رحلة انجليزية».

والحقيقة أن «بريستلي» كان واحدا من الكثيرين الذين أسسوا اللجنة والذين أعلنوا أنهم لن يعملوا مع «جولانسز» مهما كان الثمن. في النهاية كان الجميع تقريبا لا يطيقون غرور «جولانسز» ولا تمركزه حول ذاته، خاصة عندما كان يخرج ذلك منه على شكل نوبات غضب هائج.

في سنة ١٩١٩ أخبر صهره أنه لم يقرر بعد أن يقبل لو يكون ناظرا في «ونشستر» أو رئيسا للوزراء (٣٨)، والحقيقة أنه كان محظوظا لأن فطنته في العمل مكنته من فرض سلطانه الخاص، حيث لم يكن

أحد يستطيع مجاراته . أما عدم قدرته على جعل الآخرين يحبونه فلم يكن لها أية قيمة. والجزء الذي تقتبسه «روث دادلي» من خطاب معين من بين ملفاته يعبر عنه خير تعبير. كان قد طلب منه ـ ووافق ـ أن يقدم محاضرة تذكارية على شرف الأسقف «بل»، وهو الرجل الوحيد الذي كان يتكلم بصراحة وحدة ضد قصف ألمانيا، ولكن ظهر له ارتباط آخر أكثر جاذبية. وبذلك ألغي «جولانسز» المحاضرة المتفق عليها. غضب «بيتمان» منظم المحاضرة لذلك، وكتب إلى «جولانسز» مؤنبا، فرد عليه برسالة طويلة غاضبة وعنّفه لأنه «كتب إليه قبل أن يهدأ غضبه»، وراح يشرح الحمل الثقيل من الالتزامات المطلوبة منه والذي جعله يلغي المحاضرة، واعترض على قول «بيتمان» وتأكيده على أن تقديم المحاضرة كان التزاما أخلاقيا.

ثم أصبحت الرسالة أكثر سخونة ليقول: «في الحقيقة إنني على وشك أن أفقد أعصابي وأنا أملي هذه الرسالة، ولابد من القول إن تلك الملاحظة سخيفة». وفقرتان تتهمان «بيتمان» بأنه «وقح»... ثم في النهاية... «بدأت الرسالة بأسلوب معتدل، أعرف ذلك ، وأعرف أيضا ـ رغم نصيحتي إليك ـ أنني لم أعط الفرصة لغضبي أن يهدأ، لذلك طلبت من سكرتيرتي أن ترسلها إليك فورا».



الفصل الثانى عشر

«ليليان هيلمان» : الأكاذيب اللعينة !

إذا كان «فيكتور جولانسز» نوعا من المثقفين الذين تلاعبوا بالحقيقة لتحقيق أهداف سعيدة، فإن «ليليان هيلمان» نوع آخر ... كان الزيف يأتيه طواعية، ولكنها كانت مثله : جزءا من تلك المؤامرة الثقافية في الغرب لإخفاء فظائع الستالينية. وعلى العكس منه : لم تعترف بأخطائها ولا بأكاذيبها، اللهم إلا بطريقة لا مبالية وغير جادة. والحقيقة أنها واصلت عملا من الكذب القراح والجراءة الوقحة.

وقد يتساءل البعض : لماذا نهتم أو نشغل أنفسنا بـ «ليليان هيلمان» ؟ ألم تكن فنانة خيالية، الاختراع بالنسبة لها ضرورة، يتداخل أمامها عالما الخيال والواقع ؟ وهل من الإنصاف أن نتوقع الصدق من مخترع روايات كما في حالة «ارنست هيمنجواي» ... وهو كذاب شهير آخر ؟ لسوء حظ «هيلمان» فإن عدم احترامها للحقيقة كان يحتل مكانا مركزيا في حياتها وفي عملها، وكذلك هناك سببان يجعلان من الصعب تجاهلها : كانت أول امرأة تحقق مكانة عالمية ككاتبة مسرح، وبالتالي أصبحت رمزا لكل النساء المتعلمات في العالم، وثانيا أنها في العقود الأخيرة من حياتها، وإلى حد ما عن طريق الخداع، كانت قد استطاعت أن تحقق مركزا وقوة في المشهد الثقافي الأمريكي يندر أن يكون له نظير. وتثير حالة «هيلمان» سؤالا عاما على قدر من الأهمية وهو : إلى أي حد يتوقع المثقفون الحقيقة ويطلبونها من الذين يعجبون بهم ؟

ولدت «ليليان هيلمان» في ٢٠ يونيو ١٩٠٥ لوالدين من اليهود من الطبقة المتوسطة. وهي مثل «جولانسز» حاولت في كتاباتها الأوتوبيوجرافية أن تحط من شأن أمها وتعلي من منزلة أبيها، رغم أن ذلك كان لأسباب سياسية وشخصية.

الأم تنحدر من عائلات «نيوهاوس» و«ماركس» الغنية التي انتعشت من الرأسمالية الأمريكية. كان «اسحق ماركس» قد جاء من ألمانيا إلى أمريكا في أربعينيات القرن التاسع عشر، مواصلا أسلوبا شائعا في الهجرة اليهودية. وبدأ بائعا جوالا ثم استقر تاجرا وحقق ثروة كبيرة أثناء الحرب الأهلية. أسس ابنه «بنك ماركس» في «ديموبولس» أولا، ثم في «نيويورك».

تصف «ليليان هيلمان» أمها «چوليا نيوهاوس» بأنها كانت بلهاء، والحقيقة أنها كانت امرأة مثقفة،

جيدة التعليم، ومن المحتمل أن تكون هي مصدر مواهب ابنتها. ولكن «هيلمان» وجدت أنه كان من المرغوب فيه سياسيا أن ترفض كلا من العائلتين (نيوهاوس وماركس)، وحاولت أن تدّعي أن أمها كانت من عائلة «چنتايل»(١). وعلى العكس من ذلك كان والدها «ماكس» هو بطلها. كانت «هيلمان» ابنة وحيدة، ولذلك دللها «ماكس» وكان ضد أي انضباط تحاول أمها أن تفرضه، وتقدمه «هيلمان» كرجل راديكالي، هرب والداه كلاجئين سياسيين إلى الولايات المتحدة في سنة ١٩٤٨، بالغت في مستوى تعليمه ومواهبه العقلية، والواقع أنه كان يحاول مثل أبناء العائلتين (ماركس ونيوهاوس) أن يستفيد من الرأسمالية ولكنه لم ينجح. في سنة ١٩١١ فشلت تجارته (أنحت «هيلمان» بعد ذلك باللائمة على أحد شركائه وهذا غير صحيح)، بعدها عاش عالة على عائلة زوجته وانتهى به الأمر بائعا جوالا، لا يوجد أي دليل على راديكاليته ... سوى تأكيدات «هيلمان».

في مقال عن العلاقات بين الأجناس وصفت كيف أنقذ فتاة سوداء من يد اثنين من البيض كانا يحاولان اغتصابها. ثم حكت قصة عن إصرارها وهي في الثانية عشرة أن تجلس هي ومربيتها السوداء في المكان المخصص للبيض في سيارة عامة وكيف أزاحوهما بعد احتجاج صاخب، وهو أمر بعيد الاحتمال أن تكون قد سبقت فعل التحدي الشهير الذي قامت به «روزا پاركس» بأربعين عاما(٢).

كانت شقيقات «ماكس» يدرن منزلا للسكنى حيث ولدت «هيلمان» وقضت معظم الوقت، طفلة وحيدة كلها حيوية وذكاء تراقب النزلاء بعين حادة وتؤلف لنفسها الحكايات عنهم. كانت تحصل على مادة غزيرة منهم، وبعد ذلك كانت هي و«ناثانيل وست» مدير الفندق الذي كانت تقيم فيه في «مانهاتن» يفتحان رسائل النزلاء سرا، وهذا هو مصدر كتابه «آنسة القلوب الوحيدة» كما هو مصدر أحداث بعض مسرحياتها. كانت تصف نفسها بأنها «طفلة مزعجة» ونحن نصدق ذلك، وأنها كانت تدخن وترتع في «نيو أورليانز» وتقوم بمغامرات، وهذا أقل قابلية للتصديق. وعندما انتقل أبوها للعمل في «نيويورك» التحقت بجامعة «نيويورك» وكانت تغش في الامتحانات، كما كانت تبدو فتاة عادية مع جرأة شديدة. وفي سنوات المراهقة كانت لها شخصية جسورة من الناحية الجنسية! تناول كاتب سيرتها المنصف «وليم رايت» طفولتها وأعمالها الأولي رغم أنه كان من الصعب عليه أن يتخلص تماما من تأثير ما كتبته عن نفسها، مع أنه لا يُعتمد عليه(٣).

في التاسعة عشرة حصلت على وظيفة في دار نشر «بوني ـ آند ـ ليڤرايت» وكانت أكبر وأشهر مؤسسات النشر في «نيويورك»، وقد زعمت «هيلمان» فيما بعد أنها هي التي اكتشفت «وليم فوكنر» وأنها كانت المسئولة عن نشر روايته الساخرة: «البعوض» التي تتناول «نيو أورليانز»، رغم أن الحقيقة غير ذلك. مرت بتجربة إجهاض ثم حملت مرة أخرى وتزوجت الوكيل المسرحي «آرثر كوبر»، ثم تركت النشر وعملت في مراجعة النصوص، دخلت في علاقة غرامية مع «ديڤيد كورت» وكان في ذلك الوقت محررا للشئون الأجنبية في «لايف» واقترح أن ينشر رسائلها في السبعينيات مع رسوم جنسية على هامش

الصفحات، ولكنها اتخذت تدابيرا قانونية لمنعه من ذلك ـ وبعد وفاته ضاعت الرسائل. بعد زواجها من «كوبر» زارت «پاريس» و«بون» (١٩٢٩) وهناك فكرت في الانضمام إلى الشبيبة النازية، كما زارت «هوليود». عملت فترة قصيرة قارئة مسرحيات لدى «آن نيكولز» وادّعت فيما بعد أنها هي التي اكتشفت «جراند أوتيل» لـ «ڤيكي باوم»، وهذا أيضا غير صحيح. وفي هوليود حيث كان يعمل «كوبر»، كانت تقوم بقراءة النصوص لشركة «مترو جولد ين ماير» مقابل ٥٠ دولارا في الأسبوع.

بدأت ثورية «هيلمان» بتورطها إلى جانب اتحاد عمال صناعة السينما، حيث كان الكتاب يعانون من سوء معاملة الاستوديوهات الكبيرة ولكن الحدث الحاسم في حياتها السياسية كما في حياتها العاطفية وقع في سنة ١٩٣٠ عندما التقت بكاتب الروايات البوليسية «داشيل هاميت»، وحدث أنها قد صورته وصورت علاقتهما فيما بعد بطريقة رومانسية يصبح من الضروري أن نوضح أي نوع من البشر كان هو(٥).

«هاميت» ابن أسرة بسيطة من «ميريلاند»، ترك المدرسة في الثالثة عشرة، مارس أعمالا صغيرة مختلفة بشكل مؤقت، حارب وجرح في الحرب العالمية الأولي واكتسب معرفة بعالم الشرطة السري نتيجة عمله مخبرا في «پنكرتون» لفترة من حياته. في هذه الوكالة كان يعمل لحساب محامين في قضية اتهام ممثل كوميدي باغتصاب «ڤرجينيا رايي» التي ماتت بعد ذلك، وحسبما قال له المخبرون السريون فإن المرأة لم تمت نتيجة الاغتصاب وإنما نتيجة مرض جنسي، ويبدو أن هذا الحادث ترك لديه كراهية مليئة بالشك في السلطة عموما (وانبهارا بالأوغاد الكبار الذين يظهرون بكثرة في قصصه)، وعندما التقى بـ «هيلمان» كان قد نشر أربع روايات وكان يشق طريقه نحو الشهرة عبر «الصقر المالطي» .. أفضل أعماله.

كان «هاميت» حالة خطرة من حالات إدمان الكحول، ويبدو أن النجاح الذي حققه الكتاب كان أسوأ ما يمكن أن يحدث له. جلب له الكتاب المال والشعور بالأمان ... وبدأ يحس أنه لم يكن في حاجة لأن يعمل. لم يكن كاتبا طبيعيا، ويبدو أنه وجد العمل الخلاق أمرا مزعجا، فبعد جهد جهيد انتهى من «الرجل النحيل» ـ ١٩٣٤ ـ التي جلبت له المزيد من المال والشهرة ولكنه لم يكتب بعد ذلك شيئا بالمرة.

كان يستكن في أحد الفنادق مع صندوق من الويسكي ليشرب حتى التعب، وأصابه الكحول بمزيد من التدهور رغم أنه في وقت من الأوقات كان صاحب مباديء قوية. كان لديه زوجة «چوزفين دولان» وطفلان، ولكنه كان ينفق عليهما بالمصادفة ... ودون انتظام، وأحيانا يكون كريما معهم ولكنه ينساهم معظم الوقت.

هناك رسائل من زوجته إلى ناشر أعماله «أ.أ. كنويف» : على مدى الشهور السبع الماضية لم يرسل إليّ السيد «هاميت» سوى مائة دولار، لم يكتب لي عن متاعبه ـ أنا في حالة من اليأس التام ـ الأطفال لا يجدون الطعام وفي حاجة إلى ملابس ـ وأنا لا أجد عملا ـ نعيش مع والديّ وهما كبار السن ولا يمكنهما مساعدتنا» .. أما «هاميت» فكان يمكن أن تجده جالسا يشرب في «بل اير» وفي يده عقد لكتابة سيناريو.

كانت «ميلدريد لويس» السكرتيرة التي عينها الاستوديو له، لا تجد ما تفعله لأنه لا يكتب ويقضي وقته نائما في السرير. وتصف كيف كانت تسمعه وهو يطلب «العاهرات» بالتليفون من عند «مدام لي فرانسز» ـ كن عادة سوداوات أو نساء شرقيات ـ وكانت تدير ظهرها لكي لا تراهن وهن نزولا وصعودا على السلم(٦).

وقد حقق من كتبه ما يقرب من مليون دولار ... ولكن كأنه كان يحتال لكي يكون مفلسا ومدينا باستمرار، وربما يتسلل من الفنادق سرا مرتديا كل ملابسه فق بعضها (فعل ذلك في فندق «پيير» في «نيويورك» حيث كان مدينا له بمبلغ ألف دولار).

كما جعله الكحول أيضا عنيفا وبذيئا حتى مع النساء، قُدِّمَ للمحاكمة في سنة ١٩٣٢ بتهمة محاولة اغتصاب الممثلة «آليس دي ڤيان» ... قالت أنه سكر في الفندق وعندما قاومت محاولته ضربها ضربا مبرحا. لم يحاول أن يعارض الحكم ودفع غرامة ٢٥٠٠ دولارا. بعد وقت قصير من لقائه بـ «هيلمان» لكمها في فكها وطرحها أرضا في أحد الحفلات، لم تكن علاقتهما سهلة في يوم من الأيام.

في سنة ١٩٣١ أصيب بمرض السيلان نتيجة علاقته بالعاهرات، ثم أصيب مرة أخرى في سنة ١٩٣٦، وفي هذه المرة كان من الصعب أن يُعالج منه(٧). كان هناك دائما شجار عنيف بسبب علاقاته النسائية، وليس من الواضح إن كانا قد عاشا معا ولأي فترة إن كان ذلك قد حدث، رغم أن كلا منهما طلق شريك حياته في النهاية. وعندما انتشر كذبها عن أشياء كثيرة وافتضح أمرها، كان «جور ڤيدال» يتساءل ساخرا بعد سنوات «هل حدث قط أن رآهما أحد معا؟».

والواضح أن «هيلمان» كانت تبالغ في علاقتهما بغرض الدعاية لنفسها، إلا أنه كان هناك أساس لذلك. في سنة ١٩٣٨ وفي الوقت الذي كانت قد انتقلت فيه إلى «نيويورك» ولديها منزل في المدينة ومزرعة في «پليزانت ڤيل»، كان ينام سكرانا يائسا في فندق «بيڤرلي ويلشاير»، وقد بلغت ديون إقامته ثمانية آلاف دولارا. نقلته «هيلمان» بالطائرة إلى «نيويورك» حيث كانت في انتظاره سيارة إسعاف حملته إلى المستشفي، وبعد ذلك أقام في منزلها لفترة من الوقت ... ولكن ... كان من عادته أن يغش مواخير «هارلم» التي كانت تروق له كثيرا، ومن ثم كان المزيد من الشجار والعنف.

ذات مرة في سنة ١٩٤١ وكان سكرانا، طلب أن يمارس معها الجنس، رفضت، بعد ذلك لم يقربها أبدا .. ولم يحاول!(٨)، ولكن علاقتهما استمرت ولو بشكل ضعيف، وطوال السنوات الثلاثة الأخيرة من حياته كان يعيش في منزلها في «نيويورك» شبه ميت، لا يفيق من السكر. (مات في سنة ١٩٥٨)، وكان ذلك من جانبها عملا يخلو من الأنانية لأنه كان يعني استغناءها عن غرفة العمل التي كانت تعتز بها، كانت تطلب من ضيوفها: «الهدوء من فضلكم .. هناك رجل يموت في الطابق الأعلى»(٩).

الواضح في علاقتهما أن «هيلمان» كانت مدينة بالكثير لـ «هاميت» ككاتبة. وفي الحقيقة هناك أمر

غريب ومريب في عدم اتساق كتابة كل منهما.

بعد أن التقي بـ «هيلمان» بوقت قصير، بدأت كتاباته في التضاؤل إلى درجة الهزال ثم جفت تماما. أما هي فعلى العكس من ذلك : بدأت تكتب بفصاحة شديدة وبنجاح أشد وكأن الروح الخلاقة قد انتقلت منه إليها وظلت فيها حتى وفاته . وبمجرد أن مات لم تكتب مسرحية واحدة ناجحة. قد يكون ذلك مجرد مصادفة وقد لا يكون، حيث أن من الصعب معرفة الحقيقة. أما المؤكد فهو أن «هاميت» له علاقة كبيرة بتحفتها الأولي «ساعة الأطفال» ، ويقال أنه كان صاحب الفكرة . تقديم موضوع «السحاق» على المسرح كان قضية في برودواي منذ سنة ١٩٢٦ عندما أوقفت الشرطة مسرحية «الأسير» وهي ترجمة لمسرحية لـ «إدوارد بورديت» عن نفس الموضوع. وعندما بدأت «هيلمان» العمل كقارئة نصوص لدى «هيرمان شملن» وقررت أن تكتب مسرحيات، لفت «هيلمان» نظرها إلى كتاب من تأليف «وليم روجهيد» بعنوان «رفاق السوء» يتناول قضية مروعة في اسكتلنده (١٨١٠) عندما دمرت فتاة خلاسية سوداء (بكل الكذب والخبث) حياة شقيقتين كانتا تديران مدرسة واتهمتهما بممارسة السحاق. وهناك حقيقة غريبة وهي أن الدمار الناتج عن الكذب وكيد النساء كان موضوعا شديد الجاذبية بالنسبة لـ «هيلمان» و«هاميت» ، والمعروف أن أكاذيب المرأة هي الخيوط التي تجمع كل تعقيدات مسرحية «الصقر المالطي» . في سكره، كان «هاميت» يكذب مثل أي مدمن آخر، وفي صحوة كان يحاول أن يكون شديد التمسك بالدقة حتي وإن كان بشكل غير ملائم، وعندما يكون موجودا كان يمارس نوعا من السيطرة على خيال «هيلمان» ، أما هي فكانت على العكس من ذلك : كانت ممسوسة بداء الكذب وبممارسته. كانت تكذب باستمرار عن مصدر مسرحيتها : «ساعة الأطفال» وعن ظروف ليلة، العرض الأولي.

لم تعترف أبدا ولم تشر إلى كتاب «روجهيد» ، وعندما ظهرت المسرحية اتهمها أحد النقاد «چون ماسون براون» بالانتحال، وهو أول اتهام من هذا النوع في سلسلة طويلة كان عليها أن تواجهها(١٠) .

ولكنها كانت مسرحية جيدة، فالتعديلات التي أجريت على القصة الأصلية كانت سبب ما فيها من حركة وإثارة، ومن الصعب الآن معرفة حجم ما ساهم به «هاميت» في ذلك.

إحدي المواهب الدرامية التي كانت موجودة بثراء في «ليليان هيلمان» مثل «برنارد شو» قدرتها على إعطاء حوارات مقنعة ومعقولة لأكثر شخصياتها استحقاقا للشجب وعدم التعاطف، وهذا هو المصدر الرئيسي للتوتر الشديد الذي تولده مسرحياتها. كانت «ساعة الأطفال» قمينة بإثارة الجدل بسبب موضوعها، استثارت قوتها وشفرتها اللغوية عداء خصومها وحماس المدافعين عنها. في «لندن» رفض لورد «شمبرلين» التصريح بتقديمها، كما منعت في «شيكاغو» ومدن أخرى كثيرة (ظل الحظر عليها في «بوسطن» مطبقا لمدة ربع قرن) ، ولكن الشرطة لم تتحرك ضدها في «نيويورك» حيث لاقت نجاحا نقديا كبيرا وحقق شباك التذاكرأرقاما مذهلة وقدمت ٦٩١ عرضا، وفوق ذلك كله، فإن جسارة الموضوع وذكاء المعالجة والسخط الذي أثارته بين الأصوليين، حققت لـ «هيلمان» مكانة خاصة بين المثقفين

التقدميين، الأمر الذي ظلت محتفظة به حتى آخر العمر. وعندما فشلت في الحصول على جائزة «بوليتزر» لأحسن مسرحية (لموسم : ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥) بسبب اعتراض أحد المحكمين على الموضوع، شكلت «لجنة نيويورك لنقاد الدراما» والتي أقرت إنشاء جائزة جديدة لكي تمنح لها على وجه التحديد.

وبفضل نجاح المسرحية حصلت على عقد لكتابة سيناريوهات لـ «هوليود» كانت تدر عليها ٢٥٠٠ دولارا في الأسبوع ، وظلت على مدى السنوات العشر التالية تتنقل بين الكتابة للسينما والمسرح. كان إنجازها مختلطا ولكنه مثير للإعجاب بشكل عام. كانت مسرحيتها «الأيام القادمة» التي تتناول الإضرابات كارثة بمعني الكلمة. افتتحت في ١٥ ديسمبر ١٩٣٦ ولم تستمر سوي «٦» أيام، من ناحية أخرى فإن مسرحية «الثعالب الصغيرة» (١٩٣٩) التي أسستها على شخصيات عرفتها في الطفولة، وتتناول الشهوة للمال في الجنوب حققت نجاحا كبيرا وقدمت أكثر من أربعمائة عرض.

وبفضل النقد القاسي ـ البنّاء ـ من «هاميت»، فهي أفضل مسرحياتها كتابة وبناء والأكثر تقديما على المسرح، والأهم من ذلك كله هو أننا لابد أن نشير إلى أنها نجحت في ظل منافسة شديدة، فقد شهد موسم ١٩٣٩ المسرحي : «كي لارجو» لماكسويل آردن، و«الرجل الذي جاء على العشاء» لموسي هارت وچورچ إس. كوفمان، و«زمن حياتك» لوليم سارويان، وقصة فيلادلفيا» لفيليب باري، و«دعها لي» ، «الحياة مع الأب» لكول پورتر، بالإضافة إلى مسرحيات ساخنة أخرى من بريطانيا. وبعد ذلك بعامين جاءت مسرحيتها الناجحة التالية «راقبوا نهر الراين» ، وفي نفس الوقت أصبح ثلاثة من أعمالها الستة التي كتبتها لهوليود من الأعمال الكلاسيكية المهمة. فيلم «ساعة الأطفال» الذي كتبته لـ «سام جولدن» والذي أقنعها بتغيير اسمه إلى «هؤلاء الثلاثة» وحذف عنصر السحاق، نجح نجاحا كبيرا، وكذلك فيلمها «الطريق المسدود» (١٩٣٧) ، كما حققت نصرا كبيرا بكتابتها سيناريو فيلم «راقبوا نهر الراين».

«كورت موللر» بطل الرواية الألماني المعادي للنازية يخطط في النهاية لقتل «كونت تيك» الشرير، وعندما ارتفعت الأصوات التي تقول أنه لابد من عقاب القتلة، ردت «هيلمان» بأن الصواب هو قتل النازيين أو الفاشست، ولأننا كنا في وقت الحرب كسبت هذه النقطة. وقد اختير الفيلم ليعرض أمام الرئيس «روزفلت» وكان ذلك علامة مهمة من علامات العصر.

والشيء الآخر هو أنها كتبت لـ «سام جولدين» فيلما دعائيا للسوڤيت بعنوان «نجم الشمال» ـ ١٩٤٢ ـ عن مزرعة جماعية جميلة، وهو أحد ثلاثة أفلام تتبع خط الحزب الشيوعي تم صنعها في هوليود (الفيلمان الآخران هما : «مهمة في موسكو» و«أنشودة روسيا»)(١١).

منذ منتصف الثلاثينيات توحي موضوعات مسرح «هيلمان» وأفلامها السينمائية بتورط وثيق مع اليسار الثوري، أما فكرة أنها جندت في الحزب الشيوعي بواسطة «هاميت» فمن المحتمل أن تكون خاطئة، فهي بداية : كانت أكثر جسارة منه في النشاط السياسي، وإن كان شيئا من ذلك قد حدث فلابد أن تكون هي التي جذبته، إلى العمل السياسي النشط، علاوة على ذلك فإنها رغم استمرار علاقتها الجنسية المتقطعة به

حتي سنة ١٩٤١ (كما تقول) فقد كان لها علاقات أخرى بغيره : مع مدير المجلة «انجر سول»، مع اثنين من المخرجين في «برودواي»، مع «چون ميلبي» سكرتير ثالث السفارة الأمريكية في «موسكو» ... وغيرهم : اشتهرت «هيلمان» باتخاذ المبادرة الجنسية مع الرجال وكانت تنجح في ذلك جيدا، وكما يصف صديق : «كانت المسألة في غاية البساطة، كانت جريئة جدا من الناحية الجنسية في وقت لم تكن النساء تستطيع فيه ذلك، لم تكن تتردد في اتخاذ الخطوة الأولى وكانت تفوز»(١٢)، ولكن ليس دائما.

تزعم «مارتا جيلهورن» أن «هيلمان» قد حاولت مع «هيمنجواي» في «باريس» عام ١٩٣٧ ولم تنجح، كما يبرر «آرثر ميللر» عداءها له بأنها كانت قد حاولت معه ولم يستجب لها، «كانت توافق لأي رجل يقابلها، لم أكن أريد .. ولم تغفر لي ذلك أبدا»(١٣). وفي خريف العمر كانت تستخدم أموالها لشراء رفقة من الشباب يتميزون بالوسامة، ولكن نجاحاتها كانت كثيرة لكي تعطي سمعة تغذي تلك الشائعات، يقال مثلا أنها كانت تحضر كل الحفلات الرجالية للعب «الپوكر» في منزل «فردريك ڤاندر بلت فيلد» وكان من يفوز في اللعب يأخذها إلى غرفة النوم»، ورغم التفاخر الشديد الذي يملأ مذكراتها، إلا أنها لم تذكر شيئا عن تلك الغزوات. إن امرأة بتلك السمعة والميول لا يحتمل أن تكون قد حظيت بثقة الحزب الشيوعي الأمريكي في الثلاثينيات، والذي كان مشهورا بأنه بناء عقائدي صارم. ولكن اسمها بلا شك كان مفيدا بالنسبة لهم. هل كانت عضوا في الحزب بالفعل ؟ مسرحيتها الناجحة «الأيام القادمة» لم تكن عملا يستوحي الماركسية. مسرحية «راقبوا نهر الراين» كانت عكس خط الحزب (أغسطس ١٩٣٩ ـ يونيو ١٩٤١)، وكانت تؤيد حلف «هتلر ـ ستالين». كانت «هليمان» نشطة جدا في جماعة كتاب السينما التي كان يسيطر عليها الحزب الشيوعي، خاصة خلال المعارك المريرة في ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧، كان من الممكن أن يعتبر انضمامها للحزب منطقيا في سنة ١٩٣٧ كما فعل «هاميت» وكما تذكر، حيث كانت تلك سنة الذروة في عضوية الحزب عندما كان يؤيد صفقة «روزفلت» الجديدة وسياسات الجبهة الشعبية في كل مكان. وبينما كان المهتدون المبكرون أقرب إلى المثالية، وقرءوا «ماركس» و«لينين» (مثل ادموند ويسلون) ثم كانوا ينسحبون بعيدا في ١٩٣٧، فإن خط الجبهة الشعبية جعل الحزب الشيوعي موضة جديدة وجذب إليه أعضاء جددا من بين العاملين في الوسط الفني والذين كانوا لا يعرفون عن السياسة الكثير، ولكنهم كانوا شغوفين بالتواجد في المجرى الثقافي(١٤). «هيلمان» كان يناسبها هذا القطاع، ولكن كونها استمرت في تأييدها للسياسة السوفيتية سنوات طويلة ولم تتوقف عن ذلك حتى عندما ذوت تلك الموضة، يوحي بأنها كانت قد أصبحت بالفعل متعاطفة مع الحزب وإن لم تكن عضوا مهما به. هي نفسها كانت تنكر دائما أنها كانت عضوا به، وعلى عكس ذلك يقول «مارتن بيركلي» في شهادة له في سنة ١٩٣٧ أن «هيلمان» مع «هاميت» و«دوروثي پاركر» و«دونالد أوجدن ستيوارت» و«آلان كامپل» حضروا اجتماعات في منزله بهدف محدد وهو تكوين فرع للحزب في «هوليود»، وفيما بعد كانت هيلمان تتهرب من الإجابة عن أي سؤال بخصوص هذا الاجتماع، أما التحقيق معها أمام لجنة النشاط المعادي لأمريكا فيوحي بأنها كانت عضوا (في ١٩٣٧ ـ

١٩٤٩)، كما يؤكد تلك الحقيقة ملفها الضخم (حوالي ألف صفحة) لدي مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI). وبالإضافة إلى شهادة «بيركلي» السابقة يقول «لويس بدنز» مدير تحرير «ديلي وركر» السابق أنها كانت تقوم بدور مهم في الاجتماعات التنظيمية(١٥).

والأكثر احتمالا هو أن يكون الحزب قد وجد من الملائم أن يخفي عضويتها بسبب علاقاتها الجنسية وأن يحتفظ بها تحت السيطرة كرفيق مندوب مع السماح لها ببعض الحرية، وهذا هو التفسير الوحيد الذي يتلاءم مع سلوكها وتوجهاتها خلال تلك الفترة ومن المؤكد أنها كانت تفعل كل ما في وسعها ـ إلى جانب أفلامها ومسرحياتها ـ لمساعدة الحزب الشيوعي على اختراق الحياة الثقافية الأمريكية، وتقديم السياسة السوفيتية. فقد شاركت في جماعات جبهوية رئيسية تابعة للحزب وحضرت المؤتمر العاشر في «نيويورك» (يونيو ١٩٣٨) وزارت روسيا في اكتوبر ١٩٣٧ على نفقة «والتر دورانتي» ـ مراسل «نيويورك تيمز» ـ المؤيد لـ «ستالين»، كانت المحاكمات آنذاك في قمتها، وعندما عادت قالت إنها لا تعرف عنها شيئا. وتعليقا على هجوم أنصار الحرية الغربيين على المحاكمات كانت تقول أنها لا يمكنها «التمييز بين الاتهامات الحقيقية والأحقاد الشريرة» ولا «بين الحقيقة والخيال عندما يختلط ذلك بالحقد الأعمى ضد مكان ما وشعب ما»، ولكن في العام التالي كان اسمها بين أسماء الموقعين (مع مالكولم كولي، نلسون ألجرن، إروين شو، ريتشارد رايت) على بيان في «نيو ماسز» يؤيد المحاكمات. كما قامت بزيارتين لإسبانيا تحت رعاية «أوتو كاتز» صاحب السمعة السيئة (في ١٩٣٧) وساهمت (مع كتاب آخرين) بمبلغ خمسمائة دولار لعمل فيلم دعائي للحزب الشيوعي كان لـ «هيمنجواي» أيضا صلة به، ولكن ما كتبته عن ما قامت به في إسبانيا كان مليئا بالأكاذيب ـ وقد فندته «مارتا جيلهورن» تفصيلا ـ ومن الصعب الآن تحديد ما قامت به هناك بالضبط، ومثل معظم المثقفين اندفعت «هيلمان» واشتبكت في صراعات ونزاعات وخصومات حقودة مع كتاب آخرين، الأمر الذي عَقّدَ مواقفها السياسية وسممها. أدخلتها رغبتها الجامحة في دعم الخط السوفيتي في إسبانيا في خلاف مع «وليم كارني» مراسل «نيويورك تيمز» هناك، والذي دأب على نشر مواد كانت تختلف مع الرؤية السوفيتية، اتهمته «هيلمان» بأنه كان يقوم بتغطية أخبار الحرب من «الكوت دازور» حيث الأمان والدعة، وبعد ذلك أيدت الغزو السوفيتي لـ «فنلنده» في ١٩٣٩ قائلة : «أنا لا أعترف بتلك الجمهورية الرقيقة التي يتباكي عليها الجميع، لقد زرتها فوجدتها جمهورية صغيرة مؤيدة للنازي».

وقد أدخلها ذلك في صراع شديد مع «تالولا بانكهيد» التي كانت قد لمعت في مسرحية «هيلمان» : «الثعالب الصغيرة». كانتا عدوتين بالفعل لأسباب عدة (حقد جنسي وغيرة في الأساس).

كانت «بانكهيد» قد قدمت عرضا لصالح وكالات الإغاثة الفنلندية واتهمتها «هيلمان» بأنها رفضت القيام بعرض مماثل لصالح «إسبانيا»، وردت عليها «بانكهيد» بأن الاتهام اختراع كاذب، والحقيقة أنه لا يوجد أي دليل على أن «هيلمان» زارت «فنلنده»، كما يستبعد ذلك كاتب سيرتها أيضا(١٦). وإلى ما

بعد وفاة الممثلة تواصل الهجوم عليها في عدة مطبوعات، كتبت عن أسرة «بانكهيد» السكيرة، مدمنة المخدرات، ووصفتها بأن عمال المطاعم السود كانوا يتناوبونها، كما كتبت في مذكراتها حكاية منفرة عنها وهي أنها أصرت ذات يوم أن يرى أحد الزوار قضيب زوجها وهو في حالة انتصاب.

كان الصراع بين «بانكهيد» و«هيلمان» على من يقف منهما إلى جانب «العمال»، والحقيقة أنه لا أحد منهما كان يعرف أي شيء عن الطبقة العاملة أكثر من الحصول ـ عرضا ـ على عشيق من بين صفوفها، ذات مرة قامت «هيلمان» باستطلاع رأي في «فيلادلفيا» لحساب جريدة (PM) المسائية الراديكالية. تحدثت مع سائق سيارة أجرة ورجلين في أحد المحلات وطفلين من السود واستنتجت من ذلك أن «أمريكا» دولة بوليسية. لم يكن لها أصدقاء من بين العمال باستثناء «راندل سميث» أحد عمال تحميل السفن، والذي كانت قد التقطته من «مارتا ڤاين يارد» بعد الحرب. كان قد خدم لفترة في لواء «لنكولن» في إسبانيا ولم يكن نموذجا للپروليتاري الأمريكي، والأكثر من ذلك أنه بدأ يكره «هيلمان» و«هاميت» وأصدقاءهما الثوريين الأغنياء، وكان يقول : «كشيوعي سابق، اعتدت أن أحتقر توجهاتهم، إنهم متغطرسون ... ومثقفون ... وأشك في أن يكون أحدهم قد حضر اجتماعا للحزب في حياته أو قام بأي عمل. كانوا مثل الضباط أما أنا فكنت جنديا. وكان (على نحو خاص) يكره سلوك «هاميت» عندما يكون في صحبته ويريد أن يظهر سطوته على النساء بأن «يتناول عصاه ويرفع بها تنورة الفتاة التي تكون معه»(١٧).

كانت الحياة التي تعيشها «هيلمان» أبعد ما تكون عما تريد أن تصفه بـ : «النضال»، كانت تعيش مثل أثرياء «نيويورك» سواء في منزلها (٢٨ إيست ستريت) أو في مزرعتها (١٣٠ فدانا في وست شستر) : كان لديها مديرة منزل، رئيس خدم، سكرتير، خادمة خاصة. وكانت تتردد على أشهر وأحدث أخصائي نفسي (جريجوري زيلبورج) وتدفع له مائة دولار في الساعة.

حققت لها مسرحياتها وأفلامها احترام الآخرين .. إلى جانب الثروة . في سبتمبر ١٩٤٤ ذهبت إلى «موسكو» بدعوة من الحكومة السوڤيتية ونزلت في منزل السفير «هاريمان» حيث مارست علاقتها مع الدبلوماسي «ميلبي»، ولكنها كانت تحتفظ بمكان في فندقي «متروپول» و«ناشونال» إلى جانب مقر السفارة، وقد أثمرت هذه الزيارة محصول الكذب المعروف : قالت أنها قضت في روسيا خمس شهور، بينما يقول «ميلبي» ـ وهو شاهد أكثر ثقة ـ أنهم كانوا ثلاثة. نشرت مقالين مختلفين تماما عن هذه الزيارة، أحدهما في مجلة «كوليير» في سنة ١٩٤٥ والثاني ضمن سيرتها الذاتية «امرأة لم تنته بعد ـ مذكرات» في سنة ١٩٦٩، المقال المنشور في المجلة لا يذكر أنها التقت بـ «ستالين» وفي سيرتها قالت أنهم أخبروها بموافقته على مقابلتها رغم أنها لم تطلب ذلك. وقالت أنها اعتذرت حيث لم يكن لديها شيء مهم تريد أن تقوله له، ولم تشأ أن تضيع وقته الثمين. وهي حكاية لا تدخل العقل وتتناقض مع ما قالته بعد عودتها من هناك، حيث صرحت في مؤتمر صحفي في «نيويورك» أنها طلبت مقابلة «ستالين»

وأخبروها بأنه «كان مشغولا مع البولنديين».

في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات كانت «هيلمان» بطلة يسارية ناجحة ومشهورة، وفي أواخر الأربعينيات دخلت حياتها مرحلة جديدة عرفت فيما بعد في الأساطير الثورية بأنها كانت «زمن الشهادة»، استمرت نشاطاتها السياسية لفترة، ومع أعضاء آخرين من أقصى اليسار، أيدت «والاس» للرئاسة في ١٩٤٨، وفي سنة ١٩٤٨ كانت من بين منظمي المؤتمر الثقافي العلمي من أجل السلام العالمي والمدعوم من السوفيت والذي عقد في «والدورف»، ولكن متاعبها كانت قد بدأت. كانت مسرحياتها بعد الحرب أقل نجاحا من السابقة. كتبت «جزء آخر من الغابة» وهي تكملة لمسرحيتها السابقة «الثعالب الصغيرة» وعن نفس الأسرة. كان الافتتاح في نوفمبر ١٩٤٧ واستمر العرض ١٩١ ليلة ولكن النتيجة كانت هزيلة. ومما يذكر أن والدها المشاكس: «ماكس» كان يجلس في المقاعد الأمامية أثناء الفصل الأول وهو يعد حفنة الدولارات، ثم أعلن في الاستراحة: «ابنتي هي التي كتبت هذه المسرحية، إنها تتحسن»، وبعد «٦» أشهر أودعته مصحة بسبب خرف الشيخوخة بناء على نصيحة أخصائي نفسي. كانت هناك مشاكل بالنسبة لمسرحيتها التالية «حديقة الخريف»، قالت فيما بعد أنها مزقت المسودة بعد أن انتقدها «هاميت»، ولكن المخطوطة المكتوب عليها «المسودة الأولى» محفوظة في جامعة «تكساس»، وبعد افتتاحها في مارس ١٩٥١ لم تستمر سوى ١٠١ ليلة، وفي نفس الوقت كانت لجنة النشاط المعادي لأمريكا تقوم بتمشيط صناعة السينما، واتهم العشرة الذين رفضوا الإجابة عن استجواب اللجنة حول نشاطهم السياسي بازدراء اللجنة. وفي نوفمبر ١٩٤٧ وافق منتجو السينما على فصل أي كاتب ينطبق عليه ذلك، وقامت مجلة رابطة كتاب السيناريو بمهاجمة هذا القرار في افتتاحية كتبتها «هيلمان» جاءت فيها هذه العبارة الغريبة.

«لم يحدث أبدا أن كان هناك جملة أو كلمة واحدة عن الشيوعية في أي فيلم أمريكي في أي وقت»، ولكن طواحين القانون استمرت في عملها ببطء، ساهمت «هيلمان» في الكفالة التي دفعت للكتاب المتهمين بازدراء المحكمة، وكان ثلاثة منهم قد هربوا من الكفالة واختفوا، كما كان مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) يعتقد أن «هيلمان» كانت تعرف مكانهم ووصل فريق منهم إلى مزرعتها لتفتيش المكان بحثا عنهم، وقد استدعي «هاميت» نفسه إلى المحكمة وطلب منه أن يساعد في إيجاد الهاربين من خلال تقديم أسماء بعض الذين ساهموا في الكفالة، وبدلا من أن يقول أنه لا يعرفهم (وكان ذلك صحيحا) رفض أن يجيب عن الأسئلة بالمرة وسجن، وبعد ذلك ادعت «هيلمان» أنها اضطرت لبيع المزرعة لكي تدفع التكاليف القانونية التي وصلت إلى ٦٧ ألف دولار. هي نفسها كانت موضوعة على القائمة السوداء في هوليود في سنة ١٩٤٨، وبعد أربع سنوات (في ٢١ فبراير ١٩٥٢) طلبت للمثول أمام اللجنة الرهيبة، وفي هذه المرة انتزعت النصر من بين فكي الفشل. كانت ممتازة في العلاقات العامة، تلك المهارة التي تشترك فيها مع معاصريها من المثقفين مثل «برخت» و«سارتر». «برخت» كما رأينا نجح في تحويل مثوله أمام اللجنة إلى دعاية لصالحه، ولكن ما فعلته «هيلمان» كان أكثر امتيازا، كما أرسى أساس شهرتها التالية لكي تكون ملكة الاستشهاد عند الراديكاليين. وقد ساعدها على ذلك أيضا غباء أعضاء

اللجنة ... تماما كما حدث مع «برخت».

كانت قبل مثولها أمام اللجنة قد استمعت إلى نصيحة مستشارها «چوزيف راوح»، ولا شك أنها كانت تعرف الوضع القانوني الذي كان في غاية التعقيد. كانت تعليماتها لمستشارها أنها لن تسمي أحدا، وثانيا لا تريد أن تدخل السجن تحت أي ظرف، وثالثا لم تكن تريد أن تلجأ إلى الاحتماء بالمادة الخامسة في القانون، إذ قد يفسر ذلك على أنه اعتراف بالجريمة. ولكنها كانت على استعداد للجوء إلى ذلك إذا بدا أنها تفعله من أجل حماية الآخرين، وهنا كانت الصعوبة بالنسبة لـ «راوح» حيث إن المادة الخامسة تحمي الشاهد فقط من توريط نفسه، فكيف يمكن أن تنجو «هيلمان» من السجن باستخدامها، وفي نفس الوقت تنقذ الآخرين ؟ بعد ذلك قال «راوح» أن سجنها كان أمرا مؤكدا : «كان مثل مسألة الجبر، ولكني بدأت أنظر إلى الأمر كقضية علاقات عامة في الأساس. كنت أعرف أنه لو خرجت «نيويورك تيمز» في اليوم التالي وعنوانها الرئيسي : «هيلمان» ترفض أن تحدد أي اسم، فإنني أكون قد كسبت القضية، أما إذا كان العنوان : «هيلمان» «تلجأ إلى المادة الخامسة» فإنني لابد خاسر». وقد حلت له «هيلمان» المعضلة بكتابة رسالة ماكرة وكاذبة إلى «ج. س. وود» رئيس اللجنة في ١٩ مايو ١٩٥٢ قالت إنهم نصحوها ألا تلجأ إلى المادة الخامسة من أجل نفسها، ثم ترفض أن تجيب عن الآخرين. ثم بعد ذلك جاءت كذبتها الكبرى : «أكره التخريب والخيانة على أي نحو، ولو أنني رأيت شيئا من ذلك لكنت قد اعتبرت من واجبي أن أقوم بإبلاغ السلطات بذلك». ثم كانت هناك حيلة جدلية بارعة وضعت نهاية للوضع القانوني بحيث تبدو وكأنها سعيدة أن تذهب إلى السجن لو أن الأمر يتعلق بها فقط، ولكنها كانت تلجأ إلى المادة الخامسة لحماية أبرياء آخرين .. «ولكن هل أضر بأبرياء أعرفهم منذ سنوات لكي أنقذ نفسي ؟ هذا في نظري عمل قبيح وغير إنساني وغير شريف. إنني لا ولن أستطيع أن أقوم بتقطيع ضميري لأجعله يناسب موضة هذا العام، رغم أنني قد وصلت منذ وقت طويل إلى نتيجة مؤداها أنني لست شخصية سياسية، ولن يكون لي مكان مريح في أي جماعة سياسية»، ومما أثار غضب الرئيس الذي يبدو أنه فهم اللعبة التي كانت «هيلمان» تلعبها، أن أحد أعضاء اللجنة، والذي يبدو أنه لم يستوعب النقطة القانونية طلب ضم الرسالة إلى ملف القضية، مما مكن «راوح» ـ وهو مبتهج ـ من توزيع نسخ فورية منها على الصحف. وفي اليوم التالي حصل على «المانشيت» الذي كان يتمناه بالضبط. وفي فصول سيرتها الذاتية عن هذه الأحداث (الزمن الوغد) قامت «هيلمان» بتجميل القصة وأضافت كثيرا من التفاصيل التي اختلقتها، ومن بينها أن رجلا من الجمهور راح يصرخ في القاعة : «الحمد لله أن شخصا ما لديه الشجاعة ليفعلها أخيرا»، ولكن ما كان لها أن ترهق نفسها بذلك حيث إن «رسالتها» كانت هي «الحقيقة» الوحيدة التي برزت من خلال جلسة الاستماع، لتدخل كتب التاريخ، وتدخل الأونطولوجيات كصرخة مؤثرة عن حرية الضمير، من امرأة بطلة لا تعرف الأنانية(١٩).

كان ذلك هو جوهر أسطورة «هيلمان» المتأخرة، هذا إلى جانب أسطورة أخرى كانت ترددها وهي أنها قد دُمِّرت ماليا بسبب إدراج اسمها على القائمة السوداء والقضايا القانونية التي واجهتها هي

«وهاميت»، بينما لا يوجد أي دليل بالمرة على أنها أفلست. أعيد عرض مسرحية «ساعة الأطفال» في سنة ١٩٥٢ وحققت دخلا كبيرا، احتفظت ببيتها في نيويورك حتى سن متأخرة ثم انتقلت إلى مسكن آخر أفضل، صحيح أنها باعت المزرعة ولكنها اشترت في ١٩٥٦ عقارا رائعا في «مارتن ڤاين يارد»، التي كانت قد أصبحت مكانا جميلا لاستجمام أثرياء المثقفين أكثر من «نيويورك».

أما مشاكل «هاميت» المادية فكان لها عدة أسباب، أنه بعد أن توقف عن الشراب لم يعمل ولكنه كان يقضي وقته كله أمام التليفزيون. كان كريما لدرجة البلاهة. ولكن في مثل حالة «هيلمان» لم يكن هناك أي خطورة من هذا النوع، لأنها كانت تشترك معه في عادة أخرى، وهي عدم تسديد ضريبة الدخل.

وكما توضح لنا حالتا «سارتر» و «إدموند ولسون» فإن هناك ميلا عاما بين المثقفين الراديكاليين لمطالبة الحكومات ببرامج إصلاحية طموحة دون الإحساس بأي مسؤولية للمشاركة في ذلك. كان «هاميت» متهربا من الضرائب منذ الثلاثينيات، ولكن ذلك لم يكشف عنه لمجرد أنه دخل السجن. كان مكتب التحقيقات الفيدرالي قد لاحظ ذلك قبل الحرب، ولكن صدور الحكم عليه هو وبعض الدائنين عجل بالمطالبة، وفي ٢٨ فبراير ١٩٥٧ حكمت عليه محكمة فيدرالية بمبلغ ١٠٤,٧٩٥ دولارا عن السنوات من ١٩٥٠ـ١٩٥٤ فقط. استخدمت السلطات المعنية الرحمة، وقال أحد القضاة أنهم لن يحصلوا على شيء : «كان من رأيي وتأكد لي بعد البحث والتحري أنني كنت أتكلم مع رجل مفلس، وعند وفاته وصل المبلغ المطلوب منه بالإضافة إلى الفائدة إلى ١٦٣,٢٨٦ دولارا، أما ديون «هيلمان» للضرائب فكانت أكبر من ذلك، إذكانت تقدر بـ: «١٧٥٠٠٠ : ١٩٠٠٠٠» في سنة ١٩٥٢ وهو مبلغ ضخم بمقاييس تلك الأيام. بعد ذلك ادعت أنها كانت مفلسة وأنها اضطرت للعمل موظفة في محلات «ماكي»... ولكن ذلك لم يكن صحيحا أيضا. هبطت أسهم «هيلمان» في الخمسينيات التي كانت عقدا صعبا بالنسبة للراديكاليين، ولكنها عادت للصعود مرة أخري في الستينيات. افتتحت مسرحيتها « الدمي في غرفة السطح» في ٢٥ فبراير ١٩٦٠ في «نيويورك» بمجموعة رائعة من الممثلين، وهي مسرحية مبنية على فكرة من أفكار «هاميت» استخدمت فيها ذكرياتها عن الطفولة وعن المسكن الذي كانت تعيش فيه. قدمت المسرحية ٥٥٦ عرضا وحصلت مرة أخرى على جائزة «سيركل» وحققت لها دخلا كبيرا ولكنها كانت آخر مسرحية جادة لها، كما أن موت«هاميت»في العام التالي أوحى لكثيرين أنها لن تتمكن من كتابة مسرحية أخري بدونه. وكما لابد أن يحدث، ظهر لديها ما تفعله. كانت الراديكالية تستيقظ في الستينيات، وبنهاية العقد كانت قد أصبحت قوية كأيام الذروة في الثلاثينيات. زيارة أخرى لروسيا أفرزت مجموعة جديدة من الأكاذيب والتأكيد على أن حديث «خروشوف» في الجلسة السرية والذي أكد فيه جرائم «ستالين» كان طعنة في ظهر زعيمه القديم(٢١).

وبعد أن تشممت اتجاه رياح الرأي في أمريكا أدركت أن الوقت قد حان لكتابة مذكراتها. وقد أصبحت هذه المذكرات من أنجح ما ظهر في عالم النشر في هذا القرن وحققت لها شهرة أكثر ونجاحا

أكبر ونفوذا ثقافيا أوسع، ربما يفوق ما حققتة لها مسرحياتها. كانت تلك المذكرات تخليدا لها وهي على قيد الحياة وتمجيدا من خلال الكلمة المطبوعة وآلة العلاقات العامة. كان «امرأة لم تنته بعد» من أفضل الكتب مبيعا في سنة ١٩٦٩، وحصل على جائزة الكتاب القومي للفنون والآداب. كتاب «بنتيمنتو» الصادر في ١٩٣٧ ظل على قائمة الكتب الأكثر مبيعا على مدى أربعة شهور. الكتاب الثالث «الزمن الوغد»ـ ١٩٦٧ ـ ظل على نفس القائمة لمدة ٢٣ أسبوعا. عرض عليها مبلغ نصف مليون دولار لفليم عن حياتها. وجدت نفسها تحظى بمكانة وسمعة جديدتين كأستاذة للكتابة النثرية وصاحبة أسلوب متميز، وطُلِبَ منها أن تعقد دورات تدريبية للكتابة الإبداعية في «بيركلي» وغيرها. كانت الأوسمة والجوائز تنهمر عليها. اختارتها جامعة «نيويورك» سيدة العام، منحتها جامعة «برانديز». ميدالية الفن المسرحي، وجامعة «يشيڤا» جائزة «الإنجاز». حصلت على ميدالية «ماكدويل» لإسهاماتها الأدبية وعلى الدكتوراه الفخرية من جامعات «ييل» و «كولومبيا» وغيرهما. وفي ١٩٧٧ كانت قد استعادت القمة في مجتمع هوليود وهي تحضر حفلات توزيع جوائز الأوسكار، وفي نفس العام ظهر جزء من مذكراتها في فيلم بعنوان «چوليا»، وبدوره حصل على جوائز عديدة. كانت ملكة الموضة الراديكالية على الساحل الشرقي وأهم الشخصيات وأقواها في دوائر المثقفين التقدميين وبين نجوم المجتمع الذين يتجمعون حولهم. والواقع أنها فى «نيويورك» السبعينيات كانت تتمتع بنفس النفوذ الذي كان لـ : «سارتر» في «باريس» في الفترة من ١٩٤٥ـ٥٥، كانت ترأس اللجان المهمة وتختار أعضاءها. كانت لديها قوائمها السوداء الخاصة بها والتي كانت تفرضها من خلال عشرات الإمعات من المثقفين التابعين لها، كانت كل الأسماء الكبيرة في «نيويورك» تهرع لتنفيذ أوامرها. جزء من هذا النفوذ الكبير كان مصدره الخوف منها. كانت تعرف كيف تكون بغيضة سواء في حضور الآخرين أو على انفراد. كان يمكن أن تبصق في وجه رجل، وأن تكيل السباب بصوت عال أو أن تضرب شخصا على رأسه بحقيبة يدها، في «مارثا ڤاين يارد» كانت تشتم الذين يعبرون حديقة منزلها في طريقهم إلى الشاطيء. الآن، كانت قد أصبحت غنية جدا ولديها حشد من المحامين للرد على أتفه اعتداء على حقوقها، وكانت الصدمة تصيب أولئك المتملقين الأذلاء الذين تصوروا أنهم سدنة في محرابها. عندما قدم «إريك بنتلي» ـ صديق «برخت» ـ مسرحية بعنوان «هل أنت الآن .. أو حدث أن كنت ؟» وفيها ممثلون يقومون بالقراءة من رسائلها، طالبت «هيلمان» بحقوقها وهددت بوقف العرض. كانت امرأة متوقدة الذهن، قوية الإرادة، ولكن معظم الناس كانوا يؤثرون السلامة. يقال أنها حصلت على مليون دولار رشوة لكي تتنازل عن قضية خاصة بإعادة تقديم مسرحيتها «الثعالب الصغيرة» سنة ١٩٨١، كانت مؤسسات من المفترض أنها قوية تهرع لخدمتها حتي من قبل أن تأمرهم. هكذا فسخ الناشر «ليتل براون» في «بوسطن» عقد كتاب كانت مؤلفته «ديانا تريلنج» قد ضمنته جزءا ضد «هيلمان» ورفضت أن تحذفه. هذه السيدة «تريلنج» التي كانت تحاول أن تدافع عن زوجها الراحل «ليونيل» ضد هجوم «هيلمان» عليه في «الزمن الوغد» كانت تقول عنها : «هيلمان هي أقوى امرأة قابلتها في حياتي، وربما تكون أقوى من عرفت». كان أساس قوتها تلك الأسطورة غير العادية التي خلقتها حول نفسها في سيرتها الذاتية. كانت عملية ترسيخ للذات على نحو ما فعل «روسو» في «الاعترافات». وكما اتضح لنا ـ وبشكل

متكرر ـ فإن مذكرات كبار المثقفين لا يمكن الثقة بها، ومثال ذلك ما كتبه «سارتر» و«دوبوڤوار» و«رسل» و«هيمنجواي» و«جولانسز».

ولكن أخطر محاولات ترسيخ الذات وتمجيدها هي تلك التي تنزع سلاح القارىء بما يبدو أنه صراحة صادمة واعتراف بالذنب.

مثال ذلك مذكرات «تولستوي» التي تُبْطِن أكثر مما تظهر، في نفس الوقت الذي قد تبدو فيه أمينة. كذلك فإن اعترافات «روسو» ـ وكما لاحظ «ديدرو» وعدد من الذين عرفوه في وقت ما ـ عبارة عن ممارسة واضحة للزيف والخداع، قشرة خارجية من الصراحة تخفي مستنقعا من الأكاذيب ليس له قاع. مذكرات «هيلمان» من هذا النوع بالضبط. في معظم الأحيان تعترف بالغموض والارتباك وشحوب الذاكرة لكي توحي للقارىء بأنها تحاول أن تبذل جهدا متواصلا لاستخلاص الحقيقة من رمال الماضي الضبابية، ولذلك أثني على الكتب وأمانتها نقاد مهمون عندما ظهرت في البداية. ولكن في وسط جوقة المديح وضجيج الرياء في بلاط «هيلمان» في السبعينيات ارتفعت أصوات بعض المنشقين، خاصة أولئك الذين عرفوا أكاذيبها نتيجة خبرة شخصية. فعندما ظهر «الزمن الوغد» بالتحديد، عارضته شخصيات لها وزن مثل «ناثان جلازر» في صحيفة «كومنتري» و«سيدني هوك» في «انكاونتر» و«الفريد كازين» في «اسكواير» و«ايرڤنج هاو» في «ديسنت»(٢٢)، ولكن هؤلاء الكتاب ركزوا على وضوح تشويهاتها وعلى الحذف الذي تعمدته ولم يكونوا على علم بما قد اخترعته. كان هجومهم جزءا من معركة مستمرة بين الليبراليين الديمقراطيين والستاليين المتشددين وبالتالي فإنها لم تثر اهتماما كبيرا، ولم تلحق بـ «هيلمان» ضررا جوهريا. ولكن «هيلمان» أخطأت في التقدير وكان خطأ غريبا في ميدان كان يعتبر دائما تحت سيطرتها وهو العلاقات العامة. كان بينها وبين «ماري مكارثي» ضغائن قديمة منذ الشقاق التروتسكي ـ الستاليني في صفوف اليسار الأمريكي في الثلاثينيات. وظل هذا الصراع حيا في ندوة عقدت في «سان لورانس كوليدج» في سنة ١٩٤٨ عندما اكتشفت «مكارثي» كذب «هيلمان» بخصوص «جون دوس باسوس» في ١٩٤٩، ومنذ ذلك كانت «مكارثي» تكرر اتهامها لـ «هيلمان» بالكذب على نطاق واسع، ولكن ذلك لم يلحق بها ضررا. ثم ظهرت في برنامج تليفزيوني في سنة ١٩٨٠ وكررت فيه اتهاماتها الشاملة عن «أكاذيب هيلمان» ...

«قلت ذات مرة أن كل كلمة من كلماتها كاذبة بما في ذلك حروف العطف وألف لام التعريف ...» وكانت «هيلمان» تشاهد البرنامج. ولأن غضبها وميلها للتقاضي تغلبا على حصافتها، رفعت قضية وطالبت بتعويض قدره مليونان وربع المليون دولار وراحت تتابع القضية بدأب ومثابرة. ولكن ما حدث نتيجة لذلك أثبت أن الرغبة في التقاضي بسبب تشويه السمعة يجذب الانتباه نحو التهمة. كل الاتهامات السابقة لم تصبها بأذى، ولكن الجماهير الآن بدأت تصيخ السمع، وكان لذلك رائحة القتل.

اللجوء إلى التقاضي من سوء العلاقات العامة في أي مكان، ليس لأن أحدا يحب الكُتّاب الذين

يقاضون زملاءهم، وكان من المعروف أن «هيلمان» غنية، بينما كان على «مكارثي» أن تبيع منزلها لكي تنفق على القضية. في البداية تقدم الأصدقاء بالدعم المالي والنصح، ولكن القضية أصبحت قصة رئيسية وبالتالي جذبت المزيد من الاهتمام، وأبرزت لعبة ثقافية جديدة : تحري اختراعات «هيلمان» ! كان على «مكارثي» أن تدبر مبلغ ٢٥٠٠٠ دولارا كرسوم، واستمرت القضية. وكتب «وليم رايت» يقول : «بمقاضاتها لـ «مكارثي» أجبرت «هيلمان» أحد العقول القوية والذكية أن يقوم بتدقيق كل أعمالها والتنقيب فيها بحثا عن الأكاذيب»(٢٣)، ووجد آخرون سعادة بالغة في المشاركة في ذلك، فنشرت «مارتا جيلهورن» في عدد «پاريس ريڤيو» ـ واسعة الانتشار ـ الصادر في ربيع ١٩٨١ قائمة موثقة بتسعة أكاذيب لـ «هيلمان» عن «إسبانيا»، كما نبه «ستيفن سپندر» : «مكارثي» لقضية «موريل جاردينر». كان «سپندر» قد أقام علاقة قصيرة مع «موريل»، وهي فتاة أمريكية غنية وكانت متزوجة ذات يوم من انجليزي اسمه «چوليان جاردينر»، وكانت قد ذهبت إلى «ڤيينا» لدراسة الصحة النفسية، وهناك شاركت في النشاط السري المعادي للنازية تحت اسم «ماري»، وكانت تقوم بتهريب الأفراد والرسائل. وهناك أيضا وقعت في غرام اشتراكي استرالي معادي للنازية اسمه «چو بتنجر» وتزوجته. وبعد نشوب الحرب في ١٩٣٩ تركا أوروبا واستقرا في «نيو چيرسي». «هيلمان» لم تلتق بـ «موريل» أبدا، ولكنها سمعت كل شيء عنها وعن زوجها وعن نشاطهما السري من محاميها في «نيويورك». نقطة البداية في مسرحية «راقبوا نهر الراين» هي فكرة وريثة أمريكية غنية تتزوج من أحد قادة المقاومة الاشتراكيين من أوروبا الوسطي. كانت «هيلمان» قد بدأت في كتابتها بعد وصول «بتنجر» و«موريل» إلى «نيو چيرسي»، ولكن الحبكة الرئيسية لا تمت إليهما بصلة أساسية، وعندما قررت «هيلمان» أن تكتب «بنتيمنتو» عادت مرة أخرى لاستخدام تجربة «موريل» وأعطتها اسم «چوليا»، ولكنها وضعت نفسها في القصة بشكل بطولي وكصديقة لها، والمصيبة أنها قدمت ذلك كله على اعتبار أنه حقائق أوتوبيوجرافية. وبعد أن ظهر الكتاب لم يعترض أحد على ما ذكرته ولكن «موريل» قرأته وكتبت لها رسالة ودية تشير فيها إلى أوجه التشابه فلم ترد عليها وأنكرت بعد ذلك أن تكون قد تسلمت رسالتها.

وحيث إنها لم تكن قد التقت بـ «موريل» بالفعل، فقد قالت إنه كان هناك عميلان سريان أمريكيان هما : «چوليا» و«ماري» ... ولكن من هي «چوليا» إذن ؟ قالت أنها ماتت. وماذا كان اسمها الحقيقي ؟ لم تكشف عنه «هيلمان» : لأن أمها على قيد الحياة ويمكن أن يضطهدها الرجعيون الألمان على اعتبار أنها معادية للنازية. وعندما انتشر القيل والقال عن أكاذيب «هيلمان» بدأت «موريل» تفقد الثقة في نوايا «هيلمان» الطيبة، واستطاعت في سنة ١٩٨٣ أن تقنع جامعة «ييل» بنشر مذكراتها بعنوان «الاسم الكودي : ماري» وبعد النشر بدأ محررون من «نيويورك تيمز» ومجلة «تيم» يطرحون أسئلة حول «بنتيمنتو» وفيلم «چوليا». وأكد الدكتور «هربرت شتاينر» مدير أرشيف المقاومة النمسوية أنه كانت هناك «ماري» واحدة.

فإما أن تكون «چوليا» هي «ماري»، أو أنها اختراع، وفي كلتا الحالتين افتضح أمر «هيلمان» على

نطاق واسع. وقد ضمنت «مكارثي» التي كانت على صلة بـ «موريل» كل هذه المادة ملف القضية وبعد ذلك (في ٤ يونيو ١٩٤٨) نشرت مجلة «كومنتري» مقالا بقلم «مايكل ماك كراكن» من جامعة «بوسطن» : «چوليا وأعمال لـ هيلمان» قام ببحث شبه بوليسي في جداول القطارات والسفن وبرامج المسرح وكل المعلومات التي تفيد في الحصول على تفاصيل لما كتبته «هيلمان» عن «چوليا» في «بنتيمنتو». وأي إنسان لديه عقل مفتوح يقرأ هذا المقال لن يكون لديه أدني شك في أن أحداث «چوليا» كانت عبارة عن خيال روائي تم تأسيسه على تجارب حقيقية لامرأة لم تلتقيها «هيلمان» في حياتها. كذلك فإن تحريات «مكارثي» نزعت الغطاء عن جانب مظلم آخر من حياة «هيلمان»، وهو سعيها للمال، كانت جشعة، وبمرور الوقت كان هذا الميل يتزايد. كانت معظم القضايا تتعلق بالمال، بعد موت «هاميت» أقامت علاقة مع ثري من «فيلادلفيا» : «آرثر كوان» الذي كان يقدم لها الاستشارات الاستثمارية. نصحها أيضا بأن تلجأ إلى وسيلة مراوغة للمطالبة بحقوق «هاميت» التي كانت الحكومة الأمريكية تحتجزها لاستيفاء ما عليه من ديون للضرائب(٢٤).

ماتت «هيلمان» في ٣ يوليو ١٩٨٤، بعد شهر من نشر مقال «كراكن»، في ذلك الوقت كان عالمها الخيالي الذي بنت عليه شهرتها ينهار من حولها، وبعد أن كانت الملكة المهيبة لليسار الراديكالي أصبحت تدافع عن نفسها، إلا أن أبطال وبطلات المثقفين لا يتم التخلي عنهم بسهولة. ومثلما يفعل الفلاحون بالضبط في جنوب إيطاليا عندما يستمرون في تقديم القرابين والشكاوي إلى قديسيهم حتى بعد أن يثبت أنهم كانوا محض خيال ولا وجود لهم .. فإن محبي التقدم يتعلقون بأصنامهم كذلك.

فرغم أن سلوك «روسو» البشع كان معروفا للكافة وهو على قيد الحياة، إلا أن عَبَدَةَ الجهل كانوا يهرعون إلى مقامه، يؤسسون ويكرسون أسطورة الخير المنسوبة إليه. ولم يؤد أي كشف ـ مهما كان موثقا ـ عن أي سلوك سري لـ «ماركس» أو عدم أمانته إلى اهتزاز إيمان تابعيه به، سقوط «سارتر» الطويل وحماقة آرائه في الفترة الأخيرة لم تمنع ٥٠٫٠٠٠ من مثقفي «باريس» من الاصطفاف لإلقاء نظرة وداع أخيرة عليه.

جنازة «هيلمان» في «مارتا ڤاين يارد» حضرها كثيرون، من بين مشاهير اليسار الليبرالي كان هناك «نورمان مايلر»، «چيمس ريستون»، «كاترين جراهام»، «وارن بيتي»، «چوليس فيفر»، «وليم ستيرون»، «چون هيرسي»، «كارل برنشتاين». تركت ما يقرب من أربعة ملايين دولارا، معظمها ذهب إلى مؤسستين : أحدهما «صندوق داشيل هاميت» الذي يقدم المنح على ضوء المبادىء الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الراديكالية للراحل «داشيل هاميت»، الذي كان مؤمنا بمباديء «كارل ماركس»، ورغم الفضح الشديد لأكاذيب «هيلمان» إلا أن صناعة الأسطورة استمرت في مدارها. في يناير ١٩٨٦ أي بعد ثمانية عشر شهرا من وفاتها عرضت مسرحيتها ـ التي تقدسها ـ «ليليان» في «نيويورك» وكان الحضور كثيفا.

في الثمانينات كانت شموع النذور توقد لإلهة العقل، ويقام القداس العلماني. هل تدفن «هيلمان» مثل بطلها «ستالين» في عالم النسيان أم تراها ستظل ـ كالأساطير وكل شيء ـ رمزا مقاتلا للفكر التقدمي ؟ سوف نرى !

ولكن خبرة المائتي سنة الأخيرة تقول إن هناك مايزال الكثير من الحياة ... والأكاذيب في السيدة العجوزه !!



الفصل الثالث عشر

هروب العقل !

جورج أوريل – سيريل كونوللي

إيڤيلين وو – نورمان مايلر – كينيث تينان

راينر ڤيرنر فاسبندر – چيمس بولدوين

نعوم تشومسكي

في نهاية الحرب العالمية الثانية كان هناك تغير مهم في الهدف المهيمن على المفكرين العلمانيين، فقد تحول التركيز من «اليوتوبيا» إلى مذهب اللذة. بدأ التحول بطيئا ثم أخذ في التسارع . ويمكن أن نبحث أصول ذلك بالنظر إلى آراء وعلاقات ثلاثة من الكتاب الانجليز كلهم من مواليد سنة ١٩٠٣ : «جورج أورويل» (١٩٠٣ ـ ١٩٥٠) و«ايفيلين وو» (١٩٠٣ ـ ١٩٦٦) و«سيريل كونوللي» (١٩٠٣ ـ ١٩٧٤) الذين يمكن أن نصفهم بـ المثقف القديم والمثقف النقيض والمثقف الجديد. بدأ «وو» علاقة حذرة مع «أورويل» فقط عندما هاجم الأخير مرض عضال . «وو» و«كونوللي» كانا في حالة صراع وخصام طوال فترة الشباب. «أورويل» و«كونوللي» يعرف كل منهما الآخر منذ أيام الدراسة. كل كاتب من الثلاثة كان ينظر بقلق وارتياب، وأحيانا بحسد، إلى الإثنين الآخرين.

«كونوللي» الذي كان يشعر بأنه أقل الثلاثة نجاحا كتب عن نفسه على نسخة من «ڤيرجل» أعطاها للناقد المسرحي «ت.س.ورسلي» : «في «ايتون» مع «أورويل»، في «اكسفورد» مع «وو»، ولكن لا شيء بعد ولا شيء قبل»(١) . إلا أن ذلك كان بعيدا عن الحقيقة، لأنه يبدو أكثر الثلاثة تأثيرا في كثير من الجوانب.

كان «أورويل» الذي سوف نتناوله بداية حالة تقليدية للمثقف القديم، بمعنى أن الالتزام السياسي بمستقبل اشتراكي طوباوي بالنسبة لشخص مثله كان ـ وببساطة ـ بديلا للمثالية الدينية التي لم يستطع أن يؤمن بها. «الله» بالنسبة له غير موجود، وضع إيمانه في الإنسان، ولكن لأنه نظر لموضوع إيمانه عن كثب، لم يستطع أن يحتفظ به.

ينحدر «أورويل» المولود باسم «ايريك بلير» من أسرة امبراطورية وكان يبدو عليه ذلك. طويل القامة، نحيل، شعره قصير من الجانبين ومن الخلف والشارب مشذب بحدة. كان جده لوالده يعمل في الجيش الهندي، أما جده لوالدته فكان تاجر أخشاب في «بورما». كان والده موظفا في إدارة مكافحة الأفيون في الخدمة المدنية الهندية، درس هو و«كونوللي» في مدرسة خاصة وبعد ذلك ذهبا إلى «ايتون». تلقى هذا التعليم باهظ التكاليف لأنه مثل «كونوللي» كان طفلا ذكيا توقعوا له الحصول على منح دراسية، وأن

يكون واجهة مشرفة للمدرسة، إلا أن ما كتبه «الولدان» بعد ذلك عن المدرسة سبب لهما ضررا بالغا(٢). المقال الذي كتبه «أورويل» بعنوان «هكذا كانت المباهج» مليء بالمبالغة وربما بالأكاذيب. أحد معلميه في «ايتون» «أ.س.ف چو» والذي كان يعرف تلك المدرسة الخاصة جيدا، يعتقد أن «كونوللي» هو الذي ضلل «أورويل» وجعله يكتب ذلك التقرير غير المنصف(٣). وإذا كان الأمر كذلك فعلا فإنها تكون المرة الوحيدة التي استطاع فيها «كونوللي» إقناع صديقه «أورويل» باتخاذ هذا المنحى اللاأخلاقي والذي ينطوي على كذب، حيث أن «أورويل» ـ مثل «ڤيكتور جولانسز» ـ كان يتحرى الحقيقة والصدق بأسلوب صارم. وبعد أن ترك «ايتون»، التحق «أورويل» بالشرطة الهندية حيث خدم خمس سنوات (١٩٢٢ ـ ١٩٢٧)، وهنا رأي الجانب السيء للاستعمار. شاهد عمليات الجلد والشنق ووجد أنه لا يمكنه أن يقبل ذلك، وربما يكون المقالان اللذان كتبهما بعنوان: «صيد الفيل رميا بالرصاص» و«الإعدام شنقا» هما أكثر الكتابات فضحا للروح الإمبراطورية في بريطانيا(٤). وعندما عاد إلى انجلترا في إجازته استقال من الخدمة وقرر أن يكون كاتبا. وبعد أن فكر في أسماء كثيرة يكتب بها مثل «ب.س.بيرتون» و«كينيث مايلز» و«هـ.لويس أولويز» اختار لنفسه اسم «چورچ أورويل»(٥). كان مثقفا بمعنى أنه كان يعتقد بإمكانية إعادة صياغة العالم عن طريق العقل. وعلى أية حال فقد كان ذلك في فترة شبابه، وهكذا كان مشغولا بالأفكار والمفاهيم. ولكن طبيعته وربما عمله في الشرطة أيضا، جعلاه يهتم بالناس اهتماما عاطفيا، ومن المؤكد أن تكون غريزة الشرطي بداخله جعلته يدرك أن الأشياء ليست دائما كما تبدو، وأن البحث والتمحيص فقط هما الكفيلان بإظهار الحقيقة. من هنا، وعلى غير معظم المثقفين عكف «أورويل» على عمله كمثالي اشتراكي، بدراسة حياة الطبقة العاملة عن كثب. وهو يشبه في ذلك ـ إلى حد ما ـ «إدموند ويلسون» الذي كان مثله ينشد الحقيقة، ولكنه كان أكثر مثابرة منه في محاولته لأن يعرف عن «العمال»، ولعدة سنوات ظل البحث والتجربة هما موضوع حياته الرئيسي. في البداية أقام في «نوتنج هل» التي كانت من أحياء «لندن» الحقيرة في ذلك الوقت. وفي سنة ١٩٢٩ عمل في «باريس» في غسيل الصحون في المطابخ، ولكنه أصيب بالتهاب رئوي ـ كان يعاني من ضعف مرضي في الرئتين وهو الذي قتله في سن السابعة والأربعين ـ وانتهت المغامرة بنوبة في إحدى مستشفيات «باريس» الخيرية وهي المرحلة التي وصفها بشكل مرعب في «العجز والبؤس قي پاريس ولندن» ـ ١٩٣٣ ـ، بعد ذلك عاش مع المتشردين والمتسكعين من الطبقة العاملة في مدينة «ويجان» الصناعية وفتح محلا صغيرا في إحدي القري، وكان لذلك كله هدف واحد: «كنت أشعر أنني لابد أن أهرب، ليس من الاستعمار فقط، بل من كل صور سيطرة الإنسان على الإنسان. كنت أريد أن أغمر نفسي وأغوص تماما بين المظلومين، أن أكون واحدا منهم وإلى جانبهم ضد المستبدين»(٦).

وهكذا عندما نشبت الحرب الأهلية الإسبانية في ١٩٣٦ لم يكتف بتأييد الجمهورية معنويا فقط كما فعل أكثر من تسعين بالمائة من مثقفي الغرب ولكنه ـ وعلى غيرهم جميعا ـ حارب من أجلها، الأكثر من ذلك ـ وكأن الحظ شاء ـ أن يحارب في أصعب أقسام الجيش الجمهوري: ميليشيات الـ

«Poum» الفوضوية وقد ظلت تلك تجربة حرجة إلى نهاية حياته. على نحو خاص، كان «أورويل» يريد أن يذهب إلى «إسبانيا» أولا ليرى الموقف على الطبيعة قبل أن يقرر ما يفعله، ولكن الوصول إليها كان صعبا، وكان الدخول إليها في الواقع تحت سيطرة الحزب الشيوعي. ذهب «أورويل» بداية إلى «ڤيكتور جولانسز» الذي أحاله إلى «چون ستراشي» الذي أحالة إلى «هاري بوليت» رئيس الحزب الشيوعي. ولكن «بوليت» لن يعطي «أورويل» خطاب التوصية إلا إذا وافق على الالتحاق باللواء الدولي الخاضع لسيطرة الحزب الشيوعي. ورفض «أورويل» هذا الشرط، لا لأنه كان ضد اللواء ـ فقد حاول أن ينضم إليه في إسبانيا، في العام التالي ـ وإنما لأن ذلك كان من شأنه أن يغلق أمامه كافة الخيارات قبل أن يتعرف على الحقيقة. وعليه فإنه اتجه إلى حزب الجناح اليساري المعروف بـ «حزب العمل المستقل»، الذي أوصله إلى «برشلونة» وجعله يتصل بالثوار الفوضويين ... وهكذا انضم إلى ميليشيات الـ «Poum».

بهرته «برشلونه» : «مدينة ، الطبقة العاملة فيها في مركز السلطة»، كما بهره وجود المليشيات «التي لم يعد فيها مكان لكثير من مظاهر الحياة العادية مثل التنفج وهبش الأموال والخوف من الرؤساء، وحيث اختفي التقسيم الطبقي العادي وبدرجة لا يمكن تصورها في جو انجلترا الملوث بالمال»(٧) ووجد «أورويل» في القتال الذي جرح فيه تجربة ثقافية أخلاقية على نحو ما، وكتب رسالة لوم هادئة لصديقه «كونوللي» الذي كان يراقب الحرب مثل معظم المثقفين من باب السياحة. «....من أسف أنك لم تأت إلى موقعنا، كان بودي أن أستمتع بتقديم الشاي إليك في مخبأ»(٨)، ووصف الميليشيات وهي في الخدمة النشطة بأنها «مجتمع، الأمل فيه أمر عادي أكثر مما هي اللامبالاة أو الشك، حيث كلمة «رفيق» تعبر بالفعل عن الرفاقية وليس عن الخداع كما هي الحال في معظم الدول» . في الميليشيات «لا يوجد شخص تواق إلى الكسب المادي أو الفوز بمنزلة اجتماعية أسمي» ... «نقص في كل شيء ولكن لا امتيازات ولا تملق ولا تذلل»، وكان يرى ذلك «عينة مبدئية للمراحل الأولى من الاشتراكية»، وفي النهاية كان يقول في رسالة له : «لقد رأيت أشياء رائعة، وأخيرا آمنت بالاشتراكية، الأمر الذي لم أفعله من قبل»، بعد ذلك كانت التجربة المدمرة لتطهير الحزب الشيوعي من الفوضويين بناء على أوامر «ستالين». الآلاف من رفاق «أورويل» قتلوا أو سجنوا أو عذبوا أو أعدموا .. أما هو فكان من حسن حظه أن يهرب، ومما لفت الأنظار إليه بعد عودته إلى انجلترا، الصعوبة التي وجدها لكي ينشر ما كتب عن تلك الأحداث المرعبة، إذ لم يسمح له «ڤيكتور جولانسز» في نادي الكتاب اليساري، ولا «كنجسلي مارتن» في «نيو ستيتسمان» ـ المؤسسات المعنيتان بالرأي التقدمي في بريطانيا ـ بقول الحقيقة ، فاضطر إلى التوجه لمكان آخر. كان «أورويل» دائما من النوع الذي يضع التجربة قبل النظرية وقد أظهرت الأحداث أنه كان على حق.

كانت النظرية تقول أن اليسار عندما يمارس السلطة سوف يسلك سلوكا عادلا ويحترم الحقيقة، ولكن التجربة أظهرت أنه كان على درجة من القسوة والظلم غير معروفة ولا ينافسها سوي جرائم النازية، وأن

اليسار يمكن أن يقمح الحقيقة في سبيل الحقيقة العليا التي يخفيها. كما أكدت له التجربة أيضا، بما حدث في الحرب العالمية الثانية، حيث ارتبكت كل القيم والمبادىء، أن الإنسان أكثر أهمية من المبادىء المجردة، الأمر الذي كان يشعر به دائما في قرارة نفسه، لم يتخل «أورويل» أبدا بالكلية عن اعتقاده بإمكانية خلق مجتمع أفضل بقوة الأفكار، وبهذا المعنى فإنه ظل مثقفا، ولكن محور هجومه تحول من المجتمع التقليدي الرأسمالي القائم إلى اليوتوبيات المخادعة التي كان المثقفون مثل «لينين» يحاولون أن يحلوها محلها. عملاه المهمان : «مزرعة الحيوان» ـ ١٩٤٥ و«١٩٨٤» ـ ١٩٤٩ ـ كانا في الأساس نقدا للتجريدات التي تحققت وللسيطرة الشمولية على العقل والجسد كما تتطلب اليوتوبيا أو كما قال : «للانحرافات التي يتعرض لها الاقتصاد المركزي»(١٠) ،هذا التحول في الاهتمام الرئيسي أدى بـ «أورويل» إلى أن يكون له نظرة نقدية إلى المثقفين كذلك، وقد تطابق هذا جيدا مع مزاجه الذي يمكن أن يوصف بأنه منضبط ومنظم أكثر منه بوهيمي، فأعماله مليئة بالملاحظات الجانبية (مثل إزرا پاوند) على شاكلة : «من حقنا أن نتوقع سلوكا مهذبا ... حتى من الشاعر»، والحقيقة أنه صاحب المقولة المأثورة أن الفقراء «الناس العاديون» كان لديهم الإحساس الأقوى بما يسميه «السلوك المهذب العادي» والتعلق الأقوي بالفضائل البسيطة مثل الأمانة والوفاء والإخلاص أكثر من الحاصلين على تعليم عال. عندما مات «أورويل» في سنة ١٩٠٥ لم تكن وجهته السياسية النهائية واضحة ومازال مصنفا كمثقف يساري، وعندما اشتهر وذاعت سمعته تصارع اليمين واليسار حول ولائه (والحقيقة أن صراعهما لم يتوقف) .. كلاهما يدعي وصلاً به. ولكنه في السنوات الأربعين التي تلت موته كان يستخدم كعصاة لضرب المفاهيم الثقافية لليسار. كان المثقفون الذين يشعرون بالتضامن مع طبقتهم يعتبرونه عدوا. وهكذا فإن «ماري مكارثي» في مقالها عنه ـ رغم أنها أحيانا ما ترتبك في أفكارها السياسية إن لم تكن مغلقة على نفسها ـ كانت شديدة القسوة عليه : «كان «أورويل» محافظا بطبعه، في مراحل حياته المختلفة كان معارضا للتطرف في السلوك واللباس والفكر» . «كان محافظا بالفعل، اشتراكيته كانت مجرد «فكرة من رأسه» ، «عاطفة فارغة» ، «ليست مجربة» وملاحقته للستالينيين كانت أحيانا نتاج كراهية شخصية» ، «فشله السياسي كان فشلا فكريا» ، ولو عاش لتحول إلى اليمين، ولذلك «ربما كان من حسن طالعه أنه مات»(١١) . (وهذه الفكرة الأخيرة : الموت أفضل من ألا يكرن أحمر خير مثال على أولويات بعض المثقفين) أحد أسباب ابتعاد المثقفين عن «أورويل» هو اقتناعه المتزايد بأنه بينما من الصحيح الاستمرار في البحث عن حلول سياسية «مثلما يجب أن يحاول الطبيب إنقاذ حياة مريض من المحتمل أن يموت» ، إلا أننا يجب أن ندرك بداية أن السلوك السياسي سلوك غير طبيعي لدرجة كبيرة» ، ومن هنا فهي ليست قاعدة : أن يكون قابلا لتلك الحلول التي يحاول المثقفون عادة أن يفرضوها»(١٢) . ولكن بينما كان المثقفون قد بدأوا يتشككون في «أورويل» ، فإن أولئك من ذوي المعتقد المعاكس ـ رجال الأدب إن شئت ـ كانوا يميلون إلى التحمس له. «ايفيلين وو» مثلا، والذي لم يكن يوما من الذين يقللون من شأن اللاعقلاني في الحياة، بدأ يراسله وزاره في المستشفى، ولو امتد العمر بـ «أورويل» لأصبحا صديقين. جمع بينهما في البداية رأي مشترك وهو أنه لا يجوز اضطهاد الكاتب «ب.ج.وودهاوس» بسبب أحاديثه الإذاعية الحمقاء

(والتي كانت أقل إيذاء مقارنة بأحاديث إزرا پاوند»، وكانت تلك حالة أصر فيها الرجلان على أن الأولوية يجب أن تكون للفرد قبل المفهوم المجرد للعدالة الأيديولوجية. ولكن «وو» سرعان ما رأى في «أورويل» مرتدا محتملا في صفوف الانتلچنتسيا.

كتب في مفكرته في ٣١ أغسطس ١٩٤٥ : «تناولت العشاء مع ابن عمي الشيوعي «كلود» (كوكبيرن» الذي حذرني من الأدب التروتسكي، ولذلك قرأت رواية «أورويل» : «مزرعة الحيوان» واستمتعت بها جدا»(١٣). كما أدرك أيضا قوة رواية «١٩٨٤» رغم أنه وجد من غير المعقول ألا تعيش الروح الدينية لكي تشارك في مقاومة الظلم الذي صوره «أورويل» ، مضيفا : «وهكذا ترى كيف استفزني كتابك لدرجة أنني أغامر بتقديم موعظة»(١٤). وما قَبِلَه «أورويل» على مضض ومتأخرا ـ فشل الطوباوية بسبب لا معقولية السلوك الإنساني أساسا ـ أيده «وو» بصوت عال وبحماس طوال حياته. وفي الواقع لم يقدم كاتب آخر ـ ولا حتى «كپلنج» ـ شهادة أكثر وضوحا عن الوضع المناقض للثقافة والفكر. كان «وو» مثل «أورويل» يؤمن بالتربة الشخصية، وبأن يرى نفسه، وضد التخيل النظري، ومن الجدير بالملاحظة أنه بينما لم يحاول طواعية ـ مثل أورويل ـ أن يعيش مع المظلومين، إلا أنه كان رحالة دؤوبا حتى إلى مناطق بعيدة شاقة. رأى الكثير عن الناس والأحداث وكانت لديه معرفة مباشرة بالعالم إلى جانب تلك التي استقاها من الكتب، وعندما يكتب عن أمور جادة كان يحترم الحقيقة احتراما كبيرا. كتابه السياسي الوحيد «سرقة في ظل القانون» ـ ١٩٣٩ ـ الذي يصف فيه النظام الثوري المكسيكي، صدَّره بتحذير للقارىء يوضح فيه مصادره ومؤهلاته للكتابة عن هذا الموضوع وكيف كان يراها غير كافية، كما لفت انتباه القراء إلى ما كتبه آخرون يختلفون معه في الرأي عن نفس الموضوع، وحذرهم ألا ينتهوا إلى رأي قاطع عما كان يجري في المكسيك بناء على كتابته فقط. كان يؤكد أسفه بخصوص الأدب الملتزم ويقول إن كثيرا من القراء «بعد أن ملُّوا ميزة الصحافة الحرة» قرروا «أن يفرضوا على أنفسهم رقابة تطوعية»، بإنشاء نوادي الكتب ـ وكان يقصد نادي الكتاب اليساري لـ «جولانسز» ـ لكي «يكونوا على ثقة من أن أي شيء يقرءونه إنما كتب لتأكيد ما لديهم من آراء»، وهكذا من باب الأمانة مع القراء، وجد «وو» أن من اللائق أن يقوم بتلخيص معتقداته الخاصة.

كان محافظا ـ كما قال ـ وكل ما رآه في المكسيك قوى من قناعاته. كان يرى أن الإنسان بطبيعته «مغترب، ولن يكون مكتفيا ذاتيا ولا كاملا على هذه الأرض»، وأن «فرص الإنسان للسعادة لا تتأثر كثيرا بالظروف السياسية والاقتصادية التي يعيشها» وأن «التغيرات المفاجئة بالنسبة للإنسان كثيرا ما تجعل الأمور أكثر سوءا»، وأن «الناس الخطأ يدافعون عنها لأسباب خاطئة». وكان يعتقد بضرورة الحكومة «لا يمكن أن يعيش الناس معا بلا قواعد»، ولكنها لابد أن تكون في حدها الأدنى الذي يوفر السلامة»، وأن الله «لم يقرر نوعا من الحكم أفضل من الآخر»، وأن «عوامل الفوضى في المجتمع قوية»، ولذلك فإن «حفظ السلام واجب دائم»، عدم المساواة في الثروة والوضع الاجتماعي أمور «حتمية»، ولذلك «فلا معنى لمناقشة مزايا إزالة تلك الفروق»، والحقيقة أن الناس «بطبيعتهم ينظمون أنفسهم في نظام طبقي»، الأمر

الذي يعتبر «ضروريا لأي عمل تعاوني»، كما أن الحروب والفتوح أيضا حتمية، الفن أيضا من وظائف الإنسان الطبيعية، ولذلك «يحدث أن «تنتج» أعظم الفنون في ظل أكثر الأنظمة السياسية استبدادا»، «رغم اعتقادي أن ذلك لا صلة له بأي نظام معين».

وأخيرا فإن «وو» كان يقول أنه شخص وطني بمعني: «إنه في الوقت الذي لا يعتقد فيه أن رفاهية بريطانيا ضد أي طرف آخر، إلا أنه إذا ما حدث ذلك «فإنني سأكون مع رفاهية بريطانيا لا مع خصومها». وهكذا وصف «وو» المجتمع كما هو وكما يجب أن يكون واستجابته لذلك. والحقيقة أن رؤيته كانت شخصية ومثالية، ولأنه كان مثقفا نقيضا، كان يسلّم بأنها لا يمكن أن تتحق. والمجتمع المثالي عنده كما وصفه في مقدمة كتاب نشر في سنة ١٩٦٢ مكون من أربع طبقات: في القمة يوجد «ينبوع الشرف والعدالة»، بعده مباشرة «الرجال والنساء الذين يشغلون المناصب العليا وهم الأوصياء على التقاليد والأخلاق والفضائل»، وعليهم أن يكونوا دائما «مستعدين للتضحية»، وهم محصنون ضد «عدوي الفساد والطموح بصفات وراثية»، وهم الذين «يرفدون الفنون وهم الرقباء على حماية الأخلاق»، تحتهم «طبقات الصناعة والعلم» المدربون منذ الطفولة على «الاستقامة»، وفي القاع العمال اليدويون» الفخورون بمهاراتهم والمرتبطون بمن فوقهم بالولاء العام»،وينهي «وو» كلامه بالتأكيد على أن المجتمع المثالي يحافظ على بقائه ذاتيا: «فالمرء عموما مهيأ للأعمال التي وجد والده يؤديها»، ولكن هذا المثال «لم ولن يحدث في التاريخ»، وكل عام «يزيد الابتعاد عنه». ولكن «وو» لم يكن انهزاميا، لم يؤمن ـ كما كان يقول ـ برثاء روح العصر ثم العودة إلى الانحناء لها: «لأن روح العصر هي أرواح أولئك الذين صنعوها وكلما كانت علامات الانشقاق عن السائد قوية زادت إمكانية تحويلها عن مسارها الخرب»(١٥).

وباستمرار، وعلى قدر استطاعته كان «وو» يحاول أن «ينشق عن النمط السائد»، ولكن بسبب اعتناقه لمثل تلك الأفكار فإنه بالطبع لم يشارك في سياسة من هذا النوع، وكما عبر عن ذلك بقوله: «لا أطمح أن أقدم النصح للملكة بشأن اختيارها لخدمها»(١٦). إنه لم يتجنب السياسة فقط، ولكنه كان يرثي لكثير من أصدقائه ومعاصريه ـ «كونوللي» وغيره ـ الذين استسلموا لروح الثلاثينيات وخانوا الأدب بانشغالهم بالسياسة. كان «وو» مفتونا بـ «كونوللي» وقد ذكره في كثير من كتبه على نحو أو آخر، وكان يعلق على كتبه بملاحظات كثيرة في الهوامش: ترى لماذا كان ذلك الاهتمام؟

هناك سببان: أولا: لأن «وو» كان يراه جديرا بذلك الاهتمام لذكائه الشديد، ولأنه في كتابته كان يتمتع «بدقة العبارة والسخرية النافذة والبلاغة المضيئة».. وأحيانا يفتقر لما يسميه «وو» بروح البنية الأدبية وإلى الطاقة المثابرة ولذلك لم يكن قادرا على انتاج عمل أساسي. وقد وجد «وو» هذا التنافر شيئا مهما. وثانيا ـ وهو الأهم ـ أن «وو» كان يرى «كونوللي» تعبيرا عن روح العصر ولذلك يجب مراقبته كما قد يراقب المرء طائرا نادرا. في النسخة التي كانت لديه من كتاب «كونوللي»: «المقبرة القلقة»، والموجودة الآن في قسم أبحاث الدراسات الإنسانية في جامعة «تكساس ـ أوستن ـ «سجل «وو» عدة ملاحظات عن

شخصيته : كان «يمثل جيلي تماما»، «بما فيه من نقص حقيقي للثقافة»، «حبه للمرح والحرية والحياة الرغدة»، «تنفجه الرومانسي»، «الإسراف واليأس»، «الموهبة العالية في القدرة على التعبير». ولكنه كان «مقيدا بالكسل»، «معوقا بأيرلنديته»، ورغم كل محاولاته لإخفائها كان ذلك «الولد الأيرلندي المهاجر التائق للعودة إلى الوطن، رث الملابس، الخجول، الفكه، المرح في المشارب العامة، الجاهز دائما بالأقوال المأثورة على لسانه، الخائف من الساحرات ومن شبح القسيس، الفخور بمزاحه». كان لديه مثل كل الأيرلنديين اعتقاد راسخ بوجود حقيقتين وحيدتين : الجحيم والولايات المتحدة»(١٨). وأسف في الثلاثينيات لأن «كونوللي» كتب عن «التاريخ الأدبي الحديث «ولم يتناول الكتاب «في استخدامهم واستكشافهم لمواهبهم كل على طريقته، وإنما لأنه تناول التاريخ كسلسلة من «الحركات» : تلغيم وقصف وتطويق وابتزاز حزبي وتلاعب في الانتخابات ... وربما كان هو الأيرلندي بداخله»، كما كان يلومه بشدة «لاستسلامه» لمخالب «الالتزام»، «حفرة السياسة الباردة الرطبة التي انحدر إليها كل أصدقائه الشباب»، وكان يرى في ذلك «نهاية مؤسفة لموهبة مثله، وأسوأ عدو لكل ما هو واعد»(١٩). كان «وو» يعتقد أن اهتمام «كونوللي» المهرووس بالسياسة لن يستمر، وكان يرى أنه يمكن أن يفعل شيئا أفضل، أو على الأقل أي شيء آخر. ولكن، وعلى أيه حال، كيف يمكن أن يقوم شخص مثل «كونوللي» بتقديم النصح والمشورة للإنسانية وإرشادها لكيفية إدارة شئونها ؟ كيف بالفعل ؟ وهو الذي لم يكن شريرا على أي نحو، وكان يمثل الضعف الأخلاقي الذي يميز المثقف لدرجة غير عادية ؟ في المقام الأول : عندما كان يدعي أو يعلن انحيازه للمساواة بين البشر ـ وعندما كان ذلك صرعة جديدة من ١٩٣٠ ـ ١٩٥ ـ كان هو في نفس الوقت شخصية نفاجة متعجرفة على مدى حياته. «لا شيء يغيظني قدر معاملتي كأيرلندي»، هكذا كان يشكو مشيرا إلى أن لقب «كونوللي» هو اللقب الأيرلندي الوحيد بين ألقاب أجداده الثمانية. كان من سلالة جنود وبحارة محترفين. والده في الحقيقة كان ضابطا عاديا، لكن «والده» الذي يدّعيه كان «أدميرالا» وعمته هي الكونتيسة «كنجستن» !

وقد أشار الناقد «چون ريموند» في أحد أعداد «نيو ستيتسمان» في سنة ١٩٥٣ أنه قام بتعديل تفاصيل سيرته في كتاب «أعداء الوعد». كانت الطبعة الأصلية في سنة ١٩٣٨ (ولذلك پروليتارية) ... وقد تكتمت على أقاربه الكبر وملاك الأراضي، ولكنه أعادهم إلى الحياة في الطبعة المنقحة في ١٩٤٨ حيث كان الزي الثقافي قد تغير. وكما لاحظ «ريموند» فإن «كونوللي» كان دائما مثل «السمكري المستعد دائما» لإصلاح تلك التوجهات الثقافية(٢٠). بدأ تنفج «كونوللي» باكرا، وشأن كثير من المثقفين الكبار كان «كونوللي» مثل «سارتر» طفلا وحيدا. كانت أمه المعجبة به تدعوه «سپرات»*، وقد وجد المدرسة الداخلية صعبة لأنه كان مدللا ومتمركزا حول ذاته، وقبيح المنظر، ولا يصلح للألعاب الرياضية. اعتاد في البداية أن يكون إمعة أو تابعا لأبناء الأغنياء والطبقات الراقية الذين كان يحكي عنهم لأمه(٢١). أسلوبه الثاني في الحياة كانت الفكاهة شديدة الذكاء، ومثل «سارتر» أيضا اكتشف في نفسه

* سمكة الرنجة الصغيرة

باكرا القدرة على إضحاك الآخرين، الأمر الذي جعل له قبولا بينهم وإن كان لم يخل من ضغينة. كتب فيما بعد «الكلمة سوف تنتشر»، «كونوللي المهرج»، «كان بإمكاني أن أجمع الناس حولي بسرعة». كان هو المهرج وسط الأولاد الأقوى منه، واستمر هكذا حتى في «ايتون» رغم أنه انتقل إلى ميدان الحكمة بعد ذلك «أصبحت مثل سقراط في النصف الأسفل من الكلية»، وكان يعرف بـ : «السحّاب الذي رفسه البغل في وجهه». كان حاد الملاحظة شديد التبصر سواء عن نفسه أو الآخرين، أدرك منذ وقت باكر أنه كان مؤمنا بطبيعته بمذهب اللذة، وكان هدفه ـ كما يقول ـ هو «الكمال في السعادة»، ولكن كيف يمكن أن يكون سعيدا ولم يرث مالا ؟ هل كان مضطرا لأن يكون قويا ؟ لقد كان «وو» على حق عندما أشار إلى كسله. في أكسفورد كان قليل العمل، بعد ذلك التحق بوظيفة سهلة (سكرتير) ليدون ما يمليه عليه أحد الكتّاب الأغنياء (ل.ب.سميث) لقاء ثمانية جنيهات في الأسبوع وهو مبلغ كبير في تلك الأيام، بعد ذلك تزوج من «چين باكويل»، وكانت سيدة غنية لديها دخل يصل إلى ألف جنيه في العام. كان مغرما بها، ولكن كلاهما كان أنانيا وقررا عدم الإنجاب. وبعد عملية إجهاض غير متقنة في «باريس» اضطرت لإجراء عملية أخرى فأثر ذلك على الغدد وأصيبت بالسمنة ففقد اهتمامه بها. ولا يبدو أن أفكار «كونوللي» عن المرأة كانت ناضجة. كان يعترف بأن الحب بالنسبة له يتخذ شكل «استعراضية الطفل الوحيد»، بمعني «الرغبة في إلقاء شخصيتي عند قدمي شخص آخر كما يلقي جرو صغير من فمه كرة عليها آثار لعابه»(٢٢). وفي نفس الوقت كانت ثروة «چين» تجعله في غير حاجة لعمل منتظم، والنتيجة كما سجلها في يومياته التي كان يدونها في ١٩٢٨ ـ ١٩٣٧ هي : «صباح بلا عمل»، «صباح في منتهي الكسل»، «غذاء في الثانية»، «مستلق على الأريكة أحاول أن أتخيل شريحة صفراء من ضوء الشمس تنتشر بكثافة فوق حائط أبيض»، «فراغ طويل ... ومع مثل هذا الفراغ الطويل يتكيء المرء كثيرا على كل واحد وعلى كل شيء .. والكل ينهار»(٢٣).

والحقيقة أن «كونوللي» لم يكن كسولا بالقدر الذي كان يريد أن يبدو عليه، فقد أكمل نقده للصراعات الأدبية «أعداء الوعد» وعندما نشر أخيرا (في سنة ١٩٣٨) كان من أهم الكتب التي ظهرت في ذلك العقد. لقد أثبت أن لديه موهبة طبيعية ـ على أية حال ـ لقيادة أسراب المثقفين في جيله. عندما قامت الحرب الإسپانية انساق إلى السياسة وقام بثلاث زيارات إلى هناك. كان يحمل خطاب تصريح من «هاري پوليت» والذي كان مفيدا عندما ألقي القبض على رفيقه «د.هـ. أودن» في «برشلونة» لتبوله في حدائق «مونجرش» العامة، وهي مخالفة خطيرة في إ«إسپانيا(٢٤).

وقد وصف «كونوللي» تلك الزيارات وصفا بارعا في «نيو ستيتسمان»، وهي كتابة مختلفة تماما عن ذلك النثر الجاف الملتزم الذي كان يكتبه مثقفون آخرون في ذلك الوقت، ولكنه كان يعبر عن المعاناة التي يجدها في حمل «عبء الرجل اليساري»، كان يقدم نفسه : «أنا أنتمي إلى جيل أبعد ما يكون عن السياسة .. لم نكد نحضر اجتماعا سياسيا حتي كنا نذهب إلى الكنيسة. وأكثرهم واقعية ـ وكان يقصد بذلك «ايفيلين وو» و«كينيث كلارك» ـ كان قد اكتشف أن «نوع الحياة التي يعيشونها يعتمد على

التعاون الوثيق مع الطبقة الحاكمة»، أما البقية فكانوا «يتأرجحون» إلى أن قامت الحرب الأهلية : «وقد أصبحوا (الآن) ذوي عقول سياسية تماما، وأعتقد أن ذلك من خلال الشئون الخارجية». ولكنه كان سريعا في توضيح أن الكثير من اليساريين دافعهم النجاح في المهنة أولا أو لأنهم «كانوا يكرهون آباءهم أو لأنهم لم يكونوا سعداء في المدارس العامة أو أهينوا في الجمارك، أو كانوا قلقين بسبب الجنس»(٢٥). كما لفت الانتباه بشدة نحو أهمية الجدارة الأدبية إلى جانب الجدارة السياسية، وكان يعتبر «قلعة آكسل» لـ : «إدموند ويلسون» الكتاب اليساري الوحيد الذي يفي بالمقاييس الجمالية إلى جانب المقاييس الإقتصادية»(٢٦).

وما كان يلمح إليه «كونوللي» هو أن الأدب المسيّس قد فشل، وعندما جاء الوقت المناسب وأصبحت الأمور أكثر أمانا من الناحية الفكرية أعلن موت «الإلتزام» صراحة. وفي اكتوبر ١٩٣٩ رسم أحد المعجبين به، وهو الثري «بيتر واطسون» الدور المناسب له : تحرير مجلة شهرية للكتابة الجديدة هي «هورايزون» ـ الأفق ـ بهدف محدد وهو دعم التميز الأدبي بين أسنان المرحلة التي تسيطر عليها روح الحرب، وكانت ناجحة جدا منذ البداية، كما أكدت الوضع القيادي لـ «كونوللي» بين الانتلجنتسيا.

وبحلول عام ١٩٤٣ شعر أنه يستطيع أن يشطب الثلاثينيات وأن يعتبرها غلطة : «الأدب الأكثر تمثيلا لتلك السنوات كان سياسيا، وقد فشل من الناحيتين حيث لم يحقق شيئا من أهدافه السياسية ولم ينتج عنه أي أثر أدبي له قيمة باقية»(٢٧). وبدلا من البحث الفكري عن الطوباوية بدأ «كونوللي» البحث عن مبدأ اللذة المستنير وكان يعبر عن ذلك في أعمدته التي يكتبها في «هورايزون»، وفي كتاب مهم آخر بعنوان «المقبرة القلقة» ـ ١٩٤٤ ـ.

في شبابه كان «كونوللي» قد وصف أيديولوجيته بأنها «البحث عن الكمال في السعادة»، وفي الثلاثينيات البروليتارية كان يطلق عليها : «المادية الجمالية» والآن أصبحت «الدفاع عن المعايير المتحضرة» وبانتهاء الحرب في ١٩٤٦ بدأ «كونوللي» بالفعل في تحديد برنامجه بالتفصيل في مقال افتتاحي في عدد من «هورايزون»(٢٨). والحقيقة أن عين «ايفيلين وو» الحادة هي التي لفتت الانتباه إلى ذلك البيان،

كان «وو» يتابع أعمال «كونوللي» باهتمام شديد رغم كل مشاغل الحرب، وبعد ذلك نجده في ثلاثيته «سيف الشرف» يهجو «كونوللي» وسلوكه في زمن الحرب ـ «كونوللي» هو «إيفيرارد سبروس» في الكتاب ـ ومجلته «سيرفيفال»، ومساعدته الفتاة الجميلة «ليز لوبوك» التي كانت تشارك «كونوللي» السرير، و«سونيا براونيل» الزوجة الثانية لـ «أورويل» وقد أعطاهما في كتابه إسمي : «فرانكي» و«كوني». كما لفت «وو» انتباه القراء الكاثوليك في جريدة «تابليت» إلى فداحة برنامج «كونوللي»(٢٩). أما القائمة المكونة من عشرة أهداف والتي وصفها «كونوللي» بأنها المعايير الأساسية للمجتمع المتحضر فكانت كما يلي :

١ ـ إلغاء عقوبة الإعدام.

٢ ـ إصلاح قانون العقوبات وإنشاء سجون نموذجية وتأهيل السجناء.

٣ ـ إزالة الأحياء العشوائية وإقامة «مدن جديدة».

٤ ـ إضاءة وتدفئة مدعومة «تقدم مجانا مثل الهواء».

٥ ـ الدواء مجانا، والغذاء والملابس مدعومة.

٦ ـ إلغاء الرقابة حتي يستطيع الجميع أن يكتبوا وأن يعبروا عما يريدون. إلغاء القيود على السفر، واستبدال النقد والرقابة على التليفونات، والاحتفاظ بسجلات لأفراد معروفين بآرائهم الهرطقية.

٧ ـ إصلاح القوانين الموضوعة ضد الشواذ جنسيا وقوانين الإجهاض والطلاق.

٨ ـ وضع ضوابط للملكية وحقوق الطفل.

٩ ـ الحفاظ على الجمال المعماري والطبيعي ودعم الفنون.

١٠ ـ وضع قوانين ضد التمييز الجنسي والديني.

وكان هذا البرنامج في حقيقته هو الصيغة المعبرة عن المجتمع المتسامح، وبصرف النظر عن بعض الأفكار الإقتصادية غير العملية في برنامج «كونوللي» فسوف نجد أن كل شيء مما نادى به تقريبا قد تم تقنينه في الستينيات، وليس في بريطانيا فقط وإنما في الولايات المتحدة ومعظم الديمقراطيات الغربية كذلك.

هذه المتغيرات التي أثرت تقريبا على كل نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية والجنسية جعلت من الستينيات أهم العقود في التاريخ الحديث كما كان الأمر بالنسبة لتسعينيات القرن الثامن عشر.

كان «وو» منزعجا ومتوجسا، لأن عمل ما يقترحه «كونوللي» كان يتضمن الإزالة الفعلية للأساس المسيحي للمجتمع وإحلال مبدأ اللذة الدنيوية والبحث عنها. كان «كونوللي» يرى أن ذلك هو التحقق النهائي للحضارة، بينما هو الجحيم في نظر آخرين. وما أظهره ذلك دون شك هو الكيفية التي يصبح عليها كثير من المثقفين الموثرين عندما يتحولون من اليوتوپيات السياسية إلى مهمة تحطيم النظم والقواعد الاجتماعية. وقد ظهر ذلك على يد «روسو» في القرن الثامن عشر ثم على يد «ابسن» في القرن التاسع عشر، والآن يثبت أن : بينما كانت الثلاثينيات السياسية فاشلة كما أوضح «كونوللي» كانت الستينيات المتسامحة انتصارا كبيرا من وجهة نظر المثقفين، ورغم أن «كونوللي» هو الذي وضع الأجندة لذلك ورغم أنه عاش حتى سنة ١٩٧٤، إلا أن الدور الذي لعبه للاستمرار بالثورة كان صغيرا. لم يكن رجل الحملات الطويلة أو المحاورات البطولية، وعلى أية حال فأحيانا ما تكون الرغبة قوية والمقدرة ضعيفة، وهو الذي صاغ العبارة التي تنطبق عليه والتي تقول : «بداخل كل شخص سمين شخص نحيل سجين يحاول جاهدا أن

يخرج منه»(٣٠). ولكن «سيريل» النحيل لم يخرج أبدا. كان هو البطل النقيض قبل اختراع هذا الاصطلاح بزمن طويل. كانت خطواته يصبغها الجشع والأنانية والنهب التافه، فاتورة غسيل ملابس لم يدفعها في سنة ١٩٢٨ جعلت «ديزموند مكارثي» يعتبره انتهازيا وعالة على غيره، والحقيقة أن كل من كان كريما مع «كونوللي» كان لديه من الأسباب ما يجعله يندم على ذلك.

«لورد بيرنز» اكتشف وعاء به حساء جمبري عفن بين أثاثه الإنجليزي. «سومرست موم» ضبطه وهو يسرق ثمرتي أفوكادو» من أحد المحلات وأجبره على إخراجهما من حقيبته. كانوا يجدون بقايا الطعام في أدراج غرفة نومه، ثم كان هناك رماد السيجار الذي كان يسقطه بتعمد خبيث أثناء حفل الغذاء الذي أقامته زوجة مثقف أمريكي مشهور»(٣١)، أو ذلك السلوك الشائن خلال غارة جوية على لندن سنة ١٩٤٤ عندما كان في السرير ـ مثل «رسل» قبل ثلاثين سنة ـ مع سيدة أرستقراطية، ومن المحتمل أن تكون«ليدي بيرديتا» (مسز آني فلمنج فيما بعد) والتي يقول «ايفيلين وو» أنها كانت محط اهتمامه في ذلك الوقت. ولكن بينما قفز «رسل» من سرير «ليدي كونستانس ماليسون» كتعبير عن الضيق بسبب لا إنسانية الإنسان، فإن القفز في حالة «كونوللي» كان «لأن الخوف الشديد يؤذي الحب».

واضح إذن أن إنسانا على هذه الصورة لا يمكن أن يقود حملة من أجل الحضارة حتى وإن كانت هناك الطاقة على ذلك ... وبالطبع لم تكن هناك !

الكسل والضجر والقرف الشخصي جعلوا «كونوللي» يقتل «هورايزون» في سنة ١٩٤٩، وفي النهاية طلق «جين» المسكينة وتزوج «باربرا سكيلتون» الجميلة والتي كانت عشيقة أحد المثقفين، ولكن الزواج (١٩٥٠ ـ ١٩٥٤) لم ينجح. كان كلاهما يرقب الآخر بحذر وريبة، وكلاهما أيضا مثل «سونيا» و«تولستوي» وكثيرين من أهل «بلومسبري» كان يحتفظ بيوميات لكي ينشرها في المستقبل، وبعد انهيار العلاقة كان «كونوللي» يشكو مر الشكوى إلى «ادموند ولسون» من يوميات «سكيلتون» التي وصفت فيها العلاقة بينهما وكان يمكن أن تظهر على هيئة رواية في أي وقت. كما يسجل «ويلسون» أن «كونوللي»قال له أن «سكيلتون» سرقت يوميات كان قد سجلها عن علاقته بها وأخفتها وأنه كان يعرف أين خبأتها وسوف يحضرها عندما لا تكون موجودة»(٣٢). وواضح أن لا شيء من ذلك قد حدث، فلم تظهر أي يوميات أو مفكرات من هذا القبيل.

ولكن يوميات «سكيلتون» نشرت أخيرا في سنة ١٩٨٧، وكان «كونوللي» محقا في قلقه، حيث تقدم فيها صورة لا تنسى للمثقف المنبطح فاقد الوعي، هكذا سجلت في ٨ اكتوبر ١٩٥٠ :

««سيريل» راقد في السرير ضعيفا مثل أوزة ميتة، مازال في الروب دي شامبر، يتهاوى على الوسادة مغمضا عينيه مع تعبير عن معاناة شديدة .. بعد ساعة أعود إلى غرفة النوم ... راقد مغمض العينين».

١٠ اكتوبر : «غاب طويلا في الحمّام وأنا أغسل الملابس، دخلت غرفة النوم بعد ذلك فوجدته يقف

عاريا يحدق يائسا في الفراغ، أعود إلى الغرفة فأجده كما هو ... يحدق في الفراغ ... أكتب رسالة وأعود ... كما هو ... متكيء على حافة النافذة وظهره للغرفة».

في ١٧ نوفمبر ١٩٥١ (أي بعد سنة) : «سيريل لا يستطيع أن ينزل ليتناول الفطور، يرقد في السرير يلعق الملاءة .. يمضي الساعات أحيانا راقدا وطيات الملاءة تظهر من فمه مثل الجبلة الخارجية»(٣٣).

إلا أن ذلك الداعم للقيم الحضارية كان قد وضع بيضة التسامح (أو الإباحية) وبنفس الطريقة التي وضع بها «إراسموس» بيضة الإصلاح .. بيد أن التفقيس كان من عمل الآخرين، وفي أثناء ذلك أضيف عامل جديد مزعج، لم يكن «كونوللي» يتصوره وكان لابد أن يندم عليه لو أنه توقعه .. وهو عبادة العنف. ومن الحقائق الغريبة أن العنف كان يمثل دائما رغبة قوية بالنسبة لبعض المثقفين، إذ يسير ملازما للرغبة في الحلول الراديكالية والاستبدادية.

وإلا فكيف نفسر الميل إلى العنف في «تولستوي» و«رسل» وكثيرين غيرهما من المعروفين بالمسالمة وعدم الميل إلى العنف ؟

«سارتر» أيضا كان مفتونا بالعنف، يلعب فيه بقدميه خلف سحابة مربكة من البلاغة اللغوية. كان يقول مثلا : «عندما يواجه الشباب الشرطة فواجبنا ليس فقط أن نظهر أن الشرطة هي العنيفة، بل علينا أن ننضم إلى الشباب في عنفهم المضاد»، وأيضا : «إذا لم يشارك المثقف في «العمل المباشر» (العنف) نيابة عن السود فإنه يعتبر مسئولا عن قتلهم، تماما كما لو كان يضغط على زناد الشرطة الذي يقتلهم»(٣٤). إن الارتباط بين المثقفين والعنف متواتر، بحيث لا يمكن أن نعتبره استثناء أو شذوذا عن القاعدة العامة، وغالبا ما يأخذ شكل الإعجاب بـ : «رجال العنف» الذين يمارسونه.

كان لدى «موسوليني» عدد كبير من المثقفين التابعين معظمهم من الإيطاليين، وفي صعوده للسلطة كان «هتلر» ناجحا جدا في الأوساط الجامعية، وكان يتمتع بشعبية بين الطلبة أكثر من تلك التي كانت له بوجه عام بين الجماهير. كان أداؤه ناجحا دائما بين الأساتذة والمعلمين، وقد جذب الحزب النازي عددا كبيرا من المثقفين إلى صفوفه العليا، وعلى نحو خاص في الممارسات المتطرفة لقوات الـ «S.S»(٣٥). وهكذا فإن كتائب الإعدام الأربعة المتحركة التي كانت رأس الحربة في الحل الأخير الذي وضعه «هتلر» لأوروبا الشرقية كانت تضم في صفوفها نسبة كبيرة من الضباط الذين تخرجوا في الجامعة، «أوتو أوهلندورف» قائد الكتيبة الرابعة مثلا كان يحمل درجات علمية من ثلاث جامعات ودكتوراه في القانون. «ستالين» أيضا كان لديه حشود من المثقفين المعجبين به، كما كان لغيره من قادة العنف بعد الحرب : كاسترو، عبد الناصر، ماوتسي تونج.

إن تشجيع العنف أو السماح به من قبل المثقفين كان أيضا نتيجة للتفكير المتطرف أو المنفلت، قصيدة «أودن» : «إسبانيا»، المنشورة في ١٩٣٧ والتي تتناول الحرب الأهلية الإسبانية كان بها سطر غريب يقول :

«القبول الواعي لذنب القتل الضروري»، وقد انتقد «أورويل» ذلك ولكنه كان معجبا بالقصيدة بصفة عامة على أساس أنها ربما تكون قد كتبت بواسطة شخص «القتل بالنسبة له ليس أكثر من مجرد كلمة»، ولكن «أودن» كان يدافع عن السطر بقوله : إذا كان هناك ما يمكن أن يسمى بالحرب العادلة فإن القتل يمكن أن يكون ضروريا من أجل العدالة»، إلا أنه حذف كلمة «الضروري»(٣٦). «كنجسلي مارتن» الذي كان يخدم في وحدة إسعاف «الكويكر» أثناء الحرب العالمية الأولي كان يبتعد عن العنف في أي صورة من صوره، إلا أنه أحيانا ما كان يشوش ذهنه بالدفاع عنه نظريا. وفي سنة ١٩٥٢ وهو يهلل للنصر النهائي لـ «ماوتسي تونج» في الصين، ورغم قلقه بسبب أخبار التخلص من مليون ونصف المليون شخص من «أعداء الشعب»، نجده يتساءل بغباء في نهاية عموده في «نيو ستيتسمان» : هل كانت تلك الإعدامات «ضرورية» فعلا ؟ وفي الأسبوع التالي أجبره «ليونارد وولف» مدير الجريدة على نشر خطاب يوجه فيه هذا السؤال المدبب : هل يمكن أن يقدم لنا «مارتن» بعض التفسير ويقول تحت أي ظرف كان أعدام مليون ونصف المليون شخص بواسطة إحدى الحكومات أمرا «ضروريا» بالفعل» ؟

وبالطبع لم يستطع «مارتن» أن يقدم أية إجابة وكانت محاولاته الملتوية للتخلص من الشرك الذي وضع فيه نفسه بائسة(٣٧).من ناحية أخرى فإن بعض المثقفين لا يجدون العنف في حقيقته شيئا بغيضا. الكاتب «نورمان مايلر» (١٩٢٣ ـ .....) حالة دالة على ذلك، وهو نموذج لنمط المثقف الذي نتناوله في كثير من الجوانب(٣٨).

كان الابن الأول والوحيد لأسرة فيها السيطرة للأم، ولذلك كان منذ البداية مركز اهتمام وإعجاب دائرة أنثوية مكونة من أمه «فاني» وأخواتها، وكانت أمه من عائلة «شنايدر» الغنية وكانت تدير أعمالها الخاصة، بعد ذلك انضمت شقيقة «مايلر» إلى الدائرة. وكان هو نموذجا لكل أطفال «بروكلين» : طفل هادىء، حسن الطباع، الأول في المدرسة دائما، دخل «هارڤارد» وهو في السادسة عشرة وكان نجاحه وتفوقه دائما محل تشجيع الإناث «كانت جميع نساء الأسرة تعتقدن أن «مايلر» كان مواء القطة»، وهو تعليق زوجته الأولي «بيارتريس سيلڤرمان» التي كانت تقول أيضا : «لم تكن «فاني» تريد أبدا لعبقريتها أن تتزوج»، وكانت كلمة «العبقرية» دائما على لسان أمه عندما تتحدث عنه أو تشير إليه . «ابني عبقري» وعاجلا أو آجلا أصبحت زوجات «مايلر» على وعي بـ «عامل فاني»، كانت زوجته الثالثة «چين كامبل» تقول :«كل ما كنا نفعله هو أن نذهب للعشاء مع أمه»، الزوجة الرابعة ـ ممثلة شقراء اتخذت لنفسها اسم «بيفرلي بنتلي»، كانت تتعرض للومه وتأنيبه ـ والضرب أحيانا ـ لأنها كانت تبدي بعض الملاحظات عن أمه لم تكن تعجبه.

إلا أن الزوجات أنفسهن أصبحن بديلا ناجحا لدائرة الطفولة الأنثوية حيث استمر في علاقته بهن جميعا بعد الطلاق باستثناء واحدة، وكان يقول : «يمكن أن تبدأ الصداقة مع امرأة بعد أن تطلقها، لأنها حينذاك تكون قد جردت من غرورها الجنسي». كان في حياته ست زوجات، أنجب منهن ثمانية أطفال

وكانت الزوجة السادسة «نوريس تشيرش» في عمر كبرى بناته. وبالطبع كانت هناك نساء أخريات غير الزوجات، كما كانت زوجته الرابعة تشكو : «وأنا حامل، كان على علاقة بمضيفة جوية وبعد ثلاثة أيام من إحضار المولود إلى البيت بدأ علاقة جديدة». هذا الانتقال من امرأة إلى أخرى يذكرنا بـ «رسل»، بينما يذكرنا جو الحريم بـ «سارتر»، ولكن رغم الخلفية الأموية لـ «مايلر» فإن مفاهيمه الأبوية كانت قوية. زواجه الأول فشل لأن زوجته كانت تريد أن تعمل، وتخلي عنها لأنها كانت في نظره «داعية غير ناضجة لتحرر المرأة»، وكان يشكو من الثالثة : «ليدي چين» ضحت بـ «١٥» مليون دولار ولكنها لا تقوم بإعداد الفطور لي»، كما ترك الرابعة لأنها ـ بدورها ـ كانت على علاقة برجل آخر.

إحدى نسائه كانت تشكو : «نورمان» لا يريد أن يكون على صلة بأي امرأة لديها عمل»، عندما كتب الناقد «ف.س.بريتشت» مراجعة نقدية لأحد كتبه في سنة ـ ١٩٧١ ـ كتب عن تعدد زيجاته (كان قد تزوج أربع مرات حتى ذلك الحين)، يقول أن ذلك يعني أنه لم يكن يهتم بالنساء، وإنما بشيءما لديهن»(٣٩). أما السمة الثانية التي يشترك فيها «مايلر» مع كثير من المثقفين فهي عبقريته في الدعاية لنفسه، الترويج الجبار لروايته الشهيرة عن الحرب «العاري والميت» ـ ١٩٤٨ ـ كان عملا احترافيا من ناشريه ـ رينهارت ـ وربما من أشهر حملات الدعاية التي شهدتها سنوات ما بعد الحرب، بعد ذلك تولي هو مسئولية علاقاته العامة وكانت عملية مدهشة على مدى الثلاثين سنة التالية وتهديدا لكل شيء : العمل، الزوجات، الطلاقات، الآراء، الصراعات ... كل ذلك استطاع أن ينسجه في ثوب واحد من الدعاية لنفسه.

كان أول مثقف يفيد إفادة فعاله من التليفزيون في ذلك، أدرك هذا باكرا، فسار على طريق سبقه إليه «هيمنجواي» ليكون أنشط المثقفين في هذا المجال. ولكن ما الذي كانت تهدف إليه كل هذه الدعاية ؟ ولخدمة ماذا ؟ الغرور وحب الذات بالطبع : إننا لا يمكن أن نؤكد بشدة أن نشاط رجال مثل «تولستوي» و«رسل» و«سارتر» يمكن أن يفسر بالرغبة في لفت الانتباه إليهم، رغم إمكانية تبرير ذلك منطقيا من الناحية الظاهرية.

كما كان هناك أيضا ذلك الهدف «الدنيوي» وهو جمع المال، كانت ميول «مايلر» الأبوية مكلفة. عندما جرجرته زوجته الرابعة إلى المحكمة في سنة ١٩٧٩ قال أنه لا يستطيع أن يعطيها ألف دولار في الأسبوع، إذ كان يدفع ـ كما قال ـ ربعمائة دولار في الأسبوع للزوجة الثانية، وربعمائة أخرى للثالثة، وستمائة للسادسة، وكان مدينا بمبلغ ستمائة ألف، ووكيل أعماله يطالبه بـ ١٨٥,٠٠٠ أخرى والضرائب بـ ٨٠ر٥٠٠، الأمر الذي جعل إدارة الضرائب تحجز على منزله استيفاء لمبلغ مائة ألف دولار. كانت دعايته الجبارة لنفسه تستهدف جذب القراء وقد نجحت في ذلك جدا، ومثال على ذلك مقاله الطويل بعنوان« سجين الجنس» الذي نشره في «هاربر» في مارس ١٩٧١، اعتمد فيه على تجارب زواجه الطائشة وهاجم الحركة النسوية وكانت نسبة توزيع العدد أعلى نسبة في تاريخ المجلة على مدى ١٢٠ عاما.

إلا أن دعاية «مايلر» لنفسه أيضا كان لها هدف جاد، وهو الترويج للمفهوم الذي أصبح موضوع عمله وحياته، وهو حاجة الإنسان للتخلص من بعض القيود التي تكبح استخدام القوة الشخصية، ومن هنا فإن معظم المثقفين كان يقرن بين تلك القيود والحضارة، الشاعر «ييتس» مثلا عرّف الحضارة تحديدا بأنها : «ممارسة ضبط النفس»، ولكن «مايلر» أخضع هذا الافتراض للتساؤل : ألا يمكن أن يكون العنف الشخصي أحيانا ضروريا وربما أخلاقيا بالنسبة للبعض ؟ وقد وصل إلى هذه النتيجة عن طريق الخداع. في شبابه كان كثير الأسفار والتنقل. في سنة ١٩٤٨ ألقي ١٨ حديثا نيابة عن «والاس» في حملته الانتخابية للرئاسة(٤٠)، ولكنه انشق على الحزب الشيوعي في مؤتمر «والدورف» الشهير في ١٩٤٩، وهكذا فإن آراءه السياسية أصبحت أكثر خصوصية وأصالة رغم تعبريها أحيانا عن الإجماع اليساري والليبرالي.

وعلى نحو خاص فإن كتاباته الروائية والصحفية قادته إلى استكشاف أوضاع السود ومعطيات الثقافة السوداء في حياة الغرب.

وفي عدد صيف ١٩٥٧ من مجلة «ديسنت» التي كان يحررها «إيرفنج هاو» نشر «مايلر» دراسته : «النجرو الأبيض»، والتي تعتبر أكثر ما كتب تأثيرا وأهمية وهي ـ بحق ـ وثيقة أساسية لمرحلة ما بعد الحرب. قام فيها بتحليل سلوك الشباب السود كشكل من أشكال الثقافة المضادة، وحث على تبنيها من قبل البيض الراديكاليين، وقال أن هناك جوانب كثيرة من الثقافة السوداء يجب أن يكون المثقفون التقدميون على استعداد لفهمها بعناية : العقلانية المضادة، التأمل، الإحساس بقوة الحياة، ثم أخيرا وليس آخرا دور العنف ... والثورة كذلك..

كتب «مايلر» : فكر مثلا في حالة شابين يقومان بضرب صاحب محل حلوى حتى الموت. أليس لذلك جانب مفيد ؟»، «فالمرء لا يقتل فقط عجوزا في الخمسين وإنما يقتل مؤسسة كذلك، ينتهك الملكية الخاصة، يدخل في علاقة جديدة مع الشرطة، ويدخل عاملا جديدا إلى حياته». وحيث إن الغضب يصبح خطرا على الإبداع عندما يتجه نحو الداخل، أفلا يعتبر خلاقا ومبدعا عندما يستخدم ؟ كانت تلك أول محاولة مكتوبة لتبرير شرعية العنف الشخصي في مواجهة «العنف المؤسسي»، عنف المجتمع، وقد أثارت غضبا مفهوما فى بعض الأوساط ، وبعد ذلك اعترف «هاو» شخصيا بأنه كان يجب عليه أن يحذف الجزء الخاص بقتل صاحب محل الحلوى. كما هاجمها أيضا «نورمان پود هوريتز» «كواحدة من أبرز الأفكار الشنيعة التي قابلتها في حياتي» والتي تظهر «إلى أين كان يمكن أن تؤدي بنا تلك الأيديولوجية»(٤١) . أيديولوجية الهيبيز.

ولكن أعدادا كبيرة من الشباب (البيض والسود) كانت تنتظر خطوة كتلك وتبريرا كذلك. وكانت «النجرو الأبيض» هي الوثيقة المؤكدة لكثير مما حدث في الستينيات والسبعينيات مما أعطى احتراما فكريا لكثير من الأفعال والتوجهات التي كانت تعتبر خارج السلوك المتحضر، كما أضافت (الوثيقة) بعض المواد المؤدية إلى أجندة الإباحية التي كان «كونوللي» قد اقترحها قبل عقد من الزمان وكان لتلك الرسالة تأثيرها

حيث دعمها «مايلر» وقام بتعميمها عن طريق سلوكه الخاص والعام.

في ٢٣ يوليو ١٩٦٠ قدم للمحاكمة بسبب شجار في أحد أقسام الشرطة في «پروڤنس تاون» عندما وُجدَ في حالة سكر رغم أنه لم يفعل شيئا يدل على سوء السلوك، وفي ١٤ نوفمبر اتهم بسوء السلوك ثانية في إحدي حانات «برودواي». كان يتشاجر في منتصف الليل في الشارع وهو سكران ويتلاكم مع مثقفين آخرين مثل «چاسون ايبستاين» و«چورج پلمپتون» عندما تركا حفلا كان قد أقامه وعاد إلى المنزل في الرابعة والنصف صباحا، عينه سوداء وشفته متورمة وقميصه مبقع بالدم. اختلفت معه ذات مرة زوجته الثانية (رسامة إسپانية من «پيرو» اسمها «اديلي مورالز»، فما كان منه إلا أن طعنها بمدية في بطنها فأحدث به جرحا بعمق ثلاث بوصات ، ولكنها لحسن الحظ لم تمت. تلي ذلك اجراءات قضائية معقدة وانتهي الأمر بعد عام بصدور حكم ضده مع إيقاف التنفيذ ووضعه تحت المراقبة، ولم يكن في تعليقه بعد ذلك أي درجة من الشعور بالندم. في مقابلة مع «مايك والاس» كان يقول : «السكين لها دلالة بالنسبة للجانح، إنها سيفه ... رجولته».

كما أضاف ... «ولابد أن تجري مبارزة سنوية بين العصابات في سنترال پارك».

في ٦ فبراير ١٩٦١ وقف ليقرأ شعره في مركز الجمعية اليهودية للشعر بما في ذلك عبارة تقول : «طالما أنك تستخدم سكينا، يظل هناك قدر من الحب»، فما كان من المدير إلا أن أسدل الستار بسبب تلك البذاءة، وبعد أن انتهي الموقف كان يقول : إن غضب عقد من الزمن هو الذي جعلني أفعل ذلك، بعدها شعرت بالتحسن»(٤٢).

كانت هناك أيضا جهوده العامة المحسوبة من أجل دفع الثقافة المضادة. كان الهيبي «چيري روبين» أحد الذين تأثروا بـ «النجرو الأبيض» وفي الاجتماع الحاشد الذي نظمه «روبين» في «بيركلي» في ٢ مايو ١٩٦٥ لمعارضة «حرب ڤيتنام» كان «مايلر» هو المتحدث الرئيسي. قال أن «المجتمع العظيم الذي ينادي به الرئيس «ليندون چونسون» كان يتحرك من «المعسكر إلى الحضيض» وحرض عشرين ألفا من الطلاب على توجيه النقد له .. بل ولصق صورته مقلوبة على الحائط. أحد الذين كانوا يستمعون إليه هو «آبي هوفمان» الذي سرعان ما أصبح كبير كهنة الثقافة المضادة.

وكان يقول أن «مايلر» أوضح لنا كيف نستطيع تركيز عاطفة الاحتجاج بفعالية، ليس بالتصويب على القرارات وإنما على أحشاء صانعيها»(٤٣). بعد عامين شارك «مايلر» ـ بحماس ـ في المسيرة الكبرى إلى «البنتاجون» في ٢١ اكتوبر ١٩٦٧ مثيرا الجماهير الغفيرة بعبارات بذيئة وهو يقول : «سنحاول أن نلصقها على مؤخرة الحكومة، ومباشرة على العضلة العاصرة للبنتاجون» وألقي القبض عليه وحكم عليه بالسجن ثلاثين يوما (منها ٢٥ يوما مع إيقاف التنفيذ)، وبعد الإفراج عنه كان يقول للصحفيين : «لاحظوا أيها الإخوة الأمريكيين أن اليوم الأحد، ونحن نقوم بحرق جسد ودم المسيح في ڤيتنام»، ويدافع عن هذا التلميح بقوله بالرغم من أنه لم يكن مسيحيا إلا أنه كان متزوجا من مسيحية. كانت تلك هي الزوجة

الرابعة والتي كانت تشكو فيما بعد أنها عندما وجهت النقد لأمه كان يضربها على أجزاء حساسة من جسدها. والحقيقة أن «مايلر» أدخل إلى السياسة لغة «الهيبيز» وصوت الشارع.

لقد أحدث تآكلا في كهنوت رجل الدولة وفي كثير من الافتراضات التي كانت معه. في مايو ١٩٦٨ وفي قمة الفوران الطلابي كتب كاتب في مجلة «ڤيليدج ڤويس» يحلل دعوة «مايلر» ويقول : «كيف لم يفهموا «مايلر» ؟ «مايلر» الذي بشر بالثورة قبل أن يكون هناك أي تحرك ؟ «مايلر» الذي كان يدعو «چونسون» بالوغد بينما كان الليبراليون يكتبون له الأحاديث، «مايلر» الذي كان مع الزنوج و«كوبا» والعنف والوجودية، بينما كان اليسار الجديد مجرد زغللة في عين «س.رايت ميللز»(٤٤). ومع انخفاض نغمة الخطاب السياسي لم يكن من الواضح أن «مايلر» قد عمق المضمون، وبالنسبة للحياة الأدبية كان تأثيره مماثلا، خلافات وصراعاته مع المؤلفين الآخرين فاقت خلافات وصراعات «ابسن» و«تولستوي» و«سارتر» و«هيمنجواي».

كان يتشاجر سرا وعلانية مع «وليم ستايرون» و«چيمس چونز» و«كالدر ويلنجهام» و«چيمس بالدوين» و«جور ڤيدال» وغيرهم. وكانت خلافاته مه «هيمنجواي» تأخذ شكلا عنيفا. في سنة ١٩٥٦ انتشرت أخبار معركته في حديقة منزل «ستايرون». كان خصمه فيها «بينيت كيرف» الذي قال له : «أنت لست ناشر كتب وإنما طبيب أسنان». في سنة ١٩٧١ دار بينه وبين «جور ڤيدال» اشتباك تبادلا فيه الصفعات على الوجه والنطح بالرأس وذلك قبل عرض لقاء تلفزيوني مع «ديك كاڤيت». في سنة ١٩٧٧ وفي حفل عام قال لـ : «جور ڤيدال» : «أنت تشبه يهودي عجوز قذر»، ورد عليه «ڤيدال» : «بل أنت» فما كان منه إلا أن قذفه بالمشروب في وجهه فعض «ڤيدال» إصبعه(٤٥).

المناظرة التليفزيونية التي تلت معركة الصفع على الوجه والتي شاركت فيها مراسلة «النيو يوركر» في «باريس» : «چانيت فلانر» تحولت إلى مناقشة بين «ڤيدال» و«مايلر» عن اللواط..

فلانر : أرجوك (ضحك).

مايلر : أعرف أنك عشت في فرنسا عدة سنوات ولكن صدقيني يا «چانيت» أنه يمكن أن توطأ المرأة بطريقة مختلفة..

فلانر : لقد سمعت عن ذلك .. (ضحك كثرا).

كاڤيت : بهذه الملاحظة «الراقية» ننهي اللقاء!

كان «مايلر» نموذجا مصغرا للإباحية المصحوبة بالعنف والتي كانت تميز الستينيات والسبعينيات. وقد نجا من سلوكه الغريب بمعجزة، ولكن الآخرين لم يكونوا محظوظين مثله أو بنفس المرونة.

والحقيقة أنه في تحول المد الثقافي من الطوباوية القديمة إلى مذهب اللذة المتنامي حدثت بعض

الخسائر.

عندما نشر «سيريل كونوللي» بيانه في يونيو ١٩٤٦، كان «كينيث پيكوك تينان» قد أكمل عامه الأول في «ماجدالين كوليدج ـ أكسفورد» وكان قد رسخ نفسه زعيما لمجتمع ثقافي هناك. وعندما بدأ الفصل الدراسي الجديد بعد أربعة شهور كنت ـ كطالب مستجد ـ شاهدا على وصوله إلى نزل «ماجدالين». حملقت مدهوشا في ذلك الشاب الوسيم، طويل القامة، المخنث، وفي خصلات شعره الذهبي وفي الثياب التي يلبسها. كنت أدحرج حقيبتي المدرسية أمامي، أما هو فكان يملأ السكن بأشيائه وخدمه الذين كان يصدر أوامره إليهم بسلطة واضحة، صدمتني جملة واحدة منه : «انتبه لهذا الصندوق، إن به قمصانا ذهبية»!

لم أكن الوحيد الذي أذهلته تلك العبارة أو ذلك الظهور في سنة ١٩٤٦، كنت أنا و«تينان» من بين الطلاب الذين جاؤوا مباشرة من المدرسة إلى الجامعة. كانت الغالبية العظمى في الحرب وبعضهم كان قد وصل إلى مناصب عليا وشاهد المذابح وربما شارك فيها، ولكنهم لم يكونوا قد شاهدوا شيئا كهذا .. ثم انصرف «تينان» يتبعه من يحملون أشياءه.

كان وراء هذا الرجل الغريب حكاية أكثر غرابة (رغم أنه لم يكن يعرف ذلك آنذاك)، ربما تكون قد جاءت من بين صفحات «آرنولد بينيت» لا من بين صفحات طلاب وأبطال «ماجدالين» مثل «أوسكار وايلد» أو «كامپتون ماكينزي».

تفاصيل حياة «تينان» جمعتها زوجته الثانية «كاثلين» ونشرتها في سيرة مؤسفة .. هي نسيج وحده(٤٦).

«تينان» من مواليد ١٩٢٧، نشأ في «برمنجهام» ودرس في مدرستها الثانوية ونبغ هناك ولعب دور البطولة في «هملت» وحصل على منحة في كلية «ماجدالين ـ أكسفورد». كان يعتقد أنه الابن الوحيد والأكثر تدليلا لوالديه «روز» و«بيتر تينان» تاجر المنسوجات. كان والده يعطيه عشرين جنيها كمصروف شخصي كل أسبوعين وهو مبلغ كبير في تلك الأيام، والحقيقة أن «تينان» كان ابنا غير شرعي، وكان أبوه الذي يطلق عليه «بينيت» : «الشخص المسلي»، يعيش حياة مزدوجة. لمدة نصف أسبوع هو «بيتر تينان» في «برمنجهام». ونصف الأسبوع الآخر يرتدي «الفراك» ـ البذلة الرسمية ـ والقبعة العالية والحذاء الفاخر وقمصان الحرير اليدوي .. وهو «سير پيتر پيكويك» قاضي الصلح، المقاول الناجح، عمدة «وارنجتون» لست مرات ومعه «ليدي پيكويك» وعدد كبير من أبنائهما الصغار. لم ينكشف أمر هذه الخدعة إلا في سنة ١٩٤٨ في نهاية وجود «تينان» في «أكسفورد» عندما مات «سير پيكويك»! هرعت الأسرة الشرعية من «وارنجتون» لتطلب الجثة ومنعت أمه الباكية من الجنازة. كانت مسألة معروفة أن يكتشف بعض طلاب «أكسفورد» أنهم أبناء غير شرعيين، فقد حدث الشيء نفسه لشخص آخر في «ماجدالين» : «البارونيت» المزعوم «ادوارد هالتون» الذي أجبر على حذف لقب «سير» من على بطاقته. وكانت استجابة

«تينان» سريعة حيث اخترع حكاية تقول أن والده كان مستشارا ماليا لـ «لويد چورچ»، ولكن الفضيحة كانت موجعة وأسقط لقب «پيكويك» من اسمه، علاوة على ذلك فإن شعور أمه بالذنب تجاه ما فعلته بابنها يساعدنا على معرفة أسباب حمايتها وتدليلها الزائدين له من البداية. الواقع أنه كان يعاملها كما لو كانت خادمة ولكن من الفئة الممتازة.

كانت من عادته أن يصدر الأوامر لمن حوله مع شعور بالسيادة والتفوق. في «أكسفورد» كان يرتدي الملابس الفاخرة مثل الأمراء في الوقت الذي كانت فيه حصة الكساء محدودة ومقيدة .. وهكذا أعاد إلى «أكسفورد» شهرتها بالبذخ، أثناء الدراسة هناك كان حديث المدينة، يمثل ويخرج ويتحدث في النقابة بلباقة ويكتب المقالات ويحرر الصحف ، كان يقيم الحفلات التي يحضرها نجوم «لندن»، وعلى خلاف كل من يثيرون الضجة في «أكسفورد»، كان يقوم بأشياء كثيرة جيدة.

أكد ذاته كأشهر صحفي أدبي جريء أو متهور في «لندن» كلها. كان شعاره «أكتب البدعة .... البدعة الخالصة»، وكان يعلق في مكتبه شعارا منعشا آخر : «استثر الأمزجة، انخس بالمهماز . مزق، اصنع الدوامات والعواصف»، وكان يتبع تلك النصائح طوال الوقت. كل ذلك جعله يشق طريقه لكي يصبح الناقد المسرحي للـ «إيڤننج ستاندارد» ثم «الأوبزيرڤر» التي كانت أفضل صحف بريطانيا آنذاك، فما كان من القراء إلا أن تجحظ عيونهم دهشة كما كان يفعل الطلاب في «ماجدالين» لتلك الظاهرة المثيرة التي بدت وكأنها تعرف كل آداب العالم، وتستخدم تعبيرات ومصطلحات جديدة غير مألوفة(٤٨).

أصبح مركز قوة في مسرح «لندن» الذي كان ينظر إليه بحذر وكراهية. حول مسرحية «أوزبورن» : «انظر خلفك في غضب» إلى نجاح ساحق وجعل منها أسطورة للشباب الغاضب، عرَّف بريطانيا على «بريخت» وانحاز تماما إلى الدعوة لدعم المسرح الأمر الذي جعل مسرح «بريخت» مؤثرا. وعندما أنشأت بريطانيا أول مسرح وطني لها كان هو مديره الأدبي (١٩٦٣ ـ ١٩٧٣) وزوده بـ «ريبرتوار» غني وعالمي : وفي عهده قدم المسرح ٧٩ مسرحية كان معظمها من أفكاره نجحت نجاحا كبيرا، وكان ذلك إنجازا مدهشا. أسس لنفسه سمعة كبيرة في المسرح الوطني وكان معروفا في الولايات المتحدة بفضل المراجعات التي كان ينشرها في الـ «نيويوركر» (١٩٥٨ ـ ١٩٦٠)، وفي بعض فترات الستينيات كان تأثيره في عالم المسرح أكبر من تأثير أي شخص آخر، وكما قلنا قبل ذلك فإن المسرح هو الفن الأقوى تأثيرا على السلوك من أي فن آخر.

لم يكن «تينان» بلا هدف مهم، فمثل «كونوللي» وبغموض أيضا، ربط بين مذهب اللذة والإباحية والاشتراكية. وقد عبر عن هدفه في «بيان الغضب» الذي نشره في مجلة «دكلاريشن» سنة ١٩٥٧، حيث أصر على أن الفن «يجب أن يكون ملتزما»، ولكن الاشتراكية ـ بنفس الدرجة

ـ يجب أن تعني «التقدم نحو المتعة»(٤٩). في نفس العام الذي نشر فيه «مايلر» كتاب «النجرو الأبيض» كان «تينان» يكتب بنفس الهدف تقريبا : وهو تحطيم الكوابح اللغوية في المسرح والكتابة. لا

أحد في بريطانيا لعب دورا كدوره أو أكبر منه لهدم نظام الرقابة القديم الرسمي منها وغير الرسمي، وكان في ذلك الجهد تلميحات سياسية رغم وجود جانب إباحي فيها، في سنة ١٩٦٠ وبعد كثير من المناورة استطاع أن ينشر كلمات كانت تعتبر بذيئة، وذلك في جريدة «الأوبزيرفر»، وبعد عام واحد نظم في «الهايدپارك» مظاهرة تأييد لـ «كاسترو» بمساعدة عشرات الفتيات الجميلات. وفي ١٣ نوفمبر ١٩٦٥ حقق أكبر ضجة دعائية لنفسه عندما لفظ كلمة «FUCK» في برنامج كان يقدم في ساعة متأخرة في تلفزيون «بي بي سي» وأصبح لفترة ما صاحب أكبر شهرة سيئة في بريطانيا.

وفي ١٧ يونيو سنة ١٩٦٧ قدم العري على المسرح في «أو كالكوتا» التي عرضت في النهاية في جميع أنحاء العالم محققة أكثر من ٣٦٠ مليون دولارا. إلا أن «تينان» بتحطيمه للرقابة كان يحطم نفسه كذلك. كانت وفاته في سنة ١٩٨٠ بسبب تضخم في الرئة نتيجة التدخين الشره مع ضعف في الصدر ورثه عن أمه، ولكنه قبل ذلك بسنوات كان قد دمر نفسه ككائن أخلاقي حيث يمكن أن نقول إنه قدم نفسه قربانا على مذبح الجنس.

كانت هواجسه الجنسية قد بدأت قبل ذلك بكثير، وكان فيما بعد يقول أنه قد عرف الاستمناء منذ الحادية عشرة وكان يجد متعة في التبجح بذلك.

كان في شبابه يجمع الصور العارية ولم يكن ذلك أمرا سهلا في «برمنجهام» في زمن الحرب. عندما أدى دور «هاملت» وهو في المدرسة أغرى «چيمس آجيت» ـ وكان ناقدا مهما ومعروفا بالشذوذ الجنسي ـ أن يكتب إعلانا عن المعرض وفعل الناقد ذلك، كما دعا الشاب إلى شقته في «لندن» ووضع يده على ركبته : «هل أنت شاذ يابني ؟ أخشى ألا تكون كذلك، على أية حال دعنا من ذلك الآن»(٥٠).

كان «تينان» يقول الحقيقة، وكان يحلو له أحيانا أن يلبس ملابس النساء، ولم يكن يكره أن يلاحظ عنه أنه يبدو شاذا، معتقدا أن ذلك يمكّنه من الاقتراب من النساء، ولكنه لم يكن له أي تجربة شذوذ ... ولم يحاول .. كما قال(٥١). إلا أنه كان مهتما بالسادو مازوكية وعندما اكتشف «آجيت» ذلك فيه مكنه من الوصول إلى مجموعته الكبيرة من الصور العارية .. الأمر الذي أكمل فساد «تينان»، بعد ذلك بدأ يكون مجموعته الخاصة وكان الذهول يصيب النساء ـ وزوجاته ـ عندما يشاهدنها، وهذا أمر غريب لأن «تينان» لم يحاول أبدا أن يخفي اهتماماته الجنسية بل كان يعلنها أحيانا، أقام علاقات مع عدد كبير من النساء والبنات في «أكسفورد» وكان عادة يطلب منهن ملابسهن الداخلية لكي يعلقها على الحائط إلى جوار سوط. كان يحب البنات اليهوديات الشهوانيات، خاصة من لهن آباء متشددون، واللائي عرفن العقاب البدني، أخبر واحدة منهن أن كلمة «يؤدب» لها «دائرة ڤيكتورية طيبة من الثواب»، أما كلمة «يصفع» أو «يوبخ بشدة» فهي كلمات مفيدة وذات صلة ببنات المدارس» .. «الجنس يعني الصفع، و«جميل» تعني النصف الأسفل وسوف تظل هكذا»(٥٢).

لم يتوقع «تينان» أن يخضع أيا من زوجتيه كي تستجيب لتلك الأفعال التي كان يربط بينها وبين

الخطيئة والشر، حتي يتم التمتع بها، ولكن حيث إنه كان قد أصبح ذا نفوذ وسلطة في عالم المسرح، فلم يعدم وسيلة لأن يجد ممثلات تبحثن عن عمل يوافقن على ذلك مقابل مساعدته لهن.

ويبدو أن النساء كن أقل اعتراضا على ساديته التي كانت تأخذ شكلا أكثر من غروره وسلطويته. واحدة منهن تركته عندما لاحظت أنه كان يعوق كل محاولاتها لاستخدام المرآة دائما عندما يدخلان إلى أحد المطاعم، وقالت أخرى : «بمجرد أن تبعدي عنه لا يفكر فيك أبدا». كان يعامل النساء كأنهن مقتنيات أو ممتلكات، وفي معظم الأحيان كان ذا طبيعة طيبة ويمكن أن يكون متفهما ومدركا، ولكنه كات يتوقع من النساء أن يدرن في فلكه مثل كوكب.

كان لزوجته الأولى «ايلين دندي» طموحاتها الخاصة، وكتبت في النهاية رواية جيدة وأدى ذلك إلى شجار بينهما ـ بطريقة مسرحية ـ : صراخ وأدوات مطبخ تتكسر . و«سوف اقتلك أيتها القحبة»!. يقول «مايلر» الذي كان شاهدا على الخلافات الزوجية عنهما : «كل منهما يوجه اللكمات إلى الآخر، فلا تملك إلا أن تجلس وتصفق لهما كأنك تشاهد مباراة» ، أما «تينان» الذي كان يدافع ـ دون وجه حق ـ عن حقه في الخيانة فكان يطلب الإخلاص من زوجته. عاد ذات مرة من عند عشيقته التي كان يعرفها في تلك الأيام، فوجد شخصا يقف مع زوجته في مطبخ شقتهما في لندن وهو عار تماما ،كان شاعرا ومخرجا يعمل في الـ : «بي بي سي» وكان «تينان» يعرفه، فذهب وحمل ملابسه من غرفة النوم وألقي بها في بئر المصعد . ولكنه لم يكن دائما على هذه الدرجة من الشجاعة.

بعد أن طلق زوجته الأولى أقنع امرأة متزوجة، هي «كاثلين جيتس» بترك زوجها والعيش معه .. ثم تزوجها بعد ذلك. اقتحم زوجها الباب الخارجي لمسكن «تينان» أما هو فاختبأ خلف الأريكة، بعد ذلك لحق به زوجها بالقرب من منزل أمها في «هامستيد» وكان بينهما اشتباك بالأيدي تطايرت فيه خصلات «تينان» الذهبية قبل أن يفر هاربا إلى المنزل.

وتكمل زوجته الثانية الحكاية : «اختفيت أنا «وتينان» في منزل أمي لبعض الوقت ثم خرجنا في الليل، وبعد مسافة قليلة أقسم أن هناك من يتبعنا وقفز في الحال في مستودع للقمامة قريب»(٥٣) . فيما بعد لم يستسغ «تينان» هذا التصوير المفتعل من «صمويل بيكيت» أحد المسرحيين الذين كان يسقطهم من اعتباره.

زواجه الثاني انهار مثل الأول بسبب إصراره على الحرية الجنسية لنفسه وعلى الوفاء والإخلاص من جانب زوجته. أقام علاقة دائمة مع ممثلة عاطلة عن العمل، كان يمارس معها كل خيالاته السادية ـ المازوكية بما في ذلك ارتداء ملابس النساء، وهي ترتدي ملابس الرجال، كما كان يقيم علاقات أحيانا مع بائعات الهوى. كان يقول لـ «كاثلين» أنه ينوي الاستمرار في تلك الجلسات بمعدل مرتين في الأسبوع «رغم أن ذلك ضد المنطق والعقل والشفقة ... والرفقة أيضا، ولكنه اختياري .. رغبتي .... احتياجي ... وهذا أمر مضحك نوعا ما، وكريه بدرجة ما .. ولكنه يهزني مثل العدوى ولا أستطيع أن أفعل

شيئا سوي أن أظل أهتز حتى تنتهي النوبة»(٥٤). وكان ذلك شيئا سيئا، أما الأسوأ منه فهو قراره بأن ينحي عمله جانبا ليصبح أحد المهتمين بتصوير الفن الإباحي ولم يكن ناجحا في ذلك أيضا. منذ سنة ١٩٥٨ كانت أجندة اهتماماته تحتوي على ملاحظات من نوع : اكتب مسرحية، اكتب كتبا جنسية، اكتب سيرة ذاتية». وفي سنة ١٩٦٤ أقام علاقة مع مجلة «پلاي بوي» رغم أنهم كانوا قد رفضوا محاولاته لأن يقدم لهم مادة جنسية شبقية. ويبدو أنِ «تينان» كان يعتقد أنه يستطيع أن يحول الپورنوجرافيا إلى شكل فني، وشجعه على ذلك نجاح «أو .. كالكوتا» . حاول في أوائل السبعينيات أن يشكل مجموعة من الكتاب المتميزين ليكتبوا أنطولوجيا عن خيالات العادة السرية ولكنه قوبل بالامتعاض من كثيرين، كان بينهم «نابوكوف» و«جراهام جرين» و«بيكيت» و«مايلر» ثم انشغل بعد ذلك في محاولات لعمل فيلم من أفلام الجنس وفشل لعدم استطاعته الحصول على تمويل.

وعلى العكس من معظم المثقفين لم يكن «تينان» بخيلا أو جشعا. كان كريما لدرجة الاستهتار وهي صفة يشترك فيها مع «سارتر»، عندما ماتت أمه تركت له مبلغا كبيرا من ثروة «سان پيتر» بدده بأسرع ما يمكن، وعندما ترك العمل في المسرح الوطني حصل على تعويض ضئيل، ووقع عقدا غبيا عن «أو كالكوتا» لم يحصل من ورائه إلا على مبلغ ٢٥٠و٠٠٠ دولارا فقط.

معظم الوقت في سنواته الأخيرة قضاه في محاولات لجمع تمويل لمشروع كان أصدقاؤه ينظرون إليه باحتقار ويأس، وكان هو نفسه يشك في نجاحه. كتب إلى «كاثلين» من «بروفنس» يقول : «ما هذا الذي أفعله هنا لترويج البورنو ؟ إنه أمر يدعو للخجل»، في «سان تروپيز» رأى في الحلم فتاة مغطاة بالوحل والغائط، حليقة الرأس، مدقوق فيها عشرات من دبابيس الرسم، وكتب عن ذلك : «استيقظت فزعا وفي الحال بدأت الكلاب تنبح في ساحة الفندق كما تفعل حسبما يقال عند مرور الشيطان الذي لا يراه الإنسان»(٥٥). وصفت أرملته السنوات الأخيرة من حياته بأنها كانت مزيجا فاسدا من الهواجس الجنسية والضعف الجسماني، وكان ما كتبه مزعجا ومؤلما لكل الذين عرفوه وأحبوه ويجعلهم يتذكرون عبارة «شيكسبير» الدالة : «إزهاق الروح في قمامة العار»(٥٦). حالة أخرى أكثر دلالة على المثقف كضحية للإباحية المصحوبة بدرجة أكبر من العنف هي حالة «راينر ڤيرنر فاسبندر»، الذي قد يكون أعظم مخرجي السينما الألمان موهبة.

كان «فاسبندر» ابنا للهزيمة، ولد في «باڤاريا» في ٣١ مايو ١٩٤٥ بعد انتحار «هتلر»، وكشاب أفاد من الحريات الجديدة التي كان المثقفون مثل «كونوللي» و«مايلر» و«تينان» يحاولون أن يخلعوها على الإنسانية المتحضرة ... وفي نفس الوقت كان ضحية لها. كانت السينما الألمانية تقود العالم في الستينيات وظهور النازيين صنع الشتات للمواهب فكان لهوليود نصيب الأسد، وبعد سقوط النظام النازي زرعت السلطات الأمريكية المحتلة سينما هوليود في التربة الألمانية. وقد انتهت هذه المرحلة في عام ١٩٦٢ عندما أصدر ٢٦ من كتاب السينما والمخرجين الشبان بيان الاستقلال السينمائي الألماني المعروف باسم

«أوبرهاوس مانيفستو». ترك «فاسبندر» المدرسة بعد ذلك بعامين، وعندما كان عمره ٢١ عاما كان قد صور فيلمين قصيرين، وفي عالم ألمانيا الفني الذي كانت تسيطر عليه ظلال «برخت» كوّنَ جمعية صغيرة للإنتاج باسم «آنتي تياتر» أي المسرح الضد. (أو النقيض) وفي أول انتاج ناجح لها أدى دور «ماك السكين» في مسرحية «برخت» : «البنسات الثلاثة».

ورغم أن المسرح النقيض كان يدعو إلى المساواة من الناحية النظرية، إلا أنه من الناحية العملية كان يدار بأسلوب طبقي ظالم، وكان «فاسبندر» نفسه هو المستبد، وكما قيل، كان يديره بنفس الطريقة التي كان «لويس الرابع عشر» يدير بها قصر «ڤرساي»(٥٧).

وقد طبق هذا الأسلوب في عمل فيلمه الأول الناجح «الحب أكثر برودة من الموت» الذي تم تصويره في ظرف ٢٤ يوما من شهر ابريل عام ١٩٦٩، وبسرعة فائقة استطاع أن يجعل من نفسه رمزا لصناعة الأفلام الإباحية وليس رائدها فقط. كانت لديه الإرادة والسلطة والقدرة على اتخاذ قرارات سريعة حاسمة، وقد مكنه ذلك من صناعة أفلام عالية الجودة بأسلوب اقتصادي وفي وقت قصير، وسرعان ما جاء الإعجاب النقدي. لم يحقق «فاسبندر» نجاحا عالميا في شباك التذاكر إلا بعد فليم «الخوف يأكل الروح» ـ١٩٤٧ـ ولكن ذلك كان فلبمه رقم ٢١، وفي خلال الإثني عشر شهرا التي بدأت في نوفمبر ١٩٦٩ صنع ٩ أفلام طويلة يحتوي أحدها «تاجر الفصول الأربعة» ـ١٩٧١ـ (وهو من أعظمها نقديا وتجاريا) على ٤٧٠ مشهدا وتم تصويره في ١٢ يوما. وعندما كان في السابعة والثلاثين من عمره كان قد صنع ٤٣ فيلما، أي بمعدل فيلم كل مائة يوم على مدى ١٣ سنة(٥٨). لم تكن هناك إجازات، كان يعمل ويجعل الآخرين يعملون حتى في أيام الأحد، وحسب المفهوم الاحترافي كان يتمتع بدرجة عالية جدا من الانضباط الذاتي، كان يقول: «يمكن أن أنام عندما أموت»

هذا الإنتاج الضخم تحقق في ظل أرضية من الانغماس الذاتي وإطلاق النفس لعنان الشهوات وانتقاص الذات لدرجة يقشعر معها البدن. كان والده طبيبا ترك أسرته عندما كان «فاسبندر» في السادسة، وترك مهنة الطب ليكتب الشعر ويعمل في إدارة بعض العقارات الرخيصة لكي يعول نفسه. أما الأم فكانت ممثلة وظهرت فيما بعد في بعض أفلامه، وبعد طلاقها تزوجت من كاتب قصة قصيرة. أرضية طفولته ومراهقته كانت بوهيمية، أدبية، قلقة، لا أخلاقية وغير مسؤولة. قرأ كثيرا، وبعد قليل كان يكتب القصص والأغاني، هضم الثقافة الإباحية الجديدة بنفس السرعة والثقة شأن أي شيء آخر كان يفعله. كان ابن شوارع بمصطلح «الهيبيز» الجديد. في الخامسة عشرة كان يساعد والده في تحصيل الإيجار من شقق الأحياء الحقيرة. أعلن أنه كان على علاقة (حب) بابن جزار، وكان رد الأب ـ الذي يتفق مع الطبيعة الألمانيــة ـ «إذا كنت تريد أن تذهب إلى الفــراش مع رجــال .. ألا يحــسن أن يكونوا من رجــال الجامعة؟»(٥٩). بعد ذلك واصل «فاسبندر» أحد الموضوعات الرئيسية لثقافة الستينيات الجديدة وبضراوة شديدة، وهو الاستخدام غير المتهيب للجنس، من أجل المتعة. ومع تزايد نفوذه في عالم السينما والمسرح

زادت مطالبه وقسوته وزاد اندفاعه. كان معظم «عشاقه» من الرجال وكان من بينهم متزوجون ولديهم أطفال، وكان هناك الكثير من المآسي العائلية والمشاهد المؤسفة. ومنذ البداية كانت هناك لمحة من السادية ـ المازوكية والتطرف. كان «فاسبندر» يجتذب رجالا من الطبقة العاملة ويحولهم إلى ممثلين وعشاق. كان أحدهم متخصصا في تحطيم السيارات الثمينة وكان يسميه «النجرو الباڤاري الخاص بي». وشخص آخر «شاذ» من شمال أفريقيا كان نزاعا للقتال وسبب له ولمعارفه كثيرا من الرعب. الثالث كان جزارا تحول إلى التمثيل وانتهى به الأمر إلى الانتحار.

ولكن «فاسبندر» أيضا كان مغرما بالنساء وكان يتحدث أحيانا وبأبوة عن «تكوين أسرة تقليدية»، إلا أن توجهه نحو النساء كان بدافع التملك. كان يحب أن يتحكم فيهن، ولكي يجمع الأموال اللازمة لأفلامه الأولى كان يستخدم النساء اللائي يسيطر عليهن لخدمة «العمال المهاجرين»، تزوج في سنة ١٩٧٠ من ممثلة اسمها «إنجريد كاڤن» كانت تعتقد أنها سوف تحوله إلى شخص سوي جنسيا يشتهي الجنس الآخر، ولكن حفل الزفاف انقلب إلى طقس من طقوس العربدة .. وكان ذلك متوقعا، وجدت العروس باب غرفة نومها مغلقا و«العريس» وعشيقه في سريرها ... وكان الطلاق !

وفي النهاية تزوج «فاسبندر» من أخرى وهي «جوليان لورانز» إحدى كتاب السيناريو لأفلامه، ولكنه واصل حياته الجنسية الشاذة في البارات والمواخير والفنادق . والغريب أنه كان يطالبها بالوفاء والإخلاص. اكتشف أثناء تصوير فيلم «برلين الكساندر پلاتس» ـ ١٩٨٠ ـ أنها قضت الليلة مع أحد عمال الكهرباء، فاصطنع مشهد غيرة وسبّها بأنها «قحبة»، فما كان منها إلا أن مزقت وثيقة الزواج وألقت بها في وجهه. كان «فاسبندر» أيضا يعبّر في أفلامه وفي نمط حياته عن الموضوع الكبير الثاني في الثقافة الجديدة : «العنف» . ويبدو أنه في شبابه كان قريبا من «أندرياس بادر» أحد المشاركين في تكوين واحدة من أشهر العصابات الإجرامية الألمانية، كما كان قريبا من «هورست سوهنلين» الذي كان يصنع القنابل الحارقة لجماعة «بادر ماينهوف». يروي صديقه الممثل «هاري باير» أن «فاسبندر» كان يقول أنه يميل إلى التوجه نحو الإرهاب، ولكنه فكر في «أن صناعة السينما قد تكون أكثر أهمية بالنسبة للقضية» من النزول إلى الشارع(٦٠) . وعندما جاءه خبر انتحار «بادر» وأعضاء آخرين من عصابته في سجن «ستامهاتم» في اكتوبر ١٩٧٧ صرخ في غضب «لقد قتلوا أصدقاءنا»، وقد أثار فيلمه التالي «الجيل الثالث» ـ ١٩٧٩ ـ جدلا كبيرا حول استغلال السلطات للإرهاب واتخاذه ذريعة للعودة بألمانيا إلى الشمولية مرة أخرى وأثار غضبا شديدا. ففي «هامبورج» هاجم الدهماء مُشغِّل السينما وضربوه حتى فقد الوعي وحطموا الفيلم. وفي «فرانكفورت» ألقى الشبان القنابل الحارقة على السينما التي كانت تعرضه. كان «فاسبندر» يحصل دائما على دعم من الدولة لأفلامه ـ وكان ذلك أيضا من سمات العصر ـ ولكنه كان قد صنع ذلك الفيلم من ماله الخاص : كان مخاض حب . أو كراهية. في ذلك الوقت أيضا كان قد تبنى موضوعا ثالثا من موضوعات الثقافة الجديدة وهو : المخدرات . وكان تقريبا قد سيطر عليه هذا الأمر تماما. كان السماح بالمخدرات والقبول بها افتراضا ضمنيا لدى المجتمع الإباحي . المتحرر. وكان من الممارسات العادية

للمثقفين في الستينيات أن يوقعوا البيانات التي تطالب بليبرالية قوانين المخدرات. كان «فاسبندر» في شبابه يحصل على المال عن طريق قيادة السيارات المسروقة عبر الحدود ويبدو أنه حينذاك لم يكن قد تورط في المخدرات بعد، وكان بالطبع جزءا من المشهد الألماني. صمم زيا مناسبا لنفسه مثل «برخت» : الجينز الممزق جيدا، القميص المربعات، الحذاء القديم مع اللحية الصغيرة الدقيقة. كان يدخن مئات السجائر في اليوم ويتناول كمية كبيرة من الطعام الجيد، وفي الثلاثينيات كان يبدو منتفخا مثل الضفدعة وكان يقول : «أن تكون قبيحا فذلك هو أسلوبك لكي تحكم إغلاق نفسك . جسمك القوي السمين هو حصنك المنيع ضد كافة أشكال العدوى»(٦١) . كان يشرب بشراهة ويتعاطى كمية كبيرة من الحبوب المخدرة عندما يريد أن ينام، ويبدو أنه لم يكن قد عرف المخدرات القوية إلى أن صنع فيلمه الأول : «الروليت الصينية» ـ ١٩٧٦ ـ وهو في الواحدة والثلاثين. ولكنه اقتنع بقدرة الكوكايين الخلاقة بعد أن جربه وأصبح يتعاطاه بانتظام وبجرعات كبيرة. وعندما كان يصور فيلم «بولز ويزر» ـ ١٩٧٧ ـ أجبر أحد الممثلين لأن يؤدي دوره وهو تحت تأثير المخدر.

وهكذا تحركت الأحداث نحو ذروة أو نهاية حتمية. في فبراير ١٩٨٢ حصل في مهرجان «برلين» السينمائي على جائزة الدب الذهبي وكان يود أن يجمع بين الجوائز الثلاث الكبرى . أي أن يحصل أيضا على النخلة الذهبية في «كان» والأسد الذهبي في «ڤينيسيا»، ولكنه لم يحصل على جائزة «كان»، والذي حدث بدلا من ذلك أنه أنفق ٢٠٫٠٠٠ ماركا هناك على الكوكايين، كما حصل على حقوقه عن توزيع فيلمه القادم دفعها لكي يؤمِّنَ مددا من الكوكايين في المستقبل. كان قد أصبح عنيفا ضد النساء وعندما يكون تحت تأثير الشراب أو المخدر يغضب ويثور دون سبب .. حدث مثلا أن لكم كاتبة سيناريو في ذقنها ! في حفل عيد ميلاده (٣١ مايو) وكان مناسبة شبه عامة، قدَّمَ إلى زوجته السابقة «إنجريد» : «قضيبا» من البلاستيك قائلا أنه سوف يجعلها سعيدة لبعض الوقت. استمر في عمله ومقابلاته بنفس الأسلوب ولكن استهلاكه للمخدرات والشراب والحبوب المنومة الممنوعة كان في تصاعد، وفي صباح ١٠ يونيو وجدته زوجته «چوليانا لورنز» ميتا في السرير بينما جهاز الڤيديو يعمل. كانت جنازته بائسة ورديئة، ولكن النعش كان خاليا لأن الشرطة كانت تفحص الجثة بسبب المخدر. كان المغزى واضحا وحاسما حتى لا يحتذيه أحد رغم أن الكثيرين حاولوا عبادة مذهب اللذة، كما كان هناك أيضا من سقط ضحية للتشريع الثقافي للعنف، من بينهم «چيمس ـ بولدوين» (١٩٢٤ ـ ١٩٨٨)، أكثر الكتاب السود حساسية وأقواهم في بعض الجوانب.

حالته حالة رجل كان من الممكن أن يحيا حياة سعيدة ومتحققه بفضل إنجازاته ـ وكانت كبيرة ـ ولكنه بدلا من ذلك كان تعسا بسبب المناخ الثقافي الجديد في زمنه والذي أقنعه بأن رسالة أعماله لابد أن تكون الكراهية، وكان يقدمها بحماس غاضب. وهو مثال آخر على التناقض الغريب، فالمثقفون الذين يفترض أن يعلموا الناس الثقة بالعقل كانوا دائما يشجعونهم على اتباع العواطف، بدلا من حثهم على الحوار والتصالح الإنساني كانوا يدفعون كل شيء نحو الاحتكام للعنف.

وما يقوله «بولدوين» عن طفولته وشبابه لا يمكن الاعتماد عليه لأسباب سوف نشرحها حالا .. بينما يمكن أن نقدم ملخصا دقيقا إلى حد ما، اعتمادا على سيرته التي كتبتها «فيرن مارچا إيكمان» ومصادر أخرى(٦٢).

حياة «بولدوين» في العشرينيات كانت تتسم بالحرمان إلى حد ما. كان الأكبر بين ثمانية أطفال. لم تتزوج أمه إلا وهو في الثالثة من عمره، كان جده عبدا من «لويزيانا»، وكان زوج أمه عاملا في أحد مصانع تعبئة الزجاجات.

نشأ «بولدوين» نشأة جيدة وحازمة رغم الفقر. تقول أمه أنه كان دائما ما يصحب أحد إخوته في يد ويحمل كتابا في الأخرى.

كان أول كتاب يقرأه هو «كوخ العم توم». قرأه أكثر من مرة وكان تأثيره على أعماله كبيرا رغم محاولاته التخلص من ذلك. في العشرينيات والثلاثينيات لم يكن هناك إحساس بالدونية أو الهزيمة بسبب الجنس، وكان من المعتقد أن السود يمكن أن يتفوقوا إذا عملوا بجد، ولم يكن الفقر مقبولا كعذر لعدم التعلم. كانت المستويات الدراسية عالية ولابد أن يحققها الأطفال وإلا فالعقاب في انتظارهم. نشأ «بولدوين» في هذا المناخ. كان «جيرترود آير» ناظر المدرسة العامة رقم «٢٤» رجلا ممتازا وكان هو الناظر الوحيد الأسود في «نيويورك سيتي». مُدَرِّسته «أوريللا ميلر» كانت أول من شجعه على الكتابة. نشر أول قصة قصيرة له في «دوجلاس پيلوت» مجلة مدرسة «فردريك دوجلاس» وهو في الثالثة عشرة، وهي نفس المجلة التي أصبح يشرف على تحريرها فيما بعد وكان يساعده اثنان من المدرسين السود البارزين، الشاعر «كونتي كالن» مدرس الفرنسية و«هيرمان پورتر». كان «بولدوين» يكتب بأسلوب جميل ويتقدم بدرجة مثيرة للدهشة وبعد أن ترك المدرسة بعام كتب مقالا للمجلة يشيد فيه بالروح الطيبة السائدة بها وبجو الصداقة والألفة «مما يجعلها واحدة من أفضل المدارس في البلاد»(٦٣) .وإلى جانب كونه كاتبا متميزا فإنه قد أصبح واعظا شابا يوصف بأنه «متحمس جدا»، وبدأ يحظي باهتمام وصداقة كبار الموظفين من السود ثم التحق بأكاديمية نيويورك الشهيرة، مدرسة «دي ويت كلينتون العليا» في «برونكس» التي تخرج فيها بين آخرين «پول جاليكو» و«پادي شايفسكي» ،«چيروم ويدمان» و«ريتشارد أڤيدون»، وكان ينشر كتاباته الروائية والقصصية في مجلة المدرسة «ماچپاي» وبعد ذلك رأس تحريرها. وهنا أيضا سوف يحظي مرة أخرى بصداقة المدرسين الذين سيساعدونه ويرعون موهبته قدر استطاعتهم. مقالاته التي كانت تنشر في المجلة بعد ذلك تعكس أنه قد تخلي عن إيمانه، ترك الكنيسة واشتغل حمالا وعامل مصعد ثم عامل بناء في «نيو چيرسي»، وكان يكتب في الليل. ومرة أخرى هناك أدلة كثيرة على مساعدة وتشجيع من هم أكبر منه له سواء من البيض أو السود، واستطاع الكاتب الأسود «ريتشارد رايت» أن يحصل له على جائزة مؤسسة «إيوجن ساكستون» التي مكنته من السفر إلى «باريس». نشر أعماله في «نيشن» و«نيوليدر» ولم يكن صعوده بطريقة مثيرة وإنما برسوخ ومنهجية، وكان الذين يعرفونه حينذاك يشيدون بإخلاصه وبعمله

الدؤوب ومساعدته لأسرته التي كان يرسل إليها كل «بنس» يوفره وكانت تبدو عليه كل علامات السعادة. أما نجاحه الكبير فقد تحقق في سنة ١٩٤٨ عندما نشر مقالا مهما وخطيرا بعنوان «جيتو هارلم» في مجلة «كومنتري» الثقافية اليهودية الشهرية(٦٤). كان كثيرون يقرضونه كي يستمر في عمله الإبداعي «اذهب وقلها من على الجبل» والتي تتناول الحياة الكنسية في «هارلم» ونشرت في ١٩٥٣ وحظيت باستقبال طيب. كان يعيش حياة مفكر عالمي، قافزا من «هارلم» مباشرة إلى «جرينوتش ڤيلدج» والشاطيء الأيسر من «باريس» متخطيا البرجوازية السوداء تماما كما تجاهل الجنوب.

لم تكن قضية الزنوج أساسية بالنسبة له، والحقيقة أنك لا تستطيع أن تعرف أنه كان أسود من معظم أعماله الأولي وأفضل كتاباته. كان يصر على النزاهة في حياته وفي أعماله. نشر عددا من أهم مقالاته في مجلة «كومنتري» التي كانت مؤيدة للدمج العنصري(٦٥). وقال عنه رئيس تحريرها «نورمان بود هوريتز» فيما بعد أنه «كان مثقفا أسود بنفس المعنى الذي كان به هناك مثقفون يهود»(٦٦).

ولكن في النصف الثاني من الخمسينيات بدأ «بولدوين» يشعر بالمناخ الثقافي الجديد الصاعد .. بالإباحية من ناحية وبالكراهية المبررة من ناحية أخرى. كان شاذا جنسيا أو لعله كان يعتقد ذلك، وقد تناولت روايته الثانية «غرفة چيوفاني» ـ ١٩٦٥ ـ هذا الموضوع، رفضها الناشر فذهب إلى آخر دفع له عنها ثمنا أقل، وقد ملأته تلك التجربة بالسخط الشديد على صناعة النشر الأمريكية. والأهم من ذلك أنه اكتشف أن السخط من شخص محروم مثله قد أصبح شيئا موضوعيا وعادلا، وقد وسَّع منه ليشمل الناس والمؤسسات التي كان يكن لها احتراما ذات يوم. توجه نحو السود الكبار الذين كانوا يساعدونه مثل «ريتشارد رايت» وغيره(٦٧). ثم بدأ يصدر أحكاما عامة على الجنس الأبيض، أعاد كتابة تاريخه الشخصي وإلى حد كبير دون وعي، ثم أصبح مفكرا آخر، تتخفى كتاباته عن نفسه تحت صراحة مضللة إلى درجة كبيرة(٦٨). اكتشف أنه كان طفلا تعسا، وأن والده كان يقول عنه أنه أقبح طفل رآه في حياته، «قبيح مثل ابن الشيطان». كتب عن والده يقول : «لا أذكر أبدا أن أحدا من أطفاله في كل تلك السنوات كان يسعده أن يراه عائدا إلى المنزل»، وأنه سمع أمه تتنهد عند موته «أنا أرملة منذ واحد وأربعين سنة وثمانية أطفال ، لم أكن أريدهم أبدا».

أكتشف أنهم كانوا يضربونه بقسوة في المدرسة وكان يصفها بالرعب. عندما زار مدرسة «فردريك دوجلاس» في سنة ١٩٣٦ قال للطلاب : أقنع البيض أنفسهم بأن الزنجي سعيد في هذا المكان، ومن واجبكم ألا تصدقوا ذلك مرة أخرى ولو للحظة واحدة»(٦٩).

وبالنسبة للمدرسة الثانوية قال إن البيض وحدهم هم السعداء فيها، مع أن معاصره «ريتشارد أڤيدون» ينكر هذا الزعم بشدة. قال عن مدرس اللغة الانجليزية الذي كان يساعده «كنا نتبادل الكراهية». وأكثر من مرة كان يشجب الكتب التي أحبها ذات يوم مثل «كوخ العم توم»، هاجم مفهوم الدمج العنصري الكامل الذي كان يطمح إليه الزنوج من الطبقة المتوسطة(٧٠). استقصى أحوال الجنوب في أواخر

الخمسينيات واتصل بحركة الحقوق المدنية، وهما ظاهرتان كان يتجاهلهما حتى ذلك الوقت، ولكنه لم يكن مهتما بأساليب «مارتن لوثر كنج» ذات الطابع الغاندي، كما لم يعبأ بالأفكار القوية للمثقفين السود ـ مثل «بايارد راستن» ـ الذين أثاروا قضية المساواة بذكاء شديد وقد لعب «بولدوين» بمهارة فائقة وسط المناخ الناجم عن رواية «مايلر» : «النجرو الأبيض»، حتي ضد «مايلر» نفسه، قائلا له أنه كان يفضل أن يقضي وقته مع أبيض متعصب عن أن يقضيه مع أبيض ليبرالي، طالما أنه يعرف على الأقل أين يقف. والحقيقة أن «بالدوين» كان يقضي الكثير من الوقت مع البيض الليبراليين في أمريكا وأوروبا، ولم يكن أحب إليه من كرم الضيافة الأبيض الليبرالي. وبنفس أسلوب «روسو» الثقافي التقليدي، كان يحول استمتاعه إلى جميل من جانبه بالنسبة للآخرين، كان يتعطف عليهم ويقبل كرمهم معه ! كتبت «فيرن ايكمان» ـ كاتبة سيرته ـ تقول في سنة ١٩٦٨ : «حتي وهو في مخاض الإبداع كان يتنقل من بيت لآخر مثل ملك من العصور الوسطي يتنقل في مملكته، يوزع الرضا الملكي ويمنح رعاياه الفرصة لخدمته»(٧١) . كان يدعو أصدقاءه أيضا ويحول مؤسسة مضيفيه إلى ناد غير رسمي، ثم يترك المكان بحجة (كما قال لأحدهم) أن «منزلك أصبح عاما أكثر من اللازم»، وكما قال أحد مضيفيه أيضا ـ بإعجاب أكثر مما هو بغضب ـ «عندما يكون «جيمي» في منزلك، فالاحتفال ليس احتفالا بضيف، إنه شيء أشبه بالاحتفال بقافلة كاملة»، ومع كثرة الضغائن كان خضوع الآخرين له يتزايد.

كانت أصداء «روسو» غريبة ! وكانت ضغائن «بولدوين» توزع على نطاق واسع، وكان نصيب الليبراليين السود منها أكبر من نصيب البيض. كان أحدهم يشكو : «مهما كان إحساسك بأنك حر، فإن «بولدوين» يجعلك تشعر أن بك جزءا من العم «توم». في بداية الستينيات طلب منه «بود هوريتز» أن يدرس ظاهرة العنف الأسود الجديد الذي ينادي به «مالكوم إكس» والمسلمون السود من أتباعه، ووعده بنشر ما يكتبه في «كومنتري». وفعل «بولدوين» ما طلبه منه ولكنه باعه لـ «نيويوركر» من أجل مبلغ أكبر(٧٢) . ثم أضاف إلى ذلك تجربته مع التفرقة العنصرية في شبابه ونشرها في كتاب بعنوان «النار في المرة القادمة» سنة ١٩٣٦ ، وقد ظل هذا الكتاب على قائمة الكتب الأكثر مبيعا في أمريكا مدة واحد وأربعين أسبوعا، كما ترجم إلى عدة لغات عالمية. وقد كان هذا الكتاب تابعا منطقيا لكتاب «مايلر» : «النجرو الأبيض»، وربما ما كان كتاب «بولدوين» ليرى النور لولاه. ولكنه كان عملا أبعد أثرا سواء في الولايات المتحدة أو غيرها لأنه شهادة مثقف أسود بارز ـ في إطار الخطاب الأدبي للثقافة الغربية ـ عن القومية السوداء على أساس من الجنس.

والآن بدأ «بولدوين» يعطي غضبه وسخطه شكلا أدبيا، حوّل الغضب والسخط إلى مؤسسة يدافع عنها ويروج لها، وبهذا الفعل، أقام نمطا جديدا من اللاتساوق العرقي. لم يكن أي مثقف أبيض يستطيع أن يؤكد أن جميع البيض كانوا يكرهون السود أو أن يدافع عن تلك الكراهية، والآن كان «بولدوين» يؤكد أن السود يكرهون البيض، ويعبر بمضمون أعماله أن لديهم ما يبرر ذلك. من هنا أعطي مقبولية ثقافية لعنصرية سوداء جديدة، كانت تنتشر بسرعة وتسيطر على قيادات المجتمعات السوداء في العالم كله، وسواء

كان «بولدوين» يؤمن فعلا بحتمية العنصرية السوداء، وفي وجود هوة بين الأجناس لا يمكن ردمها، فذلك أمر مشكوك فيه. «چيمس بولدوين» الشاب كان ينكر ذلك تماما، وكان ذلك يتناقض مع تجربته العملية، وهذا هو سبب قيام «بولدوين» الأكبر سنا بإعادة كتابة تاريخه الشخصي، وهكذا كانت آخر عشرين سنة من حياته مبنية على أكاذيب وزيف أو ـ على الأقل ـ ارتباك يستحق اللوم.

والحقيقة أنه قضى معظمها في الخارج بعيدا عن أي شكل من أشكال النضال. ولكن النيران التي أشعلها خربت كل أعماله، وأبطلت تأثيرها. ما بقي منها هو روح كتابه «النار في المرة القادمة». لقد دعمت رسالة «فرانز فانون» العنيفة «معذبو الأرض» وطنطنة «سارتر» عن أن العنف حق شرعي لأولئك الذين يخضعون للتمييز الجنسي أو الطبقي.

وهنا نصل إلى النقطة الجوهرية والمحيرة في الحياة الثقافية وهي : الموقف من العنف. إنها الجدار الذي يصطدم به معظم المثقفون العلمانيين ـ مهما كانوا مسالمين أو غير مسالمين ـ ويقعون في التناقض أو بالأحرى في التشوش.

إنهم قد يستهجنون العنف نظريا، ومنطقيا بالطبع، حيث إنه نقيض الوسائل العقلانية لحل المشكلات، ولكنهم في الممارسة يجدون أنفسهم من وقت لآخر يكرسونه ـ وهو ما يمكن أن نطلق عليه أعراض القتل الضروري ـ أو يوافقون على استخدامه من قبل من يتعاطفون معهم. مثقفون آخرون من الذين يُوَاجَهُونَ باستخدام العنف من قبل الذين يريدون أن يدافعوا عنهم، يحولون مسئولية ذلك بكل بساطة ـ وبمبررات ساذجة ـ إلى الآخرين الذين يريدون الهجوم عليهم.

وأحد الذين يمارسون هذا الأسلوب : فيلسوف اللغة «نعوم تشومسكي»، وهو في جوانب أخرى طوباوي من الطراز القديم أكثر منه مفكرا من مفكري مذهب اللذة.

ولد في «فيلادلفيا» في ديسمبر ١٩٢٨، وحقق تألقا اقتصاديا بسرعة في عدد من الجامعات المهمة : معهد «ماساشوستس» للتكنولوجيا، «كولومبيا»، «پرنستون»، «هارڤارد» .. إلخ، وفي سنة ١٩٥٧، أي في نفس العام الذي أصدر فيه «مايلر» كتابه «النجرو الأبيض» أصدر «تشومسكي» كتابا مهما بعنوان «البنى اللغوية»، الذي كان عملا مهما وأصيلا وإسهاما في الجدل القديم والمستمر حول كيفية الحصول على المعرفة وكيف نكتسب الكثير منها على نحو خاص، أو ما يعبر عنه «برتراند رسل» بقوله : «كيف يتسنى للبشر من ذوي الصلة القليلة بالعالم والشخصية المحدودة أن يعرفوا كل هذا الكم الذي يعرفونه الآن ؟»(٧٣). يوجد لذلك تفسيران يباري كلاهما الآخر : أحدهما أن الناس يولدون بأفكار فطرية أو كما قال «أفلاطون» : «يوجد في عقل من لا يعرف آراء صحيحة بخصوص ما لا يعرف»، فمكونات العقل المهمة موجودة هناك من البداية رغم أن المثير الخارجي أو التجربة التي تؤثر على الحواس مطلوبة لإخراج هذه المعرفة إلى الوعي. ويعتقد «ديكارت» أنه من الممكن الاعتماد على تلك المعرفة البدئية أكثر من غيرها، وأن جميع الناس يولدون ولديهم رواسب منها. إلا أن أكثرهم قدرة على التفكير هم أولئك الذين

يدركون إمكاناتها الكاملة(٧٤). ويؤمن معظم المفكرين الأوربيين بهذه الآراء إلى حد ما . في مقابل ذلك يوجد التراث الأنجلو ساكسوني القديم للتجريبية، والذي كان يقوم بتعليمه «لوك» و«بيركلي» و«هيوم»، والذي يقول أنه برغم إمكانية توريث السمات الفسيولوجية إلا أن العقل عند الميلاد يكون عبارة عن لوح أملس، والسمات العقلية كلها تكتسب بالتجربة، وهذه الآراء، وبشكل متطور، هي التي يعتنقها الناس في بريطانيا والولايات المتحدة والدول التي تتبعهما ثقافيا.

ودراسة «تشومسكي» عن علم التركيب اللغوى أو المبادىء التي تحكم ترتيب الكلمات والأصوات لبناء الجمل، أدت به إلى اكتشاف ما أطلق عليه «الكليات اللغوية»، ولذلك فإن لغات العالم أقل اختلافا عما تبدو عليه في الظاهر لأنها تشترك جميعا في تلك الكليات التي تقرر بنية الجمل، كما كانت جميع اللغات التي درسها هو وتابعوه من بعده تتفق مع هذا النمط. ويفسر «تشومسكي» ذلك بأن تلك القواعد غير المختلفة للإعراب الفطري عميقة جدا في الوعي الإنساني لدرجة أنها لابد أن تكون نتيجة لميراث چيني (خاص بالچينات)، أما مقدرتنا على استخدام اللغة فذلك نشاط فكري أكثر مما هو مكتسب، وقد لا يكون تفسير «تشومسكي» لبياناته اللغوية صحيحا، ولكنه أكثرها معقولية حتى الآن. الأمر الذي يضعه بثقة في «معسكر القارة الأوربية»(٧٥). أو الديكارتي. كما أنه أثار دهشة فكرية في الدوائر الأكاديمية وجعل «تشومسكي» مشهورا كما حدث لـ «رسل» بعد عمله عن مبادىء الرياضيات أو لـ «سارتر» عندما نشر الوجودية. وهناك إغراء أمام أولئك المشاهير وهو استخدام رأس المال الفكرى الذي اكتسبوه من بروزهم في مجالاتهم من أجل كسب أرضية جديدة لآرائهم في القضايا العامة. وكما رأينا فإن كلا من «رسل» و«سارتر» قد استسلم لهذا الإغراء، ونفس الشيء بالنسبة لـ «تشومسكي». على مدى الستينيات كان المثقفون في الغرب، خاصة في الولايات المتحدة مستثارين وبدرجة متزايدة بسبب السياسة الأمريكية في «ڤيتنام»، وبنفس درجة تصاعد العنف الذي كانت تتم به، وهنا يكمن تناقض مهم. كيف يحدث أنه في نفس الوقت الذي يكون فيه المثقفون على استعداد لقبول استخدام العنف لتحقيق المساواة بين الأجناس، أو التحرر من الاستعمار، أو حتي من قبل الجماعات الإرهابية، أن يعتبروه مستهجنا وكريها عندما تمارسه حكومة ديمقراطية غربية لحماية ثلاثة أقاليم صغيرة من الاحتلال بواسطة نظام شمولي ؟

والحقيقة أنه لا يوجد أسلوب منطقي يمكن أن يُحَل به هذا التناقض. والتفسيرات التي قدمها المثقفون من أنهم كانوا يعارضون «القمع المؤسسي» من جانب ويؤيدون أو يبررون العنف الفردي أو العنف المضاد من جانب آخر (وتنويعات أخرى على نفس المستوى) كان يجب أن تكون كافية، ومن المؤكد أنهم عانوا من «تشومسكي» الذي أصبح (وظل) الناقد القيادي المثقف لسياسة أمريكا في «ڤيتنام»، وتحول من تفسير كيفية اكتساب البشرية لقدرتها على استخدام اللغة، إلى ناصح ومستشار عن كيفية إدارة سياستها الطبيعية.

والآن يصبح من سمات مفكرين ومثقفين كهؤلاء، أنهم لا يرون أي تناقض أو خلل في الانتقال من

مجالاتهم المعترف لهم فيها بالسيادة، إلى الشئون والقضايا العامة التي من المفترض ألا يكون لهم فيها أكثر مما للشخص العادي.

إنهم يزعمون دائما أن معارفهم الخاصة تحقق لهم بُعد الرؤية وعمقها. كان «رسل» يعتقد أن مهاراته الفلسفية تجعل نصائحه المتعددة ـ في أمور كثيرة ـ للإنسانية جديرة بالاتباع، وهو زعم كرّسه «تشومسكي» في محاضراته عن «رسل» سنة ١٩٧١(٧٦)، وكان «سارتر» يقول أن الوجودية ذات صلة مباشرة بالمشكلات الأخلاقية التي أفرزتها الحرب الباردة وبدرجة استجابتنا للرأسمالية والاشتراكية. و«تشومسكي» بدوره يقول أن عمله في «الكليات اللغوية» هو نفسه دليل على لا أخلاقية السياسة الأمريكية في «ڤيتنام» .. كيف ؟

في نظره أن الأمر يتوقف على النظرية المعرفية التي تقبل بها. فإذا كان العقل عند الميلاد فعلا مجرد لوح أملس، والبشر مجرد قطع من الصلصال يمكن تشكيلها على أي نحو، فهم إذن مواد مناسبة لما يسميه بـ «تشكيل السلوك» عن طريق سلطة الدولة، مدير المؤسسة، التكنوقراط، أو اللجنة المركزية(٧٧).

ومن ناحية أخري، إذا كان لدي الرجال والنساء بني عقلية فطرية، كما أن لديهم احتياجات عضوية لأنماط ثقافية واجتماعية تعتبر «طبيعية بالنسبة لهم»، فإن تلك الجهود التي تقوم بها الدولة لابد أن تفشل في النهاية، ولكنها أثناء فشلها فإنها سوف تعطل التطور، كما أنها تنطوي على وحشية رهيبة. إن محاولة الولايات المتحدة فرض إرادتها وفرض أنماط معينة من التطور الاجتماعي والثقافي والسياسي على شعوب الهند الصينية كان مثالا صارخا على تلك الوحشية. وللوصول إلى هذه النتيجة، فإن الأمر يتطلب عنادا من نوع خاص ، وهذا مألوف بالنسبة لمن يدرس أعمال المثقفين. وإذا كانت أفكار «تشومسكي» عن البنى الفطرية صحيحة، فيمكن أن يقال أنها تمثل حالة عامة ضد أي نوع من الهندسة الاجتماعية. ولأسباب كثيرة فإن الهندسة الاجتماعية قد أصبحت هي الوهم البارز واللعنة الكبرى في العصر الحديث. في القرن العشرين قُتل عشرات الملايين من الأبرياء في روسيا السوڤيتية وألمانيا النازية والصين الشيوعية وفي أماكن أخري كثيرة، ورغم أخطائها إلا أنها الشيء الأخير الذي تعتنقه الديمقراطيات الغربية. بل إن الهندسة الاجتماعية هي من صنع مثقفي العصر الذين يعتقدون أن بإمكانهم إعادة صياغة الكون على ضوء منطقهم، إنه حق الامتياز لميلاد الناموس الشيوعي مهد له «روسو» ونظمه «ماركس» ومأسسها «لينين».

وقد أدار خلفاء «لينين» أطول تجربه في الهندسة الاجتماعية على مدى سبعين عاما أو أكثر، وفشلها يؤكد بالفعل حالة «تشومسكي»، فقد أنتجت الهندسة الاجتماعية أو الثورة الثقافية كما أُطلق عليها : ملايين الجثث في صين «ماوتسي تونج» وبنفس الدرجة من الفشل. كما أن جميع مشروعات الهندسة الاجتماعية كانت في الأصل من صنع المثقفين، سواء طبّقتها حكومات غير ليبرالية أو شمولية، التفرقة العنصرية مثلا تم اختراعها بكل تفاصيلها وبشكلها الحديث في قسم علم النفس الاجتماعي في جامعة «ستيلينبوش».

كما تم اختراع أنظمة أخرى في أفريقيا : «الأوجاما» في تنزانيا، «الضميرية» في غانا، «الزنوجة» في السنغال ... و«الإنسانية الزامبية» ... الخ. كل ذلك تم طبخه في أقسام العلوم السياسية أو الاجتماعية في الجامعات المحلية. ورغم أن التدخل الأمريكي في الهند الصينية كان على درجة كبيرة من الحمق وتم بغباء شديد، إلا أن القصد منه كان إنقاذ شعوب تلك البلاد من الهندسة الاجتماعية، ولكن «تشومسكي» يتجاهل هذه الأفكار. فلم يبد أي اهتمام بالمحاولات – الشمولية لقمع أو تغيير السمات الفطرية. ويقول أن الديمقراطية الليبرالية، دول «دعه يعمل» مرفوضة تماما مثل دولة الاستبداد الشمولي، طالما أن النظام الرأسمالي ـ التي هي جزء عضوي منه ـ يفرز نفس عوامل القسر التي تؤدي إلى نفس النتيجة، وهي إنكار التحقق الذاتي. وقد كانت حرب «ڤيتنام» حالة صارخة على الظلم الرأسمالي الليبرالي للشعوب الصغيرة التي كانت تحاول أن تستجيب لاحتياجاتها الفطرية. وكان لابد أن تفشل بالطبع، ولكنها في نفس الوقت كانت تمارس وحشية بالغة(٧٨).

ولا شك أن أفكار بعض المثقفين مثل «تشومسكي» قد لعبت دورا رئيسيا لإبطال فكرة الولايات المتحدة التي كانت تصمم عليها، وهي أن المجتمع الديمقراطي كانت لديه فرصة للتحقق في الهند الصينية، وبعد أن انسحبت القوات الأمريكية دخل المهندسون الاجتماعيون كما كان يتوقع كل الذين أيدوا أمريكا، وحينذاك بدأت الجرائم الكبري تظهر بوضوح.

في «كمبوديا»، ونتيجة مباشرة للانسحاب الأمريكي، حدثت واحدة من أكبر جرائم القرن في سنة ١٩٧٥، فقد قامت مجموعة من المثقفين الماركسيين الذين تعلموا في «پاريس سارتر» والذين كانوا آنذاك قد أصبحوا مسئولين عن جيش هائل، بتجربة في الهندسة الإجتماعية. طائشة ومتهورة، حتي بمقاييس «ستالين» و«ماو». رد فعل «تشومسكي» يلقي الضوء على هذه الفظاعة، كان ردا معقدا وملتويا وتضمّن إراقة الكثير من الحبر المشوش والمربك، وكان في الحقيقة يحمل الكثير من التشابه مع رد فعل «ماركس» و«انجلز» وتابعيهما عندما انكشف تحريف «ماركس» لحديث «غاريبالدي» عن الميزانية. ربما يحتاج الأمر لوقت طويل لتفصيل المسألة، ولكن الجوهر كان في غاية البساطة. كانت أمريكا حسب تعريف «تشومسكي» والذي كان قد أصبح مثل حقيقة ميتافيزيقية، هي «الوغد» أو الشرير في الهند الصينية، وبالتالي كان لا يمكن الاعتراف بوقوع المجازر الكمبودية إلا إذا وجدت وسيلة تبين أن الولايات المتحدة كانت هي المسئولة عنها سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. ولذلك فإن إجابة «تشومسكي» والذين معه تحركت عبر أربعة مراحل (٧٩):

١ ـ لم تكن هناك مذابح، وهذا ليس سوى اختراع غربي دعائي.

٢ ـ ربما تكون قد وقعت بعض حالات قتل على نطاق ضيق، ولكن «تمزيق كمبوديا استُغِل من قبل دعاة حقوق الإنسان الغربيين»، في محاولة بائسة للتخلص من «أعراض ڤيتنام».

٣ ـ عمليات القتل كانت أوسع مما تصوروه في البداية وكان ذلك نتيجة توحش الفلاحين بسبب

جرائم الحرب الأمريكية.

٤ ـ في النهاية اضطر «تشومسكي» إلى الاقتباس عن «واحد من قلة من المثقفين الكمبوديين الحقيقيين»، والذي «استطاع أن يلف على التسلسل الزمني بذكاء» ليثبت أن أسوأ المذابح وقع في منتصف ١٩٧٨ وليس في ١٩٧٥، «وكان ذلك لأسباب تقليدية عرقية معادية للفيتناميين، وليس لأسباب ماركسية».

كان النظام الآن قد فقد «أي ملمح ماركسي كان له ذات يوم»، وتحول إلى «وعاء لمبادىء شعبية فلاحية فقيرة مفرطة في الشوفينية»، ولهذا حظي «أخيرا» بتأييد المخابرات المركزية التي انتقلت من المبالغة في المذابح لأغراض دعائية، إلى ارتكابها بنشاط، وفي الواقع فإن جريمة «پول پوت» هي جريمة أمريكا.

وفي منتصف الثمانينيات تحول اهتمام «تشومسكي» من «ڤيتنام» إلى «نيكاراجوا»، ولكنه كان قد تحرك بعيدا عن النقطة التي كان العقلاء مازالوا على استعداد لمناقشته فيها بجدية، وهكذا كرر نفس الأسلوب المؤسف لكل من «رسل» و«سارتر». وهكذا فإن عقلا آخر بدا ذات مرة أنه كان يحلق أبعد من أقرانه، نزل يتهادي في أرض التطرف الخراب كما فعل «تولستوي» العجوز عندما ترك «ياسنايا پوليانا»، ويبدو أن هناك في حياة كثير من مثقفي هذا الزمان انقطاعا للطمث الفكري أو سن يأس عقلية يمكن أن نطلق عليها «هروب العقل».



والآن .. نحن عند نهاية التساؤل، مائتا عام تقريبا مرت منذ بدأ المثقفون العلمانيون يحلون محل الإكليروس القديم لهداية البشرية وإصلاح أحوالها، وقد فحصنا عددا من الحالات الفردية لأولئك الذين حاولوا تقديم النصح والإرشاد. فحصنا مؤهلاتهم الأخلاقية، وقدرتهم على الحكم من أجل تحقيق ذلك الهدف، وعلى نحو خاص تحرينا موقفهم من الحقيقة، ووسائلهم للبحث عن الدليل وتقويمه، ومواقفهم: لا من الإنسانية بشكل عام وإنما من البشر على نحو خاص، كيف يعاملون أصدقاءهم، زملاءهم، خدمهم، و ـ قبل ذلك كله ـ أسرهم. كما تعرضنا للنتائج الاجتماعية والسياسية للعمل بنصائحهم واتباع مشورتهم.

بعد ذلك كله .. ما هي النتائج التي يمكن أن نستخلصها ؟ فليحكم القراء بأنفسهم. ولكنني أعتقد أنني ألمس اليوم تشككا عاما من الناس عندما يقف المثقفون ليعظوا، وهو اتجاه يتنامى بين عامة الناس أن يختلفوا حول حق الأكاديميين والكتاب والفلاسفة مهما كانوا بارزين، في أن يقولوا لنا كيف نسلك وكيف ندبر أمورنا.

والمعتقد السائد أن المثقفين ليسوا أكثر حكمة ولا أكثر قيمة ـ كمصلحين ـ من السحرة أو رجال الدين القدامي.

وأنا من هذا الرأي، هذا الشك، فأي مجموعة من الناس في الشارع يتم اختيارهم عشوائيا من المحتمل أن يقدموا لنا آراء وأفكارا معقولة في الأمور السياسية والأخلاقية، تماما مثل أي عينة من المثقفين.

بل لعلني أذهب بعيدا لأقول : إن أحد الدروس الرئيسية التي نخرج بها من هذا القرن المأسوي الذي شهد التضحية بملايين من الأبرياء في مشروعات لتحسين أحوال البشرية هو :

حذار من المثقفين ! ... لا يكفي أن يظلوا بعيدين عن مجال السلطة، بل يجب أن يكونوا دائما محل شك كلما حاولوا أن يتصدوا للنصح الاجتماعي.

حذار من اللجان والمؤتمرات والجماعات واتحادات المثقفين ! لا تثق بالبيانات التي تصدر من بين صفوفهم المسننة، لا تصدق شهاداتهم عن القادة السياسيين أو الأحداث المهمة، لأن المثقفين علاوة على أنهم أناس فردانيون وانشقاقيون لدرجة كبيرة، فإنهم يتبعون أسلوبا معينا في سلوكهم. عندما تتناولهم كمجموعة تجدهم غالبا متطابقين أكثر من اللازم داخل الدوائر التي يكونها أولئك الذين يقدرونهم أو يبحثون عن رضاهم، وهذا ما يجعلهم خطرين عندما يتجمعون، حيث يساعدهم ذلك على خلق مناخ عام سائد من الآراء والأفكار التي تؤدي إلى مسارات غير منطقية ومدمرة ، وقبل ذلك كله علينا أن نتذكر دائما ما ينساه المثقفون عادة : الناس أهم من الأفكار .. الناس أولا، وأن أسوأ أنواع الاستبداد هو استبداد الأفكار الذي لا يرحم.



الهوامش

Chapter One : Jean-Jacques Rousseau : 'An Interesting Madman'

1. See Joan Macdonald, *Rousseau and the French Revolution* (London, 1965).
2. J.H.Huizinga, *The Making of a Saint : The Tragi-Comedy of Jean-Jacques Rousseau* (London, 1976), pp. 185 ff.
3. Ernst Cassirer, *The Philosophy of the Enlightenment* (Princeton, 1951), p. 268.
4. Jean Chateau, *Jean-Jacques Rousseau : Sa Philosophie de l'éducation* (Paris, 1962), pp. 32 ff.
5. Lester G. Crocker, *Jean-Jacques Rousseau : The Quest, 1712–1758* (New York, 1974), p. 263.
6. Ibid., pp. 238–39, 255–70.
7. For Rousseau's early life see ibid., pp. 7–15; the account he gives in his *Confessions* is quite unreliable.
8. Rousseau's letters are published in R.A.Leigh, *Correspondence Complète de Jean-Jacques Rousseau* (Geneva, 1965 ff) and in T.Dufour and P.P.Plan, *Correspondance Générale de Jean-Jacques Rousseau* (20 vols., Paris, 1924–34).
9. Crocker, vol. i, pp. 160 ff.
10. Quoted in Huizinga, p. 29.
11. The *Discours* is published in G.R.Havens (ed.), *Discours sur les sciences et les arts* (New York, 1946).
12. For Rousseau's works see Bernard Gagnebin and Marcel Raymond (eds), *Oeuvres complètes* (3 vols., Paris, 1959–64).
13. Macdonald.
14. Quoted in Huizinga, pp. 16–17.
15. Crocker, vol. i, p. 16; see also pp. 194 ff.
16. Quoted by Huizinga, p. 50. The passage occurs in an unposted letter to Monsieur de Mirabeau, 1767.
17. J.Y.T.Greig (ed.), *Letters of David Hume* (Oxford, 1953), vol. ii, p. 2.
18. Huizinga, pp. 15–16.
19. Such *obiter dicta*, and many similar, are collected in Huizinga.
20. Crocker, vol. ii : *The Prophetic Voice, 1758–1783* (New York, 1973), pp. 28–29.
21. P. M. Masson, *La Rèligion de Jean-Jacques Rousseau* (3 vols., Paris, 1916).
22. Crocker, vol. i, pp. 146–47.
23. C.P.Duclos : *Considèrations sur les moeurs de ce siècle* (London, 1784), quoted in Huizinga.

24. Crocker, vol. ii, pp. 208, 265–302.
25. Huizinga, pp. 56–57, 112.
26. W.H.Blanchard, *Rousseau and the Spirit of Revolt* (Ann Arbor, 1967), p. 120.
27. Quoted in Huizinga, p. 119.
28. E.C.Mossner, *Life of David Hume* (Austin, 1954), p. 528–29.
29. Crocker, vol. ii, pp. 300–2.
30. Ibid., pp. 318–19, 339–41.
31. *Confessions*, Everyman edition (London, 1904), vol. i, p. 13.
32. Ronald Grimsley, *Jean-Jacques Rousseau: A Study in Self-Awareness* (Bangor, 1961), pp. 55 ff.
33. *Confessions*, vol. i, pp. 58 ff.
34. See Crocker's excellent analysis of this technique, vol. i, pp. 57–58.
35. Huizinga, p. 75.
36. Crocker, vol. i, pp. 340 ff.
37. *Confessions*, vol. i, p. 31.
38. Ibid., vol. i, p. 311.
39. Ibid.
40. While Thérèse was still alive, Madame de Charrière wrote *Plainte et défense de Thérèse Levasseur* (Paris, 1789). A powerful modern defence of her is I.W. Allen's Ph.D. thesis, *Thérèse Levasseur* (Western Reserve University, Cleveland), cited in Crocker, vol. i, p. 172. Other works dealing with Rousseau's relations with Thérèse include Claude Ferval, *Jean-Jacques Rousseau et les femmes* (Paris, 1934).
41. See F.A.Pottle (ed.), *Boswell on the Grand Tour, Germany and Switzerland 1764* (London, 1953), pp. 213–58.
42. Printed in ibid., pp. 335–37.
43. Greig, vol. ii, pp. 14–15.
44. Quoted in Crocker, vol. i, p. 186.
45. Ibid., pp. 178 ff.
46. The main defences are in the *Confessions*, vol. i, pp. 314 ff, vol. ii, pp. 8 ff.
47. For the General Will, etc., see L.G.Crocker, *Rousseau's Social Contract: An Interpretive Essay* (Cleveland, 1968).
48. Printed in C.R.Vaughan (ed.), *The Political Writings of Rousseau* (2 vols., Cambridge, 1915), vol. ii, p. 250.
49. Sergio Cotta, 'La Position du problème de la politique chez Rousseau', *Études sur le Contrat social de J.J.Rousseau* (Paris, 1964), pp. 177–90.
50. I.W.Allen, quoted in Crocker, vol. i, p. 356, note 6.
51. See Huizinga, Introduction.
52. Judgments for and against Rousseau are listed in Huizinga, pp. 266 ff.
53. Quoted by Crocker, vol. i, p. 353; the remark is recorded in Henri Guillemin, *Un Homme, deux ombres* (Geneva, 1943), p. 323.

Chapter Two: Shelley, or the Heartlessness of Ideas

1. P.B.Shelley to Elizabeth Hitchener, in F.L.Jones (ed.), *Letters of Percy Bysshe Shelley* (2 vols., Oxford, 1964), vol. i, pp. 116–17.
2. See text in D.L.Clark (ed.), *Shelley's Prose* (New Mexico, rev. ed. 1966).
3. For a clear analysis of the essay see M.H.Scrivener, *Radical Shelley* (Princeton, 1982), pp. 249 ff.

4. An interesting analysis of these poems is in Art Young, *Shelley and Non-Violence* (The Hague, 1975).
5. *Essays in Criticism, Second Series: Byron*, reprinted in Matthew Arnold, *Selected Prose* (Harmondsworth, 1982), pp. 385–404.
6. Byron to John Murray, 3 August 1822; to Thomas Moore, 4 March 1822; both in Leslie A. Marchand (ed.), *Byron's Letters and Journals* (11 vols., London, 1973–82), vol. ix, pp. 119, 189–90.
7. The best biography of Shelley, a pioneering work, is Richard Holmes, *Shelley: The Pursuit* (London, 1974). This should be supplemented by Holmes's essay on Shelley in his *Footsteps: Adventures of a Romantic Biographer* (London, 1985).
8. For Sir Timothy Shelley, see R.C.Thorne (ed.), *History of Parliament: House of Commons 1790–1820* (London, 1986), vol. v, *Members Q–Y*, pp. 140–41.
9. For the radicalization of the young Shelley see Holmes, pp. 25 ff; and K.M.Cameron, *The Young Shelley: Genesis of a Radical* (New York, 1950).
10. N. Mackenzie (ed.), *Secret Societies* (London, 1967), p. 170; Nesta Webster, *Secret Societies and Subversive Movements* (London, 1964), pp. 196–268.
11. Marie Roberts, *British Poets and Secret Societies* (London, 1986), deals with Shelley in Chapter 4, pp. 88–101.
12. Shelley, *Letters*, vol. i, p. 54; Paul Dawson, *The Unacknowledged Legislator: Shelley and Politics* (Oxford, 1980), pp. 157 ff.
13. Sylvia Norman, *The Flight of the Skylark: The Development of Shelley's Reputation* (London, 1954), p. 162.
14. Thomas Jefferson Hogg, *Life of Shelley*, quoting Helen.
15. Holmes, pp. 36, 48.
16. Ibid., pp. 50–51.
17. Ibid., p. 57.
18. Letter to John Williams, in *Letters*, vol. i, p. 330.
19. Ibid., pp. 139–40, 146–47, 148–49.
20. Ibid., p. 155.
21. Ibid., pp. 156, 163.
22. Ibid., p. 165.
23. Ibid., pp. 205–6.
24. F.L.Jones (ed.), *Mary Shelley's Journal* (London, 1947), p. 17.
25. N.I.White, *Shelley* (2 vols., New York, 1940), vol. i, pp. 547–52.
26. See Louis Schutz Boas, *Harriet Shelley: Five Long Years* (Oxford, 1962).
27. Letters of 14 July, 27 August, 15 September and 16 September 1814, in *Letters*, vol. i, pp. 389–90, 391–92, 394, 396.
28. Letter of 26 September 1814, in *Letters*, vol. i, pp. 396–97.
29. Letter of 3 October 1814, in *Letters*, vol. i, p. 403.
30. Letters of 3 and 25 October 1814, in *Letters*, vol. i, pp. 400, 410.
31. Letter of 14 November 1814, in *Letters*, vol. i, p. 421.
32. *Letters*, vol. i, p. 520, footnote.
33. See the account of Harriet's last phase in Boas, Chapter vii, pp. 183 ff.
34. Letter of 16 December 1814, *Letters*, vol. i, pp. 519–21. The authenticity of this letter was later challenged by Shelley's Victorian apologists, but there seems no reason to doubt it. See Holmes, p. 353 and footnote.
35. *Letters*, vol. i, pp. 511–12.
36. Letter of 10 December 1812, *Letters*, vol. i, p. 338.
37. For Fanny Imlay, see Holmes, pp. 347 ff.

38. Letter to Godwin, *Letters*, vol. i, p. 311.
39. *Letters*, vol. i, p. 196.
40. *Letters*, vol. i, p. 314.
41. Holmes, p. 216.
42. *Letters*, vol. i, p. 530.
43. *Letters*, vol. ii, pp. 264–65.
44. Holmes, pp. 442–47; see also Ursula Orange: 'Shuttlecocks of Genius', *Keats–Shelley Memorial Bulletin*, clixv.
45. See letters of Byron to Hoppner, 10 September and 1 October 1820, in *Byron's Letters and Journals*, vol. 7, pp. 174, 191.
46. Byron to Douglas Kinnaird, 20 January 1817, in *Byron's Letters and Journals*, vol. 5, pp. 160–62.
47. Claire Clairmont to Byron, 6 May 1816, Murray Mss, quoted in Doris Langley Moore, *Lord Byron: Accounts Rendered* (London, 1974), p. 302.
48. The case that the mother was the nurse, Elise, is argued in Ursula Orange, 'Elise, Nursemaid to the Shelleys', *Keats–Shelley Memorial Bulletin*, 1955. Richard Holmes, though Shelley's best biographer, is implausible on this issue, and in fact takes two different views, one in *Shelley: The Pursuit* and another in *Footsteps*.
49. August 1821; quoted in Moore.
50. See Byron's letters to J.B.Webster, 8 September 1818, and to John Cam Hobhouse and Douglas Kinnaird, 19 January 1819, printed in *Byron's Letters and Journals*, vol. vi, pp. 65, 91–92.
51. *Letters*, vol. i, p. 323.
52. Letter to Byron, 14 September 1821, quoted in Moore.
53. Haydon wrote these comments in the margin of his copy of Medwin's *Conversations with Lord Byron* (now at Newstead Abbey, Roe–Byron Collection); quoted in Moore, pp. 301–2.
54. *Letters*, vol. i, p. 423, note 1; Shelley's letters to Hogg, 1 January and 26 April 1815, vol. i, pp. 423, 426; eleven letters of Mary to Hogg survive.
55. Robert Ingpen and W.E.Peck (eds.), *Complete Works of P.B.Shelley* (New York, 1926–30), vol. vii, p. 43.
56. Letter of 10 January 1812, in *Letters*, vol. i, pp. 227 ff.
57. For details of Shelley's financial transactions with Godwin, see Holmes, pp. 223–38, 250, 269–70, 284, 307, 311–21, 346, 379, 407–13, 526.
58. Harriet to Mrs Nugent, 11 December 1814, in *Letters*, vol. i, p. 422, note.
59. Letter of 7 March 1841, in Thomas Pinney (ed.), *Letters of Thomas Babington Macaulay* (6 vols., Cambridge, 1974–81), vol. iii, p. 366.
60. Quoted in Ann Blainey, *Immortal Boy: A Life of Leigh Hunt* (London, 1985), p. 189.
61. *Letters*, vol. i, pp. 366, 379, note.
62. Holmes, p. 161.
63. For Roberts, see *Letters*, vol. i, p. 339, note 1 to Letter 215; for Bedwell, *Letters*, vol. i, p. 362; for the Williamses, *Letters*, vol. i, pp. 360 and note, 386–87; for Evans, *Letters*, vol. i, pp. 332–33, 339.
64. For the booksellers, see Shelley to John Slatter, 16 April 1811; Henry Slatter to Sir Timothy Shelley, 13 August 1831; letter from Shelley, 23 December 1814; *Letters*, vol. i, pp. 438, note 1, 411.
65. *Letters*, vol. i, pp. 362–63.
66. A.M.D.Hughes, *The Nascent Mind of Shelley* (Oxford, 1947), pp. 131 ff.

67. Such as Art Young, see note 4 above.
68. See Scrivenor, *Radical Shelley* (Princeton, 1982), pp. 198–210.
69. See Edward Duffy, *Rousseau in England: The Context for Shelley's Critique of the Enlightenment* (Berkeley, 1979).
70. Claire Clairmont to Edward Trelawney, 30 September 1878, printed in the Carl H. Pforzheimer Library Bulletin iv, pp. 787–88.
71. Shelley to John Gisborne, 18 June 1822, in *Letters*, vol. ii, pp. 434–37.
72. Holmes, p. 728; *Letters*, vol. ii, p. 433.
73. F.L.Jones (ed.), *Maria Gisborne and Edward E. Williams: Their Journals and Letters* (London, 1946), p. 149.
74. Holmes, p. 729; Edward Dowden, *Life of P.B. Shelley* (2 vols., London, 1886), vol. ii, pp. 534 ff.

Chapter Three: Karl Marx: 'Howling Gigantic Curses'

1. Edgar von Westphalen, quoted in Robert Payne, *Marx* (London, 1968), p. 20.
2. See the excellent essay on Marx in Robert S. Wistrich: *Revolutionary Jews From Marx to Trotsky* (London, 1976).
3. Letter to Engels, 11 April 1868, *Karl Marx–Friedrich Engels Werke* (East Berlin, 1956–68), vol. xxxii, p. 58.
4. For Marx's poetry see Payne, pp. 61–71.
5. *Marx–Engels Werke*, vol. iii, pp. 69–71.
6. Payne, pp. 166 ff.
7. Text in Marx–Engels, *Selected Correspondence 1846–95* (New York, 1936), pp. 90–91.
8. *Capital*, Everyman edition (London, 1930), p. 873.
9. T.B.Bottomore (trans. and ed.), *Karl Marx: Early Writings* (London, 1963), pp. 34–37; the essays on the Jews are also in *Karl Marx–Engels Collected Works* (London, 1975 ff), vol. iii, pp. 146–74.
10. The decisive stage in Marx's writings was reached in *A Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Law* (1844), *The Economic and Philosophical Manuscripts of 1844* (first published in 1932), and *The German Ideology* (1845–46).
11. For a valuable discussion of these writings, see Payne, pp. 98 ff.
12. Payne, p. 86.
13. Payne, pp. 134–36.
14. *Marx–Engels Werke*, vol. xxx, p. 259.
15. Karl Jaspers, 'Marx und Freud', *Der Monat*, xxvi (1950).
16. Geoffrey Pilling, *Marx's Capital* (London, 1980), p. 126.
17. Louis Althusser, *For Marx* (trans. London, 1969), pp. 79–80.
18. Printed in *Engels on Capital* (London, 1938), pp. 68–71.
19. *Capital*, pp. 845–46.
20. *Capital*, pp. 230–311.
21. *Capital*, p. 240, note 3.
22. W.O.Henderson & W.H.Challoner (trans. and eds.), *Engels's Condition of the Working Class in England* (Oxford, 1958).
23. Engels to Marx, 19 November 1844, *Marx–Engels Gesamt-Ausgabe* (Moscow, 1927–35), 1 part iii (1929).
24. Henderson & Challoner, Appendix v, from Dr Loudon's *Report on the Operation of the Poor Laws*, 1833, gives characteristic examples of Engels's

methods of misquotation which have the effect of seriously distorting Loudon's meaning.

25. *Nationalökonomie der Gegenwart und Zukunft*, i (Frankfurt, 1848), pp. 155–61, 170–241.
26. For a general analysis of Marx's methods see Leslie R. Page, *Karl Marx and the Critical Examination of his Works* (London, 1987).
27. As reported in seven London newspapers, 17 April 1863.
28. See David F. Felix, *Marx as Politician* (London, 1983), pp. 161–62, 269–70.
29. Ibid., p. 147.
30. For this see Page, pp. 46–49.
31. See also Felix, and Chushichi Tsuzuki: *The Life of Eleanor Marx, 1855–98: A Socialist Tragedy* (London, 1967).
32. Payne, p. 81.
33. Ibid., p. 134.
34. Geinzen's account was published in Boston in 1864; quoted in Payne, p. 155.
35. *Marx–Engels Gesamt–Ausgabe*, vol. vi, pp. 503–5.
36. *Marx–Engels Gesamt–Ausgabe*, vol. vii, p. 239.
37. Payne, p. 475 note.
38. Stephan Lukes, *Marxism and Morality* (Oxford, 1985), pp. 3 ff.
39. Quoted in David McLellan, *Karl Marx: His Life and Thought* (London, 1973), p. 455.
40. Payne, pp. 50 ff.
41. *Marx–Engels, Collected Works*, vol. ii, pp. 330–31.
42. Marx, *On Britain* (Moscow, 1962), p. 373.
43. Payne, pp. 251 ff; Michael Bakunin, *Oeuvres* (Paris, 1908).
44. E.g., *Marx–Engels Gesamt–Ausgabe*, vol. xxxiii, p. 117.
45. *Marx–Engels Gesamt–Ausgabe*, vol. xxxi, p. 305.
46. It appears as a footnote in *Capital*, vol. i, ii, vii Chapter 22.
47. Quoted in Payne, p. 54.
48. *Marx–Engels Gesamt–Ausgabe*, vol. xxvii, p. 227.
49. *Marx–Engels Gesamt–Ausgabe*, vol. xxx, p. 310; Engels's reply is in vol. xxx, p. 312.
50. *Marx–Engels Gesamt–Ausgabe*, vol. xxxi, p. 131.
51. For further information on Marx's finances, see David McLellan, *Karl Marx: Interviews and Recollections* (London, 1981) and his *Karl Marx: The Legacy* (London, 1983); Fritz J. Raddatz, *Karl Marx: A Political Biography* (trans., London, 1979).
52. *Marx–Engels Gesamt–Ausgabe*, vol. xxvii, p. 500.
53. *Marx–Engels Gesamt–Ausgabe*, vol. xxvii, p. 609.
54. Printed in *Archiv für Geschichte des Socialismus* (Berlin, 1922), pp. 56–58; in Payne, pp. 251 ff.
55. *Marx–Engels Gesamt–Ausgabe*, pp. 102–3.
56. *Marx–Engels Gesamt–Ausgabe*, vol. iii, pp. 4, 569.
57. For Marx's family, see H. F. Peters, *Red Jenny: A Life with Karl Marx* (London, 1986); Yvonne Kapp, 'Karl Marx's Children: Family Life 1844–55' in *Karl Marx: 100 Years On* (London, 1983), pp. 273–305, and her *Eleanor Marx* (2 vols., London, 1972).
58. Payne, p. 257.
59. The Soviet authorities, having published a bowdlerized version, have the

surviving manuscript locked up in the Marx–Engels–Lenin Institute in Moscow. Another version, possibly also censored, was published in Leipzig in 1965.

60. For this and other dates in Marx's life, see the chronological survey by Maximilien Rubel in *Marx: Life and Works* (trans., London, 1980); the existence of the illegitimate son was first revealed in W. Blumenberg, *Karl Marx: An Illustrated Biography* (1962, English trans. London, 1972).
61. See Payne, pp. 538–39.

Chapter Four: Henrik Ibsen: 'On the Contrary!'

1. 17 May 1814.
2. See Brian W. Downs, *Ibsen: The Cultural Background* (Cambridge, 1948) and the introduction to John Northam (trans. and ed.), *Ibsen's Poems* (Oslo, 1986).
3. 'Memories of Childhood', written in January 1881, printed in Evert Sprinchorn (ed.), *Ibsen: Letters and Speeches* (London, 1965), pp. 1–6.
4. For the facts of Ibsen's life I have relied mainly on Michael Meyer's biography: *Henrik Ibsen: i. The Making of a Dramatist, 1828–64* (London, 1967); *ii. The Farewell to Poetry, 1864–82* (London, 1971); *iii. The Top of a Cold Mountain, 1886–1906* (London, 1971). However, for the convenience of readers my notes usually refer to the abridged edition, *Henrik Ibsen* (London, 1974).
5. Meyer, p. 197 note.
6. *Rhymed Letter to Fru Heiberg.*
7. Some of George Brandes's views are in 'Henrik Ibsen: Personal Reminiscences and Remarks about his Plays', *Century Magazine*, New York, February 1917.
8. Quoted in Meyer, pp. 775–76.
9. Quoted in Bergliot Ibsen, *The Three Ibsens: Memories of Henrik I, Suzannah I and Sigurd I* (trans., London, 1951), pp. 17–18.
10. Meyer, p. 432; Paulsen's memoirs were published in Copenhagen in 1903.
11. Halvdan Koht, *Life of Ibsen* (2 vols., trans., London, 1931), vol. ii, p. 111.
12. Jaegar's notes about Ibsen were published in 1960; see Meyer, p. 603.
13. Quoted in Meyer, p. 592.
14. Bergliot Ibsen, p. 92.
15. Meyer, pp. 339, 343–44.
16. Hans Heiberg, *Ibsen: A Portrait of the Artist* (trans., London, 1969), p. 177.
17. Meyer, pp. 689–90.
18. Meyer, pp. 575–76.
19. Meyer, p. 805.
20. Meyer, pp. 277–78.
21. Meyer, p. 500.
22. Meyer, p. 258.
23. Letter of 9 December 1867, in Meyer, pp. 287–88.
24. Heiberg, pp. 20–22.
25. For Else see Meyer (3 vols.), vol. i, pp. 47–48.
26. Heiberg, p. 34.
27. The episode is related in Meyer (3 vols.), vol. iii, p. 206.
28. Heiberg, p. 241.
29. Meyer, p. 55.
30. Quoted in Meyer, pp. 304–5.

31. Meyer, pp. 293–94.
32. Printed in *Letters and Speeches*, pp. 315–16.
33. Bergliot Ibsen, pp. 84–85.
34. Quoted in Meyer, pp. 287–88.
35. Quoted in Meyer, p. 332.
36. Preface to *Cataline* (1875 edition).
37. 'Resignation' is included in John Northam's collection.
38. Meyer, p. 659.
39. Janson's diaries were published in 1913.
40. Quoted in Meyer, p. 531.
41. Heiberg, pp. 245–46; see Ibsen's speech to the working men of Trondhjem, 14 June 1885, in *Letters and Speeches*, pp. 248–49.
42. *Letters and Speeches*, pp. 251–56.
43. Meyer, p. 703.
44. *Letters and Speeches*, pp. 337–38.
45. Meyer, pp. 815–16.
46. Meyer, pp. 636 ff.
47. E.A.Zucker, *Ibsen: The Master Builder* (London, 1929).
48. Quoted in Meyer, p. 646.
49. Meyer, pp. 653–54.
50. The letters to Emilie Bardach are in *Letters and Speeches*, pp. 279–98.
51. Meyer, p. 97.
52. Letter to Magdalene Thoresen, 3 December 1865.
53. Meyer, pp. 250–51.
54. Meyer, p. 131.
55. Bergliot Ibsen, pp. 61–62.
56. Bergliot Ibsen, pp. 52, 79, 82 etc.
57. Meyer, pp. 280–81, 295–97.
58. Meyer, p. 581.

Chapter Five: Tolstoy: God's Elder Brother

1. Quoted in George Steiner, *Tolstoy or Dostoievsky* (London, 1960).
2. Diary entries for 12 October, 2–3 November 1853; 7 July 1857; 18 July 1853 in Aylmer Maude (ed.), *The Private Diary of Leo Tolstoy 1853–57* (London, 1927), pp. 79–80, 37, 227, 17.
3. Maxim Gorky, *Reminiscences of Tolstoy, Chekhov and Andreev* (London, 1934), quoted in Steiner, p. 125.
4. 19 January 1898, in *Diary*.
5. Quoted in Henri Troyat, *Tolstoy* (trans., London, 1968), pp. 133–40.
6. Ilya Tolstoy, *Tolstoy, My Father* (trans., London, 1972).
7. Leo Tolstoy, 'Boyhood'.
8. Quoted in Aylmer Maude, *Life of Tolstoy* (London, 1929), p. 69.
9. 3 November 1853, in *Diary*, p. 79.
10. Maude, *Life*, p. 37.
11. Maude, p. 126.
12. Maude, p. 200; Troyat, p. 194.
13. R.F.Christian, Tolstoy: *A Critical Introduction* (Cambridge, 1956).
14. Edward Crankshaw, *Tolstoy: The Making of a Novelist* (London, 1974) is particularly good on Tolstoy's strengths and weaknesses as a writer.

15. Elizabeth Gunn, *A Daring Coiffeur: Reflections on War and Peace and Anna Karenina* (London, 1971).
16. Both passages quoted by Gunn.
17. Quoted in Steiner, p. 229.
18. Quoted in Crankshaw, p. 66.
19. Entries for 25 and 27 July, 1 August 1857, in *Diary*; see also Introduction, p. xxiii.
20. *Diary*, pp. 10, 158.
21. *Diary*, pp. 10–16; Crankshaw, p. 128.
22. Troyat, p. 63.
23. Quoted in Anne Edwards, *Sonya: The Life of Countess Tolstoy* (London, 1981), p. 43.
24. Troyat, p. 212.
25. Quoted in Valentin F. Bulgakov, *The Last Year of Leo Tolstoy* (trans., London, 1971), pp. 145–46.
26. *Diary*, Introduction, p. xxi.
27. Quoted in Ernest J. Simmons, *Leo Tolstoy* (London, 1949), pp. 621–22.
28. Letter to N.N. Strakhov, author of an article, 'The Feminine Question', refuting J.S. Mill. Quoted in Simmons.
29. Crankshaw, pp. 145–52.
30. Edwards, pp. 77–87; Crankshaw, pp. 196–204; Simmons, p. 270.
31. Edwards, p. 267.
32. For a specimen of Tolstoy's holograph mss see photo in Crankshaw, p. 247.
33. Crankshaw, p..198.
34. Quoted in Troyat, pp. 525–26.
35. Leo Tolstoy, *Recollections*.
36. Troyat, p. 141.
37. Quoted in Maude, pp. 250–51.
38. Crankshaw, p. 172.
39. Simmons, p. 400.
40. The death of Levin's brother in *Anna Karenina*; the refusal to attend the funeral in *War and Peace*.
41. Note of 16 December 1890.
42. Quoted in Troyat, p. 133.
43. Troyat, p. 212.
44. Crankshaw, pp. 237–38.
45. Letter to her sister, quoted in Simmons, p. 429.
46. Simmons, p. 738.
47. Quoted in Isaiah Berlin, *The Hedgehog and the Fox: An Essay on Tolstoy's View of History* (London, 1953), p. 6.
48. See the example cited by Berlin: the character of Kutuzov (a real person) in *War and Peace* is gradually transformed in successive drafts from 'the sly, elderly, feeble voluptuary' which he was in historical fact to 'the unforgettable symbol of the Russian people in all its simplicity and intuitive wisdom', which is what Tolstoy needed him to be.
49. Simmons, pp. 317–18.
50. For a shrewd analysis of Tolstoy's Christianity, see Steiner, pp. 260–65.
51. Diary entry of August 1898, quoted in Steiner, p. 259.

52. These *obiter dicta* are taken mainly from George Steiner's Introduction to Bulgakov, and from Bulgakov's text.
53. Simmons, pp. 493 ff.
54. Diary entry of 17 December 1890. Countess Tolstoy's diaries are published as *The Diary of Tolstoy's Wife, 1860–1891* (London, 1928); *The Countess Tolstoy's Later Diaries, 1891–97* (London, 1929); *The Final Struggle: Being Countess Tolstoy's Diary for 1910* (London, 1936).
55. See Bulgakov's own introduction to his *The Last Year of Leo Tolstoy*, esp. pp. xxiii–iv.
56. Bulgakov, p. 162.
57. Bulgakov, pp. 166 ff, 170–71.
58. Bulgakov, p. 197.

Chapter Six: The Deep Waters of Ernest Hemingway

1. See Edward Wagenknecht, *Ralph Waldo Emerson: Portrait of a Balanced Soul* (New York, 1974), Chapter 6, 'Politics', pp. 158–201.
2. *Journals and Miscellaneous Notebooks of Ralph Waldo Emerson* (14 vols., Harvard, 1960–) vol. vii, p. 435.
3. Thomas Wentworth Higginson, *Every Saturday*, 18 April 1868.
4. For this see Joel Porte, *Representative Man: Ralph Waldo Emerson in His Time* (New York, 1979).
5. *Correspondence of Emerson and Carlyle* (New York, 1964), p. 14.
6. Entry for 25 April 1848 in Joel Porte (ed.), *Emerson in his Journals* (Harvard, 1982), p. 385.
7. Henry James, *The Art of Fiction*, pp. 223–24.
8. *Journals and Misc. Notebooks*, vol. viii, pp. 88–89, 242.
9. Ibid., vol. ix, p. 115.
10. Ibid., vol. vii, p. 544.
11. See the illuminating article by Mary Kupiec Cayton, 'The Making of an American Prophet: Emerson, his audience and the rise of the culture industry in nineteenth-century America', *American Historical Review*, June 1987.
12. See Paul Boyer, *Urban Masses and Moral Order in America, 1820–1920* (Harvard, 1978), p. 109.
13. Quoted in Wagenknecht, p. 170; cf. Lewis S. Feuer, 'Ralph Waldo Emerson's Reference to Karl Marx', *New England Quarterly*, xxxiii (1960).
14. For Grace Hemingway, see Max Westbrook, 'Grace under Pressure: Hemingway and the Summer of 1920' in James Nagel (ed.), *Ernest Hemingway: The Writer in Context* (Madison, Wisconsin, 1984), pp. 77 ff; the family is described in Marcelline Hemingway Sandford, *At the Hemingways: A Family Portrait* (Boston, 1961).
15. Madeleine Hemingway Miller, *Ernie* (New York, 1975), p. 92. Kenneth S. Lynn, *Hemingway* (New York, 1987), pp. 19–20, says that these daily religious services were held only when the Hemingways were living with their Grandfather Hall, Grace's father.
16. Lynn, p. 115.
17. Carlos Baker (ed.), *Ernest Hemingway: Selected Letters, 1917–61* (New York, 1981), p. 3.
18. For Hemingway's religion, see Jeffrey Meyers, *Hemingway: A Biography* (London, 1985), pp. 31–32, 178, etc.; Lynn, pp. 70, 249, 312–14, etc.

19. Quoted in Lynn, pp. 117–18.
20. Quoted in Bernice Kert, *The Hemingway Women* (New York, 1983), p. 27.
21. *Selected Letters*, pp. 670, 663.
22. Lynn, p. 233.
23. Lynn, pp. 234 ff; see also B.J. Poli, *Ford Madox Ford and the Transatlantic Review* (Syracuse, 1967), p. 106.
24. Lynn, p. 230.
25. Quoted in Meyers, p. 24.
26. Meyers, p. 94.
27. See *Paris Review*, Spring 1981.
28. Given in Meyers, p. 137.
29. William White (ed.), *By-Line: Ernest Hemingway: Selected Articles and Dispatches of Four Decades* (New York, 1967), p. 219.
30. Quoted in Meyers, pp. 74–75.
31. *New Yorker*, 29 October 1927.
32. Introduction to an anthology, *Men at War* (New York, 1942).
33. Herbert Matthews, *A World in Revolution* (New York, 1971), pp. 24–25.
34. Quoted in Meyers, p. 426.
35. Quoted in Michael S. Reynolds, *Hemingway's Reading 1910–40* (Princeton, 1981), p. 4.
36. For Hemingway's lies, see Meyers, pp. 9, 15–16, 27, etc; Lynn, pp. 74, etc.
37. For this subject, see Michael S. Reynolds, *Hemingway's First War* (Princeton, 1976).
38. Letter to Hadley Hemingway, 31 January 1938, quoted in Lynn, p. 447.
39. John Dos Passos, *Best Times* (New York, 1966), p. 141.
40. *The Green Hills of Africa* (New York, 1935), p. 71.
41. Letter of 9 February 1937, in *Selected Letters*, p. 458; letter to Harry Sylvester, 1 July 1938, quoted in Meyers, p. 303.
42. See Hugh Thomas, *The Spanish Civil War* (London, 1982 edition), p. 706 and note; Lynn, pp. 448–49; *Selected Letters*, p. 463; Meyers, p. 307.
43. 'Fascism is a Lie', *New Masses*, 22 June 1937.
44. The best description of this is in Meyers, Chapter 18, 'Our Man in Havana', pp. 367–88; see also Lynn, pp. 502 ff.
45. Spruille Braden, *Diplomats and Demagogues* (New York, 1971).
46. Meyers, p. 370.
47. Jacqueline Tavernier-Courbin, 'Ernest Hemingway and Ezra Pound', in James Nagel (ed.), *Ernest Hemingway: The Writer in Context*, pp. 179 ff.
48. Letter to Archibald MacLeish, August 1943, quoted in Meyers, p. 514; E. Fuller Tolley, *The Roots of Treason: Ezra Pound and the Secrets of St Elizabeth's* (London, 1984).
49. *A Moveable Feast* (New York, 1964), pp. 208–9.
50. Meyers, pp. 205–6; Ludington Townsend, *John Dos Passos: A Twentieth-Century Odyssey* (New York, 1980).
51. See Lynn, pp. 38–48.
52. Letter to Arthur Mizener, 2 June 1950, in *Selected Letters*, p. 697.
53. Kert, *The Hemingway Women*, p. 170; this work is the primary source of information about all Hemingway's wives and girlfriends.
54. Quoted in Lynn, p. 356.
55. Kert, pp. 296–97.

56. Carlos Baker, *Ernest Hemingway: A Life Story* (New York, 1969), p. 380.
57. Meyers, p. 353.
58. Kert, pp. 391–92.
59. *Selected Letters*, p. 576.
60. Gregory H. Hemingway, *Papa* (Boston, 1976), pp. 91–92.
61. Meyers, p. 416.
62. Quoted in Meyers, p. 394.
63. *Selected Letters*, p. 572; Meyers, p. 530.
64. Letter of Martha Gellhorn to Clara Spieghel, 17 May 1940, quoted in Meyers, p. 353.
65. Lynn, pp. 517, 577; Meyers, p. 426.
66. Gregory Hemingway, p. 109; Meyers, pp. 447 ff; Adriana's side is put in her book of reminiscences, *La Torre Bianca* (Milan, 1980), which she wrote before committing suicide.
67. Kert, p. 476.
68. Mary Welsh Hemingway, *How It Was* (New York, 1976), p. 602.
69. *By-Line*, p. 473.
70. Mary Welsh Hemingway, p. 607.
71. Ibid., pp. 280–81.
72. Kert, pp. 268 ff.
73. Meyers, p. 480; *Selected Letters*, p. 367; Gregory Hemingway, p. 100.
74. Meyers, p. 351.
75. Kathleen Tynan, *The Life of Kenneth Tynan* (London, 1987), pp. 164–66.
76. Letter of 11 November 1920, quoted in Lynn, pp. 127–28.
77. It is printed in Meyers, Appendix I, pp. 573-75.
78. For a full medical analysis see Lynn, pp. 528–31.
79. C. L. Sulzberger, *A Long Row of Candles* (New York, 1969), p. 612.

Chapter Seven: Bertolt Brecht: Heart of Ice

1. Under the *glasnost* policy of Mikhail Gorbachov, more details about Brecht's life are beginning to appear in Communist publications: see Werner Mittenzwei, *The Life of Bertolt Brecht* (2 vols., East Berlin, 1987).
2. The most useful account of Brecht is Ronald Hayman, *Bertolt Brecht: A Biography* (London, 1983), which gives his background, pp. 5 ff. I have also made extensive use of Martin Esslin's brilliant work, *Bertolt Brecht: A Choice of Evils* (London, 1959).
3. Bertolt Brecht: *Gesammelte Gedichte*, p. 76.
4. Quoted by Sergei Tretyakov in 'Bert Brecht', *International Literature*, Moscow, 1937; cf. his poem, 'The Legend of the Dead Soldier'.
5. Esslin, pp. 8–9.
6. Walter Benjamin, *Understanding Brecht* (trans., London, 1973).
7. Esslin, pp. 27–28.
8. Quoted in Esslin, p. 22.
9. Ruth Fischer, *Stalin and German Communism* (Harvard, 1948), p. 615; Esslin, Chapter Seven, 'Brecht and the Communists', pp. 133–76.
10. Quoted by Daniel Johnson, 'Mac the Typewriter', *Daily Telegraph*, 10 February 1988.
11. Lotte H. Eisner, 'Sur le procès de l'Opéra de Quat' Sous', *Europe* (Paris), January–February 1957.

12. Esslin, pp. 42–43.
13. See James K. Lyon, *Bertolt Brecht in America* (Princeton, 1980), passim.
14. For Brecht's part in the Congressional hearings, see Lyon, pp. 326 ff.
15. *Hearings Regarding the Communist Infiltration of the Motion Picture Industry* (Washington DC, 1947) gives the text of the Brecht exchanges, pp. 491–504.
16. Quoted in Esslin, p. 71.
17. Hayman, pp. 337–40.
18. For Nellhaus and Bentley, see Lyon, pp. 152 ff, 205.
19. Esslin, pp. 81–82.
20. Hayman, p. 245.
21. Hayman, p. 225.
22. Quoted in Lyon, p. 209.
23. Hayman, pp. 140–41.
24. Lyon, pp. 238–39.
25. *New York Times*, 2 November 1958; Lyon, p. 300; Humphrey Carpenter, *W.H. Auden* (London, 1981), p. 412.
26. Lyon, pp. 264–65.
27. Esslin, p. 79.
28. Sidney Hook, *Out of Step: An Unquiet Life in the Twentieth Century* (New York, 1987), pp. 492–93.
29. See the *New Leader*, 30 December 1968, 28 April 1969.
30. Hayman, p. 209.
31. Brecht: *Schriften zur Politik und Gesellschaft*, pp. 111 ff.
32. Brecht: *Versuche* xii 147.
33. Quoted in Esslin, p. 162.
34. Quoted by Daniel Johnson, *Daily Telegraph*, 10 February 1988.
35. *Neues Deutschland*, 22 March, 19 October 1951; Esslin, pp. 154 ff.
36. *Tagesanzeiger* (Zurich), 1 September 1956.
37. *Neues Deutschland*, 23 June 1953.
38. See his *Arbeitsjournal* for 20 August 1953.
39. For an excellent treatment of the uprising, see Hayman, Chapter 33, 'Whitewashing', pp. 365–78.
40. *Europe*, January–February 1957.
41. Quoted in Esslin, p. 136.

Chapter Eight: Bertrand Russell: A Case of Logical Fiddlesticks

1. For bibliography see Barry Feinberg and Ronald Kasrils, *Bertrand Russell's America: His Transatlantic Travels and Writing*, vol. i. 1896–1945 (London, 1973).
2. Quoted in Rupert Crawshay-Williams, *Russell Remembered* (Oxford, 1970), p. 151.
3. Crawshay-Williams, p. 122.
4. A photograph of this page from his journal is reproduced in Ronald W. Clark, *Bertrand Russell and his World* (London, 1981), p. 13.
5. Although the draft of *The Principles of Mathematics* was completed on 31 December 1899, the work as a whole was not published till 1930; the first volume of *Principia Mathematica* appeared in 1910, volumes two and three in 1912 and 1913.
6. *The Philosophy of Leibnitz* (London, 1900).

7. Anthony Quinton, 'Bertrand Russell', *Dictionary of National Biography, 1961–70* (Oxford, 1981), p. 905.
8. Norman Malcolm, *Philosophical Review*, January 1950.
9. See G. H. Hardy, *Bertrand Russell and Trinity* (Cambridge, 1970).
10. For the details see Hardy.
11. Feinberg and Kasrils, pp. 60–61.
12. Crawshay-Williams, p. 143.
13. John Dewy and Horace M. Kallen (eds.), *The Bertrand Russell Case* (New York, 1941).
14. Bertrand Russell, *The Autobiography of Bertrand Russell* (3 vols., London 1969), vol. iii, pp. 117–18.
15. Crawshay-Williams, p. 41.
16. *Autobiography*, vol. ii, p. 17.
17. 'Russian Journal', entry for May 19 1920; Russell Archives, McMaster University, Hamilton, Ontario; quoted in Ronald W. Clark, *The Life of Bertrand Russell* (London, 1975), pp. 378 ff.
18. *International Journal of Ethics*, January 1915.
19. *Autobiography*, vol. i, p. 126.
20. *Atlantic Monthly*, March 1915.
21. *Autobiography*, vol. ii, p. 17.
22. Quoted in Feinberg and Kasrils, vol. i, p. 73.
23. Russell's views are presented in detail in Clark, Chapter 19, 'Towards a Short War with Russia?', pp. 517–30.
24. Letter to Gamel Brenan, 1 September 1945, quoted in Clark, p. 520.
25. 5 May 1948, Russell Archives; quoted in Clark, pp. 523–24.
26. *Nineteenth Century and After*, January 1949.
27. *World Horizon*, March 1950.
28. Quoted in Sidney Hook, *Out of Step: An Unquiet Life in the Twentieth Century* (New York, 1987), p. 364.
29. See the *Nation*, 17 and 29 October 1953.
30. Crawshay-Williams, p. 29.
31. The exchange was printed in the *Listener*, 19 March 1959.
32. *Listener*, 28 May 1959.
33. *Autobiography*, vol. iii, pp. 17–18.
34. Reprinted in Edward Hyams (ed.), *New Statesmanship: An Anthology* (London, 1963), pp. 245–49.
35. For the circumstances of the Russell–Krushchev–Dulles correspondence, see Edward Hyams, *The New Statesman: The History of the First Fifty Years, 1913–63* (London, 1963), pp. 288–92.
36. Crawshay-Williams, pp. 106–9.
37. The Collins version is given in L. John Collins, *Faith Under Fire* (London, 1966); the Russell version in Ralph Schoenman (ed.), *Bertrand Russell: Philosopher of the Century* (London, 1967). See also Clark, pp. 574 ff; Christopher Driver, *The Disarmers: A Study in Protest* (London, 1964).
38. Bertrand Russell, 'Voltaire's Influence on Me', *Studies on Voltaire*, vi (Musée Voltaire, Geneva, 1958).
39. Quoted in Clark, pp. 586 ff.
40. Quoted in Crawshay-Williams.
41. Crawshay-Williams, pp. 22–23.
42. *Autobiography*, vol. i, p. 16.

43. Feinberg and Kasrils, vol. i, p. 22.
44. Russell, *The Practice and Theory of Bolshevism* (London, 1920).
45. *Daily Herald*, 16 December 1921; *New Republic*, 15 and 22 March 1922; *Prospects of Industrial Civilization* (London, 1923).
46. Crawshay-Williams, p. 58.
47. Clark, pp. 627–28.
48. *Autobiography*, vol. i, p. 63.
49. *Manchester Guardian*, 31 October 1951.
50. Quoted in Clark, p. 592. Clark thinks this particular assertion was Schoenman's work, Russell having originally written 'Mankind is faced tonight by a grave crisis.' But the expression sounds to me very like Russell in his more extreme mood.
51. Quoted in *Time*, 16 February 1970.
52. Crawshay-Williams, pp. 17; ibid., 23; Feinberg and Kasrils, p. 118; letter to Miss R. G. Brooks, 5 May 1930; *Manners and Morals* (London, 1929).
53. 'Companionate Marriage', lecture in New York City, 3 December 1927, quoted in Feinberg and Kasrils, p. 106.
54. *Autobiography*, vol. i, pp. 203–4.
55. Quoted in Clark, p. 302.
56. Letter of 29 September 1918 (in Russell Archives), quoted in Clark.
57. *Autobiography*, vol. i, p. 206.
58. *Autobiography*, vol. ii, p. 26.
59. Dora to Rachel Brooks, 12 May 1922, Russell Archives, quoted in Clark, p. 397.
60. Dora Russell, *The Tamarisk Tree: My Quest for Liberty and Love* (London, 1975), p. 54.
61. Entry of 16 February 1922 in Margaret Cole (ed.), *Beatrice Webb's Diary 1912–1924* (London, 1952); Dora Russell, p. 53.
62. *New York Times*, 30 September 1927.
63. *Autobiography*, vol. ii, p. 192.
64. Dora Russell, p. 198.
65. Dora Russell, pp. 243–45.
66. Dora Russell, p. 279.
67. Quoted in Clark, p. 446.
68. Dora Russell, p. 286.
69. *Autobiography*, vol. iii, p. 16.
70. Letter of 11 October 1911, quoted in Clark, p. 142.
71. Hook, p. 208.
72. Peter Ackroyd, *T. S. Eliot* (London, 1984), pp. 66–67, 84; Robert H. Bell, 'Bertrand Russell and the Eliots', *The American Scholar*, Summer 1983.
73. Hook, p. 363.
74. Quoted in *Time*, 16 February 1970.
75. Dora Russell, p. 291.
76. *Autobiography*, vol. ii, p. 190.
77. Ralph Schoenman, 'Bertrand Russell and the Peace Movement', in George Nakhnikian (ed.), *Bertrand Russell's Philosophy* (London, 1974).
78. Hook, p. 307.
79. Clark, p. 584.
80. Quoted in Clark, p. 612.

81. The statement, published in the *New Statesman* after Russell's death, is given as an appendix in Clark, pp. 640–51.
82. *Autobiography*, vol. ii, p. 19.
83. Crawshay-Williams, pp. 127–28.
84. Clark, p. 610.
85. Clark, pp. 620–22.
86. *Autobiography*, vol. iii, pp. 159–60.
87. Hardy, p. 47.
88. *Autobiography*, vol. ii, p. 34.
89. Crawshay-Williams, p. 41.

Chapter Nine: Jean-Paul Sartre: 'A Little Ball of Fur and Ink'

1. Annie Cohen-Solal, *Sartre: A Life* (trans., London, 1987), p. 113.
2. Sartre, *Words* (trans., London, 1964), pp. 16–17.
3. *Words*, pp. 21–23.
4. *Words*, p. 73.
5. Quoted in Cohen-Solal, p. 40.
6. Sartre, *War Diaries: Notebook for a Phoney War, November 1939–March 1940* (trans., London, 1984), p. 281.
7. Cohen-Solal, p. 67.
8. Cohen-Solal, pp. 79–80.
9. 1945 article, reprinted in *Situations* (London, 1965).
10. Ernst Jünger, *Premier journal parisien 1941–43* (Paris, 1980).
11. Simone de Beauvoir, *The Prime of Life* (trans., London, 1962), p. 384. The Malraux quote is from Herbert Lottman, *Camus* (London, 1981 edition), p. 705.
12. Cohen-Solal, pp. 166–69. The text has disappeared.
13. Quotations from interviews in Cohen-Solal, pp. 176 ff.
14. De Beauvoir, *The Prime of Life*, p. 419.
15. *Lettres au Castor et à quelques autres* (2 vols., Paris, 1983).
16. *L'Être et le néant* (Paris, 1943); *Being and Nothingness* (trans., London, 1956, 1966).
17. Guillaume Ganotaux, *L'Age d'or de St-Germain-des-Prés* (Paris, 1965).
18. Sartre, *L'Existentialisme est un humanisme* (Paris, 1946); *Existentialism and Humanism* (London, 1973).
19. *Les Temps modernes*, 1 September 1945.
20. See Cohen-Solal, pp. 252–53. For the Picasso episode see Jacques Dumaine, *Quai d'Orsay 1945–51* (trans., London, 1958), p. 13.
21. *Samedi Soir*, 3 November 1945.
22. Christine Cronan, *Petit Catechisme de l'existentialisme pour les profanes* (Paris, 1946).
23. Herbert Lottman, 'Splendours and Miseries of the Literary Café', *Saturday Review*, 13 March 1965; and his 'After Bloomsbury and Greenwich Village, St-Germain-des-Prés', *New York Times Book Review*, 4 June 1967.
24. For a list of them see Cohen-Solal, pp. 279–80.
25. Lottman, *Camus*, p. 369.
26. Claude Francis and Fernande Gontier, *Simone de Beauvoir* (trans., London, 1987), pp. xiv, 6, 25 ff.
27. Ibid., p. 25.

28. Cohen-Solal, pp. 74–75.
29. Translated as *The Second Sex* (London, 1953).
30. Quoted in Cohen-Solal, p. 76.
31. *War Diaries*, pp. 281–82.
32. *War Diaries*, p. 325; Francis and Gontier, pp. 98–100.
33. Francis and Gontier, p. 1, note.
34. *War Diaries*, p. 183.
35. Quoted in Francis and Gontier, pp. 236–37.
36. *Lettres au Castor*, vol. i, pp. 214–15.
37. *L'Invitée* (Paris, 1943); *She Came to Stay* (Cleveland, 1954).
38. De Beauvoir, *The Prime of Life*, pp. 205, 193.
39. Quoted in Cohen-Solal, p. 213.
40. Francis and Gontier, pp. 197–200.
41. John Weightman in the *New York Review of Books*, 13 August 1987.
42. Francis and Gontier, p. xiii.
43. Cohen-Solal, pp. 373 ff.
44. Cohen-Solal, p. 466.
45. Simone de Beauvoir: *La Force des choses* (Paris, 1963); Lottman, *Camus*, p. 404.
46. *Les Temps modernes*, August 1952. For the quarrels see Lottman, *Camus*, Chapter 37, pp. 495 ff. Sartre's attack is reprinted in *Situations*, pp. 72–112.
47. Jean Kanapa: *L'Existentialisme n'est pas un humanisme* (Paris, 1947), p. 61.
48. Quoted in Cohen-Solal, p. 303.
49. *Le Figaro*, 25 April 1949.
50. *Saint Genet, Comedien et Martyr* (Paris, 1952); trans., New York, 1963, 1983.
51. Sartre wrote a little book about the first, *L'Affaire Henri Martin* (Paris, 1953).
52. *Libération*, 16 October 1952.
53. Quoted in Walter Laqueur and G. L. Mosse, *Literature and Politics in the Twentieth Century* (New York, 1967), p. 25.
54. *Les Lettres francaises*, 1–8 January 1953; *Le Monde*, 25 September 1954.
55. *Libération*, 15–20 July 1954.
56. *Situations X* (Paris, 1976), p. 220.
57. Report in *Paris-Jour*, 2 October 1960.
58. 'Madame Gulliver en Amerique' in Mary McCarthy, *On the Contrary* (New York, 1962), pp. 24–31.
59. Interview in *France-Observateur*, 1 February 1962.
60. David Caute, *Sixty-Eight: The Year of the Barricades* (London, 1988), pp. 95–96, 204.
61. Cohen-Solal, pp. 459–60; Francis and Gontier, pp. 327 ff.
62. *Nouvel-Observateur*, 19 and 26 June 1968.
63. Cohen-Solal, p. 463.
64. *L'Aurore*, 22 October 1970.
65. Letter to de Beauvoir, 20 March 1940.
66. Unpublished mss, 1954, now in the Bibliothèque nationale, quoted in Cohen-Solal, pp. 356–57.
67. James Boswell, *Life of Dr Johnson*, Everyman Edition (London, 1906), vol. ii, p. 326.
68. John Huston, *An Open Book* (London, 1981), pp. 295.
69. Cohen-Solal, pp. 388–89.
70. Francis and Gontier, pp. 173–74.

71. *War Diaries*, pp. 297–98.
72. Jean Cau, *Croquis de Memoire* (Paris, 1985).
73. Mary Welsh Hemingway, *How It Was* (New York, 1976), pp. 280–81.
74. Cohen-Solal, p. 377.
75. For example, three issues of *Nouvel-Observateur*, March 1980, on the eve of Sartre's death.

Chapter Ten: Edmund Wilson: A Brand from the Burning

1. See Leon Edel (ed.), *Edmund Wilson: The Twenties* (New York, 1975), Introduction.
2. Ella Winter and Granville Hicks (eds.), *The Letters of Lincoln Steffens* (2 vols., New York, 1938), vol. ii, pp. 829–30.
3. Don Congdon (ed.), *The Thirties: A Time to Remember* (New York, 1962), pp. 24, 28–29.
4. Lionel Trilling, *The Last Decade: Essays and Reviews 1965–75* (New York, 1979), pp. 15–16.
5. Trilling, p. 24.
6. Article reprinted in *The Shores of Light* (New York, 1952), pp. 518–33.
7. Leon Edel (ed.), *Edmund Wilson: The Thirties* (New York, 1980), p. 206.
8. Ibid., pp. 208–13.
9. Ibid., p. 81.
10. Ibid., pp. 678–79.
11. Ibid., pp. 57, 64, 118, 120, 121–22, 135.
12. Ibid., pp. 160–86; letter to Dos Passos, 29 February 1932.
13. Ibid., pp. 378 ff.
14. Mary McCarthy's background and childhood is described in Doris Grumbach, *The Company She Keeps* (London, 1967).
15. Her essay 'The Vassar Girl', reprinted in Mary McCarthy, *On the Contrary* (London, 1962), pp. 193–214, is a brilliant evocation of the Vassar spirit.
16. Reprinted in *Cast a Cold Eye* (New York, 1950).
17. Lionel Abel, 'New York City: A Remembrance', *Dissent*, viii (1961).
18. Printed in *Rebel Poet*, and quoted in Terry A. Cooney, *The Rise of the New York Intellectuals: Partisan Review and Its Circle* (Wisconsin, 1986), p. 41.
19. *Partisan Review*, xii (1934).
20. In *New Masses*, August 1932.
21. For Rahv's various political positions, see A.J.Porter and A.J.Dovosin (eds.), *Philip Rahv: Essays on Literature and Politics, 1932–78* (Boston, 1978).
22. Quoted in Cooney, pp. 99–100.
23. Quoted in Cooney, p. 117.
24. See 'The Death of Gandhi' and 'My Confession', in McCarthy, pp. 20–23, 75–105.
25. Title of article by Harold Rosenberg, *Commentary*, September 1948.
26. See *New York Times Book Review*, 17 February 1974.
27. Norman Podhoretz, *Breaking Ranks: A Political Memoir* (New York, 1979), p. 270.
28. Leon Edel (ed.), *Edmund Wilson: The Fifties; from Notebooks and Diaries of the Period* (New York, 1986), pp. 372 ff (esp. entry of 9 August 1956).
29. *Edmund Wilson: The Twenties*, pp. 64–65.
30. Ibid., pp. 15–16.

31. *Edmund Wilson: The Thirties*, p. 593.
32. Ibid., pp. 6, 241 ff, 250 ff, etc.
33. Ibid., pp. 296–97, 523; Leon Edel (ed.), *Edmund Wilson: The Forties* (New York, 1983), pp. 108–9.
34. *Edmund Wilson: The Fifties*, pp. 582, 397, 140.
35. For example, Chapter 13 of Mary McCarthy, *The Group* (New York, 1963).
36. Quoted in Grumbach, pp. 117–18.
37. *Edmund Wilson: The Forties*, p. 269.
38. Reprinted in Lewis M. Dabney (ed.), *The Portable Edmund Wilson* (London, 1983), pp. 20–45.
39. *Edmund Wilson: The Forties*, pp. 80–157 and passim.
40. *Edmund Wilson: The Fifties*, pp. 101, 135–38, 117.
41. Isaiah Berlin's account of Wilson's 1954 visit, published in the *New York Times*.
42. *The Twenties*, p. 149; *The Thirties*, pp. 301–3; *The Fifties*, pp. 452 ff, 604, etc.; Berlin memoir.
43. Edmund Wilson, *The Cold War and the Income Tax: A Protest* (New York, 1963), p. 7.
44. Ibid., p. 4.
45. *The Portable Edmund Wilson*, p. 72.

Chapter Eleven: The Troubled Conscience of Victor Gollancz

1. Ruth Dudley Edwards, *Victor Gollancz: A Biography* (London, 1987).
2. For the Gollancz brothers see *Dictionary of National Biography, Supplementary Volume 1922–30* (Oxford, 1953), pp. 350–52.
3. Edwards, p. 48.
4. Quoted in Edwards, p. 102.
5. Quoted in Edwards, p. 144.
6. Douglas Jerrold, *Georgian Adventure* (London, 1937).
7. For the firm see Sheila Hodges, *Gollancz: The Story of a Publishing House* (London, 1978).
8. Edwards, pp. 171–72, 175.
9. Edwards, p. 180.
10. Quoted in Edwards, p. 235.
11. Edwards, p. 382.
12. Quoted in Edwards, p. 250.
13. Quoted in Edwards, p. 208.
14. Sidney and Beatrice Webb, *Soviet Communism: A New Civilization* (2 vols., London, 1935).
15. Letter to Stephen Spender, February 1936.
16. Cole's books were published in 1932 and 1934; Strachey's in 1932.
17. Quoted in Edwards, p. 211.
18. November 1932; quoted in Edwards, p. 211.
19. Edwards, pp. 251, 247; Miller's censored book was called *I Found No Peace*.
20. For the LBC see John Lewis, *The Left Book Club* (London, 1970).
21. See Hugh Thomas, *John Strachey* (London, 1973).
22. See Kingsley Martin, *Harold Laski* (London, 1953).
23. *Daily Worker*, 8 May 1937.
24. *Moscow Daily News*, 11 May 1937.

25. Letter to J.B.S.Haldane, May 1938, quoted in Edwards, p. 257.
26. Edwards, p. 251.
27. Edwards, p. 250.
28. George Orwell, *Collected Essays, Journalism and Letters* (4 vols., Harmondsworth, 1970), vol. i *1920–40*, p. 334 note.
29. Kingsley Martin, *Editor: A Volume of Autobiography 1931–45* (London, 1968), p. 217; for Muenzenberg see Arthur Koestler, *The Invisible Writing* (London, 1954).
30. Claud Cockburn, *I Claud: An Autobiography* (Harmondsworth, 1967), pp. 190–95.
31. Martin pp. 215 ff; C.H.Rolph, *Kingsley: The Life, Letters and Diaries of Kingsley Martin*, (London, 1973), pp. 225 ff; Orwell, vol. i, pp. 333–36.
32. Edwards, pp. 246–48.
33. Orwell, vol. i, p. 529.
34. Edwards, p. 313.
35. Edwards, p. 387.
36. Quoted in Edwards, p. 269.
37. Edwards, p. 408.
38. *Dictionary of National Biography, Supplementary Volume, 1961–70* (Oxford, 1981), p. 439.

Chapter Twelve: Lies, Damned Lies and Lillian Hellman

1. William Wright, *Lillian Hellman: The Image, the Woman* (London, 1987), pp. 16–18.
2. Wright, pp. 22–23, 327.
3. The autobiography is in three parts: *An Unfinished Woman* (Boston, 1969); *Pentimento* (Boston, 1973); *Scoundrel Time* (Boston, 1976).
4. Wright, p. 51.
5. There are two biographies of Hammett: Richard Layman, *Shadow Man: The Life of Dashiell Hammett* (New York, 1981), and Diane Johnson, *The Life of Dashiell Hammett* (London, 1984).
6. Johnson, pp. 119 ff.
7. Johnson, pp. 129–30.
8. Johnson, pp. 170–71.
9. Wright, p. 285.
10. Wright, p. 102.
11. See Mark W. Estrin, *Lillian Hellman: Plays, Films, Memoirs* (Boston, 1980); Bernard Dick, *Hellman in Hollywood* (Palo Alto, 1981).
12. Quoted in Wright, p. 326.
13. Quoted in Wright, p. 295.
14. See Harvey Klehr, *The Heyday of American Communism* (New York, 1984).
15. Wright, pp. 129, 251 ff, 361–62.
16. Wright, p. 161.
17. Wright, pp. 219–20.
18. *New York Times*, 2 March 1945.
19. Wright has a full account of all this, pp. 244–56.
20. Johnson, pp. 287–89.
21. Wright, p. 318.

22. *Commentary*, June 1976; *Encounter*, February 1977; *Esquire*, August 1977; *Dissent*, Autumn 1976.
23. Wright, p. 395.
24. See Wright, pp. 295–98, 412–13.

Chapter Thirteen: The Flight of Reason

1. Quoted in David Pryce-Jones, *Cyril Connolly: Diaries and Memoir* (London, 1983), p. 292.
2. Orwell's essay, 'Such, Such Were the Joys' was first published in *Partisan Review*, September–October 1952; reprinted in George Orwell, *Collected Essays, Journalism and Letters* (4 vols., Harmondsworth, 1978 edition), vol. iv, pp. 379–422. Connolly's account is in *Enemies of Promise* (London, 1938).
3. Gow made this charge in a letter to the *Sunday Times* in 1967; quoted in Pryce-Jones.
4. Both republished in Orwell, *Collected Essays.*
5. Orwell, *Collected Essays*, vol. i, p. 106.
6. Orwell, *The Road to Wigan Pier* (London, 1937), p. 149.
7. Orwell, *Homage to Catalonia* (London, 1938), p. 102.
8. Quoted in Pryce-Jones, p. 282.
9. Orwell, *Collected Essays*, vol. i, p. 269.
10. Orwell, *Collected Essays*, vol. iv, p. 503.
11. Mary McCarthy, *The Writing on the Wall and other Literary Essays* (London, 1970), pp. 153–71.
12. Orwell, *Collected Essays*, (1970 edition), vol. iv, pp. 248–49.
13. Michael Davie (ed.), *The Diaries of Evelyn Waugh* (London, 1976), p. 633.
14. Mark Amory (ed.), *The Letters of Evelyn Waugh* (London, 1980), p. 302.
15. Evelyn Waugh, Introduction to T. A. MacInerny, *The Private Man* (New York, 1962).
16. Pre-election symposium, *Spectator*, 2 October 1959.
17. Evelyn Waugh, review of *Enemies of Promise, Tablet*, 3 December 1938; reprinted in Donat Gallagher (ed.), *Evelyn Waugh: A Little Order: A Selection from his Journalism* (London, 1977), pp. 125–27.
18. These marginal notes are analysed in Alan Bell's article, 'Waugh Drops the Pilot', *Spectator*, 7 March 1987.
19. *Tablet*, 3 December 1939.
20. 'The Joker in the Pack', *New Statesman*, 13 March 1954.
21. Quoted in Pryce-Jones, p. 29.
22. Quoted in Pryce-Jones, p. 40.
23. Pryce-Jones, pp. 131, 133, 246.
24. Cyril Connolly, 'Some Memories', in Stephen Spender (ed.), *W.H.Auden: A Tribute* (London, 1975), p. 70.
25. 'London Diary', *New Statesman*, 16 January 1937.
26. 'London Diary', *New Statesman*, 6 March 1937.
27. 1943 broadcast as part of Orwell's *Talking to India* series; quoted in Pryce-Jones.
28. 'Comment', *Horizon*, June 1946.
29. *Tablet*, 27 July 1946; reprinted in Gallagher, pp. 127–31.
30. This is the version (there are others) given by John Lehmann in the *Dictionary of National Biography, 1971–80* (Oxford, 1986), pp. 170–71

31. *New Statesman*, 13 March 1954.
32. Leon Edel (ed.), *Edmund Wilson: The Fifties* (New York, 1986), pp. 372 ff.
33. Barbara Skelton, *Tears Before Bedtime* (London, 1987), pp. 95–96, 114–15.
34. In 1971 interview, quoted in Paul Hollander: *Political Pilgrims: Travels of Western Intellectuals to the Soviet Union, China and Cuba, 1928–78* (Oxford, 1981); see also Maurice Cranston, 'Sartre and Violence', *Encounter*, July 1967.
35. Michael S. Steinberg, *Sabres and Brownshirts: The German Students' Path to National Socialism 1918–35* (Chicago, 1977).
36. Humphrey Carpenter, *W.H. Auden* (London, 1981), pp. 217–19.
37. Edward Hyams, *The New Statesman: The History of the First Fifty Years, 1913-63* (London, 1963), pp. 282–84.
38. For the facts of Mailer's background and career, see Hilary Mills, *Mailer: A Biography* (New York, 1982).
39. *Atlantic Monthly*, July 1971.
40. Mills, pp. 109–10.
41. Norman Podhoretz, *Doings and Undoings* (New York, 1959), p. 157.
42. The whole business of the stabbing is fully described in Mill, Chapter X, pp. 215 ff.
43. Mailer's speech is reprinted in his *Cannibals and Christians* (*Collected Pieces*, New York, 1966), pp. 84–90.
44. Jack Newfield in the *Village Voice*, 30 May 1968; quoted in Mills.
45. Mills, pp. 418–19.
46. Kathleen Tynan, *The Life of Kenneth Tynan* (London, 1987).
47. Tynan, pp. 46–47.
48. See Ronald Bryden, *London Review of Books*, 10 December 1987.
49. *Declaration* (London, 1957).
50. For Agate's (censored) account of their relationship, see his *Ego 8* (London, 1947), pp. 172 ff.
51. Tynan, p. 32.
52. Quoted in Tynan, p. 76.
53. Tynan, p. 212.
54. Tynan, pp. 327, 333.
55. Tynan, p. 333.
56. Shakespeare, *Sonnets*, 129.
57. For an account of Fassbinder's rise and many other curious details see Robert Katz and Peter Berling, *Love is Colder than Death: The Life and Times of Rainer Werner Fassbinder* (London, 1987).
58. Katz and Berling, Introduction, p. xiv.
59. Katz and Berling, p. 19.
60. Katz and Berling, pp. 33–34, 125.
61. Quoted in Katz and Berling, p. 5.
62. Fern Marja Eckman, *The Furious Passage of James Baldwin* (London, 1968); see also obituaries in *New York Times*, *Washington Post*, *Guardian*, *Daily Telegraph* and Bryant Rollings, *Boston Globe*, 14–21 April 1963.
63. Quoted in Eckman, pp. 63–64.
64. 'The Harlem Ghetto', *Commentary*, February 1948.
65. See, for instance, those in his collection *Notes of a Native Son* (New York, 1963).

66. Norman Podhoret, *Breaking Ranks: A Political Memoir* (New York, 1979), pp. 121 ff.
67. See 'Alas, Poor Richard!' in Baldwin's collection *Nobody Knows My Name* (New York, 1961).
68. See Baldwin's autobiographical novel, *Go Tell It on the Mountain* (London, 1954), 'East River, Downtown' in *Nobody Knows My Name*, and his essay in John Handrik Clark (ed.), *Harlem: A Community in Transition* (New York, 1964).
69. Quoted in Eckman, p. 65.
70. 'Fifth Avenue Uptown: A Letter from Harlem', *Esquire*, June 1960.
71. Eckman, p. 163.
72. 'Letter from a Region of My Mind', *New Yorker*, 17 November 1962.
73. Bertrand Russell, *Human Knowledge: Its Scope and Limits* (London, 1948).
74. See S. P. Stitch (ed.), *Innate Ideas* (California, 1975).
75. See Chomsky's *Cartesian Linguistics* (New York, 1966) and his *Reflections on Language* (London, 1976). For an illuminating analysis of Chomsky's theories of language and knowledge, and the political conclusions he draws from them, see Geoffrey Sampson, *Liberty and Language* (Oxford, 1979).
76. Noam Chomsky, *Problems of Knowledge and Freedom: The Russell Lectures* (London, 1972).
77. Noam Chomsky, *For Reasons of State* (New York, 1973), p. 184.
78. Noam Chomsky, *American Power and the New Mandarins* (New York, 1969), pp. 47–49.
79. Chomsky's contribution to the Pol Pot controversy is scattered in many places, often in obscure magazines. See his collection *Towards a New Cold War* (New York, 1982), pp. 183, 213, 382 note 73, etc. See also Elizabeth Becker, *When the War Was Over* (New York, 1987).

المحتويات

صدر في هذه السلسلة

مدخل إلى الأدب العجائبي / تزفيتن تودوروف

الوضع ما بعد الحداثي / چان - فرانسوا ليوتار

مجتمع الفرجة / جي ديبور

تاريخ القرصنة البحرية / ياتسيك ماخوفسكي

الاغتراب / ريتشارد شاخت

حدود حرية التعبير / مارينا ستاج

أزمة منتصف العمر / إيدا لوشان

القصة ، الرواية ، المؤلف: دراسات في نظرية الأنواع

الأدبية المعاصرة / ترجمة: د. خيري دومة

كبش الفداء / رينيه چيرار

نشوء الرواية / إيان واط

الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في مصر الشام / ز . ا. ليڤين

